بحوث
في الأساطير الشّعبيّة التّونسيّة



تأليف :
صالح بن حمّادي

تونس 2007

بحوث
في الأساطير الشّعبيّة التّونسيّة

تأليف:

صالح بن حمّادي

تونس 2007

الفصل الأول

الأساطير هي أخبار تاريخيّة قديمة

كانت المجتمعات الإنسانيّة إلى عهد قريب جدّا تحكى في بعض المناسبات نوعا من القصص يسمى باسم الأساطير والخرافات في سياق اللغة العربيّة ويحمل داخل اللغات الإنسانيّة الأخرى أسماء متعدّدة ومختلفة وهي قصص قديمة تناقلتها الأجيال المتعاقبة من الناس بشتّى وسائل التّبليغ الشفاهيّة والكتابيّة والحركيّة وتروي هذه الأساطير والخرافات جملة من الوقائع والأحداث التي حصلت في قديم الزّمان وكانت السبب في مصير ومآل الأوضاع البشريّة والطبيعيّة والأشياء عموما إلى الحالة التي هي عليها.

فنحن نعتبر أنّ هذه الأساطير والخرافات التي تعوّد الناس في مختلف بلدان العالم قصّها وحكايتها في بعض المناسبات هي أخبار تاريخية قديمة تنقل وتروي بعض الأحداث والوقائع الحقيقية التي حصلت في قديم الزمان لبعض الجماعات والأقوام من البشر فوق بعض بقاع الأرض.

ومع أنّ عادة قصّ الأساطير والخرافات هي سمة بشريّة قديمة فإنّها مازالت سارية إلى اليوم في بعض الأوساط وبعض المناسبات كما أنّ المختصّين والعلماء والباحثين من كلّ البلدان قاموا منذ أقدم العصور بجمع هذه الأساطير

والخرافات وتدوينها في الكتب والمصنّفات موفّرين بذلك مادّة غزيرةً لكل من يريد مطالعتها ودراستها.

فقد استرعت الأساطير والخرافات منذ القديم اهتمام العلماء لأنّ المجتمعات الإنسانيّة كانت تحكي الأساطير والخرافات في بعض المناسبات وكانت تعتقد بأنّ هذه الأساطير والخرافات هي قصصٌ واقعيّة وأنّ الأحداث التي تنقلها حصلت بالفعل في قديم الزمان مع أنّها تبدو غريبة ومنافية للعقل والحسّ والواقع.

وسعيًا إلى التوفيق بين إعتقاد الشعوب الإنسانيّة في أنّ الأساطير هي قصص واقعيّة ومضمونها المنافي للعقل والحسّ في الظّاهر. اجتهد العلماء والمختصّون منذ أقدم العصور في البحث عن المعنى الحقيقي للأساطير والخرافات واقترحوا في هذا المجال شروحا وآراء تقوم على التأويل والظنّ والتخمين وتقف عند ظاهر الأمور لأنّها تعتبر أنّ الأساطير والخرافات هي قصص خيالية وضعها الإنسان لشتّى الأغراض في حين أنّ الشّعوب الإنسانية تؤكّد أنّ الأساطير التي ترويها هي قصص واقعيّة وتنقل أحداثا ووقائع حصلت بالفعل في قديم الزّمان.

لكنّ الإعتقاد الشعبي في صحّة الأساطير إتّخذ في الكثير من الحالات شكل اعتقادات مجرّدة في عوالم وكائنات غيبيّة قائمة الذّات تؤثّر في الإنسان وتتأثّر به كالإعتقاد في الآلهة واعتبارهم قوى غيبيّة من جوهر روحاني خالص دائمة الوجود والتأثير في الكون والإنسان.

فقد وجدنا أنّ الأساطير والخرافات الشعبيّة هي قصص واقعيّة وأخبار تاريخيّة قديمة تنقل وتروي بعض الأحداث والوقائع الحقيقيّة التي حصلت في قديم الزّمان لبعض الجماعات من البشر فوق بعض بقاع الأرض ووجدنا أنّ

عالم الغيب هو صورة مجرّدة للماضي الإنساني السّحيق وللأوضاع البشرية في العهود الأولى من التّاريخ الإنساني.

وكان سكان البلاد التونسيّة يحكون إلى عهد قريب جدّا مثل سائر شعوب العالم مجموعة من الأساطير والخرافات قمنا بجمع قسم منها في كتب سابقة مع شروح ضافية تبرز بجلاء أنّ الأساطير والخرافات الشعبيّة هي قصص واقعيّة وأخبار تاريخيّة تنقل وتروي بعض الأحداث والوقائع الحقيقية التي حصلت في قديم الزمان لبعض الأقوام من البشر فوق بعض بقاع الأرض.(1)

وتواصلت دراستنا للموضوع فاكتشفنا أبعادا ومعاني جديدة للأساطير والمعتقدات الشعبيّة تؤكّد أنّ الأساطير هي أخبار تاريخيّة قديمة بقدر ما تبرز خطأ النظريّات والآراء التأويليّة التي وضعها العلماء لتفسير الأساطير والخرافات الشعبيّة كما أنّها تسمح بتصحيح التصوّرات السارية ذات الصبغة الدّينية والعقائديّة التي جرّدت الأحداث المنقولة في الأساطير والخرافات الشعبيّة من محتواها الأصلّي وحوّلتها إلى اعتقادات مجرّدة في عوالم وكائنات غيبيّة قائمة الذات بينما هي أحداث ووقائع تاريخيّة حصلت قديما لبعض الجماعات من البشر فوق بعض بقاع الأرض.

وتكتسي الآراء التي قدّمها العلماء لشرح المعنى الحقيقي للأساطير خطورة كبيرة وتناقضا واضحا لأنّها سعت إلى تبرير إمكانية إعتقاد الإنسان في وجود أشياء وهميّة وغير واقعية باعتبار أنّ هؤلاء العلماء ذهبوا إلى أنّ الأشكال السارية للأساطير المتمثّلة في الاعتقاد المجرّد في عوالم وكائنات غيبيّة قائمة الذّات هي الجوهر الحقيقي للأساطير بينما هي تصوّرات مجرّدة للمحتوى

1- انظر صالح بن حمادي : "دراسات في الأساطير والمعتقدات الغيبيّة" تونس 1980 وأساطير النشأة في الجنوب التونسي" تونس 1999.

والمضمون الحقيقي للأساطير الذّي هو وصف ونقل ما جرى وحصل من أحداث حقيقيّة لبعض الجماعات والأسر والأقوام البشرية التي عمّرت الأرض في العهود الأولى من التاريخ الإنساني.

فقد إنطلق العلماء من الظنّ الخاطئ بأنّ الأساطير هي في جوهرها اعتقادات في وجود عوالم وكائنات غيبيّة قائمة الذّات بالاستناد إلى الأشكال المجرّدة التي تردّت فيها الأساطير لكنّهم رأوا أنّ مثل هذه العوالم والكائنات الغيبيّة تتناقض مع مقتضيات العقل والحسّ والواقع فاعتبروا أنّ الأساطير هي قصص خيالية ووهميّة ومع ذلك لاحظوا أنّ الشعوب الإنسانيّة تعتقد في صحّة الأساطير التي ترويها وتقول بأنّها قصص واقعيّة وأنّ ما تنقله من أحداث حصل في قديم الزمان.

وأمام هذا الوضع سعى العلماء إلى البحث عن علّة وسبب اعتقاد الشعوب الإنسانيّة في صحّة الأساطير مع أنّها قصص وهميّة وخيالية حسب هؤلاء العلماء فوجدوا الحلّ والمخرج في القول بأنّ الأحداث والوقائع المنقولة في الأساطير هي وصف وتصوير لأحوال الطّبيعة بطريقة مجازيّة حيث أنّ الأساطير القديمة هي في أغلب الحالات قصص تدور حول الآلهة الذين عبدتهم الشعوب الإنسانية في القديم وتحكي ظروف نشأة هؤلاء الآلهة وبروزهم للوجود وما قاموا به من أعمال وما جرى لهم من أحداث, فلمّا سعى العلماء والفلاسفة والمفكرون إلى تفسير المعنى الحقيقي للأساطير في الظروف التي تحدّثنا عنها سابقا ذهب بهم التفكير إلى القول بأنّ الآلهة هم تشخيص للقوى والظواهر الطّبيعيّة وعلى هذا الأساس اعتبروا أنّ الأحداث والوقائع المنقولة في الأساطير هي صور مجازيّة لوصف أحوال الطّبيعة والظّواهر الطّبيعيّة وقدّموا بهذا الشّأن نظّريات وآراء غريبة تقول بوجود عقليّة إنسانيّة بدائيّة تقوم في جوهرها على

التوهّم وتشخيص الطّبيعة واعتبارها مسكونة بالأرواح وتصوّروا أنّ الإنسان الأوّل كانت له عقلية من هذا القبيل فدفعته إلى تشخيص الطّبيعة واعتبار الظواهر الطبيعيّة قوى روحانيّة غيبيّة قادرة على التأثير في الإنسان والإضرار به ونفعه فتخيّل شتى الوسائل لاستدرار عطفها وترويضها من خلال عبادتها والتقرّب إليها بالذبائح والنذور ونسج حولها القصص والحكايات التي تحوّلت مع مرّ الزمن إلى ما ظلّ تعرف باسم الأساطير والخرافات في المجتمعات الإنسانيّة.

وبهذه الصفة جعل العلماء من الإنسان كائنا أقل وأضعف إدراكا من الحيوانات ذاتها حيث أنّه يظهر من خلال هذه الآراء العلميّة في مظهر كائن من طبعه التّوهم والاعتقاد في وجود الأشياء الخياليّة والوهميّة والمزج بين الواقع والخيال والوهم.

وفي حقيقة الحال فإنّ العلماء توهّموا الوهم حيث لا يوجد الوهم وأثبتوا الغيب والرّوحانيات حيث ليس هناك شيئ من الغيب والروحانيّات.

الأساطير هي أخبار تاريخيّة قديمة :

فالأساطير والخرافات الشعبيّة هي أخبار تاريخيّة قديمة تنقل وتروي بعض الوقائع والأحداث الحقيقية التي حصلت في قديم الزّمان لبعض الأقوام من البشر فوق بعض بقاع الأرض فلأجل ذلك ظلّت الشعوب الإنسانيّة ترويها وتؤكّد بأنّها قصص واقعيّة وبأنّ ما تنقله من أحداث قد حصل قديما مهما بدت هذه الأحداث في الظاهر غريبة.

فقد اتّخذت الأساطير والخرافات في الكثير من الحالات شكل قصص وحكايات تصوّر أحوال بعض الحيوانات وظروف بروزها للوجود وعلّة

امتلاكها للخصال التي تميّزها دون غيرها وتظهر هذه الحيوانات في هذه الأساطير في مظهر حيوانات عاقلة تدرك وتفهم مثل الإنسان وتمتلك القدرة على النّطق والكلام وتقوم بكلّ الأفعال والأعمال التي يقوم بها الإنسان وينقل عدد من هذه الأساطير أنّ البعض من هذه الحيوانات كانوا في الأصل بشرا فمرّوا ببعض الظروف كانت سببا في مسخهم وتحويلهم إلى حيوانات.

فنحن نعتبر أنّ هذه الحيوانات العاقلة والنّاطقة التي تتحدّث عنها الأساطير والخرافات الشعبيّة ترمز إلى أقوام وجماعات من البشر عاشوا في قديم الزّمان وكانوا يحملون أثناء وجودهم فوق الأرض أسماء هذه الحيوانات تعبيرا عن بعض الصّفات والخصال البشريّة المميّزة لهم.

وعلى هذا الأساس فإنّ الأساطير التي يحكيها النّاس حول هذه الحيوانات النّاطقة هي أخبار تاريخيّة قديمة تنقل بعض الوقائع والأحداث الحقيقية التي حصلت لبعض الأقوام من البشر عاشوا في قديم الزمان وكانوا يحملون أثناء وجودهم فوق الأرض أسماء هذه الحيوانات تعبيرا عن بعض الصفات والخصال البشريّة المميّزة لهم.

غير أنّ أمرهم إلتبس تدريجيّا على أذهان النّاس فذهب في ظنّ الأجيال الجديدة من النّاس أنّ القصص والأساطير المتعلّقة بهم تصور أحوال الحيوانات الحقيقية وأنّها حكايات موضوعة على ألسنة البهائم لغرض التسليّة والتربية والإرشاد.

فالنّاس في تونس وفي سائر بلدان العالم كانوا ومازالوا إلى اليوم يحملون أسماء بعض الحيوانات. فالكثير من الأشخاص في تونس يحملون اسم غراب وطاووس وحمام وصيد وقريد والبرني والذّئب وكلّ هذه الأسماء تطلق

على بعض أنواع الحيوانات في سياق اللغة العربية ولهجاتها الدارجة في مختلف البلدان العربية.

كما يوجد في تونس وفي البلدان التي تؤلّف معها منطقة شمال إفريقيا كالجزائر والمغرب وليبيا الكثير من الأشخاص الذين يحملون أسماء تطلق على بعض أنواع الحيوانات في سياق اللغة البربريّة وهي اللغة التي كان السّكان في هذه المنطقة يتكلّمونها ومازالت تمثّل إلى اليوم لغة التخاطب لقسم هام منهم.

فالكثير من الأشخاص في هذه البلدان يحملون إسم "مشيش" ويعني القطّ في سياق اللغة البربريّة وإسم "تيلي" ويعني الشّاة في البربرية واسم "تغاط" ويعني العنز في البربرية.

ففي هذا سياق جمعنا أسطورة يرويها السّكان في تونس حول أصل طائر البومُ مضمونها أنّ البومة كانت في الأصل إمرأة فاقترفت عملا شنيعا فمسخها الله وحوّلها إلى بومة وصورة الحكاية أنّه كان في قديم الزّمان إمرأة فاحتاجت ذات يوم إلى غربال فأرسلت ولدها الصّغير ليأتي لها بغربال من الجيران لكن الطفل أبطأ عليها فتملّكها غضب شديد ولمّا رجع الولد إنهالت عليه ضربا حتّى قتلته فغضب الله عليها ومسخها وقلبها إلى بومة تحمل حول رقبتها غربالا وظلّت تأتي ديار قومها وتقتل كل الأطفال الذين تمسك بهم ما لم يضعهم أهلهم في غربال فصارت كلّ أسرة تضع غربالا فوق سطح منزلها لإشعار المرأة الممسوخة بأنّهم يملكون غربالا لوضع أولادهم تحته اتّقاء شرّها فكانت الأمّهات يسرعن بوضع أولادهن الصّغار تحت الغربال حالما يبصرن البومة ليسلموا من شرّها حتى اشتهر أمرها بين النّاس وسمّوها باسم سليمة فكانت المرأة التي ليس لها غربال تخرج إلى باب الدّار وتصرخ في وجه البومة عندما تراها : "تذكري الغربال يا سليمة" فتذهب إلى حال سبيلها.

وانسجاما مع هذه الأسطورة ظلّت الأمّهات في العديد من البلدان العربيّة إلى عهد قريب جدّا يضعن أولادهن الصّغار في الغربال في الأيام الأولى من ولادتهم فعندما تتهيّأ المرأة الحامل للوضع تقوم والدتها أو إحدى قريباتها بإحضار غربال فتضع فيه المولود الجديد ويبقى نائما في الغربال إلى ان تغتسل أمّه.

وفي هذا السياق يعتقد السّكان في الجنوب التونسي أن الطيور لها شيخ اسمه بوعبيّة ويحكون حوله خرافة مفادها أنّ بوعبيّة شيخ الطيور كان متزّوجا فطلق إمرأته وظّل يدور في البلدان ويتناقلون في ذلك شعرا يقول :

"بوعبيّة شيخ الطيّور طلّق مرته وقعد يدور"

ويضربون به أيضا بعض الأمثال لوصف حالة الشخص الذي يخيب في مسعاه ولا يصيب شيئا فيقولون عنه في هذه الحالة "مالقي كان بوعبيّة" أوْ "لقي بو عبيّة" بمعنى أنّه لم يصب شيئا.

ويروون أيضا عن طائر آخر إسمه "العقّوري" في لهجتهم أنّه كان صاحب أسرة فمات وترك ثلاث بنات واحدة عوراء والأخرى زوراء والثالثة راعية ترعى بالبقر أو تسرح بالبقر كما يقولون ويردّدون بشأنه هذا الشّعر :

"العقوري مات وخلّى ثلاث بنات واحدة عورة والأخرى زورة والثالثة تسرح بالبقرات"

وفي هذا المجال أيضا كان قسم من بدو الصّحراء وسكّان الرّيف في العديد من جهات البلاد التونسية يروون خرافة حول الحيوان المعروف باسم الضبّ مضمونها أن الضبّ كان رجلا مكّاسا وعشّارا يأخذ عشر أموال النّاس وخاصّة التجّار الذين يمرّون من أرض كانت على ملكه فعاقبه الله ومسخه

وحوّله إلى ضبّ, وهي أسطورة كان العرب قديما في الجزيرة العربيّة يحكونها أيضا وتناقلتها كتب التراث العربي وأشار العالم التونسي عبد الله بن أحمد التّجاني في وصف رحلته عبر البلاد التونسية والقطر الطرابلسي ما بين 706 و708 هجري الموافق للفترة ما بين 1306 و1308 ميلادي إلى أنّ أعراب تونس في زمانه كانوا يحكون أسطورة من هذا القبيل وفيها أنّ الضبّ كان معه رجل آخر مكّاس يعشر مثله النّاس فمسخه الله هو الآخر وقلبه إلى النّجم المعروف باسم سهيل وأورد التّجاني في هذا المعنى شعرا لأحد الشعراء القدامى يقول :

"إنّ ربّي لما يشاء قديـــر مـــا لما إن أراده من مفرّ

ماسخ الماكسين نجما وضبّا حين جاءا بكلّ مكس وعشر"

ويروي السكان في تونس وفي البلدان المغاربيّة وهي البلدان الواقعة بشمال إفريقيا في هذا السياق أيضا أسطورة شبيهة حول أصل الحيوان المعروف باسم السلحفاة في العربيّة ويسمى في تونس والبلدان المغاربيّة الأخرى باسم الفكرون نقلا عن اسمه بالبربريّة وهو اسم مذكّر ومضمون هذه الأسطورة أن السلحفاة أو الفكرون كان في بداية أمره إنسانا فكان ذات يوم يسقي إبله من بئر الحيّ الذي يقطن فيه وقد جعل لها قصعة أو جفنة كبيرة فكان يملأ الماء من البئر بالدّلو ويصبّه في القصعة فحدث لقومه ما كان يستوجب منه نجدتهم فخاف على نفسه واختبأ وسط القصعة ووضع الدّلو على ظهره ليخفي أمره فلمّا انقشعت الغمّة إلتصق الدلو والقصعة به ومُسخ وتحول إلى سلحفاة.

فنحن نعتبر أنّ كل هذه الأساطير والخرافات هي أخبار تاريخيّة وقصص واقعيّة تروى وتنقل بعض الوقائع والأحداث الحقيقيّة التي حصلت في قديم الزمان لبعض الجماعات من البشر فوق بقاع الأرض.

فالحيوانات التي تتحدّث عنها هذه الأساطير والخرافات الشعبيّة هم في الأصل أشخاص وأقوام من البشر عاشوا في قديم الزمان وكانوا يحملون أثناء وجودهم فوق الأرض أسماء هذه الحيوانات تعبيرا عن وضعيّتهم الإجتماعيّة وعن الصّفات والخصال البشريّة المميّزة لهم دون غيرهم.

فقد إشتهرت الشعوب الإنسانيّة منذ القديم باحترام وتقديس بعض الحيوانات والطّيور والوحوش والإمتناع عن أكل لحومها مثل إمتناع المسلمين في العصر الحاضر عن أكل لحم الخنزير أو الحلّوف كما يسمّيه السكان في تونس وكانت الكثير من الشعوب الإنسانيّة في القديم تمتنع عن أكل لحم الخنزير وتكرهه مثل المصريّين القدماء وسكّان شمال إفريقيا القدماء الذين كانوا يعرفون باسم اللّيبيّين أو اللوبيّين, كما اشتهر الهنود, سكان الهند الشرقيّة باحترام البقر وكره أكل لحومها.

وظلّت عادة إحترام الحيوانات والطّيور والوحوش والإمتناع عن أكل لحومها سارية إلى هذا اليوم لدى مختلف المجتمعات الإنسانيّة على غرار احترام سكان البلاد التونسيّة وبعض البلدان الأخرى لبعض الحيوانات والطيّور والوحوش والإمتناع عن أكل لحومها.

ففي هذا المجال مازال السّكان في البلاد التونسيّة يكرهون أكل لحم القطّ ويسمّونه باسم قطّوس كما يكرهون أكل لحم الحمار والحصان والذئب والسّباع عموما إلى جانب الإمتناع عن أكل لحم الخنزير.

فقد وجدنا ان الكثير من هذه الحيوانات تحمل اسماء توحي بالخوف والحذر والهيبة والاحترام والتعظيم والتقديس وتشترك في حملها لهذه الاسماء مع بعض الفئات من البشر الذين يحتلون داخل المجتمعات الانسانية وضعية طبيعية واجتماعية تبعث على الخوف والحذر والاحترام والهيبة والتعظيم

والتقديس .فيمكن القول ان الاحترام في كل الحالات يعود الى الطابع المخيف والرهيب لحاملي تلك الاسماء بمختلف انواعهم لاسباب حقيقية ومحسوسة اكسبتهم حرمة خاصة فاصبحوا محل تعظيم وتقديس وبهذه الصفة فان المقدس والمحرم يعني ويفيد في الاصل المخيف والرهيب لاسباب حقيقية ومحسوسة .

فان التحريم الذي يتعلق بالحيوانات المذكورة هو من جنس تحريم اكل لحم الانسان وتحريم الاتصالات الجنسية بين الاخوة الذكور والاخوة الاناث وبين الام وابناءها والزنى مع المراة المتزوجة ويشبه تحريم الانتفاع بالحيوانات والاشجار الموجودة في حمى بعض الاماكن الخاصة باعتبارها املاك خاصة تابعة لاصحابها الذين يملكونها مثل الحيوانات الاليفة والاهلية التي هي على ملك اسرة من الاسر البشرية واشجار بستان على ملك بعض القوم فان تلك الحيوانات وتلك الاشجار محرمة على الاجانب ويمنع على الاخرين الانتفاع بها والاعتداء عليها والاقتراب منها مخافة التعرض الى بطش اصحابها الذين يملكونها ويحمونها.

فان التحريم في كل هذه الحالات يعود الى الخوف من الشيء المحرم والمقدس لانه يتمتع بحماية خاصة يستمدها احيانا بصورة مباشرة من ذاته بوصفه مخيفا ورهيبا بطبعه واحيانا اخرى من علاقته وارتباطه بحامي اخر خارج عنه ولكنه حامي حقيقي ومحسوس يكتسي طابعا مخيفا وفي الواقع فان الشيء المقدس هو مخيف بطبعه بصورة مباشرة وغير مباشرة على غرار المراة المتزوجة فانها محرمة ومقدسة بالنسبة للاجانب لانها تبعث على الخوف من طبعها كانسان وكائن قادر ان يرد الاعتداءات على حرمته ومن زوجها وافراد اسرتها وجماعتها المرتبطين معها بالرباط الاسري والاجتماعي والدموي الذين يهبون لنجدتها والدفاع عنها اذا ما اقتضى الحال.

وكذلك الشان بالنسبة للحيوانات الموجودة في حمى بعض الاماكن الخاصة فانها محرمة ومقدسة لانها تبعث على الخوف بطبعها كالكلاب الحارسة ولانها موجودة في حمى اصحاب تلك الاماكن الخاصة التي تعتبر بدورها محرمة ومقدسة بوصفها ملك خاص .

وفي حقيقة الحال فان كل الاشياء بمختلف انواعها محرمة ومقدسة بمعني انها تكتسي طابعا مخيفا وتبعث على الخوف لان كل شيء يمكن ان يلحق الاذى والشر الحقيقي والمحسوس كالحجر الصغير الذي يمكن ان يصيب الانسان فيجرحه ويؤلمه ويؤذيه.

ففي الواقع ليس هناك تقديس للحيوانات او لغيرها في المعنى المتداول والسائد في الاذهان وانما يتعلق الامر في كل الحالات بالشعور الطبيعي بالخوف من اشياء حقيقية ومحسوسة ومادية تبعث على الخوف لاسباب حقيقة ومادية ومحسوسة فحملت مختلف هذه الاشياء اسماء واحدة توحي بالخوف والحذر والتعظيم والاحترام والتقديس ويمثل هذا الاشتراك والتشابه في الاسماء بين مختلف هذه الاشياء سببا للخلط والمزج بينها في الاذهان والسلوك فينبغي فرز وتمييز المقصود منها بالذات على اساس ان كل مظاهر السلوك الانساني وكل التصرفات الانسانية هي في سائر الحالات تصرفات طبيعية وتعبر عن حقائق مادية ومحسوسة وليس فيها مكان للتخيل والوهم والتصورات المجردة والوضع والخلق والاختراع.

ففي هذا السياق يطلق اسم " قط " في اللغة العربية وفي العديد من اللغات الانسانية الاخرى على الحيوان المعروف بهذا الاسم وباسم " هر " في العربية بالذات كما ان اسم " قط " يستعمل في معنى الاله والرب في اللغة الالمانية والانقليزية حيث ان الاله يسمى باسم " قط " و "قوط " في الالمانية في

حين يسمى في الانقليزية باسم " قود " و" قد " مع نطق الصوت " قا " بالطريقة المتبعة عند البدو واهل الريف في البلدان العربية وهو اسم مفرد ويجمع في صيغة " قدس " واشرنا الى ان السكان في تونس يسمون القط باسم قطوس ويجمع اسم "اله " في العربية في صيغة "آلهة" بحيث ان الاسم الذي يستعمل في معنى الآلهة في الانقليزية هو نفسه الاسم الذي يطلق على القط في البلاد التونسية.

وفي هذا السياق نعتبر ان الآلهة الذين عبدتهم الشعوب الانسانية في القديم يرمزون الى آباء واجداد هذه الشعوب وملوك حكموا في اسلافهم ومصلحون اصلحوا من شؤونهم وفي اغلب الحالات فان الآلهة هم اباء واجداد وملوك ومصلحون معا بحيث ان الآلهة يرمزون الى الاباء والاجداد والرؤوساء والاسياد داخل الاسر والاقوام البشرية الذين عمروا الارض في العهود الاولى من التاريخ الانساني .فان لفظة " جد" التي تطلق في العربية على الاباء تنطق في صيغة " قد " في بعض البلدان العربية كالبلاد المصرية تماما مثلما يسمى الاله في اللغة الانقليزية.

كما ان اسم " قط " يتخذ صيغة " كت " و " كوت " وتستعمل كلمة " كوت " كاسم للجمل في بعض البلدان العربية وتتخذ صيغة " كويت " عند التصغير ويطلق اسم " كويت " على الضبع والذئب عند بعض قبائل الهنود الحمر بالقارة الامريكية.

وتذكر الكتب المختصة ان المصريين القدماء وملوكهم المعروفين باسم الفراعنة كانوا يعبدون ربة انثى يصورونها على هيأة امرأة براس قط اسمها " بسة " مثلما يسمى القط الى اليوم في الكثير من البلدان العربية وذكر مؤرخ يوناني قديم اسمه بلوتارك ان الآلهة المصريين اتخذوا هيأة الحيوانات لانهم

اضطروا في يوم من الايام الى ارتداء ملابس هذه الحيوانات للتنكر تحتها خوفا من بعض الاعداء الذين كانوا يريدون بهم الشر.

وتاكيدا لصحة تحاليلنا يتخذ اسم " قط " الذي يطلق على الحيوان المعروف بهذا الاسم صيغة " قديس " في بعض البلدان مثل بلد النوبة والسودان جنوب مصر حيث ان القط يدعى في النوبة والسودان باسم " قديس " وتذكر بعض القواميس اللغوية ان اسم " قط " ماخوذ في الاصل من هذا الاسم الافريقي الذي يعرف به القط في النوبة وماجاورها .

فان اسم " قط " ماخوذ ومشتق في الاصل من الصوت "أخ " و "أخة " الذي يطلقه الانسان بصورة غريزية عند الشعور بالغضب والانفعال والانزعاج والهلع والخوف والفزع بحيث ان اطلاقه يجسم الغضب والانفعال .والخوف والانزعاج والهلع والفزع وما يمثله الغضب والانفعال والانزعاج والخوف والفزع من حالات كفيلة بدفع الذي تتملكه الى الحاق الاذى والشر والمضرة لمن تسبب فيها وفي اثارتها فاصبح الصوت "أخ" و"أخة" يثير الخوف في الآخرين ويزجرهم ويخيفهم ويرهبهم ويردعهم وينهيهم ويمنعهم ويبعدهم .

ومازال السكان في تونس الى اليوم يطلقون الصوت "أخ" و "أخة" للزجر والنهر والتخويف والتنبيه والتخويف والمنع والردع والابعاد حيث ان الام في تونس تقول لابنها الصغير "أخة" لزجره ومنعه من الامساك بالاشياء الوسخة والقذرة والمضرة. ويتخذ هذا الصوت الزجري صيغة "كخة" وتتمثل لفظة "كخة" في ترديد الصوت "أخة" مرتين بحيث ان اصل لفظة "كخة" هو "أخة , اخة" ثم ادغمت اللفظة واتخذت صيغة "كخة" نظرا لتعادل الصوت "خا" والصوت "كا" في الكلام الانساني .

وعلى هذا الاساس اطلق الصوت "أخ" و "أخة" بصفة اسم على الاشياء المخيفة بشكل من الاشكال بمختلف انواعها بحيث ان كلمة "قدس " و"قديس " و" مقدس " تعني وتفيد حرفيا المخيف والباعث على الخوف الذي ينبغي الابتعاد عنه وعدم الاقتراب منه والاتصال به والاحتكاك به واثارته خشية التعرض الى الاذى والشر والمضرة بسببه .فان الصوت "قا" والصوت "خا" هما صوتان متعادلان ويعوضان بعضهما في الكلام الانساني بحيث ان الصوت "قا" هو صيغة لفظية للصوت "خا" واشرنا ان الصوت "جا" بالجيم هو ايضا صيغة للصوت "قا" و"خا".

وتطلق الحيوانات المعروفة باسم "قط" في حالات الغضب والانفعال والانزعاج والخوف والفزع صوتا شبيها بالصوت "اخة" كما ان الافاعي والحيات تطلق في مثل هذه الحالات صوتا شبيها يسمى في العربية باسم "الكش ".

وفي حقيقة الحال فان اسم "قديس " يتركب من لفظة "قد" ومن لفظة "أس " واشرنا الى ان لفظة "قد" هي صيغة من صيغ نطق الصوت الطبيعي "أخ" و"أخة" الذي يطلقه الانسان في حالات الغضب والانفعال والانزعاج والخوف والهلع والفزع للزجر والنهر والتخويف والردع والابعاد .

كما ان لفظة "أس" هي ايضا ماخوذة ومشتقة من الصوت "أس" الذي يطلقه الانسان بصورة غريزية بواسطة الصفير والتصفير في حالات الغضب والانفعال والانزعاج والهلع والفزع علىغرار الصياح الذي تحدثه الكثير من الحيوانات في مثل هذه الحالات كالدجاج والقردة فاصبح الصوت "أس " بدوره يجسم الغضب والانفعال والانزعاج والخوف والفزع والهلع وما تفضي اليه هذه

الحالات من اندفاع لالحاق الاذى والشر بالمتسببين في اثارتها فاصبح ايضا يثير الخوف والرعب في الاخرين ويزجرهم ويردعهم ويبعدهم.

ويتخذ الصياح البشري بواسطة الصفير والتصفير صيغة "أس" و"أست" بالسين المهملة و"أش " و"أشت" بالشين المعجمة المنقوطة و"بس " و "بست" ويتخذ هذا الصوت عند التفخيم صيغة "أص " و"بص" بالصاد وعند الترديد والتكرار صيغة "سس" و""صص " .

ومازال الناس فس شتى بلدان العالم يستعملون كل هذه الاصوات لزجر البشر والحيوانات على حد السواء على غرار السكان في تونس فانهم يستعملون الصوت "أس " احيانا للدعوة الى ملازمة الصمت ردا على الازعاج بواسطة الكلام والحديث كما انهم يستعملون الصوت "اش " و"اشت " لزجر الطير والذباب والحمير.

وعلى هذا الاساس فان اسم "قديس " يتركب من لفظتين تثيران بطبيعتهما الخوف وتمتلكان القدرة على الزجر والردع والتخويف والتحذير والابعاد ويمكن ان نسمي الصوت "أخ " وصيغه المتعددة والصوت "اس " وصيغه المتعددة بالاصوات الزجرية.

ولهذا السبب يسمى الآلهة باسم "قدس " و"قديس " و"مقدس" واعتبروا مصدر القداسة في الحضارة الانسانية. فانهم يرمزون في الحقيقة الى الأباء والاجداد والكبار والرؤوساء والاسياد داخل الاسر والاقوام والشعوب البشرية التي عمرت الارض في العهود الاولى من التاريخ الانساني وبهذه الصفة فانهم ينتمون الى الاصناف والفئات البشرية التي تتسم بطابعها المخيف وتبعث الخوف في نفوس الاخرين بقدر ما تضفي طابعا مخيفا على كل من تشمله برعايتها وحمايتها فيصبح مقدسا ومحرما مثلها بمعنى انه يصبح مخيفا ويبعث على

الخوف مثلها فيزجر ويبعد ويضر من يريد الاتصال به والاقتراب منه والاعتداء عليه. فان الاسرة محرمة ومقدسة بفضل الحماية والرعاية التي يوفرها لها الاب ورئيس الاسرة وتضفي هي بدورها على املاكها الخاصة طابعا محرما ومقدسا بفضل الحماية التي توفرها لها.

وفي هذا السياق نشير الى ان اسم "اله" ماخوذ ومشتق بدوره من الصوت الطبيعي "أل" و"ألت" الذي مازال الانسان يستعمله الى اليوم في العديد من البلدان للزجر والنهر والتخويف حيث ان السكان في جنوب البلاد التونسية مازالوا الى اليوم يستعملون الصوت "ألت" لزجر الحمير وهو في الاصل صوت يطلقه الانسان بصورة غريزية في حالات الغضب والانفعال والانزعاج والفزع والخوف والهلع مثل الصوت "أخ" والصوت "أس " فاصبح يجسم الغضب والاندفاع الى الحاق الاذى بالمتسبب في اثارته واتخذ بهذه الصفة القدرة على بث الرعب والخوف لدى الاخرين وعلى زجرهم ونهرهم وتخويفهم وابعادهم وصار يوحي بالخوف والغضب والشر وأطلق على مصادر الخوف والشرمثل الاباء والكبار ومختلف الاشياء المخيفة .

ويسمى الحمار في اللغة الفرنسية باسم "آن" ويطلق اسم "آن" في الفرنسية على الذكور من الحمير في حين تسمى الانثى باسم "أنس " وتستعمل كلمة "أنس " في العربية في معنى الانسان والبشر وكذلك في معنى الأليف والقريب والعزيز وكان بعض الآلهة القدماء يحملون اسماء مشتقة من لفظة "أن" مثل عظيم الالهة عند سكان العراق في القديم الذي كان يدعى باسم "أنو".

كما ان الخنزير يسمى باسم "حلوف" في تونس في حين يسمى باسم "الف" في اللغة البربرية ويعتبر اسم "حلوف" صيغة لفظية لاسم "حلف" و "حليف" ويستعمل اسم "حلف" و "الف" في سياق اللغة العربية في معنى الصاحب

والانيس والقريب والتابع والمولى الذي تستوجب حمايته ونجدته عند الشدة بقدر ما يهب بدوره لنجدة اصحابه واحلافه بحيث ان الاليف والحليف يبعث على الخوف لانه قوي بفضل حلفه وجماعته .

ويسمى الحصان في بعض السياقت اللغوية باسم "سيسي "كما هي الحال في مصر في حين يستعمل الصوت ""صص " لزجر الخيل والبغال والحمير واشرنا الى ان الصوت "صص" هو صيغة لفظية للصوت "سس" الذي اشتق منه اسم "سيسي" ويتمثل في ترديد الصوت الزجري "اس" ومازال مروض الخيول يسمى باسم السائس في اللغة العربية في حين تسمى رئاسة البشر وقيادتهم باسم "سياسة" ويستعمل السكان في تونس الى اليوم لفظة "سي " في معنى السيد والكبير وهي ماخوذة من الصوت الزجري "أس" بحيث ان كلمة "سي " تعادل معنويا كلمة "قط" و"قد" و"جد" و"اله".

ويطلق السكان في تونس على اللحم اسم "ششي" الذي يتمثل في ترديد الصوت الزجري "أش" بحيث ان اللحم بصفة عامة يعتبر محرما ومقدسا ويوجد بعض الاقوام والجماعات الذين يمتنعون عن اكل اللحم تماما ويعيشون على الخضر والغلال .وفي هذا السياق ايضا يطلق على اللحم في اللغة الفرنسية اسم "شر" الذي يطلق على المضرة والاذى والشر في العربية.ويعتبر اللحم محرما ومقدسا لانه يمكن ان يكون طعما لاصطياد الاخرين مثلا كما انه يعني في بعض السياقات الاقارب وافراد الاسرة والاصحاب والاحلاف فان كلمة "لحمة" تعني في العربية القطعة من اللحم والرابطة الاسرية والدموية وتطلق ايضا على الاحلاف والموالي والتابعين.

وتستعمل كلمة "سر " في العربية للزجر والابعاد حيث انها صيغة الامر من الفعل "سار يسير سيرا" في حين تستعمل في معنى الملك والسيد في اللغة

الفرنسية والانقليزية.وتتركب كلمة "سر" و"شر" من الصوت الزجري "اس" ومن لفظة "أر" الماخوذة بدورها من الصوت الزجري "أر" الذي مازال يستعمله الانسان الى اليوم لزجر الحمير والبغال والخيل كما هي الحال في تونس .

وفي هذا السياق كان السكان في البلاد التونسية والكثير من البلدان الاخرى يحترمون طائر الخطاف ويعتبرونه مقدسا حتى انه يسمى باسم "الحاجة" و"الحويجة" في تونس نقلا عن اسمه في العربية وهو اسم مؤنث ومذكره "الحاج " ويطلق اسم "حاج " الذي يجمع في صيغة "حجاج " في العربية على زوار بيت الله الحرام الموجود بمدينة مكة بالجزيرة العربية والمعروف باسم الكعبة وهو بيت مقدس ومحرم لانه بيت الله رمز القدسية مثلما ذكرناه.

فقد وجدنا ان الخطاف يسمى ايضا باسم "سيسي" في بعض البلدان العربية ومازال السكان في تونس وليبيا يتداولون الى اليوم جملة من الخرافات الشعبية بطلتها عصفورة تسمى باسم "امي سيسي " ويتصورها الاهالي احيانا من فصيلة الخطاف والحويجة.

ففي هذا المجال يمكن القول بان الناس يتجنبون الحاق الاذى بالحصان والخطاف لانهما "سس" و""صص "و "سيسي" بمعنى انهما شر حتى ان سكان المغرب الاقصى يتجنبون ذكر لفظة "سيسي" في كلامهم وحديثهم العادي كتحاشي سكان مصر استعمال كلمة "جن "في حديثهم العادي وتعويضها بعبارة "اسم الله" لان كلمة "جن " توحي بالشر والضرر وتبعث على الخوف والحذر فيطلقون مكانها وعوضها اسم الله لاعتقادهم ان اسم "الله" يبعد الشر وقد اوضحنا ان اسم "الله" يبعد الشر بالفعل لانه ماخوذ من الصوت الزجري "ال "و "الت" الذي يخيف بالفعل ويزجر ويبعد الشر والاذى حيث ان اسم "الله" هو اسم "اله" بزيادة "ال " التعريف .

كما يعتقد سكان البلاد التونسية أنّ الحيوان المعروف باسم "الحوت" يمتلك القدرة على إبعاد الشّر والأذى والمكروه ويطلق أهل تونس إسم "حوت" على السمك عموما.

فقد ظلّ سكان البلاد التونسية إلى عهد قريب جدّا يعلّقون أذيال الحوت والسّمك على الأطفال لوقايتهم من الشّر والأذى كما يعلّقونها على أبواب المنازل لحمايتها من الأذى وكثيرا ما يستغيثون ويستنجدون بالحوت لهذا الغرض فيقولون "الحوت على ذلك الطفل" لتحصينه من الشّر والأمراض بحيث أنّ مجرّد ذكر الحوت يقي ويحمي من الشّر حسب إعتقادهم مثل ما يقي ذكر إسم الله من الشّر أيضا عندهم وعند المسلمين عموما.

فنحن نعتبر أنّ هذه الإعتقادات التونسيّة المتعلّقة بقدرة الحوت على إبعاد الشّر والأذى هي من قبيل الإعتقادات المتعلّقة بالخطّاف والسّيسي التي شرحنا أصلها ومعناها الحقيقي في تحاليلنا المتقدّمة.

فالنّاس إعتقدوا في قدرة الحيوان المعروف باسم "حوت" على إبعاد الشّر والأذى لأنّه يحمل إسم "حوت" حيث نعتبر أنّ لفظة "حوت" مأخوذة من الصوت "أح" و"أحّيت" الذي يطلقه الإنسان بصورة غريزيّة عند الشعور بالألم فاقترن بمعنى الألم وأطلقه الإنسان على الألم والشّر وعلى مصادر الألم مثل النار التي يسمّيها النّاس في تونس إلى هذا اليوم باسم "حيّة" و"أحّية" خاصة في لغة التّخاطب مع الأطفال الصغار, كما تطلق كلمة "حيّة" على السّكاكين والأدوات الحادّة وعلى الأفاعي السّامة لأنّها تتسبّب في الجروح والألم بحيث أنّ لفظة "حوت" هي صيغة لفظيّة لإسم "أح" و"أحّيت" و"أحيّه".

وفي هذا السياق كثيرا ما يستعمل الشعراء الغنائيون في تونس لفظة "احيه" و "احيت" للتعبير عن لوعة الحب واشتياق المحبين كما جاء في مطلع اغنية تونسية شهيرة يقول :

"احيت منك ليعتي ما اقواها   ما احرها ونحبها ونهواها"

كما تستعمل لفظة " اح " في اللغة العربية في معنى التوجع والاحساس بالالم والحزن فيقال في العربية " اح الرجل " بمعنى " توجع وتنحنح واشتد به الالم والحزن" ويقال في العربية ايضا حسبما جاء في معجم "لسان العرب " لابن منظور "سمعت للرجل احاحا اذا سمعته يتوجع من غيظ او حزن" .

وقد لاحظنا أنّ النّاس في تونس يستعملون الصّوت "أحّ" و"أحّية" للزّجر والنّهر والتّنبيه والتحذير والتخويف على غرار الصوت "أس" و"أش" و"إر" و"سس" و"صص" و"شر" بحيث أنّ الأمهات مثلا يزجرن أطفالهنّ الصّغار بواسطة كلمة "أحّية" عندما يلعبون بالنار والسكاكين ويقلن لهم "أحّية" لتخويفهم وحثّهم على عدّم اللعب بها.

وعلى هذا الأساس فإنّ تعليق أذيال الحوت هو بمثابة الإطلاق الرّمزي لكلمة "أح" و"أحّيت" و"أحّيّة" لزّجر وتخويف من ينوي الشّر, فهو تعويض للزّجر بكلمة "أح" و"أحّيت" التي كانت الجماعات البشريّة تطلقها بصورة غريزيّة في القديم مثل الصّوت "إس" والصّوت "إر" في حالة الإحساس بالألم صوب ونحو مصادر الشّر لزّجرهم ونهرّهم وتخويفهم وللتّنبيه عليهم فأصبحت تعني الحماية والصّيانة وإبعاد الشّر والإحاطة والإحتياط والحوط.

فقد إعتادت الأجيال المتأخّرة, من النّاس تعليق أذيال الحوت للإتقاء والإحتماء من الشّر لأنّهم تعلّموا من أبائهم وأجدادهم الأولين ومن الذين سهروا

على تربيتهم بصفة عامّة أنّ كلمة "أح" و"أحّيت" و"حوت" وما شابهها تبعد الشّر وتوفّر الحماية عندما يطلقها الإنسان.

لقد كانت الجماعات البشريّة في العهود الأولى من التّاريخ الإنساني تواجه وتقاوم الأخطار المحدّقة بواسطة إطلاق الصوت "أس" و"أش" و"إر" و"أح" و"أحّيت" لزجر مصادر تلك الأخطار وإبعادها وتنبيهها وتحذيرها ولفت النّظر إليها فكانت هذه الأصوات ومن بينها الصوت "أح" بمثابة الحاجز والحائط الذي يمنع تلك الجماعات ويحميها من الشرور المحدّقة ثمّ إن الإنسان تعلمّ إقامة الحواجز الماديّة مثل الجدران والأسوار والحيوط ولأجل ذلك سمّيت الحيوط والحيطان بهذا الإسم لأنّها بمثابة إطلاق الصوت "أح" و"أحّيت" وقد لاحظنا أنّ النّاس في تونس ينطقون كلمة "حائط" في صيغة "حيط" بحيث أنّ الحوت المقصود في عادة تعليق أذيال الحوت هو الحوط والحيط وهكذا فعندما تقول الأمّ على إبنها "الحوت عليك" فهي تقول في الحقيقة "أحّيت عليك" و"الحوط عليك" بمعنى "بعدا للشّر المتربّص" بفضل كلمة "أح" و"أحيت" التي تبعد من أصلها الشّر عند إرسالها وإطلاقها وبالفعل فإنّ النّاس في تونس يقولون أحيانا "بعيد الشّرّ عليك" مَكَانَ وعِـوَضَ "الحوت عليك". كما أنّ كلمة "الحَدّ" التي تفيد في سياق اللّغة العربيّة معنى الحاجز الواقي والذي يمنَعُ ويُحرِّمُ اجتيازُه مَأخُوذَةٌ مِنَ الصّوت "أح" و"أحّيت" الذي يطلقه الإنسان بصورة غريزيّة عند الشّعور والإحساس بالألم والخطر والضّرر واستعملها النّاس للزّجر والتّحذير والتّخويف لإرتباطها بالألم وكذلك في معنى الحَامِيَ والحاجز الواقي من الأشرار والشّرور.

وقد كان الحَدُّ بالنّسبة للأسرة والجماعة من الجماعات البشريّة في العهود الأولى من التّاريخ الإنسانيّ يتمثّل في المحيط المباشر لمجالها الحيوي

الذي تعيش و تَتَحَرَّكُ فيه بقدر ما تشعر داخله بالأمان والإطمئنان بحيث أنّ ذلك المجال الحيويّ يحظى بالنّسبة إليها بِحُرْمَة وإمتياز خاص في مقام ما يحظى به الجسم والجسد عند الفرد من حرمة طبيعيّة فتتصدّى لكلّ من يحاول الإعتداء على حرمته وإختراقه وتجاوزه, وتتحدّد تلك الحرمة بالشّعور بالإطمئنان أو بعدمه ويساعدها في ذلك البصر والشمّ مثلها في ذلك مثل الحيوانات.

وعلى هذا الأساس فإنّ الحدّ كان في الأصل يتجسّم في الشّعور والإحساس بالألم والخطر المحدق عند الإعتداء على حرمة المجال الحيويّ فتقوم الجماعة كالفرد الواحد وتشرع في إحداث الصّياح وإطلاق أصوات الزّجر والنّهر والإبعاد والتّحذير والتّـنـبـيـه والتّخويف.

وكان كبار تلك الجماعات والأسر ورؤساؤها هم الذين يتصدّون للخطر ويقفون في الصّفوف والدّوائر الأماميّة فكانوا يحيطون بأفراد الأسرة والجماعة الآخرين من نساء وأطفال وكانوا بهذه الصّفة أوّل حائط وأوّل حدّ تحتمي به الأسرة والجماعة قبل بناء الأسوار والحيطان والحواجز الماديّة للإحتماء داخلها في شكل أكواخ وأكياب وأخصاص ثمّ توسّعت هذه الأكواخ والأكياب والأخصاص وأصبحت بيوتا وحصونا وقرى ومدنا مسوّرة ثم أوطانا لها حدود معلومة بحيث مازالت فكرة الحدود والمجال الحيوي والوطن المقدّس قائمة إلى هذا اليوم وتلعب دورا رئيسيا في العلاقات البشريّة.

كما توسّعت وتنوّعت وسائل الدّفاع عن حرمة المجال الحيويّ والحدود غير أنّ النّاس مازالوا إلى اليوم تقليدا لأسلافهم وأجدادهم الأوّلين يستعملون وسائل الدّفاع القديمة المتمثّلة في إطلاق الصّوت "أح" و"أحّيت " و"شر" وتعليق الأشياء والحيوانات التي توحي بهذه الأصوات لأنّها تحملها وتدعى بها على أساس أنّها كانت في يوم من الأيّام هي الأخرى مبعث إطلاق هذه الأصوات

لتسببها في الألم مثل النّار أو لأنّها تمثّل عنصرا من عناصر المجال الحيويّ يستوجب الدّفاع عنه بواسطة إطلاقها مثل اللّحم والسّمك.

فقد ذكرنا أنّ اللّحم المخصّص للأكل يدعى باسم "ششيّ" في تونس وهو إسم يتمثّل في ترديد الصّوت "أُ شْ" الذي يستعمله الإنسان للهشّ والزّجر والنّهر والإبعاد كما هي الحال إلى هذا اليوم في البلاد التونسيّة. فقد كان اللّحم في القديم يجلب مختلف أصناف المتطفّلين الذين يجتمعون حوله لإختطافه والإستحواذ عليه بطريقة أو بأخرى فكان صاحب اللّحم يدافع عن لحمه وغنيمته بالهشّ على أولئك المتطفّلين بواسطة إطلاق الصّوت "إش" فسمّي اللّحم باسم" أش أش" الذي تحوّل إلى "ششيّ" فقد كانت هذه المواقف الإنسانيّة تشبه المشاهد التي تتخلّل إلى اليوم حياة الحيوانات حيث أنّ الحيوان الذي يصطاد حيوانا آخر أو يصيب فريسة ويشرع في أكل غنيمته يكون في أغلب الحالات مقصدا لشتّى أصناف المتطفّلين الذين يجتمعون حوله لإختطاف تلك الغنيمة والإستحواذ عليها بطريقة أو أخرى أو في أقلّ تقدير إقتسامها مع صاحبها.

كما أنّ السّمك يجلب المتطفّلين عندما يصطاده الشّخص ويجعله في شكّ ليعود به إلى منزله أو يشرع في أكله.

فكان صاحب السّمك يستعمل هو الآخر الصّوت "أحّ" و"أحّيت " لزجر وإبعاد المتطفّلين فسمّى النّاس السّمك بأسماء منقولة عن الصّوت " أحّيت " مثل إسم "حوت" في سياق اللّغة العربيّة.

وتأكيدا لصحّة تحاليلنا أُطلِقَ إسم "حَدّ " و"حَدّة" الذي هو مؤنّث حدّ على الأشخاص في العديد من البلدان مثل البلاد التّونسيّة التي يوجد بها الكثير من الأشخاص ممّن يحملون إسم "حِدّي" و"حَدّة" ولا سيما في أوساط النّساء.

ويفيد إسم " حَدّ " الحامي والحاجز والكبير والقويّ والشّديد ومسبّب الآلام بإعتبار أنّ الكبار والأقوياء والأشدّاء هم الذين كانوا يقفون في الصّفوف الأماميّة لحماية الجماعة والأسرة فكانوا يمثّلون الحدّ الفاصل بين الأسرة والأخطار المحدقة بها مثلما ذكرناه وكان هؤلاء الكبار هم الأزواج والبعول والآباء لذلك فأنّ إسم "حدّ" يعني أيضا الزّوج والبعل بإعتبار أنّ الزّوج والبعل هو كبير الأسرة وعظيمها, ويتركّب إسم "حَدّ " من الصّوت "أحْ" و"أحّيت" الذي شرحنا أبعاده ومعانيه في تحاليلنا المتقدّمة فهو صيغة لفظيّة لعبارة "أحّيت" التي تتركّب من الصّوت "أح" ومن الصّوت "أت" ونعتبر أنّ الصّوت "إت" الذي يمكن أن يتّخذ أيضا صيغة "أد" هو صوت طبيعيّ تعلّم الإنسان إطلاقه بصورة غريزيّة إمتدادا للصّوت "أح" و"أس" وبعض الأصوات الطّبيعيّة الأخرى في المواقف الحرجة والصّعبة والمشحونة بالألم والوجع والضّرر والشّرر.

فمازال السّكان في تونس يستعملون الى اليوم كلمة "دِدّي" في معنى الألم والوجع ومصادر الألم والوجع كالدُّمل وتتمثّل كلمة " دِدّي " في ترديد الصّوت " دَا " الذي هو صيغة للصّوت "تَا". كما أنّ سكان تونس يستعملون كلمة "تَتّي" في معنى الضّرب الذي هو سبب من أسباب الألم والوجع , ويستعمل سكّان الجنوب التّونسيّ عبارة "تِتّي" لدعوة الدّجاج إلى التّجمّع حول مكان وضع الحبوب والطّعام المخصّص لها بحيث أنّ الصّوت "تِتّي" هو صوت مجعول للزّجر مثل الصّوت "صص" و"سس" وكذلك للتّخويف بحيث أنّ صاحب الدّجاج أو صاحبة الدّجاج تدعوه بعبارة "تِيتِي" بمعنى " تجمّع أو أضربك وأوجعك".

وعلى هذا الأساس فأنّ الصّوت "أت" و"أد" كان هو الآخر صوتا يطلقه الإنسان بصورة غريزيّة للزّجر والنّهر والتّنبيه والتّحذير والتّخويف فاستعمله النّاس تَبَعا لذلك في معاني لها صلة بالزّجر والتّنبيه والتّخويف وبالقائمين بالزّجر

والتّنبيه والتّخويف وبالأشياء الدّاعية إلى الزّجر والتّنبيه والتّحذير كالأشياء المتسبّبة في الألم والوجع.

ففي هذا السّياق مازال السّكان في تونس يستعملون إلى اليوم كلمة "دَا" و"دَايَة" و"دَادَة " في معنى الأب والأم والسّيد والسّيدة ومن هذا المقطع جاء إسم "جَدّ " بالجيم الذي يطلق على الأب الكبير وإسم "جدّة" مؤنّثه الذي يطلق على الأم الكبيرة, وتستعمل كلمة "دَايْ " في اللّغة التّركيّة في معنى السّيد والحاكم في حين تستعمل كلمة "دَا" و"دَادْ " و"دَادِي" في اللّغة الإنجليزيّة في معنى الأب.

ولاحظنا أنّ السّكان في الجنوب التّونسي يستعملون كلمة "دَا" في معنى السّيد والسّيدة, وتتّخذ صيغة "دَاك" بزيادة الصّوت "كَا" في آخرها كما يضيفون هذا الصّوت أيضا لإسم "أب" ويستعملونه في صيغة "باك", ويستعمل سكّان الجنوب التّونسي إسم "دَاك" واسم "باك" في معنى السّيد والسّيدة من باب الإحترام والتّقدير عند مخاطبة الكبار والحديث عنهم فيقولون مثلا عند حديثهم عن أحد الكبار "باك فلان" وعند حديثهم عن إحدى السّيدات "داك فلانة ".

وكان الكنعانيّون, سكّان بلاد الشّام في القديم , يعبدون إلها إسمه "بَعْل" و"حَدّ" كما كان العرب قبل الإسلام يعبدون إلها إسمه "أُدّ" و"وُدّ".

ويرمز الآلهة الذين عبدهم النّاس في القديم إلى آباء و أجداد الشّعوب الذين عبدوهم وإلى ملوك حكموا في أسلافهم ومصلحين أصلحوا من شؤونهم وكثيرا ما كان الإله الواحد أبا وملكا ومصلحا في الآن نفسه.

وعلى هذا الأساس فأنّ إسم "حَدّ" وإسم "إله" متعادلان ولأجل ذلك تجسّمت عادة التّحويط في ذكر إسم الإله أو الآلهة بإعتبار أنّ الآلهة يرمزون إلى الأشخاص الذين كانوا يمثّلون الحدود الحامية والحيطان الواقية للأسر

والجماعات البشريّة قبل تدعيم حمايتهم بأقامة الحيطان والجدران والحواجز المادّية بمختلف أصنافها.

وعلى هذا الأساس فإنّ تعليق أذيال الحوت لإبعاد الشّرّ وزجر مصادره هو صورة أخرى لسلوك طبيعيّ قديم يتمثّل في إستعمال بعض الوسائل الطّبيعيّة للزّجر وإبعاد الشّرّ وتتمثّل في إطلاق جملة من الأصوات الطّبيعيّة للزّجر والتّنبيه والتّحذير والتّخويف وإبعاد مصادر الشّرّ ومنها الصّوت "أُس" و" أُسْتْ" و"أُشْ" و"أُشْتْ" و"بِس" و"بِسْتْ" و"أَخْ" و"أَحّيت" وهي أصوات تعوّد الإنسان إطلاقها بصورة غريزيّة في المواقف الحرجة والصّعبة لإبعاد أسباب الحرج والشدّة على غرار الحيّة التي تكشّ وتطلق الصّوت "كِخْ" بصورة غريزيّة في مثل هذه المواقف عندما يقترب منها بعض الدّخلاء والغرباء فتشعر بالخطر وتكشّ.

وتأكيدا لصحّة تحاليلنا لاحظنا أنّ السّكان في البلاد التونسية يطلقون إلى اليوم عبارة "كِسْ بِسْ" لإبعاد الشّر والأذى والمكروه بحيث أنّ عبارة " كِسْ بِسْ " تعادل عندهم التّحويت.سواء من خلال تعليق أذيال الحوت أو من خلال إطلاق " الحوت على فلان" لإبعاد الشّر والأذى.

ففي هذا السّياق لاحظنا أنّ السكان في تونس يستعملون لفظة "بِسْ" لزجر القطط كما أنّهم يستعملون لفظة "كِس" لزجر الكلاب والقطط معا وقد أشرنا إلى أنّ الصّفير الذي يحدثه الإنسان للزّجر والتّحذير يتخذ صيغة الصّوت "أس" و"أست" و"أش" و"أشت" و"بِس" و"بِست" بحيث أنّ لفظة "بِس" التي تستعمل للزّجر والإبعاد أصلها الصّفير وكذلك الشّأن بالنّسبة لكلمة " كِسْ " فأنّها تتركّب من الصّوت "أس" الذي شرحنا أصله ومعناه ومن الصّوت "كا" أو "أَكْ" وهو صيغة للصّوت "أخْ" و"كِخْ" الذي يطلقه الإنسان للزّجر والنّهر والإبعاد حيث أنّ

النّاس في تونس وغيرها من البلدان مازالوا إلى اليوم يستعملون لفظة "أخْ" و"أخّة" و"كِخْ" و"كِخّة" للزّجر والنّهر والتّنبيه والتّحذير والتّخويف وخاصّة في اللّغة المستعملة لمخاطبة الأطفال الصّغار. فمن ذلك أنّ الأمهات في تونس مثلا يستعملون لفظة "أخّة" و"كخّة "لزجر أطفالهنّ ونهيهم عن اللّعب بالأشياء المضرّة أو الوسخة, كما أنّ السكان في تونس يستعملون لفظة "أخ" لزجر الغنم على غرار إستعمال لفظة "أشْ" لزجر الذّباب والطّير.

كما يمارس السكان في تونس أيضا عادة أخرى من هذا القبيل تتمثّل في تعليق صورة كفّ اليد للوقاية والتّحصين وإبعاد الشّر.

فبالإضافة إلى تعليق التّعاويذ المتمثّلة في أذيال الحوت والسّمك التي شرحنا أصولها وأبعادها ومعانيها الحقيقيّة يقوم السكان في تونس بتعليق صورة كفّ اليد مجسّمة في قطعة حلي بهذا الشكل على ملابسهم أو مطرّزة فيها لإتقاء الشرور وإبعاد الأذى كما يرسمون صورة كف اليد على أبواب المنازل لإبعاد الشر والأذى ويسمّي السكان في تونس هذه التّعويذة التي لها شكل كفّ اليد بإسم الخمسة والمشطة, كما أنّهم يطلقون عبارة "خمسة وخميس" للوقاية والتّحصين وإبعاد الشّر مثلما يقولون "كِسْ بِسْ" و"الحوت على فلان" لإبعاد الشّر عليه.

فنحن نعتبر أنّ كف اليد في أطار هذه الإعتقادات ترمز إلى الكف في معنى العدول والتّوقف عن فعل شيء من الأشياء وكذلك إلى الضّرب بكفّ اليد حيث أنّ السّكان في تونس يستعملون كلمة "كف" في معنى ضرب الشّخص على وجهه بكفّ اليد وعلى هذا الأساس فإنّ صورة كفّ اليد ترمز إلى الزّجر والنّهر والتّنبيه والتّحذير والتّخويف من خلال الدّعوة إلى إبعاد نيّة فعل الشّر والتّحذير من الضرب الذي قد يتعرض له فاعل الشّر والنّاوي عليه في حال تماديه في نيّته وتجسيمها بالإعتداء على حامل صورة الكفّ ومن هذا المنطلق فإنّ صورة

كفّ اليد هي طريقة أخرى للزّجر والنّهر والتّحذير والتّنبيه والتّخويف والإبعاد وتعادل من هذه النّاحية كلمة "أسْ " و" أشْ " و" أخْ " و" أحّيت " و"بسْ " و"بستْ".

فقد لاحظنا أنّ بعض الشِعوب العربيّة والمصريّين بالذّات يستعملون كلمة "بسّ" للدعوة إلى الكف عن فعل شيء من الأشياء كما أنّ الفرنسيّين يستعملون لهذا الغرض لفظة "أسّي" التي هي صيغة لفظيّة للصّوت "أسِ" ومن هذا المنطلق فأنّ صورة كف اليد تعني "كفى " ونعتبر أنّ كلمة "كف" أو"كفى" هي في الأصل "خفْ" بمعنى الأمر بالخوف والإرتداع والخشية من مغبّة فعل الشّر أو نيّة فعله, وحيث أنّ الذي يتمادى في غيّه وعزمه على فعل الشّر يتعرّض إلى العقاب بالضّرب بكفّ اليد والرّكل بالرِّجْلِ أُستُعْمِلَتْ كلمة "كف" في معنى كف اليد واستعملت صورة كفّ اليد كرمز لزجر أصحاب الشّر ونهيهم ونهرهم وتحذيرهم وتخويفهم فلذلك أطلق على الكفّ أيضا إسم "الخمسَة " و"المشطة" حيث أنّ لفظة "خُمْسَة" تفيد في حقيقة الحال الخَمْشِ بمعنى الخَدْش كما في اللّغة العربيّة وتفيد كلمة "خَدَش" الجُرُوح التي يحدثها نشب الأضافر في الوجه وفي الجسم, كما أنّ كلمة "مُشْطَة" تستعمل إلى اليوم في تونس في معنى الرّكلة بواسطة الرّجل أو مشطة الرّجل وهي جمع أصابع القدم.

وقد كان الزّجر بواسطة إطلاق الأصوات المجعولة لذلك مثل الصّوت "بِس" مرفوقا بحركات التّهديد بالضّرب بكفّ اليد وبالرّكل بالرّجل فارتبط الزّجر بالكفّ والخمش والمشطة ومازال الإنسان إلى اليوم يمزج الزّجر والنّهر بالقيام بحركات التّهديد بالضّرب بكفّ اليد وجُمْعِ القدم وبعبارة أخى بالكفّ والمشطة.

كما يعتقد سكان البلاد التونسيّة في هذا الإطار أيضا أنّ الودع يمتلك القدرة على إبعاد الشّر وتحصين الأشخاص ووقايتهم من الأذى والمكروه فلذلك يعلّق السّكان في تونس الودع للتّحصين وإتّقاء الشّرور.

فنحن نعتبر أنّ الإعتقاد في قدرة الودع على التّحصين وإبعاد الشّر شبيه بالإعتقاد في قدرة صورة الكفَ على إبعاد الشّر حيث أنّ لفظة "ودع" تستعمل في اللّغة العربيّة في معنى الكفّ والتوقّف والإقلاع عن فعل شيء من الأشياء, فقد لاحظنا أنّ لفظة "ودع " تستعمل في اللّغة العربيّة من النّاحية النّحوية والصّرفيّة كفعل يفيد معنى الكفّ والإقلاع والتّوقف والإقلاع كما يقول الشاعر العربيّ المعروف أبو نواس الذي عاش في القرن الثالث للهجرة في بيته الشّهير مخاطبا شخصا يلومه على شرب الخمر :

دَعْ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءُ

وَدَاوِنِي بالتي كانت
هِيَ الدَّاءُ "

وقد قصد الخمر في إشارته إلى التي تداوي من الدّاء الذي تتسبّب فيه.

ومن هذا المنطلق فإنّ كلمة "ودع" وخاصّة في صيغة "دَعْ " تعادل معنى "كف" و "أس" و"بس" و"إر" و"أح" و"أخّة" وغيرها من الأصوات الطّبيعيّة المجعولة للزّجر والتّنبيه.

ويستعمل المصريّون في مثل هذه الحالات كلمة "أُوْعَى" للزّجر والتّنبيه وهي كلمة مأخوذة من الصّوت "أعْ" الذي يطلقه الإنسان بصورة غريزيّة عند الشّعور بالمرارة على وجه الخصوص حيث أنّ الإنسان الذي يشرب سائلا مرّا مثلا يقذفه بصورة غريزيّة من فمه مع إطلاق الصّوت "أعْ" و"أفْ" و"تفْ" بحيث

أنّ كلمة "ودع" تتألّف من الصّوت "أع" ومن الصّوت "أد" الذي سبق أن حلّلنا أصله ومعناه وقلنا إنّه صوت يطلق هو الآخر للزّجر ويتّخذ أحيانا صيغة "إت" بالتّاء.

وفي هذا السّياق وجدنا أنّ الإعتقاد في العين المؤذية هو من قبيل الإعتقاد في قدرة الودع على إبعاد الشر حيث نعتبر أنّ كلمة "عين" هي في حقيقة الحال صيغة لفظية لكلمة "أوعى" المأخوذة من الصوت"أع" والتي تستعمل للتّنبيه والتّحذير والدعوة إلى أخذ الحذر, فقد أشرنا إلى أنّ الإنسان يطلق بصورة غريزية الصون "أع" عند الشّعور بالمرارة فإستعمله في معنى المرارة والمضرّة وكذلك للتّنبيه والتّحذير من مصادر المرارة والمضرة على غرار الصوت "أح" الذي يطلقه الإنسان عند الشعور بالألم فاستعمله في معنى الألم والمصادر المتسببة فيه كالنّار.

فقد لاحظنا أنّ السّكان في الجنوب التونسي يستعملون كلمة "عين" للتنبيه والتحذير فيقولون مثلا للشخص الذي يعثر في حجر" عينك" بمعنى خذ حذرك وعلى هذا الأساس فإنّ كلمة "عين" كانت تفيد في الأصل الشّر والمضرّة والمرارة باعتبار أنّها مأخوذة من الصوت "أغ" الذي يطلقه الإنسان عند الشّعور بالمرارة فاستعمله في معنى المرارة والمضرّة كما استعمله للتّنبيه والتّحذير من المصادر المتسبّبة في المرارة والمضرّة.

ومن هذا المنطلق فإنّ كلمة "عين" تعادل كلمة "أوعى" و"أس" و"اش" و"بس" و"كس" و"أح" و"أخ" و"أع" وهي صيغة لفظية للصوت "أع" فذلك هو مغزى قولنا إنّ الإعتقاد في العين هو من قبيل الإعتقاد في قدرة الودع والحوت وصورة الكفّ على إبعاد الشّر. وفعلا فأنّ العين تسمّى باسم "أخّة" في بعض اللّغات الإنسانيّة كاللاّتينية واللّغات الأوروبية الناقلة عنها.

ففي هذا السّياق وجدنا أنّ الودع يسمّى باسم "كوك" و"كوكي" في سياق اللّغة الفرنسية ويسمى باسم "شال" في سياق اللّغة الإنجليزية ونعتبر أنّ كلمة "كوك" هي صيغة لفظية لكلمة "كخّة" التي هي بدورها صيغة لفظية لكلمة "أخ" و" أخّة" وأشرنا إلى أنّ كلمة "أخ" و"أخّة" هي صوت طبيعي يطلقه الإنسان بصورة غريزية للزّجر والنّهر والتّنبيه والتّحذير على غرار القطط والحيّات التي تطلق أصواتا شبيهة بالصوت "أخ" عند الشعور بالخطر من باب الزّجر والتّنبيه والتّحذير والتّخويف, ومازال النّاس يستعملون إلى اليوم الصوت "أخ" في هذه الصيغة وكذلك في صيغة "أُخًّه" و"كخْ" و"كِخًّة" للزّجر والنّهر والنّهي والتّنبيه والتّحذير والتّخويف ويمكن أيضا أن يتّخذ صيغة "كشّة" بالنّظر إلى تعادل الصوت "شا" و"خا" فلأجل ذلك تستعمل كلمة "كشّة " في سياق اللّغة العربيّة في معنى الصّوت الذي تحدثه الحيّة في المواقف الخطرة والصعبة وكذلك لوصف حالة الشخص الذي يُـكَشّبُ في وجه شخص آخر ويردّه خائبا وينهره ويزجره, ومازال السكان في تونس يصفون الشخص في هذه الحالة بالقول "إنّه يكِشُّ ويَنِشُّ".

فمن ذلك أنّ الأمّهات في تونس يقلن لأطفالهنّ الصغار "أَخْ" و"أخّة" و"كخْ" و"كخّة" لزجرهم ونهيهم عن اللّعب بالأشياء المضرّة والوسخة والنّجسة كالبول والبراز والخرء والفضلات بجميع أنواعها كما أنّ الناس في تونس يستعملون كلمة "كخّة" في معنى الشيء الوسخ بحيث أنّ الصوت "كخّة" يفيد مصادر الوسخ ويستعمل للنّهي والتّنبيه والتّحذير منها على غرار الأصوات الأخرى الشّبيهة به كالصّوت "أُسْ" و" أخْ" و"أَغْ" التي تستعمل في معنى مصادر الشّر والضّرر وكذلك للزّجر والتّنبيه والتّحذير منها, ويسمى الخَرْءُ في تونس باسم "شلال" وينطق "خَرَى " في حين يقال للشّخص الذي يفرز الشّلال إنّه

يَشِـلُ وتتّخذ في الماضي صيغة "شَلْ" وقد أشرنا إلى أنّ الودع يسمّى في الإنجليزية باسم "شَلْ".

وعلى هذا الأساس فإنّ حمل الودع بقصد إبعاد الشّر يشبه حمل الخمسة أو صورة الكفّ وحمل أذيال الحوت وإطلاق عبارة "كِسْ بِسْ" ويقصد منه الزّجر والنّهر والتّنبيه والتّحذير باعتبار أنّ كلمة "ودع" تفيد الدّعوة ألى الكفّ عن التّمادي في نيّة فعل الشّر, فالذي يحمل الودع كالذي يكتب كلمة "أخّة" و"كخّة" على ثيابه لزجر أصحاب الشّر ونهيهم عن الإقتراب منه.

وتأكيدا لصحّة تحاليلنا وجدنا أنّ الكثير من المجتمعات الإنسانيّة يعتقدون في قدرة الأوساخ والنّجاسة والبراز والخَرْءِ والشّلال على إبعاد الشّر والأذى ومن بينهم المجتمعات العربيّة والمجتمع التّونسيّ على وجه الخصوص.

كما كان العرب في القديم يعتقدون في قدرة الأشياء الوسخة والنّجسة على إبعاد الشّر والأذى.

وانسجاما مع هذا الإعتقاد مازال النّاس في المجتمعات العربيّة يعلّقون شتّى الأشياء النّجسة لإبعاد الشّر كالبراز والخرء وخرقة الحيض التي تستعملها النّساء عند الحيض لامتصاص دم الحيض.

ففي هذا السّياق يحكي الأهالي بناحية ساقية سيدي يوسف بالشّمال الغربي للبلاد التونسيّة قصّة حول وليّة صالحة لها مقام بتلك النّاحية يحوي ضريحها وتسمّى الحاجّة خديجة ومضمونها أنّ أحد اللّصوص سمع بما يحويه مقام الحاجة خديجة من أموال وهدايا نذرها النّاس لها فعزم على سرقته وفكّر في وسيلة يحمي ويقي نفسه من ضربات الوليّة التي كانت تتمتّع على غرار الأولياء الصّالحين والوليّات الصّالحات الآخرين بقدرة خارقة للعادة تتعدّى

الزّمان والمكان فعمد اللّص إلى البراز والخَرْءِ والفضلات البشريّة فنجّس بدنه وطلى سائر جسده بتلك الفضلات و تسلّل ليلا إلى مقام الحاجة خديجة وسرق ما فيه من أموال وهدايا وخرج ولمّا كان نجسا ومطليّا بالبراز والخرْء فإنّ الوليّة خديجة لم تقدر أن تتصدّى له وتضربه لخوفها من أن تتجس بدورها فتشوب طهارتها شائبة وقامت في اللّيل في المنام لأحد أبنائها وأعلمته بما حصل وطلبت منه أن يتعقّب السّارق ويتعرّف عليه ويعلمها بالأمر بإشارات خفيّة دلّته عليها فأنجز الإبن ما أمرته به جدّته وعثر على السّارق ذات يوم يبيع المسروقات في سوق مدينة تاجروين القريبة فأخبر جدّته الوليّة حسب الإشارات التي دلّته عليها. ففي ذات يوم بينما كان السّارق في مجلس مع بعض أصحابه أحسّ كأنّ خنجرا إخترق لحمه ومزّق أحشاءه فصاح صيحة واحدة وسقط ميّتا.

وكان العرب في القديم يسمون هذه العادة باسم التّنجيس وفي هذا المعنى تروي كتب التّراث العربيّ أنّ إمرأة نجّست ولدها فمات فقالت ترثيه:

"نَجَّسْتُهُ لا يَنْفَعُ التَّنْجِيـسُ   والمَوْتُ لا تَفُوتُهُ النُّفُـوسُ"

وفي هذا السّياق كان العرب في القديم يعلّقون حيض السّمرة وهو شيء يسيل من نبات السّمر كالدّم وإذا يبس كان أسْوَدَ ويسمّي العرب هذا الدّم باسم "الدَّوْدَم" .

ونعتبر أنّ كلمة "طوطم" التي يطلقها العلماء على بعض الإعتقادات المماثلة مأخوذة من إسم الدّودم المذكور مع أنّ العلماء المعاصرين أخذوها من لغة بعض قبائل الهنود الحمر بالقارة الأمريكيّة.

وقد ظلّت الأوساط الرّيفيّة في بعض البلدان العربية كتونس إلى عهد قريب جدا يعتقدون في قدرة حيض المرأة على إبعاد الشّر بحيث كانت المرأة

الحائض في بعض أرياف هذه البلدان تنام ليلا مع غنم القرية في المرابض الخارجيّة المعدّة لها لإعتقاد السكان أنّ المرأة الحائض تحمي وتقي الغنم من الذّئاب التي تخاف من الإقتراب منها لأنّها نجسة بسبب دم الحيض.

وقد رأينا أنّ النّاس يعتقدون أنّ البوم مصدر شؤم وأنّها إمرأة ممسوخة تهوى إختطاف الصّبيان.

فهذا الإعتقاد في أنّ البوم مصدر شؤم هو أيضا من قبيل الإعتقاد في قدرة الحوت وصورة كفّ اليد والودع والأوساخ على إبعاد الشّر ودفعه حيث أنّ إسم "بوم" مأخوذ من الصّوت "أب" الذي مازال الإنسان يستعمله إلى البوم للزّجر والنّهر والتّنبيه والتّحذير والتّخويف في صيغ متعدّدة ومنها صيغة "أبو" و"أبوك".

فقد لاحظنا أنّ السكان في تونس وخاصة في الجنوب التونسي يستعملون إلى اليوم لفظة "أبّوك" للزّجر والنّهر والتّحذير والتّخويف ونعتبر أنّ الصّوت "أب" هو صوت يطلقه الإنسان بصورة غريزيّة عندما يقبض ويمسك شخصا أو حيوانا أو شيئا من الأشياء ويحدث الإنسان الصّوت "أب" بواسطة إطباق فَكّيْ الفم الأعلى والأسفل على بعضهما إشارة إلى القبض والإمساك والإفتراس والإلتهام بحيث أنّه صوت طبيعيّ قديم كان الإنسان يحدثه بصورة آليّة وغريزيّة عندما كان يستعمل فمه للقبض والإفتراس مثل الحيوانات الأخرى من خلال إطباق الفكّين الأعلى والأسفل على بعضهما ثمّ عندما تعلّم الإنسان إستعمال يديه للقبض والإمساك ظلّ يحدث الصّوت " أب" بصورة آليّة بواسطة إطباق الفكّين على بعضهما تقليدا لما كان يفعله من قبل.

ففي هذا السّياق لاحظنا أنّ السكان في تونس مازالوا إلى اليوم يستعملون الصّوت "أُبْ" و"أُبَّحْ" عند القبض والإمساك بحيث أنّ الشّخص في تونس يطلق بصورة غريزيّة الصّوت "أب" عندما يقبض على شخص أو حيوان أو على

شيء من الأشياء بيديه بواسطة إطباق فكّي الفم الأعلى والأسفل على بعضهما فارتبط الصّوت "أُب" بالقبض والإمساك والإفتراس والإلتهام واستعمله النّاس في معاني لها صلة بهذه العمليّات وكذلك في معنى القوّة والعظمة, فقد لاحظنا أنّ التونسيّين يقولون أحيانا في حديثهم "أب, أب, أب" للإشارة إلى قوّة وعظمة شخص أو حيوان أوشيء من الأشياء كما أطلق الإنسان الصّوت "أب" على الأشخاص الذين يجسّمون القوّة والعظمة كالآباء والأسياد حيث أنّ الصّوت "أب" يستعمل في سياق اللّغة العربيّة بهذه الصيغة في معنى الأب الذي يجسّم القوّة والعظمة في مستوى الأسرة في حين تستعمل كلمة "بَاي" في معنى السّيد والحاكم في اللّغة التّركيّة.

ويسمّى البوم في اللّغة الفرنسيّة باسم "إبو" بحيث أنّ الصّوت "أم" هي زائدة لغويّة وتستعمل هذه الزّائدة في بعض اللّغات علامة للجمع كما في اللّغة اليهوديّة.

وقد إستعمل الإنسان الصّوت "أب" للزّجر والتّنبيه والتّحذير والتّخويف بإعتبار أنّ إطلاقه مرتبط بالقبض والإمساك والإفتراس بحيث أنّ إطلاقه يعني "سأقبض عليك وأفترسك" وأصبح يرمز للقبض والإمساك والإفتراس.

وأشرنا أنّ السّكان في تونس يستعملون الصّوت "أب" في صيغة "أبّو" و"أبّوك " للزّجر والتّحذير والتّخويف.

وبناء على ذلك فإنّ البوم الذي ظلّ النّاس يعتقدون أنّه مصدر شؤم يرمز في حقيقة الحال إلى جماعة وفئة من البشر عاشوا في قديم الزّمان وكانوا يحملون أثناء وجودهم فوق الأرض إسم "بوم" لأنّهم كانوا محلّ خوف وحذر ونعتبر أنّ هذه الفئة هي فئة الآباء والأمهات والأسياد ومازال الآباء والأمهات والأسياد إلى اليوم محلّ خوف وحذر.

فكلّ الحيوانات النّاطقة والعاقلة التي تتحدّث عنها الأساطير والخرافات الشّعبيّة ترمز إلى بعض الفئات والجماعات من البشر الذين عاشوا في قديم الزّمان وكانوا يحملون أسماء هذه الحيوانات تعبيرا عن بعض الصّفات والخصال البشريّة المميّزة لهم, وعلى هذا الأساس فإنّ الأساطير والخرافات الشّعبيّة التي تدور أحداثها حول بعض الحيوانات النّاطقة والعاقلة هي أخبار تاريخيّة قديمة تنقل بعض الوقائع والأحداث الحقيقيّة التي حصلت في قديم الزّمان لبعض الجماعات من البشر فوق بعض بقاع الأرض.

غير أنّ النّاس والأجيال المتأخّرة منهم بالخصوص نَسوْا المعنى الحقيقي لهذه الحيوانات وللأساطير التي تتحدّث عنهم بحكم طول العهد وتغيّر الأوضاع وتوسّع النّشاط الإنساني الذي نجم عنه توسّع في مستوى الكلام واللّغات الإنسانية جعل النّاس يغفلون عن المعنى الحقيقي للحيوانات النّاطقة والعاقلة التي تتحدّث عنها بعض الأساطير والخرافات الشّعبيّة وتهتمّ بتصوير أحوالها.

فأسماء الأشخاص والحيوانات والأشياء هي ألفاظ ومن خصائص الألفاظ المستعملة في مختلف اللّغات الإنسانيّة أنّ كلّ لفظة منها تحمل معاني متعدّدة ولكنّها قريبة ومرتبطة ببعضها في حقيقة الحال بحيث أنّ المعنى الذي تؤدّيه اللّفظة في سياق من السّياقات قد يختلف عن المعنى المقصود منها في سياق آخر, وعلى هذا الأساس فإنّ كلّ إسم من الأسماء يفيد معاني متعدّدة وبالتّالي فإنّ المعنى المقصود منه قد يختلف من سياق إلى آخر وليس بالضّرورة المعنى الذي يتراءى للفكر ويخطر على الذّهن من أوّل وهلة بحكم الإستعمال السّائد لذلك الإسم في ذلك المعنى.

فمن ذلك مثلا أنّ إسم "طير" يستعمل في سياق اللّغة العربيّة في معنى الحيوانات المعروفة بالطّيور كما أنّه يفيد معنى النّكاح وكذلك معنى الشّؤم والتّطيّر في اللّغة العربيّة أيضا.

وبالإضافة إلى تعدّد المعاني فأنّ الكلمة الواحدة تَتّخِذُ صيغا لفظيّة متعدّدة مثل كلمة " ذر" بمعنى الأولاد في العربيّة فإنّها تتّخذ حسب اللّهجات صيغة "ذِر" و"ذُريّة" و"ذراري" و"ذِرّي" وينطقها المصريّون في لهجتهم العربيّة الدّارجة بصيغة "زِر" بالزّاء و يطلقونها على صغار ثمار الفقوس والدّلاع والبطّيخ في حين يطلق عليها التونسيّون إسم "جِرْو" فيقولون جرو بطّيخ ودلاّع بمعنى ثمرة الدّلاع أو البطّيخ التي مازالت في طور الصّغر كما يطلق التونسيّون كلمة "جِرْو" على فراخ الكلاب والقطط.

وفي حقيقة الحال فإنّ إسم "ذر" بالذّال و"زر" بالزّاء وجروْ هي في الأصل كلمة ولفظة واحدة إتّخذت كلّ هذه الصّيغ اللّفظيّة بحكم تعادل الأصوات في الكلام واللّغات الإنسانيّة.

فالمفردات والألفاظ والكلمات المستعملة في مختلف اللّغات الإنسانيّة تتركّب من مجموعة من الأصوات الثّابتة وهي مجموعة الأصوات التي ترمز إليها حروف الهجاء مثل الصّوت "أ" والصّوت "با" والصّوت "تا" والصّوت "جا " و"خا" و"سا" و" كا" وغيرها من الأصوات المتعادلة والمتساوية إمّا لفظيّا ومعنويّا أو معنويّا فقط وعلى هذا الأساس فإنّ الأصوات المتساوية لفظيّا والتي هي أيضا متساوية معنويّا هي في الأصل صوت واحد اتّخذ صيغا صوتيّة متعدّدة بحكم الإختلاف في النّطق النّاجم عن الإختلاف في التركيبة البدنيّة مثل الصّوت"تا" والصّوت "طا" والصّوت "دا" فهذه الأصوات الثّلاثة متساوية لفظيا ومعنويا ومثل الصّوت "دا" والصّوت " ذا" الذين هما أيضا متعادلان لفظيا ومعنويّا وكذلك

الشّأن بالنّسبة لصوت "سا" وصوت "شا" أو صوت "خا" وصوت "كا" والصّوت "ذا" والصّوت "زا" فالأصوات المتعادلة لفظيا ومعنويّا تعوّض بعضها في سياق الكلام دون المسّ بالمعنى وهناك أيضا أصوات متعادلة معنويّا أحيانا مثل الصّوت "خا" والصّوت "شا" وتعوّض بعضها أيضا في الكلام الإنساني دون المسّ بالمعنى العام.

ومصدر وعلّة هذه الظّواهر اللّغويّة هو أنّ الأصوات التي تتركّب منها الألفاظ هي الأصوات الطّبيعيّة التي تعلّم الإنسان إطلاقها في بعض المواقف بصورة غريزيّة مثل الصّوت "أس" و"أش" و"أست" و"أشت" و"أح" و"أع" و"أخ" و"أت" و"دا" التي شرحنا أصلها ومعناها في ما سبق.

فالصّوت "سا" الذي يدخل في تركيب بعض ألفاظ اللّغات الإنسانيّة كلفظة "سيّد" في العربيّة أصله الصّوت "أس" الذي يطلقه الإنسان بصورة غريزيّة بواسطة الصّفير في الحالات الحرجة والصعبة للزجر والتحذير والتخويف على غرار الصياح الذّي يحدثه الدّجاج وكذلك الشّان بالنّسبة للصّوت "خا"فإنّ أصله الصّوت "اخ" والصّوت "عا" الذّي اصله الصوت"أع"..

فقد أشرنا أنّ الإنسان تعلّم إستعمال الصوت "أسْ" و"أشْ" و"أُخّة" للزجر والنّهر والتّحذير والتّخويف وعلى هذا الأساس فإنّ الصّوت"سا" والصّوت "شا" والصّوت "خا" متعادلة معنويّا وذكرنا أن الصّوت "أخّة" يمكن أن يتّخذ أيضا صيغة "كشّة" كما أشرنا إليه سابقا فكلمة "كخّة" تتمثّل في الأصل في تكرار الصّوت "أخ" وكانت تنطق "أخ, أخ" في البداية ثمّ إتّخذت صيغة "خخّة" فصيغة "كخّة" بالنّظر لتعادل الصّوت "خا" والصّوت "كا" من الناحية اللّفظيّة والمعنويّة وبعدها إتّخذت صيغة "كشّة" إعتبارا لتعادل الصّوت "شا" والصّوت "خا" أو الصّوت "كا" معنويّا.

ثمّ إنّ هناك الكثير من الكلمات التّي تنطق بصيغة واحدة وتحمل معاني مختلفة فإنّها في الأصل كلمة واحدة إتّخذت معاني متعددّة ولكنّها قريبة ومرتبطة ببعضها في حقيقة الحال سواء كانت تلك الكلمات مستعملة داخل لغة واحدة أو داخل لغات مختلفة.

ففي هذا السّياق نلاحظ أنّ كلمة "هِر" تستعمل في اللّغة العربيّة وفي اللّغة الألمانيّة وفي اللّغة الفرنسيّة غير أنّها تتّخذ داخل كلّ لغة معنى يختلف في الظّاهر عن معناها في اللّغة الاخرى بحيث أنّها تبدو في كلّ لغة بأنّها كلمة خاصّة بها دون غيرها في حين أنّ الأمر يتعلّق بلفظة واحدة إتّخذت معاني متعددّة في الظّاهر ولكنّها قريبة جدّا من بعضها في الواقع.

فكلمة "هِر" تستعمل في اللّغة العربيّة في معنى الحيوان المعروف بإسم "هِر" و"قط" و"سِنّور" في حين تستعمل في اللّغة الفرنسيّة في معنى السّاعة الزّمانيّة وتستعمل في اللّغة الألمانيّة في معنى السّيّد والعظيم.

كما أنّ كلمة "قطّ" تستعمل في العربيّة والأنجليزية والألمانيّة, فهي تستعمل في العربيّة في معنى الحيوان المعروف بإسم "قطّ" و"هر" وتستعمل في الألمانية في معنى الإله كما تستعمل في الأنجليزيّة في معنى القط والإله أيضا وفي معنى القطع والقصّ, وتستعمل كلمة "قط" كذلك في العربيّة في معنى القطع والقصّ في صيغة "قطّ" و"قت" و"قد" باعتبار تعادل الأصوات "تا" و"طا" و" دا".

ونشير كذلك بأنّ الكلمات التي تنطق بصيغ قريبة تمثّل في الأصل كلمة واحدة إتّخذت هذه الصّيغ بحكم تعادل بعض الأصوات. ففي اللّغة البربريّة يسمى الملك باسم "أجليد" الذي يتّخذ أيضا حسب اللّهجات صيغة "إقليد" و"إغليد" و"إخليد" و"إجلاص" بحيث أنّ كل هذه الكلمات هي في الأصل كلمة واحدة

إتّخذت مختلف هذه الصّيغ بحكم التّعادل اللّفظي والمعنوي للأصوات اللّغويّة والكلاميّة.

وهناك أيضا كلمات لها صيغ لفظيّة متقاربة وتؤدّي معاني مختلفة في الظّاهر ولكنّها قريبة من بعضها في الحقيقة, فإنّ هذه الكلمات هي أيضا في الأصل كلمة واحدة إتّخذت مختلف تلك الصّيغ والمعاني.

فمن ذلك مثلا أنّ الهرّ أو السنّور يطلق عليه في الأنجليزية إسم "كَاتْ" أو "كَتْ" وفي اللاتينيّة إسم "قطوس" مع نطق الصّوت "قا" بالطّريقة السّارية عند البدو وأهل الرّيف في تونس وفي السّودان والنوبة باسم "قدّيس".

فكلمات "قط" و"كات" و"قطوس" و"قدّيس" هي في الأصل كلمة واحدة اتّخذت كلّ هذه الصّيغ اللّفضيّة كما أنّ كلمة "قط" و"قد" و"قت" تستعمل في العربية في معنى القطع والإستئصال والقصّ وكذلك الشّأن في اللّغة الأنجليزية فإنّ كلمة "كات" تستعمل أيضا في معنى القطع والقصّ.

فالأمر في كلّ الحالات يتعلّق بكلمة واحدة إتّخذت كلّ هذه الصّيغ اللّفظيّة وكلّ هذه المعاني من معنى الإله في اللّغة الألمانيّة مثلما رأيناه سابقا إلى معنى السنّور والهرّ والقطع والقصّ في العربيّة والأنجليزيّة.

وباعتبار تعادل الصّوت "كا" والصّوت "قا" والصّوت "خا" فإنّ كلمة "جدّ" هي أيضا صيغة لفظيّة لكلمة "قطّ" و"قد" حيث أنّ بعض النّاس كالمصريّين مثلا ينطقون الصّوت "جا" في صيغة الصّوت "قا" على الطّريقة السّارية عند أهل الرّيف في تونس.

فأصل كلّ هذه الكلمات هي لفظة "أُخَّة" و"كِخّة" التي يستعملها الإنسان للزّجر والتّنبيه والتّحذير والنّهر والتّخويف في الحالات والمواقف الدّاعية إلى

ذلك مثلما تَكِشُّ الحيّة في حال تعرّضها إلى إعتداء خارجي ومثلما تفعل القطط لزجر المعتدين عليها حيث أنّ القطط تطلق هي الأخرى صوتا شبيها بالصّوت "أخْ" و"كِخْ" عندما تزجر أحدا يريد الإعتداء عليها أو إزعاجها وإقلاق راحتها مع بسط ساقيها للتّخميش والخدش, وسبق ان أشرنا إلى أنّ الأمهات في تونس يستعملن كلمة "أخّة" و"كُخّة" لزجر أطفالهنّ الصّغار ونهيهم عن اللّعب بالأشياء النّجسة والمضرّة.

فكلمة "قط" هي صيغة لفظيّة لكلمة "كُخّة" نظرا لتعادل الصّوت "خا" و"كا" و"قا".

وعلى هذا الأساس فإنّ كلمة "قط" و"قد" و"قت" و"جد" كانت في الأصل تتمثّل في إطلاق الصّوت "أخّة" و"كِخّة" للزّجر والتّنبيه والتّخويف ثمّ إتّخذت مع مرّ الزمن صيغة "قطّ" و"قد" و"جد" وكان رؤساء الأسر والكبار والرّجال عموما هم الذين يتولّون مهمّة زجر المعتدين والمخالفين بواسطة إطلاق الصّوت الطّبيعيّ "أخ" و"أخّة" و"كخّة" و"أخط" الذي إتّخذ صيغة "قط" و"قد" و"جد" و"كت" فارتبطت هذه الألفاظ الزّجريّة بالأشخاص القائمين بمهمّات الزّجر وكذلك على من يتوجّه إليهم الزّجر كالحيوانات المتطفّلة من قطط وغيرها وأيضا على من يستحقّ أن يزجر كالمذنب من أفراد الأسرة والجماعة وعلى من يستوجب الزّجر من أجله كالأسرة والزّوجة والأولاد وعلى هذا الأساس إتّخذت كلمة "قط" معنى الأب والجد في صيغة "جد" باعتبار أنّ الآباء والأجداد والكبار عموما .كانوا رؤساء الجماعات البشريّة في القديم وقادتها والمدافعين عنها بواسطة أصوات الزّجر والتّخويف كالصّوت "أخْ" و"أسْ" و"أشْ". وقد أشرنا إلى أنّ الآلهة الذين عبدهم النّاس في القديم يرمزون إلى آباء وأجداد الشّعوب التي عبدتهم وملوك حكموا في أسلافهم ومصلحين أصلحوا من شؤونهم فلذلك أطلقت كلمة "قط" على

الإله كما هي الحال في سياق اللّغة الألمانيّة في صيغة "قوط" وأيضا في سياق اللّغة الأنجليزيّة في صيغة "قود" مع نطق الصّوت "قا" على الطّريقة الرّيفيّة.

وتأكيدا لصحّة تحاليلنا وجدنا أنّ القط أو الهرّ يسمى باسم "شاه" في اللّغة الفرنسيّة وباسم "شاة" و"شات" في حال التّأنيث في حين تستعمل كلمة "شاه" في معنى الملك في سياق اللّغة الفارسيّة كما تستعمل كلمة "شاة" في العربيّة في معنى الغنم والنّعاج.

فكلمة "شاه" بمختلف معانيها المذكورة مشتقّة من لفظة "أش" و "أس" التي يستعملها الإنسان للزّجر والتّنبيه والتّحذير والتّخويف مثلما بيّناه سلبقا حيث مازال التونسيّون إلى اليوم يستعملون لفظة "أشْ" لزجر الذّباب والطّير فارتبطت بالزّاجرين والمزجورين والذين يزجر من أجلهم فأطلقت تبعا لذلك على السّاسة والملوك وكذلك على الآباء والكبار عموما كما هي الحال في تونس, فقد لاحظنا أنّ التونسيّين يستعملون كلمة " سي" في معنى "السيّد فلان" ونعتبر أنّ كلمة "سي" مشتقّة من الصّوت "أس" وهي صيغة لفظيّة للصّوت " إِس".

وقد استعملت كلمة "قط" و"شاه" لتسمية الحيوانات باعتبار أنّ الحيوانات كانت قديما في معضمها متوحّشة ومن النّوع الذي يستحقّ الزّجر والنّهر والهشّ والنّشّ كما يقول التّونسيّون حيث أنّهم يستعملون كلمة "النّشّ" في معنى الهشّ والزّجر الموجّه للحيوانات كالطّيور والغنم والشّاه.

فاستعمال كلمة "أخّة" و"كخّة" و"أسْ " و"أشْ" كان طريقة ووسيلة للتّنبيه والتّحذير والتّخويف الموجّه للدّخلاء والمعتدين والمتطفّلين القادمين من الخارج وكذلك للمذنبين والمخالفين من أفراد الأسرة والجماعة في الدّاخل فكانت هذه الأصوات الزّجريّة أولى الوسائل والطّرق التي أستخدمت لسياسة البشر لذلك

سمّيت السّياسة بهذا الإسم حيث أنّ كلمة "سياسة" و"ساسة" مشتقّة من الصّوت "أسّ " وتتمثّل في ترديد وتكرار الصّوت " أسّ" .

فالكبار والآباء والأجداد والسّادة والملوك سمّوا باسم "قط" و"قوط" و"قود" و"جد" و"شاه" و"سي" لأنّهم كانوا يقومون بزجر الأعداء وإبعادهم عن محيط الأسرة والجماعة وكذلك لأنّهم كانوا يقومون بزجر أفراد الأسرة إذا اقتضى الأمر ذلك ويقودونهم في مسيرتهم اليوميّة بحثا عن الأكل والشّرب بواسطة إطلاق الأصوات "أُ س" و"أُش" و"أُست" و"أُشْت" و"أخ" و"أخة" و"كخّة ".

فكلّ الأساطير والخرافات الشّعبيّة ومن بينها الأساطير والخرافات المتعلّقة بالحيوانات النّاطقة والعاقلة هي أخبار تاريخيّة تروي وتنقل بعض الوقائع والأحداث الحقيقيّة التي حصلت لبعض الأقوام والجماعات من البشر فوق بعض بقاع الأرض .

فالحيوانات النّاطقة والعاقلة التي تتحدّث عنها الأساطير والخرافات الشّعبيّة هم أقوام من البشر عاشوا في قديم الزّمان وكانوا يحملون أثناء وجودهم فوق الأرض أسماء هذه الحيوانات تعبيرا عن بعض الخصال والصّفات البشريّة المميّزة لهم.

وكذلك الشّأن بالنّسبة لكلّ الكائنات الغيبيّة التي تتحدّث عنها الأساطير والخرافات الشّعبيّة كالآلهة والجنّ والشّياطين والملائكة والعفاريت والمردة والغيلان, فنحن نعتبر أنّ الآلهة والملائكة والجنّ والشّياطين والعفاريت والمردة والسّعالي والغيلان يرمزون إلى أقوام وفئات من البشر عاشوا في قديم الزّمان وكانوا يحملون أثناء وجودهم فوق الأرض اسم "إله" و"ملائكة" و"جن" و"جان" و"عفريت" و"عفاريت" و"شياطين" و"مردة " و"سعلاة" و"غول" تعبيرا عن

وضعيّتهم الطّبيعيّة والإجتماعيّة وعن بعض الصّفات والخصال البشريّة المميّزة لهم.

أسطورة أصل القرد :

ففي هذا السّياق جمعنا أسطورة تونسيّة حول أصل القرد مضمونها أنّ القرد كان في بداية أمره إنسانا فاغتسل ذات يوم بالحليب فغضب الله عليه ومسخه وحوّله إلى قرد.

وتنقل أسطورة أخرى في هذا المعنى أنّ القردة كانوا في بداية أمرهم بشرا فأكلوا ذات يوم كميّة كبيرة من الفول حتّى امتلأت بطونهم فأخذوا الأواني التي أكلوا فيها فخروا وبالوا فيها وملأوها ببرازهم وفضلاتهم ونجّسوها بإفرازاتهم فغضب الله عليهم فمسخهم وحوّلهم إلى قردة.

فنحن نعتبر أنّ هذه الأسطورة التّونسيّة حول أصل القرد هي خبر تاريخيّ ينقل ويروي بعض الوقائع والأحداث الحقيقيّة التي حصلت في قديم الزّمان لبعض الجماعات والأقوام من البشر فوق بعض بقاع الأرض.

فالقردة في هذه الأسطورة يرمزون إلى جماعة من البشر عاشوا في قديم الزّمان وكانوا يحملون أثناء وجودهم فوق الأرض اسم "قِرْدٌ" و"قِرَدَةٌ" تعبيرا عن وضعيّتهم الطّبيعيّة والإجتماعيّة وعن بعض الصّفات والخصال البشريّة المميّزة لهم دون غيرهم من البشر الآخرين.

فالكثير من الأشخاص في مختلف بلدان العالم مازالوا إلى اليوم يحملون إسم "قرد" و"قردة" وما شابهه حيث يوجد في تونس بعض الأشخاص والعائلات التي تحمل إسم ولقب "قرد" و"قريد" و"كوردة" كما يحمل الرّجال في بعض البلدان الأوروبيّة إسم "قرد" و"قرت" وتحمل النّساء في هذه البلدان إسم "قردة".

فهذه الأسطورة التونسيّة المتعلّقة بأصل القرد والقردة هي في حقيقة الحال خبر تاريخي قديم يروى ويحكى الظروف التي أفضت وأدّت إلى بروز أسرة بشريّة عاشت في قديم الزمان وكانت تحمل أثناء وجودها فوق الأرض إسم "أسرة القرد" و"عائلة القرد" أو عائلة القردة".

فعمليّة التقريد والتّحويل إلى هيأة القرد التي تعرّضت لها الجماعة البشريّة في الأسطورة التونسيّة المذكورة تعني في الواقع الترويض والتدجين والإستعباد بمفهوم التّبعيّة والتسخير النّاجمين عن التّرويض والتّدجين كتبعيّة الكلب لصاحبه الذي روّضه ودجّنه وكتسخير الحصان البرّي أو الوحشي للحمل والرّكوب بعد ترويضه وتدجينه فقد وجدنا أنّ لفظة "قرّد" و"تقريد" تستعمل في سياق اللغة العربيّة والكثير من اللّغات الإنسانيّة الأخرى في معنى الترويض والتّدجين والإستعباد بالمفهوم الذي شرحناه إلى جانب الطّرق والوسائل المستعملة لهذا الغرض.

ففي اللغة العربيّة تستعمل كلمة "قرّد" في معنى التّرويض والإصلاح والتّهذيب وتطويع الطّباع وتثقيف السّلوك والإذلال.

كما تستعمل كلمة "قرّد" و"تقريد" في سياق اللّغة العربيّة في معنى نزع القراد من الجمل والبعير وكذلك في معنى حكّ الجمل والتّظاهر بنزع القراد منه قصد ترويضه وجعله يألف الذي يحكّه ويستأنس به ويأنس له ويطيعه.

كما يستعمل السّكان في تونس لفظة "قرّد" في معنى الإذلال على غرار الجري وراء أحد اللّصوص للتشهير به والقبض عليه ريثما يتمّ إصلاحه وتربيته بطريقة من الطرق ويرمي التّرويض والتّدجين في حقيقة الحال إلى إصلاح الطّبع وتهذيب السّلوك.

ويطلق على الخادم والتّابع والمملوك في اللغة البربريّة إسم "أكوراد" ويجمع على "أكورادن" وهو صيغة لفظيّة لإسم "قرد" في حين تستعمل كلمة "كرد" في اللغة الفارسيّة في معنى المملوك والخادم والتّابع وحاشية الملك ودائرته.

كما تستعمل كلمة "كورت" في اللغة الفرنسيّة في معنى البلاط الملكي وحاشية الملك وهي صيغة لفظيّة لكلمة "قرد" مع العلم وأنّ الفارسيّة والفرنسيّة ينتميان إلى مجموعة اللّغات المسمّاة باللغات الهنديّة الأوروبيّة.

وتستعمل كلمة "كورتيزي" المشتقّة من كلمة "كورت" في الفرنسيّة في معنى المدح والإمتداح والتزلف والتّمسّح والتّلطف وهي من التصرفات المستعملة لغرض التّرويض والتّدجين.

وتطلق كلمة "كردان" في بعض البلدان العربيّة كمصر على العقد الذّهبي الذي تعلّقه المرأة حول رقبتها للزّينة والتبرّج.

وفي حقيقة الحال فإنّ هذه العقود وأغلب قطع الحلّي والمصوغ التي يعلّقها النّاس من النساء والرّجال للزّينة والتّبرج كالأساور والدّمالج والخلاخيل كانت في الأصل وسائل للقيد والأسر والعقل والعقد والرّبط والشّدّ وكانت تستعمل لشدّ الأسرى والعبيد والمماليك والسّبايا من النّاس, ولشدّ الحيوانات أيضا وربطهم قصد ترويضهم وتدجينهم وإستعبادهم في المعنى الذي ذكرناه.

فقد وجدنا في هذا السياق أنّ الحبال التي تستعمل للقيد والرّبط والقبض والشّد تسمّى باسم "كورد" في سياق اللّغة الفرنسية ويعتبر إسم "كورد" صيغة لفظيّة لإسم "قرد" بحيث أنّ كلمة "قرد" تفيد معنى الأسير والخادم والتّابع.

فإطلاق كلمة "كورد" على الحبال يدّل على أنّ كلمة "قرد" تفيد معنى الخادم والتّابع والأسير ويدّل على أنّ الحليّ المذكورة مثل الكردان وغيره كانت في الأصل حبالا لربط الأسرى والسّبايا وشدّ وثاقهم ريثما يتمّ ترويضهم وتقريدهم وتدجينهم وكانت هذه الحبال موصولة بالأحجار وغيرها من الأدوات المثقوبة توضع حول الرّقبة والمعصم والسّاقين فاختزلت تدريجيّا وانحصرت في حلقة وظلّ الناس يحملونها ويعلّقونها جريا على العادة دون معرفة معناها وأصلها الحقيقي مثلما ظلّوا يحكون ويقصّون الأساطير والخرافات الشعبيّة جريا على العادة ودون معرفة أصلها ومعناها الحقيقيّ.

ويستعمل السكان في تونس كلمة "قرّط" في معنى الشّد والرّبط في حين تسمّى الحلقة التي يعلّقها النّاس في الأذن للزّينة باسم "قرط" في اللغة العربيّة, وتستعمل كلمة "قرّط" في الفرنسيّة أيضا في معنى الرّبط والشّد.

ويسمّى الخلخال والخلاخيل في اللغة العربيّة باسم خدمة وخدّام وأصل الخدمة الحلقة المستديرة المحكمة فلأجل ذلك قيل للخلاخيل خدّام.

ويدعى الحارس الذي هو نوع من الخادم والتّابع باسم "قرد" في سياق اللغة الفرنسيّة مع نطق الصوت "قا" على طريقة أهل الرّيف في تونس وكذلك في سياق اللغة الأنقليزيّة والعديد من اللغات الأوروبيّة الأخرى.

ويتمثّل التقريد والتّرويض والتّدجين في شتّى الأفعال والتّصرّفات الطّبيعيّة التي من شأنها أن تساعد على ربط الصّلة بمن يراد تقريدهم وترويضهم وتدجينهم وعلى تسكين روعهم وجعلهم يألفون الذي بادر بتقريدهم ويأنسون له ويطيعونه ويتّبعونه وهذه الأفعال والتّصرفات المجعولة للتقريد والترويض والتدجين كثيرة ومألوفة لدى سائر البشر نذكر منها بالخصوص الإقتراب ممن يراد تقريدهم وتدجينهم والتودّد إليهم ومخاطبتهم بمعسول الكلام

والإبتسام لهم ولمسهم والتّمسّح بهم وإسداء شتّى الخدمات لهم وخصّهم بالهدايا والعطايا وخاصة إذا ما تعلق الأمر بربط الصّلات بين الذكور والإناث فإنّ التقريد في هذه الحالة يتمثل في كلّ الأفعال والتّصرفات الطّبيعيّة التي تسمّى باسم "الغزل" و"التغزل" في سياق اللغة العربيّة.

فقد كان التقريد في بداية التاريخ الإنساني داخل الجماعات البشريّة يستهدف بالنسبة لكلّ فرد من أفراد هذه الجماعات بالأساس الحصول على القرين المناسب من الجنس الأخر لإشباع الرّغبة الجنسيّة بواسطته وتكوين أسرة جديدة بمعيّته وكان الذكور هم المبادرون في جلّ الحالات بحيث أنّ التّقريد والتدجين والإستعباد كان يستهدف أساسا في العهود الأولى من التاريخ الإنساني الإناث والنساء بحثا عن القرينة المناسبة لإشباع الرغبة الجنسية بواسطتها وتكوين أسرة جديدة بمعيّتها ثمّ شمل مختلف الأصناف البشريّة بحثا عن الخدم والعبيد والمماليك لإستغلالهم واستخدامهم في شتى الأغراض.

وعلى هذا الأساس نعتبر أنّ الأسطورة التونسيّة المتعلّقة بأصل القرد هي خبر تاريخي يروي الظروف التي أفضت إلى تأسيس بعض الأسر الإنسانيّة القديمة بواسطة عمليّات التقريد والتّرويض والتّدجين التي أشرنا إليها والتي كان أفراد الجماعات البشريّة في العهود الأولى من التاريخ الإنساني يمارسونها بصورة طبيعيّة ويستعينون بها للحصول على القرين المناسب من الجنس الأخر وحمله على قبول الإرتباط والإقتران بخاطب ودّه وطالب قرانه بصورة مؤقتة لإشباع الرّغبة الجنسيّة أو بصورة دائمة في إطار أسرة قائمة الذات.

وكان الذكور هم الذين يبادرون بتقريد وتدجين الإناث بحيث أنّ الأسطورة التونسيّة المتعلّقة بأصل القرد هي خبر تاريخي يروي ظروف تأسيس بعض الأسر الإنسانيّة القديمة من طرف بعض الذكور بفضل قيامهم بتقريد

بعض الإناث وترويضهنّ وتدجينهنّ ودفعهنّ بهذه الطريقة إلى الإقتران بهم لتأسيس الأسر المذكورة.

فقد وجدنا أنّ الكثير من الأفعال والتصرّفات التي يقوم بها الإنسان بصورة غريزية لترويض وتدجين أمثاله تحمل إسم "قرد" وخاصّة منها التصرّفات التي يستعان بها لربط الصّلات الجنسيّة والعاطفيّة بين الذكور والإناث والتي تسمى باسم "الغزل" و"التّغزل" في سياق اللغة العربيّة.

فقد وجدنا أنّ البعض من هذه التّصرفات الغزليّة تسمى باسم "كرد" ويتمثل الكرد في حكّ الجسم والبدن نتيجة الشعور بشيء من الألم بسبب الأكلان النّاجم عن عمل الطّفيليات والأوساخ العالقة بالبدن فيساهم الحكّ والكرد في إزالة الشعور بالألم وتعويضه بالشّعور باللذّة والرّاحة.

ففي هذا السّياق لاحظنا أنّ السّكان في الجنوب التونسي يسمّون هذا الحكّ باسم الكرد الذي هو صيغة لفظيّة لاسم "قرد" كما أنّ الحكّ يسمّى باسم "قراتي" في سياق اللغة الفرنسيّة.

فقد كانت عمليات الحكّ والكرد في القديم وسيلة طبيعيّة للتقرّب وربط الصّلة بمن يراد تقريدهم وترويضهم والتودّد لهم وكسب محبتهم وتمثل ركنا هامّا من الحياة اليوميّة, فكان الحكّ والكرد يجسّم مدى الرّاحة واللذّة التي يمكن أن يوفّرها الإحتكاك بفاعله والإلتحام معه والإقتران به خاصّة وأنّ الحكّ والكرد كان مقترنا بعمليّة الفلي ونزع القمل من شعر الرّأس والبدن ومازالت عمليات الفلي والحكّ والكرد سارية إلى يومنا هذا في المجتمعات الإنسانيّة.

ففي هذا المجال كان السّكان في قرى ومدن الجنوب التونسي إلى عهد قريب جدّا يمارسون عمليات الحكّ والكرد والفلي ونزع القمل ومازالت تمارس إلى اليوم في بعض الأحيان.

وتتمثل عمليّة الفلي أو نزع القمل من شعر الرأس في قيام أحد الأشخاص بفلي شعر رأس شخص آخر للبحث عن القمل الموجود فيه ونزعه وقتله كقيام الأم بفلي رأس إبنها وقيام الزّوجة بفلي رأس زوجها أو قيام إمرأة بفلي رأس إمرأة أخرى.

فقد كانت الأم مثلا في هذه الحالة تجلس فيمتدّ إبنها ويضع رأسه على فخذها فتأخذ في فليه وتقليب شعر رأسه للبحث عن القمل بين ثناياه ونزعه وقتله. فكلّما وجدت قملة أخذتها وقصّتها بين ظفري إبهامي يديها مردّدة في كلّ مرّة الصّوت "إف" و"أوف" الذي يطلقه الإنسان للتّشفي والتعبير عن المتعة واللذّة والإستراحة من التّخلص من شيء يضايقه ويمارس القردة الحقيقيّون عمليات الحكّ والكرد والفلي وتأخذ لديهم أيضا حيّزا هاما من حياتهم وتمثل عمليات الحكّ والكرد والفلي مناسبة لتودّد وطلب الأنس وللتّرويض والتّدجين وخصوصا بالنسبة للذّكور والرّاغبين في مراودة الإناث والإقتران بهنّ بصفة مؤقتة لإشباع الرغبة الجنسيّة أو بصفة دائمة في إطار أسرة قائمة الذّات وهي تدخل من هذه النّاحية في باب ما يسمّى بالغزل والتّغزل في سياق اللغة العربيّة كما أنّها تمثل للإناث اللواتي خضعن للتقريد والتّرويض مناسبة للتّعبير عن الخنوع والطاعة والتبعيّة والتعلّق بالمروّض والسيّد والقارد الذي تولّى التقريد.

فبالإستناد إلى هذه المعطيات نعتبر أنّ الجماعات البشريّة مرّت بمرحلة كانت تمارس فيها عمليّات الفلي ونزع القمل والحكّ والكرد المتبادل في أوقات الرّاحة بعد الأكل والشرب وكانت هذه العمليّات مناسبة لتعميق الألفة والأنس

والإستئناس والأمن والطمأنينة بين أفراد الجماعة الواحدة ونزع أسباب الوحشة والنّفور والتشجيع على القرب والإقتراب والوصال والإقتران, فكان التقريد وسيلة لربط الصّلة وإقامة العلاقات بين البشر وخاصة بين الذكور والإناث وإزالة أسباب النّفور الغريزي الذي يحسّ به البشر من بعض الصّلات والعلاقات بالذّات لشتّى الأسباب كحال التوحّش التي هم عليها والخوف من الغريب وعدم الإستعداد لسابق الارتباط بقرين آخر يهاب بطشه وغيرها من الأسباب.

وقد وجد الإنسان في التجربة التي اكتسبها في مجال ترويض وتدجين وتقريد أمثاله من البشر داخل الأسرة والجماعة التي ينتمي إليها سبيلا لاعتمادها من أجل ترويض وتدجين وتقريد أمثاله من البشر من خارج أسرته وكذلك لتدجين الحيوانات الحقيقية وعلى هذا الأساس فإنّ الأفعال والتّصرفات التي يعتمدها الإنسان لترويض وتدجين الحيوانات الحقيقية هي صورة من الأفعال والتصرّفات التي كان يعتمدها قديما لترويض وتقريد وتدجين أمثاله من البشر كما أنه كان يعتمد لهذا الغرض الكثير من التصرّفات التي مازالت الحيوانات الحقيقيّة تقوم بها لتقريد بعضها وخاصة منها التصرّفات المتعلقة بالتّغزل والتزاوج والنكاح والمواقعة الجنسية والحصول على القرين وترويمه وجعله يحب الاقتران والارتباط لفترة مؤقتة أو لفترة دائمة بطالب الإقتران منه وتدخل فيها بعض التصرّفات الممهدة للإلتحام الفعلي بين الطرفين كالعضّ والكدم والعناق والتقبيل إلى جانب المراودة المألوفة وكذلك الأخذ والإمساك عندما يتعلق الأمر أساسا بين طرفين ينتميان إلى جماعتين أو أسرتين مختلفتين.

وقد عزّز الإنسان الوسائل الطبيعيّة التي يمتلكها بصورة طبيعية لإنجاز أعمال التقريد والترويض بوسائل مستحدثة كاستعمال الحبال للأخذ والإمساك

والعقل والشدّ والربط واعتماد الشباك والشراك والأفخاخ للأسر والإصطياد والحمل باعتبار أنّ الغاية هي تقريب القرين والمطلوب.

وغالبا ما كانت الجماعات البشريّة تباشر عمليّات الغزل والتغزّل والكرد والحكّ والفلي في أوقات الراحة في أوكارها ومآويها بالقرب من الأنهار والوديان وعيون الماء التي تردها للشرب والإغتسال وكانت تلك الأوكار والمآوي في العهود الأولى من التاريخ الإنساني تتمثل في فضاءات للرّاحة وكذلك للتبوّل والخرء والتّغوّط وإخراج البراز والإفرازات والفضلات من البطون المملوءة وقد رأينا أنّ الأسطورة الثانية المتعلقة بأصل القرد تشير إلى أنّ عمليّة التقريد حصلت إثر قيام الجماعة الذين تعرّضوا إلى التقريد بالتبوّل والخرء وإخراج البراز والفضلات من بطونهم في الأواني التي أكلوا فيها بينما تذكر الأسطورة الأولى أنّ العمليّة حصلت إثر إغتسالهم بالحليب كما تشير الأسطورة الثانية أنّ الطّعام الذي تناوله الجماعة كان يتألف من الفول ومثلما ذكرناه آنفا فإن كلمات "فول" و"فلي" و"بول" التي تنطق بصيغ متقاربة هي في الأصل لفظة واحدة إتخذت هذه الصّيغ وهذه المعاني القريبة من بعضها.

وتتخذ كلمة "فول" و"فلي" و"بول" صيغة "بل" وتطلق لفظة "بل" على الحيوانات المسماة باسم جمال في اللهجة الدارجة التونسية نقلا عن العربيّة المشتركة التي تنطق فيها هذه الكلمة في صيغة "إبل" كما تطلق كلمة "بل" كذلك على الحسن والجمال وكل ما هو حسن وجميل في سياق اللغة الفرنسية وقد كانت تطلق في الأصل على النساء والإناث اللواتي تتعرضن إلى التقريد والترويض لتقوية شهوتهن الجنسيّة واستعدادهن للإتصال الجنسي.

فقد لاحظنا أنّ السّكان في تونس يستعملون أحيانا من قبيل التشبيه كلمة "بلبل" لوصف الشخص الذي يشتهي النّكاح فيشبّهونه بالجدي والتّيس الذي يبلبل

على العناق والأنثى الحائل الشّاهية للنّكاح واللّقاح قصد تقوية شهوتها ومزيد ترويمها لينجح لقاحها وتتمثّل البلبلة في الصّياح والولولة التي يُحْدِثُهَا الجَدْيُ والتّيس في مثل هذه الحالة ونعتبر أنّ كلمة "بَلْبَلَ" تتمثّل في ترديد الصّوت "بل" وكانت البلبلة نوع من الصّياح الطّبيعي المجعول للنّداء ولأجل ذلك تستعمل كلمة "بَلْ" في الفرنسيّة في معنى النّداء, فقد كانت البلبلة في الأصل نوعا من النّداء والصّياح الطّبيعي الذي يحدثه البشر والبعض من الحيوانات الحقيقية للتعبير عن شهوتهم الجنسيّة وحالة الإستعداد التي هم عليها للنّكاح والمواقعة الجنسيّة وغيرها من الحالات النّفسيّة الأخرى.

ومن هذا المنطلق فإنّ البلبلة هي حلقة من حلقات التقريد والترويض والتدجين الذي يشتمل كذلك على الفلي والإطعام وإهداء الهدايا وغيرها من الأفعال التي إستعرضناها قصد تسكين روع الذين يُرَادُ تقريدهم واكتساب مودّتهم وجعلهم مطيعين وأليفين.

ثُمَّ إنّ كلمة "غسل" و"غزل" هما في الأصل كلمة واحدة بحكم تعادل الصّوت "سا" والصّوت "زا" وقد لاحظنا أنّ الغزل يسمّى باسم "فيلي" في سياق اللّغة الفرنسيّة كما تستعمل كلمة "فيلي" في اللّغة الفرنسيّة في معنى الشّبكة المجعولة للصّيد والحمل وغير ذلك من الأغراض.

ويعبّر عن عمليّة الغسل والإغتسال في تونس بلفظة "شَلّ " و"شلّلَ" و"تشليل" نقلا عن اللّغة البربريّة غير أنّ كلمة "شلّ" تُسْتَعْمَلُ أيضا في تونس وفي بعض البلدان العربية الأخرى في معنى الخرء والبراز والفضلات التي يخرجها الإنسان من بطنه وتُطْلَقُ كذلك على عمليّة إخراج هذه الفضلات ويَنْطِقُ السّكان في تونس لفظة "خرء" في صيغة"خَرَى".

وَكَانَ التَّقْرِيدُ يَحْصُلُ بين أفراد الجماعة الواحدة كما كان يحصل بين الأفراد المنتمين إلى جماعات مختلفة وكان في بداية الأمر يعتمد على الوسائل الطّبيعيّة للتّرويض المتمثّلة في الإقتراب والتودّد والحك والكرد والفلي والشمّ والعضّ والكدم والعِنَاق والتّقبيل والإطعام وإهداء الهدايا, ثمّ تعزّزت هذه الوسائل الطّبيعيّة ببعض الوسائل المستحدثة إمتدادا للوسائل الطّبيعيّة كأخذ الإناث وإمساكهن بواسطة الحبال والشّباك والشراك والأفخاخ قبل القيام بترويضهن بواسطة الوسائل الطّبيعيّة المذكورة.

فلأجل ذلك يُسَمّى الغَزَلُ باسم "فيلي" في سياق اللّغة الفرنسيّة كما تستعمل كلمة "فيلي" في الفرنسيّة في معنى الشبكة المظفورة والمغزولة من سيور الجلود ولحاء الشجر. وتستعمل كلمة"غزل" و"تغزّل" في العربية في معنى إصطياد العواطف والقلوب على غرار إستعمال الشباك المغزولة والمظفورة لإصطياد أصحاب وصاحبات العواطف والقلوب.

فقد كانت الجماعات البشريّة تَستَغِلّ أوقات الرّاحة بعد الأكل والشرب وغيرها من الأوقات المناسبة لمباشرة عمليات الحكّ والكرد والفلي ونزع القمل والتبوّل والخرء وإخراج البراز والفضلات من البطون المملوءة. وكانت هذه الأوقات توفّر للمتطفّلين والإنتهازيّين بكلّ أصنافهم في الدّاخل والخارج فُرْصَةَ للتّحَرّش بالبنات والصّبايا والإناث اللّواتي تَضُمّها تلك الجماعات, فكان كلّ من ينجح في الإنفراد ببنت وأنثى يقوم بتقريدها وترويضها حتّى تلين عَرِيكَتُهَا وتخضع لمشيئته وترضى أن تتبعه وتصبح قرينته ويمكن القول بأنّ الغزل أصله "عزل وفصل واختيار" القرينة والإنفراد بها, وكان التّقريد والتّدجين يعتمد في بداية الأمر على الوسائل الطّبيعيّة التي استعرضناها والمتمثلة أساسا في التودّد والإبتسام والفلي والحكّ والكرد والبلبلة والعدو وراء الأنثى المطلوبة والعضّ

والإمساك والرّكوب والتّقبيل والقرص والعناق ثمّ إلى جانب هذه الوسائل الطّبيعيّة إشتمل التّقريد والتّرويض والتّدجين على الوسائل المستحدثة للإمساك والتّغرير والمتمثّلة في نصب الشّباك والشراك والأفخاخ للإيقاع بالشّخص المطلوب وإستعمال الحبال لشدّه وعقله وقيده ووضع اللّحم والطّعام لخداعه والتّغرير به فضلا عن إحداث بعض الأصوات الطّبيعيّة للتّمويه عليه, وتعتبر هذه الوسائل المستحدثة إمتدادا وتقليدا للوسائل الطّبيعيّة من حيث الفكرة والقاعدة كالحبل الذي يمثّل في حقيقة الحال امتدادا لليدين والأطراف عموما باعتبار أنّ الأقدام والأرجل تستعمل أيضا للشدّ والقبض.

ومن هذا المنطلق يمكن أن نقول إنّ لفظة "قرد" و"قردة" كانت تطلق على المرأة المحصّنة والمتزوّجة بوصفها زوجة وقرينة لأحد الرّجال أو على كلّ مجموعة من النّساء والإناث أصبحن في وضع القرينات والزّوجات التّابعات لرجل من الرّجال بفضل قيامه بتقريدهن وترويضهن وتدجينهن واستعبادهن وجعلهن أليفات ومطيعات يأنسن له ويخضعن لحكمه ويقبلن الإقتران به وأصبح ذلك الزّوج بدوره زوجهن وسيّدهن وقاردهن بمعنى الرّجل الذي قام بتقريدهن وترويضهن وتدجينهن فضمّهن إليه وجعلهن تحت حراسته وحمايته فلأجل ذلك إتخذت لفظة "قرد" معنى الحبل الذي يستعمل للعقل والرّبط ومعنى قطعة الحلي التي توضع حول الرّقبة باعتبارها كانت في الأصل وسيلة للقبض كما اتخذت معنى الحارس والحامي في سياق اللّغة الفرنسيّة باعتبار أنّ الزّوج والبعل هو الحارس والحامي لحريمه وزوجاته وأسرته كما أطلقت كلمة "قرد" على البطل والفحل والقويّ في بعض اللّغات الإنسانيّة كالفارسيّة باعتبار أنّ الزّوج كان هو ربّ الأسرة وكان يمتاز بقوّته البدنيّة والذّهنيّة ورجولته وفحولته للسّيطرة على زوجاته وأفراد أسرته وحمايتها في الآن نفسه من كلّ الأخطار المحدقة.

وبهذه الصّفة يمكن القول بأنّ التقريد كان يعني في الأصل الزّواج وما يحيط به من رغبة في القرين والإقتران وإستِعْدَادٍ لَهَا وعَمَلٍ لتحقيقها بحيث أنّ لفظة "قرد" و"قردة" تعني الزّوج والزّوجة والمرأة والرّجل والأسرة والعائلة والأهل عموما.

وقد إنْعَكَسَتْ هذه الحقائق بالفعل في مستوى بعض الأسماء التي تستعمل في معنى المرأة والنّساء والأسرة والأولاد عند العديد من المجتمعات وفي العديد من اللّغات الإنسانيّة على غرار إطلاق إسم "نساء"على المرأة والإناث من البشر عموما في سياق اللّغة العربيّة.

فنحن نعتبر أنّ كلمة"نساء" تعادل كلمة "قرد" و"قردة" حيث أنّ كلمة "نساء" مشتقّة من كلمة"أنس" وكانت تفيد في الأصل الأُنثى والإناث اللّواتي تعرّضن للتّقريد والتّدجين فأصبحن أليفات وأهليات وزوجات تابعات إلى الرّجل الذي قام بتقريدهن وترويضهن وتدجينهن ويألفنه ويأنسن له فصرن أهله ونساءه وزوجاته.

وفي هذا السّياق فإنّ كلمة "أنس" تتّخذ صيغة"إنك" بالكاف نظرا للتّعادل المعنويّ بين الصّوت"أس" والصّوت "كا" الذي هو صيغة للصّوت "أخ" بحيث أنّ لفظة "أنس" تعادل لفظة"إنك" و"إنخ" وتستعمل كلمة "إنك" في معنى النّكاح في سياق اللّغة العربيّة في صيغة "نَاكَ" في حين تستعمل كلمة "إنخ" في العربيّة أيضا في معنى الإناخة والجثوم على الرّكبتين لتسهيل الرّكوب على الجاثم.

كما لاحظنا في هذا المجال أنّ العرس يسمّى في سياق اللّغة الفرنسيّة باسم "نوس" ويعتبر هذا الإسم صيغة لفظيّة لكلمة"نساء" التي يتّخذ نطقها صيغا متعدّدة مثل"نسا" و"نسي" وتطلق كلمة "عرس" في العربيّة على المرأة المتزوّجة وكذلك على زوجها.

ونظرا لتعادل الصّوت "سا" والصّوت "شا" تتّخذ كلمة "نوس" صيغة"نوش" و"نش" وسبق أن أشرنا إلى أنّ لفظة"نش" تستعمل في تونس في معنى الهشّ والكشّ والزّجر وتطلق لهذا الغرض علىغرار كلمة "كِس" و"بِس" وتستعمل كلمة "كس" في العربيّة في معنى فرج المرأة الذي هو رمز المرأة.

وقد كان التّقريد والتّدجين والتّرويض يشتمل على الهشّ والكشّ والنشّ صوب المراد تقريده لإجباره على السّير في وجهة معلومة وكذلك نحو المتطفّلين والإنتهازيّين من مختلف الأصناف الذين قد يحاولون إفساد العمليّة واستغلالها لصالحهم.

فكان الذي ينجح في تقريد وترويض الأنثى التي إختارها وانفرد بها يجعل منها قرينته وعرسه فتصبح تلك الأنثى زوجته وإمرأته وتكتسب بفضل هذه الوضعيّة حرمة وهيبة تستمدّها من حرمة وهيبة زوجها وتعلّقه بها وغيرته عليها بإعتبارها تابعة له وملكا خاصا له يدافع عليه كدفاعه عن نفسه وطعامه وشرابه فيتصدّى من أجلها لكلّ من يحاول النّيل منها والمساس بها وإفتكاكها منه, وكان التصدّي للخصوم والمتطفّلين والإنتهازيّين بصفة عامّة يتمثل في زجرهم ونهرهم وتخويفهم وتحذيرهم وتنبيههم وإبعادهم من خلال هشّهم ونشّهم وإطلاق الأصوات المجعولة للزّجر والنّهر والتّخويف صوبهم مثل الصّوت "أس" و"أش" و"بس" و"كس" وعلى هذا الأساس سمّيت المرأة التّابعة للزّوج والإناث من البشر المتزوّجات عموما باسم "نساء" لأنّهنّ يدفعن ويبعثن على إطلاق لفظة "أش" و"نش" و"هش" لحمايتهن وزجر المعتدين عليهن مثلما يسمّى فرج المرأة باسم"كس" في العربية. فقد كان الإنسان يستعمل لفظة "كس" للزّجر والنّهر والتّحذير والتّخويف كما يتجلّى ذلك من خلال إستعمالها إلى اليوم في تونس لزجر الكلاب والقطط وأطلقت على المرأة أو فرجها الذي هو رمزها لأنّها تبعث

على إطلاق لفظة"كس" لزجر الإنتهازيّين والمتطفّلين الذين قد يحاولون النّيل منها عندما تصبح زوجة وقرينة لأحد الرجال.

كما أطلق إسم "أسرة" في سياق اللّغة العربيّة على العائلة والأسرة لأنّ العائلة والأسرة كانت تقوم على الأسْر بمعنى التّقريد والتّدجين والتّرويض.

فقد وجدنا أنّ بعض عمليّات التّقريد والتّدجين والتّرويض كانت تسمّى باسم "أسر" فأطلق على الذين يتعرّضون للتّقريد والتّرويض والتّدجين بحيث أنّ كلمة أسرة تفيد في الأصل معنى المرأة المدجّنة والمتزوّجة قبل أن تطلق على العائلة بأسرها ثمّ على كلّ الذين يتعرّضون إلى الأخذ والإمساك ويؤسرون ويصبحون تابعين ولاحقين للأسرة والعائلة.

وفي الحقيقة فإنّ الأسرة تتألّف في الأصل من إمرأة متزوّجة حيث أنّ الزّوج كان يعتبر مالكا للأسرة وصاحبها ورئيسها فكان يعتبر فوق الأسرة ولذلك فإنّ إسم "أسرة" يعادل إسم "قرد" و"قردة" وإسم "نساء".

فكلمة "أسرة" وجمعها "أُسَرّ" يمكن أن تتّخذ صيغة"أشرة" و"أشر" بالشين المنقوطة وقد وجدنا أنّ بعض عمليّات التّدجين والتّرويض تسمّى باسم "أشر" على غرار إطلاق إسم "كرد" على عمليّة التّدجين المتمثلة في حكّ الجسم والبدن بالأظافر وأطراف الأصابع لإزالة الشّعور بالألم من جرّاء الوسخ والطّفيليّات وتعويضه بالشّعور بالرّاحة واللّذة.

ويتمثّل الأَشْرُ في إحداث شتّى الآثار الدّائمة في البدن كعلامة على التّملّك بواسطة الجروح وما شابهها على غرار الوشم والوسم وكسر الأسنان وتحزيزها وصباغة البدن ببعض الألوان الخاصّة مع أنّ معناها إنحصر في العربيّة في عمليّة كسر الأسنان وتحزيزها.

فقد كان الأزواج يقومون قديما بكسر بعض أسنان الزّوجة وتحزيزها وأشر بدنها بالوشم والوسم تعبيرا عن تملّكهم بها ومازالت عادة الوشم والوسم سارية إلى يومنا هذا حيث كان الأسياد والمالكون قديما يقومون بوشم ووسم الأشخاص الذين يمتلكونهم وكذلك حيواناتهم وأمتعتهم ويتمثّل الوشم والوسم في وضع رسوم على جسد الرّجل والمرأة والحيوانات والأمتعة الخاصّة كالعصيّ إشارة وتعبيرا عن الإمتلاك والتملك والتّبعيّة.

ومازالت كلمة "إشارة" المأخوذة من لفظة"أشر" تستعمل في العربيّة في معنى العلامة والدّليل كما أشتقّت من كلمة "أشر" لفظة"تأشيرة" وهو رسم يوضع على بعض الوثائق الرّسميّة كجوازات السّفر لإعطائها الصّلوحيّة اللاّزمة.

فالأشر والوشم والوسم هو في الأصل آثار تحدث في الجسم والبدن للإشارة إلى التملّك والإمتلاك وكان يضعها الأسياد والمالكون على أجساد مماليكهم وخدمهم والتّابعين لهم وكذلك على حيواناتهم وأمتعتهم.

فقد كان التّرويض والتّدجين والتّقريد يشتمل على العضّ والكدم والقرص والدّغدغة والتّقبيل والعناق ومازالت هذه الأفعال تدخل في عمليّات التّرويض والتّدجين بين الذّكور والإناث من البشر وكانت عمليّات العضّ والكدم والعناق والتّقبيل في البداية تستهدف التّغلّب على الطّرف المقابل للتمكّن منه وقضاء الحاجة المطلوبة منه بحيث أنّها كانت أفعالا حادّة ومكروهة كما هو الحال إلى يومنا هذا عند بعض الحيوانات الحقيقيّة ثمّ إنّها تجرّدت من حدّتها وأصبحت محبوبة وظلّت تفعل مفعولها من حيث إضعاف الخصم وكانت هذه الأفعال تترك آثارا في بدن الطّرف المقابل حيث أنّ العضّ والكدم كان يترك جروحا وآثارا على بدن الطّرف المقابل كما أنّ التّقبيل الذي كان يتمثّل في الأصل في القبض

على الآخر من وجهه وفمه بالأسنان كان يحدث آثارا على الوجه والفم والأسنان ويصل إلى تهشيمها.

ومن هذا المنطلق كان الإنتصار والغلبة والفوز يتمثّل في الآثار البليغة التي يتركها الواحد على بدن الآخر كالجروح وتهشيم الأسنان بحيث أنّ التّقريد والتّرويض والتّدجين كان أيضا يشتمل على ترك بعض الآثار في أبدان الأطراف المتقابلة وأصبحت تلك الآثار مع مرّ الأيام علامة على الفوز والإنتصار وعلى التملّك بالأنثى التي تحملها على بدنها والشّخص الذي يحملها على بدنه بصفة عامّة فكانت هذه الآثار الأصل في ظهور عادات الأشر والوشم والوسم.

كما ظلّ النّاس إلى اليوم يصفون الحكّام والأسياد بأنّهم أصحاب الحلّ والعقد, فقد سمّي السّيد باسم صاحب الحلّ والعقد إشارة وإمتدادا للأوضاع البشريّة القديمة حيث كان السّيد على غرار ربّ الأسرة والزّوج مثلا يربط ويعقل ويعقد مماليكه وعبيده وخدمه وأتباعه من الجنسين بالحبال في اللّيل وفي الأوقات التي يرى فيها ذلك ضروريا ويحلّ رباطهم في النّهار أو بعد الفترة المقدّرة.

فكان الإناث اللّواتي مازلن في طور التّقريد والتّرويض مثلا يخضعن للقيد والعقل والرّبط والشدّ بالحبال وما شابهها من طرف زوجهن الذي أمسكهن ريثما يتمّ ترويضهن وتدجينهن ويألفن وضعهن الجديد.

وبقدر ما كان التّقريد أساس ظهور الأسرة كانت الأسرة النّتيجة الحتميّة لعمليّات التّقريد في بعديها وطرفيها الرّئيسيّين المتمثّلين في الزّوج أو الرّجل باعتباره السيّد والمالك والقارد وفي الزّوجة أو المرأة باعتبارها تابعة ومملوكة وقردة ومن هذا المنطلق كان التّقريد أساس ظهور منزلة السيّد والتّابع والحاكم

والمحكوم والمالك والمملوك بحيث يمكن القول بأنّ الأب والزّوج وربّ الأسرة عموما كان أوّل سيّد وأوّل حاكم يبرز للوجود في حين أنّ المرأة المتزوّجة والأسرة عموما كانت أوّ ل تابعة ثمّ إنضمّ إليها أولادها الصّغار من زوجها المذكور بوصفهم تابعين لها. فظهرت وقامت من إجتماع الزّوجة وأولادها الصّغار الأسرة التي تعتبر أوّل مملكة وأوّل تابع يبرز للوجود في حين يعتبر الزّوج ورئيس الأسرة أوّل سيّد وأوّل ملك وأوّل حاكم يبرز للوجود.

فمازال السّكان في الجنوب التونسي إلى اليوم يطلقون على الأب اسم"سيد" بحيث أنّ الإبن في مدن وقرى الجنوب التونسي يدعو أباه باسم "يا سيّدي " ويشار إلى الأب في الحديث العادي باسم"سيد".

كما أنّ إسم "أب" يفيد في حدّ ذاته معنى السيّد والحاكم حيث أنّه يتخذ أحيانا صيغة "أبّيْ" و"باي" وتستعمل كلمة "باي" إلى اليوم في معنى السيّد والحاكم في اللّغة التركية وفي البلدان العربيّة نقلا عنها.

وفي هذا السّياق نعتبر أنّ إسم "إنسان" كان يفيد في الأصل البشر المدجّنين الذين تعرّضوا إلى التّقريد والتّدجين وأصبحوا من البشر الأليفين والمطيعين والمستأنسين والأهليّين الذين يعيشون في إطار أسرة وعائلة تابعة لأحد الأشخاص.

وعلى هذا الأساس فإنّ إسم "قرد" وإسم "إنسان" متعادلان. وكان إسم "قرد" وإسم "إنسان" يطلقان في بداية الأمر على النّساء اللّواتي خضعن إلى التّقريد والتّدجين والتّرويض فأصبحن أليفات ومطيعات في مستوى طبعهن وقرينات وأنيسات وزوجات لأحد الرّجال في مستوى وضعهنّ ومنزلتهنّ ثمّ إنّ الإسمين أطلقا على البشر المقرّدين والمدجّنين والأليفين الذين يُطْمَأَنُّ إليهم ويُؤْنَسُ لهم ويُؤْمَنُ جانبهم بصفة عامّة بحكم إنتمائهم إلى أسرة تابعة لأحد

الأشخاص تولّت تربيتهم وتدجينهم منذ الصّغر أو على إثر إنتمائهم لها بصورة من الصّور.

فقد كان إسم "إنسان" يطلق على الأسرة والعائلة والأهل والآل بحيث كان يعتبر إنسانا كلّ تابع للأسرة والآل والأهل فكان يوثق فيه ويؤمن جانبه ويبعث على الطّمأنينة والألفة والأنس في حين كان الأجانب والغرباء الذين ليسوا تابعين للأسرة يعتبرون خارجين عن الأسرة والإنسان ما لم يتمّ تقريدهم وترويضهم وضمّهم إلى حضيرة الأسرة والأهل فيرتقون إلى منزلة الإنسان.

ففي هذا السّياق يسمّى الإنسان والبشر عموما في سياق العديد من اللّغات الأوروبيّة كالفرنسية والإنقليزية بإسم"أمن" وتستعمل كلمة"أمن" في سياق اللّغة العربيّة في معنى الألفة والأنس والطّمأنينة كما تستعمل في سياق اللّغة البربريّة في معنى الرّفقة والصّحبة والتجمّع.

فقد كان الإنسان يرمز إلى فئة البشر المدجّنين الذين تمّ تقريدهم وترويضهم وتدجينهم فأصبحوا مماليك وعبيدا وتابعين لمن قام بتقريدهم وتدجينهم كحال الزّوجة والأولاد داخل الأسرة بالنّسبة للزّوج والأب وكحال الخاضعين لحاكم من الحكام وملك من الملوك داخل الممالك القديمة بحيث أنّ البشر يصبحون في عداد الإنسان عندما يتعرّضون إلى التّقريد والتّرويض والتّدجين وعلى هذا الأساس فإنّ البشر يرتقون إلى منزلة الإنسان ويتحوّلون إلى حال الإنسان عندما يتعرّضون إلى التّقريد والتّرويض والتّدجين, غير أنّ التّقريد والتّرويض والتّدجين الذي يصبح البشر بواسطته وبفضله في عداد الإنسان يعني بالنّسبة لهم السّقوط في التّبعية والعبوديّة بقدر ما يوفّر لهم أيضا الأنس والألفة والصّحبة والأهل والحماية والأمن والطّمأنينة.

وإنسجاما مع تحاليلنا وجدنا بالفعل في هذا السّياق أنّ الكثير من الأساطير التي روتها الشّعوب الإنسانيّة في القديم تشير بصورة جليّة إلى أنّ الإنسان ظهر للوجود ليكون خادما وتابعا وعبدا للآلهة.

فنحن نعتبر أنّ الآلهة الذين عبدتهم الشّعوب الإنسانيّة في القديم يرمزون إلى آباء وأجداد هؤلاء الشّعوب وإلى ملوك حكموا في أسلافهم ومصلحين أصلحوا من شؤونهم بحيث أنّ الآلهة يرمزون إلى كبار وأسياد الأسر والأقوام البشريّة الذين عمّروا الأرض في العهود الأولى من التّاريخ الإنساني في حين يرمز الإنسان إلى أفراد هذه الأسر وبصفة عامّة إلى هذه الأسر والأقوام.

ففي هذا السّياق كان البابليّون, سكّان العراق في القديم, يتداولون عددا من الأساطير تروي بأنّ الآلهة هم الذين خلقوا الإنسان ليخدمهم ويريحهم من عناء العمل.

فقد جاء في هذا المعنى في أسطورة بابليّة قديمة إسمها أسطورة أتراهازيس نقلا عن إسم بطلها أنّ الآلهة كانوا في بداية أمرهم بشرا وكانوا يعملون ويشقون ويكدّون في اللّيل والنّهار في سبيل لقمة العيش وكان الآلهة الكبار في العمر يستغلّون الآلهة الصّغار ويستخدمونهم ويسخّرونهم لخدمتهم والقيام بشؤونهم وكان على رأسهم الإله "أنو" إله الأقاليم السّماويّة والإله "أنليل" إله الأقاليم الأرضيّة والإله "أنكي" إله الأقاليم المائيّة والبحريّة.

وضاق الآلهة الصّغار ذرعا من عناء العمل فثاروا على الوضع وأخذوا معاولهم وفؤوسهم وأدواتهم التي يشتغلون بها فكسّروها وأشعلوا فيها النّار وهجموا على الآلهة الكبار وكادت تنشب حرب دامية بين الطّرفين ثمّ إنّ الآلهة الكبار والآلهة الصّغار إجتمعوا وفكّروا سويّا في وسيلة تريحهم من عناء العمل فقرّروا خلق الإنسان لخدمتهم وكلّف الآلهة أمّهم الكبيرة بمباشرة عمليّة خلق

الإنسان فأخذت شيئا من الطّين ومزجته بدم أحد الآلهة الذي تمّ ذبحه لهذا الغرض وصنعت من المزيج الإنسان ليخدم الآلهة فعمّ الفرح والسّرور قلوب الآلهة غير أنّ البشر سرعان ما تكاثروا وأصبحوا يزعجون الآلهة ويقلقون راحتهم بسبب ما يحدثونه من صياح وضجيج حتى أنّ الاله أنليل فقد القدرة على النّوم فقرّر هلاك البشر فأرسل عليهم الطّاعون.

وكان يوجد ضمن البشر شخص نبيه إسمه أَتْرَاهَازِيسْ كان يحضى بعطف خاص من طرف الإله أنْكي فاتّصل به الإله أنكي وأعلمه بقرار الإله أنليل بإرسال الطّاعون على البشر لإفنائهم وأسدى له بعض النّصائح حول سبل تفادي الكارثة فعمل أتراهازيس بنصائح الإله أنكي وتمكّن من إنقاذ البشريّة من الفناء بسبب الطّاعون, ثمّ إنّ أنليل أرسل على البشر الجفاف وبفضل تدخّل الإله أنكي من جديد وإسدائه النّصائح المناسبة لمحبوبه أتراهازيس تمكّن هذا الأخير من التغلّب على الجفاف وصورة ذلك أنّ الإله أنكي نصحه بأن يتوجّه بالدّعاء والإستجداء لإله المطر وكان إسمه "حدّ" و"حدّاد" فأقام له البشر المعابد وتوجّهوا له بالدعاء فأنزل المطر غير أنّ الإله أنليل طلب منه الكفّ عن إنزال المطر فأطاعه وحدث جفاف رهيب وكادت البشريّة أن تفنى من جرّائه واستطاع أتراهازيس أن ينقذ البشريّة مرّة أخرى فغضب الآلهة وقرّروا إرسال الطّوفان على البشر لإفنائهم بالغرق فاتّصل الإله أنكي بالبطل أتراهازيس وعلّمه صنع السّفن وأخبره بقرار الآلهة وأشار عليه أن يصنع سفينة ويحمل عليها أهله وذويه وأمتعته ودوابّه ويفرّ على متنها متى حدث الطّوفان.

وجمع أتراهازيس كبار قومه طبقا لتوصيات الإله أنكي وقال لهم إنّ الإله أنكي تخاصم مع آلهتهم بقيادة أنليل ولأجل ذلك صمّم على مفارقتهم ومغادرة أرض أنليل والعيش في أرض أخرى, وبهذه الحيلة استطاع أتراهازيس

إبعاد الشّكوك عنه وصنع السّفينة كما أوصاه إلهه أنكي ولمّا جاء الطّوفان ركب هو وأهله على متنها ونجا من هول الطّوفان الذي كاد من شدّته أن يهلك الآلهة أنفسهم فاضطرّوا إلى إبعاد العذاب وهكذا قدّر للبشر أن ينجوا مرّة أخرى من الفناء.

فنحن نعتبر أنّ هذه الأسطورة البابليّة القديمة مثل كلّ الأساطير والخرافات الشّعبيّة المماثلة لها هي خبر تاريخي قديم يروي بعض الوقائع والأحداث الحقيقيّة التي جدّت وحصلت في قديم الزّمان لبعض الجماعات من البشر فوق بعض بقاع الأرض.

فالآلهة يرمزون إلى الآباء والأسياد والكبار والعظام داخل الأسر الإنسانيّة التي عمّرت الأرض في العهود الأولى من التّاريخ الإنساني بينما يرمز الإنسان إلى النّساء والأولاد والخدم والتّابعين والمماليك والأعوان داخل هذه الأسر وترمز عمليّة خلق الإنسان من طرف الآلهة إلى عمليّات التّقريد والتّرويض التي كان يمارسها البشر لتدجين أمثالهم واستعبادهم.

فالأسطورة التّونسيّة المتعلّقة بأصل القرد والقردة كانت في الأصل أسطورة شبيهة بالأسطورة البابليّة المتعلّقة بخلق الإنسان من طرف الآلهة ليريحهم من عناء العمل وأساطير أخرى مماثلة.

فالقرد والإنسان يرمزان في هذه الأساطير إلى بعض الأسر والأحياء البشريّة القديمة التي قام بتأسيسها بعض الأشخاص من البشر بواسطة التّقريد والتّرويض والتّدجين والسّبي والإستعباد.

ومن هذا المنطلق فإنّ الأسطورة التّونسيّة المتعلّقة بأصل القرد هي أسطورة تروي في حقيقة الحال الظّروف التي حفّت واحاطت بعمليّة تأسيس بعض الأسر الإنسانيّة في القديم من طرف بعض الأشخاص من البشر.

فقد كانت هذه الأسطورة التونسيّة المتعلّقة بأصل القرد والأسطورة البابليّة المتعلّقة بخلق الإنسان والأساطير المماثلة التي تداولتها مختلف شعوب العالم قصصا وأخبارا تحكيها بعض الأسر والجماعات البشريّة التي عاشت في قديم الزّمان حول ظروف نشأتها وظهورها للوجود.

وكانت هذه الأسر والجماعات تحمل حسب الحالات إسم "أسرة القرد" و"عائلة القرد" و"أسرة الإنسان " و"عائلة الإنسان" أو بصورة مختصرة إسم"القرد" و"الإنسان " فقط.

فقد كانت هذه الأساطير من نوع الأساطير والأخبار التي مازال الكثير من القبائل والجماعات في البلاد التونسيّة وغيرها من البلدان ترويها وتحكيها إلى اليوم بخصوص أصلها ونشأتها والظّروف التي أفضت إلى بروزها للوجود. وقد جمعنا وشرحنا العديد منها في كتاب ألّفناه في السّنوات الفارطة ونشرناه بعنوان"أساطير النّشأة في الجنوب التونسي"سنة 1999 بتونس.

وقمنا في الأثناء بجمع قسم آخر من هذا النّوع من الأساطير منها أسطورة ترويها وتحكيها أسرة تونسيّة تعرف باسم أسرة الحِزَامِيّ ولها فروع في العاصمة تونس وفي أماكن أخرى من البلاد التونسيّة وتقول هذه الأسطورة إنّ مبدأ أسرة الحِزَامِيّ كان بمدينة قابس بالجنوب التونسيّ ثمّ إنتشرت فروعها في العديد من جهات البلاد التونسيّة وصورة القصـّةأنّ أحد أعيان مدينة قابس في القرون الخالية كان متزوّجا وتقدّمت به السنّ دون أن ينجب ولدا فذهب إلى مدينة نفطة بجهة الجريد بالجنوب التونسيّ وهي مدينة أشتهرت بكثرة أوليائها

الصّالحين ليطلب عونهم ومساعدتهم على إنجاب ولد يبعث في قلبه البهجة والسّرور وقصد بالخصوص وليّة صالحة اسمها السيدة الحِزَاميّة كانت مقصد كلّ الذين في وضعه من الرّجال والنّساء فجاء إلى قبّتها التي تحوي ضريحها وطلب منها العون والمساعدة على إنجاب ولد ووعدها بأنّه سيسمّي ولده الحزاميّ على إسمها تبرّكا بها إن هو أنجب ولدا مع التّكفّل بشؤون مقامها وضريحها وما يحتاجه من مختلف الأشياء.

وصدقت نيّته وأنجب ولدا فسمّاه الحزاميّ تنفيذا لوعده للسيّدة الحزاميّة وكبر الولد ومات أبوه فعوّضه في منصبه وكان خير خلف لخير سلف, ثمّ إنّ الحزاميّ تزوّج وأنجب أولادا غير أنّ أوضاع البلاد تغيّرت وفسدت بفعل السّلطان القائم واشتدّ الأمر على أفراد أسرة الحزاميّ فتركوا مدينتهم الأصليّة قابس وتفرّقوا في جهات البلاد التونسيّة فذهبت فرقة منهم إلى جهة جبل الديسة جنوب قابس واستقرّت بسفح الجبل وهاجرت فرقة أخرى إلى مدينة حمام الأنف قرب العاصمة تونس وسكنت بسفح جبل بوقرنين الذي تقع بجانبه مدينة حمام الأنف بينما استقرّت فرقة أخرى بجهة أريانة قرب العاصمة أيضا بسفح جبل النّحلي المحاذي لمدينة أريانة فكانوا كلّهم يختارون الإستقرار بسفوح الجبال.

وجمعنا في هذا السّياق أيضا أسطورة يرويها أولاد سيدي المويلحي بوجلال بجهة الكاف بالشّمال الغربي للبلاد التونسيّة حول أصلهم الأوّل ونشأتهم ومضمونها أنّ هؤلاء الجماعة هم سلالة الوليّ الصّالح سيدي المويلحي بوجلال الذي ولد منذ قرون بمنطقة فوسانة بجهة الكاف بإعانة وليّ آخر من الأولياء الصّالحين اسمه سيدي المويلح فسمّي باسمه مثلما سمّي الحزاميّ باسم السيّدة الحزاميّة وصورة ذلك أنّ الوليّ الصّالح سيدي المويلح كان من أصحاب الوليّ الصّالح سيدي بوغانم الذي عاش في القرن السادس عشر بجهة فوسانة المذكورة

وقد كانت منطقة فوسانة على ملك واحد اسمه القائد يعقوب وكان رجلا جبّارا فقدم سيدي بوغانم من المغرب سائحا في ملك اللّه فمرّ بمنطقة فوسانة فأقام بها في إحدى الخلوات وكان زاهدا تاركا للدّنيا فسخّر له اللّه نياق القائد يعقوب تطعمه فكانت هذه النّياق تأتيه بمحض إرادتها وتعرض عليه ضروعها ليحلبها ويشرب حليبها فتفطّن له القائد يعقوب فاستشاط غضبا وأمر أعوانه بالقبض على سيدي بوغانم وإحراقه بالنّار فأمسك أعوان القائد يعقوب بالوليّ سيدي بوغانم وأشعلوا نارا كبيرة ورموا فيها سيدي بوغانم وتجمّع النّاس لرؤية المشهد وكان فيهم ولد رضيع للقائد يعقوب فقام سيدي بوغانم من النّار وانقضّ على ولد القائد يعقوب ووضعه مكانه في النّار ثمّ تحوّل إلى غراب أسود وطار وغاب عن الأنظار وفي صباح اليوم الموالي جاء القائد يعقوب إلى موقد النّار ليأخذ بقايا ولده ويدفنها فوجد سيدي بوغانم يطعم ولده التّمر وهو حيّ يرزق لم يصبه شيء فلمّا رأى القائد يعقوب ذلك المشهد وتلك الآية رجع عن غيّه واعترف لسيدي بوغانم بالولاية وأقطعه جزءا من منطقة فوسانة.

فنزل في ضيافة سيدي بوغانم ذات يوم والد سيدي المويلح وزوجته وكانت وقتها حاملا به وهما في طريقهما إلى الحجّ قادمين من المغرب فتعذّر على الزّوجة مواصلة الرّحلة بسبب حملها فتركها زوجها في كفالة سيدي بوغانم وواصل رحلته بمفرده وولدت المرأة سيدي المويلح فعاش في كفالة سيدي بوغانم وأصبح بمثابة إبنه ومن أصحابه المقرّبين وسار على منواله في الزّهد وترك الدّنيا حتّى أصبح من أكبر الأولياء الصّالحين, فبينما كان ذات يوم يتجوّل في البلدان مرّ بجماعة أولاد عيّار المقيمين في المنطقة وكانت عندهم إمرأة حامل فاجأها المخاض وتعسّرت في الوضع فطلبوا من سيدي المويلح مساعدتها فدعا ربّه فأجابه وولدت المرأة ولدا فتسلّمه سيدي المويلح بين يديه ووضعه في

جلال فرس فسمّي باسم المويلحي بوجلال تبرّكا بسيدي المويلح وإشارة إلى جلال الفرس الذي وضع فيه وكبر وأصبح هو الآخر وليّا صالحا وتزوّج وأسّس أسرة وأنجب أولادا منهم ولد إسمه عمر خلفه بعد وفاته على رأس الأسرة وشهدت عائلة المويلحي في عهد عمر نموا كبيرا وتحصّلت على عدّة إقطاعات من أصحاب الجهة ثمّ لمّا مات خلفه إبنه علي الذي له قبّة بمدينة تاجروين بجهة الكاف وترك علي عدّة أولاد منهم ولد إسمه طالب هاجر إلى مدينة تبسّة بالجزائر على رأس فرقة من الأسرة واستقرّ بها وعرفت عائلته باسم أولاد يحي بن طالب ثمّ تشتّتت أسرة أولاد المويلحي تدريجيا إثر وفاة علي الذي خلفه أخوه محمد وكان مثل أجداده الأولين زاهدا في الدّنيا فانقسمت العائلة إلى عدّة فروع إستقرّ كلّ واحد منها ببعض المَناطق المَجاوَرة.

فقد كانت الأسطورة التونسيّة المتعلّقة بأصل القرد والقردة قصّة من هذا النّوع تحكيها بعض الأسر والجماعات البشريّة التي عاشت في العهود الأولى من التّاريخ الإنساني حول أصلها الأوّل وأصل أجدادها وظروف نشأتها وبروزهم للوجود وحملهم للإسم الذي تحمله وقد كان تأسيس الأسر والعائلات البشريّة في تلك العهود يقوم على التّقريد والتّرويض والتّغزّل والتّدجين والإستعباد مثل اليوم تقريبا بشتّى أشكال التّقريد والتّرويض والتّدجين من الحكّ والكرد والفلي ونزع القمل إلى الأخذ والأمساك والقبض بواسطة الحبال وإهداء الهدايا والأطعام والإصطياد والإختطاف والقيد والعقل والهشّ والنّشّ والنّخّ.

ولهذا السّبب اتّصف الإنسان بالعقل. فنحن نعتبر أنّ ملكة العقل التي يتّصف بها الإنسان ويراها خصلة خاصّة به دون سائر الحيوانات الحقيقيّة الأخرى ترمز في واقع الأمر وحقيقة الحال إلى وضعه الأصلي باعتباره كان يمثّل طبقة الخدم والتّابعين والأعوان والعبيد في الأسر الإنسانيّة التي عمّرت

الأرض في العهود الأولى من التّاريخ الإنساني مقارنة بالآلهة الذين يرمزون إلى الأسياد داخل هذه الأسر فكان الإنسان يمثّل فئات البشر الذين يتعرّضون إلى السّبي والأخذ بواسطة الشّباك والشراك والأفخاخ والحبال ثمّ يعقلون ويقيّدون ويربطون ريثما يتمّ تقريدهم وترويضهم وتدجينهم حتى يصبحوا مطيعين وأليفين ومستأنسين وخاضعين لأسيادهم الذين أسروهم وربطوهم في الحبال وعقلوهم بالقيود والأحجار والحلق والجنازير وغيرها من وسائل العقل والرّبط والشدّ, وهكذا فإنّ الإنسان بوصفه يرمز إلى فئة المستعبدين هو نتاج العقل في معنى القبض بالحبال والرّبط والشدّ, ومازال النّاس إلى اليوم يعتبرون أنّ الإنسان الكامل هو الذي يتزيّن ويتحلّى بالعقل وإنّ استعمال مثل هذه التّعابير كفيل بالدّلالة على صحّة شروحنا ويشهد أنّ العقل يرمز إلى الشدّ والرّبط بالحبال بقدر ما يشهد أنّ قطع الحليّ والزينة كانت وسائل للعقل والرّبط مثلما ذكرناه. فكلّ هذه التّعابير تدلّ بوضوح على أنّ العقل يرمز في واقع الأمر إلى القيود والحبال والأساور والدّمالج والخلاخيل التي كان البشر قديما يشدّون ويربطون بها أمثالهم من البشر المتوحّشين لإستعبادهم بعد ترويضهم وتدجينهم وتقريدهم ليصبحوا أليفين وأهليّين وأناسا وناسا ويتحوّلوا من وضعهم الأوّل إلى وضع الإنسان بمعنى إلى خدم وتابعين ومطيعين وعبيد وبشر مدجّنين يعيشون في إطار أسر تخضع إلى بعض النّظم والأعراف.

ومازال جماعة التّوارق الذين يعيشون في المناطق الصّحراويّة لبلدان شمال إفريقيا يسمّون في لغتهم البربريّة العقل بإسم "خلخال" ويطلق اسم"خلخال" في العربيّة والمجتمعات العربيّة عموما على الحلقة التي توضع حول ساق المرأة للزّينة وتكون عادة من الفضّة والذّهب وهو اسم مفرد ويجمع على "خلاخيل".

وأوضحنا في تحاليلنا المتقدّمة أنّ اسم"إنسان" كان يطلق قديما بالأساس على الأسرة التي ينتمي إليها الشّخص بحيث أنّ الإنسان بالنّسبة لكلّ شخص هو أسرته وأهله وأقاربه فهم يمثلون بالنسبة اليه الإنسان لأنّ أسرته أليفة بالنّسبة له نظرا إلى أن الإنسان يعني الأليف والأنيس كما أنّه هو الآخر أليف وأنيس بالنّسبةلأفراد الأسرة الآخرين فهو إنسان بالنّسبة لهم فكان الإرتقاء إلى منزلة الإنسان يعني الإنتساب إلى الأسرة سواء بالولادة وما يترتّب عنها من تربية وترويض وتدجين للطّفل الصّغير أو بالإنتماء إثر الأسر والسّبي والإختطاف مع ما يتبعه من خضوع إلى عمليّات التربية والتّقريد والتّدجين ليصبح الشّخص المعنيّ بالأمر مثل أفراد الأسرة خُلُقًا وسُلُوكًا ومع أنّ الفرد في الأسرة يمرّ بالعقل والقيد في كلّ الحالات فإنّه يصبح داخلها بعد إتمام فترة التّقريد والتّدجين من العاقلين الذين يمكن لهم عقل غيرهم وترويضهم وتدجينهم بعد أن كان من الفئة المعقولة ولأجل ذلك فإنّ اسم"عقل"و"معقول" و"عاقل" متقاربة وتكاد تكون متعادلة في المعنى في العربيّة.

ولاحظنا في هذا السّياق أنّ العقل بمفهومه السّائد اليوم يسمّى باسم"رَسَنْ" في اللّغة الفرنسيّة وبعض اللّغات الأوروبيّة الأخرى نقلا عن اللاّتينيّة وتطلق كلمة "رسن" في اللّغة العربيّة والبلدان العربيّة على الحبل الذي تربط به الدّواب والحيوانات.

أسطورة أصل القنفد :

كما جمعنا في هذا المضمار أسطورة تونسيّة أخرى حول أصل الحيوان المسمّى باسم"قنفد" مضمونها أنّ القنفد كان في الأصل إنسانا فاقترف سرقة فابتلي في جسمه ومُسِخَ وتحوّل إلى قنفد وصورة ذلك أنّ جمعا من النّساء كنّ بصدد إعداد الصّوف ومشطه بواسطة الأمشاط الكبيرة المعدّة لذلك وتسمّى في

تونس باسم القرداش وتجمع على قراديش ويسمّى باسم المحلج في اللّغة العربيّة ويجمع على محالج وهي أمشاط كبيرة ذات أسنان حديديّة تستعمل لمشط الصّوف وتنقيته وتهذيبه قصد تهيئته للغزل فكان أولئك النّساء يمشطن ويقردشن الصّوف بقراديشهنّ بالقرب من غنم لهنّ يرعينها فشردت منها شاة فقام النّساء يبحثن عنها وتركن قراديشهنّ وأصوافهنّ حيث كنّ جالسات وإبتعدن يبحثن عن الشّاة الضّائعة فجاء شخص وسرق قراديشهنّ ولمّا عاد النّساء لم يجدن قراديشهنّ فتوهّمن أنّ شخصا سرقها فدعون عليه وتمنّين على اللّه أن يجعله مثل القرداش فتحقّقت دعوتهنّ ومسخ ذلك الشّخص وتحوّل إلى قنفد يكسو جسمه الشّوك الحادّ مثل قرداش الصّوف.

فهذه الأسطورة التونسيّة حول أصل القنفد هي أيضا خبر تاريخيّ يروي بعض الوقائع والأحداث الحقيقيّة التي حصلت في قديم الزّمان لبعض الجماعات من البشر فوق بعض بقاع الأرض.

فهي تشبه في مختلف عناصرها الأسطورة المتعلّقة بأصل القرد التي شرحناها في تحاليلنا المتقدّمة ولا سيما من حيث الهيأة التي تحوّل إليها السّارق، فقد أصبح مثل القرداش ونعتبر أنّ اسم "قرداش" مأخوذ من اسم "قرد" و"كرد" وبالفعل فإنّ عمليّة مشط الصّوف وتهذيبه بواسطة القرداش تسمّى باسم"كرد" في سياق اللّغة الفرنسيّة وقد سمّي هذا المشط باسم القرداش لأنّه وسيلة وأداة لتنقية الصّوف وتهذيبه ونزع ما علق به من الأوساخ والأتربة، ورأينا أنّ التّقريد يفيد معنى التّرويض والتّهذيب ويشتمل على الحكّ والكرد ونزع القمل والأوساخ بحيث أنّ القردشة والتّقريد يفيدان شيئا واحدا.

فالقنفد في هذه الأسطورة يعادل القرد في الأسطورة السّابقة حيث أنّ القنفد ظهر نتيجة لعمليّة قردشة وتقريد كما تقول القصة الخاصة به وهو من هذه

النّاحية شخص مُقَرْدَشٌ كان لصّا متشرّدا فتعرّض إلى عمليّة تقريد وأصبح من البشر المدجّنين وإنسانا مثلما شرحناه في تحاليلنا السّابقة.

وعلى هذا الأساس فإنّ الأسطورة المتعلّقة بأصل القنفد هي من نوع الأسطورة المتعلّقة بأصل القرد وتنتمي إلى صنف الأساطير المتعلّقة بظهور الإنسان وخلق الإنسان بوصفه يرمز إلى البشر المستعبدين والمدجّنين العائشين في إطار الأسر والعائلات مقارنة بالبشر المتوحّشين العائشين خارج الإطار الأسري في حالة تسيّب وعزلة وشبه حريّة.

فقد أشرنا إلى أنّ التقريد والتّرويض والتّدجين كان يمرّ عبر عديد العمليّات والتصرّفات الطّبيعيّة ومن بينها الفلي ونزع القمل وفي هذا الإطار فإنّ كلمة "فلي" تستعمل في معنى السّرقة في سياق اللّغة الفرنسيّة فضلا عن استعمالها في معنى الغزل وتنطق في صيغة "فُولي" و"فُول" وتشير الأسطورة إلى أنّ عمليّة التقريد حصلت إثر عمليّة سرقة.

ويسمّى القنفد في اللّغة العربيّة باسم الهَيْثَم والأنثى منه باسم الهَيْثَمَة وتحوّل هذا الإسم إلى شيماء الذي يستعمل لتسمية النّساء في المجتمعات العربيّة ويُخْتَصَرُ في صيغة "شيمة" و"شيم" وتستعمل كلمة"شِيمَة" و"شِيَم" في معنى الخصال والصّفات المميّزة للشّخص في اللّغة العربيّة وهي صيغة لفظيّة لكلمة"سِمَة" بالسين المهملة التي تستعمل أيضا في معنى الصّفة المميّزة في اللّغة العربيّة ونعتبر أنّ أصل الشيمة والسّمة هو الرّسم والشّكل الذي يحدثه الوشم والوسم على جسم الإنسان والحيوان وأشرنا إلى أنّ الوشم والوسم هو وسيلة لإثبات التملّك والسّيادة على من يحمل ذلك الوشم والوسم بحيث أنّ اسم "هيثم" و"هيثمة" الذي يطلق على القنفد يفيد في الأصل معنى الموشّم والموسوم والعبد والخادم والتّابع وهو من هذه النّاحية يعادل اسم"قرد"و"إنسان".

وعلى هذا الأساس فإنّ الأساطير المذكورة التي يرويها السّكان في تونس بخصوص أصل القرد والقنفد تمثّل في حقيقة الحال روايات وصيغا متعدّدة لقصّة قديمة واحدة تتعلّق بتأسيس بعض الأسر الإنسانيّة القديمة وظهورها للوجود وكانت تحمل اسم القرد والقنفد والإنسان وما شابه هذه الأسماء لفضا ومعنى.

أسطورة عجز الدّجاجة عن الطّيران :

وجمعنا في هذا السّياق أيضا أسطورة يرويها السّكان في مدينة جمنة بالجنوب التونسي حول سبب عجز الدّجاج عن الطّيران والتّحليق في الهواء مثل سائر الطّيور ومضمونها أنّ الدّجاجة أرادت في بداية أمرها أن تطير وتحلّق في الهواء فبسطت جناحيها وهمّت بالطّيران لكنّها فشلت ووقعت على الأرض فأصلحت حالتها وقالت"يوم غد سأعيد الكرّة وأطير بحول اللّه ومشيئته", وفي الغد استعدّت للطّيران وبسطت جناحيها وحاولت أن تطير فلم تستطع إلى ذلك سبيلا فغضبت وثارت على الوضع وقالت : "يوم غد سأطير شاء اللّه ذلك أم لا". فغضب اللّه عليها لتحدّيها لمشيئته وأمسك بها وأعطبها من جناحيها وحرمها من الطّيران على الدّوام.

فهذه الأسطورة هي خبر تاريخي يروي بعض الوقائع والأحداث الحقيقيّة التي حصلت في قديم الزّمان لبعض الجماعات من البشر فوق بعض بقاع الأرض.

فنحن نعتبر أنّ هذه الأسطورة هي قصّة واقعيّة تروي ظروف نشأة جماعة من البشر عاشوا في قديم الزّمان وكانوا يحملون أثناء وجودهم فوق الأرض اسم"دجاج" و"دجاجة" و"ديك" و"ديكة" تعبيرا عن بعض الصّفات والخصال البشريّة المميّزة لهم وقد وجدنا انّ لفظة"دجاج" تفيد في سياق اللّغة

العربيّة معنى الخادم والتّابع والعبد والعون بحيث أنّ أسطورة الدّجاجة هي من جنس أسطورة أصل القرد وأسطورة أصل القنفد وتدخل في إطار الأساطير المتعلّقة بظهور الإنسان والنّاس بوصفهم يرمزون إلى البشر الذين تعرّضوا إلى التّدجين والتّرويض والتّقريد فخرجوا من طور التوحّش والعزلة والإنكماش والتشرّد والتسيّب وأصبحوا يعيشون في إطار أسريّ وإجتماعي مقارنة بالبشر المتوحّشين والعائشين خارج الإطار الأسري والعائلي.

فكلمة"دجاج" هي صيغة لفظيّة لكلمة"داج" التي تستعمل في معنى التّابع في اللّغة العربيّة كما في عبارة "الحاج والدّاج" التي تعني فيها كلمة"داج" المكّارين والأجراء والأعوان والعملة ونحوهم الذين يتبعون الحجّاج فيقال في العربيّة"أَقْبَلَ الحَاجُّ والدّاجُّ" بمعنى الحجّاج ومن معهم من الأجراء والمكّارين والخدّام ونحوهم.

كما يستعمل إسم "دُوجَة" إلى اليوم لتسمية النّساء في تونس وهو صيغة لفظيّة لإسم "داجة" و"دجاجة" وكان اسم"دجاجة" يستعمل عند العرب قديما لتسمية النّساء.

ونظرا لتعادل الصّوت"جا" والصّوت"كا" فإنّ اسم"داجة" ودوجة" يمكن أن يتّخذ صيغة "دوكة" و"داكة" و"دكة" و"ديكة", ويمثّل إسم "ديكة" من النّاحية اللّغويّة مؤنّث إسم "ديك" في العربيّة ويستعمل إسم "ديك" في العربيّة في معنى ذكر الدّجاج ويسمّى الدّيك في تونس باسم "سَرْدُوك" كما يستعمل إسم "ديك" في العديد من المجتمعات الأوروبيّة كما هو الحال عند الإنقليز والأمريكان أمثالهم لتسمية الرّجال.

وعلى هذا الأساس فإنّ اسم"دجاجة" هو مؤنّث"ديك" من النّاحية اللّغويّة.

ثمّ إنّ اسم "دوج" الذي يمثّل من النّاحية اللّغويّة مذكّر "دوجة" في سياق اللّغة العربيّة كان يستعمل في القرون الوسطى في بعض الجمهوريّات الإيطاليّة آنذاك كجمهوريّة البندقيّة في معنى السيّد والشّيخ والحاكم ويطلق على الحكام المنتخبين لهذه الجمهوريّات.

ويطلق اسم"دوق" في العديد من اللّغات والمجتمعات الأوروبيّة على أفراد الطّبقة العليا من الأشراف والنّبلاء ويؤنّث في صيغة"دوقة" وينطق في الفرنسيّة بصيغة"ديك" و"دوك" وفي الإيطاليّة في صيغة "دوتشي".

وفي حقيقة الحال فإنّ كلّ هذه الأسماء مأخوذة من اسم"داك" و"داداك" الذي مازال يستعمل إلى اليوم في تونس في معنى السيّد والسيّدة على غرار إسم "باك" وباباك ويتركّب أساسا من الإسم "دا" و"دادا" الذي يفيد معنى الأب والسيّد والكبير والعظيم والسيّدة والشّيخة ويستعمل لتأدية كلّ هذه المعاني في العديد من اللّغات والمجتمعات الإنسانيّة كما هي الحال في تونس.

وعلى هذا الأساس فإنّ اسم"دجاجة" و"دوجة" و"دوقة" و"داك" و"ديكة" يفيد في الأصل معنى المرأة والسيّدة في حين يفيد اسم"دوك" و"ديك" معنى الرّجل والسيّد.

وتسمّى الدّجاجة باسم"بول" و"بولي" في سياق اللّغة الفرنسيّة, كما يستعمل إسم "بول" لتسمية الرّجال عند سكّان فرنسا والبلدان الأوروبيّة عموما ومؤنّثه"بولة" لتسمية النّساء بينما يسمّى صغير الدّجاج في تونس باسم"فلّوس" للذكر و"فلّوسة" للأنثى. وتدعى عمليّة الطّيران والتّحليق في الجوّ باسم"فول" و"فولي" في الفرنسيّة فضلا عن إستعمال هذا الإسم في معنى السّرقة مثلما ذكرناه.

وهكذا فإنّ الأسماء التي تطلق على الدّجاج والدّجاجة في بعض السّياقات اللّغويّة تتضمّن معاني لها صلة بالفلي ونزع القمل والتّقريد ولاسيما أنّ لفظة"طار" تفيد في سياق اللّغة العربيّة معنى النّكاح والمواقعة الجنسيّة وما تشتمل عليه من غزل وتغزّل, وتقول أسطورة الدّجاجة أنّها نالت العقاب الذي أصابها لأنّها أرادت أن تطير مهما كلّفها الأمر.

فمن ذلك إنّ الكلبة إذا أرادت الفحل يقال عنها في سياق اللّغة العربيّة إنّ الكلبة إستَطَارَتْ كما يقال في العربيّة طيّر الفحل الإبل بمعنى ألقحها ويقال للإبل طيّرت لقحا ولقاحا أي اشتهت اللّقاح وفي هذا المعنى يقول أحد الشّعراء يخاطب إمرأة وقد وصف إيره بمخراق كأنّه رمح :

"طِيرِي بِمِخْرَاقٍ أَشَمَّ كأنّه سَلِيمُ رِمَاحٍ لَمْ تَنَلْهُ الزّعَانِفُ"

ويقصد بالزّعانف النّساء.

كما أنّ كلمة "طار" تستعمل في سياق اللّغة البربريّة في معنى الحبّ والنّكاح والتّزاوج والإنجاب والأولاد.

وتستعمل كلمة "دَقّ" في العديد من البلدان العربيّة كتونس في معنى الوشم الذي يرسمه النّاس على أجسادهم للزّينة وقد أوضحنا أنّه وسيلة كان يستعملها الأسياد وأرباب الأسر قديما لإثبات ملكيتهم وسيادتهم على الأشخاص الموشّمين وفي مقدّمتهم نساؤهم وأفراد أسرهم الذين يمثّلون قردتهم وناسهم وأهلهم وداجهم ودجاجهم حيث أنّ كلمة"دقّ" هي صيغة لفظيّة لكلمة"داك" و"داداك" و"ديك" و"ديكة" و"داج" و"دوجة" و"دجاجة" التي تفيد معنى التّابع والخادم والعبد. وأطلقت في الأصل على المرأة والنّساء وأفراد الأسرة عموما باعتبارهم تابعين للزّوج ربّ الأسرة والأب ثمّ شملت مختلف أصناف الخدم والتّابعين

والعبيد, كما أطلقت على السيّد والرّئيس لأنّه هو الذي يَدُقُّ ويَسِمُ ويوشّم ويستعبد.

وفي هذا السّياق لاحظنا أنّ السكان في البلاد التّونسيّة يسمّون العقاب الذي يسلّطه الأولياء الصّالحون على المفسدين والمذنبين باسم الدّق وعلى هذا الأساس يقول أهل تونس للذي ينوي عمل الفساد إنّ الوليّ سيدي فلان سيدقّه بمعنى سيسمه سوء العذاب ويكبّله بالحديد ويكويه بالنّار مثلما يفعل الأسياد بأتباعهم وخدمهم وعبيدهم وأسراهم وسباياهم.

وعلى هذا الأساس يمكن أن نقول إنّ اسم"دجاج" و"دجاجة" و"ديك" و"ديكة" يعادل اسم"قرد" و"إنسان" و"قنفد" و"شيهم" و"شيهمة". وأشرنا إلى أنّ القرد والإنسان والقنفد أو الهيشم يرمزون إلى فئة البشر المدجّنين والخدم والعبيد والتّابعين داخل الأسر الإنسانيّة في العهود الأولى من التّاريخ الإنسانيّ وكانت هذه الفئة تشمل بالأساس النّساء وأفراد الأسرة التّابعين لصاحب تلك الأسرة الذي هو زوج النّساء وأب الأولاد ثمّ عمّت مختلف الأصناف الإنسانيّة.

ومن هذا المنطلق يمكن أن نقول بأنّ العقاب المسلّط على الجماعة الذين ترمز إليهم الدّجاجة في الأسطورة التونسيّة المذكورة هو الدّقّ والوشم كعلامة وشاهد على تحوّلهم ملكا وخدما وتابعين وعبيدا لمن قام بدقّهم ووشمهم في إطار سعيه إلى تقريدهم وتدجينهم وترويضهم وكان المقصود من هذا التّقريد والدّقّ والوشم هو المواقعة الجنسيّة والإقتران والنّكاح وحصل بينما كان الجماعة الذين تعرّضوا إلى الدّقّ والوشم في حال إستعداد للمواقعة الجنسيّة ويشتهون الطّير والنّكاح كالكلبة المستطيرة وقد ذكرنا أنّ الرّجال والذّكور كانوا ومازالوا إلى اليوم هم المبادرين بالتّقريد ويجدون التّشجيع على عملهم في إستعداد الإناث للإقتران بهم.

وعلى هذا الأساس فإنّ الأسطورة المتعلّقة بسبب عجز الدّجاجة على الطّيران والتّحليق في الهواء مثل سائر الطّيور هي من نوع أسطورة أصل القرد وأسطورة أصل القنفد, فهي قصّة واقعيّة وخبر تاريخي يروي ظروف تأسيس بعض الأسر والأحياء البشريّة التي قامت في قديم الزّمان من طرف بعض الأشخاص عن طريق تقريد بعض الأشخاص الآخرين من البشر وترويضهم وتدجينهم وإستعبادهم الذي يشتمل على الوشم والدّقّ.

وبالنّظر إلى أنّ مبادرات التّقريد تأتي في جلّ الحالات من الرّجال والذّكور يمكن أن نقول بأنّ الأسطورة التونسيّة المتعلّقة بسبب عجز الدّجاج عن الطّيران والتّحليق في الجوّ مثل سائر الطّيور هي خبر تاريخيّ ينقل ظروف تأسيس بعض الأسر التي كانت قائمة في القديم من خلال قيام بعض الذّكور بتقريد وتدجين وإستعباد ووشم ودقّ بعض النّساء والإناث كنّ في حالة إستعداد للمواقعة الجنسيّة.

حكايات أمّي سيسي والقطّ :

ويروي السّكان في تونس أيضا أسطورة مماثلة حول القطّ أو القطّوس كما يسمّونه في لهجتهم العربيّة الدّارجة مضمونها أنّ عصفورة إسمها أمّي سيسي كانت تسكن في دار لها مع إبنتها الصّغيرة فأخذت ذات يوم تكنس دارها فوجدت قطعة نقود ملقاة على الأرض فاشترت بها جبنا لإبنتها الصّغيرة التي كانت تقرأ في المدرسة ووضعتها في المطبخ وخرجت لبعض شؤونها وكان عندها قطّ إسمه البراني فطلبت منه أن يحرس قطعة الجبن ريثما تعود فأكل القطّ قطعة الجبن ولمّا رجعت أمّي سيسي وعلمت بأمره دعت عليه فمسخ وأصبح مشوّها واسودّ وجهه فطلب من أمّي سيسي أن تسامحه وتعيد له هيأته الأولى فاشترطت عليه أن يعيد أوّلا قطعة الجبن التي أكلها فذهب إلى البقّال وطلب منه

أن يعطيه قطعة جبن فطلب منه البقّال أن يأتيه بشيء من الحليب ليصنع له الجبن فذهب إلى البقرة لتعطيه شيئا من الحليب فاشترطت عليه أن يأتيها بشيء من الحشيش فذهب إلى الحقل فطلب منه أن يسقيه بشيء من الماء فذهب إلى البئر فطلب منه أن يأتيه بعنقود عنب من الدّالية أو شجرة العنب فأعطته الدّالية عنقود عنب فحمله إلى البئر فأعطاه الماء فحمله إلى الحقل فأعطاه الحشيش فحمله إلى البقرة فأعطته الحليب فحمله إلى البقّال فأعطاه قطعة الجبن فحملها إلى أمّي سيسي التي سامحته وأعادته إلى حالته الأولى.

وجمعنا أسطورة أخرى من هذا النّوع مضمونها أنّ إمرأة إسمها أمّي سيسي كانت تعيش مع إبنتها وكان عندها قطّ إسمه البرّاني فاشترت أمّي سيسي ذات يوم لإبنتها قطعة حلوى فسطا عليها القطّ وأكلها فأمسكت به أمّي سيسي وقطعت له ذيله عقابا على سرقته لقطعة الحلوى فصار القطّ يعوي ويولول وطلب من أمّي سيسي أن تعالجه وتعيد له ذيله أو بعبوصه كما يسمّيه السّكان في تونس حتّى يأكل مع أصحابه القدّيد يوم العيد.

فاشترطت عليه أمّي سيسي أن يأتي لها بعنقود عنب عوض القطعة التي أكلها فذهب إلى الدّالية فطلب منها عنقود عنب فطلبت منه أن يأتي لها بالماء فذهب إلى البئر فطلب منه أن يأتي له بخروف فذهب إلى الرّاعي فطلب منه أن يأتي له بسكّين فذهب إلى الحدّاد فطلب منه سلّة بيض ويسمّي السّكان في تونس البيضة بإسم "عظمة" والبيض بإسم "عضام" فذهب القطّ إلى الطّحّان صاحب المطحنة وطلب منه أن يعطيه سلّة بيض وكان الطّحّان يحبّ القطّ لأنّه كان يساعده على قتل الفئران التي كانت تفتك بحبوبه فأعطاه الطّحّان سلّة بيض فحملها إلى الحدّاد فأعطاه السّكين فحملها إلى الرّاعي فأعطاه الخروف فحمله

إلى البئر فأعطاه الماء فحمله إلى الدّالية فأعطته عنقود عنب فحمله إلى أمّي سيسي فعالجته وأعادت له نيله. ولمّا جاء العيد أكل مع أصحابه اللّحم والقدّيد.

وتذكر رواية أخرى من روايات أمّي سيسي أنّ أمّي سيسي العصفورة كان لها بنت فسطا القطّ على تلك البنت وأكلها فدعت عليه أمّي سيسي فأصبح القطّ كلّما أمسك شيئا بيده تحوّل ذلك الشّيء إلى تراب.

وتمثّل حكايات أمّي سيسي في تونس وفي البلدان المغاربيّة الأخرى ولاسيّما ليبيا جزءا هامّا من الرّصيد الأسطوري والخرافي لهذه البلدان حتّى أنّها أصبحت فيها رمزا للخرافة والأسطورة بمفهومها العام.

فنحن نعتبر أنّ حكايات أمّي سيسي بمختلف أشكالها ورواياتها وصيغها هي أخبار تاريخيّة تروي وتنقل بعض الوقائع والأحداث الحقيقيّة التي حصلت في قديم الزّمان لبعض الجماعات من البشر فوق بعض بقاع الأرض.

فخرافات أمّي سيسي هي من نوع الأساطير والخرافات المتعلّقة بالقرد والقنفد والإنسان والدّجاجة, فهي قصصٌ واقعيّة وأخبار تاريخيّة تنقل وتروي الظّروف التي حفّت بنشأة وتأسيس بعض الأسر والأحياء البشريّة القديمة من طرف بعض الأشخاص من البشر بواسطة تقريد وترويض وتدجين بعض الأشخاص الآخرين من البشر.

فالقطّ والقطّوس في حكايات أمّي سيسي مثل القرد والقنفد والإنسان والدّجاج في الأساطير والخرافات التّونسيّة المذكورة سابقا يرمز إلى بعض الجماعات من البشر الذين عاشوا في قديم الزّمان وكانوا يحملون إسم القطّ بمعنى الخادم والتّابع والعبد والأسرة والبشر المدجّنين.

فقد لاحظنا أنّ القطّ يسمّى في بعض البلدان ومنها تونس باسم "قطوس" كما يسمّى في اللاّتينيّة أيضا باسم"قطّوس" ويدعوه السّكان في النّوبة والسّودان بإفريقيا الشّرقيّة باسم "قِدّيس" وتستعمل كلمة "قدس" و"قدش" في سياق اللّغة البربريّة في معنى الخدم والتّابعين والأعوان في صيغة "قدّاشة" وكان إسم "قدّاشة" يطلق إلى عهد قريب في تونس والبلدان المغاربيّة على طلبة المدارس القديمة الذين كانوا يزاولون تعليمهم داخل هذه المدارس في زوايا الأولياء الصّالحين والتّكايا وما شابهها من الأماكن ذات الصّبغة المقدّسة وينامون بها مع القيام بشتّى الأعمال المنزليّة والأشغال الضّروريّة لتأمين قوتهم وقوت أساتذتهم ومعلّميهم ومن ينزل عليهم ضيفا.

ومازالت كلمة"قد" تستعمل إلى اليوم بكثرة في البلاد التونسيّة في معنى الخدمة والعمل وتعادلها كلمة"كدّ" بالكاف التي تستعمل في سياق اللّغة العربيّة في معاني قريبة وخاصّة في معنى العمل والجهد بحيث أنّ "القطّوس" والقدّوس" والقدّيس" هو العامل والخادم الذي يعمل لفائدة رئيسه وسيّده مقابل قوته وحمايته والدّفاع عنه ورعايته.

وقد كانت النّساء داخل الأسر الإنسانيّة أوّل فئة بشريّة تنهض بهذا الدّور بحيث أنّ نساء الأسرة وإناثها كنّ القطّ والقدّ والقطّوس والقدّوس والقدّيس داخل الأسرة البشريّة, ثمّ إنّ هذا الإسم أطلق على مختلف أصناف الخدم والعبيد والتّابعين وكذلك على أسيادهم حيث أنّ كلمة "قوت" و"قود" تستعمل في معنى الإله في الألمانيّة والإنقليزيّة مثل كلمة"آل" التي تستعمل في العربيّة في معنى الأسرة والعائلة وفي معنى السيّد وربّ الأسرة في صيغة "إله" و"آل".

وكان الكنعانيّون سكّان سوريا ولبنان وما يسمّى ببلاد الشّام في القديم يعبدون إلها إسمه"آل" وأشرنا إلى أنّ الآلهة يرمزون إلى الأسياد بمختلف

أصنافهم في العهود الأولى من التّاريخ الإنساني ومنهم الآباء والأزواج وأرباب الأسر.

وعلى هذا الأساس فإنّ اسم"قرد" و"قنفد" و"إنسان" و"دجاج" وقط" و"قد" و"قطّوس" و"قدّيس" هي أسماء متعادلة وتشير إلى حقائق تاريخيّة قديمة واحدة.

كما وجدنا أنّ القطّ يسمّى بإسم "أمشيش" في سياق اللّغة البربريّة وهو صيغة لفظيّة لإسم "أمسيس" بالسّين المهملة نظرا لتعادل الصّوت "سا" والصّوت "شا" ونعتبر أنّ إسم "أمّي سيسي" الذي يطلق على بطلة حكايات أمّي سيسي هو في الأصل "أمسيس" بمعنى القطّ بحيث أنّ خرافات "أمّي سيسي" كانت تعني في الأصل خرافات أمسيس أو خرافات القط على غرار خرافة القرد وخرافة القنفد وخرافة الدّجاج.

ويفيد إسم"أمسيس" معنى المرأة والجارية والخادم والأمة وبعبارة أوضح "أمة سيسي" بمعنى جارية سيسي وإمرأة سيسي وخادم سيسي.

ففي هذا السّياق جمعنا أسطورة يرويها النّاس في تونس والبلدان المغاربيّة بما فيهم جماعة التّوارق الذين يعيشون في المناطق الصّحراويّة التّابعة لبلدان شمال إفريقيا من ليبيا شرقا إلى السّاقية الحمراء غربا مرورا بتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا. ومضمون هذه الأسطورة أنّ رجلا إسمه سيسي وجد إمرأة متوحّشة ذات حسن وجمال فروّضها ودجّنها وقرّدها حتّى أصبحت تقلّده وتتبعه في كلّ ما يأتي ويفعل فقام بإشعال النّار فأشعلت معه النّار وأعدّ الأكل فأعدّت معه الأكل وجاء بجواد فوضع عليه السّرج فقلّدت المرأة فعله ثمّ إنّ الرّجل أخذ شهابا من النّار وتظاهر بوضعه على رأسه فقلّدته المرأة المتوحّشة وأخذت هي الأخرى شهابا من نار ووضعته على رأسها فأحرقتها

النّار فانطلقت تجري وتصيح لا تلوي على شيء فأطلق عليها النّاس إسم "أمة سيسي" بمعنى جارية سيسي وإمرأة سيسي.

فقد وجدنا في هذا السّياق أنّ التّقليد يسمّى"أمة" و"أمت" مع نطق الصّوت "تا" في آخر الكلمة في سياق اللّغة الفرنسيّة, كما يطلق على التّقليد اسم "سنج" في اللّغة الفرنسيّة. وتستعمل كلمة "سنج" في معنى القرد أيضا في اللّغة الفرنسيّة بحيث أنّ الأمة سمّيت بهذا الإسم لأنّها تتبع وتقلّد سيّدها وسيّدتها وأسيادها بصفة عامّة.

وذلك أنّ الشّخص في القديم يقوم بأخذ إحدى الإناث أو النّساء واصطيادها بطريقة من الطّرق ثمّ إنّه يتولّى تقريدها وترويضها وتعليمها الفنون والمعارف التي تمكّن من اكتسابها كما أنّ الأسرى والعبيد مجبورون على اتّباع وتقليد أسيادهم مهما كان مستوى الطّرفين من حيث المعرفة بالأمور, والأصل في التّقليد والتّدجين هو وضع قلادة وحلقة حول رقبة الأسير لشلّ حركته وإرغامه على اتّباع من قام بأسره وهي كلمة مأخوذة من لفظة"غل" التي تطلق على مثل هذه الحلقات في اللّغة العربيّة والتي يمكن أن تتّخذ صيغة"قل" نظرا لتعادل الصّوت "غا" و"قا" بحيث أنّ التّقليد يفيد معنى الأسر والإمساك والقبض بواسطة القلادة أو الغلّ وهو من هذه النّاحية مرحلة من مراحل التّقريد حيث أنّ التّقريد يمرّ بإمساك الشّخص المطلوب للتّقريد بواسطة الحبال وما شابهها وأشرنا إلى أنّ الحبل يسمّى باسم"كورد" في اللّغة الفرنسيّة وأنّ هذا الإسم هو صيغة لفظيّة لإسم "قرد".

وعلى هذا الأساس فإنّ كلمة "أمسيس" التي تفيد معنى القطّ في البربريّة تتركّب من لفظة"أم" ومن لفظة "سيسي" ونعتبر أنّ لفظة"أم" مأخوذة من الصّوت "أم" الذي هو صوت طبيعي تعلّم الإنسان إطلاقه في بعض المواقف على غرار

الصّوت الذي تطلقه الشّاة والغنم عموما لذلك اتّخذ في سياق بعض اللّغات الإنسانيّة معاني لها صلة بحالات التوحّش كعدم القدرة على الكلام العادي والتّخاطب بالإشارة وهي من صفات التوحّش بالنّسبة للإنسان في الأزمنة المتأخّرة ويتجلّى هذا الإستعمال في كلمة"مأمأ" التي تتمثّل في تكرار وترديد الصّوت"أم" وتستعمل في العربيّة للتّعبير عن التّلعثم في الكلام والصّعوبة في النّطق وإخراج الأصوات وينطقها السّكان في تونس في صيغة "مَهْمَه" فيقولون عن الشّخص الذي يتلعثم في كلامه إنّه "يُمَهْمِهْ".

كما تستعمل كلمة "أومأ" المتركّبة من الصّوت"أمّ" أيضا في معنى التّخاطب بالإشارة في العربيّة.

وظلّت بعض الجماعات يستعملون المأمة للتّخاطب ويسمّون باسم "زمازمة" في العربيّة وكانت منهم فرقة ببلاد فارس أشار إليها الكاتب عبد اللّه بن المقفّع, من علماء القرن الثّامن ميلادي, في كتابه المعروف باسم "كليلة ودمنة".

ومازال السّكان في تونس إلى اليوم يستعملون المأمة وترديد الصّوت"أم" في صيغته الطّبيعيّة للغناء والتّغني خاصّة عندما يخلو الشّخص بنفسه وينهمك في شغل من الأشغال, واشتقّت من الصّوت"أم" الكثير من الكلمات والمفردات اللّغويّة منها كلمة"أُمّ" و"أَمَة" التي تفيد في الأصل معنى المرأة المتزوّجة بوصفها زوجة وتابعة لزوجها ثمّ أطلقت على الأمّ بوصفها إمرأة وزوجة مقارنة بالأب ثمّ أطلقت على الجارية في صيغة"أمة" لأنّ المرأة كانت المستهدفة الرّئيسيّة بالتّقريد والتّقديس والتّدجين والإستعباد في العهود الأولى من التّاريخ الإنساني كما أنّها أُستُعْمِلَتْ في معنى الإنسان في سياق اللّغة الفرنسيّة في صيغة"أوم" لأنّ

الإنسان يرمز في الأصل إلى البشر المدجّنين والخدم والتّابعين كالنّساء ثمّ أطلقت على المجموعة البشريّة بصفة عامّة في صيغة"أمَّة" في سياق اللّغة العربيّة.

أمّا إسم "سيسي" فهو صيغة لفظيّة لإسم"سس" و"صص" المأخوذ من الصّوت"سس" الذي سبق أن حلّلنا أصله ومعناه في تحاليلنا المتقدّمة وقلنا إنّه يتمثّل في ترديد الصّوت"أس" الذي يطلقه الإنسان بواسطة الصّفير بصورة غريزيّة في المواقف الحرجة والصّعبة للّزجر والنّهر والتّحذير والتّخويف وكان إطلاقه بالأساس من اختصاص الذّكور والكبار في الأسر الإنسانيّة التي عمّرت الأرض في العهود الأولى من التّاريخ الإنساني فارتبط بالمواقف التي يطلق فيها وبالأشخاص المختصّين في إطلاقه وأستعمل للتّعبير عن معاني لها صلة بمواقف ترديده وبالأشخاص الذين يطلقونه ومن ذلك أنّ النّاس في البلاد التونسيّة مازالوا إلى اليوم يستعملون كلمة "سي" في معنى السيد ونعتبرأن كلمة "سي" هي صيغة لفظيّة لكلمة"أس" بحيث أنّ إسم "سيسي" يفيد معنى السيّد الذي يمكن أن يكون الأب والزّوج والكبير والحاكم وغيرهم. وكما أختصّ الأسياد بإطلاق الأصوات الزّجريّة كالصّوت "أس" اختصّ الإناث والضّعفاء بإطلاق الأصوات الشّجيّة كالصّوت "أم" فأستعمل لتأدية المعاني التي لها صلة بمواقف إطلاقه وبالأشخاص الذين يطلقونه.

وفي هذا السّياق, نعتبر أنّ مشاهد التّقليد في اسطورة أمة سيسي ترمز إلى عمليّات التّفريد والتّدجين والتّهذيب التي كان يخضع لها البشر المتوحّشون بعد أسرهم وأخذهم والإمساك بهم وتشتمل تربيتهم وتعليمهم وتدريبهم على القيام بالأشغال المنزليّة وحذق الفنون الإنسانيّة المكتسبة كإشعال النّار وطهي الطّعام ورعي الغنم وحلبها وصناعة الأجبان وجلب المياه والزّراعة.

وقد رأينا أنّ القطّ في حكايات أمّي سيسي يجد نفسه مضطرّا إلى القيام بجملة من الأعمال الشّبيهة حتّى يستعيد نيله المقطوع بحيث أنّ الأشغال التي يقوم بها القطّ بامر من أمّي سيسي تتمثّل في الأشغال المنزليّة التي كان النّساء والخدم والعبيد يقومون بها لفائدة أسيادهم في إطار دورهم ووظيفتهم الإجتماعيّة بعد تعليمهم وتدريبهم عليها بالنّسبة للعبيد الذين تحوّلوا إلى هذا الوضع بسبب الأسر والأخذ والإختطاف والإصطياد وكانوا قبل ذلك يجهلونها أو يستخدمون وسائل أخرى لإنجازها غير الوسائل المستخدمة عند أسيادهم.

كما رأينا أنّ القطّ في حكايات أمّي سيسي يقوم بالأشغال المطلوبة لإستعادة ذيله المقطوع إثر قيام أمّي سيسي بقصّ وقطع ذيله. ففي هذا الإطار نعتبر أنّ قصّ الذّيل يرمز في حقيقة الحال إلى اقتفاء الأثر وقصّ الأثر وقصّ الجرّة كما يقول السّكان في تونس. فقد كان البشر الرّاغبون في أخذ وإمساك وإختطاف أمثالهم من البشر قصد تدجينهم وترويضهم وتقريدهم يقتفون أثر من يطلبون ويريدون تدجينهم حتّى يجدوا المكان الذي يقيمون فيه فيأخذونهم بالوسائل المجعولة إلى اليوم لإصطياد النّاس والحيوانات الحقيقيّة ويعودون بهم إلى منازلهم ويضعونهم في زرائب وأكواخ وغيرها من المواضع المحروسة ويشرعون في تقريدهم وترويضهم وتدجينهم حتّى يصبحوا أليفين ومطيعين. وذكرنا أنّ النّساء كنّ الفئة الرّئيسيّة التي يستهدفها التّقريد قصد إشباع الرّغبة الجنسيّة والحصول على القرين المناسب لتأسيس الأسر والعائلات ومازالت النّساء يمثّلن أهمّ فئة يستهدفها التّقريد والتّدجين والتّرويض في المعنى الذي شرحناه.

• ففي هذا السّياق ظلّ الزّوج في تونس إلى عهد قريب جدّا يهدي في ليلة العرس إلى العروس هديّة تسمّى باسم "قصّان الدّلال" أو "قصّ الدّلال" وتطلق

كلمة "دلال" بالخصوص في تونس على نوع من السّلوك المتمثّل في إبتزاز العواطف بواسطة بعض التصرّفات المثيرة كالصّراخ والبكاء مثلما يفعل الأطفال أحيانا مع أمّهاتهم بحيث لاحظنا أنّ السّكان في تونس يطلقون على الإستجابة لمثل هذا السّلوك عبارة"قصّ النّقيق" وتفيد كلمة "نقيق" في هذه العبارة الصّراخ والبكاء تشبيها بنقيق الضّفادع.

وتشير أسطورة أصل القنفد وحكايات "أمّي سيسي" أنّ التّقريد حصل إثر عمليّة سرقة قام بها الأشخاص الذين تعرّضوا إلى التّقريد وأشرناإلى أنّ السّرقة تسمّى باسم"فول" في الفرنسيّة كما تطلق كلمة"فول" في الفرنسيّة على الطّيران والتّحليق في الهواء وأشرنا إلى أنّ كلمة "طير" و"طار" و"استطار" تعني النّكاح والمواقعة الجنسيّة والشّهوة الجنسيّة في سياق اللّغة العربيّة بحيث يمكن القول بأنّ عمليّات التّقريد بما فيها من اقتفاء للأثر وإمساك وترويض وتعليم كانت تحصل بالخصوص أثناء مواسم معلومة تكون فيها الإناث في إستعداد للإقتران بالذّكور والمواقعة الجنسيّة والموافقة على ركوبهنّ وتقريدهنّ وكانت هذه المواسم تشهد تجمّعات للإناث والذّكور من البشر لإختيار القرين المناسب بشتّى الوسائل التي ذكرناها والتي مازالت إلى اليوم مستعملة بمناسبة الغزل والتّغزّل وإختيار القرين وكانت هذه التجمّعات مقصد الرّاغبين في الحصول على القرين المناسب وكانوا يصلون إليها بواسطة إقتفاء الأثر وغيرها من الطّرق الشّبيهة ثمّ أصبحت الأسر والأحياء البشريّة الخاضعة لبعض الأعراف هدف الباحثين عن القرين المناسب بعد أن تقلّص نطاق التّجمّعات الطّبيعيّة.

كما لاحظنا أنّ كلمة "فول" تستعمل أيضا في نطاق اللّغة الفرنسيّة في معنى المختلّ في مداركه العقليّة وكانت في الأصل تعني كلّ الذين لا يدركون كالصّغار والبشر الذين مازالوا لم يعرفوا التّهذيب والتّقريد والتّرويض والتّدجين

وكانوا يمثّلون تبعا لذلك الهدف الأوّل للإنتهازيّين والصيّادين للبشر على غرار الصّبايا والمراهقين ومن يوجد تحت وطأة الرّغبة والشّهوة الجامحة التي تعمي البصيرة وتجعل الشّخص يفقد عقله.

وتشتمل الخرافات الشعبيّة التي يحكيها السّكان في تونس على مشاهد متكرّرة لعمليّة التّقريد والتّرويض والتّهذيب والتّدجين والإستعباد التي كان يقوم بها البشر في القديم لترويض واستعباد أمثالهم من البشر المتوحّشين وتتمثّل في التودّد إلى هؤلاء البشر وتنظيفهم وتقليم أظافرهم وقصّ شعورهم وإطعامهم وإسقائهم كي يستأنسوا ويطمئنّوا ويصبحوا أليفين ومستعدّين لإتّباع من قام بتقريدهم وتدجينهم, كما يعمد أبطال بعض الخرافات إلى التنكّر في هيأة المهبول أو"الفول" لتحقيق أهدافهم.

فهناك الكثير من الخرافات الشّعبيّة التونسيّة التي تدور أحداثها حول شاب أعزب يسافر لقضاء بعض المهمّات وفي أغلب الحالات لجلب فتاة إشتهرت بجمالها فيجد في طريقه غولا أو دبّا هائل المنظر في حالة يرثى لها من الجوع والعطش والوسخ قد طالت أظافره وعظم شعره حتّى كسا بدنه فيبادره الشّاب بالسّلام فيقول له الغول مغاضبا:" لولا أنّ سلامك سبق كلامك لسمعت الجبال طقطقة عظامك" فيسأله الشّاب عن السّبب فيجيبه الغول بأنّ ذلك من الجوع والعطش والوسخ الذي هو فيه فيتقدّم الشّاب ويناول الغول أو الدّبّ شيئا من الطّعام والشّراب ثمّ بعد أن يأكل الغول ذلك الطّعام ويشرب الماء يقوم الشّاب بتنظيفه وغسله وتقليم أظافره وقصّ شعره وإكسائه فيستأنس به الغول أو الدّبّ ويصبح من أتباعه ويعينه على قضاء حاجته.

فهؤلاء الغيلان والدّببة يرمزون في حقيقة الحال إلى بعض الأقوام من البشر الذين ظلّوا قريبين من الطّبيعة وكان البشر الآخرون أمثالهم يطلبون أحيانا

ودّهم ويسعون إلى تقريدهم وتدجينهم بالطّرق التي وصفناها قصد الإستعانة بهم في قضاء مآربهم بكلّ أنواعها.

وإلى جانب هؤلاء الغيلان والدّببة التي يقوم الشّاب في الخرافات الشّعبيّة بتقريدها وتدجينها لتساعده على قضاء مهمّته تشير بعض الخرافات إلى أنّ الشّاب يلتقي ببعض الحيوانات فيكلّمها ويسدي لها بعض الخدمات فتشكره على صنيعه وتضع نفسها على ذمّته وتساعده على قضاء حوائجه.

فهذه الحيوانات النّاطقة التي تساعد الشّاب في الخرافات الشّعبيّة على قضاء شؤونه ترمز هي الأخرى إلى بعض الأقوام من البشر الذين يسدي إليهم الشّاب بعض الخدمات فيساعدونه بدورهم على قضاء شؤونه إعترافا بالجميل الذي صنعه معهم.

فقد جمعنا في هذا المعنى الكثير من الأساطير والخرافات التي يحكيها السّكان في تونس والبلدان المغاربيّة والعربيّة عموما في صيغ متقاربة جدّا منها خرافة مضمونها أنّه كان في قديم الزّمان وسالف العصر والأوان سلطان عظيم الشّأن له سبعة أولاد وكان يحكم في مدينة تقع بالقرب من جبل شاهق فكان يوصي أولاده بعدم الإقتراب من ذلك الجبل ولمّا مات علم الأولاد أنّ وراء ذلك الجبل مدينة بها أميرة في ريعان الشّباب فائقة الحسن والجمال غير أنّها كانت ساكتة لا تتكلّم وقد سمع بها الشّبّان في المدن المجاورة فجاءوا يخطبونها من أبيها ملك المدينة غير أنّ أباها جعل شرطا لزواج إبنته وهو أن يتمكّن الخطيب من جعل إبنته تتكلّم وتخرج عن صمتها وسكوتها فإن نجح كانت من نصيبه وإن فشل قطع له رأسه وعلّقه في شرفة من شرفات قصره وتقدّم لخطبتها الكثير لكنّهم فشلوا وكان مآلهم القتل وقطع رؤوسهم وتعليقها في شرفات القصر الملكي.

فعزم الإبن الأكبر على السّفر إلى تلك المدينة وخطبة الأميرة الصّامتة فودّع إخوته وشقّ الجبل وقصد المدينة وحالما بلغها قابل السّلطان وخطبه في إبنته فأعلمه الملك بالشّرط فقال إنّه يقبله وحاول أن يجعل الأميرة تتكلّم وتخرج من صمتها فلم ينجح فقتله الملك وعلّق رأسه في شرفة من شرفات القصر ثمّ جرى لأخيه الثّاني ما جرى له وكان مصير الثّالث والرّابع والخامس والسّادس القتل أيضا فاقتفى أخوهم الأصغر أثرهم إلى أن وصل إلى المدينة ودخل على ملكها وطلب منه يد إبنته الأميرة فأعلمه السّلطان بالشّرط فقبله وطلب من الملك مهلة أسبوع فلبّى طلبه. فاكترى الشّاب دارا بها جنان أو حديقة كما يقال وكان ماهرا في الغناء والعزف على القصبة أو الشبّابة كما تسمّى في تونس.

وكان بحديقة الدّار التي اكتراها سرب من الحمام إتّخذ من أشجاره وكرا يأوي إليه فكان الشّاب يأخذ له كلّ يوم مكانا في الجنان ويغنّي ويعزف على القصبة فأعجب الحمام بغنائه وألحانه وربط الشّاب مع الحمام علاقة ألف ومودّة وأعلمهم بحاجته فوعدوه خيرا.

وفي اليوم السّابع عند إنتهاء المهلة قصد الشّاب قصر الملك فاستقبله أعوانه وأدخلوه إلى غرفة الأميرة الصّامتة فوجدها جالسة على كرسيّ في إنتظاره ومعها عدلان ليشهدا بما يجري.

فجلس الشّاب في المكان المعدّ له وفي تلك اللّحظة دخلت ثلاث حمامات وإلتفتن إلى الشّاب وقلن له إنّهنّ جئن يشتكين له في قضيّة ويردن أن يحكم فيها وتقدّمت الصّغرى منهنّ وقالت إنّ أباهم مات وترك لهنّ حقلا فأخذت الكبرى ثلاثة أسداس الحقل والوسطى سدسين وكان نصيبها السّدس الباقي فرفضت القسمة وجاءت تشتكي إليه فالتفت إليها الشّاب وقال لها : "إنّ القسمة كانت عادلة في نظره وليس هناك مجال لإعادتها".

فعند ذلك قامت الأميرة الصّامتة وتكلّمت بلسان فصيح وقالت : "إنّ هذا عيب وحيف والقسمة ليست عادلة ويجب أن تعاد ويقسم الحقل بالتّساوي".

فالتفت الشّاب إلى العدلين وقال لهما : "إشهدا عليها أنّها تكلّمت وخرجت من صمتها ". وكانت الحمامات الثلاثة من سرب الحمام السّاكن في حديقة الدّار التي اكتراها الشّاب اتّفقوا معه على الأمر لإثارة الأميرة وجعلها تتكلّم.

فشهد العدلان بأنّ الأميرة تكلّمت وخرجت عن صمتها وأنّ الشّاب هو الذي كان السّبب في ذلك فأذعن أبوها وتزوّج الشّاب بالأميرة.

فالحمام والطّيور الذين يساعدون الإبن الأصغر على بلوغ مراده يرمزون في حقيقة الحال إلى بعض الجماعات من البشر الذين يدعون باسم الحمام وما شابهه لفظا ومعنى حيث أنّ الحيوانات التي تساعد الشّاب تختلف من خرافة إلى أخرى وتضمّ الطّيور بمختلف أنواعها والنّمل وكلاب البحر والفئران والدّود إلى غير ذلك من الحيوانات وترمز كلّها إلى أقوام قديمة من البشر كانت تحمل أسماء تلك الحيوانات تعبيرا عن بعض الصّفات والخصال البشريّة المميّزة لهم.

فالخرافة الشعبيّة التونسيّة المتعلقة بالأخوة السبعة والأميرة الصامتة هي مثل كل الأساطير والخرافات الشعبية قصة واقعيّة وخبر تاريخي ينقل ويروي بعض الوقائع والأحداث الحقيقية التي حصلت في قديم الزمان لبعض الجماعات من البشر فوق بعض بقاع الأرض.

ففي هذا السياق نعتبر أنّ الأساطير والخرافات الشعبية هي في أغلب الحالات قصص واقعيّة وأخبار تاريخيّة تنقل وتروي ظروف نشأة وتأسيس

الأسر الإنسانيّة التي عمّرت الأرض في العهود الأولى من تاريخ الإنسانيّة وكانت النواة الأولى لمختلف القبائل والشعوب الإنسانيّة.

فلأجل ذلك إتّخذت الأساطير في جلّ الحالات شكل قصص وأخبار تتحدّث عن نشأة الآلهة وظروف ظهورهم للوجود وقد أشرنا إلى أنّ الآلهة الذين عبدتهم الشعوب الإنسانيّة في القديم هم آباء وأجداد هؤلاء الشعوب كما أنّ الخرافات الشعبيّة إتّخذت شكل قصص تصوّر في الغالب سعي واحد من الشّبان للحصول على فتاة وصبيّة يقترن بها ويتزوّج منها ويؤسّس معها أسرة خاصة به.

وأوضحنا أنّ تأسيس الأسر كان يمرّ في العهود الأولى من التاريخ الإنساني وإلى اليوم عبر تقريد وترويض وتدجين القرين المناسب من الجنس الآخر لجعله مطيعا ويرضى بالإقتران والإرتباط بطالب الزوّاج ويشتمل التقريد والتّرويض على أخذ وإمساك القرين واصطياده بواسطة الوسائل الطبيعيّة كاليدين والفم والأسنان وكذلك بواسطة الوسائل المستحدثة إمتدادا وتعزيزا للوسائل الطبيعيّة كالحبال للقبض والرّبط والشّد أو الشّراك والشباك والأفخاخ والحفر للإصطياد والإختطاف والأخذ والإمساك عموما.

وعلى هذا الأساس تناقلت الشّعوب الإنسانية العديد من الأساطير والخرافات التي تشير بصورة جليّة إلى قيام الشّبان الذّكور في القديم بإصطياد النساء والبنات والإناث بصفة عامّة للإقتران بهنّ.

كما تشير بعض الأساطير الأخرى إلى أنّ هذا الإقتران كان في القديم إقترانا محسوسا ويتمثل في ربط الفتاة مع الشّاب والزّوج عموما بحبل حقيقي واحد بحيث أنّ الزّوج وإمرأته كانا ينامان مقترنين بحبل حقيقي محسوس وكان

الرّجل هو الذي يربط معه زوجته بحبل خاصة في الأيام الأولى من زواجه بها ريثما يتمّ ترويضها وتستأنس يه وتأنس له وتألفه.

وتشبه هذه الأساطير والخرافات حكاية الإخوة السبعة والأميرة الصامتة التي أوردناها سابقا مع التّنصيص الصّريح بأنّ الدّافع للسّفر هو إصطياد واختطاف بعض البنات وتكتفي بعض الخرافات بالإشارة إلى أنّ الإخوة خرجوا لإصطياد الطّيور والعصافير الذين يرمزون في حقيقة الحال إلى النّساء والبنات مثلما شرحناه سابقا حيث ذكرنا أنّ لفظة "طار" و"استطار" تفيد معنى النّكاح والإتصال الجنسي والشهوة الجنسيّة. وتبعا لذلك فإنّ لفظة "طيرة" تفيد معنى الفتاة والصبيّة التي ترغب في الإتصال والإقتران الجنسي بحكم بلوغها.

ففي هذا السّياق جمعنا خرافة شعبيّة يحكيها السّكان في تونس والبلدان المغاربيّة عموما ومضمونها أنّ شابا خرج للفوز بصبيّة إشتهرت بحسنها وجمالها, فاعترضه في طريقه رجل أسود عظيم الخلقة يفترش إحدى أذنيه ويتغطّى بالأخرى فمنعه من المرور فتبارز معه وغلبه فأصبح تابعه ووضع نفسه على ذمّته ورافقه في سفره ووصل الشّاب إلى الحيّ الذي تقطنه الصبيّة وكانت زوجة سيّد ذلك الحيّ وكان زوجها يربطها معه في الليل بحبل واحد وينامان مقترنين في الفراش بذلك الحبل فأخذ صديقه الأسود صندوقا يسع شخصا وتسلّل في الليل إلى بيت زوج الصبيّة فوجدهما مقترنين بذلك الحبل وهما نائمان في الفراش فتقدّم وحلّ الرّباط وأخذ الصبيّة ووضعها في الصندوق وخرج وعاد إلى صديقه الشاب وقفلا راجعين من حيث أتيا ومعهما الصندوق الذي فيه الصبيّة وأوصى الرّجل الأسود صديقه الشاب بعدم فتح الصندوق لأنّ هناك بعض الخطّافين الذين يخطفون العرائس ليلة زفافهن وفي الطريق عطش الرّفيقان فذهب الرّجل الأسود للبحث عن الماء وفي غيابه لم يصبر الشاب على

رؤية الصبيّة ففتح الصندوق فجاء أحد الخطّافين واختطف الصبيّة وفرّ ولمّا عاد الأسود وعرف الخبر إقتفى آثار الخطّاف فوجد راعيا يرعى الغنم فربط معه علاقة وعلم منه أنه يشتغل عند أحد الأسياد وأنّ سيّده يملك عددا كبيرا من الزوجات تحصّل عليهن بواسطة السّطو والخطف والإصطياد كما أعلمه أنّه قام في المدّة الأخيرة باختطاف صبيّة جميلة وأنّ سيّده يستخدم نساءه بالتداول مرتّبا لكلّ واحدة منهن يوما تقوم فيه بشؤون المنزل وحلب النعّاج وأنّ الدّور في ذلك اليوم للصبيّة الجديدة فعرف أنّه صاحبه الذي يبحث عنه وطلب الأسود من الراعي أن يذبح له كبشا من أكباش الغنم مقابل شيء من المال ففعل الراعي فأخذ الأسود الكبش المذبوح وسلخه ولبس جلده واندسّ وسط الغنم وعندما عاد الرّاعي بالّغنم وجاءت الصبيّة لتحلب النّعاج اتّصل بها وحكى لها قصّته وأخبرها أنّه جاء ليخلّصها وقال لها إنّ الخطّاف سيطلب منها أن تنام معه في تلك الليلة وأوصاها بأن تحتال عليه لتعرف سرّه وفي الليل جاء الخطّاف لينام معها فتظاهرت الصبيّة بالرّغبة فيه فأفشى لها سرّه وأعلمها أنّه وضع روحه في بيضة تحضنها حمامة فوق جبل وسط البحر وأخبرت الصبيّة الأسود بالأمر فذهب إلى الجبل ووجد الحمامة والبيضة فكسّر البيضة فمات الخطّاف وأخذ الصبيّة وعاد إلى صديقه الشاب الذي تزوّج بها وأنجب منها ولدا.

وكان يوجد في عشّ الحمامة بيضتان غير أنّ الأسود لم يتفطّن إلى البيضة الأخرى التي إنقلبت إلى حنش يسعى وظلّ ذلك الحنش يتعقب الرّجل الأسود حتّى وجده فنهشه فتحوّل إلى حجر فجاءت حمامتان وتكلّمتا أمام الشاب وقالت إحداهما للأخرى والشّاب يسمع محاورتهما إنّ الرّجل الأسود يعود إلى الحياة إذا ذبح الشّاب إبنه على قبره.

فقام الشّاب وأخذ إبنه وذبحه على قبر صديقه الأسود فعاد إلى الحياة ثمّ إنّ الرّجل الأسود أخذ كميّة من زقّ الطّيور وإفرازاتها ودهن بها جسد الطفل فعادت له الحياة هو الآخر واجتمع الشمل في كنف الفرحة.

وتشمل الأساطير اليونانية القديمة على الكثير من القصص التي تتحدّث عن ممارسة عادات اصطياد الصبايا والبنات في القديم بواسطة الحبال والشباك والشراك على غرار قصة البطل اليوناني بيلي مع الرّبّة تيتيس. فقد جاء في الأساطير اليونانية القديمة أنّ البطل اليوناني بيلي لقي ذات يوم الرّبّة تيتيس تستحمّ في بركة ماء فعشقها وراودها عن نفسها فامتنعت وهربت متنكرة في هيأة بعض الحيوانات كانت آخرها هيأة نمرة فاتّصل بيلي بشيخ البحر واسمه بروتي وكان هو الآخر مختصّا في التّنكر والتّمويه فأشار على بيلي أن ينتظر حتى تنام تيتيس في أحد الغيران ويرمي عليها شبكة فيشلّ حركتها ففعل بالنّصيحة واتّخذت الرّبة تيتيس هيأة العديد من الحيوانات لتتخلّص من الورطة لكنّها أدركت في النهاية أنّها محبوسة في شبكة فرضخت لحكم بيلي وتزوّجته وأنجبت منه البطل أخيلوس الذي لعب دورا حاسما في حرب شهيرة شنّها اليونانيون في القديم على مدينة تدعى باسم طروادة وكانت توجد حسب الأساطير اليونانية القديمة في بلاد تركيا اليوم.

ويروي السكان في بلاد أوغندا بالجنوب الشرقي للقارة الإفريقية أسطورة مضمونها أنّ شابّا أعزبا رغب في الزّواج فذهب إلى ساحر في الغابة وعرض عليه حاجته فأشار عليه السّاحر بأن ينصب شباكه التي يصطاد بها وينتظر وأوصاه أن يطلق سراح الحيوانات الصغيرة التي تقع فيها إلى أن تقع فيها إمرأة لها إذنان كبيرتان فإنّها سهمه ونصيبه.

فعمل الشاب بإشارة السّاحر واصطاد إمرأة لها أذنان كبيرتان فنام معها تلك الليلة وبينما هو نائم سمع جلبة وضوضاء كأنّها صادرة عن ناس يبنون كوخا فسأل المرأة فقالت له إنّها تعلم مصدر الجلبة وطلبت منه أن ينام وفي الصباح قام يستطلع الأمر فرأى ناسا بصدد بناء كوخ فلمّا رأوا الشاب هربوا فعاد إلى السّاحر يستفسره فنصحه السّاحر بأن يحتفظ بزوجته ويحذر من أن يسخر من عظم أذنيها.

وتغيّرت أحوال الشاب وأصبح سيّدا ثريّا يملك العديد من النّساء والعبيد والبقر والدّجاج وأنجب أولادا فصنع أحد أولاده ذات يوم خمرا من الموز فشربت زوجة أبيه منه وسكرت فسخر منها الولد وعيّرها بكبر أذنيها فغضبت المرأة وغابت فجأة عن الأنظار وعاد الرّجل فقيرا معدما مثلما كان أوّل مرّة.

ويروي السكان في تونس والبلاد المغاربيّة عموما بعض الأساطير والخرافات المماثلة منها أسطورة مضمونها أنّ الفكرون وهو السلحفاة في اللهجة الدّارجة التونسيّة خطب الجرانة وهي الضفدع في اللهجة الدّارجة التونسيّة وتزّوج منها فحذّرته من مغبّة تعييرها بضخامة عينيها .وكبر فمها وإعوجاج ساقيها فوعدها الفكرون كل خير ولكنّه أخلف الوعد فغضبت عليه وأتت بيتها وتحصنّت فيه وأصبح الفكرون فقيرا معدما لا يملك قوت يومه فمرّ الديك فوجده ملقى في مزبلة على الخرى والفضلات وهو يتحسّر فاستفسره عن الأمر فأخبره بخبر الجرانة فاستاء الديك ووعده بالعمل على إصلاح الأمر فراح إلى الضفدعة وجعل يهزّ بيتها بقوّة فقامت الضفدعة تصيح وتسأل من يهزّ بيتها فأجابها الديك : "أنا أبوك السردوك بمعنى الديك في لغة أهل تونس وجئت لأرجوك العودة إلى بيت الزوجيّة وجبر خاطر زوجك الفكرون فإنّ حالته ساءت بعد غضبك عليه". فأخذت الجرانة تشتمه بأقذع العبارات وقالت له : "الأولى لك أن تذهب تبحث

عن الديدان في المزابل". فأسقط في يد الديك وعاد يجرّ أذيال الخيبة وأخبر الفكرون بما حصل له ثم جاء الحمار فجرى له ما جرى للديك وقدم الجمل فوجد الفكرون ملقى في المزبلة فسأله فحكى له قصته فذهب الجمل إلى الجرانة وطلب منها أن تعود إلى زوجها فامتنعت وقالت له إنّ زوجها شتمها وعيّرها بضخامة عينها وكبر فمها واعوجاج ساقيها فطيّب الجمل خاطرها وأوصاها بأن تقول لزوجها في المرّة القادمة إذا ما عيّرها إنّ عيني كبيرتان من رؤية الفجر وفمي ضخم من السّواك الذي أتسّوك به, أما ساقي فقد اعوجّتا لأني ولدت لك توأمين, فرضيت الجرانة ورجعت مع الجمل وقصدا منزل الفكرون غير أنّ الجرانة كان فيها شيء من الطيش فحالما وصلت واقتربت من زوجها ودون أن يعيّرها قالت له : "إنّ عيني ضخمتين من رؤية الفجر, وفمي كبير من السّواك وساقي معوّجتان لأنّي أنجبت لك توأمين فاغتاظ الجمل وكان يحمل الضفدعة على ظهره فرماها أرضا ورفسها بساقيه حتى ماتت وقضى عليها والتفت إلى الفكرون ونصحه بالبحث عن زوجة أخرى.

ومازال الأهالي في مدن وقرى الجنوب التونسي يتناقلون إلى اليوم العديد من القصص والحكايات التي تذكر أنّ بعضَ الرّجال من المعاصرين تزوجوا من بعض الغيلان والسّعالي المتوحشات اللواتي هربن بعد أن أنجبن منهم بعض الأولاد حتى أنّ البعض من هؤلاء العائلات يدعون بأولاد الغولة.

وجاء في بعض هذه الحكايات أن إحدى هذه العائلات ورثت عن جدّتها الغولة قلادة من الخرز العجيب تقي وتحمي من يعلّقها من شتّى الأمراض والشرور.

وذكرت كتب التراث العربي أنّ الشاعر العربي القديم عمر بن يربوع تعرّف على غولة أو سعلاة ويطلق إسم سعلاة أيضا على صنف من الغول

فخطبها من أهلها ليتزوّجها فأعطوها له وقالوا له إنّها ستكون أفضل زوجة ما لم تر برقا, فتزوّجها وأنجبت له أولادا ثم إنّها رأت ذات يوم برقا يضيء بأرض اهلها السّعالي فطارت ورجعت إلى أهلها وهي تقول :

"أمسك بنيك عمر إني آبق   برق على ارض السعالي آلق"

وكان بنو عمر بن يربوع يلقّبون ببني السعلاة.

ويروي قبائل الطّوبي من الهنود الحمر القاطنين في بلاد كولومبيا بأمريكا الجنوبيّة في هذا السياق أسطورة فيها إشارات صريحة إلى استهداف النّساء لعمليّات التقريد والترويض والتدجين ومضمونها أنّ مجموعة من الشّباب العازبين كانوا يعيشون بمفردهم في قرية خاصة بهم وكانوا يخرجون كلّ صباح لصيد السمك مستعينين بما يسديه لهم السيد عقاب قاضيهم وحافظ سرّهم من إرشادات ومعلومات حول الأماكن التي يتوفّر فيها السّمك.

وكان الشّبان يشبعون رغبتهم الجنسيّة بممارسة العادة السرّية والإستمناء داخل اليقطين أو القرع بعد إفراغه وتجفيفه.

وخرج الشّبان ذات يوم لصيد السمك كالعادة بقيادة واحد منهم إسمه الوليّ وتركوا السيد عقاب لحراسة الأكواخ وكان شيخا جليلا وبعد أن اصطادوا كميّة هامّة من السمك عادوا إلى القرية وتجمّعوا في الساحة وأشعلوا النيران وأخذوا ذلك السمك فجفّفوه وهيّئوه بواسطة البخار على النار ولمّا فرغوا من تجفيفه وتهيئته وضعوه فوق سطوح الأكواخ وناموا وفي الصّباح خرجوا من جديد إلى الصيد كالعادة وتركوا سمكهم فوق السطوح فنزل جماعة من النّساء من السّماء بواسطة حبل طويل وأكلن السّمك المجفّف وعدن من حيث أتين وعندما رجع الرّجال في المساء لم يجدوا شيئا من السمك فاستغربوا خاصّة

وأنّهم كانوا يظنّون أنّهم يعيشون بمفردهم في تلك الرّقعة من الأرض وتكرّرت العمليّة في اليوم الموالي فكلّفوا السيد أرنب بحراسة السمك والقرية فغلبه النوم ونزل النّساء كالعادة بواسطة الحبل الطويل والتهمن السمك وعدن من حيث أتين فتولى السيد ببّغاء مهمّة الحراسة وانتصب فوق شجرة خروب فهبط النّساء وجمعن السمك المجفّف وجلسن تحت شجرة الخروب وشرعن في أكل السمك وكان الببّغاء يتابع حركتهن من فوق الشجرة فرأى أنّ لكل إمرأة فم في الوجه وفم بين فخذيها بمثابة الفرج وبه أسنان وقال في نفسه "لقد أدركت الآن لماذا يأتين كلّ مرّة على سائر السمك".

وكان النساء يأكلن بالفعل بواسطة أفواههن وفروجهن فسقطت ثمرة خرّوب على إحداهن فرفعت رأسها فرأت الببّغاء فصاحت : "أنظرن ذلك الرّجل إنّه زوجي" فقامت إمرأة أخرى وقالت لها : "بل زوجي أنا" ونطقت ثالثة وقالت : "إنّه زوجي أنا" ونشبت معركة بين النّساء بسبب الببّغاء وأخذت إحداهنّ شهابا من نار ورمته على صاحبتها فأصابت فم الببّغاء فأحرقه وأفقده القدرة على النطق والكلام ثمّ إن النّساء صعدن إلى سمائهن بحيث لمّا عاد الرّجال وسألوا الببّغاء لم يسعفهم في شيء وقام يخفق بيديه ويشير إلى السماء فلم يفهمه أحد فقرّر الرجال تكليف الوليّ بحراسة السمك والقرية فأعدّ الولي هراوتين وكمن في مكان خفيّ فجاء النساء وهنّ يمرحن ويضحكن فرآهن الولي فصاح : "إنّهن نساء لذلك لا يبقى شيء من السمك".

وأخذ النّساء يأكلن السمك بنهم قصد العودة إلى السماء قبل مجيء أصحابه وكنّ يتألفن من مجموعتين ينزلن على التوالي بواسطة حبلين من السماء فكانت المجموعة الأولى تتركب من نساء متقدّمات في السّن بينما المجموعة الثانيّة تشتمل على صبايا حسان بيض البشرة.

وفجأة اكتشف النّساء الوليّ فنشبت بسببه معركة بينهن مثلما حصل مع الببّغاء قبل أن يرمينه بالنّار فاحترق جسده وكان لونه أبيض فاسودّ وتركنه طريحا على الأرض وهرعن نحو الحبلين ليصعدن إلى السماء فقام الوليّ يتوجّع وصوّب إحدى هراوتيه نحو أحد الحبلين فقطعه من نصفه فوقع قسم من النساء على الأرض فاختار منهنّ إمرأتين له ونادى على رفاقه فجاءوا مسرعين غير أنّ حيّة عظيمة خرجت وسدّت دونهم الطريق فتصدى لها الضبّ وصرعها بعد أن تهشمت أسنانها وأصبحت عاجزة عن النهش ووصل الرّجال إلى القرية وأمسكوا النساء وتقاسموهن بينهم وقبل ذلك قام الوليّ بكسر أسنان فروج النّساء حتّى لا تعضّ النّساء بها ذكور الرجال وترك لكل واحدة سنّا فقط.

وانفرد كلّ رجل بنسائه وأصبح يواقعهن بسلام.

فعلى غرار الأساطير والخرافات التي استعرضناها في تحاليلنا المتقدّمة حصل الإتصال بين الطرفين في هذه الأسطورة أيضا عن طريق إقدام أحدهما بسرقة طعام الطرف الآخر وترمز السرقة إلى أخذ الطعام الذي كان يضعه البشر قرب الشراك والشباك والحفر لاصطياد أمثالهن ولاصطياد الحيوانات الحقيقيّة ورأينا أن الشبكة تسمّى باسم "فيلي" في اللغة الفرنسيّة كما تسمّى السرقة باسم "فول" و"فولي" في الفرنسيّة كما تستعمل كلمة "فول" في معنى الطيران في الفرنسيّة وفي معنى ضعف المدارك العقليّة وذكرنا أن لفظة "طير" تستعمل في العربيّة في معنى الشهوة الجنسيّة في حين يعني ضعف المدارك العقليّة الجهل عموما وحال الجاهل والذي لا يعرف ما تخفي الأمور كالصّغير والغريب والشخص أو "الحيوان" الملاحق من طرف بعض الصيادين الذين نصبوا له الشراك وأطبقوا عليه من كل جانب وهو لا يعلم بأمرهم فيقع من جهله و"فوله" في قبضتهم ويتعرّض إلى التقريد والتدجين من طرفهم.

كما يحصل في بعض الأوقات تحت وطأة الحاجة أن يغامر البعض ويعمدوا إلى أخذ زاد الآخرين خلسة فينكشف أمرهم ويمسكون ويتعرّضون إلى التقريد والتّدجين ويصبحون في وضع من فتّش على حتفه بظلفه كما يقول المثل العربي القديم.

وانسجاما مع كل تحاليلنا السّابقة, حكت الشعوب الإنسانيّة الكثير من الأساطير التي تتحدّث عن قيام ممالك للقردة في بعض بقاع الأرض على غرار الممالك البشريّة في تنظيمها وتسييرها وفي حقيقة الحال فإنّ الأمر يتعلّق بأسر وأحياء بشريّة وجدت في قديم الزمان وكانت تحمل إسم "قرد" و"قردة" حيث ذكرنا أنّ كلمة "قرد" و"قردة" تفيد معنى الأسرة الخاضعة إلى رجل بوصفه زوج النّساء اللّواتي ينتمين إلى تلك الأسرة وأب الأطفال الصغار التّابعين لها.

وفي هذا السياق فإن كلمة "قرية" التي تطلق في سياق اللغة العربيّة على الأحياء البشريّة والتجمّعات السّكانيّة الإنسانيّة مأخوذة من كلمة "قرد" وتنطق في بعض اللّغات القريبة من العربيّة كاليهوديّة والفينيقيّة في صيغة "قرت" وأشرنا إلى أنّ الصوت "تا" والصوت "دا" متعادلان.

فقد جاء في الكتاب العربي المعروف باسم "ألف ليلة وليلة" في حكاية الأمير جانشاه الواردة ضمن حكاية بلوقيا وملكة الحيّات أنّ هذا الأمير نزل بعد مكابدة العديد من الشدائد والأهوال بإحدى الجزر النائية فعثر في وسطها على قلعة حسنة المنظر وبها بستان وكان معه ثلاثة مماليك فدخلوا البستان وأكلوا من فاكهته فلمّا أمسى المساء وجدوا في القلعة بحيرة عظيمة وبجانبها إيوان عظيم وعلى ذلك الإيوان كراسي منصوبة وفي وسط تلك الكراسي تخت منصوب من الذّهب الأحمر مرصّع بأنواع الجواهر والياقوت فجلس جانشاه على التخت وحوله مماليكه الثلاثة فبينما هم كذلك وإذا بصيحة عظيمة من جانب البحر

فالتفتوا إلى جهة الصيحة فرأوا قردة كالجراد المنتشر وكانت تلك القلعة والجزيرة للقرود ثمّ إنّ جماعة من القردة تقدّمت إلى أن قربت من جانشاه فقبّلت الأرض بين يديه ووضعت أيديها على صدورها ووقفت في خدمته وسألهم جانشاه عن أمرهم فقالوا له إنّ تلك القلعة والجزيرة مملكتهم وأنّه بقي عليهم سلطانا وطلبوا منه أن يقيم معهم وكلّ ما يأمرهم به يفعلونه, وظلّ الأمير جانشاه مع القردة يسوسهم أياما ثم هرب مع مماليكه وتركهم وشأنهم في قلعتهم بعد أن ساعدهم على قتال جماعات من الغيلان والسّعالي كانوا يسكنون في كهوف وغيران في جبل شاهق العلوّ قريب من جزيرة القردة وكانوا يركبون الخيل وكانت بينهم وبين القردة عداوة قديمة.

فكلّ هذه الحيوانات العاقلة والنّاطقة التي تتحدّث عنها الأساطير والخرافات الشعبيّة ترمز إلى أقوام وجماعات من البشر عاشوا في قديم الزّمان وكانوا يحملون أثناء وجودهم فوق الأرض أسماء تلك الحيوانات تعبيرا عن بعض الصفات والخصال البشريّة المميّزة لهم.

المعنى الحقيقي لبعض الأساطير المتعلقة بالطيور :

وفي هذا الإطار وجدنا أن الطيّور والحمام والعصافير بصفة خاصة يرمزون غالبا في الأساطير والخرافات الشعبيّة إلى فئة النّساء والبنات داخل الجماعات البشريّة التي عمّرت الأرض في العهود الأولى من التّاريخ الإنساني.

فقد ذكرنا أنّ الكثير من الأساطير والخرافات الشعبيّة تتحدّث عن سفر بعض الشّبان للحصول على فتاة إشتهرت بجمالها وأشرنا إلى أنّ بعض هذه الحكايات تذكر إنّ الشّبان يخرجون لاصطياد الطيّور وهو في حقيقة الحال إشارة إلى خروجهم لاصطياد النّساء والبنات مثلما يدّل على ذلك تأكيد القسم

الأكبر من هذه الأساطير والخرافات بأنّ الشّبان يسافرون للحصول على بعض البنات قصد الإقتران بهن.

فلفظة "طير" تفيد معنى الحبّ والنّكاح والتّزاوج واللذّة والشهوة الجنسيّة في سياق اللغة العربيّة وكذلك في اللغة البربريّة بحيث أنّ كلمة "طيرة" تفيد معنى المرأة والأنثى عموما التي تثير الشهوة الجنسيّة وترغب بدورها في المواقعة كما أنّها تفيد من هذا المنطلق الأولاد والأسرة حيث تستعمل كلمة "تروة" في البربريّة في معنى الأولاد ويطلق على البنت في بعض اللهجات البربريّة اسم "تيراوت" في حين تستعمل كلمة "دار" في العربيّة في معنى المرأة والأسرة ومسكن المرأة والأسرة وهي صيغة لفظيّة لكلمة "طار" باعتبار تعادل الأصوات "دا" و"تا" و"طا".

والأصل في كلّ هذه الألفاظ هو كلمة "إير" و"إر" التي تستعمل في اللغة العربيّة في معنى ذكر الرّجل وتستعمل في البربريّة في معنى الحبّ في صيغة "أرا" كما تستعمل في اليونانيّة في معنى الحبّ والجنس في صيغة "إيروس" ويطلق على البطل في الفرنسيّة اسم "إيرو" حيث أنّ فكرة البطل جاءت في الأصل من فكرة الفحل والرّجل ومازالت كلمة "رجل" تستعمل إلى اليوم في المجتمعات العربيّة في معنى قريب جدّا من معنى البطل.

كما أنّ كلمة "عرس" التي تستعمل في العربيّة في معنى الزواج مشتقة من هذا الجذر وتستعمل كذلك في العربيّة في معنى الزّوجة والزّوج.

كما أنّ كلمة "عصفور" التي تطلق في العربيّة على صغار الطيور عموما تتّخذ صيغة "زبّور" في بعض اللغات القريبة من العربيّة كاللغة اليهوديّة أو العبريّة.

وتطلق كلمة "زبّور" في البلاد التونسيّة على فرج المرأة وعورتها وتطلق في مصر في صيغة "زبرة" على ذكر الرّجل وفرج المرأة.

فقد جمعنا في هذا السياق خرافة شعبيّة تونسيّة بعنوان "علي بوليلة". مضمونها أنّه كان في قديم الزمان إمرأة حامل فلمّا أنهت مدّة حملها وضعت ولدا ذكرا مختونا بأسنانه وما إن خرج ذلك الولد من بطن أمّه كلّمها واقترح عليها أن يحمل فطور الغداء إلى جدّه في الحقل وهكذا كان واشتهر ذلك الولد بين النّاس بذكائه وفطنته فسمّوه علي بوليلة وكان له أخوان فسأل أمّه عنهما فقالت له إنهما ذهبا لاصطياد الطيور فخرج في أثرهما ولحق بهما فبرزت لهم غولة متنكّرة في هيأة مؤدب يعلّم الصبيان فاختطفت الأخوين وحملتهما إلى قصرها ونزعت عيونهما وأخفتهما تحت قصعة. فتنكّر علي بوليلة في هيأة خادم ودهن جسمه بالقطران واتّخذ هيأة الخادم الأسود وذهب إلى الغولة وعرض عليها أن يشتغل عندها فقبلته يشتغل عندها خادما وعندما خرجت لقضاء بعض شؤونها أخذ علي بوليلة أخويه وعيونهما ودواء يصلح لإعادتها إلى مكانها وهرب ولمّا عادت الغولة ولم تجد أحدا أدركت أنّها ذهبت ضحيّة علي بوليلة فتنكّرت بدورها في هيأة حمار واختطفت إبني سلطان البلاد وجعلت أحدهما في خابية مليئة بالفول لتسمّنه وتأكله وكلّفت الولد الآخر برعي غنمها فسمع السلطان ببطولات علي بوليلة فطلب منه أن يخلّص ولديه من براثن الغولة فتنكّر علي بوليلة في هيأة كبش واندّس في غنم الغولة التي يرعاها ولد السلطان بعد أن اتّفق معه على حيلة لتخليصه وتخليص أخيه فلمّا عاد الولد بالغنم أمرته الغولة أن يحلب النّعاج فتقدّم ليحلب النعجة الأولى فعضّها علي بوليلة فنفرت النعجة وهربت ورأتها الغولة فصاحت على الولد ليمسكها فتظاهر الولد بالغضب وقال لها : أنا طول النّهار أرعى وأخي قابع في وسط الخابية يأكل الفول فهلاّ خرج

وساعدني "فتوجهت الغولة إلى الولد الذي في الخابية وأمرته أن يخرج ليساعد أخاه فغمزه أخوه وانطلق الإثنان وراء النعجة ومعهما علي بوليلة في هيأة الكبش حتى ابتعدوا عن قصر الغولة فنزع علي بوليلة جلد الكبش وأخبر الولد الآخر بالأمر ورجع ثلاثتهم سالمين إلى قصر السلطان الذي شكر علي بوليلة وأعطاه الهدايا الثمينة والتحق علي بوليلة بأخويه اللذان كانا يصطادان الطيور مع جمع من الأولاد فنصب علي بوليلة شراكه فجاء طائر كبير ووقع فيها فنبّهه الأولاد إلى وقوع طائر في شراكه فأبدى بعض الإحتراز وقال لهم إنّها الغولة تتكّرت في هيأة طير لتختطفه إن خلصها فاستهان الأولاد بشكوكه وقالوا له : "إنزع عنك فكرة الغولة التي تلاحقك واذهب خلّص الطّائر قبل أن يموت" فتقدّم من شباكه وهو غير مطمئن البال وكان ذلك الطائر بالفعل الغولة التي تنكّرت في تلك الهيأة فلمّا وصل علي بوليلة إلى الشباك اختطفته ووضعته فوق ظهرها وطارت به إلى قصرها لتنتقم منه وكان الطريق إلى القصر يمرّ عبر غابة كثيفة الأشجار فخشي علي بوليلة أن تمرّ به عبر بعض الأشجار الشائكة فتدمي بدنه فقال لها : "يا أمّي الغولة أرجوك أن تمرّي به عبر كلّ أنواع الأشجار إلاّ أشجار التين فإنّي أكرهها" وكان يعلم أنّ الغولة ستفعل به عكس ما يطلب وتمرّ به عبر أشجار التّين التي هي أشجار غير شائكة, وصدق حدسه فمرّت به عبر أشجار التين فالتفت فوجد قملة في ثياب الغولة فكلّمها وقال لها إنّه سيتدلّى بأحد الأغصان ويهرب ورجاها فقط أن تجيب الغولة مكانه كلّما دعته باسمه, فقبلت القملة مساعدته وتدّلى علي بوليلة في أحد الأغصان وهرب راجعا إلى أخويه وواصلت الغولة طريقها وكانت بين الآونة والأخرى تنادي علي بوليلة وتسأله أين هو فتجيبها القملة مكانه وتقول لها إنّي هنا إلى أن وصلت إلى قصرها فقصدت الحدّاد وقالت له "حيثما تجد علي بوليلة أقتله", فأخذ الحدّاد سكينا وجعل ينادي علي بوليلة ويسأله أين هو, فتجيبه القملة مرّة إنّي هنا في اليدين فيقطع

الحدّاد يدي الغولة ومرّة أخرى إنّي هنا في الساقين فيقطع الحدّاد ساقي الغولة حتى قالت له القملة إنّي هنا في الرأس فقطع الحدّاد رأس الغولة فماتت وارتاح النّاس من شرورها.

ويحكى السكان في الجزائر أسطورة مماثلة بطلها يدعى مقيدش واشتهر منذ صغره مثل علي بوليلة بذكائه وفطنته فخرج ذات يوم هو وإخوته لاصطياد الطيور فلمّا أدبر النّهار قفلوا راجعين فوجدوا في طريقهم بيتا فخرجت لهم منه إمرأة ضخمة غريبة الهيأة فرحّبت بهم زاعمة لهم أنّها خالتهم وحالما جلس مقيدش وإخوته في إحدى الغرف خرجت المرأة وتوجّهت إلى جياد الأولاد فتبعها مقيدش لأنّه شكّ في أمرها وأوجس منها خفية فقدّمت للجياد علفا مزجته بحليب حلبته من ثديها فعرف أنّها غولة من الغيلان الذين يصطادون البشر ويأكلونهم فانتظر حتّى ذهبت الغولة وأسرع نحو جواده ورمى بالعلف الذي أمامه بعيدا ولمّا تقدّم الليل أخبر مقيدش إخوته بأنّهم وقعوا في قبضة إحدى الغيلان وأنّها تنوي أكلهم ودعاهم إلى الفرار فتسلّل الإخوة نحو جيادهم وحلّوا رباطهم وامتطوها ونخسوها لتسير ولكنّ جياد الإخوة السّتة أخذت تتساقط الواحد تلو الآخر بسبب العلف المسحور الذي أكلته ماعدا جواد مقيدش الذي سلم من سحر الغولة فصار مقيدش كلّما سقط جواد من جياد إخوته أخذ أخاه وأردفه وراءه فوق جواده وهكذا تمكّن مقيدش من إنقاذ نفسه وإخوته من شرّ الغولة التي كانت تنوي أكلهم.

وصمّم مقيدش على القضاء على الغولة فتنكّر في هيأة واحد من التّجار وأخذ معه صندوقا كبيرا وقصد بيت الغولة وعرض عليها الصندوق زاعما أنّه ينوي بيعه لمن يريد أن يختبئ فيه عند النوم حتى لا يعضّه النّاموس والبعوض فاضطجعت فيه الغولة لتقيسه فأسرع مقيدش وبادر بإغلاقه وكان قبل ذلك كلّف

إخوته بحفر أخدود كبير في الأرض وطلب منهم أن يملؤوه حطبا ويشعلون فيه النار فأخذ ذلك الصندوق والغولة محبوسة فيه ورماه في النّار فاحترق واحترقت معه الغولة.

ويروي سكان ساحل العاج بإفريقيا الغربيّة والبلدان الإفريقية المجاورة خرافة من هذا النوع تقول إنّه كان في قديم الزمان إمرأة حامل فسمعت ذات يوم ابنها في بطنها يدعوها إلى وضعه ثمّ إنّه قطع بنفسه حبل السّرّة وخرج بمفرده وحالما برز إلى النور قال لأمه إنّه سيلتحق بإخوته الستة الذين سافروا للحصول على بنات يقترنون بهن واشتهر الولد بذكائه وفطنته وأطلق عليه الناس اسم صامبا بوليلة وخرج في إثر إخوته فأدركهم في الطّريق وأعلمهم بأمره فحاولوا طرده غير أنه إنقلب على التّولي إلى قطعة نقود وحجر وشجرة عنّاب واعترضهم في الطريق كلّ مرّة في إحدى الهيآت فسمحوا له بمرافقتهم فوجدوا في طريقهم نهرا متلاطم الأمواج فقام صامبا يغنّي فخرج لهم تمساح فركبوا على ظهره وقطعوا النهر فوجدوا غولة من الغيلان لها سبع بنات قد اتّخذت لها كوخا تسكن فيه ومن حوله سبعة أكواخ أخرى يسكنها بنات الغولة فرحبّت بهم الغولة وسألتهم عن حاجتهم فقالوا لها إنهم سبعة إخوة جاءوا للبحث عن سبع بنات ولدن في ليلة واحدة فوعدتهم الغولة بتزويجهم من بناتها وهي تضمر لهم في داخلها الشّر وعرف صامبا أنّها غولة تنوي أكلهم فأعدّت لهم كسكسي مسحورا فأوصى صامبا إخوته بالإمتناع عن الأكل منه ولكنّهم لم يفعلوا بوصيّته وأكلوا من الكسكسي ولمّا قدّمت الغولة لصامبا صحنه قال لها إنّه يريد حساء من القمح يزرع ويحصد وينقّى ويطحن ويغربل ويجهّز حساء في يوم واحد من طلوع الشمس إلى غروبها فأجابته الغولة إلى طلبه وأوصى صامبا إخوته أن يبّدلوا الثياب التي يرتدونها بثياب بنات الغولة ويناموا حيث تعوّد البنات أن ينمن

فعملوا هذه المرّة بنصيحته وفي الليل سمع صامبا صوت الغولة تسنّ السكين فسألها ماذا تفعل فقالت له إنّها تسنّ السكين لتذبح ثورها وقامت فذبحت بناتها ظنّا منها أنّهم إخوة صامبا بوليلة ثمّ إنّها جاءت لتذبح صامبا فوجدته مستيقظا فسألته لماذا لم تنم فقال لها بسبب البرد وطلب منها أن تصنع له غطاء من القطن في يوم واحد ليتغطى به فذهبت الغولة لإعداد الغطاء وجاء صامبا إلى إخوته ودعاهم إلى الهروب ولما رجعت الغولة بالغطاء لم تجد صامبا وتفقّدت بناتها فاكتشفت أنّها ذبحتهنّ وأدركت أنّها ذهبت ضحية صامبا بوليلة فاشتعلت النّار في فؤادها وخرجت تجري في أثر الإخوة لتفتك بهم وتحوّلت إلى شجرة عنّاب وانتصبت لهم في الطّريق فالتفت صامبا إلى الشّجرة وقال لإخوته: "عجبا إنّ هذه الشّجرة لم تكن موجودة من قبل" فذبلت الشجرة ثمّ إنّها إنقلبت إلى سبع جياد لعلّ الإخوة يركبونها فتقبض عليهم فالتفت صامبا إلى الجياد وقال لإخوته:"عجبا إنّ هذه الجياد لم تكن موجودة" فهرب الجياد.

ووصل الإخوة إلى النّهر الذي يقطع الطّريق فرأوا الغولة وراءهم على وشك أن تمسك بهم فتذكّر صامبا أنّه سرق ثوبا من ثياب الغولة فرماه في النّهر فتحوّل إلى زورق وقطع الإخوة النّهر وعادوا إلى منزلهم في القرية فوجدوا في ساحة المنزل شجرة تمر هنديّ فقطعها صامبا بفأس واجتثها من جذورها فظهرت من تحتها جثّة الغولة وقد تمزّقت أوصالها مع قطع الشجرة التي تنكّرت فيها في آخر محاولة لها للفتك بصامبا وإخوته.

وبالإعتماد على النّص الإفريقي يمكن أن نقول إنّ الأولاد في الخرافة التونسية ونظيرتها الجزائريّة خرجوا يبحثون عن بعض البنات والإناث عموما من بعض الجماعات المتوحّشين لإختطافهنّ وتقريدهنّ قصد الإقتران بهنّ .

وكان تحقيق هذه الرّغبة يمرّ عبر الأخذ والإمساك والقبض والإصطياد والإختطاف كما أنّ الشبان العزّاب كانوا يتقدّمون من الأسر المعنيّة ويعرضون أنفسهم عليها للإشتغال لحسابها لمدّة معلومة بصفة خدم وتابعين مقابل تزويجهم في نهاية تلك المدّة ببعض بناتها.

فقد ظلّ الشّبان الذكور من الفقراء والمعدمين إلى عهود قريبة جدّا في الكثير من المجتمعات الإنسانيّة يعرضون أنفسهم للإشتغال لحساب بعض الأسر بصفة خدم وعبيد لمدّة معلومة مقابل تزويجهم في نهاية تلك المدّة ببعض بناتها وكانت تلك الأسر تقبل هؤلاء الشّبان وتستعبدهم طيلة الفترة المتّفق عليها وعند إنتهاء تلك المدّة تعطي الأسرة للشّاب الذي استعبدته إحدى بناتها ليتزوّج منها ثمّ إنّها تعتقه فينتسب إليها ويصبح تابعا لها هو وأولاده من بعده في بعض الحالات.

فقد كانت هذه العادات سارية إلى هذه السّنوات الأخيرة لدى جماعات التّوارق والجماعات الإفريقية القاطنين بالبلدان الإفريقية الواقعة جنوب الصحراء الكبرى مثل النيجر ومالي.

كما أنّ البنات المتشرّدات اللّواتي ينجح الذّكور في أخذهنّ واصطيادهنّ وضمّهنّ إلى أسرهم وحريمهم بصفة جواري وعبيد يعشن في بداية حياتهنّ الجديدة وضعا شبيها بوضع هؤلاء الشبّان.

فقد رأينا أنّ علي بوليلة في الخرافة التونسية المذكورة سابقا يعرض نفسه على الغولة للإشتغال عندها كخادم بعد أن يدهن جسده بالقطران ليتّخذ هيأة الخادم الأسود للتّنكّر والتّمويه.

ففي العهود الأولى من التّاريخ الإنساني كان الشّبان العزّاب الرّاغبون في الإقتران ببعض الإناث يتقدّمون من الأسر والجماعات التي تشتمل على بنات وإناث بالغات وعندما يقتربون من تلك الجماعات والأسر يتصدّى لهم رؤساء تلك الجماعات والأسر بالصّياح ويردعونهم من الإقتراب من أسرهم بواسطة إطلاق أصوات النّهر والزّجر والطّرد والتّنبيه والتّحذير والتّخويف التي استعرضنا قسما منها في تحاليلنا المتقدّمة مثل الصّفير والكشّ والهشّ والنشّ والنخّ والكخ والأح والأع فيهرب الشّبان ولكنّهم يظلّون يحومون حول تلك الأسر والجماعات ويتودّدون إليها بجمع بعض الطّعام وإلقائه بالقرب من تلك الأسر وتستمرّ العمليّة إلى أن يستأنس كلّ طرف بالآخر ويحصل التّقريد والتّرويض من الجانبين.

ومازال النّاس إلى اليوم يتصرّفون بمثل هذه الطّريقة لتدجين الحيوانات الحقيقية وكذلك لربط الصّلات فيما بينهم وخاصّة الصّلات بين الذّكور والإناث.

ففي هذا المجال مازال المصريون يعتبرون خطبة الشاب للفتاة من ابيها وولي امرها ومن اسرتها عموما بانها طلب قرب من الاسرة بحيث ان الذي يتقدم لخطبة فتاة من ولي امرها في مصر يقول له انه جاء يطلب القرب منه ويقدم لاسرة الفتاة بالمناسبة بعض الهدايا والعطايا كما ان الخطيب في تونس وفي غيرها من البلدان يظل بعد قبول طلبه يقدم لاسرة الفتاة في الاعياد الموسمية شتى الهدايا والعطايا فيتدعم التعارف ويزول النفور وتحل محله الالفة

فان كل هذه المظاهر السلوكية هي امتداد للتصرفات الطبيعية التي كان الانسان يمارسها بصورة غريزية وتلقائية عند تقريد وتدجين امثاله والحيوانات الاليفة فتحولت تدريجيا إلى عادات وتقاليد إجتماعيّة راسخة منها عادة الإشتغال

لحساب أسرة الخطيبة المشار إليها آنفا وشراء الزّوجة من أهلها الذي اتّخذ عدّة أشكال وأسماء حسب المجتمعات وأشهرها ما يسمّى باسم المهر في المجتمعات العربيّة ويتمثّل في إعطاء أب البنت أو وليّ أمرها شيئا معلوما من المال أو عددا من رؤوس الأغنام والإبل والبقر وغيرها من المرافق الحياتيّة مقابل تسليم البنت للرّاغب فيها وتشتمل العطايا أيضا على بعض قطع الحلي كالأخراص والخلاخيل والأساور والدّمالج وقد ذكرنا أنّ أصلها وسائل للرّبط والشدّ كان الشّاب يجلب بها معه الدواب والحيوانات المعدة للمهر فيسلم تلك الدواب والحيوانات لولي امر البنت ثم ياخذ تلك البنت ويربطها بالحبال المذكورة ويحملها معه إلى حيث يقيم ليتولّى ترويضها وتقريدها حتّى تألفه وتستأنس به وتصبح مطيعة وتابعة له.

فقد كانت كلّ هذه العادات تصرّفات ذات أصول طبيعيّة يعتمدها البشر لتقريد أمثالهم وترويضهم وتدجينهم وإسترقاقهم إلى جانب عمليّات الأخذ والإصطياد والإختطاف. ومازال الناس في الجنوب التونسي إلى اليوم يقولون عن الشّخص الذي تزوّج إنّه"أخذ إمرأة".

ونشير في هذا السياق إلى أنّ إسم "مقيدش" الذي يحمله بطل الخرافة الجزائريّة المذكورة سابقا يفيد معنى الخادم والتابع والعون مثلما بيناه آنفا حيث أنّ اسم "مقيدش" مأخوذ من اسم"قدش" و"قدس" الذي يفيد معنى الخادم والتابع والأشغال والأعمال والإشتغال لحساب الغير بصفة عامة وأصله لفظة"قد" التي مازالت تستعمل إلى اليوم في تونس في معنى العمل والصّنعة وهي صيغة لفظيّة لكلمة"قت" و"قط" بحيث أنّ اسم"مقيدش" واسم"قط" و"قطوس" متعادلان لفظا ومعنى ويفيدان معنى الخادم والتابع والعبد من كلا الجنسين.

كما جمعنا عددا آخر من الأساطير التونسية والعالمية التي تُبْرِزُ بصورة جلية الصّبغة البشرية للطيور العاقلة والناطقة التي تتحدث عنها الأساطير والخرافات الشعبية وتشير بأنّها ترمز إلى بعض النّساء والبنات وإلى أشخاص من البشر بوجه عامّ.

فقد روت الشعوب الإنسانية جملة من الأساطير والحكايات حول بعض الشبان الذين يسيحون في الأرض فيعثرون وسط قصر أو في إحدى الغابات على بركة ماء فيجلسون بقربها للإستراحة فيأتي سرب من الطيور أو الحمام وعندما يقترب ذلك الحمام من البركة يكتشف الشّاب, بطل الأسطورة, أنّهنّ بنات مرتديات ثيابا مصنوعة من الرّيش بحيث أنّ الناظر إليهنّ من بعيد يحسبهنّ طيورا أو حماما ثم إنّ أولئك البنات ينزعن ثيابهنّ ويرتمين في البركة للإغتسال والإستحمام فيقع الشّاب في غرام واحدة منهنّ غير أنّ البنات يعدن من حيث جئن بعد ارتداء أثوابهنّ المصنوعة من الرّيش ويهيم الشّاب بتلك الفتاة ويجد من يساعده على الوصول إليها والزّواج منها وتلد له الصبيّة ولدا أو ولدين ثمّ إنّها تهرب وتعود إلى أهلها ويسعى الشاب إلى استعادتها.

ويتضمّن الكتاب العربي المعروف باسم"ألف ليلة وليلة" بعض الحكايات من هذا النوع منها حكاية الأمير جانشاه التي أشرنا إليها سابقا وهي حكاية طويلة وردت في سياق قصّة بلوقيا وملكة الحيات وملخّصها أنّ الأمير جانشاه عثر بعد هروبه من مملكة القردة ومكابدته للعديد من الأهوال على قصر منيف في الخلاء الخالي ووجد به شيخا اسمه الشّيخ نصر يتبيّن فيما بعد أنّه ملك الطيور فرحّب به وقال له:"من أين أتيت إلى هذه البلاد وما داسها ابن آدم قط وإلى أين رائح؟" فأخبره أنّه تاه عن الطريق فضاع وساح في الأرض فأكرمه الشيخ نصر وآواه.

ثمّ إنّ الشيخ نصر ملك الطيور قال لجانشاه إنّه ملك الطيور وإنّه صاحب ذلك القصر وأنّه يفهم منطق الطير وهو حاكمها وأعلمه بأنّ الطيور تأتي كلّ سنة إلى ذلك القصر لينظروه ثمّ يروحون من حيث أتوا وقال له:" اعلم يا ولدي أنّك بالقرب من جبل قاف وليس لك رواح من هذا المكان إلاّ إذا أتت الطّيور فأوصي عليك أحدا منها فيوصلك إلى بلادك فاقعد عندي في هذا المكان وكل واشرب وتفرّج في هذه المقاصير حتّى تأتي الطيور.

ولم يزل جانشاه مقيما في القصر حتّى اقترب مجيء الطيور من أماكنها لزيارة الشيخ نصر ولمّا علم الشيخ نصر بمجيء الطيور سار من عند جانشاه لملاقاة الطيور, فلمّا نظرت الطيور الشيخ نصر أقبلت عليه وسلّمت عليه وقبّلت يديه جنسا بعد جنس وبعد ذلك رجع الشيخ نصر إلى القصر فوجد الأمير جانشاه قد تعلّق قلبه بصبيّة جاءت في غياب الشيخ نصر إلى بركة في القصر مع عدد من صاحباتها اللّواتي كنّ مرتديات ثيابا مصنوعة من الرّيش مثلها فكان كلّ من يرى تلك الصبيّة وهي مرتدية ثيابا من الرّيش يحسبها طيرة عظيمة فحطّت قرب بركة كانت في القصر ونزعت ثياب الرّيش الذي كانت تلبسه ونزلت في البركة لتغتسل مع صاحباتها فلمّا رآها جانشاه وجدها فتاة فائقة الحسن والجمال فتعلّق قلبه بها إلاّ أنّها بعد أن اغتسلت لبست ثيابها المصنوعة من الرّيش وراحت من حيث أتت وتركت جانشاه صريع هواها.

ثمّ إنّ الأمير جانشاه تمكّن من الوصول إلى تلك الصبيّة والاقتران بها بمساعدة الشيخ نصر وأنجبت له ولدين غير أنّها حنّت إلى أهلها فأخذت ولديها وهربت وعادت إلى أهلها واجتهد جانشاه في الوصول إليها من جديد ونجح في مسعاه.

كما يشتمل كتاب "ألف ليلة وليلة" على حكاية أخرى من هذا النوع وردت فيه بعنوان "حكاية حسن الصائغ المصري". وقد وجدنا في بعض الكتب المختصّة العديد من الأساطير الشبيهة بهذه الحكايات كانت ترويها الشعوب الإنسانية منها أسطورة ظلّت ترويها إلى عهد قريب جدّا قبيلة تعيش في جزيرة سُلْوَازي بأندونيسيا في أقصى القارة الآسياوية حول أصلها وأصل أجدادها الأولين وتسمّى باسم قبيلة البانتيك ومضمونها أنّ أميرة اسمها أوتوباجي كانت تعيش مع أخيها في أحد الأحياء الكبيرة وكان أخوها حاكم ذلك الحيّ وكان من عادتهم ارتداء الثّياب المصنوعة من الرّيش فخرجت ذات يوم مع ثلّة من صاحباتها ليغتسلن بعين ماء في الغابة قريبة من حيّهم فلبسن ثيابهنّ المصنوعة من الرّيش وقصدن عين الماء فرآهنّ شخص يدعى كَزِيمْبَاهَا من بعيد فحسبهنّ سربا من الحمام فاختفى بالقرب من العين فلمّا وصل البنات نزعن ثيابهنّ المصنوعة من الرّيش وظهرن في هيأتهنّ البشرية فدهش كزيمباها من منظرهنّ ثمّ إنّهنّ ارتمين في عين الماء ليغتسلن وتركن أثوابهنّ على حافة العين فسرق كزيمباها ثوب الأميرة أوتوباجي لأنّها كانت أجملهنّ فلمّا خرجت لم تجد ثوبها ثمّ إنّ البنات لبسن ثيابهنّ وعدن إلى حيّهنّ وبقيت أوتوباجي فخرج لها كزيمباها وحاولت عبثا استجداءه ليعيد لها ثوبها فرفض وهكذا وجدت اوتوباجي نفسها مضطرّة إلى المكوث معه والتزوّج به وأنجبت له ولدا وأعلمته أنّ في رأسها شعرة بيضاء وحذّرته من مغبّة نزعها لكنّ كزيمباها نزع تلك الشّعرة البيضاء فغابت أوتوباجي في عاصفة هوجاء وعادت إلى أهلها وجعل كزيمباها يبحث عنها ومعه ابنه الصّغير حتّى وجدها بمساعدة بعض الحيوانات واتّصل بأخيها الذي طلب منه إنجاز جملة من الشروط ليعيدها له فقدّم له تسع قصاع مملوءة بمختلف أنواع الأطعمة وطلب منه أن يختار طعاما بعينه فأنجز كزيمباها تلك الشّروط بمساعدة بعض الحيوانات أيضا فأعاد له زوجته ولبث كزيمباها مع

أسرة أوتوباجي وانتسب إليهم ثمّ ساعد ابنه على تأسيس أسرة باسمه وكبرت تلك الأسرة وتحوّلت إلى قبيلة كبيرة هي قبيلة البانتيك الحالية التي تقطن بجزيرة سلوازي بأندونيسيا.

وجمعنا في هذا السياق أيضا خرافة تونسية مضمونها أنّ حطّابا وجد ذات يوم نحلة فحملها معه إلى كوخه وفي اليوم الموالي خرج كعادته إلى الغابة للاحتطاب فلمّا رجع وجد كوخه مفروشا وطعامه جاهزا وقلّة الماء مملوءة وثيابه المستعملة مغسولة فاستغرب في الأمر وأكل الطعام فوجده لذيذا وتكرّر الأمر في اليوم الموالي وفي اليوم الثالث تظاهر بالذهاب إلى الغابة واختبأ غير بعيد من الكوخ فرأى بعد قليل فتاة في غاية الحسن والجمال تخرج من الكوخ وعلى رأسها قلّة الماء وتقصد العين القريبة فأسرع وأمسك بها واستفسرها عن خبرها فحكت له أنّها النحلة التي وجدها في الغابة ورضيت أن تكون زوجته غير أنّها اشترطت عليه أن يكتم سرّها ولا يبوح به لأحد وصلح حال الرّجل وصار من الأعيان وأنجبت له النّحلة ولدا حسن الصورة ولكنه كان يحمل وشما طبيعيا في شكل النحلة في جبينه فاستدعى الزّوج ذات يوم بعض أصحابه فرأى أحد الضيوف رسم النحلة في جبين الولد فتعجّب فقال له الزوج:"لا تعجب فإنّ أمّه أصلها نحلة " فغضبت زوجته وغابت في الجوّ فندم الزّوج على فعله فأخذ ابنه وخرج يبحث عن زوجته النحلة فرأى شيئا كالنار يلمع فقصده حتّى وصل إلى غابة من الغابات فالتفت فرأى بنيانا فتوجّه نحوه فوجده قصرا على شكل جبح نحل وبه أسراب من النحل منهمكة في أعمالها وكان موطن زوجته النحلة فسأل عنها حتّى لقيها وعاش معها في ذلك القصر وتعاونا على تربية ابنهما وتأسيس أسرة ثابتة الأركان.

وفي هذا السياق يروي السكان في تونس خرافة شبيهة مضمونها أنّ بائعا متجوّلا مرّ ذات يوم بغابة من الغابات وكان تاجرا بسيطا يبيع الإبر والخيوط والأمشاط والمرايا واللّبان والكحل وما شابهها من البضائع البسيطة نقدا ومقايضة ويُسَمّي السكان في تونس البائع المتجوّل باسم الشيّاد لأنّه يتجوّل بين الأحياء والقرى وهو يشيد ببضاعته ويمدحها ليعرّف الناس بما عنده فكان ذلك الشيّاد مارّا بتلك الغابة وهو راكب حمارا وقد وضع بضاعته في خرج يتدلّى بجانبه عندما سمع أنينا ينبعث من بين الأشجار فقصد الموضع فوجد حمامة مجروحة تئنّ من الألم فعالجها ووضعها في مكان آمن وواصل سيره وبعد مدّة بينما كان يشقّ تلك الغابة في اللّيل سمع صوت امرأة يناديه:"يا شيّاد يا شيّاد" فتوقّف حتّى التحقت به صاحبة الصّوت فإذا بها فتاة جميلة فطلبت منه أن يعطيها إبرة وخيطا لتخيط خرقا في ثوبها فناولها إبرة وخيطا رغم أنّه استغرب من طلبها لأنّ الحال كان ليلا مظلما يصعب فيه عمل الخياطة, فأخذت الفتاة الإبرة والخيط وجعلتهما على موضع الخرق فالتأم بصورة عجيبة وعاد الثّوب كأنّه جديد ثمّ إنّ الفتاة حكت للرّجل بأنّها تسكن في تلك الغابة في دار بمفردها وطلبت منه أن يتزوّجها ويعيش معها غير أنّها اشترطت عليه أن يتجنّب فتح غرفة من غرف دارها فرضي الرّجل وتزوّجها وسكن معها وكانت الفتاة ماهرة في النّسيج والخياطة فأصبحت تنسج له أجمل المنسوجات وتصنع له أحسن الثياب فيخرج بها ويبيعها في القرى والأحياء المجاورة وصار الناس يتهافتون عليها لجمالها وجودتها فصلحت حال الرّجل وأصبح غنيّا ومرّت الأعوام فخان البائع العهد وفتح الغرفة المحرّمة فسمع صيحة عظيمة والتفت فرأى الحمامة التي عالجها ذات يوم راقدة على عش وبه بيضة فكلّمته بحزن وقالت له:"لقد خنت العهد وفتحت الغرفة التي نهيتك عن فتحها فلو انتظرت أسبوعا فقط لانتهت الأمور على أحسن ما يرام" وحكت له بأنّها زوجته فتاة الغابة وأنّها

مسحورة ومجبرة أن ترقد على تلك البيضة على هيأة الحمامة حتّى تفقس ويخرج منها ولدها الأول فينفكّ السّحر وما بقي غير أسبوع ويخرج الولد من البيضة فندم الرّجل على فعلته وفي رمشة عين التفت فوجد نفسه في إحدى الفلوات وهو راكب على حماره وخرجه يتدلّى بجانبه كما كان من قبل بائعا متجوّلا بسيطا.

فكلّ هذه الأساطير والخرافات والحكايات هي قصص واقعيّة وأخبار تاريخيّة تروي وتنقل ظروف تأسيس ونشأة بعض الأسر التي عمّرت الأرض في العهود الأولى من التّاريخ الإنساني وقد حصل هذا التّأسيس من طرف بعض الرّجال بصورة مباشرة عن طريق أخذ واختطاف واصطياد الزّوجة وأحيانا أخرى عن طريق الانتساب إلى بعض الأسر القائمة جريا على بعض العادات التي تسمح وتبيح للرّاغب في الزّواج الاشتغال بصفة خادم وعبد لدى بعض الأسر لمدّة معلومة من الزّمن مقابل تزويجه بإحدى بناتها في ختام تلك المدّة وتحريره من التزاماته وتمكينه من الانتساب إلى تلك الأسرة وحمل اسمها وشاراتها وعلاماتها.

ورأينا في قصّة أوتوباجي أنّ الحصول على الزّوجة استوجب المزج بين الطّريقتين حيث أنّ كزيمباها قام في بداية الأمر باختطاف الأميرة أوتوباجي فمكثت عنده مدّة ثمّ فرّت إلى أهلها فتبعها كزيمباها ليستعيدها غير أنّ أصهاره طلبوا منه إنجاز بعض الشّروط وتمثّلت في إنجاز بعض الأشغال والأعمال الغريبة والصّعبة منها بالخصوص اختيار قصعة مملوءة بنوع من الطّعام بعينه من بين تسع قصاع مملوءة بمختلف أنواع الأطعمة وهي أعْمَالٌ وأشْغَالٌ تُشْبِهُ الأعمال والأشغال التي كثيرا ما تُشْتَرَطُ في الأساطير والخرافات الشعبية على الشّبان الرّاغبين في الحصول على فتاة أحلامهم كتهشيم رحى من حجر بمطرقة

حلْوَى أو فرز أربعين غرارة مملوءة قمحا وشعيرا مَعًا ووضع القمح على حدة والشّعير على حدة أو تحويل مَزْبَلَةٍ إلى قصرٍ منيف بين عشيّة وضحاها وأكل أربعين قصعة كسكسي باللّحم في ليلة واحدة.[2]

فنحن نعتبر أنّ هذه الأشغال التي يُجْبَرُ بعض الشّبان في الأساطير والخرافات الشعبية على إنجازها لفائدة آباء وأولياء خطيباتهم مثل تحويل مزبلة إلى قصر منيف بين عشية وضحاها ترمز إلى الأعمال والأشغال الحقيقيّة التي كان الخطاب والشّبان الرّاغبون في الزّواج ينجزونها ويقومون بها عند دخولهم بصفة خدم وتابعين عند بعض الأسر لمدّة معلومة مقابل تزويجهم ببعض بنات هذه الأسر عند انتهاء المدّة وتحريرهم من التزاماتهم وتمكينهم من الانتساب إلى تلك الأسر.

فقد أشرنا إلى أنّ الأسرى من الإناث والذّكور كانوا يتعرّضون إلى عمليّات التقريد والتّرويض والتّدجين لجعلهم أليفين ومطيعين ومستأنسين ومتعوّدين وتشتمل عمليّة التّدجين على تعليمهم وتدريبهم على حذق الفنون الإنسانيّة المكتسبة كإشعال النّار ورعي الغنم وحلبها وصناعة الجبن وزراعة الأرض على غرار أمّة سيسي في الخرافة المذكورة سابقا.

وتختلف هذه الفنون من حيث الشّكل والأسلوب باختلاف الجماعات حيث أنّ فنّ إشعال النّار مثلا يتّخذ العديد من الأشكال بينما كانت توجد العديد من الجماعات التي تجهله تماما قبل حذقه بواسطة التّقليد في أغلب الحالات.

---

[2]- انظر على سبيل المثال نصوص بعض الخرافات الشعبية من هذا النوع في كتابنا "دراسات في الأساطير والمعتقدات الغيبيّة" تونس 1980.

وعندما تنتهي مدّة التّدريب والخدمة حسب شروط وحاجيات الأسياد يصبح الشّاب الرّاغب في الزّواج تابعا لأسرة أسياده بالانتساب ويتجسّم ذلك الانتساب في حمل اسم أسرة السيّد وشاراتها وعلاماتها.

وتتمثّل هذه الشّارات أحيانا في صبغ الجسم ببعض الأصباغ أو في وشمه وكذلك في شرط الوجه والجبين وتنطق كلمة"شرط" في تونس في صيغة "شلط" وغيرها من العادات المعروفة التي مازالت قائمة إلى اليوم في مختلف المجتمعات الإنسانيّة والتي هي أحيانا من قبيل التّشويه بالفعل كالشّروط أو الشّلوط التي ترسم على الوجه والجبين.

فمن ذلك أنّ قبائل النّوير الذين يعيشون في المنطقة الفاصلة بين السّودان والحبشة بإفريقيا الشّرقيّة يربطون الانتساب إليهم بتشليط أو تشريط جبهة المنتسب وقطع رسم في جبهته في شكل ستّة خطوط متوازية ويخضع لهذه العادة كلّ الأطفال الذكور من قبائل النّوير الذين يصلون سنّ البلوغ فيقع تشريط جباههم وقطع رسوم في شكل ستّة خطوط متوازية بها.

وقد لاحظنا أنّ المهر الذي يعطيه الخاطب للحصول على خطيبته يسمّى أحيانا باسم "الشّرط" في تونس ونعتبر أنّ لفظة "شرط" التي تطلق على المهر في البلاد التونسية مأخوذة من كلمة"شرط" في معنى جرح وقطع اللّحم بحيث أنّ المهر كان يشتمل في الأصل على الشّرط بمعنى رسم شارة أسرة الفتاة المطلوبة على جسد الخطيب كعلامة على انتمائه للأسرة بعد انتهاء فترة الاشتغال لحسابها مقابل تزويجه من خطيبته.

ومن أهمّ شارات الانتساب الأسريّ والقبليّ الوشم والوسم اللّذين سبق أن حللّنا أصلهما, وتقوم الجماعات البشريّة بوضع شارات الوشم والوسم على أبدان أفرادها وكذلك على عبيدها والمنتسبين إليها وعلى أغنامها وماشيتها وكذلك على

لباسها وأدواتها كالعصيّ التي تحارب بها والأواني التي تطبخ فيها وهي أصل أشكال الزّينة التي مازالت إلى اليوم ترسم على الملابس والمنسوجات والأواني والأدوات بمختلف أنواعها.

وسبق أن أوضحنا أنّ الوشم أصله الطّبيعي العضّ وما يحدثه من أثر على جسم الأسير حيث أنّ الوشم هو علامة توضع على جسم الأسير والعبد بوصفهم خدم وتابعين لمن قام بأسرهم واستعبادهم كما ان كلمة"خادم" و"خدم" هي صيغة لفظية لكلمة "خاتم" و"ختم" ويَتِمُّ الوشم غالبا بواسطة ختم العبد والأسير بخاتم السيّد ولذلك سمّي الخادم في العربيّة بهذا الاسم لأنّه يحمل رسم خاتم السيّد كعلامة على تبعيّته لسيّده وعلى تملّك سيّده له.

وبالنّظر لتعادل الأصوات تتّخذ كلمة"ختم" صيغة"كدم" التي تستعمل في معنى العضّ في سياق اللّغة العربيّة بحيث أنّ الختم أصله الكدم وما يتركه من أثر على بدن المكدوم.

نماذج أخرى من أساطير المسخ :

وتماشيا مع كلّ شروحنا المتقدّمة نشير إلى أنّ أغلب حالات المسخ والانقلاب إلى هيأة بعض الحيوانات التي يتعرّض لها البشر في الأساطير والخرافات الشعبيّة تعبّر عن استعبادهم وتحوّلهم من وضع الحرّ إلى وضع العبد والخادم والتّابع.

وتأتي في مقدّمة هذه المسوخ المعبّرة عن الاسترقاق والاستعباد الانقلاب إلى هيئة الغراب.

فقد رأينا في الأسطورة المتعلّقة بالوليّ سيدي بوغانم أنّ هذا الوليّ تحوّل إلى غراب أسود عندما رمى به القائد يعقوب في النّار للقضاء عليه حرقا.

فنحن نعتبر أنّ هذا التحوّل يرمز في حقيقة الحال إلى استعباده من طرف القائد يعقوب وتحوّله إلى عبد وتابع وعون لهذا القائد حيث أنّ الكثير من الأساطير التي يرويها السكّان في البلاد التونسية بخصوص الأولياء الصالحين تشير بصورة جليّة إلى أنّ بعض الأولياء كانوا خدما لأولياء آخرين ثمّ إنّ أسيادهم يكتشفون أنّهم رجال صالحون أولياء مثلهم فيعتقونهم ويعترفون لهم بالولاية.

ويشتمل كتابنا الذي نشرناه بعنوان"أساطير النّشأة في الجنوب التونسي" سنة 1999 بتونس على العديد من الأساطير في هذا الاتجاه.

وجمعنا في الأثناء أساطير أخرى بهذا الشّأن منها أسطورة تروي أنّ الوليّ سيدي فرج الذي له قبّة صغيرة بضاحية سكرة بتونس العاصمة كان خادما عند الوليّ سيدي داوود الذي يوجد مقامه غير بعيد عن مقام سيدي فرج بالضّاحية المسمّاة باسمه فاكتشف ذات يوم سرّه فأعتقه واعترف له بالولاية.

ويحكي السكان في مدينة المتلوّي بالقرب من مدينة قفصة بالجنوب التونسي قصّة مماثلة حول سيدي مرزوق العجمي مضمونها أنّ هذا الوليّ الصالح كان في بداية أمره خادما عند الوليّ الشهير سيدي بوعلي السّني، الذي يوجد مقامه بمدينة نفطة بجهة الجريد بجنوب البلاد التونسية فأمره سيدي بوعلي ذات يوم بإضرام النّار لتسخين الماء وعندما نفذ الحطب أدخل سيدي مرزوق رجليه في النّار لتوقد من جديد فتفطّن إليه سيدي بوعلي فعرف أنّه وليّ صالح مثله فأعتقه واعترف له بالولاية.

وتشير كلّ هذه الأساطير إلى حقائق تاريخية حيث كانت المجتمعات في تونس وفي بلدان شمال إفريقيا عموما منقسمة إلى قبائل وعروش وكان يوجد ضمنها قبائل محاربة وقوية فكانت هذه القبائل المحاربة تفرض نوعا من الهيمنة

على القبائل الأخرى في إطار اتفاقيّات وعقود حماية وصحبة تقوم بمقتضاها القبائل المحاربة بحماية القبائل الضعيفة مقابل إتاوة وضريبة تأخذها كلّ سنة وتتمثّل في شتّى المرافق الحياتيّة من حبوب وملابس صوفيّة وتمور وملح ورؤوس أغنام وغيرها من المرافق.

ويشتمل كتابنا حول"أساطير النّشأة في الجنوب التونسي" على بيانات وتحاليل ضافية لهذه الأنظمة الحمائية.

وفي هذا السّياق يروي السّكان بجهة تطاوين بالجنوب الشرقي للبلاد التونسية أسطورة حول ظروف تشييد قصر"بن بركة" بهذه الجهة وهو واحد من القصور الصحراوية الكثيرة المنتشرة إلى اليوم بهذه الرّبوع ومضمونها أنّ تشييد هذا القصر تمّ في ليلة واحدة بفضل مساعدة غراب أسود تكفّل بنقل الحجر اللاّزم لبناء القصر في ليلة واحدة من جبل تَتَبْنْبُوكْت شرقي وادي زنداق إلى المكان الذي يقع عليه القصر الآن.

فقد وجدنا أنّ هذه الأسطورة ترمز في حقيقة الحال إلى بناء هذا القصر تحت إشراف بعض الخدم والأعوان من السّود الذين كان يستعملهم مشايخ القبائل بهذه الجهة بصفة مساعدين وأعوان لهم إلى عهود قريبة حيث كانت هذه القبائل تسير وفق بعض القوانين العرفية وكانت هذه القوانين تقرّر من طرف مجلس القبيلة ثمّ يوكل تنفيذها والسّهر على تطبيقها إلى أحد الأعيان الذي يصبح بمقتضى هذه المهمة شيخ القبيلة وكان يساعده في تنفيذ هذه القوانين شاوش يسمّى العُرّف وعادة ما يكون رجلا أسود له علامات خاصة فكان يركب حصانا أسود ويرتدي برنسا أسود ويتبعه كلب أسود فكان الناس يرمزون إليه بعبارة"أسود يتنفّس وأسود بلا نفس وأسود أعفس وأسود يقصّ الأرض قصّ" بمعنى العرف وبرنسه وجواده وكلبه وكان العرف واسع النفوذ وكان يمارس

صلاحيّته من خلال الطّبل الذي كان كلّ شيخ يملكه لاستعماله قصد دعوة أفراد القبيلة كلّما دعت الحاجة إلى ذلك كما كانت بعض الشعوب تستعمل الأبواق والقصبات المسمّاة باسم الشبّورات في سياق اللّغة العربية نقلا عن اسمها عند اليهود الذين كانوا يستعملونها بصفة خاصة للدّعوة للاجتماعات العامّة, فكان الشيخ يستعمل طبله لإبلاغ قراراته وكان يكلّف عونه الأسود بذلك الطبل والقرع عليه لتنبيه الرّاجعين له بالنظر وإعلامهم بأحكامه وقراراته.

وقد كان هذا النّظام سائدا لدى الكثير من الجماعات حتّى أنّ بعض قبائل التّوارق كانت تسمّي البطن والعشيرة من بطونها وعشائرها باسم الطّبل, ويسمّي السكان في تونس العشيرة والبطن باسم العرش.

وفي ذات السياق يروي السكان بمنطقة سجنان بجهة بنزرت بشمال البلاد التونسية بخصوص أحد أولياء المنطقة واسمه سيدي عبد الله بن سعيدان أنّه كان صاحب بركات عديدة فكان إذا تقدّم للحرث يأتيه غرابان ويساعدان الوليّ في عمله ويمسكان عوضه المحراث ويحرثان مكانه.

وفي هذا السياق نشير إلى أنّ ارتباط اللّون الأسود بالعبوديّة والاسترقاق هو من الأمور المستحدثة حيث أنّ لفظة"أسود" التي تطلق في العربية على صاحب البشرة السوداء مأخوذة من الجذر"ساد" الذي يستعمل في العربية في معاني لها صلة بالسيادة والملك وليس بالعبوديّة, كما أنّ كلمة"نوار" التي تطلق في الفرنسية على أصحاب البشرة السوداء تستعمل في سياق اللّغة العربية في معنى الشيء النّيّر والمضيء وقد لاحظنا بالفعل أنّ السكان في تونس يطلقون على صاحب البشرة السوداء والسمراء اسم الضاوي وكذلك اسم"الأبيض", ثمّ إنّ كلمة "أبيض" و"بيضاء" و"بيضة" و"بض" و"بضة" يمكن أن يكون أصلها"عبد" باعتبار تعادل الأصوات وسقوط الصوت"عا" من الكلام في الكثير من اللّغات

كاللّغات الأوروبية, وعلى هذا الأساس فإنّ كلمة"بض" و"بضة" يمكن أن يكون أصلها"عبض" و"عبضة" وبسقوط الصوت"عا" وتعادل الصوت "ضا" والصوت "ذا" والصوت "دا" تتخذ صيغة"عبد" و"عبدة" ولأجل ذلك نلاحظ أنّ كلمة"نير" تستعمل في اللّغة العربية في معنى الشيء المضيء والنّيّر والأبيض وكذلك في معنى الحلقة التي توضع حول رقبة العبد والأسير وتسمّى أيضا باسم "الجنزير" و"الكرد" مثلما أشرنا إليه سابقا.

ومن هذا المنطلق نعتبر أنّ أسماء الألوان كانت ترمز في الأصل إلى الوضعية الاجتماعيّة والانتماءات الطبقيّة والفئويّة والأسريّة وليس إلى لون البشرة بحيث أنّ لفظة "أسود" كانت ترمز إلى الوضعيّة الاجتماعيّة وإلى الانتماء الفئوي والأسري وكذلك الشأن بالنسبة لصفة"أبيض" ويمكن القول بأنّ اسم "أسود" واسم "أبيض" كانا يطلقان على السيد والعبد معا مثل كلمة "مولى" التي تطلق في العربية على السيد والعبد معا وقد أشرنا إلى أنّ إطلاق أسماء واحدة على السيد والعبد معا يعود إلى الرّباط الماديّ الذي كان يربط السيد بالعبد في القديم وهو الحبل الذي كان السيد يشدّ به عبده وتابعه كالزوج الذي كان يربط زوجته الجديدة في الفراش ريثما ترومه وتألفه.

وعلى هذا الأساس فإنّ الغراب يرمز إلى فئة الخدم والعبيد ليس لأنّه أسود وإنّما لأنّ اسما من أسمائه يطلق على الخدم والعبيد والتّابعين كالزّوجات في العصور القديمة, وقد وجدنا أنّ الغراب يسمّى في بعض اللّغات الأوروبية باسم "كوربو" كما في الفرنسية وتستعمل كلمة "كوربو" في بعض السّياقات اللّغوية في صيغة "كورف" في معنى المرأة وبالأساس في معنى المرأة البغيّ والمومس ويجب أن نَفْهَمَ من هذا الاستعمال أنّ الاسم كان يعني في الأصل المرأة المتزوّجة حيث أنّ الزّواج كان يتخذ أشكالا متعدّدة منها الأسرة المتركّبة

من زوج وعدّة نساء والأسرة المتركّبة من زوجة واحدة وعدّة رجال كما كان هناك البغاء الشرعي والمقدّس الذي يمارس في المعابد وكان من شروط الزّواج والحقّ في الزّواج.

ففي هذا السياق مازال السكان في البلاد التونسية والبلاد المغاربية والعربية عموما يروون إلى اليوم خرافة مشهورة حول الغراب والحمام مضمونها أنّ الغراب أراد ذات يوم أن يعيش مع الحمام ويصبح واحدا منهم فأخذ يقلّد أفعالهم وهيأتهم ومشيتهم وعندما ظنّ أنّه بلغ مراده اندسّ وسط الحمام ولكنّ الحمام تفطّن لأمره فأنكره واجتمع حوله وأشبعه عضّا ونقرا وخمشا وخدشا ففرّ الغراب لا يلوي على شيء وأراد أن يرجع إلى هيأته الأولى فلم يقدر وأضاع طبيعته ومشيته الأصليّة وصار في أسوأ حال وفي هذا المعنى يتداول السكان في تونس مثلا شعبيا لوصف حال من يحاول التّنكّر لأصله لسبب من الأسباب فيفقد الأصل و الفرع ومضمونه باللهجة الدّارجة التّونسيّة :"كيف الغراب جاء يتعلّم مشية الحمام فأتلف مشيته "

فهذه الأسطورة مثل كلّ الأساطير التي استعرضناها وشرحناها في تحاليلنا المتقدّمة هي خبر تاريخيّ قديم يروي بعض الوقائع والأحداث الحقيقيّة التي حصلت في قديم الزّمان لبعض الأقوام من البشر فوق بعض بقاع الأرض .

فطيور الحمام ترمز إلى بعض الأسر أو إلى جمع من النساء والبنات داخل بعض الأسر التي وجدت في قديم الزّمان بينما يرمز الغراب إلى بعض الأشخاص والعناصر الجديدة الذين انضمّوا إلى هذه الأسر بالانتساب أو بالأسر بعد خضوعهم لعمليّات التّقريد والتّرويض الضروريّة لجعلهم أليفين ومطيعين وأهليّين ومتدرّبين على عادات تلك الأسر ويبدو أنّ العناصر الجديدة رغبت في

الهروب في نهاية الأمر والعودة إلى جماعاتهم الأصليّة على غرار أبطال الأساطير والخرافات الشعبية التي استعرضناها في تحاليلنا المتقدمة.

وفي ذات السياق تروي قبائل الطّوبا والبلاّجة من الهنود الحمر الذين سبقت الإشارة إليهم أسطورة مماثلة مفادها أنّ الشّمس رغبت ذات يوم في أكل لحم البطّ فصنعت شبكة كبيرة وتوجّهت إلى بركة ماء كانت مليئة بطيور البطّ وانقلبت إلى بطّة واندسّت وسط أسراب البطّ واصطادت نصيبا من طيور البطّ دون أن يتفطّن إليها أحد ثمّ عادت إلى القرية التي تسكنها ووزّعت على السكان ما اصطادته من بطّ وأرسلت إلى صديقها القمر بطّة هزيلة فاغتاظ القمر وعزم على الذّهاب بدوره إلى البركة واصطياد بعض طيور البطّ لحسابه الخاصّ فصنع شبكة وتحوّل هو الآخر إلى بطّة ونزل في البركة.

غير أنّ البطّ لاحظوا أنّ عددهم نقص بصورة كبيرة فشكّوا في الأمر وخرجوا كلّهم إلى حافة البركة بما فيهم القمر المتنكّر وتداولوا فيما بينهم وقرّروا أن يخرجوا ما في بطونهم من خرا وبراز وبول ليتفحّصوها ويبحثوا من خلالها على من أكل البطّ وعندما جاء دور القمر وأفرز ما في جوفه من خرا وبراز وبول فاحت منها رائحة كريهة جدّا دلّت على فعله وبهذه الصورة تفطّن طيور البطّ إلى أمره وعرفوا حقيقته وبأنّه غريب تنكّر لاصطيادهم فاجتمعوا حوله وأشبعوه عضّا ونقرا وخمشا وخدشا وفرّ القمر لا يلوي على شيء.

فهذه الأسطورة الأمريكية مثل كلّ الأساطير والخرافات المذكورة سابقا هي خبر تاريخي يروي وينقل بعض الأحداث التي عاشها بعض الأشخاص من البشر الحقيقيّين في قديم الزّمان.

فالشمس والقمر والبط يرمزون إلى أشخاص وأقوام من البشر عاشوا في قديم الزّمان وكانوا يحملون اسم الشمس والقمر والبطّ تعبيرا عن بعض الصفات والخصال البشرية المميّزة لهم.

فهي من نوع أسطورة الحمام والغراب والأساطير الأخرى التي قمنا بشرحها في تحاليلنا المتقدّمة, فكلّ هذه الأساطير هي أخبار تاريخية قديمة تنقل بعض الوقائع والأحداث المتعلّقة بأخذ النّساء والبنات وتأسيس الأسر واستعباد البشر بواسطة شتّى عمليّات التّقريد والتّرويض والتّدجين وما يتخلّلها من مضاعفات بحسب المواقف وأوضاع الأطراف المعنييّن.

ففي بعض الأحيان يجد الفاعل نفسه في وضع المفعول به مثل الشّاب كزيمباها في الأسطورة الأندونيسية المذكورة سابقا الذي وجد نفسه مضطرا إلى الاشتغال عند أخ زوجته ووليّ أمرها ليستعيدها من جديد مع أنّه تمكّن من الحصول عليها في أوّل مرّة بواسطة الاختطاف.

فالعديد من الأساطير التي شرحناها آنفا تشير إلى أنّ التّقريد حصل إثر عملية سرقة مثل القطّ في حكايات أمّي سيسي والقنفد في أسطورة أصل القنفد وذكرنا أنّ السرقة التي تسمّى باسم"فول"و"فولي" بالفرنسية ترمز إلى عمليات نزع القمل والفلي وكذلك إلى نصب الشراك والشباك التي تسمّى باسم"فيلي" في الفرنسية.

وأوضحنا أنّ الرّاغبين في الحصول على القرين يقصدون الأسر القائمة والتجمعات البشرية الموسميّة مستعينين باقتفاء الآثار التي تتركها تلك الأسر والتجمعات أثناء سيرهم وتحوّلهم من مكان إلى آخر وتشتمل هذه الآثار على الكثير من العناصر منها الآثار التي تتركها الأقدام على الأرض والرّماد الذي تتركه النيران ومنها أيضا الخرا والبراز والبول وكلّ الفضلات والإفرازات التي

يخرجها البشر من بطونهم, فقد كان الخرا والبراز والبول من أهمّ العناصر التي يعتمدها الناس للتعرّف على بعضهم.

وقد وردت إشارة صريحة في هذا المعنى في الأسطورة الأمريكية المذكورة حيث أنّ البطّ استعان بالخرا لكشف المندسّ بين صفوفهم.

فقد كانت الفضلات التي يفرزها أفراد كلّ جماعة بشرية من بول وخرا وبراز دليلا وشاهدا قويّا للتعرّف عليهم وعلى أحيائهم ومساكنهم.

فكانت رائحة أكداس تلك الفضلات من البراز والبول والخرا سمة من السّمات التي تساعد على التعرّف على الجماعات البشرية وكان شمّها من الوسائل الرّئيسية لتصنيف الجماعات البشرية وتصوّر عددها وجنسها وطباعها.

فلأجل ذلك كان تفقّد البراز والبول والفضلات البشرية وشمّها وتقييمها بالعين من أقدم الوسائل الطبيعية التي اعتمدها الناس والبشر لمعرفة بعضهم ومازالت هذه العادات سارية إلى يومنا هذا حتّى في مستوى الكشوف الطبيّة.

وممّا يحكى في هذا السياق في بعض مدن وقرى الجنوب التونسي أنّ رجلا ذهب مع ابن أخته للصّيد فباتا في إحدى اللّيالي في غابة كثيفة فاقتفى أثرهما ثلاثة لصوص ليغدروا بهما أثناء النّوم وفي المبيت خرج ابن الأخت لقضاء حاجته وإخراج بعض الفضلات فاشتمّ رائحة خرية أو كدس خرا كان أحد اللّصوص وضعها هناك فعلم أنّ بعض الأشخاص يرقبهما فكلّم خاله من بعيد وقال له : "يا خالي لقيت زلطة نعام", فقال الخال : "زلطها وقام وإلاّ ليها حول وعام", فقال ابن الأخت : "زلطتها وقام", فقال الخال :"دير الزّوام على الزّوام وهيّا إنّاموا" ففهم ابن الأخت أنّ خاله يأمره بوضع الرّحل على النّاقة والرّحيل ففعل ما أمر به الخال ولمّا هجم اللّصوص لم يجدوا شيئا.

كما ظلّ السكان في الجنوب التونسي وفي تونس عموما يميّزون إلى اليوم بين العديد من أكداس الخرا والبراز التي يضعها الشخص على الأرض عند قضاء حاجته إلى إفراز هذه الفضلات حيث أنّ الخرا والبراز يتّخذ شكلا معيّنا عند خروجه من البطن بحسب حالة الشخص وسنّه وجنسه ونوع الأكل والطّعام الذي أخذه, فهناك اسم الجنس الذي يطلق على الخرا والبراز بصفة عامة وهو الشّلال والخرء وينطقه السكان في تونس بصيغة "خرى" والواحدة منه أو الكدس الواحد منه الذي يضعه الشخص على الأرض يسمّى باسم "الشلّة" و"الخرية" غير أنّ الشلّة تتنوّع وتتّخذ عند الناس أسماء بحسب أنواعها, فهناك الهرّة والبكّة والكعبوش والكعلوص وتطلق هذه الأسماء أساسا على الأكداس العظيمة وخاصّة منها اسم "كعلوص" الذي يطلق على الكدس المكتنز ذي الشكل الحلزوني العمودي المتكوّن من البراز المتصلّب في قالب حبل واحد حلزوني الهيأة ويدلّ عادة على أنّ صاحبه شخص في عنفوان قوّته ومن جنس الذّكور غالبا, فلأجل ذلك تستعمل هذه الكلمة في صيغة "كولوس" في معنى الرّجل العظيم والجبار من حيث الخلقة في اللّغة الفرنسية, وتُشْبِهُهُ البُكّةُ وهو اسم مأخوذ من الصوت"أب" الذي يستعمل إلى اليوم في تونس للتّعبيز عن العظمة وكذلك للزّجر والنّهر والتّنبيه والتّخويف ويتّخذ صيغة "أبوك" في هذه الحالة ومنها جاءت كلمة "بكّة" أمّا اسم"هرّة" فيستعمل أيضا للكدس الكبير الذي تكون مادّته من نوع البراز السائل شيئا ما فيتّخذ كذلك شكل القرص على الأرض وهو اسم مأخوذ من الصوت "إر" الذي شرحنا معناه وأصله في تحاليلنا المتقدّمة ويعادل في الكثير من الوجوه الصوت"أب" الذي اشتقّت منه كلمة "بكّة" وكذلك الشأن بالنسبة للكعبوش فإنّه يشبه الكعلوص, ومازال السكان في تونس إلى اليوم يستعملون هذه الكلمات للسبّ والشّتم أحيانا وخاصّة منها كلمة "كعلوص"

و"خرية" و"شلّة" والواقع أنّ السبّ والشّتم هو في الأصل نوع من الزّجر والنّهر والتّنبيه والتّحذير والتّخويف.

ومازالت كلمة"خرت" تستعمل في سياق اللّغة العربية في معنى معرفة مسالك الأرض وممرّاتها في حين تستعمل كلمة "خرّيت" في معنى المرشد والدّليل.

وتتخذ كلمة"خرية" التي تطلق على كدس الخرا الفردي صيغة"قرية" بالنّظر إلى تعادل الصوت "خا " والصوت "قا" وتستعمل كلمة"قرية" في معنى المنازل والأحياء البشرية في سياق اللّغة العربية, وعِلة ذلك أنّ أكداس الخرا والبراز والبول والفضلات البشرية عموما كانت تمثّل عنصرا رئيسيا في تركيبة القرى والمنازل البشرية في العهود الأولى من التاريخ الإنساني فكانت المزابل من أبرز العناصر الماديّة التي تأسّست عليها وحولها القرى البشرية وعلى هذا الأساس نلاحظ أنّ اسم "بكة" يفيد أيضا معنى القرية والمدينة في بعض اللّغات الإنسانية كالقبطيّة وكذلك الشأن بالنسبة لكلمة"هرّة" التي جاءت منها كلمة "الأهراء" وهو مكان خزن المؤونة وكلمة "كعبوش" التي تتركّب بالأساس من كلمة"كعبة" وتطلق كلمة"كعبة" في العربية على البيت ذي الشكل المكعّب.

ونشير في هذا السياق أنّ مدينة مكّة في الحجاز التي تحتوي على كعبة المسلمين المقدّسة تحمل اسم"مكّة" وكذلك اسم"بكة" وقد أشار المؤرخ المغاربي المعروف عبد الرحمان بن خلدون, من أهل القرن14 ميلادي أنّ أصل مدينة مكّة كان زريبة للحيوانات على ملك إسماعيل بن إبراهيم, جدّ العرب المستعربة.

وفي هذا السياق نعتبر أنّ الإنسان اعتمد البول والبراز والخرا والفضلات البشرية عموما لمعرفة أحوال الغير من أمثاله امتدادا لشمّ البدن وإفرازاته والبعض من أعضائه بالذات الذي يلعب دورا كبيرا في التعرّف على

الغير وكذلك في التّقريد والتّرويض والتّدجين عند البشر والحيوانات على حدّ السّواء.

فالشّمّ يعتبر وسيلة رئيسية للتّرويض خاصّة أثناء المواقعة الجنسية حيث يمثّل شمّ فرج الأنثى بالنسبة للذكر والصّنان والرّوائح المختلفة المنبعثة من بدن الذكر بالنّسبة للأنثى عنصرا أساسيا لتقوية الشهوة الجنسية والاستعداد للنّكاح واستيطاب المواقعة ويصف السكان في تونس الأنثى المستعدة للنّكاح بأنّها حائل بحيث أنّ الشّمّ يساعد كثيرا في تحييل الأنثى.

ففي موسم الطراد والتزاوج عند الأغنام والماعز يلبث التيس أياما وهو يطارد الأنثى ويشمّ فرجها ويُوَلْوِلُ ويُبَلْبِلُ عليها بصياحه المعهود حتّى تلين وتحيل وتستطير وتقوى شهوتها الجنسية فيركبها ويسفدها ويفرغ ماءه المنويّ فيها, وهناك الكثير من الحيوانات التي تقوم ذكورها بعضّ الإناث ومسكها بأسنانها عند المواقعة الجنسية حتّى لا تفلت كالقطط مثلا.

فبالاستناد إلى كلّ هذه المعطيات التي أوردناها يمكن أن نقول بأنّ الجماعات البشرية كانت في العهود الأولى من التاريخ الإنساني تلتقي وتجتمع في بعض الأماكن في أوقات معلومة وكانت هذه الملتقيات والتجمعات مناسبة يستغلّها أفراد الجماعة والراغبين في النكاح والزواج على وجه الخصوص للحصول على القرين المطلوب بواسطة شتّى عمليّات التّقريد والتّرويض والتّدجين من تودّد وابتسام وتمسّح وتقرّب وحكّ وكرد وفلي إلى جانب تقديم الهدايا وشمّ الفروج والأبدان والأخذ والإمساك والمطاردة وسط الصياح والولولة والبلبلة والروائح التي تنبعث من الأبدان في مثل هذه الحالات وقد امتلأ المكان بأكداس الخرا والبراز والبول والفضلات.

فكان كلّ من تحصّل على قرين يشرع في تقريده وكانت المبادرة تأتي من الرجال والذكور بالأساس فكان الذكر يمسك بقرينته الأنثى ويشرع في تقريدها وترويضها وتحييلها وشمّ فرجها والبلبلة عليها حتّى تلين عريكتها وتقبله زوجا وقرينا لها, وغالبا ما يقوم الذكر بشدّ الأنثى بأسنانه وبعضّها وخدشها وترك بعض الآثار على بدنها ويحصل هذا الشيء أيضا عند المبارزة بين الذكور لسبب من الأسباب وقد أشرنا إلى أنّ الوشم والوسم نشأ امتدادا للعضّ والخدش والآثار التي يتركها العضّ والخدش على البدن ثمّ إنّ كلّ رجل يختلي بزوجته التي أخذها ويستعينان معا في تأسيس أسرة خاصة بهما.

ويلجأ الذكور أحيانا إلى مفاجأة الأنثى وأخذها وإمساكها وقد أشرنا أنّ الإنسان يطلق بصورة غريزيّة الصّوت "أبْ" عند الإمساك وقد لاحظنا أنّ هذا الصّوت يتّخذ أيضا صيغة "أ بُلْش" و"أبلح" عند السّكان في تونس وبعد الأخذ يقوم الذكرُ بالهش على الأنثى وزجرها وجرّها إلى حيث يشاء مستعينا بالأصوات المجعولة للهش والزّجر والنّهر التي إستعرضناها سابقا ومنها الصّوت "أس" و"أش" و"اشت" و"إر" و"أخ" و"كخ" و"أح" و"أع". كما كان الإنسان يستعمل في القديم بصورة غريزيّة الصّوت "إلت" للزّجر والنّهر ومنه اشتق الصّوت "أل" الذي يدخل في تركيب الكلام الإنساني ومازال السكان في جنوب البلاد التونسية يستعملون إلى اليوم الصّوت "إلت" لزجر الحَمير وحثّهم على السّير بعد أمرهم بالتّحرك والإنطلاق بواسطة إطلاق الصّوت "إرْ" بحيث يمكن القول بأنّ لفظة "أ بُلش" المذكورة هي مزيج من الصّوت "أب" والصّوت "ال" أو "إلت".

وفي هذا السّياق نعتبر أنّ الذكور من البشر كانوا في القديم يُبَلْبِلون على الإناث للطراد والتقريد عموما على غرار ما تفعله التّيُوس لتليين عريكة الإناث

من الماعز وذكرنا أنّ النّاس في تونس يُسَمُّون صياح التّيوس في مثل هذه الحالات باسم "بلبلة" وهو اسم مشتق من الجذر "بل" ويتمثّل في تكرير كلمة "بل" التي هي صيغة لفظيّة لكلمة "أبلش" وهي كلمة يطلقها الإنسان أحيانا عند القبض والإمساك مكان الصّوت "أب" بمفرده وتتمثّل في مزيج من الصّوت "أب" والصّوت "إلت" بحيث يمكن القول بأنّ البَلبَلة هي جملة الأصوات التي يطلقها الذكور عند مطاردة الإناث والسّعي إلى تفريدهنّ وترويضهنّ وتليين عريكتهنّ حتى يصبحن مُطيعات وأليفات ويقبلن فعل الذكور فيهنّ كنكاحهنّ ومواقعتهنّ في حال الشّهوة والرّغبة.

فقد لاحظنا أنّ السكان في بعض قرى الجنوب التونسي كانوا إلى عهد قريب يُسَمّون باسم بلبلة عمليّة بشريّة تتمثّل في وضع الفم مفتوحا على قفا اليد ثمّ تحريكه مع الإجتهاد في التّصويت فيحدث نتيجة لذلك صوت شبيه ببلبلة التّيوس يبدو للسّامع بأنّه ترديد للصّوت "أب" و "بع" وكانت هذه البلبلة عند سكان هذه القرى برهانا على القوّة والفحولة.

فنحن نعتبر أنّ الجماعات البشريّة كانت في القديم تُمَارس هذا النّوع من البلبلة للتّعبير عن الفُحُولَة وللزّجر والنّهر والتّخويف وقد كان الموضع الذي يجعل الذكرُ والرجل فَمَهُ عليه هو بدن الأنثى ودُبرها وفرجها بالأساس للزّجر والنّهر والتّخويف وتأكيد الفحولة والرّجولة والغلبة وتّليين عريكة الأنثى كما كانت هذه البلبلة تمارس أيضا بين الذكور لأنّها خاصيّة من خاصيّات الذكور على غرار بلبلة التّيوس وصياح الدّيكة فهناك أصوات خاصّة بالذكور وأصوات خاصّة بالإناث حيث يوجد أيضا بعض الأصوات التي يطلقها البشر بصورة غريزيّة في حالات التّوَجّع والحنين والحيرة والسّهْوة وهي أصوات خاصّة بالإناث وبمواقف الضّعف عموما إلى جانب الأصوات الفحولية مثل أصوات

الزّجر والنّهر والتّخويف ويدخل ضمن أصوات التّوجّع والحنين والحيرة الصّوت "أم" والصّوت "أن" اللذين أشرنا إليهما في تحاليلنا السّابقة واتّخذت هذه الأصوات الأخيرة معاني لها صلة بفكرة طلب العون والاستغاثة والنّداء والمناداة.

وانسجامًا مع تحاليلنا وشروحنا وجدنا أنّ كلمة "بل" استعملت في العديد من اللغات الإنسانيّة في معاني لها صلة بالفحولة والرجولة والغلبة والأخذ والإمساك وكذلك بالأنوثة والحسن والجمال إلى جانب إطلاقها على الذكر والرجل والزوج وأيضا على الأنثى والزوجة والمرأة على غرار لفظة "قرد" و "قط" و"إنسان".

فَمِنْ ذلك أنّ الفَحْل والذكر والزّوج يُسَمَّى باسم "بعل" في سياق اللغة العربيّة, وهو اسم مُرَكَّب من الصّوت "بع" والصّوت "أل" ويُمَثِّـل صيغة لفظية للصّوت "بل" بإسقاط الصّوت "عا" الذي كثيرًا ما يسقط في الكلام الإنساني, كما يُسَمَّى الكَبش في اللغة الفرنسيّة باسم "بِلْيِـي" الذي هو أيضا صيغة لفظيّة لاسم "بل" ويُعْـتَبَرُ الكبش رمزًا للفحولة والذكورة بالنسبة للغنم التي ينتمي إليها بحيث أنّ الكبش في الغنم هو بمثابة البعل والزّوج على صعيد الجماعة والأسرة البشريّة فلذلك استعمل الإنسان لفظة "بَلْ" وصيغتها "بعل" لتسمية الفحل على النّطاق البشري والحيواني معًا بحيث أنّ الأمر لا يتعلّق بعَمَليّة تَشبيه بقدر ما يَتَعلّق بإطلاق اسم واحد على حقائق واحدة وأشرنا إلى أنّ بعض الآلهة الذين عبدتهم الشّعوب الإنسانيّة في القديم يحملون اسم "بعل" وسَبَبُ ذلك أنّ هؤلاء الآلهة يَرْمُزُونَ إلى بعض أباء وأجداد بعض الأسر الإنسانيّة القديمة فكانوا في حياتهم بُعُولاً بِأتَمّ معنى الكلمة.

وتُستَعْمَلُ كَلِمَةُ "بَلْ" في الفرنسيّة في مَعْنى الحسن والجمال وتُطْلَقُ على الحَسَنِ والجميل من كلّ شيء، وقد ارتَبَطَ الحسنُ والجمالُ منذ القديم بالأنثى والأنوثة كما تُطْــلَقُ كلمة "بل" و"إبل" في العربيّة على الحيوان المُسَمَّى باسم "جَمَل" و"جِمال" وتستعمل كلمة"جَمَال" في العربية في معنى الحسن ووجدنا أنّ الإبل والجمال تسمّى باسم "شومة" و"شامو" في سياق اللّغة العربية والفرنسية وتُؤَنّث هذه الكلمة في الفرنسية على صيغة "شَمال" وباعتبار تعادل الصوت "شا" والصوت "كا" والصوت "جا" فإنّ كلمة"شمال" يمكن أن تتّخذ صيغة "جمال" و"كمال" وبالفعل فإنّ الجمل يُسَمّى باسم"كمال" في اللّغة الانقليزية.

كما تستعمل كلمة"إبل" في معنى النّداء والمناداة والتسمية في سياق اللّغة الفرنسية باعتبار أنّ المناداة كانت تتمثّل في الأصل في ترديد الأصوات التي يطلقها الإنسان في حالة التوجّع والحنين والحيرة فارتبطت تبعا لذلك بفكرة طلب العون والاستغاثة والنداء كالصوت"أم" و"إن" و"أح" أيضا حيث أنّ التوجّع والحنين والحيرة هي أيضا من الأسباب التي تزعج الإنسان فيدفعه هذا الانزعاج إلى إطلاق هذه الأصوات بمثابة الزّجر والتّحذير والتّخويف في الأصل لكنّه زجر ضعيف على قدر حالة الشخص الذي يطلق تلك الأصوات ومازالت بعض هذه الأصوات تستعمل إلى اليوم للنداء والمناداة ومنها الصوت "آ" والصوت "أي" والصوت "أوه" فقد لاحظنا مثلا أنّ الصوت "آ" يستعمل للنداء كما يستعمل لغرض الزّجر والنّهر في تونس حيث أنّ الأم مثلا تقول لابنها أحيانا"آ, ألم أقل لك لا تلعب بالأوساخ" . ويطلق الإنسان الصوت "أي" عند الشعور بالألم على غرار الصوت "أحّ" كما يطلق الصوت "أوهْ" للتّوجع والنّداء أيضا, ونعتبر أنّ الصوت "أ" والصوت "ي" والصوت "و" التي تدخل في تركيب كلمات اللّغات الإنسانية مشتقّة من الأصوات "آ" و"أي" و"أوه" المذكورة.

ويستعمل السكان في تونس الصوت "يا" لمناداة الأم ودعوتها كما تطلق لفظة "يا" على الأم في سياق اللّغة البربرية.

وقد استعان الإنسان في القديم بهذه الأصوات للتنكّر والتّمويه على الغير من خلال تقليدها لإيهام السامعين بأنّه ينتمي إلى الفئة التي عادة ما تختصّ بإطلاقها كفئة الإناث والضعفاء أو بأنّه في حالة ضعف تُشَجِّعُ على معاملته حسب المشيئة كما استَعْمَلَ لهذا الغرض إخفاء هيأته الحقيقيّة تحت جلود الحيوانات وغصون الأشجار وقشرتها ولِحَاهَا.

ففي هذا السّياق كانت بعض الجماعات الإفريقيّة في أوغندا بجنوب شرق إفريقيا تَلْـبَسُ قُشُورَ الأشجار بحيث يظهر الشّخص من بعيد كأنّه جذع شجرة وكان بهذه الصّـفة يتنقّل من مكان إلى آخر دون أن يَتَفَطّنَ إليه أحد فكان بإمكان الشّخص بهذه الصّورة الإقتراب من شخص آخر وهو في غفلة من أمره واصطياده بشبكة أو حبل وشَلّ حركته واقتياده إلى حيث شاء.

ورأيْنَا أنّ الغُولة في الخرافة الإفريقيّة المتعلّقة بصامبا بوليلة تحوّلت إلى شجرة وانتصبت وسط منزل صامبا بوليلة غير أنّ صامبا اكتشف أمرها.

فهذا التّحوّل يَرْمُزُ في حقيقة الحال في هذا المشهد إلى إخفاء الهيأة الحقيقة تحت هيأة أخرى، ورأينا أنّ أبْطَالَ بعض الخرافات يَلْبَسُونَ جلد كبش للتّنكّر في هيأته والاستعانة بهذا التّمويه لقضاء حاجتهم.

وفي هذا السّياق نعتبر أنّ الملابس باختلاف أنواعها التي تعوّد الإنسان حَمْلها وارتداءَها إلى اليوم نَشَأتْ وظَهَرَتْ امتدادًا للاستعانة بالجلود وقشور ولحاء الأشجار وأغصانها وغيرها من المواد المُمَاثِلَة للتّنكر والتّمويه والأخذ والإمساك وكانت الجلود وقشور الأشجار وأغصانها ولحاها تُستَعْمَلُ لإخفاء

الهيأة الحقيقيّة كما تستعمل بمثابة الشّـباك والشراك لإلقائها على الخَصْم وشدّهِ بواسطتها على غرار الشّـباك والشراك العاديّة المظفورة التي هي وسائل مُستَحْدَثة نَقْلاً عن الوسائل الطبيعية المذكورة بحيث أنّ الشّـباك والشراك كانت تستعمل على غرار الجلود والمواد الطبيعية المماثلة لإخفاء الهيأة الحقيقيّة والاستعانة بها لأخذ وإمساك الخصم والطّريدة عموما مهما كان نوعها.

فالملابس كانت أساسا وسائل للأخذ والإمساك والشدّ والربط مثل قطع الحلي والمصوغ كما كانت تستعمل للتنكّر والتمويه وكانت تتمثل في شتّى المواد الطبيعية الصالحة للغرض كالجلود والريش ولحاء الأشجار وأغصانها وقشورها ثمّ تعزّزت بالوسائل المستحدثة نقلا عن الوسائل الطبيعية كالملابس المظفورة من سعف النخيل ولحاء الأشجار فلذلك مازال الإنسان إلى اليوم يستعمل الجلود والريش والسعف المظفور وغيرها من المواد للّباس.

كما استعمل الإنسان الأحذية لإخفاء آثار قدميه والتمويه على الآخرين مثلما يتجلى ذلك في نوع من الأحذية القديمة ومنها نوع يسمّى في تونس باسم "المشّاية" وتصنع بواسطة عمودين طويلين من الخشب مجهّزين في أسفلهما بقطعة خشب صلبة توضع فوقها القدم بحيث أنّ الشخص يضع قدميه فوق قطعتي الخشب وهو ماسك بالعودين من أعلاهما ويمشي فلا يترك أيّ أثر لقدميه على الأرض ويظهر من بعيد طويلا وفي مظهر مخيف أطول من المألوف وكان هذا النوع من الحذاء منتشرا في الكثير من البلدان ويستعمل إلى اليوم لتمثيل الدّمى العملاقة في المهرجانات الشعبية.

ومازالت كلمة "لبس" تستعمل في العربية في معنى إخفاء الحقيقة والاختفاء والتمويه كما في عبارة"التبست الأمور على الجماعة" بمعنى خفيت عليهم حقيقتها.

فغالبا ما يتصوّر النّاس أنّ ما يعتقدونَه هو الحقيقة لأنّه يتطابَقُ مع ظاهر الأشياء الذي هو المَرْجِعُ الرّئيسيّ في هذا المجال في حين أنّ الذي يعتبرونه ويتصوّرونه ظَاهِرَ الأشياء هو في الواقع تفسيرُهم الخاصّ ورؤيتُهم الخاصّة للأشياء على غرار مَوَاقِفِهم من الأساطير. فقد دَرَجَ النّاس والعلماء على إعتبار الأساطير بأنّها قِصَصٌ موضوعة وخياليّة ووَهْمِيَّة لأنّ ظاهرها يَتَنَافَى في نظرهم مع الواقع على أساس فهمهم الخاص لهذا الظّاهر كتصوّرهم بأنّ الحيوانات النّاطقة والعَاقِلة التي تتحدّث عنها بعض الأساطير ترمز إلى الحيوانات الحقيقية فاعتبروا أنّ الأساطيرَ المذكورة لا يُمْكِنُ أنْ تكونَ إلاّ قِصَصًا موضوعة لغرض التّسلية والتّبْصير.

وقد شَرَحنا في تحاليلنا المتقدّمة المعنى الحقيقيّ لهذه الأساطير وأبْرَزْنَا أنّها أخبارٌ تاريخيّة قديمة تَرْوِي بعض الوقائع والأحداث الحقيقيّة التي حَصَــلَتْ في قديم الزّمان لبعض الجماعات والأقوام من البشر فوق بعض بقاع الأرض وأوضحنا أنّ هذه الحيوانات العاقلة والنّاطقة التي تَتَحدّثُ عنها الأساطيرُ ترمز إلى بعض الأقوام من البشر الذين عاشوا في قديم الزّمان وكانوا يحملون أثناء وجودهم فوق الأرض أسماء هذه الحيوانات تعبيرًا عن وَضْعِيَّتِهم الطّبيعيّة والإجتماعيّة وعن بعض الصّفات والخِصال البشريّة المُمَيِّــزَة لهم.

الفصل الثاني:

المعنى الحقيقي للعادات المتّصلة بالتفاؤل والتشاؤم والعيافة والاعتقاد في الجّن وتقديس الحيوانات.

إقترن الإعتقاد في الأساطير والخرافات الشعبيّة في أذهان الناس بممارسة بعض العادات التي تبدو في الظّاهر غريبة وليس لها سند واقعي وطبيعي على غرار الأساطير والخرافات الشعبيّة التي هي في أغلب الحالات قصص تبدو في الظّاهر غريبة وليس لها سند واقعي وطبيعي.

وقد أبرزنا في تحاليلنا المتقدّمة أنّ الأساطير والخرافات الشعبيّة هي في حقيقة الحال أخبار تاريخيّة تنقل وتروي بعض الوقائع والأحداث الحقيقيّة التي حصلت في قديم الزمان لبعض الجماعات من البشر فوق بعض بقاع الأرض.

فانطلاقا من اعتبارهم أنّ الأساطير والخرافات هي أوهام يصف النّاس بعض العادات والإعتقادات القديمة بأنّها خرافات ومن باب الخرافات مثل العادات والإعتقادات البشريّة القديمة المتعلّقة بالتّفاؤل والتّشاؤم والتّطيّر والعيافة

وزجر الطير ورجمها للتّكهن بأحوال المستقبل وتقديس الحيوانات والإعتقاد في الجن والعفاريت.

ففي هذا السياق نعتبر أنّ الاعتقادات والعادات البشريّة القديمة المتعلّقة بالتّشاؤم والتّفاؤل والتّطيّر والعيافة وزجر الطير ورجمها للتّكهن بحالة المستقبل قامت مثل الكثير من العادات والتقاليد الشعبيّة الأخرى نتيجة للخلط والمزج والرّبط بين الأشياء التي تحمل أسماء واحدة.

فقد كان العرب, سكّان الجزيرة العربيّة في القديم يتفاءلون ويتشاءمون بحركات الطيّور وبمظهرها وتسمّى هذّه العادة باسم "زجر الطير" وباسم "العيافة". فكان فيهم أشخاص يزجرون الطير بمعنى إنّهم كانوا يعرفون المستقبل ويتكهّنون به حسب حركات الطّير ومظهرها فلذلك يسّمى الشّؤم باسم "الطّير" في العربيّة وفي هذا السياق تقول القواميس العربيّة وكتب التّاريخ العربي إنّ الشؤم سمّي باسم "طائر" لأنّ العرب كان من عادتها عيافة الطّير وزجرها والتّطير ببعض الاتّجاهات التي تأخذها إذا زجروها ورجموها وأثاروها وبنعيق غرابها فسمّوا الشؤم طيرا بحيث أن الطّير هو ضدّ الفأل.

فعندما تثار الطّير أو ترجم وتزجر تطير وتأخذ بعض الإتجهات فكان الزاجرون يتكهّنون بأحوال المستقبل بالإستناد إلى الإتجاهات التي يأخذها الطير عندما تثار وتزجر وترجم وفي هذا السياق قال الأزهري, من علماء القرن الثالث الهجري, العيافة عند العرب هي زجر الطير وهو أن ترى طائرا أو غرابا فتتطيّر وإن لم ير الشخص شيئا فقال بالحدس كان عيافة أيضا ويقال "عاف الطّير يعيفه" وتستعمل كلمة "عاف" في تونس لوصف الشخص الذي يكره شيئا ويمتنع عن التعامل معه كأنّ يعاف الطعام ويمتنع عن أكله.

فإذا جاء الطّائر عن يمين الشخص إلى يساره مواليا الجانب الأيسر للشخص قيل لذلك الطّائر إنّه سانح وإذا ما جاء من اليسار إلى اليمين مواليا الشخص جانبه الأيمن فهو بارح وكان بعض العرب يتفاءلون بالسانح ويتشاءمون بالبارح وبعضهم الآخر يتشاءمون بالسانح ويتفاءلون بالبارح.

فمن باب التفاؤل بالسانح يقول الشاعر العربي الأعشى :

"أبالسّنح الأيامن أم بنحس تمرّ به البوارح حين يجري".

ومن باب التفاؤل بالبارح يقول شاعر عربي آخر اسمه عمر بن قميئة :

"فبيتي على طير سنيح نحوسه وأشأم طير الزّاجرين سنيحها".

وكانت عيافة الطير منتشرة في القديم عند الكثير من المجتمعات الإنسانيّة حيث ذكرت الأساطير اللاتينيّة القديمة المتعلّقة بتأسيس مدينة رومة عاصمة إيطاليا بالجنوب الشرقي للقارّة الأوروبيّة, أنّ الذي أسّس هذه المدينة هو بطل إسمه روميليس وكان له أخ اسمه روميس فلمّا عزما على تأسيس مدينة رومة احتكما إلى الحظّ في من تكون له رئاسة المدينة بواسطة زجر الطير, فاطّلع روميس فرأى قبل أخيه ستة عقبان قادمة من بعض الجهات لكن سرعان ما رأى روميليس بدوره اثني عشر عقابا قادمة من الجهة المقابلة فكان له الفوز بحكم العدد. وفي هذا السياق فإنّ لفظة" طير" تفيد في العربيّة معنى الحظّ.

فالطّير المقصودون بالزّجر والعيافة في عادات زجر الطير والعيافة يرمزون في الأصل إلى بعض الفئات من البشر الذين عاشوا في قديم الزمان وكانوا يحملون أثناء وجودهم فوق الأرض اسم "طير" تعبيرا عن بعض الصفات

والخصال البشريّة المميّزة لهم وكانت هذه الفئات من البشر تثير الإشمئزاز وتبعث على عيافتها والابتعاد عنها والإمتناع من الإتصال بها والإقتراب منها مخافة التّعرض إلى الزّجر والنّهر والتّخويف والتّنبيه والتحذير بحيث أنّ التّشاؤم والتفاؤل بمظهر الطير يعود إلى الخوف والحذر الذي كان هؤلاء الفئات من البشر يثيرونه بطبعهم لدى الآخرين.

وقد سبق أن أشرنا إلى هذه الحقائق في تحاليلنا المتقدّمة بمناسبة شرحنا للمعنى الحقيقي لبعض التّصرفات الشبيهة بالتفاؤل والتّشاؤم مثل إحترام بعض الطّيور كالخطّاف في تونس والإمتناع عن أكل لحوم بعض الحيوانات كالحصان والخنزير, فذكرنا أنّ هذه التّصرفات مرجعها وسببها الخلط بين الأشياء الحاملة لأسماء واحدة حيث أنّ المقصودين بالمنع والتحريم في عادات الإمتناع عن أكل لحم بعض الطيّور والحيوانات والوحوش هم بعض الفئات من البشر في حين أنّ اللحم يرمز إلى الإتصالات الجنسيّة على غرار الإخوة الذكور الذين هم محّرمون جنسيّا بالنسبة لأخواتهم الإناث والأمّهات بالنسبة لأبنائهم مخافة التّعرض إلى بطش ربّ الأسرة ورئيسها وسيّدها أو "السّي" مثلما يدعى في تونس.

وذكرنا أن الجماعات البشريّة كانوا في بداية التاريخ الإنساني يستعملون بصورة غريزيّة بعض الأصوات الطّبيعيّة للزّجر والنّهر والمنع والنّهي مثل الصوت "أس" و"أست" و"أش" و"أشت" و"أص" و"صص" و"أخ" و"كخ" و"إر" و"أح" و"بس" و"كس".

وقد استعمل الإنسان هذه الأصوات للزّجر والتخويف بمفردها أو مجتمعة وأطلقها على كل من له ارتباط بمواقف إطلاقها وإحداثها من البشر

وكذلك على كل ما له ارتباط بهذه المواقف من الحيوانات والأشياء العادية فأطلق الصوت "أس" في صيغة "سي" على الأب والسّيد وربّ الأسرة لأنّه هو الذي يزجر وينهر ويسبّب الخوف ويعاقب وأطلق الإنسان الصوت "أس" مكرّرا في صيغة "سيسي" على طائر الخطاف والحصان لأنّ الطيّور والحيوانات تهشّ وتطرد بواسطة إطلاق الصوت "أس" و"أش" وأطلق لفظة "كس" المركبة من الصوت "أخ" في صيغة "أك" والصوت "أس" على بعض الأمور البشريّة التي يحرّم التّجاهر بها مثل فرج المرأة الذي يسمى باسم "كس" في العربيّة وعلى النكاح والتقبيل الذي يسمى باسم "كس" في الأنقليزيّة, واستعمله أيضا للزجر كما هي الحال في تونس حيث تستعمل لفظة "كس" و"بس" في تونس لزجر الكلاب والقطط.

فأصبحت كل هذه الأصوات والألفاظ وما توحي به من أمور بشريّة وعامة محمّلة ومشبعة بمزيج من المنع والزّجر والخوف والتحذير والتّنبيه ولزمها نوع من الشؤم والخشية والحياء.

وقد كانت كلمة "طير" من الألفاظ المستعملة للزّجر والنّهر والتّخويف في صيغة "طُر" و"طِر" و"تِر" وهي تتركّب من الصوت "إتْ" والصوت "إر" الذين سبق أن حللنا أصلهما ومعناهما وطرق استعمالهما للزّجر والتّخويف بحيث أن لفظة "طُر" و"طِر" و"تِر" تتركب من صوتين مجعولين للزّجر والنّهر والتّخويف من باب التّأكيد ومازال الناس في تونس يستعملون لفظة "طُر" للزّجر والتّخويف وتنطق أيضا أحيانا "طُز" بالزّاء.

وعلى هذا الأساس فإنّ الخوف من الطير وعيافته والتّشاؤم منه في عادات الزّجر يتمثل في الأصل في الخوف من الإتصال بالفئات البشريّة الذين

كانوا يحملون اسم "طير" وخاصة الإتصال الجنسي بهم حيث أنّ كلمة "طير" تفيد الحبّ والنكاح والمواقعة الجنسيّة فضلا عن الأطراف المتّدخلين فيها وهم البشر في حالة الشّهوة والرغبة الجنسيّة.

وبالنظر لتعادل الصوت "تا" و"طا" و"ذا" و"دا" و"ضا" تتّخذ كلمة "طر" و"تر" صيغة " ضر" التي تستعمل في اللغة العربيّة في معنى الشّر وقد ذكرنا أنّ كلمة "شر" تستعمل في تونس لزجر الكلاب وهي صيغة لفظيّة لكلمة "سر" التي تفيد الأمر بالإبتعاد والغروب عن الوجه في العربيّة بينما تفيد معنى السيد والملك والحاكم في بعض اللغات الأوروبيّة كالإنقليزيّة والفرنسيّة على غرار لفظة "سي" عند أهل تونس. وعلى هذا الأساس يمكن أن نقول بأنّ كلمة "طير" تفيد في حدّ ذاتها معنى الشّر لأنّها تطلق لزجر مصادر الشرّ والخوف كاستعمال كلمة "بس" في بعض البلدان العربيّة ومنها تونس في معنى القط في صيغة "بيسة" و"بسّة" نقلا عن لفظة "بس" التي تستعمل لزجره وزجر غيره من أصحاب الشرّ.

كما تستعمل كلمة "ضرّة" التي هي مؤنث "ضر" في معنى زوجة الأب وحريمه باعتبارها ممنوعة ومحرّمة ومصدر ضرّ و"طِر" و"تِر" في بعض المواقف لأنّها ملك للغير وتطلق كلمة "ذر" على الذّرية والأولاد وأفراد الأسرة والعائلة الواحدة في العربيّة. كما تطلق كلمة "دار" على الأهل والحريم والنساء المحصنات والأولاد والأسرة والعائلة والأقارب وكلهم محرّمون من بعض النّواحي وخاصّة من الناحية الجنسيّة في حين يطلق الصوت "أخ" على الإخوة.

وقد أشرنا في تحاليلنا المتقدّمة أنّ الطيور ترمز في الكثير من الأساطير والخرافات الشعبيّة إلى النّساء والصّبايا والإناث داخل الأسر الإنسانيّة التي

عمّرت الأرض في العهود الأولى من التاريخ الإنساني وقد كانت النّساء وخاصة المحصنات والتّابعات إلى بعض الأزواج من الفئات البشريّة المحرّمين الذين يمنع الإتصال بهم جنسيًا خوفا من بطش مالكهم وسيّدهم البعل.

ويدخل في هذا الإطار أيضا تشاؤم بعض المجتمعات الإنسانيّة من طائر الغراب مثل المجتمعات العربيّة حيث أن لفظة "غرب" التي اشتق منها إسم "غراب" تفيد البعد والإبتعاد وتستعمل للزّجر والنهر في العربيّة كما هي الحال في عبارة "أغرب عن وجهي" التي تعني "إبتعد عن وجهي" ومن هذا المنطلق فإنّ كلمة "غرب" تعادل الألفاظ والأصوات المستعملة للزجر مثل لفظة "أس" و"أست" كما تستعمل كلمة "أوست" في الفرنسيّة للزّجر والنهر والأمر بالإبتعاد والغروب عن الوجه بحيث أن المقصودين من الغراب في عادة التشاؤم من هذا الطائر هم أيضا في الأصل بعض الفئات من البشر الذين عاشوا في قديم الزمان وكانوا يحملون بعض الأسماء التي تعادل اسم "غراب" وتستعمل للزّجر والإبعاد وكانت هذه الأسماء مشتّقة ومأخوذة من الأصوات التي يستعملها الإنسان بصورة غريزيّة للزّجر والتّخويف والتّنبيه والتّحذير مثل الصوت "أس" و"أست" وفي هذا السياق وجدنا أن كلمة "أست" تستعمل في معنى المرأة في صيغة "ست" كما تستعمل في معنى السيد والزّوج في صيغة "سيد" في العربيّة وتطلق كلمة "أست" أيضا في العربيّة على بعض الأشياء التي يمنع التّجاهر بها مثل النكاح وفرج المرأة وذكر الرجل حيث أنّ كلمة "أست" تستعمل في العربيّة في معنى فرج المرأة على غرار كلمة "كس" بحيث أنّ الغراب الذي يتشاءم منه يرمز في الأصل إلى الفئات البشريّة التي كانت محلّ خوف ونهي ومنع وزجر ونهر

وتخويف وتحذير وتنبيه وكذلك إلى الأشياء التي تعتبر مصدر شرّ وأذى مثل النكاح وما يتصل به.

وعلى هذا الأساس فإنّ كلمة "غراب" تعادل في حقيقة الحال كلمة "طير" و"كس" و"أست" وفي هذا الإطار نشير إلى أنّ الخوف من هذه الفئات البشريّة ومن النّكاح وما يتصّل به مردّه ومبعثه الخوف من إثارة غضب الأسياد والمالكين وأصحاب الأسر بصفة عامّة ومن التّعرض إلى بطشهم لهذا السبب حيث أنّ الأخ يعتبر مصدر خوف وشرّ بالنسبة لأخته الأنثى في ما يتعلق بالإتصال الجنسي به خوفا من الأب ورئيس الأسرة الذي يعتبر أنّ كلّ الإناث التابعات للأسرة ملكه الخاصّ كما أنّ المرأة المتزّوجة تمتنع من الإتصال بالغريب خوفا من إثارة غضب زوجها وبعلها وربّها لأنّها ملكه الخاصّ وكذلك الشأن في ما يتعلّق بالغرباء والأجانب فإنّ النّساء المتزّوجات والإناث التابعات لبعض الأسر يعتبرون مصدر شرّ بالنسبة لهم خوفا من إثارة غضب مالكي وأصحاب أولئك النّساء والإناث.

فقد وجدنا في هذا السّياق أنّ لفظة "طير" تفيد معنى الغضب في سياق اللغة العربيّة في حين تستعمل كلمة "إر" و"إير" في معنى الغضب في اللاتينية وكذلك في الفرنسيّة نقلا عنها وتدخل لفظة "إر" و"إير" في تركيب كلمة "طير" في حين تستعمل كلمة "إير" في العربيّة في معنى ذكر الرّجل وفي معنى الذكر أي الفحل بكل ما تحمل من مقاصد القوّة والرّجولة.

فهناك من هذه الزّاوية شبه قوّي بين التّصرفات المتعلّقة بالتشاؤم والتفاؤل وتحاشي التّجاهر بالأمور الجنسيّة والحديث عنها وفعلها في المجالس العامة بحكم الخوف المرتبط بالأمور الجنسيّة في بعض المواقف بالذّات.

فقد لاحظنا أنّ إجتناب الحديث عن الأمور الجنسيّة وفعلها في المجالس العامة في المجتمعات العربيّة هو تصرّف محمود في نظر هذه المجتمعات يرفضه الحياء الذي يعتبر من أكبر الفضائل بحيث أنّ هذه المجتمعات تطلب من أفرادها من باب الحياء تجنب القيام ببعض الأفعال وتجنب الحديث عنها في المجالس العامة كالأمور الجنسيّة بصفة خاصة.

ففي هذا السياق نعتبر أنّ الحياء هو في الأصل العقاب الذي يتعرّض له كل مخالف للنظام القائم والأعراف المتبعة حيث أن لفظة حياء هي لفظة مشتقّة من لفظة "أح" و"أحّية" التي مازالت تستعمل إلى اليوم في تونس للزّجر والنهر والتّخويف والتنبيه والتحذير نقلا عن الصوت "أح" و"أحّيت" الذي يطلقه الإنسان بصورة غريزيّة عند الشّعور بالألم والمواقف الشبيهة التي يمتزج فيها الألم باللذّة مثل حالة الشخص أثناء المواقعة الجنسيّة وعلى هذا الأساس أطلق الإنسان لفظة "أح" في صيغ متعدّدة في معاني لها صلة بالألم ومصادره كالنّار المحرقة التي يسمّيها الناس في تونس باسم "أحيّة" في بعض السياقات.

ومن هذا المنطلق فإنّ الإنسان يخاف من رؤية الطير والتّعامل معها في بعض المواقف كخوفه من الحديث عن الكسّ والإير والأست في المجالس العامة.

أساطير حول الأفاعي والحيّات والأحناش :

كما احتلّت الأفاعي والحيّات والأحناش أهميّة كبيرة في الرصيد الأسطوري الإنساني حيث روت الشعوب الإنسانيّة الكثير من الأساطير

والخرافات التي تقوم فيها الأفاعي والحيّات والأحناش بأدوار أساسيّة في مجرى الأحداث في هيأة كائنات ناطقة وعاقلة.

فنحن نعتبر أنّ الأفاعي والحيّات والأحناش والثعابين التي تتحدّث عنها الأساطير والخرافات الشعبيّة في هيأة كائنات عاقلة وناطقة ترمز إلى بعض الأشخاص والأقوام من البشر الذين عاشوا في قديم الزمان وكانوا يحملون أثناء وجودهم فوق الأرض اسم "أفعى" و"حيّة" و"حنش" وثعبان" تعبيرا عن بعض الصفات والخصال البشريّة المميّزة لهم.

فالكثير من الأشخاصَ والعائلاتَ مَازالوا إلى اليوم يحملون أسماء هذه الحيوانات كما كان الناس يدعون بهذه الأسماء منذ أقدم العصور حيث كان العرب يستعملون اسم "أفعى" لتسمية الأشخاص ومازال اسم "حيّة" وحياة" و"حيّ" الذي هو مذكر حيّة يستعمل لتسمية الأشخاص في المجتمعات العربيّة وعند اليهود أيضا كما أنّ اسم"حنش" ومؤنثه "حنشة" يستعمل إلى اليوم لتسمية الأشخاص.

ففي هذا السياق رأينا في أسطورة الشاب وصديقه الأسود أنّ هذا الأخير لقي حتفه إثر عضـّة حنش ظلّ يطارده ويترصّده مدّة من الزمن للإنتقام منه.

ومازال السكان في تونس يتناقلون إلى اليوم الكثير من الأساطير والخرافات حول الأحناش والحيّات والأفاعي وكانوا إلى عهد قريب جدّا يعتقدون فيها ويعتبرونها من الكائنات المقدّسة والجليلة.

ففي هذا السياق كان الأهالي في مختلف مناطق البلاد التونسيّة يعتقدون أن بعض الأولياء الصالحين تحوّلوا إلى أحناش جميلة المنظر بعد وفاتهم وأنّهم

يظهرون ويتجلّون أحيانا في هذه الصورة في المقامات التي تحوي أضرحتهم كما أنّ قسما من السكان في البلاد التونسيّة وفي البلاد المغاربيّة عموما ولا سيما في الجزائر والمغرب يعتقدون أنّ المنازل والدّيار والبيوت والعيون والغابات وغيرها من الأماكن الشّبيهة توجد تحت حماية وحراسة أصحابها الأوّلين المتصرّفين في هيأة أحناش جميلة المنظر ويسمّي الأهالي هؤلاء الحرّاس الغيبيين باسم "العمّار" فيعبّرون عن حرّاس الدّار مثلا باسم "عمّار الدّار" وحرّاس البئر أو العين باسم "عمّار البئر" أو "عمّار العين".

فمن ذلك أنّ السّكان في مدينة جمنة بالجنوب التونسي كانوا إلى حدود هذه السنوات الأخيرة يحكون بشأن واحة نخيل قديمة بالقرب من هذه المدينة اسمها "شطيان" أنّ صاحبها الأوّل يظهر أحيانا إلى العيان في هيأة حنش جميل المنظر ويسمّونه باسم "سيدي الشّطياني" بما يدّل على أنهم يعتبرونه من الأسياد والصالحين الذين يعتقدون في بركتهم وقدرتهم على التصرّف.

كما ينقل الأهالي في مدينة جمنة ومدينة دوز المجاورة لها والقرى المحيطة بهما أنّ بعض الأولياء الصالحين الذين يعتقدون فيهم يتجلّون ويظهرون أحيانا في هيأة أحناش جميلة المنظر في المقامات التي تحوي أضرحتهم منهم الولي سيدي حامد بوقبرين الذي يوجد مقامه إلى اليوم بالقرب من مدينة جمنة والوليين الصالحين سيدي حمد الغوث وسيدي عمر المحجوب الذين يوجد ضريحاهما بمدينة دوز. فالناس في هذه المناطق يروون عنهم أنهم يظهرون أحيانا في هيأة أحناش جميلة المنظر.

كما يروي أبناء الوليّ سيدي ميّاح الذي يوجد مقامه في واحة نخيل قريبة من جمنة أن جدّهم سيدي ميّاح المذكور تحوّل ذات يوم في حياته إلى

أفعى هربا من النّاس الذين كانوا يريدون به شرّا وإحراقه لأنّه كان يقطع الطريق على المّارة ثم إنّه استقام ورجع إلى أصله الأوّل وأصبح من الأولياء الصالحين.

وكان السكان في مدينة منزل بوزلفة بجهة الوطن القبلي شمال البلاد التونسيّة إلى حدود هذه السنوات الأخيرة يعظّمون وليّين صالحين أسمهما سيدي نصير وسيدي محمد الكلبوسي ويقولون عنهما إنهما يظهران في صورة حنشين جميلي المنظر بحيث كان الأهالي في هذه المدينة يزورون بانتظام مقامهما ويقدّمان لهما البيض وشتّى أنواع الطعام والمأكولات رجاء الثّواب.

ورأينا في الأسطورة التي يرويها الهنود الحمر ببعض بلدان أمريكا الجنوبيّة حول النّساء السارقات أن رجال القرية الذين كانوا يتعرّضون إلى سرقات هؤلاء النّساء وجدوا في طريقهم حيّة عظيمة منعتهم من المرور والعودة إلى قريتهم عندما دعاهم صاحبهم الحارس إلى الرجوع وهم بصدد الصيد.

كما أنّ العديد من الجماعات والقبائل الإفريقيّة من السود العائشين في البلدان الإفريقيّة جنوب الصحراء الكبرى كانوا إلى عهد قريب جدّا يعظّمون بعض الكائنات الغيبيّة في هيأة حيّات أو أحناش.

ففي هذا السياق كانت قبائل التّكن الذين يعيشون في بلاد مالي جنوب الصحراء يعتقدون أنّ الأرض كان يسكنها قبلهم جماعة من الكائنات إسمهم "بن" و"باني" و"ياباني" ويقولون إنّ هؤلاء البنّ هم أسلاف البشر وأنّهم اختفوا عن الأنظار ويعيشون إلى اليوم في بلاد خاصّة بهم في هيأة حيّات وأحناش في قرى مختفية عن أنظار الناس وشبيهة من جميع النواحي بالقرى البشريّة.

وفي هذا المعنى يعتقد قبائل الدّكن في كائن غيبي إسمه "ليبي" يقولون عنه إنّه جدّهم الأوّل وأنّه تحوّل بعد وفاته إلى حنش جميل المنظر مثل قوم البن الذين ينتمي إليهم ويروون بشأنه أسطورة مضمونها أنّ جدّهم ليبي عاش حتى هرم وشاخ فطلب من ربّه أن يميته ويريحه من عناء الكبر فمات ودفنه أولاده الدكن في قبر معلوم ثمّ دعتهم الحاجة إلى مغادرة وطنهم والهجرة إلى موضع آخر فحفروا قبر جدّهم ليبي ليأخذوا معهم رفاته المباركة فلما تقدّم الإبن الأكبر لجمع الرفات وجد مكانها حيّة تسعى وهي الحيّة التي مازال قبائل الدّكن يعتقدون في بركتها وقدسيّتها ويعظمونها تحت اسم ليبي ويقول جماعة الدّكن إنّ الحنش ليبي يقوم إلى اليوم في ظلام الليل ويأتي إلى بيت الحاكم فيهم فيلحسه ثمّ يعود إلى بلاد البنّ.

وقد أشار المؤرخ المغاربي أبو عبيد البكري من علماء القرن الحادي عشر ميلادي إلى كلّ هذه الإعتقادات الإفريقية في كتابه المعروف باسم "المسالك والممالك" حيث نقل فيه أنّ بعض الأقوام من السود من سكان غرب إفريقيا جنوب موريتانيا كانوا يعبدون حيّة ويوجدون بمدينة تكرور بموقع يقال له ترنقة.

وفي هذا المعنى يقول البكرى : "ومن ترنقة تصل العمارة إلى السودان إلى بلاد زافقو وهم صنف من السودان يعبدون حيّة كالثعبان العظيم ذات عرف وذنب رأسه كرأس البختي وهو في المغارة بالمفازة وعلى فم المغارة عريش وأحجار ومسكن قوم منهم متعبّدين معظمين لتلك الحيّة ويعلقون أنفس المتاع على ذلك العريش ويضعون له جفان الطعام وعساس اللبن والشراب وهم إذا أرادوا إخراجه إلى العريش تكلّموا كلاما وصفّروا صفيرا معلوما فيبرز إليهم

وإذا هلك والي من ولاتهم جمعوا كلّ من يصلح للمملكة وقرّبوهم إليها وتكلّموا بكلام يعلمونه فتدنو الحيّة منهم فلا تزال تشمّهم رجلا رجلا حتى تنكز أحدهم بأنفها فإذا نكزته ولّت إلى المغارة فيتبعها ذلك المنكوز بأحدّ ما يقدر عليه من السير فيجذب من ذنبها أو من عرفها بأشد ما يقدر عليه من شعرات فتكون مدّة ملكه لهم بعدد تلك الشعرات لكلّ شعرة سنة".

فكل هذه الحيّات والأفاعي والأحناش التي تتحدّث عنها الأساطير والخرافات الشعبيّة ترمز في حقيقة الحال إلى بعض الأقوام من البشر الذين عاشوا في قديم الزمان وكانوا يحملون أثناء وجودهم فوق الأرض إسم "حيّة" و"حيّ" و"حنش" و"أفعى" تعبيرا عن بعض الصفات والخصال البشرية المميّزة لهم.

فقد ذكرنا أنّ الكثير من الأشخاص يحملون اسم "حيّة" و"حي" و"حنش" و"أفعى". كما لاحظنا أنّ السكّان في البلاد التونسيّة يطلقون اسم "حيّ" على الإنسان عموما فيقولون مثلا "ما أكثر هموم الحي" بمعنى "ما أكثر هموم الإنسان"

وتطلق كلمة "حي" في سياق اللغة العربيّة على الأسرة والجماعة من الناس الذين ينتمون إلى أب واحد وكذلك على المسكن البشري وتجمع على "أحياء" وعلى هذا الأساس فإنّ كلمة "حيّ" التي مؤنثها "حيّة" تعادل معنويا كلمة الأسرة وتطلق كلمة "حي" أيضا كناية عن المرأة في سياق اللغة العربيّة كما في قول الشاعر العربي القديم بشار بن برد :

"يا قومي, أذني لبعض الحيّ عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا"

ومازال الناس في تونس والمجتمعات العربيّة عموما يستعملون إلى اليوم كلمة "حيّة" و"حنش" و"أفعى" لوصف الأشخاص الفتّانين والخبثاء الذين يزرعون الفتنة بين الناس كيدا ونفاقا ويستعمل هذا الوصف بالخصوص للنّساء اللّواتي يسعين إلى زرع الفتنة بين الناس والكيد باستعمال الكذب والنفاق, ففي هذه الحالة يشبّه الناس في تونس وفي المجتمعات العربيّة المرأة التي تسعى إلى الكيد بالنّاس بالأفعى والحيّة فيقولون عنها إنّها حيّة وأفعى وأحيانا يضيفون إليها بعض النّعوت فيقولون إنها حيّة بسبع رؤوس.

وفي حقيقة الحال فإنّ هذا التّشبيه مثل كل التّشابيه يعود إلى إطلاق أسماء واحدة على أشياء واحدة في الأصل وفي هذه الحالة المرأة الفاتنة من جهة والحيوان المعروف باسم "حيّة" من جهة أخرى, فقد أشرنا إلى أنّ إسم "حيّة مأخوذ في الأصل من الصوت "أح" الذي يطلقه الإنسان بصورة غريزية عند الشعور بالألم والإنفعال فأطلقه تبعا لذلك على كل من يتسبب في الألم مثل النار التي تسمى باسم "حيّة" و"أحيّة" في تونس وعلى المرأة الفاتنة وعل الحيوان المعروف باسم "حيّة" لأنّه يجلب الألم بسمّه.

وقد وجدنا أنّ الحيّة تسمّى باسم "باتن" في بعض اللغات الشرقية القديمة القريبة من العربيّة وكذلك في اللغة اليهودية ونعتبر أنّ كلمة "باتن" هي صيغة لفظيّة لكلمة "فاتن" وتستعمل كلمة "فاتن" في العربيّة في صيغ متعدّدة في معنى

الشخص الذي يفتن بين النّاس كما تستعمل بمثابه إسم علم للنساء وتعني في هذه الحالة المرأة الحسناء التي تفتن الناس بجمالها.

ففي هذا السياق جمعنا أسطورة شعبيّة يحكيها الناس في تونس والبلدان المغاربيّة الأخرى وتتحدّث عن أفعى تتصدى لبطل القصة لتمنعه من بلوغ مراده وملخصها أنّ شابا وجد نفسه مضطرّا إلى مغادرة أسرته والتّشرد في البلدان وكان له أخ غير شقيق أنجبه أبوه من إمرأة أخرى غير أمه وكان يحبّه فحاول عبثا إثناءه عن عزمه وجرت العادة أن يخصّص لكل شخص عند ولادته شجرة معلومة كان يعتقد أن حالها تتغيّر مع تغير أحوال ذلك الشخص فلما غاب ذلك الشاب جعل أخوه يتفقّد بين الحين والآخر الشجرة المخصّصة لأخيه ليتابع أحواله من خلالها عن بعد وتشرّد الشاب بين البلدان فمرّ ذات يوم بنجع وكان شهما شجاعا فوجد أهل ذلك النجع مجتمعين في ساحة الحي وهم بصدد الحديث عن ذئب عظيم استضعف شأنهم وروّع غنمهم وقد حاولوا عبثا التّصدي له وقتله فلم يفلحوا فعرضوا على الشاب أن يخلصّهم من ذلك الذئب ووعدوه بأن يعطوه كلّ الخرفان التي تولد لهم تلك السنة فقتل الذئب وتابع سيره فالتقى بجماعة أخرى استضعفهم أسد عظيم يسكن في غابة مجاورة لهم واستباح غنمهم وأبقارهم فوعدوه أن يعطوه مواليد أبقارهم في ذلك العام إذا هو خلّصهم من ذلك الأسد فتبارز مع الأسد وقتله وتابع سيره فإذا هو بقوم آخرين قد استضعفتهم حيّة عظيمة كانت تقطع الطريق دونهم وتفتك بقوافلهم فوعدوه أن يعطوه ما يبتغي من الأراضي إن هو قتل الحيّة ونجّاهم من كربها فقصدها ولكن الحيّة إحتالت عليه وجعلته يتجرّد من سلاحه فوثبت عليه وبلعته فذبلت الشجرة المخصّصة له في قريته فلما رأى أخوه ما حلّ بها عرف أن مكروها أصاب أخاه فلحق به

وتصدّى للحيّة وأفشل حيلها وتغلّب عليها وأجبرها على إعادة أخيه حيّا وإخراجه سالما من بطنها ففعلت ثمّ قتلها وأراح النّاس من شرورها.

كما تتحدّث الأساطير اليونانيّة القديمة التي كان يرويها سكان بلاد اليونان في أوروبا قديما عن حيّة عظيمة كان لها شأن كبير في بداية الدنيا.

فقد أشارت الأساطير اليونانيّة القديمة بهذا الخصوص أنّ أوّل من عمّر الكون هم الآلهة وقد أنجبتهم سيّدة الأرض والرّبة الكبرى التي كان يسمّيها اليونانيون باسم "جي" بعد إتّصالات جنسيّة بالعديد من الأطراف وحصلت فتن وصراعات دامية بين الآلهة وقفت خلالها الرّبة "جي" إلى جانب بعض الأطراف المفضلين لديها, فقد كان الآلهة ينقسمون إلى صنفين كبيرين صنف سماوي يسكن في جبل الأولمب وصنف أرضي وسفلي, فاتّصلت الرّبة "جي" جنسيّا بالإله ترتار, إله العوالم السّفليّة وأنجبت منه الجبّار طوفان الذي قاد حربا شعواء ضدّ الآلهة على راس جيش من الجن والعفاريت والآفات وهزم طوفان الآلهة وكاد أن يفنيهم وأجبرهم على الفرار إلى الصّحاري الإفريقيّة جنوب مصر غير أنّه إندحر في النهاية وخسر الحرب وكانت له أخت تسمّى الأفعى أو "إكدنا" باليونانيّة وكانت زوجته فأنجب منها حيّة هائلة إسمها "باتن" بمعنى الأفعى الفاتنة وعددا آخر من الآفات وسارت باتن هي الأخرى في طريق أبيها وأصبحت تدبّر المؤامرات والمكايد للآلهة وتعين البعض ضدّ الآخر بحيث كان بعض الآلهة يستعينون بها في مؤامراتهم ضدّ خصومهم.

ولمّا آلت قيادة الآلهة والكون والبشر إلى الآله زوس وأصبح أعظم الآلهة قوّة وقدرا رغم أنّه ينتمي إلى الجيل الثالث منهم هدأت الأمور نسبيّا وكان الآله زوس متزوّجا بأخته هيرا وكان كثيرا ما يخونها مع الحسان من البشر

وإناث الآلهة فربط علاقة مع الحسناء ليتو وأصبحت معشوقته المفضّلة فعلمت بها هيرا فغارت منها وسعت إلى هلاكها وحملت ليتو من زوس ولمّا أتّمت أشهر الحمل وضعت توأمين ذكر وأنثى فأرسلت لهما هيرا الأفعى باتن سرّا لتقضي عليهما في المهد فاستغاثت ليتو بأحد الآلهة فنجّاها من شرّ الحيّة مع ولديها وهكذا عاش الولدان وأصبح الولد الإله أبولّون والبنت الربّة أرتميس الذين كانا يحظيان بتعظيم خاصّ من طرف اليونانيّين القدماء ضمن موكب الآلهة واهتّم الإله أبولّون بالإنتقام من الأفعى باتن فتجهّز وقصد بلادها وكانت تسكن موقعا إسمه "بِطان" أو "بتان" نقلاً عن إسمها وهو الموقع الذي تقوم عليه الآن مدينة دلف اليونانيّة فتبارز معها وقتلها.

وكان للأفعى باتن أخت مثلها حيّة بسبعة رؤوس كلما قطع منها رأس نبت مكانه رأس آخر وكانت تفتك بالنّاس في موضع مشهور بمستنقعاته يسمّى باسم مستنقعات لارن وكانت هذه الحيّة الهائلة تسمى باسم حيّة لارن وتدعى باليونانيّة باسم هيدرا وتنسب إلى مستنقعات لارن فيقال لها "هيدرا لارن".

وذاق الناس منها الويل إلى أن تمكّن أحد الابطال اليونانيّين إسمه هركلس من قتلها فأراح الناس من شرّها.

قصة جنة الخلد والإنسان الأوّل :

وفي هذا السياق مازالت الشعوب الإنسانيّة في مختلف أنحاء العالم تحكي إلى اليوم في هذا المعنى أسطورة حول الإنسان الأوّل وكيد الحيّة له وهي أسطورة شهيرة تناقلتها الكتب الدينيّة والتاريخيّة منذ اقدم العصور في صيغ متعدّدة وظلّ الناس يحكونها شفاهيا وترجع أحداثها هي الأخرى إلى بداية الدنيا

مثلما يقول السكان في البلاد التونسيّة تعبيرا عن بداية الكون والوجود ومضمون هذه الأسطورة مثلما ورد في بعض كتب التراث العربي وفي سفر التكوين أول أسفار التوراة والأخبار المتواترة أنّ الله خلق في بداية الدنيا كلّ ما هو موجود في الكون وعلى وجه الأرض من سماوات وأراضي وجبال وأنهار ونجوم وليل ونهار وشجر وحيوانات وطيور ووحوش ثمّ إنّه خلق الإنسان على صورته من تراب وهو أوّل إنسان يظهر في الكون وكان إسم هذا الإنسان الأوّل آدم وتعنى كلمة آدم الإنسان في بعض اللغات الشرقيّة القديمة القريبة من العربيّة وكان ذكرا ثمّ خلق الله له من ضلعه إمرأة لتكون زوجته وأنيسته وقرينته وأطلق آدم على زوجته إسم حوّاء لأنها مصدر الحياة كما تقول الأسطورة وأنشأ الله بجهة عدن جنة تجري من تحتها الأنهار إسمها النعيم والفردوس وجنّة الخلد وجعل في وسطها شجرتين إحداهما شجرة الحياة من مزاياها أنّها تهب الخلود والحياة الأبدية لمن يأكل من ثمارها والأخرى شجرة علم الخير والشّر وفضيلتها أن كل من يأكل من ثمارها تتفتح عيناه ويصبح عالما وله القدرة على التمييز بين الخير والشّر وكلف الله آدم الإنسان الأوّل. بحراسة جنة الخلد والفردوس ورعايتها وفلاحتها وسمح له ولزوجته بالأكل من ثمار كل أشجار الجنة وأوصاه بأن يمتنع عن أكل ثمار شجرة الحياة وشجرة علم الخير والشّر وقال لهما إنكما تموتان عندما تأكلان منها.

وكانت الحيّة أخبث حيوانات البريّة فجاءت إلى زوجة آدم فأغوتها وغرّرت بها وشجعتها على الأكل من ثمار شجرة علم الخير والشرّ وقالت لها إنّ الله منعكما عن أكل ثمار شجرة علم الخير والشرّ لأنكما تصبحان بصيرين بالأمور مثل الآلهة عندما تأكلان منها فتقدّمت حواء من شجرة علم الخير والشرّ

وقطفت من ثمارها وأكلتها فوجدتها طيّبة ولذيذة فدعت زوجها آدم إلى الأكل منها فأكل آدم بدوره من تلك الثمار وكان يعيشان عريانين في الجنّة فلّما أكلا من ثمار شجرة علم الخير والشرّ تفتحت عيونهما وعلما أنهما عريانان فاختبآ حتى لا يراهما الله على تلك الحالة وجاء الله في المساء إلى الجنّة ونادى آدم وحوّاء فأجاباه وهما مختبئان بين الأشجار فسألهما الله عن سبب إختبائهما فقالا له إنهما عريانان فسألهما الرّب ومن أعلمك أنكما عريانان فلا شكّ أنكما أكلتما من شجرة علم الخير والشّر فقالت له حواء إنّ الحيّة هي التي أغوتها وخدعتها وشجّعتها على الأكل من ثمارها وقال له آدم إن إمرأته هي التي دفعته إلى الأكل من ثمارها فعند ذلك طرد الله آدم وحواء من جنّة عدن وأمسك بالحيّة التي كانت ذات منظر حسن وشكل جميل فشوّه خلقتها وجعلها تزحف على بطنها على الأرض وأثار العداوة بينها وبين البشر بحيث أنّ البشر يقتلونها كلما وجدوها في حين تسعى هي إلى عضهم وبث سمّها في أجسامهم.

فكلّ هذه الأساطير التي أوردناها حول الأفاعي والحيّات والأحناش هي قصص واقعيّة وأخبار تاريخيّة تنقل بعض الوقائع والأحداث التي حصلت في قديم الزمان لبعض الجماعات من البشر فوق بعض بقاع الأرض, كما أنّ قصّة جنّة الخلد والفردوس والإنسان الأوّل والحيّة هي خير تاريخي يروي بعض الوقائع والأحداث التّاريخيّة الحقيقيّة التي حصلت بالفعل في قديم الزمان لبعض الأقوام من البشر فوق بعض بقاع الأرض.

فقد ذكرنا أن الآلهة يرمزون إلى أباء وأجداد الأسر الإنسانيّة التي عمّرت الأرض في العهود الأولى من التاريخ البشري فلأجل ذلك تقول الأساطير إنّ الآلهة هم أوّل من ظهر للوجود وعمّر الكون وترمز الحيّات

والأفاعي والأحناش إلى بعض الأشخاص والأقوام من البشر الذين كانوا يعيشون داخل هذه الأسر الإنسانيّة ولا سيما إلى طوائف النّساء حيث مازال بعض الأشخاص إلى اليوم يحملون إسم "حيّة" و"حنش" و"حنشة" و"أفعى" كما أنّ هذه الأسماء تستعمل إلى اليوم لوصف الأشخاص الذين يزرعون الفتنة بين النّاس ويسعون إلى الكيد بهم وغدرهم فلهذا السّبب يتمثل دور الحيّات داخل هذه الأساطير في الفتنة والدّسيسة وتبرز هذه الخاصيّة أساسا في الحيّة التي تتحدّث عنها أسطورة جنّة الخلد والفردوس.

ففي هذا السياق وجدنا أنّ إسم "جنّة يفيد معنى الأسرة والعائلة والمرأة في العديد من اللغات الإنسانيّة مثل اليونانيّة واللغات الآخذة عنها وكذلك في سياق لغة القبائل الإفريقيّة المعروفة باسم "الدّكن" الذين سبق أن أشرنا إليهم في تحاليلنا المتقدّمة.

ثمّ إنّ لفظة "شجرة" مازالت تستعمل إلى اليوم في معنى الأسرة والعائلة في سياق العديد من اللغات ولدى الكثير من المجتمعات مثلما يدّل على ذلك عبارة "شجرة نسب العائلة".

وعلى هذا الأساس فإنّ الأسطورة المتعلّقة بالحيّة والإنسان الأوّل وجنّة الخلد هي خبر تاريخي ينقل بعض الأحداث التاريخيّة الحقيقيّة التي وقعت قديما داخل بعض الأسر الإنسانيّة. فالجنّة ترمز إلى إحدى الأسر الإنسانيّة التي كانت قائمة في قديم الزمان في بعض بقاع الأرض بينما ترمز شجرة الحياة وشجرة علم الخير والشرّ إلى بعض المجموعات التي كانت تتألف منها تلك الأسرة وأساسا النّساء والإناث. مّا الحيّة فقد ذكرنا أنّ اسم "حيّة" مأخوذ من الصوت "أح" و"أحّيت" و"أحّيه" الذي يطلقه الإنسان عند الإحساس بالألم وما يحدثه من

شعور بالغضب والإنفعال وعدم الرضي والعدوانيّة والإمتقاع فيدفعه هذا الشعور إلى الإبتعاد عن أسباب الألم أو إبعادها بواسطة الزجر والطرد والنهر والتخويف والتحذير فأطلق اسم "حيّ" و"حيّة" على الألم وأسبابه ومسبّباته مثل النّار والأدوات الحادّة كالسكين والحيّة الحقيقيّة وبصفة خاصة على المرأة المتزوّجة باعتبارها تابعة لأحد الأزواج وملكه الخاص حيث رأينا أنّ المرأة المتزوّجة تكتسب حرمة وهيبة خاصة تستمدّها من حرمة وهيبة زوجها باعتبارها ملكا من أملاكه الخاصة يدافع عليه كما يدافع عن نفسه وأكله وشرابه وتصبح بذلك "أح" و"أحيّة" بمعنى أنّها تتسبّب في الألم لكلّ من يحاول الإقتراب منها بسبب بطش زوجها بمن يحاول فعل ذلك , "

ثمّ إنّ اسم "حي" أطلق على الأسرة وعلى الحيّ الذي تقيم فيه لأنّ الأسرة والحيّ هما شيء واحد ولأنّ الأسرة تتألّف بالأساس من المرأة المتزوجة التّابعة لأحد الأزواج بحيث أنّ الأسرة اكتسبت هي الأخرى حرمة وهيبة مثل الحرمة والهيبة التي تكتسبها المرأة المتزوّجة امتدادا لحرمة وهيبة زوجها.

وعلى هذا الأساس يمكن أن نقول بأنّ الحيّة في هذه القصة ترمز إلى كلّ هذه الأمور مجتمعة من الزّوج الذي تدفعه الغيرة على زوجته ونسائه عموما إلى منع الذكور الآخرين من الإتصال الجنسي بهنّ وحتى الإقتراب منهنّ إلى الشهوة الجنسيّة التي تدفع بعض الأشخاص إلى المخاطرة بأنفسهم لإشباعها والوقوع في ما يجلب الأحّ والألم مرورا بالإناث والنّساء التّابعات للزوج والسيد داخل الأسرة. فقد كان النّساء والإناث التّابعات للزوج والسيد داخل الأسرة يعتبرون حيّة ومصدر ألم وخوف بالنسبة للذكور الآخرين بما فيهم أبناء الزوج وأولاده الذكور بحيث كانت زوجات الأب وإناثه التّابعات له بصورة من الصور

داخل الأسرة حيّة ومصدر ألم بالنسبة لهؤلاء الأولاد الذكور وكان قسم من هؤلاء الإناث هن أخوات الأولاد الذكور بحيث أنّ الحيّة كانت ترمز أيضا إلى الإتصال الجنسي بين الأخوة الذكور والأخوات الإناث داخل الأسرة التي ترمز إليها الجنّة بوصفه مصدر ألم وبور ومغبّة على فاعله.

وعلى هذا الأساس فإنّ الأمر بالإمتناع عن أكل ثمار الشجرة المحرّمة يرمز إلى منع الإتصالات الجنسيّة داخل الأسرة التي ترمز إليها الجنّة بين زوجات الأب في هذه الأسرة والإناث التّابعات له بصورة من الصور كبناته وجواريه من جهة والأفراد الذكور التّابعين له كأولاده وعبيده الذكور من جهة أخرى.

ويرمز طرد الإنسان من الجنّة إلى الزّجر والطرد والإبعاد الذي كان يعاقب به من يخالف هذا الوضع. ثمّ إنّ الجماعات البشريّة تعلّموا تبادل الإناث بشتّى المرافق الحياتيّة وأصبح رؤساء الأسر يتنازلون عن بعض الإناث التّابعات لهم مقابل بعض الهدايا وشتّى المرافق الحياتيّة من طعام وأدوات وما شابه ذلك إمتدادا لعادة إهداء الهدايا في عمليات التقريد والترويض والتّدجين التي كان الإنسان يقوم بها بصورة طبيعيّة ومازالت هذه العادات قائمة إلى اليوم فيما يسمى بنظام المهر والصداق فصار بإمكان الشاب الأعزب مهما كان أصله أن يحصل بهذه الطريقة على إحدى الإناث التّابعات لإحدى الأسر وأن يتزوّج بها وينتسب إلى أسرتها ويعيش معها وساعد هذا الإنفراج وهذا التّفتح على فسح المجال أمام الشّبان للانضمام إلى الأسر بصفة أسرى وعبيد للإشتغال لحساب أسرة من الأسر لمدّة معلومة مقابل تزويجه بإحدى بناتها في نهاية تلك المدّة

والإنتساب إلى أسرة أصهاره والعيش معها أو بجوارها في إطار أسرة جديدة خاصة به.

وقد رأينا أنّ الإنسان يرمز في الأصل إلى فئة البشر المدّجنين والخدم والعبيد والتّابعين داخل الأسر الإنسانيّة في العهود الأولى من التّاريخ الإنساني.

ففي هذا السياق جمعنا الكثير من الأساطير التي يرويها السكان في تونس والجزائر وبلدان شمال إفريقيا عموما حول أصل بعض القرى القائمة في هذه الأقطار وتحكي هذه الأساطير أنّ الذين قاموا بتأسيس هذه القرى هم أولياء صالحون عاشوا في القرون الأخيرة وكان هؤلاء الأولياء في بداية أمرهم خدما وعبيدا عند بعض الأولياء الصالحين الآخرين فاكتشف أسيادهم من خلال بعض كرماتهم أنّهم أولياء صالحون مثلهم فأعتقوهم وزوّجوهم وأعطوهم قطعة أرض قريبة من المكان الذي يسكنون فيه فاستقرّ أولئك الخدم المعتقون فيها مع نسائهم وأسّسوا أسرا وأحياء توّسعت وتحولّت إلى القرى المذكورة.

فقصة جنّة الخلد والفردوس تشبه أسطورة أصل القرد وأسطورة أصل القنفد والأساطير المماثلة التي استعرضناها في تحاليلنا المتقدّمة حيث ذكرنا أنّها أخبار تاريخيّة تروي وتنقل الظروف التي أفضت إلى تأسيس بعض الأسر الإنسانيّة القديمة وكانت تعرف أثناء وجودها فوق الأرض باسم أسرة القرد وأسرة القنفد أو القرد والقنفد فقط.

فقصة جنّة الخلد والفردوس هي أيضا خبر تاريخي يروي وينقل الأحداث والوقائع التي أدّت وأفضت إلى تأسيس بعض الأسر الإنسانيّة في القديم وكانت تعرف أثناء وجودها فوق الأرض باسم أسرة الإنسان أو الإنسان وآدم.

وذكرنا أن إسم "قرد" و"قنفد" و"إنسان" و"آدم" هي أسماء متعادلة وتفيد معنى البشر المدجّنين والأليفين والمطيعين والعائشين في إطار الأسرة وفق بعض الأعراف مقارنة بالبشر الآخرين الذين يعيشون خارج إطار الأسرة فكان الإنسان من هذه الزاوية يفيد معنى الأسرة والأهل والآل والأقارب مقارنة بالأجانب وكل الخارجين عن دائرة الأسرة فإنّهم كانوا يعتبرون غرباء وليسوا من عداد الإنسان بالنسبة لتلك الأسرة.

أخبار الجن والجان وطبيعتهم الحقيقية :

وروت بعض الشّعوب الإنسانيّة أسطورة جنّة الخلد والفردوس والحيّة والإنسان الأوّل على نحو آخر أكثر تفصيلا وفيه أخبار حول بعض الكائنات الغيبيّة كانوا طرفا في الأحداث التي حصلت داخل الجنّة في بداية الدنيا ويدعى هؤلاء الكائنات الغيبيّة باسم الجان والجن والملائكة والشياطين والمردّة والعفاريت.

فقد نقلت الأساطير والأخبار الشبيهة التي روتها هذه الشعوب ومن بينهم عرب الجزيرة في القديم أنّ الذي أغوى الإنسان الأوّل وزوجته وشجعهما على الأكل من ثمار الشجرة المحرّمة داخل الجنّة هو كائن غيبيّ إسمه "شيطان" و"إبليس" وأنّه ينتمي إلى صنف من الكائنات اسمهم الجن والجان والملائكة.

وكان عرب الجزيرة في القديم قبل ظهور الدين الإسلامي منذ حوالي 1500 عاما يقولون بوجود نسب بين هؤلاء الجن والملائكة والله حسبما كانوا يتصوّرونه كما أنّهم كانوا يقولون إنّ الملائكة هم بنات الله وأنّ أمّهاتهم من سرايا الجنّ.

وتروي هذه الأساطير والأخبار الشبيهة حسبما روته الكتب الدينيّة ودوّنتها كتب التراث العربي أنّ الله خلق السماوات والأرض وكانت السماء والأرض متّصلتين كالرّتق ففصلهما الله واختصّ الله وملائكته بالسماء وكان عرشه قبل ذلك على الماء وخصّ الجنّ بالأرض وأسكنهم فيها لكنّ أقوام الجنّ بغوا في الأرض وسفكوا الدّماء وأكثروا الفساد فبعث الله لهم قبيلا من الملائكة لمعاقبتهم ومحاربتهم فأجلوهم عن الأرض وهرب الجن إلى كهوف الجبال وجزائر البحار ووجد الملائكة واحدا من صغار الجن فأخذوه معهم إلى السماء وتربى معهم وهو الذي أصبح يعرف بعد ذلك باسم إبليس وشيطان وبقي هذا الجنيّ في السماء مع الملائكة كواحد منهم مدّة من الزمن واجتهد في عبادة الله حتى صار من المقرّبين إلى الله.

ثمّ إنّ الله فكّر في تعمير الأرض بعد إجلاء الجن عنها فخلق الإنسان وزوجته وكان اسم الإنسان آدم وزوجته حوّاء وجعلهما في جنّة الخلد والفردوس وتصفها الكتب بأنّها جنّات عدن تجري من تحتها الأنهار ونصب الله في هذه الجنّة شجرة الحياة وشجرة علم الخير والشّر وبوّأ الله للإنسان الأوّل وزوجته, آدم وحوّاء الجنّة يأكلان من ثمارها وأمرهما بالإمتناع عن الأكل من ثمار شجرة الحياة وشجرة علم الخير والشرّ وصارت للإنسان حظوة كبيرة لدى الله بعد أن أمر الملائكة بالسجود له لمّا خلقه من طين الأرض ثمّ نفخ فيه من روحه فصار إنسانا فسجد الملائكة للإنسان لكنّ الجنيّ الذي عرف بعد ذلك باسم إبليس وشيطان أبى واستكبر وامتنع من السجود لآدم فغضب الله عليه لأنّه عصى أمره وأطرده من الحضرة الإلهيّة فاستاء الجنيّ إبليس لما حصل له واعتبره من جرّاء الإنسان وبسببه فأضمر للإنسان الشّر والكراهيّة ونقم عليه وحسده على مكانته

المفضّلة عند الله ودفعته الغيرة إلى السّعي للإضرار به فاستعان بالحيّة ودخل الجنّة وتقدّم من زوجة آدم التي إسمها حوّاء وقال لها إنّ الله منع عليها وعلى زوجها الأكل من ثمار الشجرة المحرّمة حتّى لا يصبحا من الخالدين فانطلت الحيلة على حوّاء فأكلت من ثمارها وناولت زوجها فأكل هو الآخر ولمّا علم الله بأمرهما طردهما أيضا من الجنّة وأنزلهما الأرض فسكنا فيها وأقبلا على تعميرها.

فنحن نعتبر أنّ الجن والجان والملائكة يرمزون إلى الأسر الإنسانيّة والأقوام البشريّة الذين عمّروا الأرض في العهود الأولى من التاريخ الإنساني وقد ذكرنا أنّ الآلهة يرمزون إلى آباء وأجداد هذه الأسر والجماعات الإنسانيّة التي عمّرت الأرض في بداية التاريخ الإنساني بحيث أنّ الآلهة والملائكة والجن والشياطين يمثلون الطبقات الأولى من البشر الذين عمّروا الأرض في العهود الأولى من التاريخ الإنساني.

فلفظة "جن" هي لغويّا مذكّر لفظة "جنّة" وسبق أن أوضحنا أنّ لفظة "جنّة" تفيد معنى الأسرة والمرأة في العديد من اللغات الإنسانيّة كما أنّ إسم "جن" يفيد معنى الناس عموما في سياق اللغة الفرنسيّة وكذلك معنى الشباب والأولاد والأبناء في سياق اللغة الفرنسيّة أيضا.

كما تستعمل كلمة "جن" في معنى الأبناء والأولاد في العربيّة حيث أنّ كلمة "جنين" التي هي تصغير كلمة "جن" تفيد معنى الولد الصغير الذي مازال في بطن أمّه في سياق اللغة العربيّة وعلى هذا الأساس فإنّ لفظة "جن" تفيد بالأساس الأولاد والأبناء والشباب وأفراد العائلة والأسرة على غرار لفظة "جنة"

التي مازالت تستعمل إلى اليوم في معنى المرأة والأسرة في العديد من اللغات الإنسانيّة.

وتقول الأخبار المنقولة أنّ الجنّ يشتملون على عدّة أصناف منهم صنف يسمّى باسم "البنّ" وآخر يسمّى باسم "الحِنّ" وتستعمل كلمة "بن" في معنى الأبناء في سياق اللغة العربيّة في هذه الصيغة وفي صيغة أبناء وبنين وحيث أنّ لفظة جنين وبنين ينتميان إلى صيغة فعليّة واحدة فإنّ كلمة "جنين" كانت تفيد في الأصل الأولاد والأبناء عموما ثمّ خصّ بها الولد الصغير الذي مازال في بطن أمّه.

وتستعمل كلمة "حنة" بالحاء في العربيّة في معنى الزّوجة والقريبة والعزيزة في اللغة العربيّة بحيث أنّ لفظة "جنّة" بالجيم ولفظة "حنة" بالحاء متعادلتان.

وقد رأينا أنّ القبائل الإفريقيّة المعروفة باسم الدّكن يقولون بأنّ أوّل من عمّر الأرض هم كائنات يحملون إسم "بن" و"بني" وأنّهم كانوا يسكنون في قرى شبيهة بقرى البشر ومختفيّة عن الأنظار ويتجلون في شكل حيّات وأحناش.

وأشرنا إلى أنّ السّكان في تونس والبلدان المغاربيّة يعتقدون في كائنات تسمّى باسم عمّار الديار والبيوت والمنازل والغابات ويقولون إنّهم يتجلون في شكل أحناش وحيّات جميلة المنظر.

فقد وجدنا أنّ هذه الحيات والأحناش تسمّى باسم جان في سياق اللغة العربيّة بحيث أن إسم "جان" و"حي" و"حيّة" و"حنش" هي أسماء متعادلة في حين

يرمز الجنّ والحيّات والأحناش في هذه الإعتقادات إلى الناس الأوائل والطّبقات الأولى من البشر الذين عمّروا مختلف الأماكن المسكونة في الأرض.

ويشتمل أقوام الجنّ حسب الأساطير والمعتقدات السارية على صنف يدعى باسم "عفريت" و"عفاريت" وينطقه السّكان في تونس أيضا في صيغة "عفرّت" و"عفارت" وقد وجدنا أنّ إسم "عفريت" يفيد معنى الأسرة والأبناء والأولاد في بعض اللهجات البربريّة في صيغة "أباراد" للأولاد الذكور ويؤنث هذا الإسم في صيغة "تبارات" للبنات.

فالصّوت "عا" كثيرا ما يسقط في اللغات الإنسانيّة كما هي الحال في جلّ اللغات الأوروبيّة وتبعا لذلك فإنّ إسم "عفريت" يمكن أن يتّخذ صيغة "إفريت" و"أفارت" وبالإستناد إلى تعادل الأصوات يتّخذ إسم أفريت" و"أفارات" صيغة "أبريد" و"أباراد".

كما أنّ إسم "شيطان" الذي ينطق عند بعض المجتمعات الأوروبيّة في صيغة "ساتان" يتركب من الإسم "أست" الذي يفيد معنى الإبن والبنت والمرأة والرّجل في صيغة "أست" و"أس" وتخفّف في صيغة "ست" وهو مأخوذ من الصوت "أس" و"أست" و"أش" و"أشت" الذي حلّلنا أصله ومعانيه الحقيقيّة في تحاليلنا المتقدّمة.

ويستعمل إسم "ست" في معنى المرأة في المجتمعات العربيّة في حين يستعمل إسم "أسطة" في معنى الرجل والسيد كما هي الحال في تونس وعند الإتراك وهو مأخوذ من لفظة "أست" ويستعمل السّكان في تونس إسم "سي" في

معنى السيد وهو إسم مأخوذ من الصوت "أس" وكثيرا ما يعبّر عن الجن باسم الأسياد والصّالحين في البلدان العربيّة كمصر وتونس.

ومن هذا المنطلق فإنّ إسم "شيطان" و"حيّة" متعادلان معنويا حيث أنّ إسم "حيّة" يفيد هو الآخر معنى المرأة والرجل والأسرة كما ذكرنا.

وفي هذا السياق نعتبر أنّ لفظة "فردوس" التي توصف بها جنّة الخلد هي صيغة لفظيّة لكلمة "أبراد" التي تعني الأولاد والبنات والأسرة والعائلة بحيث أنّ كلمة "جنة" وكلمة "فردوس" متعادلتان معنويا وتنطق كلمة "فردوس" في صيغة "برادايس" في بعض اللغات الأوروبيّة وتطلق على الجنة.

وقد اعتقد اليونانيون القدماء في ربّة حسناء كانوا يسمّونها باسم "أفروديت" ويقولون عنها إنها ربّة الحسن والجمال.

فنحن نعتبر أنّ إسم "افروديت" هو صيغة لفظيّة لاسم "فردوس" ولاسم "أبارد" و"تبارات" في حين أنّ هذه الرّبة ترمز إلى فئة البنات والحسان في الأسر الإنسانيّة التي عمّرت الأرض في العهود الأولى من التاريخ الإنساني.

كما أنّ كلمة "ملائكة" "كانت تطلق في الأصل على المرأة المتزوجة التّابعة لأحد الأزواج فهي إسم جمع ومفرده "ملاك" ومازال السّكان في تونس إلى اليوم يطلقون إسم إملاك على عقد الزواج كما أنّ الملائكة يسمّون باسم "أنج" في سياق اللغة الفرنسيّة ويعتبر إسم "أنج" صيغة لفظيّة لاسم "إنس" و"نساء" بحيث أنّ الملائكة يرمزون إلى النّساء التّابعات لأحد الأزواج ثمّ عنّي إسم ملائكة الأسرة والعائلة والأولاد والأهل والأقارب بصفة عامّة.

وكذلك الشأن بالنسبة لاسم إله وآلهة فإنّه مأخوذ من الصوت "أل" الذي يفيد معنى الأهل والأسرة والعائلة والأقارب في سياق اللغة العربيّة والأصل فيه هو الصوت "أل" و"إلت" الذي يطلقه الإنسان بصورة غريزيّة عند الإنفعال والغضب للزّجر والنّهر والتخويف والتّحذير والتّنبيه فأطلق على الأسرة والعائلة والأهل باعتبار أنّ الأسرة تستأهل وتستحق زجر ونهر وتخويف من يحاول الإعتداء عليها لحمايتها من الأعداء والإنتهازيّين كما أطلقت على القائمين بعمليّات الزجر داخل الأسر الإنسانيّة وهم الآباء ورؤساء الأسر وأسيادها الذين يرمز إليهم الآلهة فكان الأباء والرّؤساء والأسياد يسمّون باسم "إل" و"إلت" و"إله" إلى جانب إسم "أب" و"إر" و"ربّ" و"سي" وما شابهها من الأسماء.

وفي هذا السياق فإنّ السّماء والأرض والجنّة التي تتحدّث عنها قصة جنة الخلد والفردوس والأساطير عموما ترمز في حقيقة الحال إلى بعض الأسر والأحياء البشريّة التي كانت قائمة في قديم الزمان وكانت تحمل إسم "سماء" و"أرض" و"جنة" باعتبار أنّ هذه الأسماء تفيد في الأصل معنى المرأة والأسرة والاولاد والحي من الأحياء البشريّة.

ومن هذا المنطلق فإنّ التقسيم الأسطوري للعالم والكون إلى سماء وأرض وجنة يرمز في حقيقة الحال إلى تقسيم أحد المواضع من الأرض في القديم بين مجموعة من الأسر كانت تعيش متجاورة في ذلك الموضع بحيث أنّ السّماء والأرض والجنة ترمز إلى تلك الأسرة وإلى الأحياء التي كانت تسكنها.

فقد رأينا أنّ إسم "جن" و"جنة" يفيد في الأصل معنى المرأة المتزوجة والأسرة والأولاد والحي من الأحياء البشريّة.

كما أنّ إسم "أرض" مازال يطلق إلى اليوم في صيغة "أرد" عند جماعات التّتر والمغول في أسيا على الحيّ والتجمع البشري المتكوّن من عدّة خيام.

وتسمّى الأرض في اللغة الفرنسيّة باسم "تر" الذي يعتبر صيغة لفظيّة لاسم "ذر" نظرا لتعادل الصوت "تا" و"دا" و"ذا" وتستعمل كلمة "ذر" في العربيّة في معنى الأولاد والأبناء وتتّخذ صيغة "ذريّة و"ذراري" و"ذرّي" كما تستعمل كلمة "ثرى" في العربيّة في معنى الأرض وتعتبر كلمة "ثرى" صيغة لفظيّة لكلمة "ذرّي" وتعتبر كلمة "دار" أيضا صيغة لفظيّة لكلمة "ذر".

كما وجدنا أنّ السماء تسمّى باسم "جنّة" و"أجنّة" و"أكنّة" في سياق اللغة البربريّة وتستعمل كلمة "كنّة" التي هي صيغة لفظيّة لكلمة "جنة" في معنى المرأة المتزوجة في العربيّة وعند المجتمعات العربيّة وتطلق أساسا على زوجة الإبن وعلى هذا الأساس فإنّ لفظة "سماء" تعادل لفظة "جنّة" و"كنّة".

وتعتبر لفظة "سماء" صيغة لفظيّة لكلمة "سمة" التي تطلق في سياق اللغة العربيّة على الرّسوم المحدثة بواسطة الوشم والوسم والأشر والأختام المجعولة للغرض على بدن الشخص دلالة على التملك وعلى أنّ ذلك الشخص هو ملك وتابع لصاحب الخاتم الذي طبع ووسم به بحيث أنّ إسم "سماء" يفيد في الأصل معنى الأسرة والمجموعة من البشر المدّجنين التّابعين لرئيس من الرؤساء ولسيد من الأسياد.

ومازالت بعض المدن والقرى والمواقع في مختلف بلدان العالم تحمل إلى اليوم إسم "جنة" و"جنّات" و"تروى" أو "تروة" حيث ذكرنا أنّ إسم "تروة" هو صيغة لفظيّة لاسم "تر" الذي يطلق على الأرض في سياق اللغة الفرنسيّة والعديد

من اللغات الأوروبيّة الأخرى ويستعمل إسم "تروة" في سياق اللغة البربريّة في معنى الأولاد والذّر.

فهناك مثلا مدينة فرنسيّة تحمل إسم "تروى" كما تحدّثت الأساطير اليونانيّة القديمة عن مدينة تحمل إسم "تروى" قامت في قديم الزمان وكانت مسرحا لحرب طويلة بين سكانها وجيرانها وتعرف في الكتب العربيّة باسم "طروادة" وانتهت تلك الحرب بتدميرها وخرابها وكان يحكى بشأنها أنّها كانت توجد في الجزء الشرقي من بلاد تركيا الآن.

وبالإستناد إلى عادات تأسيس التجمعات والأحياء السكنيّة التي مازالت قائمة إلى اليوم والتي استعرضنا نماذج منها في تحاليلنا المتقدّمة يمكن القول بأن الأسر والأحياء البشريّة التي ترمز إليها السماء والأرض والجنة كانت متجاورة وقائمة في موضع واحد بحكم إنتمائها إلى أصل واحد.

وقد أشارت الكثير من الأساطير والأخبار الموروثة أنّ السّماء والأرض كانتا في الأصل متصلتين ثم إنفصلتا وابتعدتا عن بعضهما ووردت في القرآن آيات صريحة في هذا المعنى تقول بأنّ السماء والأرض كانتا رتقا ففتقهما الله كما أنّ الأساطير اليونانيّة القديمة تقول إنّ أورانوس إله السماء هو ابن جي, ربّة الأرض وأمّ الآلهة لأنّها أنجبتهم من صلبها نتيجة إقترانها بإبنها أورانوس أو السماء وببعض الآلهة الآخرين.

وتذكر الأساطير البابليّة القديمة أنّ السماء والأرض كانتا متحدّتين في صلب الرّبة تيامت, أم الآلهة فقامت حرب بين الآلهة فأمسك الإله مردوخ الربّة

تيامت وخرقها وقطعها نصفين فأخذ نصفا وجعل منه السماء وأخذ النصف الآخر وجعل منه الأرض.

وعلى هذا الأساس يمكن القول بأنّ الأسر والأحياء البشريّة التي ترمز إليها السماء والأرض والجنة كانت من أصل واحد ثمّ تفرّقت واستقلّت كلّ أسرة بأمرها بموضع خاص بها, فكانت بمثابة العشيرة المتركبّة من عدّة أسر أو كما يقال في تونس كانت من قبيل العرش المتركب من عدّة عائلات حيث أنّ العشيرة تسمّى في تونس باسم العرش ويتركب من عدّه أسر وعائلات تنتمي إلى جدّ واحد واصل واحد وكان العرش أو العشيرة يسمى في روما القديمة باسم "جن" و"جنة" و"جنس" مع نطق الصوت "جا" على الطريقة البدويّة والريفيّة.

وقد وردت كلمة "عرش" في الكتب الدينيّة والأخبار المتعلّقة ببداية الدنيا والوجود لوصف ملك الله بحيث أنّ الكتب الدينيّة وهذه الأخبار تقول إنّ الله كان له عرش في بداية الكون والوجود وكان هذا العرش على الماء ثم إنّ الله خلق الخلق والسماوات والأرض ومن فيها.

وفي هذا السياق نعتبر أنّ كلمة "عرش" هي صيغة لفظيّة لكلمة "عرس" وقد أشرنا أنّ كلمة "عرس" تطلق في العربيّة على المرأة المتزوجة وعلى زوجها بحيث أنّ كلمة "عرش" بالشين المعجمة المنقوطة و"عرس" بالسّين المهملة كانت تطلق على المرأة والأسرة والأولاد والحيّ مثل كلمة "جنّة" و"أرض" و"سماء" ثم أطلقت على العرش في معنى سرير الملك حيث أنّ الأسرة كانت تعتبر مملكة ومازال العريس والعروس يحملان إلى اليوم إسم "سلطان" و"سلطانه" طيلة أيّام العرس ثم إنّ كلمة "عرش" إمتدّ معناها إلى الممالك الكبيرة من باب إطلاق الإسم الواحد على الأشياء الواحدة والمتشابهة.

وفي هذا السياق أيضا كان النّاس في بعض المناطق من بلدان شمال إفريقيا يقولون بأنّ السماء كانت في الأصل قريبة من الأرض حتى أنّ المرأة كانت تمدّ يدها وتأخذ قطعة من السحاب لتمسح به يدها أو تلفّ بها شيئا من الأشياء.

ورأينا أنّ بعض قبائل الهنود الحمر بأمريكا الجنوبيّة كانوا يعتقدون أنّ السّماء والأرض كانتا متّصلتين بواسطة شجرة او شيء من هذا القبيل بحيث كان بوسع الساكنين في السّماء النزول من الأرض بواسطة تلك الشجرة كما كان سكان الأرض يصعدون بواسطتها إلى السماء للصيد.

ويقولون إنّ الأرض كانت في الأصل في مكان السماء لكنّ السماء ضاقت ذرعا بالخرا والبراز والفضلات التي كان يلقيها سكان الأرض عليها فغيّرت مكانها وأصبحت فوق الأرض.

ويروون أنّ أحد الشيوخ غضب ذات يوم لأنّ حّصته من الصيد لم تعجبه فأحرق الشجرة التي تصل السماء بالأرض فانفصلت السماء عن الأرض.

ويروي السكان في بعض مناطق بلدان شمال إفريقيا أنّ السبب في ابتعاد السماء عن الأرض وتغيّر الأحوال والأوضاع التي كانت سائدة في بداية الدنيا والوجود كقدرة الحيوانات على النطق والكلام هو همجيّة البشر وإقبالهم على إلقاء برازهم وفضلاتهم كيفما اتّفق.

فقد كان هؤلاء السّكان يحكون أنّ الأشياء كانت تتكلّم في بداية الدنيا وتتحرّك من تلقاء نفسها كما أنّ الحيوانات كانت أيضا تتكلّم وكانت السماء قريبة من الأرض فكان الواحد من الناس مثلا يحتطب ما يشاء من الحطب من الغابة

ثم يحزمه في حزمة ويركب على تلك الحزمة فتتحرّك من تلقاء نفسها وتوصله إلى منزله في أحسن الظروف فاحتطبت إحدى النساء ذات يوم نصيبا من الحطب وجعلته في حزمة وركبت عليها فتحرّكت الحزمة وفي الطريق ألقت المرأة برازها وخراها على حزمة الحطب أو شلّت عليها كما يقول الناس في تونس فتغيّرت الأوضاع رأسا على عقب وتعطّلت الأشياء عن الحركة كما تعطلت الحيوانات عن الكلام وابتعدت السماء عن الأرض وبعض الحكايات تقول إنّ المرأة فست وضرطت وأحدثت وألقت فضلاتها فوق حزمة الحطب فكلّمتها حزمة الحطب وهدّدتها بأنّها ستفشي سرّها إلى أهلها إن لم تحملها بدورها فنزلت المرأة من فوق حزمة الحطب وحملتها على رأسها وعادت بها إلى المنزل بحيث أصبحت المرأة هي التي تحمل حزمة الحطب بعد أن كانت حزمة الحطب هي التي تحملها.

ويتداول بعض الجماعات الإفريقيّة ببلدان إفريقيا الغربيّة جنوب الصحراء الكبرى حكايات شبيهة مضمونها أنّ جفافا خطيرا حصل في بداية الدّنيا وتبعته مجاعة رهيبة وكانت الحيوانات تتكلّم وتعيش مع الإنسان في قرية واحدة وفكّر الجميع في أسباب هذه المجاعة فأشاع الإنسان بأنّ القرد هو المتّسبب في تلك المجاعة لأنّه يدّعى بأنّه ملك الملوك ويقول إنّ الملوك تجلس على كراسي مصنوعة من خشب الأشجار التي أصعد فوقها وأخرأ وأشّل عليها غير أنّ القرد قال إنّه يصعد فوق الأشجار ليصلّي للرّب حتى يبعد الجفاف فصدّقته الحيوانات ولم تقبل إتهامات الإنسان له.

وكان يوجد ضمن الحيوانات السيّد عنكبوت واسمه كاكو أنتزي في لغة الجماعات الإفريقيّة المذكورة فلحقه أذى شديد بسبب المجاعة فاصطاد ذات يوم

في نهر من الأنهار سمكة صغيرة جدّا فكلّمته السمكة وقالت له إنّ أكلها لا يسمن ولا يغني من جوع ونصحته بأن يصعد فوق شجرة وصفتها له ويترك نفسه يسقط على الأرض ففعل فوجد نفسه في الجنّة فأكل ما لذّ وطاب له من الطعام حتّى شبع فأمسك به أهل المدينة وكانت تحكمها إمرأة فحمله السكان إلى الملكة فرحّبت به وسمحت له أن يعيش في جنّتها ويتّمتع بخيراتها بدون استثناء وأعطته الحرّية ليصنع ما يشاء غير أنّها طلبت منه أن يمتنع عن النّظر في مرآتها السحريّة الموجودة في قصرها وعاش كاكو أننزي فترة في تلك الجنّة يرفل في النّعيم والخيرات غير أنّه لم يمسك نفسه ونظر ذات يوم في مرآة الملكة فغابت تلك الجنّة عن الأنظار ووجد كاكو أننزي نفسه ملقى على ضفّة النهر الذي اصطاد منه السمكة الصغيرة كما كان أوّل مرّة في حالة يرثى لها من الجوع والعراء.

ووردت في التراث المكتوب لسكان العراق في القديم عدد من النصوص التي تتحدّث عن جنّة إلهيّة موجودة ببلد عجيب إسمه بلد دلمون يقع تحت مجمع البحرين وتصوّر العلماء الذين درسوا هذه النصوص أن بلد دلمون يرمز إلى دولة البحرين حاليا بالجزيرة العربيّة أو البعض من أجزائها الأخرى المناسبة للوصف حيث أنّ التوراة تذكر في سفر التكوين أن الجنّة التي عاش فيها الإنسان الأول كانت توجد في عدن بجنوب الجزيرة العربية.

ويروي أحد هذه النصوص أن الإله أنكي واسمه أيضا أيا كان يعيش مع زوجته التي كانت أيضا أخته في جنة تقع تحت مجمع البحرين وكانت زوجته تسمّى ناناتي بمعنى السيدة حيّة فغضب أنكي على البشر وقرّر إبادتهم فأرسل عليهم الطوفان فهلك جميع الناس ما عدا شخص واحد إسمه طقطوق فتبنّاه أنكي

وكلفه بحراسة جنّته وسمح له بالأكل من جميع الأشجار ما عدا شجرة واحدة منعه من الأكل من ثمارها فأكل طقطوق من ثمار الشجرة المحرّمة فعاقبه أنكي فقصّر في عمره وسلّط عليه المرض فأعانه بعض الآلهة الآخرين على الشّفاء.

وتقول رواية أخرى إنّ أنكي كانت له جنّة ببلد دلمون وكان يعيش فيها مع زوجته التي كانت أيضا أخته وكان إسمها ناناتي ومعناها في اللغة السومريّة السيدة حيّة فضاجعها فولدت له ولدا ثم ضاجعها مرّتين فوق مركب فولدت له ولدين أحدهما طقطوق فاستعبده أنكي وجعل منه خادمه وبعثه إلى الرّبة ناناتي لتأتيه حتى يضاجعها فرفضت ناناتي وتحالفت مع إبنها وخادم زوجها طقطوق وتزوجته وخاصمت زوجها الأوّل إنكي وأنجبت من طقطوق ثمانيّة أولاد منهم ولد أصبح ملك دلمون.

كما قام عالم مختص في الحضارة السّومرية إسمه صوموئيل نوح كرايمر بدراسة هذه النّصوص وترجمتها إلى الإنقليزيّة ومقارنتها بما جاء في التوراة بخصوص الجنّة والطوفان.

ويبدأ النّص الذي قام بدراسته هذا العالم بوصف جنّة دلمون مشيرا إلى أن بلد دلمون كانت أرضا جرداء وخاليّة من كلّ شيء فلم يكن فيها غراب ينعق ولا أسد يزأر ولا ذئب يعوي كما لم يكن فيها مرض ولا موت فجاء الإله أنكي ففجّر فيها الماء وسقى أرضها وروى ظمأها فتحوّلت دلمون إلى جنّة خضراء وحدائق فيحاء فغرست فيها الرّبة نينهرساق ثمانية شجرات بعد أن أنجبت عددا كبيرا من الحوريات أسكنتهن فيها فرأى الإله أنكي من بينهن الحورية نينامو وهي تتجوّل في المروج فاشتهاها وواقعها فولدت منه الرّبة نينكورا.

ثم إنّ أنكي أراد أن يعرف سرّ الأشجار التي غرستها الرّبة نينهرساق في جنّة دلمون ونكهة ثمارها فاستعان بخادم له إسمه إيزمود لمعرفة أسرار تلك الأشجار والأكل من ثمارها فلمّا ذاقها غضبت نينهرساق ودعت على أنكي فمرض ولزم الفراش وحار الآلهة في دوائه وتمكنوا بواسطة السيّد ثعلب من إرضاء الرّبة نينهرساق التي قبلت أن تعالج أنكي فجسّت أعضاءه عضوا عضوا وسخّرت لكل عضو ربّة من الرّبات لمعالجته فكانت في كلّ مرّة تقول له أي عضو يؤلمك يا عزيزي فيذكره لها فتأتي بربّة من الرّبات وتسخّرها لمعالجته حتّى وصلت إلى الضّلوع فقالت له أي عضو يؤلمك يا عزيزي فقال لها ضلوعي فأتت بالرّبة ناناتي وسخّرتها لمعالجة الضلوع ويعني إسم ناناتي في اللغة السومريّة السيدة حيّة ويتركب من إسم "نانا" ويعني "سيدة" كما هي الحال إلى اليوم في الكثير من البلدان العربيّة واسم "تي" ويعني "حياة" غير أنّ كلمة "تي" تعني أيضا الضلع في سياق اللغة السومرية, فقيل إنّ حيّة أو حوّاء خرجت من ضلع آدم.

وقد رأينا في خرافة "علي بوليلة" التي يتداولها السّكان في تونس مشهدا شبيها بمشهد تمريض الإله أنكى حيث أنّ الحدّاد الذي قتل الغولة في خرافة علي بوليلة كان في كل مرّة ينادي أين أنت يا علي بوليلة فتجيبه القملة إني هنا وتذكر له عضوا من أعضاء جسد الغولة فيقطعه حتى قالت في آخر الأمر إنّي هنا في الرأس فقطع الرأس فماتت الغولة.

وقد أشارت الأساطير القديمة إلى حصول نزاعات وصراعات دامية بين الجنّ من جهة والآلهة والملائكة من جهة أخرى.

ففي هذا السياق رأينا في قصة جنة الخلد والفردوس أنّ أقوام الجنّ والبن الذين كانوا أوّل من سكن الأرض بغوا في الأرض وأكثروا فيها الفساد فأرسل الله لهم قبيلا من الملائكة فقاتلوهم وأجلوهم من مواقعهم وفرّ الجن وتحّصنوا بقمم الجبال وجزائر البحار وظلّوا يعيشون فيها ثمّ أطرد الإنسان من الجنّة فجاء إلى الأرض وأعاد تعميرها.

كما أنّ الأساطير اليونانيّة القديمة تحدّثت عن حصول حروب داميّة بين الآلهة بقيادة عظيمهم الإله زوس من جهة والجن بقيادة زعيمهم طوفان الجبّار وكان اليونانيّون يطلقون حرفيّا إسم "جن" و"جيان" على هؤلاء الأقوام الذين حاربوا الآلهة وذكرت هذه الأساطير أنّ أقوام الجن بقيادة زعيمهم طوفان هزموا الآلهة وأجبروهم على الفرار إلى الصحراء وجنوب البلاد المصريّة حيث تنكروا في جلود الحيوانات وأخذوا هيأتها للخلاص من الجن وزعيمهم طوفان ثم إنّ الآلهة استجمعوا قواهم وشنّوا هجوما معاكسا على الجن فغلبوهم واستتّب لهم الأمر.

ورأينا في هذا السياق أنّ الأساطير البابليّة القديمة تحدّثت أيضا عن صراعات وحروب حصلت في بداية الدنيا بين الآلهة الكبار والآلهة الصغار حيث أنّ الآلهة الكبار كانوا يستعبدون الآلهة الصغار ويستعملونهم لخدمتهم فثار الآلهة الصغار على الآلهة الكبار وأعلنوا العصيان وهشّموا فؤوسهم ومعاولهم وكادت تقع حرب داميّة بين الطرفين ثم إنّ الآلهة الكبار والصغار فكّروا في الوضع وقرّروا خلق الإنسان لخدمتهم.

فنحن نعتبر أنّ هذه الصراعات والنّزاعات والحروب التي تذكر الأساطير أنّها وقعت في القديم بين الآلهة والجن ترمز إلى صراعات ونزعات

وحروب حقيقيّة شهدتها الأسر والأحياء البشريّة في العهود الأولى من التاريخ الإنساني وكان أطرافها في أغلب الحالات الفئات التي كانت تتركب منها تلك الأسر فكانت نزاعات ذات صبغة اجتماعيّة بين الفئات والطوائف والطبقات وأساسا بين الكبار والصغار حيث أنّ العرب كانوا في القديم يعتقدون أنّ الملائكة هم بنات الله وأنّهم من الجن وكانوا يعتقدون في وجود نسب بين الله والجن كما أنّ الأساطير اليونانيّة تقول إنّ الآلهة والجن هم من أصل واحد من حيث الأم بالخصوص.

ويمكن أن نفهم من هذه الإعتقادات أنّ الجنّ الذين تنازعوا مع الآلهة هم الآلهة الصغار الذين تحدّثت عنهم الأساطير البابليّة ورأينا أنّ الآلهة الصغار هم أبناء وأحفاد الآلهة الكبار.

وعلى هذا الأساس يمكن القول بأنّ الجّن كانوا يرمزون في الأصل إلى الأولاد والأبناء وإلى الأصهار أيضا حيث أنّ الأصهار يعتبرون أيضا من الأهل والأبناء مثلما يتجلّى ذلك في إطلاق إسم "كنّة" على زوجة الإبن في المجتمعات العربيّة ويعتبر إسم "كنّة" صيغة لفظيّة لاسم "جنّة" ويمثّل من الناحية اللغويّة مؤنث "كن" أو "جن" بحيث أنّ الإبن كان يسمّى باسم "جن" و"كن" بينما كانت زوجته تسمّى باسم "كنّة" و"جنّة" كما أنّ الإبنة كانت تسمّى باسم "كنة" و"جنة" بينما كان زوجها يسمّى باسم "جن" و"كن".

فكان الجن في الأصل يرمزون إلى فئة الأبناء والأولاد والأصهار والشبّان عموما ثمّ إنّ إسم "جنّة" أطلق على الأسرة والأهل بصفة عامة بحيث يمكن القول بأنّ الصّراعات والنّزاعات التي حصلت بين الآلهة والجن حسب الأساطير القديمة ترمز إلى صراعات ونزاعات حقيقيّة حصلت بين أسر وأقوام

من البشر عاشوا في قديم الزمان في بعض بقاع الأرض وكانت تجمع بينهم بعض أواصر القربى الدّمويّة والإجتماعيّة والترابيّة بحكم النسل والمصاهرة والجوار.

ففي هذا السياق لاحظنا أنّ إسم "جن" و"بن" و"حن" وأغلب الأسماء الأخرى التي تطلق على المرأة والأسرة والأهل والأولاد هي في الأصل ألفاظ تستعمل للزجر والنهر والتخويف والتحذير ثمّ أطلقت على المرأة والأسرة والأهل والأولاد لأنّ المرأة والأسرة والأهل والأولاد كانوا يعتبرون تابعين للزوج والأب ورئيس الأسرة فاكتسبوا تبعا لذلك حرمة وهيبة استمدّوها من حرمة وهيبة الزّوج والأب باعتبارهم تابعين له وملكا خاصا له من حقّه أن يدافع عليه كدفاعه عن نفسه وشرابه وطعامه وكان الدفاع يتمّ في مرحلة أولى بواسطة إطلاق الأصوات التي يستعملها الإنسان بصورة غريزيّة للزّجر والنّهر والتخويف والتّحذير لإبعاد المعتدين وطردهم ثم يتبعه البطش باليدين وبكلّ الوسائل المتاحة إذا تمادى المعتدون في غيّهم فأطلقت هذه الأصوات الزجريّة بمفردها ومجتمعة على المرأة والأسرة والأهل والأولاد.

وذكرنا أنّ هذه الأصوات التي يستعملها الإنسان للزّجر والنّهر والتّخويف والطّرد والإبعاد هي الصّوت "إس" و"إست" و"إش" و"أشت" و"أخ" و"أح" و"إر" و"أغ" و"أع" و"أب" و"أم" و"أن" و"إل" و"ألت".

وقد وجدنا أنّ الصوت "جا" يستعمل أيضا للزّجر والتّنبيه في صيغة "جه" ويستعمل أساسا لزجر السّباع وهو صيغة شبه مخفّفة للصّوت "أس" حيث أنّ الصوت "أس" و"إس" يمكن أن يتّخذ صيغة "إز" و"إج" أو "زه" وجه" ومازال النّاس في تونس يستعملون الصوت "زع" لزجر الجمال.

فأطلقت هذه الأصوات بمفردها أو مجتمعة على القائمين بالزّجر والنّهر والتخويف والطرد والإبعاد داخل الجماعات البشريّة وهم الأباء والأجداد والعظماء والكبار عموما كما أطلقت هذه الأسماء بعينها على المرأة والأسرة والأهل والأولاد لأنّهم كانوا يبعثون أحيانا على إطلاق الأصوات المستعملة للزّجر والرّدع سواء لزجر وردع المعتدين عليهم أو كذلك لزجر وردع الأفراد الذين تتكوّن منهم الأسر عندما يتصرّفون بطريقة يراها رئيس الأسرة وعظيم القوم من باب العصيان ومخالفة لمشيئته ونظرته للأمور.

فاسم "جن" يتركب من الصوت "جه" والصّوت "إن" في حين يتركب إسم "بن" من الصوت "أب" والصوت "إن" ويتركب اسم "حن" من الصوت "أح" والصوت "إن".

وأشرنا إلى أنّ إسم "نساء" و"إنسان" الذي يفيد معنى الأسرة والأهل والآل يتركب من لفظة "نش" التي تستعمل في تونس لزجر الغنم وتفيد معنى الزّجر بصفة عامة ورأينا أنّ إسم "حيّ" و"حيّة" مشتق من الصوت "أح" في حين أن إسم "مرء" و"أمرئ" و"إمرأة" يتركب من الصوت "أم" والصوت "إر" كما أنّ إسم "ولد" مشتّق من الصوت "إلت" في حين أنّ إسم "أخ" و"أخت" يتركب من الصوت "أخ" ويضاف إلى الصوت "أخ" أيضا الصوت "إن" أحيانا بحيث أنّ الأخ والإبن والولد والمرأة والحي والأسرة والأهل والآل يسمّون أيضا باسم "خن" و"خان" مع العلم وأنّ لفظة "أخ" تفيد الأخ في العربيّة كما تفيد معنى السيد في بعض اللغات القديمة القريبة من العربيّة وكذلك في اللغة التركيّة في صيغة "آغا" بالنظرا لتعادل الصوت "أخ" و"أغ".

فقد شنّ الآلهة وأنصارهم الحرب على بعض أقوام الجن والجان لأنّهم كانوا قوما عصاة وخالفوا النّظام والقانون في نظر الآلهة فلأجل ذلك أطلق إسم "جن" على العصا التي يضرب بها السادة والرؤساء العصاة والمخالفين للقانون في صيغة "قنا" وينطقها سكان بعض البلدان العربيّة كالعراق في صيغة "جنا" كما ظلّ النّاس يعتقدون أن أقوام الجن صنفان قوم صالحون وقوم عصاة.

وفي حقيقة الحال فإنّ هذه النظرة إلى الجن هي إمتداد لنظرة الأقوام الذين تبنّوا لسبب من الأسباب موقف الآلهة وأنصارهم لغرض من الأغراض العديدة التي يتبنّى الناس من أجلها قضيّة من القضايا.

فقد وجدت في القديم شعوب وأقوام كانوا يتبنّون موقف الجن على غرار بعض القبائل العربيّة القديمة في الجزيرة العربيّة, ففي هذا السياق كان بنو عمر بن يربوع الذين أشرنا إليهم في تحاليلنا المتقدّمة يقولون إنّ الجنّ أذكى من الإنسان وكانوا يسمّون بني السعلاة بمعنى الغول لأنّه كان يروى أنّ أباهم عمر بن يربوع تزوّج من سعلاة وأنجبهم منها والسّعالي والغيلان هم قوم من الجن وقيل عنهم إنهم سحرة الجن كما كان في اليونانيين القدماء أقوام يفضّلون الجنّ على الإنس ويروون الأساطير التي تشيّد بهم وبالهزيمة النكراء التي ألحقوها بالآلهة مثلما ذكره الشاعر اللاتيني أوفيدوس في كتابه المعروف باسم "المسخ" أو "المسوخ" الذي جمع فيه الأساطير اليونانيّة واللاتينيّة القديمة وعاش هذا الشاعر في بداية القرن الأوّل للميلاد.

ومثلما أشارت إليه الأساطير المذكورة كانت أسباب هذه النزاعات والحروب بين الآلهة والجن الإستغلال والإستعباد واحتكار السلطة والمنافع والتّنافس عليها بدافع الأنانيّة وحبّ الذّات حيث أشرنا إلى أنّ الأب استطاع أن

يرتقي إلى مرتبة السيد للأسرة التي ينجح في تأسيسها والحاكم المطلق في رقاب أفرادها حتى أنّ الأب مازال إلى اليوم يسمّي باسم "سيد" في الجنوب التونسي، وفي حقيقة الحال فإنّ الكبار يعتبرون أسيادا في الجنوب التونسي ويسمّون باسم "أسياد" بحيث أنّ الأخ الأكبر يعتبر سيّدا في الجنوب التونسي بالنسبة لأخيه الأصغر الذي يسميه باسم "سيد" ويناديه "يا سيدي" عند مخاطبته.

فكان كبار الأسرة والعشيرة أسياد الصغار بصفة عامة وأسياد نسائهم التّابعات لهم في إطار أسرهم الخاصة بهم.

ففي هذا السياق مازال الواحد من الشبّان والذّكور البالغين إلى اليوم في المجتمعات التقليديّة يلقى الكثير من الصعوبات للحصول على زوجة وقرينة يبني بها ويتزوّجها ويؤسس بمعيّتها أسرة خاصة به بسبب الشّروط التي يضعها الآباء والعائلات أمام الشبان والخاطبين لإعطائهم بناتهم والمتمثّلة أساسا في نظام المهر والصّداق وغلائه ومطالبة الشباب بتوفير الجهاز الخاص بالعروسة كالحليّ الذهبيّة وغيرها.

فعلى غرار ما هو قائم إلى اليوم في العديد من المجتمعات الإنسانيّة كانت الأخوات والعمّات والخالات والأمهات وأحيانا نساء وبنات العشيرة كلّهن محرّمات بحيث كان الشاب مضطّرا إلى البحث عن القرينة المناسبة عند الأسر الأجنبيّة مع ما يستدعي هذا البحث من المخاطرة بالنّفس بحكم الغيرة الطبيعيّة على الأسرة بوصفها ملكا خاصّا لرئيسها.

فالأمّ والأخت والعمّة والخالة والقريبات كنّ محرّمات لأنّهن يعتبرن ملكا لرئيس الأسرة فكان أبناؤه الذّكور مضطّرين إلى البحث عن القرينة خارج دائرة

الأسرة فكان الشبّان الأجانب يصطدمون برؤساء الأسر التي يقصدونها للحصول على طلبهم فساهمت هذه الأوضاع في توتر العلاقات بين الكبار والصغار وبين الآباء والأبناء والرؤساء والخطّاب وأصحاب الأحياء القائمة والغرباء والأجانب.

وقد لاحظنا في هذا السياق أنّ جلّ الأسماء التي تطلق على الأقارب هي ألفاظ زجريّة مثل إسم "أخ" وإسم "أب" وإسم "أم" وإسم "دا" فضلا عن إسم "جن" و"جنة" و"حن" و"حنة" و"بن" و"بر" و"تر".

فاسم "أخ" و"أخت" مأخوذ من الصوت "أخ" الذي يطلقه الإنسان للزجر والنّهر والتخويف والتّحذير في صيغة "أخ" و"أخة" و"كخ" و"كخة" واتخذ تبعا لذلك معنى المحرّم والنّجس والشيء الذي ينبغي تجنّبه والإبتعاد عنه.

كما أنّ إسم "أب" مأخوذ من الصوت "أب" الذي يطلق هو أيضا للزّجر والنّهر والتّخويف والتّنبيه ويسمّى الأب باسم "بر" في الفرنسيّة بينما تستعمل كلمة "بر" في العربيّة في معنى الإبن وكذلك الشأن بالنسبة لاسم "أم" فإنّه مأخوذ من الصّوت الزّجري "أم" ورأينا أنّ إسم "إن" و"جن" و"بن" و"تر" أصلها ألفاظ زجريّة.

وعلى هذا الأساس فإنّ إجتناب هؤلاء الأشخاص وتحريم الإتصال بهم ومنع الإقتراب منهم مردّه ومبعثه الخوف الطبيعي من الإتصال الجنسي والبدني بهم لأنّ وراءه الزّجر والنّهر والطرد ويثير الغضب والإنفعال ويعرّض للألم والمكروه.

وذكرنا أنّ الغضب الذي يخاف الناس إثارته في هذه الحالة هو غضب رئيس الأسرة.

وفي هذا السياق مازالت الكثير من الأمور المتّصلة بالنكاح والمواقعة الجنسيّة تحمل أسماء مشتّقة من الألفاظ الزّجريّة التي ذكرناها على غرار إطلاق إسم "كس" على فرج المرأة في سياق اللغة العربيّة وإطلاق إسم "كن" على فرج المرأة أيضا في سياق اللغة الفرنسيّة.

فقد ذكرنا أنّ إسم "كس" الذي يطلق على فرج المرأة في سياق اللغة العربيّة مأخوذ من الصوت "كس" الذي مازال السكان يستعملونه إلى اليوم في تونس لزجر الكلاب والقطط وطردهم ونهرهم وإبعادهم كما تستعمل كلمة "كس" في اللغة الأنقليزيّة في معنى التقبيل والعناق الذي يعتبر جزء مهمّا في عمليّة النّكاح والمواقعة الجنسيّة غير أنّ التقبيل والعناق كان في الأصل تصرّفا عدائيّا ويدخل في إطار المصارعة والعراك والسّعي إلى التّغلب على الخصم والغريب كما هي الحال عند الجمال وبعض الحيوانات الأخرى.

أما إسم "كن" الذي يطلق على فرج المرأة في الفرنسيّة فإنّه صيغة لفطيّة لاسم "جن".

وقد شمل الاحتكار النّساء والإناث وكذلك كلّ ما كان يصبح ملكا خاصا ويكتسب تبعا لذلك حرمة الملك الخاص فظهرت التّوترات والنزاعات والصراعات بين مختلف الأطراف المتقابلة ومازالت هذه التوترات والنزاعات والصراعات متواصلة إلى اليوم على النّطاق الأسري والجماعي والدّولي أيضا مخلفة بين الحين والآخر بعض الإنفراج والإنفتاح في النظم القديمة.

ففي هذا السياق مازالت بعض الأوساط الشعبيّة تقول ببعض الإعتقادات التي ترمز إلى التنافس القائم قديما بين الإخوة داخل الأسرة الواحدة وسعيهم إلى إزاحة وقتل بعضهم بسبب الغيرة وحبّ الذات.

فقد لاحظنا أنّ هذه الأوساط الشعبيّة في بعض البلدان العربيّة يتشاءمون من الطفل الذي يموت أشقاؤه المولودون بعده مباشرة ويسمّونه "آكل الرؤوس" و"قصة شر" و "وجه الشؤم" ويعتقدون أنّه السبب في موت إخوته لفساد فيه وأخلاط خبيثة لحقت به وتداخلت في جسده فجعلته يبعث الشرّ والضّرر على إخوته ويشبّه بالبيضة الفاسدة ويسمى السكان في تونس البيضة الفاسدة باسم "البيضة الحارمة" أو العظمة الحارمة حيث أنهم يسمّون البيضة باسم عظمة وعلى هذا الأساس يرون أنّ علاجه هو رميه ببيضة فاسدة من باب دفع الشرّ بالشرّ ومعالجة الدّاء بسببه وتعتقد هذه الأوساط الشعبيّة أنّ فساد هؤلاء الأطفال يكمن في الجبين أو السّاق ويسمّى الجبين باسم القصّة فلأجل ذلك يسمّى الطفل باسم قصّة شرّ فإذا اعتبروا أنّ فساده يكمن في القصة سمّي باسم "نطّاح" بمعنى إنّه ينطح إخوته بفساده كما ينطح الكبش خصمه وإذا كان فساده في الساق دعي باسم "صكّاك" بمعنى أنّه يصكّ إخوته بفساده, وعلى هذا الأساس كانت الأمّ تضرب ولدها المشؤوم ببيضة فاسدة على جبينه إذا اعتبر أنّه نطّاح وعلى ساقه إذا اعتبر أنّه صكّاك.

فهذه الإعتقادات ترمز في حقيقة الحال إلى الأوضاع البشريّة القديمة التي أشرنا إليها والمتمثلة في التّنافس الذي كان قائما بين الإخوة داخل الأسرة وسعيهم إلى إزاحة بعضهم بالعنف والقتل أحيانا وبصفة خاصّة إلى سعي الإخوة الكبار إلى استعمال العنف والقوّة لإزاحة إخوتهم الصغار الذين هم دونهم في

السن بواسطة النطح والصك والرّفس كما هي الحال إلى اليوم لدى بعض الحيوانات الحقيقيّة من باب التنافس وكان هذا التّنافس مظهرا من مظاهر التّنافس بين الكبار والصغار بصفة عامة حيث كان الأبناء والأولاد البالغون عموما لا يتورّعون في اغتنام شتّى الفرص للإستمتاع بإناث الأسرة بما فيهن نساء أبيهم.

وعلى هذا الأساس كان الأبناء داخل الأسرة محلّ زجر ونهر وطرد وإيعاد من طرف الكبار الذين يعتبرونهم مصدر قلق وتشويش وإزعاج فكانوا يثيرون غضبهم بتصرّفاتهم ويدفعونهم إلى زجرهم ونهرهم وتخويفهم وطردهم وإبعادهم.

ورأينا أنّ إسم "جن" و"بن" و"إن" و"حن" التي تطلق على الأبناء هي في الأصل ألفاظ كانت تستعمل للزّجر والنهر والتّخويف والطرد فكان الأبناء يبعثون على الزجر والنهر والتّخويف باعتبارهم تابعين للأسرة وللأب الذي هو رئيس الأسرة ويتّعيّن الدّفاع عنهم وزجر الذين يحاولون الإعتداء عليهم كما كانوا أيضا محلّ زجر ونهر وتخويف وطرد وإبعاد لعبثهم وتشويشهم وفسادهم في نظر الكبار حتى أنّ كلمة "جن" تطلق في سياق اللغة الفرنسيّة على الشبان وكذلك على التشويش والضيق وإقلاق الراحة والإزعاج والإنزعاج.

وفي هذا السياق لاحظنا أن الإبن يسمّى أيضا باسم "بر" حيث كان العرب في القديم مثلا يقولون فلان بن فلان وكذلك فلان برفلان.

فعلى غرار كلمة "جن" و"بن" و"حن" كانت كلمة "بر" في الأصل لفظة تستعمل للزجر والنهر والتّخويف والطرد والإبعاد ومازال الناس إلى اليوم في البلدان العربيّة يستعملون كلمة "برّة" للزجر والنّهر والطرد والإبعاد.

ومن هذا المنطلق أطلقت على الأولاد لأنّهم يتسّببون في إطلاقها لزجرهم في حال إرتكاب بعض التصرّفات التي يراها الكبار أخطاء وكذلك لأنّهم تابعون للأب ويعتبرون بهذه الصفة ملكه الخاص فاكتسبوا نتيجة لهذه الوضعيّة حرمة وهيبة مستمدّة من حرمة وهيبة الأب التّابعين له وأصبح يتعيّن على الآخرين احترامهم مخافة إثارة غضب مالكهم الذي يتبعونه والتّعرض إلى بطشه في حال الإعتداء عليهم وكان التّصدي للأعداء يتمثّل في زجرهم ونهرهم وطردهم وإبعادهم بواسطة إطلاق كلمة "بر" و"برّة" و"جن" و"تر" وغيرها من الكلمات الشبيهة فأطلق إسم "بر" على الأولاد والأبناء كما هي الحال في العربيّة وعلى الأب الزّاجر والنّاهي كما هي الحال في الفرنسيّة كما اتّخذت لفظة "بر" أيضا معنى الطرد والأبعاد والبعد والبعيد والخارج لأنّ المراد من إطلاقها كان الإبعاد والإخراج من دائرة الرّؤية والبصر فأطلق إسم "بر" و"برّة" على الخارج وكذلك على المنتمين إلى الخارج والغرباء والأجانب في صيغة "برّاني" كما هي الحال إلى اليوم في تونس حيث تطلق كلمة "برّاني" إلى اليوم في تونس على الغريب وأطلق أيضا إسم "بر" على الأجنبي والمنتمي إلى الخارج في صيغة "بربر" حيث نعتبر أنّ إسم" "بربر" يتمثل في ترديد لفظة "بر" مرّتين.

وسبق أن أشرنا إلى أنّ إسم "إنسان" كان يطلق على الأسرة والأهل والآل والأقارب بحيث كان يعتبر إنسانا ومن عداد الإنسان الأفراد المنتمون إلى الأسرة والعائلة والعشيرة ومن هذا المنطلق فإن الجن اعتبروا في بعض الحالات

خارجين عن دائرة الأسرة والإنسان وهكذا ظهر الإعتقاد في أنّ الجن يختلفون عن الإنس وأنّهم ليسوا من الإنس وفي حقيقة الحال فإنّ الأصل في هذا الإعتقاد هو أنّ الجن المقصودين به هم البشر الخارجون عن دائرة الأسرة والذين ليسوا من أفرادها ولا يعيشون في إطارها مع أنّهم قد يكونون في الأصل منها ثمّ غادروها لسبب من الأسباب كما في حال الزواج حيث ذكرنا أنّ الشّبان يغادرون أسرهم الأصليّة ويقصدون أسرا أخرى فيتزّوجون إحدى بناتها بصورة من الصور وينتسبون إلى أسرة زوجاتهم بوصفهم "جن" و"كن" كما أنّ البنت تغادر أسرتها الأصليّة وتتزّوج بشاب من أسرة أخرى فتنسب إلى تلك الأسرة وتصبح "جنّة" و"كنّة" وبهذه الصفة فإنّ الغريب يصبح قريبا وبالفعل فإنّ إسم "غريب" هو صيغة لفظيّة لاسم "قريب" نظرا لتعادل الصوت "أغ" والصوت "قا" الذي هو صيغة لفظيّة للصوت "أخ".

كما أنّ البشر المنتمين إلى أسرة أخرى كانوا يعتبرون جنّا بمعنى غرباء في هذا السياق بالذّات في نظر أفراد أسرة أخرى مع أنّ كل أسرة تعتبر نفسها من عداد الإنسان.

وعلى هذا الأساس مازالت لفظة "جن" تستعمل إلى اليوم في سياق اللغة الفرنسيّة في معنى الضيق والحرج والإزعاج والإنزعاج كما تستعمل في معنى الشباب والشبان وفي معنى الناس بصفة عامة وكانت كلمة "جن" تستعمل أيضا في رومة القديمة في معنى الأسرة والعائلة المنتمية إلى جدّ واحد وتعادل كلمة "عرش" في البلاد التونسيّة.

ووجدنا في هذا السياق أنّ الأبناء وخاصة منهم الأولاد الذكور والبالغين كانوا في بعض المجتمعات يسكنون في الأقسام الخارجيّة للأحياء البشريّة, فقد

كانت الأحياء البشريّة في بعض المجتمعات تتركب من أقسام ودوائر تحيط ببعضها وكان كلّ قسم أو كلّ دائرة مخصّصة لفئة من الفئات التي تتألف منهم الأسرة بحيث كان الحي مقسّما إلى دوائر بحسب الإنتماءات الفئويّة والطبقيّة

ففي هذا الإطار كان المسكن الواحد من المساكن التي تشتمل عليها القرية في بعض البلدان الإفريقيّة يتركب من عدّة أكواخ مقامة في شكل دوائر تحيط ببعضها البعض ويحيط بأجمعها سور مبني بالطوب أو زرب من الجلود. فكان يوجد في مركز المسكن أو الدّار كوخ رئيسي مخصص لرئيس الأسرة ومن حوله عدد من الأكواخ المخصّصة لنسائه وبناته غير المتزوّجات ثمّ تأتي في الدّائرة الثالثة جملة من الأكواخ المخصّصة للأولاد الذكور تحيط بها دائرة أخرى من الأكواخ المخصّصة للخدم والعبيد إلى جانب دائرة من الأكواخ المخصّصة للدواب مع كوخ مخصّص للرّحى الحجريّة التي تستعمل لرحي الحبوب وغيرها وكانت الرّحى والنار تكتسيان أهميّة كبيرة في الدّار.

فقد كان هذا النظّام السّكني ساريا إلى هذه السنوات الأخيرة عند العديد من الجماعات الإفريقيّة من السود القاطنين بالبلدان الإفريقيّة جنوب الصحراء الكبرى ومنهم بالخصوص جماعة الموسي والبمبارا واليامنان الذين يعيشون في دولة بوركينا فاسو والدّول الإفريقيّة المجاورة.

فكان المسكن الذي يسمّى باسم "إيري" عند جماعة الموسي وباسم "سكالة" عند جماعة البمبارا يتألف من كوخ ومن حوله عدد من الأكواخ مخصّصة لنسائه بحساب كوخ لكل زوجة مع كوخ للماعز وكوخ للحصان وكوخ للرّحي وكوخ للإستقبال وكانت هذه الأكواخ مقامة في شكل دوائر يحيط بها سور مبني بالطوب وحواجز من الجلود. وكان الأطفال الصغار والبنات غير

المتزّوجات يقطنون مع أمّهاتهم في حين كان الأولاد الذكور البالغون والخدم يقطنون أكواخا خارجيّة خاصّة بهم تحيط بمجموعة الأكواخ المخصّصة لرئيس الأسرة ونسائه وتقع في الدائرة الخارجيّة للمسكن العائلي أو الدّار.

فعلى غرار ما تشهده المجتمعات الإنسانيّة إلى اليوم من تنافس وصراع على السلطة واحتكار للمنافع كانت الأسر الإنسانيّة في العهود الأولى من التاريخ الإنساني مسرحا للتّنافس والصراع على السلطة واحتكار المنافع بدافع الأنانيّة والغيرة والحسد وحبّ الذّات المتأصلة في الطبيعة البشريّة والحيوانيّة.

فكان انتقال السلطة داخل الأسرة والجماعة البشريّة في القديم باستعمال القوّة والغصب والعنف سببا في طرد وتشريد الأشخاص والأفراد الذين يمثلون خطرا على مصالح الأسياد الجدد وفي مقدّمتهم الحكام السابقون وأبناؤهم الذكور في حين يتمّ الإحتفاظ بالنّساء والإناث عموما كجواري وإماء. كما أنّ التغييرات في سلّم الأفضليّة في مستوى الإناث داخل الأسرة والجماعة كانت سببا أيضا في تشريد البنات اللواتي يمثّلن خطرا بالنسبة للمحظيات الجدد.

فالزّوج الجديد الذي يأخذ مكان الزوج السابق يسعى إلى إزاحة وإبعاد أبناء الزوج السابق والإحتفاظ بالبنات اللواتي يصبحن ملكه وجواري تابعات له إلى جانب الزوجات الأصليات كما أن الزّوجات والمحظيات الجدد يسعين إلى إبعاد البنات والدخول في صراعات ونزاعات مستمرّة معهن ومع النساء الأصليات.

ففي هذا السياق روت الأساطير اليونانيّة القديمة أنّ أوّل من حكم العالم والكون هو الإله أورانوس, إله السماء, فواقع أمه جي, ربّة الأرض, فأنجبت منه

السلالة الأولى من الآلهة الذين يعرفون باسم الجبابرة أو التيتان باليونانيّة وكانوا إثني عشر, ستة ذكور وستة إناث فكان من الذكور بالخصوص, الإله كرونوس, أصغرهم الذي إغتصب من أبيه ملك العالم وطرده وصورة الخبر أنّ أورانوس كان يكره أولاده فاحتجزهم في باطن الأرض فحزنت أمهم جي عليهم وأوغلت صدر أبنائها ضدّ أبيهم وحثّتهم على الإنتقام منه فخافوا بطشه وقبل كرونوس أصغرهم أن يقتل أباه فأعطته أمّه منجلا من حديد فكمن لأبيه وعندما جاء في الليل ليضاجع زوجته جي خرج له كرونوس من مكمنه وهجم عليه وبتر له أعضاءه التناسليّة وعوّقه وأزاحه عن الملك واعتلى مكانه عرش العالم وخلّص إخوته من السجن الذي حبسهم فيه أبوهم وجرت العادة أن يرث الإبن الأكبر أباه ولمّا كان كرونوس أصغر أبناء أورانس تعهد لإخوته بأن لا يكون له نسل يرثه وتزوّج من أخته ريّة غير أنه أخلف الوعد وانجب عدّة أولاد منهم الإله زوس, أصغرهم, الذي اغتصب منه الملك بدوره حيث أنّ كرونوس كان يكره هو الآخر أولاده فكان يبتلع كلّ ولد تلده له ريّة للعهد الذي قطعه على نفسه مع إخوته وأيضا لأنّ إحدى الكاهنات ذكرت له بأنّه سيولد له ولد يكون سببا في هلاكه وزوال ملكه فلمّا ولدت ريّة إبنها زوس أخفته في كهف وكلّفت مجموعة من الحوريات بتربيته حتى كبر وبلغ أشدّه فعلم أعمامه بأمره فأعلنوا الحرب على أبيه كرونوس وكاد الجبابرة أن يهزموه لولا نصرة زوس له فكانت له الغلبة غير أنّه حاول القضاء على إبنه زوس حتى لا تتحقق النبّوة فلم يفلح وهزمه زوس وصرعه وطرده واعتلى عرش العالم مكانه بعد أن أجبره على إعادة إخوته الذين ابتلعهم.

وجمعنا في هذا السياق خرافة تونسيّة مضمونها أنّه كان هناك في قديم الزمان ملك من الملوك الجبابرة وكان له عدد من الأبناء فشكّ ذات يوم في أنّ يكون أحد أبنائه من صلبه فطرده هو وأمّه فتشرّدا في الصحاري والغابات حتى وجدا يوما من الأيام قصرا منيفا نصفه ذهب ونصفه الآخر ياقوت فسكناه وطاب لهما فيه المقام وأرسل الولد إلى أبيه رسالة يقول له فيها إنّ الله عوّضه خيرا عن الشرّ الذي اراده له فاغتاظ الأب واحتال في هلاك إبنه فأغراه بالذّهاب إلى بلاد الجان وجلب بنت سلطان الجان وضمّها إليه ليكتمل هناؤه أملا في أن يهلك ويقضي نحبه في تلك البلاد التي ما دخلها أحد من الأنس ورجع حيّا لكن الإبن الشاب خاطر بنفسه فذهب إلى بلاد الجان ومرّ في طريقه إليها ببلاد الأهوال والأغوال وبعد مكابدة الشدائد نجح في مسعاه وجلب بنت سلطان الجان ولمّا رأى الأب أن حيله لم تفلح أعلن الحرب على إبنه الذي تعرّف في الأثناء على رجل اسود من الجبّارين وصاحبه فصار من أنصاره وتعاون الشاب والأسود على محاربة الملك وعسكره الجرّار بعد أن انضم قسم من الحاشية إلى جانب الإبن في حين ظلّ قسم آخر مواليا للملك فقبض الإبن على أبيه وأنصاره وقتلهم وأخذ مكان أبيه الملك.

ويحتوي الرصيد الأسطوري العربي على العديد من القصص والحكايات الشبيهة منها قصة أبو زيد الهلالي سلامة, أحد أبطال الملحمة الهلاليّة التي تروي سيرة الهلاليين من قبيلة بني هلال العربيّة أثناء نزوحهم إلى البلاد التونسيّة قادمين من المشرق العربي إستنادا إلى بعض الوقائع والأحداث الحقيقيّة التي حصلت في هذا الشأن في القرن الحادي عشر للميلاد وما تلاه.

فقد جاء في هذه الملحمة أنّ أبو زيد الهلالي سلامة كان رجلا أسود البشرة رغم أن أباه وأمّه كانا بيض البشرة والسبب أنّ أمّه أنجبته بصورة عجيبة بعد أن تعذّر على زوجها الإنجاب, فبينما كانت ذات يوم جالسة تدعو الله أن يرزقها ولدا طار بالقرب منها غراب أسود فاحم اللون فطلبت من الله أن يرزقها ولدا ولو كان أسود فاحم اللون كالغراب فحملت في تلك الليلة ولمّا أتمّت أشهر الحمل وضعت مولودا أسود اللون هو أبو زيد الهلالي سلامة وتقول رواية أخرى أنّ أم أبو زيد ولدت في بداية أمرها بنتا ثمّ توقفت عن الإنجاب فأعدّت طعاما وأهدته للطيّور ليتشفعن ويتوسلن لها عند الله لتحمل فكان الغراب أوّل طير يأكل من ذلك الطعام فطلبت من الله أن يرزقها إبنا ولدا ولو كان يشبه الغراب فولد أبو زيد أسود مثل الغراب فأنكره أبوه لسواد لونه وكان من أسياد الهلاليين فأطرد الأمّ وإبنها من الحيّ فخرجت الأم هائمة على وجهها في الصحراء وتشردت بين النجوع فلقيها شيخ قبيلة أخرى إسمه عقيل فأسعفها هي ومولودها وضمّهما إلى قبيلته وكبر أبو زيد وصار فارسا مغوارا فنشبت الحرب بين الهلاليين وقبيلة الشيخ عقيل التي انتصرت على الهلاليين بفضل ما أبداه أبو زيد من شجاعة وإقدام فغار منه شبان الحيّ وعيّره ذات يوم واحد منهم بأنّه غريب ولا يمتّ إلى الشيخ عقيل بصلة فغضب وغادر القبيلة وسال عن أبيه الحقيقي واتصل به وعادت الأمور إلى نصابها وسخّر أبو زيد نفسه لخدمة قبيلته وحمايتها وكانت له صولات وجولات مع ملوك تونس في تصدّيهم للزحف الهلالي على البلاد.

وفي هذا المعنى أيضا يروي السكان في تونس والبلدان المغاربيّة عموما خرافة في صيغ متعدّدة مضمونها أن سلطان إحدى البلدان خرج يتجوّل في

مملكته للتّعرف على أحوال الرعيّة فسمع ثلاث نساء في إحدى البيوت يتكلّمن وكنّ ثلاث أخوات فقالت الأولى لو يتزّوجني الملك أنجب له ولدين شعر الواحد منهما نصفه ذهب ونصفه الآخر فضّة ووعدت الثانية بأن تصنع للسلطان قماشا يكسي سائر سكان المملكة إن هو تزّوجها والتزمت الثالثة إن تزوّجها السلطان إن تصنع له طعاما يكفي لإطعام سائر السّكان.

فتزوّج السلطان بهنّ ونام مع الأولى فحملت منه وأنجبت له ولدا ذكرا نصفه ذهب ونصفه الأخر فضّة فغارت منها أختاها وأعطتا للقابلة مالا وطلبتا منها أن تقتل الولد وتقول للسلطان إنّ زوجته وضعت كلبا ورأفت القابلة على المولود الجديد فأبت أن تقتله ووضعته في سلّة ورمته في نهر يمرّ قرب قصر السلطان ولما سمع الملك أمر بإلقاء الأم في زريبة البهائم فاستجدته ورجته أن يمهلها ويعطيها فرصة أخرى فأمهلها ونام معها من جديد فحملت ووضعت بنتا شعرها نصفه ذهب ونصفه الآخر فضّة فغارت منها أختاها وطلبتا من القابلة أنّ تقتلها وسلمتاها مالا فأبت القابلة قتل البنت ووضعتها هي الأخرى في سلة ورمتها في النهر واتّهمت الأم بأنّها وضعت قطّا فأمر الملك بقتل المولود وحبس الأم وكان يسكن بقرب المدينة شيخ فاضل عرف بصلاحه, وفعله للخيّر فبينما كان يغتسل في النهر عثر على السلة التي بها الولد ففتحها ووجد بها مولودا جديدا شعره نصفه ذهب ونصفه الآخر فضّة فأخذه إلى الكوخ الذي كان يسكن فيه وتولّى تربيته ثمّ عثر على السلة التي بها البنت فأخذها هي الأخرى وتولّى تربيتها مع أخيها ولمّا كبر الولد وأخته أطلعهما الشيخ على أسرار خفيّة تساعدهما على تحقيق رغبتهما والعيش في العزّ والهناء وتمكن الولد بفضل الأسرار التي أطلعه عليها الشيخ من جمع ثروة كبيرة فبنى قصرا في مدينة أبيه

وسكن فيه هو وأخته وأصبح من أعيان القوم وذاع صيته فدّس له أبوه الملك عجوزا وكلّفها بأن تتعرّف عن أسراره وتسعى إلى هلاكه فربطت العجوز علاقة وطيدة بالبنت وأصبحت تزورها في قصرها ورغّبتها في امتلاك النّول الذهبي أو السّداية الذهبيّة وهي سدّاية عجيبة الصنع وصعبة المنال فتظاهرت البنت بالمرض ولزمت الفراش ولمّا جاء أخوها ليطمئن على صحتّها باحت له بالأمر وبرغبتها في امتلاك النّول الذهبي فوعدها خيرا واتصل بالشّيخ الذي ربّاهما واستشاره في الأمر فساعده الشيخ ودلّه على الطريق الذي يؤدي إلى مكان السّداية الذهبيّة وكان يمرّ من خلال جبلين يتناطحان باستمرار بحيث كان على كل من رام المرور منه أن يشق بين الجبلين فنجح الشاب في العبور بين الجبلين فوجد غولة هائلة المنظر فتودّد إليها وساعدته على بلوغ مبتغاه.

ثمّ إنّ العجوز لمّا رأت أن حيلتها الأولى فشلت رغّبت البنت في امتلاك الطّائر العجيب الذي يغنّي وجناحه يردّ عليه فاستعان الشاب مرّة أخرى بالشيخ فأعلمه بأن هذا الطائر يوجد في كهف في إحدى الجبال النائية ووصف له الطريق والمكان وأوصاه بأن يمتنع عن الكلام وإحداث أي صوت عند اصطياد الطائر ففعل الشاب بوصيّة الشيخ ونجح في جلب الطائر العجيب.

وأمام فشل حيلتها الثانيّة أغوت العجوز البنت من جديد ورغّبتها في حثّ أخيها على امتلاك الدنيا وهي فتاة حسناء صعبة المنال غير أنّ الشاب إتّصل بالشيخ ليعينه فدّله الشيخ على طريق هذه الصبيّة السّاحرة وأعلمه بأنّها تسكن هي الأخرى في جبل الطائر العجيب وأشار عليه أن يأتي ذلك الجبل وينادي يا دنيا ثلاث مرّات وهو راكب على جواده فقصد ذلك الجبل ولما بلغه نادى بأعلى صوته يا دنيا مرّة أولى فلم تظهر فغاص ثلث جواده في الأرض فنادى عليها

مرّة ثانيّة فلم تظهر فغاص ثلث أخر من جواده في الأرض ثم نادى عليها المرّة الثالثة فظهرت له الدنيا وكانت فتاة رائعة الحسن والجمال فخلصت الحصان وركبت وراء الشاب وعاد الإثنان إلى قصر الشاب بالمدينة ولما استقرّ بهما المقام أشارت الصبيّة على الشاب أن يقيم وليمة في قصره ويستدعي السلطان وحاشيته فجاء السلطان ولما جلس سائر القوم حول المائدة قامت الدّنيا وكشفت الحقيقة وحكت للملك قصّة زواجه من الأخوات الثلاثة ووضع الأولى للمولودين وخيانة الأختان لها ومحاولة قتل المولودين ثمّ إنّها طلبت من البنت وأخيها أن يكشفا عن رأسيهما ففعلا فإذا بشعر كلّ واحد منهما نصفه ذهب ونصفه الآخر فضّة وقالت للملك إنّهما ولداه فارتمى عليهما يقبلهما وأمر بأن يؤتى بأمّهما من زريبة البهائم والتأم الشمل وأمر الملك بقتل الأختين الخائنتين جزاء ما اقترفتا في حقّ أختهما وعاش الملك وزوجته الوفيّة مع ولديهما في سعادة وهناء.

فاتهام الزّوجة أم الولدين بوضعها لحيوانات يرمز في حقيقة الحال إلى اتّهامها بالزنا ووضع أطفال من غير صلب الملك.

وفي هذا الإطار تشير الكثير من الأساطير والخرافات التي يرويها السكان في تونس والبلدان المغاربيّة وغيرها من البلدان أنّ بعض الآباء كانوا يخفون أبناءهم لدى ولادتهم في طوابق سفليّة تحت الأرض وفي كهوف الجبال والقصور المنيعة لإبعادهم عن الأنظار وعن عيون الناس ريثما يكبرون وتذكر هذه الأساطير أن ولادة هؤلاء الأبناء تحصل غالبا بعد تقدّم الوالدين في السنّ ويأسهم من الإنجاب فيتعرفون على بعض الغرباء أو بعض الصالحين الذين يصفون لهم بعض الأدوية العجيبة للإنجاب فيستعملونها وتتحقق أمانيهم كأكل

بعض التّفاح العجيب الذي يعيد الرّوح لمن يأكله ويعيد الشّائب إلى شبابه أو أكل لحم بعض الحيّات أو قلب بعض الحيوانات إلى غير ذلك من الوصفات العجيبة.

فقد جمعنا في هذا المعنى خرافة شعبيّة يرويها السّكان في تونس وفي البلدان المغاربيّة مضمونها أنّ أحد السّلاطين في العهود القديمة تقدّم في السن ولم ينجب أولادا يرثونه من بعده فاستعان بأحد العرّافين الذي وصف له دواء للغرض فاستعمله ونام مع زوجته فحملت منه وأنجبت له بنتا حسنة المنظر فجعلها في قصر منيف وأغلقه عليها وكلّف لها خادما تخدمها وتقوم بكلّ شؤونها وأمرها أن تعطيها اللحم بدون عظم والبيض المقشور ولمّا كبرت البنت وبلغت ناولتها دادتها ذات يوم قطعة لحم بعظمها وكانت تجهل العظام فسألت الخادم عنه فقالت لها إنّه يحتوي بداخله مخّا لذيذ الطعم وأشارت عليها أن تكسره على بلور النافذة فأخذت البنت العظم وكسّرته على بلّور النافذة فتهشّم البلور وأطلّت برأسها من النافذة فرأت المدينة وأسواقها مزدحمة بالمارّة فتعجّبت لأنّها كانت تظنّ أنّها تعيش بمفردها في العالم مع الخادم.

وشرحت لها الخادم القصة فصارت تقضي يومها في مشاهدة المدينة وأسواقها حتّى تعرّفت على شاب جميل المنظر فعشقها وعشقته دون علم الدّادة وأضناها الشوق ولم تكن لها حيلة للإتصال بعشيقها فمرضت وكان لها عصفور يؤنسها فأرسل لها أبوها كاهنة عجوز لتفحصها فأخذت العجوز ذلك العصفور وذبحته فتألمّت الصبيّة ودعت على من ذبح العصفور أن يحرمه الله من كل خير مثلما حرمت من وصال حبيبها ففهمت العجوز أنّها عاشقة وأعلمت السلطان فأمر أحد أعوانه بقتلها فرأف عليها العون وأطلق سبيلها فخرجت هائمة على وجهها وتشرّدت في الغابات والبراري ثمّ إنّها دخلت تشتغل خادما عند

أخت حبيبها ولما جاء الشاب لزيارة أخته عرف البنت وعرفته وأخبرا الأخت بقصتهما وكان الشاب مسحورا فأعلم أخته وحبيبته بحاله وذكر لهما أنّ سحره ينفكّ عندما ينزع أحد لقمة كسكسي من فمه في غفلة منه وسبعة شعرات من لحيته ويتبعه حيث يقصد إلى أن يغيب عنه فيرمي لقمة الكسكسي ويحرق السبع شعرات ويظلّ ينتظر شهرا كاملا وهو يبكي عليه فتظهر له آنذاك سمكة عظيمة وترمي الشاب من جوفها وقد إنجلى عنه السحر.

فاغتنمت الأميرة ذلت يوم الفرصة ونزعت لقمة كسكسي من فم الشاب في غفلة منه وسبع شعرات من لحيته ولما خرج إقتفت أثره إلى أن وصل إلى كهف في جبل فدخله وغاب عن الأنظار فهيأت لها مكانا بجانب الكهف ولبثت تنتظره شهرا وهي تبكي فلّما كان آخر يوم من ذلك الشهر وقفت عليها امرأة أخرى وسألتها عن خبرها فحكت لها قصتها واستسلمت للنوم فتنكرت المرأة الغريبة في هيأتها وأخذت مكانها وذهب السحر عن الشاب فخرج من المغارة سالما فوجد المرأة الغريبة المتنكرة في هيأة الأميرة في انتظاره فتزوج بها ظنّا منه أنّها الأميرة ولمّا استيقظت الأميرة الحقيقية تفطنت إلى الخديعة فصبغت جسمها بالقطران واتّخذت هيأة الخادم الزّنجيّة ودخلت تشتغل عند الشّاب وزوجته التي أنجبت له في الأثناء ولدين فتولّت الأميرة المتنكرة في هيأة الخادم تربيتهما واغتنمت ذات يوم فرصة اجتماع كامل أفراد الأسرة وتظاهرت بقصّ حكاية طريفة للولدين وحكت قصتّها من أولها إلى آخرها فعرف الشّاب عند ذلك الحقيقة فأمسك بالمرأة الخائنة وقتلها وجدّد عهده مع الأميرة وتزوّجها وعاش الجميع في السعادة والهناء.

ويروي السكان في تونس وفي البلدان المغاربية في هذا المجال في صيغ متعددة خرافة بعنوان "عائشة اليتيمة" و"عيشة رميد" مضمونها أنّه كان في قديم الزمان رجل وامرأة متزوّجان وكانت لهما بنت جميلة اسمها عائشة فماتت الأم وتزوّج الرجل امرأة أخرى فغارت الزوجة من بنت زوجها أو ربيبتها كما تسمّى وأصبحت تعذّبها وتقلق راحتها وتضيق عليها الخناق ثمّ إنّها طلبت من زوجها أن يختار بينها وبين ابنته فحاول الرجل عبثا إرجاعها إلى الصواب ولمّا ألحّت عليه حمل ابنته إلى غابة بعيدة وفي غفلة منها تركها وسط الغابة وقفل راجعا إلى بيته فتشرّدت البنت وظلت تهيم على وجهها إلى أن عثرت ذات يوم على كوخ وسط الغابة على ملك سبعة إخوة فاختبأت وانتظرت حتى خرج الاخوة إلى الصيد فدخلت الكوخ ونظّفته وجهّزت الطعام ووضعته على المائدة واختبأت فرجع الاخوة من الصيد فوجدوا الكوخ نظيفا وطعامهم جاهزا فاستغربوا وتكرّرت العمليّة عدّة أيّام فتشاوروا فيما بينهم واتّفقوا على التظاهر بالخروج إلى الصيد والاختفاء في مكان قريب لمعرفة الأمر فكان كذلك وضبطوا البنت وهي منهمكة في شغلها وحصل التعارف بين الطرفين وتزوّجت البنت الأخ الأكبر ومكثت معهم كعادتها تقوم لهم بكل الأشغال المنزلية.

ويروي السكان في تونس وفي البلدان المغاربية والعربية عموما خرافة شبيهة بالخرافة السابقة تشير إلى أنّ البنت المتشردة هي في حقيقة الحال أخت الشبان السبعة الذين تعرضوا قبلها للتشريد وتعرف هذه الخرافة في تونس وفي البلدان المغاربية باسم خرافة "وديعة متلّفة السّبيعة" و"وذعة مجلّية السبعة" ومضمونها أنّ امرأة متزوجة كان لها ستة أولاد ذكور وكانت حاملا وجرت العادة في الحي الذي تسكنه أن يغادر أولئك الأولاد أسرتهم وحيّهم ويجلوا عن

بلادهم في حالة وضع أمّهم لولد ذكر مثلهم فوضعت الأم بنتا وكان لها ضرّة فغشّت تلك الضرّة الأولاد وقالت لهم إنّ أمّهم ولدت ذكرا ففرّ الأولاد وتشرّدوا وتعرّفوا على غول أو دبّ كما يقول أهل الجنوب التونسي فجاوروه. فلمّا كبرت أختهم أصبح أولاد الحيّ يسخرون منها ويعيّرونها ويقولون لها : "يا وديعة يا متلفة السبيعة" وألحت على أمها أن تفسّر لها الأمر فأخبرتها أمها بالقصة فعزمت على اللّحاق بإخوتها وخرجت تبحث عنهم إلى أن وجدتهم بجوار صاحبهم الدبّ فأعلمتهم بأمرها وعاشت معهم.

ويتداول جماعات التوارق القاطنين في المناطق الصحراوية للبلدان المغاربية خرافة من هذا القبيل تشير إلى أنّ إخوة البنت هم من الجنّ والإنّ وهم صغار الجنّ ومضمونها أنّ أحد الملوك تزوّج بعدّة نساء رجاء إنجاب ولد لكنّ نساءه كنّ يلدن له في كلّ مرّة أفراخا من الجنّ فأنجبت له إمرأته الأولى جنّا وأنجبت له الثانية إنّا وتوالت الولادات من هذا النوع وكان الأولاد الجنيّون يغيبون عن الأنظار بعد ولادتهم ويلتحقون بأرض الجنّ بمكان يسمّى كهف الجنّ حيث كانت لهم مدينة خافية عن الأنظار.

ثمّ إنّ إحدى نسائه أنجبت له بنتا في غاية الحسن والجمال سرعان ما كبرت فتعرّفت على شاب وسيم مجهول النسب كان يتردد على مدينة أبيها فخطبها أحد الأشراف فرفضت وهربت مع الشّاب الذي أعلمها بأنّه أخوها الجنيّ وأنّه يعيش في مدينة الجنّ مع إخوته الجنيّين الذين هربوا معه إلى كاف الجنّ وكان ذلك الشّاب حاكم مدينة الجنّ وهربت الأميرة ومعها وصيفتها وكان يحدّ مدينة الجنّ باب سحريّ لا تراه أنظار النّاس فمن عبره ودخل المدينة وجدها ورآها ومن خرج منه إلى خارج المدينة غابت عن أنظاره. وكان يوجد بمدينة

الجنّ حديقة غناء ترتادها الطيور من بينها طائر جميل محبوس في قفص وحذر الشّاب الجنيّ أخته وأوصاها بعدم إطلاق سراح ذلك الطائر المحبوس حتّى لا تغيب عنها المدينة ويتفارقان إلى الأبد وأخبرت وصيفتها بقصّة ذلك الطائر فأطلقت الوصيفة سراحه فغابت عنها مدينة الجنّ ووجدت نفسها في الخلاء بين الجبال فتمالكت نفسها وعادت إلى مدينة الملك وأعلمته بالأمر وبقيت الأخت مع إخوتها الجنيّين في مدينة الجنّ.

شرح مُفصّل للمعنى الحقيقي للأساطير:

فمثلما سبق أن ذكرناه نعتبر أنّ أقوام الجنّ والجان بمختلف أصنافهم يرمزون إلى جماعات وأقوام من البشر عاشوا في قديم الزّمان وكانوا يحملون أثناء وجودهم فوق الأرض اسم "جن" و"جان" و"إن" و"بن" و"حن" و"خن" و"خان" وغيرها من الأسماء الشّبيهة التي عرفوا بها في مختلف المجتمعات الإنسانيّة تعبيرًا عن بعض الطّباع والخصال البشريّة التي كانت تميّزهم. فالآلهة والملائكة والجن والجان الذين تتحدّث عنهم الأساطير والخرافات والمعتقدات الشّعبيّة يرمزون إلى النّاس الأوائل وإلى الطبقات الأولى من البشر الذين عمّروا الأرض في العهود الأولى من التّاريخ الإنساني وقاموا بتأسيس الأسر البشريّة الأولى التي عمّرت الأرض في بداية التّاريخ الإنساني وكانت النّواة الأولى التي انْحَدَرَتْ منها مختلف الشّعوب الإنسانيّة.

وعلى هذا الأساس فإنّ الأساطير والأخبار والخرافات المتّصلة بالآلهة والجن والملائكة هي أخبار تاريخيّة تَنْقُلُ وتَرْوِي بعض الوقائع والأحداث الحقيقية التي حصلت في قديم الزّمان لبعض الجماعات والأقوام من البشر في بعض بقاع الأرض.

فعلى غرار قصّة جنّة الخلد والفردوس التي شرحنا معناها الحقيقي في تحاليلنا المتقدّمة نعتبر أنّ كل هذه الأساطير والخرافات التي تتحدّث عن الآلهة والجن والملائكة هي قصص واقعيّة وأخبار تاريخيّة تنقل وتروي الظروف التي حفّتْ وأحاطت بتأسيس الأسر الإنسانيّة التي عمّرت الأرض في بداية التّاريخ الإنساني وكانت النّواة الأولى التي انحدرت منها مختلف الشّعوب الإنسانيّة القائمة والمنقرضة.

فجلّ الأساطير والخرافات الشّعبيّة التي حكَتْهَا وتداولتها مختلف شعوب العالم هي قصص وأخبار من هذا النّوع تروي وتحكي الظّروف التي أفضت إلى إنشاء وتأسيس وظهور بعض الأسر الإنسانيّة القديمة حتى أنّ الألفاظ التي تُطْلَقُ على القصّة والخرافة والأسطورة في مختلف لغات العالم والأسماء التي تُدْعَى وتُسَمَّى بها تُفِيدُ أيضا معنى الأسرة والعائلة والمرأة والأبناء والأهل والآل والعشيرة والقبيلة.

فقد وجدنا في هذا السّياق أنّ لفظة "جَنّة" تُطْلَقُ على المرأة والأسرة والعائلة كما تطلق أيضا على القصّة والخرافة والأسطورة وتحمل تبعا لذلك معنى المرأة والأسرة والعائلة وكذلك معنى القصّة والأسطورة والخرافة.

ففي هذا السّياق ذكرنا أنّ لفظة الجنّة تفيد معنى المرأة والأسرة والأبناء والأولاد في العديد من اللّغات الإنسانيّة.

كما أنّ كلمة "جَنّة" تُستعمل في معنى الخرافة والأسطورة في صيغة "كُنْت" في اللّغة الفرنسيّة ونعتبر أنّ كلمة "كُنْت" التي تُطلق على الخرافة

والأسطورة في الفرنسيّة هي صيّغة لفظيّة لكلمة "جَنّة" حتى أنّ الحديقة والجنّة الفيحاء والغابة تسمّى "تاكنت" في اللّغة البربريّة.

وأشرنا إلى أنّ كلمة "جنّة" تُنطق "كنّة" في بعض اللّهجات العربيّة وتُستعمل كلمة "كنّة" في العربيّة في معنى المرأة وزوجة الابن بالذات, فقد كان الابن يسمّى باسم "جن" بينما زوجته تسمّى باسم "جَنّة" و"كَــنّة" الذي هو مؤنّث "كن" ونظرًا لتعادل الصّوت "جا" والصّوت "كا" فإنّ اسم "جن" و"كن" متعادلان وكذلك اسم "جنّة" و "كنّة" وقد اشتهر عن بعض القبائل العربيّة القديمة أنّها كانت تنطق الصّوت "جا" في صيغة الصّوت "كا" فتقول "كنّة" عوض "جنّة"-وتُستعمل كلمة "كُــنْت" أيضا في بعض اللّغات القريبة من اللّغة العربيّة كاليهوديّة في معنى القصّة والحكاية وتعادلها في اللّغة العربيّة وفي بعض اللّهجات الدّارجة في البلدان العربيّة كلمة "غُــنّة" مثلما هي الحال في تونس, فقد لاحظنا أنّ النّاس في بعض جهات البلاد التّونسيّة يستعملون كلمة "غُــنّة" في معنى القصّة والحكاية فيقولون مثلا ما هذه الغُــنّة بمعنى ما هذه الحكاية وتعتبر كلمة "غُــنّة" صيغة لفظيّة لكلمة "كنّة" و"جنّة" نظرًا لتعادل الأصوات "جا" و"كا" و"غا".

ويُطلق على الأسطورة والخرافة في بعض الأقطار العربيّة كالعراق اسم "سَالِفة" وهو اسم مؤنّث ومذكره "سالف" وتستعمل كلمة "سالف" في تونس في معنى شعر المرأة وبالأساس ما يظهر على الجبين ويُسمّيه النّاس في تونس باسم "قصة" وتبعا لذلك فإنّ كلمة "سالفة" تعادل كلمة "قصة" ثمّ إنّ كلمة "سلف" و"سلفة" تُطلق أيضا عند المجتمعات العربيّة على زوج الأخت وامرأة الأخ و زوج البنت وامرأة الابن بحيث أنّ السلفة هي الكنّة وهكذا فإنّ لفظة "سالفة" تعادل في حقيقة الحال لفظة "جنة", وتستعمل كلمة "سَلاف" في اللّغة الإنقليزيّة

في معنى العَبْد والخادم بحيث أنّ كلمة "سلاف" تفيد أيضا معنى الإنسان والبشر المُقرّدين والمُدَجَّـنِين.

وعلى هذا الأساس يمكن أنّ نقول أنّ قصّة الجنّة هي بالفعل قصّة الإنسان وأنّها سالفة باعتبارها تروي ظروف بروز وظهور فئة السّلاف بمعنى فئة الإنسان والبشر المُقرّدين والمُدَجَّـنِين والمستعبدين.

وأشرنا إلى أنّ الملائكة الذين يرمزون إلى طبقة النّساء والمقرّبين من الأسياد داخل الأسر الإنسانيّة في قديم الزّمان يُسمّون باسم "إنس" في بعض اللّغات الأوروبية وكذلك باسم "ألف" وتتخذ كلمة "ألف" أحياناً صيغة "سلف".

وتطلق كلمة"جنة" في العربية على الحديقة والبستان ويعبّر على الحديقة في الانقليزية باسم "قاردن" ويتخذ في الفرنسية صيغة "جاردن" بالجيم التي تنطق "قاردن" هي الأخرى عند الشعوب التي تعوّض الصوت "جا" بالصوت"قا" المنطوق على الطريقة الريفية في تونس.

وقد ذكرنا أنّ لفظة "قاردن" تطلق على الخادم والتابع والعبد والعون وعلى حاشية الملك في العديد من اللغات وهي مشتقة من لفظة "قرد" بحيث أنّ اسم"جنة" و"قرد" و"إنسان" متعادلة.

كما ذكرنا أنّ كلمة "قارد" تطلق على الحراس والأعوان في سياق اللغة الفرنسية وقد أطلق اسم "جنّة" على الحدائق والبساتين والغابات امتدادا لاستعمال الإنسان والجماعات البشرية للأشجار والغابات مساكن يأوون إليها عند الراحة إلى جانب الأكل من ثمارها.

فقد كان الإنسان ومازال إلى اليوم يعيش في الغابات ويستعمل الأشجار لينام فوقها ويأوي إليها مثلما تفعل الحيوانات فكانت كلّ أسرة تأوي إلى بعض الأشجار بعد البحث عن الطعام والشراب في الغابة وتنام فوقها. وكان لكلّ فرد شجرة بحيث أنّ الأشجار والغابات حملت الأسماء التي تطلق على البشر وعلى الأسر والفئات البشرية مثل كلمة"جنة", ورأينا أنّ الأبناء يسمّون باسم "تروة" و"تري" في بعض اللغات الإنسانية وتطلق كلمة"تري" في الانقليزية في معنى الشجرة. كما تستعمل كلمة"سلف" في اللاتينية وفي بعض اللغات الأوروبية الناقلة عنها في معنى الغابة.

ففي هذا السياق كان السكان في جهة الجريد بجنوب البلاد التونسية إلى عهد قريب جدّا ينحلون المولود الجديد ويهدون له شتّى الهدايا ومن جملتها نخلة باسمه تكون ملكا له في حياته وتسمّى العملية باسم "تحيلة" من الفعل"نحل, ينحل" وهناك قرابة صوتية واضحة بين لفظة "تحيلة" ولفظة "نخلة" خاصة إذا ما صُغّرت في صيغة "نخيلة", كما أنّ السكان في تونس يعتقدون إلى اليوم أنّ كل شخص من البشر له شجرة في الجنة ويبقى على قيد الحياة مادامت تلك الشجرة نضرة وحيّة وعندما تموت الشجرة وتذبل فإنّ الشخص يموت معها. والملاحظ أنّ هذا الإعتقاد منتشر عند الكثير من الشعوب الإنسانية في أشكال متعدّدة.

وتسمّى الجنة والغابة باسم"حديقة" و"بستان" في سياق اللغة العربية وفي هذا السياق فإنّ لفظة"حديقة" كانت تفيد في الأصل أيضا معنى المرأة والزوجة والأسرة والحيّ البشري والأسطورة ثمّ أطلقت على الأجنّة والبساتين على غرار كلمة "جنّة" و"كنّة".

فلفظة"حديقة" تتركب من لفظة"أح" التي اشتقت منها كلمة"حي" ومن لفظة "ديكة" التي تفيد معنى المرأة والزوجة والأسرة والآل مثلما أوضحناه في سياق تحاليلنا لأسطورة عجز الدجاجة عن الطيران. كما تستعمل كلمة "ديكو" في اللاتينية واللغات الأوروبية الناقلة عنها كالإيطالية في معنى القول والذكر وتعتبر الأسطورة نوعا من القول والذكر.

وتسمّى الحديقة باسم "قاردن" في اللغة الانقليزية والفرنسية وقد حللنا المعاني والأبعاد الحقيقية للفظة "قاردن" و"قرد" في تحاليلنا المتقدمة في سياق شرح المعنى الحقيقي لأسطورة أصل القرد والقردة وذكرنا أنّ كلمة"قرد" و"قاردن" و"كرد" و"أكورادن" تفيد معنى المرأة والزوجة والأسرة والعائلة والبشر المدجنين العائشين في إطار أسريّ واجتماعيّ يخضع لبعض الأعراف ويرجع بالنظر إلى بعض الرؤوساء. كما أنّ كلمة "بستان" التي تعادل في العربية كلمة حديقة كانت تفيد في الأصل معنى الزوجة والمرأة والأسرة والمنزل والحيّ ثمّ أطلقت على الحديقة والبستان في المعنى المألوف. فكلمة"بستان" تتركب من لفظة"بست" التي هي صيغة من صيغ الصفير عند الإنسان إلى جانب لفظة"أست" التي تطلق على المرأة والزوجة في صيغة"سِتْ" وعلى الأسطورة بزيادة المقطع "إر" وتستعمل كلمة "بست" في معنى المنزل والمحطة والمركز في بعض اللغات الإنسانية كالفرنسية.

ويطلق على الأسطورة إسم "مِيتْ" في اللغة اليونانية وفي أغلب اللغات الأوروبية نقلا عنها ومنها جاءت كلمة "ميتولوجيا" التي تستعمل أحيانا في الدراسات العربية في معنى علم الأساطير وكذلك في معنى الأساطير أيضا وهي

تتركب من لفظة"ميت" التي تعني الأسطورة ولفظة "لوجيا" أو "لوغوس" ومعناها العلم.

فقد وجدنا أنّ كلمة"ميت" تفيد معنى المرأة والبيت والمنزل والدّار والحيّ والمدينة حيث تستعمل كلمة"ميت" في المصرية القديمة في معنى المنزل والحيّ والمدينة ومازالت بعض المدن في مصر تعرف باسم"ميت" مثل مدينة"ميت أبو الكوم".

كما تطلق كلمة "ميت" و"موت" في اللغة الأكادية القديمة على الزّوج والبعل والرّجل بينما تطلق كلمة "تاماتوت" في اللغة البربرية على المرأة وهي مؤنث "موت".

ونعتبر أنّ كلمة "ميت" هي صيغة لفظية لكلمة "أمَة" التي تطلق في اللغة العربية على الجارية والزوجة وكذلك على الأمّ في صيغة "أم" وقد كانت الأمّ تعني في الأصل المرأة والزوجة مقارنة بالأب والبعل والزوج وبالأساس المرأة الكبيرة والسّيدة وتستعمل كلمة"ميت" في اللغة الانقليزية في معنى التجمّع وتعتبر الأحياء والقرى والأسر تجمّعات بشريّة.

وقد أشرنا إلى أنّ كلمة"أمة" أو"أمت" تفيد أيضا معنى التقليد والاتباع كما هي الحال في اللغة الفرنسية وكذلك التخاطب بالإشارة والتلعثم في الكلام كما هي الحال في العربية في صيغة "أومأ" و"مأمأ" كما تطلق على الصوت الذي يحدثه الغنم والماعز بحيث أنّ أصل كلّ الألفاظ والكلمات المذكورة هو الصوت"أم" الذي يطلقه الإنسان بصورة غريزية في حالات الحيرة والاضطراب والعجز عن التعبير عن رأي معين باللفظ المفهوم وهو من هذه الناحية يعادل

مواء القطط وثغاء الغنم وقد أطلق في الأصل على الجماعة والقطيع من البشر التابع لأحد الأشخاص والمتكوّن في الأساس من الإناث في العهود التي كانت فيها بعض الجماعات البشرية تتخاطب بالإيماء والمأمأة وأشرنا إلى أنّ هذه الطريقة في التخاطب ظلّت سارية عند بعض الفئات في بلاد فارس إلى عهود قريبة نسبيّا وتسمّى باسم الزمزمة حتّى أنّ لفظة"يزوم" تستعمل إلى اليوم لوصف صياح البقر.

ثمّ إنّ لفظة"أم" ومشتقاتها أطلقت على التجمعات البشرية والأسر والأحياء وعلى الشعوب الإنسانية بصفة عامة في صيغة"أمّة" كما هي الحال في اللغة العربية حيث تستعمل كلمة "أمّة" في معنى الشعوب المنتمية إلى أصل واحد أو يجمع بينها قاسم مشترك واحد. وقد وجدنا أنّ كلمة "أمي" تستعمل في سياق اللغة البربرية في معنى الحكاية والقصّة والأسطورة.

كما أنّ كلمة"خرافة" التي تعادل كلمة أسطورة في العربية تفيد هي الأخرى معنى الدّار والمنزل والحيّ والأسرة حيث أنّ كلمة"خرافة" هي صيغة لفظية لكلمة"غرفة" و"غرف" التي تطلق في سياق اللغة العربية على البيت والمنزل والمسكن إعتبارا لتعادل الصوت"غا" والصوت "خا".

كما أنّ لفظة"أسطورة" التي تطلق على الحكايات الأسطورية والخرافات والقصص عموما في العربية وفي العديد من اللغات الإنسانية تفيد معنى المرأة والأسرة والحيّ والتجمّع البشري والسكني حيث أنّ كلمة"أسطورة" مأخوذة من كلمة"أست" التي تستعمل في معنى المرأة في صيغة"ست" في العديد من اللغات كالعربية وكذلك في معنى المؤخرة وتطلق كلمة"مؤخره" في الإسبانية على الفتاة والمرأة في صيغة "موخيرة" كما تطلق كلمة "ماخور" في تونس على محلّ البغاء

العلني ويضمّ عادة مجموعة من النّساء اللواتي يتعاطين البغاء ويُقدّمن أجسادهنّ للرّاغبين في اللّذة الجنسيّة وبالفعل مازالت الزّائدة "إر" الملحقة بكلمة "إست" في عبارة "أسطورة" تستعمل إلى اليوم في العديد من اللّغات كالفارسيّة والفرنسيّة لتأدية معنى المكان والتّجمّع بحيث أنّ كلمة "أسطورة" تفيد التّجمّع النّسائي والتّجمّع البشري عموما وتنطق هذه الكلمة في الفرنسيّة في صيغة "إسْتوَار" وفي الإنقليزيّة في صيغة "سْتُورِي" وفي اللاتينيّة في صيغة "إسْتُورِيا".

ويطلق على الأسطورة والخرافة أيضا اسم "تال" و"طال" و"طل" في سياق اللّغة الأنقليزيّة وتستعمل كلمة "تال" في صيغة "تلات" و"إلت" في معنى المرأة والبنت في سياق العديد من اللّغات كالبربريّة ومنها جاءت كلمة "ألّة" و"لّلة" التي مازالت تستعمل إلى اليوم بكثرة في تونس والبلدان المغاربيّة في معنى المرأة والسّيدة.

كما تستعمل كلمة "تل" في معنى الهضبة والجبل كما هي الحال في العربيّة إمتدادًا لإطلاقها على الأسر والأحياء البشريّة التي غالبا ما كانت تقام فوق الهضاب المشرفة على العيون والأنهار فضلا عن اشتمالها على تلال من المزابل والفضلات المتراكمة حيث أشرنا إلى أنّ الأحياء البشريّة كانت في بداية التّاريخ تحتوي حتميّا على تلال وأكوام من الفضلات البشريّة والحيوانيّة ونبّهنا إلى أهميّة هذه الفضلات في التّعريف بهويّة البشر وبأحوال الأحياء البشريّة.

وتستعمل كلمة "طل" و"طلل" في العربيّة في معنى الأحياء والدّيار والمنازل المتْرُوكَة والمهجورة وعلى هذا الأساس فإنّ كلمة "تل" وصيغها الأخرى تفيد معنى المرأة والأسرة والعائلة والدّيار والحيّ إلى جانب تأديتها لمعنى القصّة والأسطورة والخرافة.

وقد إشتَهر العرب في الجزيرة العربيّة قديما بعادة الوقوف على الأطلال والأحياء القديمة المهجورة والتّغنّي بها في أشعارهم ونعتبر أنّ هذه العادة هي في الأصل شكل من أشكال قصّ الأساطير التي هي أخبار تاريخيّة تروي للأجيال المتأخرة من النّاس ما قام به أجدادهم وأسلافهم من أعمال حقيقيّة لتأسيس الأسر والقبائل والشّعوب التي ينتمون إليها.

فقد كانت المجتمعات الإنسانيّة تقصّ أساطيرها وخرافاتها في بعض المناسبات الكبرى وأثناء السمر في الليل كما هو الشأن إلى يومنا هذا استحضارا لوقائع الماضي وجَرْيا على سُـنّة وعادة الأجداد والأسلاف الذين كانوا يَحكُون بالكلمة والحركة والصّوت أخبارهم وما جرى لهم من وقائع وأحداث في إطار نَـقْـل وتلقين المعارف وتربية وتعليم الأجيال الجديدة بغرض التّرويض والتّدجين. فالأساطير هي أخبار تاريخيّة تنقل وتروي في أغلب الحالات للظروف التي أدّت وأفضت إلى تأسيس بعض الأسر والعائلات والأحياء البشريّة القديمة من طرف بعض الأشخاص من البشر وما قام به هؤلاء الأشخاص من أعمال وما كابدوه من شدائد ومِحَنٍ في سبيل إنشاء تلك الأسر والأحياء البشريّة.

وقد رأينا أنّ قصّة جنّة الخلد والفردوس هي خبر تاريخي يروي الظروف التي حفـّت بظهور أسرة بشريّة قديمة تسمّى باسم أسرة الإنسان أو الإنسان على وجه الأرض مثلما أنّ الأسطورة المتّصلة بأصل القرد والقردة هي خبر تاريخي ينقل الظروف التي حفـّت بظهور أسرة إنسانيّة قديمة كانت تحمل اسم القرد وكذلك الشأن بالنّسبة لأسطورة أصل القنفد وأسطورة عجز الدجاجة عن الطيران.

وأشرنا إلى أنّ إسم"إنسان" و"قرد" و"آدم" و"ديك" و"ديكة" و"قنفد" متعادلة ومتكافئة كما أوضحنا أنّ كلمة "إنسان" تفيد معنى الأسرة والأهل وكانت تطلق بالنسبة لكل أسرة على الأفراد المنتمين لتلك الأسرة دون سواهم من البشر ما لم يتعرض هؤلاء البشر الآخرين إلى التقريد والترويض والتدجين فيلتحقون بتلك الأسرة ويرتقون مثل أفرادها إلى منزلة الإنسان ويتحولون إلى حال الإنسان ويصبحون من عداد الإنسان.

وأشارت أسطورة الخلق البابلية إلى أنّ الإنسان خلق من طين ممزوج ومعجون بدم بعض الآلهة بحيث أنّ الإنسان هو كائن نصفه إله ويلتقي إنسان الأسطورة البابلية في هذه الخاصية مع العديد من الأبطال الذين كان اليونانيون القدماء والكثير من الشعوب الأخرى يقدسونهم ويعتبرونهم أنصاف آلهة لأنّ آباءهم من الآلهة وأمهاتهم حسناوات من البشر مثل البطل اليوناني هرقلس الذي أنجبته حسناء من البشر اسمها سيميلي بعد مواقعة الإله زوس عظيم الآلهة عند اليونانيين القدماء.

فقد كان اليونانيون القدماء يعتبرون أنّ هؤلاء الأبطال نصفهم آلهة ونصفهم بشر.

فأنصاف الآلهة الذين تتحدث عنهم الأساطير يرمزون بصفة خاصة إلى الأبناء الذين كان ينجبهم الأسياد من مواقعة جواريهم وإيمائهم وسراياهم وسباياهم وتبعا لذلك فإنّ هؤلاء الأبناء هم عبيد وموالي من جهة أمهاتهم وأسياد ونبلاء من جهة آبائهم, فهم أشخاص نصفهم أسياد ونصفهم عبيد وهذا هو المقصود من قول الشعوب والأساطير عن البعض من الأبطال الأسطوريين إنهم أنصاف آلهة ولاحظنا أنّ الأخ غير الشقيق يسمّى باسم نصف أخ في الفرنسية

مع أنّ أمّ الأخ غير الشقيق يمكن أن تكون زوجة الأب وما زالت في عصمته في إطار النظام الأسري القائم على تعدّد الزّوجات.

وعلى هذا الأساس يمكن القول بأنّ اعتبار الإنسان كائن نصفه إله ونصفه بشر يرمز إلى إزدواجية الأبناء والأولاد بصفة عامة حيث أنّ الإبن هو نصف إله من جهة أبيه ونصف بشر من جهة أمه, فقد ذكرنا أنّ الأب والزّوج كان أوّل سيّد يبرز للوجود ومازال يعتبر إلى اليوم سيّد الأسرة ورئيسها في حين أنّ زوجته ونساءه يعتبرن مماليك وتابعات له لأنّه تحصّل عليهنّ وجعلهنّ قريناته بعد أن قام بتفريدهنّ وترويضهنّ وتدجينهنّ فأصبحن زوجاته يألفنه ويأنسن له وارتقين بفضله إلى منزلة الإنسان بعد أن كنّ مجرّد بشر.

ومازال السكان في تونس وفي البلدان المغاربية عموما يروون إلى اليوم العديد من الأساطير والخرافات التي يقوم بدور البطولة فيها شابّ تقول عنه هذه الأساطير والخرافات إنّه نصف إنسان ويسمّى داخل هذه الأساطير والخرافات باسم "النصيف" وهو تصغير"نصف" ويعني النصف الصغير. ومع ذلك فإنّه يتمتّع بذكاء حادّ وشجاعة نادرة ويبزّ أصحابه وأنداده العاديّين.

وأشرنا إلى أنّ الأساطير البابليّة والعراقيّة القديمة تحكي بأنّ الإنسان هو كائن خلق من تراب الأرض أو من طين ممزوج بدم أحد الآلهة حيث تذكر هذه الأساطير أنّ الآلهة قرّروا خلق الإنسان إثر حرب نشبت بينهم بسبب استغلال بعضهم البعض ففكّروا في خلق الإنسان ليخدمهم ويريحهم من عناء العمل وكلّفوا لهذا الغرض أمّهم الكبيرة التي خلقت الإنسان من طين ممزوج بدم أحد الآلهة الذي تمّ ذبحه للغرض وكان من صفّ المغلوبين في الحرب فلأجل ذلك جاء الإنسان كائنا نصفه إلهيّ وسماويّ ونصفه الآخر بشريّ وأرضيّ.

فقد أوضحنا أنّ الأرض تسمّى باسم "تِرْ" في سياق اللغة الفرنسية ويفيد إسم "تِرْ" معنى الأبناء والأولاد والذين في وضعهم من التابعين للأب وربّ الأسرة حيث يسمّى الأولاد باسم "تروة" في اللغة البربرية وهو اسم مشتقّ من لفظة "تِرْ" وهي لفظة زجريّة وتستعمل للزّجر والنّهر على غرار لفظة "جن" و"بن" و"كس" و"بس".

كما أنّ كلمة"طين" هي صيغة لفظيّة لكلمة "تين" و"تن" التي تعادل معنويا كلمة "جن" و"بن" وتتركّب من الصوت "إتْ" والصوت "إنْ" وهما صوتان طبيعيان يستعملهما الإنسان بصورة غريزية للزّجر والنّهر والتّحذير والتّخويف مثلما شرحناه في تحاليلنا المتقدّمة.

ومازالت لفظة"إن" تطلق على الأبناء كما هي الحال مثلا في اللغة الفرنسية, كما أنّها تطلق في الفرنسية أيضا على الناس عموما وتعادل من هذه الناحية كلمة"جن" و"جان". ويسمّى الابن الأكبر أو البكر في العائلة بالفرنسية باسم "إيني" كما أنّ كلمة "أنثى" و"ناس" مشتقة من لفظة "إن" مع زيادة الصوت "سا" أو"أس". وتطلق كلمة"إنس" في العربية على البشر وبني الإنسان وخاصة البشر المدجّنين والمنتمين إلى الأسرة والعائلة والأهل والأقارب في حين تستعمل لفظة "أنّة" في العربية في معنى المرأة والزوجة كما أنّ كلمة "أنثى" التي تطلق في العربية على المرأة تتركّب من الصوت"إن" في حين تستعمل كلمة "أونت" في الأنقليزية في معنى الخالة وتستعمل كلمة "نينة" في معنى المرأة والسيدة في المجتمعات العربية وهي تتمثّل في ترديد الصوت "إن" مرّتين في حين تستعمل كلمة "أنت" في بعض اللهجات البربرية في معنى الإبن والأبناء.

وعلى هذا الأساس فإنّ كلمة "طين" تفيد في الأصل معنى المرأة والزوجة والأسرة والأولاد وهي من هذه الناحية تعادل لفظة "جنّة" و"كنّة" و"حنّة".

ومازالت كلمة "دونا" و"دنيا" التي هي صيغة لفظيّة لكلمة "طين" و"تينة" تستعمل إلى اليوم في اللغة الإيطالية والإسبانية في معنى المرأة والسيدة كما أنّ اسم "دنيا" يستعمل في المجتمعات العربية كاسم علم للنساء, فقد لاحظنا أنّ السكان في بعض قرى الجنوب التونسي يسمّون إست الإنسان باسم "تينة" نقلا عن اسمها بالبربرية وخاصة ألية العلوش والخروف-التي تسمى باسم "تادينت" بالبربرية وذكرنا أنّ اسم"أست" يستعمل في معنى المرأة في صيغة"ست" في المجتمعات العربية.

ورأينا في بعض الخرافات التي سقناها أنّ بطلتها تسمّى باسم دنيا وهناك بعض الخرافات التي تسمّى بطلتها باسم بنت ربع الدنيا.

فقد كانت لفظة "دنيا" تطلق في الأصل على المرأة المتزوّجة مثل كلمة "جنّة" و"كنّة" ثمّ امتدّ معناها إلى الأسرة والحيّ وتوسّع تدريجيا إلى أن شمل الدّنيا بأسرها كما هو الشأن بالنسبة لكلمة"كون" التي استعملت في الأصل في معنى المرأة في صيغة "كنّة" و"خنّة" و"كون" ومازال فرج المرأة يسمّى باسم "كون" إلى اليوم في اللغة الفرنسية ثمّ استعمل في معنى الكوخ ذي الشكل المخروطي ومازالت كلمة "كون" تستعمل إلى اليوم في اللغات الأوروبية في معنى الشكل المخروطي نقلا عن اليونانية وتوسّع معناها تدريجيا إلى أن شمل الوجود بأسره حيث تستعمل كلمة"كون" في العربية في معنى العالم والوجود بأسره.

المعني الحقيقي لتقديس الآلهة والملائكة والجن والحيوانات:

ورايتا ان الحيوانات الناطقة والعاقلة التي تتحدث عنها الاساطير والخرافات الشعبية ترمز ايضا الى بعض الفئات من البشر الذين عاشوا في قديم الزمان وكانوا يحملون اثناء وجودهم فوق الارض اسماء هذه الحيوانات تعبيرا عن وضعيتهم ومكانتهم الطبيعية والاجتماعية وعن الصفات والخصال البشرية المميزة لهم دون غيرهم من الفئات الاخرى.

ومن هذا المنطلق فان ما يسمى بتقديس الآلهة والملائكة والجن والحيوانات يرمز في حقيقة الحال الي مظاهر من تصرف وسلوك البشر ازاء بعضهم البعض .فان تصرف البشر وسلوكهم ازاء بعضهم البعض يتخذ اشكالا متنوعة بحسب الانتماءات الفئوية والاسرية والدموية والاجتماعية وعلى هذا الاساس فان التقديس بمختلف اشكاله هو مظهر من مظاهر تصرف وسلوك البشر ازاء بعضهم البعض .

فان التقديس يعود في الاصل الى الاحترام القائم على الشعور الطبيعي بالخوف من كل ما يبعث على الخوف ويثير بطبعه الرعب والذعر في النفوس بحيث ان التقديس يجسم الشعور الطبيعي بالخوف من كل ماهو مخيف بطبعه لاسباب حقيقية ومادية ومحسوسة كالغابات الموحشة والاماكن المنعزلة والجبال الشاهقة والغيران السحيقة والحيوانات المتوحشة ومثل الاب بالنسبة لابنائه وبناته وحريمه وزوجاته فانه مخيف ايضا لانه يبطش بمن يثير غضبه ومثل القوي بدنيا بالنسبة للضعيف بدنيا ومثل الكبير بالنسبة للصغير والسيد بالنسبة للعبد والرئيس بالنسبة للتابع .

ففي هذا السياق نشير الى ان كلمة " قدس " تتركب من لفظة "قد" ومن لفظة "أس" وتتخذ لفظة "قد" صيغة "قت" و "قط" ويعود اصلها الى الصوت "أخ" و"أخة" و"أخت" و "أخط" الذي يطلقه الانسان بصورة غريزية عند الشعور بالغضب والانفعال والانزعاج والخوف والفزع والهلع وماشابهها من الحالات المزعجة والمقلقة فاصبح اطلاقه يجسم الغضب والانفعال والانزعاج والخوف والفزع وما يمثله الغضب والانفعال والانزعاج والخوف والفزع من حالات كفيلة بجعل الذي تتملك به مخيفا ورهيبا وقادرا على الحاق الشر والاذى للمتسبب في اثارتها فاصبح الصوت "اخ " و"اخة" يبعث بدوره على الخوف ويزجر ويبعد ويردع ويمنع ويحمي من الشرور والاعتداءات بمختلف انواعها.

كما ان الصوت "أس" هو ايضا صوت طبيعي يطلقه الانسان في حالات الغضب والانفعال والخوف والهلع بواسطة التصفير والصفير على غرار ما تحدثه الكثير من الحيوانات من صياح في مثل هذه الحالات فاصبح اطلاقه يخيف ويرعب ويجعل من الذي يطلقه مخيفا ورهيبا ومن الاحسن الابتعاد عنه وعدم الاحتكاك به.

ففي هذا السياق يسمى الاله باسم "قط" في الالمانية في حين يسمى باسم "قد" في الانقليزية ويجمع على صيغة "قدس" واشرنا الى ان الآلهة يرمزون الى الاباء والاجداد والكبار والاسياد والرؤوساء داخل الاسر والجماعات البشرية التي عمرت الارض في العهود الاولى من التاريخ الانساني ويستعمل كلمة "قط" و"قدس" لتسمية الحيوان المعروف باسم "قط" في العربية والعديد من اللغات الانسانية الاخرى ويسمى ايضا باسم "هر" في العربية وتستعمل كلمة "هر" في الالمانية في معنى السيد وهي ماخوذة من الصوت "ار" الذي يطلقه الانسان

بصورة طبيعية في حالات الغضب والانفعال والخوف والانزعاج فاصبح يجسم العضب والخوف والتخويف مثل الصوت "اخ" والصوت "أس" وقد كانت الحيوانات في معظمها متوحشة ومخيفة ومصدر خوف بالنسبة للانسان قبل ان يتعلم تدجينها وتربيتها كما كان البشر بصفة عامة مصدر خوف وذعر بالنسبة لبعضهم وكانوا مصدر خوف وذعر بالنسبة للحيوانات كما كانت الحيوانات مصدر خوف وذعر بالنسبة لبعضها.

وعلى غرار البشر كانت رقعة الارض التي تعيش فيها كل اسرة وكل مجموعة بشرية بدورها محرمة ومقدسة ومخيفة وتبعث على الخوف والرعب بما فيها من اشجار وحيوانات وانهار وعيون لانها تعتبر ملكا خاصا لتلك الاسرة والمجموعة وتوجد تحت حمايتهم وفي حماهم فاكتسبت بهذه الصفة وبفضل اصحابها حرمة واصبحت تبعث على الخوف ويستوجب الاحتياط منها وعدم الاقتراب منها والانتفاع بحيواناتها واشجارها مخافة التعرض الى بطش اصحابها.

وبهذه الصفة فان المقدس اتخذ طابع المحرم الذي ينبغي الحذر منه اتخاذ بعض الاحتياط للاقتراب منه والانتفاع به بشكل من الاشكال كتقديم ض الهدايا والعطايا لاصحاب الارض مقابل الانتفاع بخيراتها واشجارها وحيواناتها وعيونها وتقديم بعض الضرائب للرئيس والحاكم مقابل التمتع بحمايته.

ومن هذا المنطلق فان التحريم الذي يحيط بالمقدس في كل المستويات كعدم اكل لحم بعض الحيوانات بالذات يعبر عن الحرمة التي يحظى بها ذلك المقدس بحكم طبيعته المخيفة لاسباب حقيقة ومادية ومحسوسة بحيث ان المقدس

هو مخيف ومضر بطبعه ولهذا السبب يحظى بالاحترام والتعظيم ويبعث على الخوف والحذر والاحتياط مع انه يمكن ان يكون اليفا وانيسا وقريبا وعزيزا.

ولهذا السبب يمتزج التقديس والتحريم بالشعور بالاشمئزاز والنفور والخوف والخشية تجاه المحرم والمقدس حتى ان لفظة "اخ" و"اخة" التي اشتقت منها كلمة "قدس" تستعمل في معنى القذر والوسخ في تونس وفي العديد من البلدان الاخرى في صيغ متعددة وخاصة صيغة "كخة" .فان كلمة "كخة" التي يستعملها السكان في تونس مثلا في معنى الاشياء الوسخة والقذرة والمضرة تتمثل في ترديد الصوت "اخ " بحيث ان اصلها هو لفظة "اخة اخة" المتركبة من ترديد وتكرار الصوت "اخة" فادغم الصوتان واتخذت اللفظة صيغة "كخة" بحكم تعادل الصوتين "خا" و"كا" .

ومازال السكان في تونس يستعملون لفظة "كخة" للزجر والنهر والابعاد والتخويف والتنبيه والتحذير من كل ما هو مضر ومخيف ووسخ وقذر .

ومن هذا المنطلق يمكن القول بان الاشمئزاز من بعض الحيوانات والامتناع عن اكل لحومها يعود في الاصل الى اعتبارها حيوانات مقدسة ومحرمة وقد اكتسبت هذا الطابع المقدس لانها كانت مخيفة وتثير الخوف لبعض الاسباب الحقيقية والمادية والمحسوسة كوجودها تحت حماية بعض الاسر والجماعات البشرية بوصفها حيوانات اهلية واليفة او لعيشها في غابات يسكنها بعض الاقوام من البشر فاكتسبت تلك الغابات والحيوانات العائشة فيها حرمة وطابعا مقدسا بفضل وجودها في حمى اولئك الاقوام .

ففي هذا السياق كان المصريون القدماء واللوبيون سكان بلدان شمال افريقيا في القديم يكرهون اكل لحم الخنزير ومازالت المجتمعات الاسلامية تمتنع الى اليوم عن اكل لحم الخنزير وتعتبره قذرا ويبعث على الاشمئزاز.

فقد وجدنا ان الخنزير يسمى باسم "حلوف" في تونس في حين يسمى في البربرية باسم "الف" وتعتبر كلمة "حلوف" صيغة لكلمة "حلف" التي تعني الاصحاب والاقارب والتابعين والموالي في العربية كما تستعمل كلمة "الف" في العربية في معنى الاهل والاصحاب والاقارب بحيث ان كلمة "الف " و"حلف" متعادلتان لفظيا ومعنويا-وعلى هذا الاساس فان الخنزير اكتسب طابعا مقدسا لانه يرمز في الاصل الى شيء اليف وحليف ويعتبر الاليف والحليف مقدسا ومحرما لانه يخيف ويبعث على الخوف بفضل الحماية التي يتمتع بها من اصحابه واهله وحلفائه .

كما يسمّى الخنزير باسم "بورك" في اللغة الفرنسية وفي هذا السياق نعتبر أنّ لفظة "بوزك" هي صيغة لفظية لكلمة"بارك" التي تفيد معنى الحديقة والجنّة والزريبة في العديد من اللغات الإنسانية كالفرنسية والانقليزية والبربرية وتتخذ في اللغة البربرية صيغة "أفراق". وتستعمل كلمة"بارك" في اللغة العربية في معنى المقدّس والمحرّم في صيغة "بركة" و"مبارك" و"مبروك" و"تبارك".

ففي هذا المجال نرى أنّ كلمة "بركة" التي تفيد معنى المقدّس والمحرّم في اللغة العربية والمجتمعات العربية عموما كما هو الحال في تونس هي صيغة لفظية لكلمة "بارك" التي تفيد معنى الحديقة والجنة والبستان والزريبة كما هي الحال في الفرنسية والانقليزية والبربرية, وقد كانت كلمة "بارك" تفيد في الأصل معنى الزوجة والأسرة والحريم والحرمة عموما على غرار كلمة "جنّة" و"حديقة"

و"بستان" مثلما شرحناه في تحاليلنا المتقدّمة ثم اطلقت على الجنة والحديقة والبستان والزريبة لان الاسر والجماعات البشرية يسكنون ويعيشون عادة في الجنان والحدائق والبساتين والزرائب المسورة بعد ان كانوا يعيشون في الغابات وكهوف الجبال ولكن مساكنهم تعتبر مقدسة وتتمتع بحرمة مهما كان نوعها .

ومازالت لفظة "بركة" تفيد في سياق اللغة البربرية معنى الدار والزريبة المحاطة بسور يحدّها من جميع الجهات ويحميها ويمنع الدخول إليها وقد كانت الأسر الإنسانية ومازالت إلى اليوم تعيش في أحياء وبيوت وديار مسوّرة ومحاطة بزرب تحميها من الدخلاء بحيث أنّ البركة كانت تفيد اساسا الأسرة المقيمة في حيّ خاصّ بها باعتبارها فضاءا محرّما وملكا خاصا يُمْنَعُ على الأجانب وغير المنتمين له دخوله والاتصال بأفراده ونسائه على وجه الخصوص مخافة إثارة غضب صاحب تلك الأسرة والتعرّض إلى بطشه على غرار المواطن الأجنبيّ الذي يمنع عليه في وقتنا الحاضر اجتياز حدود بلد آخر ما لم تكن له رخصة تسمح له بذلك.

وقد لاحظنا في هذا السياق أنّ السكان في البلاد التونسية يستعملون لفظة "بركة" للتعبير عن العدد واحد فيقولون مثلا "بركة, إثنين, ثلاثة", إلى غير ذلك. فنحن نعتبر أنّ اسم"واحد" مشتقّ من لفظة "حدّ " التي تفيد في العربية الشيء الفاصل الذي يمنع اجتيازه ويجمع على صيغة "حدود" فيقال مثل ا"حدود البلاد" و"حدود الحقل" و"حدود البستان" و"حدود الله", وعلى هذا الأساس فإنّ كلمة"بركة" تفيد معنى الحدّ والحدود, فكانت تفيد معنى المرأة المتزوّجة والأسرة والعائلة والمنزل الذي تسكنه بمختلف انواعه كما كانت تفيد معنى الحدّ والحدود, فكانت ترمز في الأصل إلى حدود الأسرة والأحياء البشرية والممتلكات العقارية ولذلك

سمّيت الأسر والأحياء والديار والبيوت والزرائب المسوّرة باسم"بارك" باعتبار أنّ الأسرة وحدودها شيء واحد كما أنّ الحدّ وحامي ذلك الحدّ شيء واحد.

وتقوم الأسرة البشرية على الزّواج والاقتران بين الرجل والمرأة إثر قيام ذلك الرجل بتقريد وترويض وتدجين تلك المرأة فتصبح تلك المرأة زوجته وقرينته وتكتسب بفضل هذه الوضعية حرمة وهيبة مستمدة من حرمة وهيبة الزوج باعتبارها تابعة له وملكا خاصا له من حقه أن يدافع عنها كدفاعه عن نفسه وطعامه وشرابه وعلى هذا الأساس فإنّ المرأة المتزوجة ومن ورائها الأسرة التي تقوم عليها والحي الذي تسكن فيه تصبح "بركة" بمعنى حرمة ومقدّسة ومحرّمة على غير صاحبها من باب الخوف من إثارة غضب صاحبها والتعرّض إلى بطشه .

فان كل الاشياء هي في الواقع مقدسة ومحرمة بمعنى انها تبعث على الخوف والحذر بما في ذلك البشر بشتى فئاتهم و الحيوانات والاشياء الجامدة بمختلف ا نواعها كجريدة النخل البسيطة الملقاة على الارض فانها تتسبب في الالم للآخرين بشوكها الذي يخز من يدوس عليها كما ان الانسان يستعملها احيانا كسلاح للهجوم والدفاع معا. فان الشيء هو مقدس ومحرم بذاته لان كل الاشياء تبعث على الخوف وخاصة بالنسبة للانسان في العهود الاولى من التاريخ الانساني فانه لم يتعلم تدجين الطبيعة وترويضها.

فليس هناك في حقيقة الحال تقديس للاشياء في المعنى الذي يتصوره الناس وانما يتعلق الامر في كل الحالات بالشعور الطبيعي بالخوف من اشياء حقيقية ومحسوسة لاسباب حقيقة ومحسوسة .

وقد اهتمّ العلماء بهذه الظاهرة ودرسوها كاهتمامهم بالأساطير والخرافات الشعبية ولا سيما بعض العادات والتصرفات التي تبدو في الظاهر انها تقديس للحيوانات في المطلق وأطلقوا عليها في كتبهم المختصة اسم "طوطميسم" أو "توتميسم" نقلا عن كلمة "طوطم" و"توتم" التي يطلقها بعض قبائل الهنود الحمر في القارة الأمريكية على حيوانات كانوا يعتبرونها مقدسة ويمتنعون عن أكل لحومها ويسمّونها باسم"طوطم" و"توتم", كما يستعمل العلماء لوصف هذه الظاهرة وظواهر أخرى شبيهة بها أيضا لفظة "تابو" نقلا عن لفظة "تابو" التي يستعملها سكان بعض الجزر في القارة الاسترالية للتعبير عن معنى المحرّم والمقدّس كالاتصال الجنسيّ بين الاخوة الذكور والأخوات الإناث والحياء من تسمية وذكر ما يتصل بالنّكاح في الحديث العادي كذكر اسم فرج المرأة وإير الرجل.

ووقع العلماء في تفسيرهم لهذه الظواهر والعادات في الأخطاء التي وقعوا فيها لدى تفسيرهم لمعنى الأساطير والخرافات الشعبية وتوهموا ان التقديس هو تعظيم واحترام في المطلق فلم يدركوا أنّ التقديس هو في الواقع الشعور الطبيعي بالخوف من المقدس باعتباره يبعث بطبعه على الخوف لاسباب حقيقية ومادية ومحسوسة كما أنّهم لم يتفطّنوا إلى أنّ لفظة "طوطم" منتشرة في العالم وتستعمل في المعنى الذي تفيده عند قبائل الهنود الحمر المذكورين.

فان كلمة "طوطم" أو "توتم" هي صيغة لفظية لكلمة "دودم" بالنظر إلى تعادل الصوت "تا" و"طا" و"دا" ويطلق اسم "دودم" عند العرب قديما على نوع من الأوساخ التي يحملها الناس لإبعاد الشرّ واتقاء الأذى والأضرار وخاصّة

منها الخرق المشوّهة بدم حيض المرأة وما شابهه بحيث أنّ كلمة "دودم" تعادل كلمة "كخّة".

كما أنّ السكان في تونس مازالوا يستعملون إلى اليوم كلمة "دُودُمّة" في معنى الشيء المخيف والمرعب وتسمّى العاصمة الرسميّة لدولة تنزانيا بإفريقيا الشرقية باسم "دودمة" .

وكذلك الشان بالنسبة لكلمة "تابو" فانها صيغة لفظية لكلمة "تاب" و"توبة" التي تطلق في العربية على نيّة وعزم الإمتناع عن فعل الشرّ والحرام وغالبا ما يأتي هذا العزم بعد التعرّض إلى العقاب على فعل بعض الشرّ حتّى أنّ الناس في تونس يمزجون بين التوبة والعقاب ويقولون عن الرجل الذي نال عقابا بالضرب لذنب اقترفه بأنّ ذلك سيكون له بمثابة "عقاب التوبة" أو "طريحة التوبة".

وتستعمل كلمة "تب" في العربية في معنى القطع والقصّ كقطع الدّابر ورأينا في بعض الخرافات التونسية أنّ عقاب اللصوص يتمثّل في قطع دابرهم أو أذنابهم مثلما حصل لقطّ أمّي سيسي في حكايات أمّي سيسي. كما أنّ كلمة "قد" التي اشتقّت منها كلمة"قدس" تفيد في العربية وبعض اللغات الأخرى معنى القطع والقصّ في صيغة "قد" و"كت" بحيث أنّ كلمة "تب" تعادل كلمة "قد" فلأجل ذلك اتخذت معنى المحرّم والمقدّس حيث أنّها ترمز في الأصل مثل كلمة"قدس" و"قطوس" إلى الاشياء المخيفة بطبعها لاسباب حقيقية ومحسوسة على غرار العقاب الذي يتعرّض له كلّ من يحاول الاعتداء على قدسيّة وحرمة الاملاك الخاصة والزوجات المحصنات وافراد الاسرة والاهل والاصحاب والاحلاف وغيرها من الاشياء المقدّسة والمحرّمة.

الفصل الثالث

المعنى الحقيقيّ للأساطير والخرافات المتعلّقة بالتّفّاح العجيب ونبات الحياة

تتحدّث الكثير من الأساطير والخرافات التي يحكيها النّـاس في تونس وغيرها من البلدان عن نوع من التّفّاح العجيب الذي يردّ الرّوح لمن يأكل منه ويعيد الشّباب لمن كبُر وشاب وتطلق عليه الخرافات التّونسيّة إسم التّفاح الذي يفوح ويردّ الرّوح ويعيد الشّائبَ شابًا وبعبارة الرّاوي "التّفاح اللّي يَفوح ويَرُدُّ الرّوح ويَرُدُّ الشّائب شباب".

وغالبا ما يجري الحديثُ عن هذا التّفاح العجيب داخل هذه الأساطير والخرافات كدواءٍ وعلاج يصفه أحد الحكماء لأحد الأشخاص مُصابٍ بمرض عضّال أو لأحد الرّجال تقدّمت به السّـنُّ ولم يُنجب أولادًا. فبعد الفحص, يُعلم ذلك الحكيم أهل الشّـخص بأنّ علاجه الوحيد هو أن يأكل شيئًا من التّـفاح العجيب ويُخبرُهم بأنّ ذلك التّفاح العجيب صَعبُ المنال وأنّ الحصول عليه

عسير لأنّ أشجاره تَنبُتُ في جَنائنَ ببلاد الأهوال والأغوال وتسهَرُ على حراسته أعوانٌ من الجنّ والعفاريت الرّهيبة الذين يَفتِكون بكل من يُحاولُ جَنيَ وأخذ شيء منه فيَتطوّعُ بعضُ أقارب ذلك الشّخص وفي الغالب أبناؤه للمُخاطرة بأنفسهم والسّفر إلى حيث توجد حدائق وجنائن التّفاح العجيب وبعد مُكابدة الشّدائد يَنجحُ أحدُهم في الحصول على التّـفاح العجيب فيعودون إلى بلادهم ويُعطُون للشّخص المريض أو الرّجل العقيم شيئا من ذلك التّفاح العجيب فيأكله ويَحصُلُ المُراد.

فنحن نعتبر أنّ هذا التّفاح العجيب يرمز إلى البنات والصّـبايا داخل الأسر الإنسانيّة في العهود الأولى من التّاريخ الإنساني بحيث أنّ كل هذه الحكايات تتعلّـق في حقيقة الحال بإختطاف وسرقة البنات والإناث من الأسر التي ينتمين إليها قصد الإقتران بهن.

فقد جمعنا في هذا السّياق خُرافةً يحكيها السكان في تونس والبلدان المغاربيّة والعربيّة عموما في صيغ متعدّدة مضمونها أنّ ملكًا كان متزوّجا بثلاثة نساء فتقدّمت به السّن ولم يُنجب فاتّصل به رجلٌ غريب وأعطاه ثلاث تفاحات ونصحه بأن يعطي لكل زوجة من زوجاته تفاحة ويضاجعهنّ فإنّهنّ يحملن وكان الأمر كذلك غير أنّ إحدى الزّوجات إقتَسَمَتْ تفّاحتها مع خادم صغير كان يخدمها فحَمَلْنَ النّساء ووَلَدْنَ أولادًا ذكورًا لكنّ المرأة التي إقتسمت تفاحتها مع خادمها ولدت إبنًا ذكرًا نصف إنسان فسمّوه النّصيف وكَبُرَ الأولاد فمرض أبوهم مرضا عضالا ولزم الفراش ففحصه أحد الحكماء ووصف لعلاجه التّـفاح الذي يفوح ويردّ الرّوح ويُعيدُ الشّائبَ شابًا وكان ذلك التّفاح يوجد ببلاد الأهوال والأغوال التي ما دخلها أحدٌ من البشر ورجع منها سالما فتطوّع الأخوان الكبيران للسّفر إلى بلاد الأهوال والأغوال وألحَّ النّصيف في مصاحبة أخويه

وخرج ثلاثتهم وقصدوا بَرَّ الأهوال والأغوال فوجدوا في الطّريق شيخا فسألهم عن وجهتهم فذكروا له حاجتهم فقال لهم إنّ مطلبهم عزيزٌ ودُونَهُ الموت ونَصَحَهم بالعودة من حيث أَتَوْا ولَمّا رآهم جادّين في مطلبهم أرشدهم إلى الطّريق وكان ذلك الطّريق يَقْطَعُه نهرٌ متلاطم الأمواج لا يستطيع عبوره إلاّ من قُدِّر له ذلك ونصحهم الشّيخ بأن يُحاول كلّ واحد منهم عبور النّهر ومن يتسنّى له منهم ذلك يُواصِلُ سيره فيجد جبلين يَتَنَاطحان باستمرار فعليه أن يَمُرَّ بينهما قبل الإطباق عليه فإذا نجح في عبور الجبلين يجد بستانا فيه من كلّ فاكهة زوجان وفي وسطه شجرة التّفاح العجيب وحولها سبع جنيّات يحرسنها من سرقة اللّصوص وعبث الغرباء فعليه أن يختفي حتّى يجنّ اللّيل و تنام عيون الجنيّات فيتقدّم على مهل دون إحداث أيّ صوت ويقطف من شجر التّفاح غصنا ويعود أدراجه جريا دون أن يلتفت وراءه فإنّ الجنّيات يفقن حالما يسمعن صوت القطف ويجرين في أثره للّحاق به والقبض عليه وإعدامه ويحاولن لأجل ذلك شتّى وسائل الإغراء والتّمويه فعليه أن لا يسمع كلامهنّ المعسول ويستمرّ في عدوه دون الإلتفات إلى الوراء إلى أن يبلغ الجبلين فيعبرهما ثمّ إلى النّهر فيقطعه ويصل إلى حيث يقيم الشّيخ مع أخويه الآخرين وقال الشّيخ للأولاد إنّ علامة نجاح أحدهم في عبور النّهر تلوح في عدم إنقباض وجهه في حين يظهر فشل الآخرين في انقباض وجهه واصفراره فعلى الآخرين الذّين يمكثان معه في انتظار محاولة الأخ الآخر أن يتابعا حالة وجهه فإذا ما رأياه انقبض واصفرّ فهي العلامة بأنّ أخاهما فشل في عبور النّهر فعليهما أن يجريا بسرعة إلى النّهر وينتشلانه قبل أن يغرق ويعودا به ريثما يجرّب الآخر حظّه فكان الأمر كذلك وفشل الأخوان الكبيران في عبور النّهر وكادا أن يغرقا لولا النّجدة ونجح النّصيف في عبوره كما تمكّن من المرور بين الجبلين المتناطحين بسلام وبلغ

البستان فدخله وتوجّه إلى موضع شجر التّفاح العجيب فرأى الجنيّات قائمات على حراسته فاختبأ حتّى جنّ اللّيل ونامت الجنيّات فقطف غصنا من شجرة التّفاح العجيب وعاد يجري لا يلتفت يمنة ولا يسرة والجنيّات في أثره وهنّ يخدعنه بالكلام المعسول ليقف أو يلتفت حتّى بلغ الجبلين فعبرهما ثمّ عبر النّهر ووصل إلى حيث كان الشّيخ وأخواه الكبيران في انتظاره فأراهما التّفاح ففرحوا. وودّع الإخوة الشّيخ وقفلوا راجعين إلى مدينتهم فعطشوا في الطّريق ولم يكن معهم ماء فوجدوا بئرا فنزل النّصيف ليملأ الماء ودلاه أخواه بحبل إلى أسفل البئر ولمّا ملأ ما يكفي من الماء قطع أخواه الحبل الذي يوصلهما بأخيهما النّصيف وتركاه في الجبّ وعادا إلى أبيهما وأشاعا بأنّهما هما اللّـذان نجحا في جلب التّفّاح العجيب وتناول أبوهما منه بعض التّـفـّاحات فشفي من مرضه وخطب لإبنيه صبيّتين وشرع في إقامة الأفراح لزواجهما وكان النّصيف في ذلك الوقت محبوسا في البئر فبحث داخله فوجد خاتما عجيبا ففركه فخرج له جنّي عظيم الهيأة وقال له : "شبّيك لبّيك من الشّرق يجيك من الغرب يجيك، أطلب عبدك بين يديك يحضر لك ما تريد " فأمر النّصيف خادم الخاتم العجيب أن يخرجه من البئر ويحضر له حصانا وكلّ ما يلزم للفرسان فكان كذلك وقصد مدينة أبيه فدخلها يوم زفاف أخويه فاستعان بالجنيّ خادم الخاتم وقبض على أخويه وختم على دبرهما بخاتمه علامة على امتلاكه لهما ثمّ اتّصل بأبيه وأعلمه بحقيقة الأمر ودعاه إلى الكشف عن دبر أخويه ليرى طابع خاتمه عليهما فأمر الملك بالكشف عن دبر إبنيه فرأى رسم خاتم النّصيف عليهما فتحقّق من صدق مقالته وجازاه وغضب على إبنيه الكبيرين وطردهما.

فالتّفاح العجيب الذي يجلبه الأبناء في هذا الصّنف من الأساطير والخرافات الشّعبيّة يرمز في حقيقة الحال إلى بعض البنات والصّبايا اللّواتي

ينتمين إلى بعض الأسر في العهود الأولى من التاريخ الإنساني في حين يرمز أعوان الجنّ القائمين على حراسة هذا التّفاح العجيب إلى الحرّاس الحقيقيّين الذين كانوا يقومون بحراسة الأسر الإنسانيّة المذكورة. فالعديد من النّساء مازلن إلى اليوم يحملن إسم تفّاحة في تونس على غرار إسم وردة وزهرة وسوسن.

وقد أشرنا إلى أنّ إسم "جنّة" و"حديقة" و"بستان" يفيد معنى المرأة والزّوجة والأسرة والعائلة وكان يطلق في قديم الزّمان على الأسر والعائلات القائمة بحيث أنّ الأسرة كانت تسمّى جنان وحديقة وبستان فكان يقال جنّة فلان وجنان فلان وحديقة فلان وبستان فلان بمعنى أُسرة فلان كما أنّ إسم "شجرة" يفيد معنى الأسرة ومازال يَستعمل إلى اليوم في هذا المعنى في العديد من المجتمعات الإنسانيّة.

ثمّ إنّ العديد من الأساطير والخرافات الشّعبيّة تَصِفُ هذا التّفاح العجيب بصريح العبارة بأنّه تُفّاحُ الإنجاب بحيث أنّ العديد من الأساطير والخرافات تقتصر الحديث عنه بالإشارة إلى أنّ الحكيم الذي يَفْحَصُ الشّخص ينَاوِلُهُ من عنده التّفاح العجيب مثلما هو الشّأن في مقدّمة خرافة النّصيف دون العودة مرّة أخرى إلى سرد المغامرات المتعلّقة بجلبه من بلاد الجان.

كما أنّ الكثير من الأساطير والخرافات تشير إلى أنّ الدّواء العجيب الذي يساعد على الإنجاب وإطالة الحياة هو نوع من النّباتات دون تحديد جنسه بالضّبط في حين يشير بعضها الآخر إلى أنّه ماء يجري في إحدى العيون والآبار.

فهذه النّباتات والمياه العجيبة التي تسمّى نبات الحياة وماء الحياة ترمز هي الأخرى إلى الصّبايا والبنات وإلى الأسر الإنسانيّة عموما. وقد ذكرنا أنّ

النّساء يحملن إسم تفّاحة وزهرة ووردة وسوسن وغيرها من الأسماء التي تطلق على الأشجار والنّباتات.

ثمّ إنّ كلمة "بئر" التي تنطق "بير" في اللّهجة التّونسيّة تفيد معنى الأبناء والأولاد وهي مأخوذة من لفظة "بر". ثمّ إنّها أطلقت على الآبار والكهوف والغيران التي كان يسكنها الإنسان وتُسَمّى عيون الماء إلى اليوم باسم "بِركة" في اللّغة العربيّة وقد شرحنا المعنى الحقيقيّ لهذه الكلمة وقلنا إنّها تفيد في الأصل معنى الأسرة والعائلة, ثمّ أطلقت على العيون ونقاط المياه باعتبار أنّ الأسر الإنسانيّة كانت عادة تقيم بالقرب من العيون ونقاط المياه. كما أنّ إختطاف النّساء والبنات كان يحصل أحيانا أثناء ورود الماء للشّرب والإغتسال مثلما ذكرناه في تحاليلنا السّابقة, حيث كان الشبّان الذّكور يستغلّون فرصة خلود الجماعات البشريّة للرّاحة قرب العيون والبرك ودخول الصّبايا والبنات لتلك العيون والبرك للإغتسال لإختطافهنّ.

ورأينا في أسطورة كزيمباها الأندنوسيّة وحكاية جانشاه في كتاب "ألف ليلة وليلة" أنّ الإختطاف حصل بالقرب من بركة ماء نزل فيها البنات للإغتسال بعد أن نزعــن الثّياب المصنوعة من الرّيش التي كنّ يرتدينها.

وقد جمعنا في هذا السّياق خرافة يحكيها السّكان في تونس والعديد من البلدان العربيّة وتشير بوضوح إلى أنّ نبات الحياة وماء الحياة وتفّاح الحياة يرمز في حقيقة الحال إلى البنات والصّبايا داخل الأسر الإنسانيّة في العهود القديمة, ومضمونها أنّ سلطانا عظيما من سلاطين العصور الغابرة كان له ثلاث أولاد فمرض مرضا شديدا لم يتمكّن الأطبّاء من علاجه حتّى وفد إلى المدينة ذات يوم ساحر ففحص الملك وقال لأولاده وحاشيته إنّ علاج الملك يتمثّل في

ثلاثة أدوية الأول زَرْعٌ عجيب ينبت فوق جبل بعيد وصعب الصّعود يؤتى به من ذلك الجبل ويُطْبَخُ ويأكل منه الملك. والدّواء الثّاني مَاءٌ موجود في بئر عميقة لم ينزلها أحدٌ من قبل يُؤْتَى منه بعض الشّيء ويَشْرَبُهُ الملك. أمّـا الدّواء الثّالث فهو قُطْنٌ مَزْرُوعٌ في غابة ما دخلها أَحَدٌ من قبل قطّ وتقع في بلاد موحشة كثيرة السّباع يُؤْتَى به ويصنع منه ثوب يلبسه الملك فإنّه يشفى ويبرأ من مرضه لو أكل من الزّرع وشرب من الماء ولبس الثّوب المصنوع من القطن. فسافر الأولاد الثّلاثة لجلب تلك الأدوية الثّلاثة وقصد الإبن الأكبر الجبل ليأتي بالزّرع العجيب, وقصد الثّاني البئر ليأتي بالماء, في حين قصد الصّغير بلاد القطن العجيب ليجلبه و يصنع منه لأبيه ثوبا.

ووصل الإبن الأكبر للجبل فوجده جبلا عظيما يصعب صعوده وبقي يفكّر في وسيلة لاقتحامه فسمع صوتا ناعما يصيح ويقول "إنْ أخرجتني من القمقم الذي بين رجليك أقضي لك حاجتك" فالتفت الإبن إلى موضع قدميه فرأى جرّة كبيرة فأخذها ورماها على الأرض فانكسرت وطلعت منها صبيّة ذات حسن وجمال فشكرته وسألته عن حاجته فذكر لها أنّه يريد الزّرع الذي ينبت فوق الجبل لِيُدَاوِيَ به أباه المريض فاختفت هنيهة ثمّ رجعت ومعها حِزْمَةٌ من الزّرع العجيب وأعطته للشّاب ثمّ طلبت منه أن يأخذها معه لأنّها الوحيدة التي تعرف طبخ ذلك الزّرع فأخذها معه وقفل راجعا إلى مدينة أبيه. ووصل الإبن الأوسط من ناحيته إلى البئر فرآه عميقا يَصْعُبُ النّزول فيه وظلّ يفكّر في وسيلة تساعده على ذلك فرأى عصفورا محبوسا في شجرة قرب البئر يُكَلِّمُهُ ويقول له : "إن خلّصتني من حبسي أقضي لك حاجتك" فتقدّم الولد من العصفور لِيُخَلِّصَهُ فناوله العصفور ريشة انقلبت بسرعة إلى عصا فأخذها الولد وضرب بها العصفور فانقلب إلى بنت جميلة للغاية فشكرت الشّاب على صنيعه وسألته عن

حاجته فذكرها له فأخذت منه العصا وضربت بها البئر فخرج منه الماء فأخذ الإبن شيئا منه وقالت له البنت إنّها الوحيدة التي تعرف سرّ تناول ذلك الماء فأخذها معه ورجع من حيث أتى. وتوجّه الإبن الأصغر من ناحيته إلى حيث يوجد القُطْنُ العجيب فوجد الغابة التي ينبت فيها وكان صغير السنّ فخاف وأراد أن يرجع أدراجه ثمّ تذكّر مرض أبيه وبأنّ علاجه مرهون بتوفّر الأدوية الثّلاثة فتقدم فرأى نعامة صغيرة فكلّمته تلك النّعامة وسألته عن سبب مجيئه إلى تلك الغابة الموحشة فذكر لها حاجته فقالت له أنا أساعدك على قضائها على شرط أن تقطع قضيبا من تلك الشّجرة ونَعَتَتْهَا له وتضربني به وأرجع إلى أصلي وأساعدك فأخذ غصنا من الشّجرة وضرب به النّعامة فتحوّلت إلى فتاة بارعة الجمال, فاختفت هنيهة ثمّ رجعت ومعها القطن العجيب وطلبت منه هي الأخرى أن يأخُذَهَا معه لأنّها الوحيدة التي تعرف طريقة نسجه فأخذها معه وقفل راجعا. والتقى الأبناء الثّلاثة في قصر أبيهم وأحضر له البنات الثّلاثة الأدوية الثّلاثة فتناولها فشفي من مرضه وتزوّج الأبناء بالصّبايا الثّلاثة وعاش الجميع في هناء وسعادة.

وفي هذا المجال وجدنا أنّ هذه الأساطير والخرافات المتعلّقة بنبات الحياة وتُفّاح الإنجاب منتشرة في مختلف بلدان العالم وقديمة جدّا. فقد كان البابليّون, سكّان العراق في القديم, يحكون أسطورة من هذا القبيل بطلها شخص إسمه كِلكامش وتعرف في الكتب المختصّة بملحمة كِلكامش, ومضمونها أنّ ملكا إسمه كِلكامش تَعَرَّفَ على إنسان متوحّش فقرّده وروّضه حتّى أصبح أليفا وجعل منه كلكامش صديقا حميما فمات ذلك الصّديق فحزن عليه كلكامش وصعبت عليه فكرة الموت والفناء وتذكّر أنّ أحد أجداده الأوّلين مُنِحَ الخلود فعزم على السّفر إلى الجزيرة التي يسكنها ذلك الجدّ واستعطافه لمعرفة سرّ الخلود فكان

كذلك وأرشده الجدّ إلى سرّ الخلود ويتمثّل في نبات يَهَبُ الخُلُودَ والحياة الأبَدِيَّة لمن يأكل منه وذكر له بأنّه يوجد في قاع البحر المحيط بالجزيرة فنزل كلكامش إلى قاع البحر وقطف من نبات الحياة ما شاء ثمّ ودّع جدّه وقفل راجعا من حيث أتى فعطش في الطّريق ووجد بئرا فنزع ثيابه وتركها قرب البئر مع نبات الحياة ودخل للبئر ليغتسل ويشرب ويملأ منه ما يحتاجه في الطّريق فخرجت حيّة من البريّة فأكلت نبات الحياة ورجعت إلى غارها وخرج كلكامش وتفقّد النّبات فلم يجده ورأى آثار الحيّة فأدرك أنّها أخذته فأسف ورضي بمصيره.

فقد رأينا في خرافة النّصيف أنّ الإخوة الثّلاثة يعطشون هم أيضا ويجدون بئرا فيتطوّع النّصيف للنّزول فيها والمساعدة على جلب الماء غير أنّ أخويه يغدران به ويقطعان حبل الوصل الذي يصلهما به ويهربان بالتّفاح العجيب الذي نجح في الحصول عليه. وفي حقيقة الحال فإنّ أغلب هذه الأساطير والخرافات تشتمل على هذا المشهد الذي تتعدّد صوره من حكاية إلى أخرى خاصّة فيما يتعلّق بالوسيلة التي يستعين بها الأخ المحبوس في البئر للخروج منه, وأكثرها أنّ الولد المحبوس الذي غالبا ما يكون أصغر الإخوة يعثر داخل البئر على عشّ به فراخ بعض الطّير وقد أحاطت بهم حيّة تريد إلتهامهم فيقتل الولد تلك الحيّة وينقذ الفراخ من شرّها وعندما تعود أمّ الفراخ يعلمونها بما صنع معهم الولد من جميل فتشكر أمّ الفراخ له صنيعه وتساعده على الخروج من البئر بحمله على ظهرها والصّعود به خارج البئر فيشكرها بدوره على صنيعها ويرجع إلى مدينة أبيه حيث يتّصل به ويعلمه بما جرى فيجازيه ويعاقب إخوته على غدرهم.

وانسجاما مع تحاليلنا تُشِيرُ بعضُ الأساطير والخرافات الشّعبيّة إلى أنّ الدّواء الذي يصفه الحكيم لتسهيل الإنجاب يتمثّل في عقد عجيب يضعه الزّوج

حول رقبة زوجته أو في سوْط وأحيانا قضيب يضرب به زوجته وفي بعض الحالات فرسه كي تنجب. فالعِقْدُ يسمّى باسم "كردان" كما هي الحال في مصر وبعض البلدان العربيّة الأخرى, وذكرنا أنّ إسم "كردان" هو صيغة لفظيّة لإسم "كرد" و "قرد" الذي يُطلق على المرأة والأنثى بعد تقريدها وتدجينها وترويضها واستعمل على هذا الأساس في معنى الخادم والتّابع والعبد والحاشية والدّائرة, وكذلك في معنى الحبل الذي يوضع حول رقبة الأسير والمغلوب والمهزوم والمُسْتَضْعَفِ للسّيطرة عليه والتّحكّم فيه. كما أنّ السّوط والقضيب والعصا كانت ومازالت من الوسائل والأدوات الرّئيسيّة التي يستعملها البشر لإذلال أمثالهم من البشر والسّيطرة عليهم.

فقد جمعنا في هذا الإطار أسطورة شعبيّة يرويها السّكّان في تونس وفي البلدان المغاربيّة عموما وتتضمّن أغلب المواقف والمشاهد التي تتعلّق بالبحث عن التّفاح العجيب وما شاكله من الأدوية السّحريّة, وسبق أن أوردنا ملخّصها في تحاليلنا المتقدّمة. فقد جاء في الأسطورة أنّه كان في قديم الزّمان رجل متزوّج بإمرأتين لم تلدا كما كانت له مهرتان لم تلدا أيضا, فاغتمّ لأنّه تقدّم في السّنّ ولم ينجب فجلس ذات يوم على قارعة الطّريق يخطط على الأرض بعود وهو غارق في التّفكير في وضعه فمرّ به رجل غريب فرآه على تلك الحال فسأله عن أمره فرجاه أن يتركه وشأنه فألحّ عليه فشكا له حاله وذكر له أنّه كبر ولم ينجب أولادا رغم أنّه متزوّج بإمرأتين وأعلمه كذلك بحال فرسيه وبأنّهما لم تلدا أيضا, فطمأنه الرّجل وأعطاه قضيبين وعقدين من العقيق وأوصاه بأن يضرب كلّ مهرة بقضيب وأن يُعْطِيَ لكل زوجة من زوجتيه عقدا ففعل كما أمره الرجل فحملت الزّوجتان والمهرتان وولد الجميع ذكورا, فماتت إحدى الزّوجتين فإعْتَنَتْ الأخرى بتربية الولدين حتى أنّها صارت لا تعرف من هو

إبنها ومن هو إبن ضرّتها فحكت قصتها لإحدى العجائز فنصحتها بأن تذهب إلى عين القرية وتنتظر حتى ترى الولدين قادمين فترمي نفسها في العين فمن إرتمى بملابسه في العين فهو إبنها ومن حاول أن ينزع ثيابه قبل أن يندفع لإنقاذها فهو إبن ضرتها وكان الأمر كذلك فإرتمى أحد الغلامين في العين لإنقاذ أمّــه بينما حاول الآخر أن ينزع ثيابه قبل ذلك فعرَفَتْ بتلك الحيلة إبنها وأصبحت منذ ذلك الوقت تُمَيِّزُ بينهما في المعاملة فصارت تُقدّم لإبنها خبز القمح ولحصانه الشّعير ولكلبه بقايا الطّعام وتعطي لإبن ضرّتها خبز الذرة ولحصانه التّبن وتهمل كلبه فحزّ ذلك في نفس الولد وصمّم على هجر عائلته والرّحيل إلى أرض أخرى وأخبر أخاه بذلك وأعلمه بعزمه على السّفر والرّحيل وأشار إلى شجرة كانت قريبة منهما و قال لإخيه إذا نَظَرتَ يوما من الأيام إلى هذه الشّجرة ورأيت أنّ أوراقها ذبلت ويبست فاعلَمْ أنّي أصِبْتُ بمكروه أو لقيتُ حتفي, وخرج هائما على وجهه فقاده السّير إلى نجع لإحدى القبائل فوجد أفرادها مجتمعين في ساحة الحيّ وهم بصدد الحديث عن ذئب عظيم إستضعف الحيّ وروّعَ غنمه وقد حاولوا عبثا التّصدّي له وقتله ولكنّه تقوّى عليهم ولم يعرفوا معه حيلة فلما رأى أفرادُ تلك القبيلة ذلك الفارس الشّاب مقبلا عليهم تلقوه بالتّرحاب وعرضوا عليه أمرهم ووعدوه أن يُعطُوهُ كل الخرفان التي ستولد لهم في تلك السّنة إن هو قتل الذئب ونجّاهم من أذاه, فهجم على الذئب في عقر جحره وقتله وتابع سيره فالتقى بجماعة أخرى إستضعفهم أسد عظيم يسكن في غابة بجوار قريتهم وإستباح غلالهم وأبقارهم ووعدوه أن يعطوه مواليدَ بقرهم في ذلك العام, فقصد الغابة وتبارز مع الأسد فقتله وتابع سيره فوجد جماعة أخرى أخبروه بخَبَرِ حيَّةٍ عظيمة تقطَعُ الطّريق دونهم وتفتك بقوافلهم ووَعدوه بأن يعطوه ما يبتغي من الأراضي إن هو خلّصهم منها, فقصدها ولما إقترب منها نَادَتْهُ وقالت له إلى أين

أنت ذاهب يا وجه من لا يَستأهل الخسارة؟ فأجابها قائلا: منذ فارقتُ أهلي وعشيرتي وأنا أبحَثُ عن الخسارة وقد جئت لأقتلك فاخرجي إليّ لنتبارز فقالت له : إنّي أخاف من كلبك فقيّدْهُ, فرَبَطَهُ, ثمّ قالت له : إنّي أخاف من حصانك فقيّدْهُ هو الآخر, فأخذ حبلا وربطه ثمّ إنّها قالت له: إنّي أخاف من سيفك فضعه بعيدا فرماه بعيدا فوثبت عليه الحيّة و بلعته و كان أخوه في الحيّ فنظر إلى الشّجرة التي دلّه عليها أخوه قبل أن يرحلَ فرأى أنّ أوراقها بدأت تذبل فعرف أنّ أخاه في خطر فهَبَّ لنجدته وأخذ الوجهة التي سلكها فمَرَّ على أفراد القبيلة الذين نجّاهم أخوه من ويل الذئب فظَنّوهُ صاحبهم فهرعوا لتحيّته وقدّموا له الخرفان التي ولدت في ذلك العام ليأخذها مثلما وعدوه بذلك فأمْهَلَهم حتّى يَعُودَ وصَنَعَ معه جماعة الأسد نفس الصّنيع فأمْهَلَهم حتّى يَعُودَ ولما وصل إلى الجماعة الثّالثة أخبروه بأنّ فارسا يشبهه مَرَّ بهم وتوجّه لقتال حَيَّةٍ كانت تقطع دونهم الطّريق ولكنّ الحيّة إحتالَتْ عليه وبلعته ورجَوْه أن يرجع أدراجه حتّى لا يلقى مصير أخيه فشكرهم على حُسن مشاعرهم ولكنّه كان ماضيا في عزمه على إنقاذ أخيه فإتّجه إلى وكر الحيّة فلما إقترب منها نادته وقالت له مثلما قالت لأخيه فأجابها بأنّه جاء ليقتلها وأنّها لن تفلت منه مهما صنعَتْ, فخرجت لتتبارز معه وأرادت أن تحتال عليه مثلما إحتالَتْ على أخيه فقالت له إنّها تَخَافُ من كلبه وطلبت منه أن يقيّده فتظاهر بأنّه يقيّده وتركه سائبا وطلبت منه أيضا أن يربط حصانه فتظاهر بذلك وتركه طليقا ثمّ طلبت منه أن يرمي سيفه بعيدا فأخذ الغمد ورماه وظنّت الحيّة أنّها عزلته عن مساعديه فهجَمَتْ عليه لتبتلعه فأخرج سيفه وطوقها ووضع حدّ السّيف على رقبتها وهدّدها بالقتل والثّبور إن هي لم تخرج من بطنها أخاه الذي بلعته فقالت له أخْرِجُهُ لك أعور فأجابها قائلا : إن فعلت ذلك عَوَرْتُك, فقالت له أخْرِجُهُ عائبا فقال لها : إن فعلت ذلك أقطع رجليك,

فيئست الحيّة من الإيقاع بخصمها فأذعنت لمشيئته وأخرجت أخاه سالما فأجهز عليها بالسّيف وقتلها ثمّ إلتفت إلى أخيه وشرع يعالجه حتّى رُدّت روحه واسترجع قواه واقترح عليه أن يعودَ معه إلى الحيّ، ففضّل متابعة رحلته وودّع أخاه وواصل سيره فدخل مدينة فوجد أهلها مُحْتَفِلينَ بحدث عظيم فسألهم عن الأمر فأخبروه بأنّهم يحتفلون بتقديم هديّة سنويّة إلى أسد يملك تلك الأرض وكانت تلك الهديّة عبارة عن بِنْتٍ من بنات المدينة تُقَدَّمُ كلّ عام هديّة إلى ذلك الأسد ليرضى عنهم وجَرَتْ العادة أن تؤخذ البنت كل عام من إحدى أسر المدينة وكان الدّور في تلك السّنة على الملك فطلب منهم أن يُرْشِدُوهُ إلى مكان التّسليم فأرشدوه ولمّا وصل رأى الأميرة جالسة وسط خيمة مطرّزة وقد لبست أبهى حللها وحولها أصناف عديدة من المأكولات والمشروبات فسلّم عليها فَرَدَّتْ عليه السّلام ثمّ أكل ما لذّ له وطاب فبينما هو كذلك سمع زئير الأسد فَدَعَتْهُ البنت إلى الهروب حتّى لا يفترسه الأسد فتبَسَّمَ وأعلمها أنّه إنّما قدم ليقتل الأسد ودخل الأسد فرأى الشّاب والفتاة وظنّ أنّ أهالي المدينة قد رَفَّعُوا في قيمة الهديّة فقدّموا له نفرين عوض نفر واحد ففرح وقال : حسنا فعلوا بتقديم هديّتين بدل واحدة كما اتّفقنا. فأجابه الشّاب بكل شجاعة: إنّما هو أجَلُكَ المحتوم جاءك اليوم فتَهَيَّأْ لتتقبله فغضب الأسد ووثب عليه فعالجه الشّاب بضربة قَتَّالة من سيفه فصرعه ثمّ طلب من الأميرة أن تعود إلى أبيها وقصرها ورَجع من ناحيته إلى المدينة وأخذ يبحث عن عمل فقبله حدّاد صانعا عنده, وعادت الأميرة إلى أبيها وظنّ أنّها فرّت من الأسد فغضب عليها وأمرها بأن تعود إلى الخيمة فأخبرته بالخبر وقالت له إنّ شابّا غريبا قتل الأسد وخلّصها منه وطلب منها أن تعود إلى أبيها وقصرها فأمر أحد أعوانه بالذّهاب إلى عين المكان والتّيقن من الأمر فذهب العون فوجد الأسد ميّتا وبجانبه حِذَاءٌ فأخذه ورجع إلى سيّده فأخبره بالأمر فأذن

الملك وزيره بأن ينادى في المدينة كي يأتي النّاس إلى قصر الملك ليقيسوا حذاءً وجدوه بجانب الأسد المقتول حتّى يُجازي صاحب الحذاء لقضائه على الأسد ويزوّجه إبنته فاجتمع النّاس وقاسوا الحذاء فلم يلائم أحدا فسأل الملك أن بقي أحدٌ لم يقس الحذاء فقيل له: صانع الحدّاد, فأُوتِيَ به أمام الملك فقَاسَ الحذاء فلاءم ساقه ولمّا رأته بنت السّلطان عرفته فارتَمَتْ عليه وعَانَقَتْهُ وأُقِيمَتْ الأفراح احتفاء بزواج الشّاب ببنت الملك ودام العرس سبعة أيّام وسبعة ليالي.

ثمّ إنّ الملك مرض مرضًا شديدا وأشرف على الهلاك ففحصه الأطبّاء ووصفوا له شُرْبَ حليب اللبوة في جلد الأسد أو كما يقول الرّاوي التّونسي "حليب اللّبّة فِي جلد الصيد". وكان له عدد من الأصهار غير صهره الشّاب الذي قتل الأسد, فأمر بإحضارهم وطلب منهم أن يسافروا ليجلبوا له حليبَ اللبوة في جلد الأسد, ودعوّا الشّاب أن يسافر معهم فرفض فقبضوا عليه وأشبعوه ضربا ثمّ إنّهم خرجوا في مهمّتهم, فارتدى الشّاب ثيابا جديدة وأخذ سيفه وآلات القتال التي كانت عنده وركب حصانه وخرج هو الآخر من طريق غير الطّريق الذي سلكها الأصهار وأسرع حتّى لحق بهم فلَمْ يعرفوه وسألهم عن حاجتهم فأخبروه بأنّهم مسافرون لجلب حليب اللبوة في جلد الأسد لعلاج صهرهم الملك من مرض شديد أصابه فأخذ يصف لهم الأهوال والأتعاب التي تَحُولُ دون بلوغ مقصدهم ثمّ إقترح عليهم أن يجلب لهم الحليب المطلوب بشرط أن يعطوه خواتم نِسَائهم فقبلوا وأعطوه خواتم نسائهم فأخذها وأخفاها معه وتابع طريقه بحثا عن الحليب فلَقِيَ رجلا فسأله عن وجهته فحكى له بأنّه يبحث عن شيء من حليب اللبوة في جلد الأسد فأشار الغريب إلى جبل قريب وقال للشّاب بأنّ به لبؤة تنام سنة وتستيقظ سنة فلعلّه يجدها نائمة فيفوز بحاجته وإلاّ كان مصيره الموت, فشكره الشّاب على نصيحته وقصد الجبل المذكور فوجد اللبوة نائمة وبجانبها إبنتها

الصّغيرة ترضع من ثدييها فجَثَمَ على ركبتيه ورضع هو الآخر من ثدي اللبوة ثمّ قام وجَرَّدَ سيفه وذبح به بنت اللبوة فخرجت منها صيحة أيقضت اللبوة فرأت ما حلّ بإبنتها والشّاب واقف والدّم يقطر من سيفه فقالت له:" لولا أنّك رضعت حليبي وأصبحت قريبي لجعلتك في لقمة وجعلت دمك في جغمة ونظفت بعظامك أسناني", وأعطته شيئا من حليبها فوضعه في جلد إبنة اللبوة وعاد مسرعا فأعطى الحليب إلى الأصهار الذين أعطوه إلى الملك فَشَرِبَ منه الملك بعض الشّيء لكنّ المرض عاوده فوصف له الأطبّاء مَاءَ الجبلين وهو ماءٌ ينبع من عين توجد وراء جبلين يتلاطمان بإستمرار فينفتحان وينغلقان في رمشة عين بحيث أنّ الذي يريد أن يأخذ من مائهما مجبرٌ أنْ يَمُرَّ بينهما في تلك اللحظة بالذّات وإلاّ تَهَشَّمَ تحتهما, فطلب الملك من أصهاره أن يسافروا ليحضروا له ماء الجبلين فاقترحوا من جديد على الشّاب أن يرافقهم فرفض مرّة أخرى دَعْوَتَهم وبَعْدَ خروجهم لبس ثيابا جديدة و خرج في إثرهم وسألهم عن حاجتهم فأخبروه بالأمر فخوّفهم وهوّل لهم الأمور وإقترح عليهم أن يجلب لهم ماء الحياة عوضهم مقابل تسليمه مناديل نسائهم فقَبلوا وأعطوه مناديل نسائهم ووجد في طريقه خَادما سوداء هائلة الخلقة تفترش بشَفة وتَتغطى بشفّة فبادرها بالسّلام ووضع أمامها شيئا من الطّعام فقالت له:" لولا أنّ سلامك سبق سلامي وطعامك سبق طعامي لجعلت دمك في جغمة و لحمك في لقمة ونظفت بعظامك أسناني", ثمّ استأنست به وطلبت منه ماذا يريد فأخبرها أنّه يريد ماء الحياة من وراء الجبلين الذين يتلاطمان فمدّت يدها بين الجبلين و دعته إلى العبور وأخذ ما يشاء من الماء, فعَبَرَ وأخذ قربة من الماء وعاد ثمّ أعطى ذلك الماء لأصهاره فأوصلوه إلى الملك الذي شرب منه غير أنّه ظلّ مريضا فأشار عليه الحكماءُ بتفّاح الغالية بنت منصور, القاطعة سبع بحور على ظهر النّسور, وطلب الملك

من أصهاره السّقر لجلب تفّاح الشّفاء فخرجوا ووجدوا في طريقهم الشّاب وهو متنكّر في ملابس جديدة فسألهم عن الأمر فأخبروه بالقصّة فهوّل لهم الأمرَ وما ينتظرهم من مصاعب وإقترح عليهم كالعادة أن يجلب لهم تفـّـاح الحياة وطَلَبَ منهم في المقابل أن يقطع أصابعهم الصّغيرة ليحتفظ بها معه, فأجابوه إلى طلبه وواصل سيره فلقي في طريقه شيخا جليلا فحكى له حكايته وطلب مساعدته فأشار عليه الشّيخ بأن يذبح ثورا ويقطعه ويأخذ جميع لحمه إلى مكان إجتماع الطّيور ويضَعَه هناك فإنّ الطّيور ستجتمع وتأكل من ذلك اللحم ثمّ يأتي أضخم طائر فيهم فينقضّ على اللحم ويأكله فتَثْقُلَ حركته ويعجز عن الطّيران فعند ذلك يمسك به الشّاب ويطلب منه أن يوصله إلى جزيرة الغالية بنت منصور. ففعل الشّاب ما أمره به الشّيخ وقبض على عظيم الطّيور فطلب منه الطّائر أن يُعِدَّ سبع قطعات من اللحم وأن يناوله قطعة منها كلّما قطع بحرا من البحور السّبعة التي تقع دون جزيرة الغالية في طريق العودة ثمّ إنّ الطّائر نقل الشّاب إلى جزيرة الغالية بنت منصور ونزل به في الحديقة التي يوجد بها تُفّاح الحياة فأخذ منه الشّاب كفايته وركب على الطّائر وقفلا راجعين وصار الطائر يطلب منه قطع اللحم كلّما قطعا بحرا والشاب يناوله إلى أن وصلا البحر السابع فسقطت القطعة في البحر فأخذ الشاب خنجرا وقطع له من أسفل ساقه من الخلف قطعة وقدّمها للطائر فأكلها فذلك سبب رقّة ساق الإنسان من الأسفل وهكذا عاد إلى مدينة الملك فأعطى التّفاح لأصهار ه الذين أعطوه بدورهم للملك فتناول منه الملك فشفي من مرضه, وأراد أن يشكر أصهاره ويجازيهم على جميلهم معه فدعاهم إلى الحضور عنده لمكافأتهم فأخذ الأصهار يلومون صهرهم الشاب على تأخّره عن القيام بواجبه نحو ملكه فقصّ الشاب عند ذلك ما حدث بالفعل وأطلع

الملك على خواتم نساء أصهاره ومناديلهنّ وأصابعهم الصغار فتعرّف الملك على الحقيقة وشكر للشّاب عمله ونصّبه حاكما للبلاد.

فالحيّة التي أكلت نبات الحياة في ملحمة كلكامش والتي تسعى إلى قتل فراخ الطير في الخرافات الشعبيّة الشبيهة المتداولة في تونس وغيرها من البلدان ترمز في حقيقة الحال إلى إمرأة أو بعض النساء اللواتي عشن في قديم الزمان وكنّ طرفا في الأحداث التي تنقلها هذه الخرافات والملاحم والأساطير الشبيهة بها كما أنّ عشّ الطيور يرمز إلى بعض الأسر الإنسانيّة القديمة حيث ذكرنا أنّ الطيور الناطقة في الأساطير والخرافات الشعبيّة ترمز غالبا إلى بعض الأسر الإنسانيّة والأقوام البشريّة اللذين عاشوا في قديم الزمان وبالأساس إلى العناصر النسائيّة داخل هذه الأسر والجماعات البشريّة القديمة.

ومن هذا المنطلق فإنّ سرقة نبات الحياة من طرف الحيّة في ملحمة كلماكش والمشاهد الشبيهة بها في الخرافات الشعبيّة والأساطير القديمة ترمز إلى بعض العمليّات الإنتقاميّة التي حصلت في بعض الأسر الإنسانيّة القديمة بسبب الغيرة بين النّساء المنتميات إلى تلك الأسر وبالأساس بين الزّوجات الأصليّات المتقدّمات في السن اللواتي ينتمين إلى تلك الأسر والصبايا والبنات الشّابات الجدد اللواتي يضمّهن رؤساء تلك الأسر إليهم مع حريمهم للإقتران بهنّ جنسيّا وإنجاب المزيد من الأولاد.

فهذه الخرافات والأساطير تنقل في الواقع مظاهر من الصّراع الذي عرفته بعض الأسر الإنسانيّة القديمة نتيجة قيام رؤساء تلك الأسرة باقتناء بعض الصبايا والبنات الجدد والإقتران بهنّ فأثار هذا الفعل غيرة وغضب نسائه القديمات فسعين إلى الإنتقام من الصبايا الجدد بصورة أو بأخرى بحيث أنّ

مجمل هذه الأحداث يتعلّق بالصّراع بين الضرّات وخاصة بين المتقدّمات في السن والصّبايا الجدد ويطلق اسم "ضرّة" وجمعه "ضرّات" في العربيّة على النّساء المتزّوجات من رجل واحد مع أنّ الزّواج اتّخذ العديد من الأشكال في المجتمعات الإنسانيّة حتّى أنّ المجموعة الواحدة من الرّجال كانوا يتزّوجون أحيانا بإمرأة واحدة ومازال الرّجال إلى يومنا هذا يتزّوجون بعدد صغير أو كبير من النساء في وقت واحد مثلما هي الحال في المجتمعات العربيّة والإسلاميّة والإفريقيّة كما أنّ الغيرة والتّنافس والحسد والحقد مشاعر ونزعات طبيعيّة متجذّرة في السلوك الإنساني منذ أقدم العصور.

ويمكن أن نقول في هذا السياق بأنّ الحيّة التي خدعت الإنسان الأوّل وزوجته في جنّة الخلد والفردوس ترمز إلى بعض النساء بحيث أنّ قصّة جنّة الخلد والفردوس هي خبر تاريخي ينقل ويروي إنقسام وتدمير بعض الأسر الإنسانيّة القديمة بسبب الغيرة والحسد والتّنافس والصّراع بين النّساء والطوائف البشريّة عموما بخصوص موضوع الجنس والعلاقات الجنسيّة بالذّات التي مازالت إلى يومنا هذا مصدر الكثير من النزاعات والصراعات والفتن داخل الجماعات والمجتمعات البشريّة ورأينا أنّ الحيّة التي تسببت في نكبة الآلهة في الأساطير اليونانيّة تسمّى الفاتنة أو الفتّانة وتنطق في صيغة "بيتون" ومازالت لفظة "بيتون" تطلق إلى اليوم في العديد من اللغات الأوروبيّة على الأفاعي والحيّات العظيمة وكذلك على الإعصار في بعض السياقات.

كما أنّ هذه الأساطير اليونانيّة القديمة التي كان يرويها اليونانيّون القدماء سكان بلاد اليونان بأوروبا, أوردت قصّة ملك كان يحكم في مملكة تقع في بلاد موريتانيا في المنطقة الغربيّة من شمال إفريقيا حيث توجد المغرب وموريتانيا اليوم وكان هذا الملك إسمه أطلس وكان يملك حدائق مزروعة بأشجار من التّفاح

تنتج تّفاحا من الذّهب الخالص وتدعى باسم حدائق التّفاح الذهبي وتسمي الأساطير اليونانيّة هذه الحدائق العجيبة باسم حدائق أطلس وحدائق الهسبيريد وقد ذهب في ظنّ اليونانيين القدماء أنّ إسم "هسبيريد" يفيد معنى الغرب على أساس أن كلمة "هسبير" تعني عندهم الغرب ونجمة الغرب بالذّات. وتشير الأساطير اليونانيّة المذكورة أنّ الملك أطلس كان له سبع بنات صبايا يحرسن حدائقه العجيبة ويمنعن الغرباء من الإقتراب منها ومحاولة السطو على ثمارها الذهبيّة بحيث أنّ كلمة "هسبيريد" كانت تعني عند اليونانين القدماء الغربيّات أو سيّدات الغرب فكانت حدائق الهسبيريد تعني عندهم "حدائق الغربيات" أو "حدائق سيّدات الغرب" نسبة إلى بنات الملك أطلس فكانوا يقولون حدائق الهسبيريد بمعنى حدائق سيدات الغرب.

وقد كان الملك أطلس حريصا جدّا على تّفاحه الذهبيّ ويفتك بكلّ من يحاول السطو عليه والسبب في الحرص أنّ أحد الكهنة أخبره بأنّ أحد الغرباء سيسلبه يوما تفّاحه الذّهبي ويقتله ويقضي على ملكه فشدّد الحراسة على تفّاحه الذّهبي وكلّف بناته السبعة بالمّهمة وصار يقتل كلّ الغرباء الذين يدخلون مملكته خشيّة أن يكون أحدهم خصمه الذي أخبره عنه الكاهن.

ثمّ إنّ بطلا إسمه بيرسي تقول عنه الأساطير المذكورة إنّه نصف إنسان ونصف إله مرّ ببلاد أطلس وطلب الضيافة والقرى فمنعه أطلس من دخول مملكته وكان مع البطل بيرسي رأس عفريتة إسمها قرقنة يتحوّل كلّ من أبصره إلى حجر فأخرجه من جرابه ووجّهه نحو الملك أطلس فلمّا حدّق الملك أطلس فيه ببصره تحوّل إلى جبل أطلس الموجود حاليا بشمال إفريقيا.

فنحن نعتبر أنّ قصّة الملك أطلس تدخل في إطار الأساطير والخرافات التي سقنا البعض منه سابقا وفسّرنا معناها الحقيقي.

فالتّفاح الذّهبي الذي يمتلكه أطلس يرمز في حقيقة الحال إلى بناته وإلى النّساء والإناث داخل الأسر الإنسانيّة القديمة التي اشتهرت ببناتها وكانت مقصد الشّبان الذكور والعزّاب الرّاغبين في الزّواج للحصول على بعض بناتها بمختلف الوسائل المتاحة لبلوغ هذا الهدف كالسرقة والإختطاف والإشتغال لحساب صاحب البنات وغيرها من الوسائل التي استعرضناها في تحاليلنا المتقدّمة.

ومازال إسم أطلس يطلق إلى اليوم على سلسلة جبال الأطلس الممتدّة على كامل شمال إفريقيا من المغرب إلى ليبيا حتى أنّ بعض الأخبار اليونانيّة القديمة تشير إلى أن حدائق الهسبيريد كانت موجودة في الموقع الحالي لمدينة بنغازي بليبيا التي كانت تسمّى بهذا الإسم أي هسبيريا.

وتذكر بعض الأساطير اليونانيّة الأخرى أنّ أطلس هو إله في الأصل وأنّه ينتمي إلى الطبقة الثانية من الآلهة حسب هذه الأساطير وقد ذكرنا بأنّ الآلهة الذين اعتقدت فيهم وعبدتهم الشعوب الإنسانيّة يرمزون إلى آباء وأجداد الأسر الإنسانيّة التي عمّرت الأرض في العهود الأولى من التاريخ الإنساني وأفضت تدريجيًا إلى قيام الشعوب الإنسانيّة المعروفة وعلى هذا الأساس يمكن أن نقول بأنّ الأسر الإنسانيّة التي يرمز إليها التّفاح الذّهبي ونبات الحياة وكلّ العيون والحدائق والجنان العجيبة المذكورة في الأساطير والخرافات الشعبيّة ترجع إلى العهود الأولى من التاريخ الإنساني وتنتمي إلى الطبقات البشريّة الأولى التي ظهرت على وجه الأرض.

فنحن نعتبر أنّ إسم "هسيريد" الذي كان يطلق على بنات أطلس وتفاحه الذّهبي مأخوذ من لفظة "إسبر" التي تفيد معنى المرأة والأسرة.

فكلمة "إسبر" هي صيغة لفظيّة لكلمة " زبّور" التي تُطلَقُ على فرج المرأة وعلى المرأة الجميلة عموما في البلاد التّونسيّة وتُطْـلَقُ أيضا على العصافير وصغار الطّيور في بعض اللّغات القريبة من العربيّة كاللّغة اليهوديّة أو العبريّة ولأجل ذلك قلنا إنّ الطّيُورَ النّاطقة داخل الأساطير ترمز إلى البنات والصّبايا والنّساء عموما.

كما يُطلَقُ إسم "إسبر" على الأرواح في صيغة "إسبري" و"سبيريت" و"سبيريتوس" في الفرنسيّة والأنقليزيّة واللاتينيّة على التّوالي كما أنّ كلمة "إسبري" و"سبيريت" و"سبيريتوس" تُفيدُ معنى الفكر علاوة على معنى الأرواح.

وتُسَمّى الرّوح في اللّغة الفارسيّة بإسم "جن" و"جان" بحيث أنّ كلمة "روح" و"جن" و"سبريت" و"اسبيري" هي كلمات متعادلة وذكرنا أنّ كلمة "جن" و"جان" تفيد معنى المرأة والأسرة والأولاد والعائلة عموما في الكثير من اللّغات الإنسانيّة.

وتُدْعَى الأبواق المصنوعة من قرون الحيوانات والمُستَعْملة للتزمير والتصفير بإسم "شابورات" في العربيّة وعند اليهود وهو اسم جمع ومفرده "شابورة " ونعتبر أنّ لفظة " شابورة " هي صيغة لفظية لكلمة "زبور" و"زبورة" و" زبر" وكانت هذه الأبواق تستعمل للتّـنبيه والتّحذير والدعوة إلى التجمّع وعوّضت من هذه النّاحية الأصوات الطّبيعيّة التي كان يستعملها الإنسان لهذه الأغراض ومنها الصّفير والتّصفير بواسطة الفم والشّفتين الذي يتّخذ صيغة الصّوت "اس" و"است" و"اش" و"اشت" و"بس" و"بست" إلى جانب استعمال

الصّوت "أخ" و"كخ" و"إر" وغيرها من الأصوات الشبيهة التي استعرضناها في تحاليلنا المتقدمة.

فلأجل ذلك أيضا دعيت حارسات حدائق أطلس باسم "هسبيريد" إشارة إلى الصّفير والتّصفير الذي يطلقه الحرّاس قديما بواسطة الوسائل الطّبيعيّة وبواسطة الوسائل المستحدثة كقرون الحيوانات للتّنبيه والتّحذير والتّخويف والزّجر والنّهر عند تعرّض الأحياء البشريّة التي يحرسونها إلى الإعتداءات من طرف الغرباء والأجانب وكلّ الدّخلاء بما فيهم الحيوانات .

ففي هذا السّياق جمعنا الكثير من الأساطير والخرافات التي يتداولها السّكان في تونس وغيرها من بلدان العالم وتصوّر إقدام أحد الشّبان الذّكور على ركوب العديد من المخاطر من أجل الفوز بإحدى البنات التي اشتهرت بجمالها وأصبحت مقصد الخطاب من كلّ مكان غير أنّ وليّ أمر تلك البنت وفي الغالب أبوها يتصدّى لأولئك الخطاب ويعرض عليهم شروطا مجحفة ويقتل من يفشل في إنجازها فينجح ذلك الشّاب الموعود في إنجاز شروط الأب ويفوز بالبنت ويقترن بها ويؤسّس معها أسرة تخلد اسمه و ذكره.

ففي هذا المعنى يروي السّكان في تونس والجزائر والمغرب وفي العديد من الدّول العربيّة خرافة شعبيّة مضمونها أنّه كان يوجد في قديم الزّمان ملك له ثلاثة أبناء فسمعوا بأميرة فائقة الحسن والجمال تعيش في بعض المدن البعيدة فتعلّق قلب أكبرهم بها فخرج في طلبها فعثر في طريقه على قصر مهجور فدخله فرأى وسطه طائرا صغيرا يشير إلى مكان فقصده فوجد بئرا عميقة وسمع من وسط البئر صوتا يدعوه إلى مواصلة السّير في وجهة معلومة فعمل بالنّصيحة وتابع سيره فرأى ذات يوم قلعة شاهقة في العلو فقصدها ولمّا بلغها

وجدها قصرا منيفا وسط مدينة عظيمة وتأمّله فرأى في شرفات سوره الكبير رؤوسا بشريّة معلّقة فتعجّب من ذلك وسأل أحد المارة فتحاشى إجابته وسأل آخر فلم يجبه فعرف أنّ في الأمر سرّا فربط علاقة وطيدة مع أحد السّكان وبعد أيّام رجاه أن يخبره بسرّ الرؤوس البشريّة المعلّقة في شرفات القصر فرفض إجابته في بداية الأمر ثمّ أعلمه بأنّ ذلك القصر هو قصر الملك الحاكم في المدينة وأنّ الرؤوس هي رؤوس خطاب بنت الملك الحاكم في المدينة و ذكر له بأنّ ذلك الملك له بنت في غاية الحسن والجمال فتقدّم لخطبتها الكثير من الشّبان ولكنّ أباها كان يشترط على خطاب ابنته أن يمرّوا في اللّيل من تحت الغرفة التّي تنام فيها ابنته فإن هي فتحت باب غرفتها ونظرت إلى الخطيب وكلّمته زوّجه بها وإن هي تجاهلته ولم تنظر إليه ولم تخاطبه قتله وقطع رأسه وعلّقها في شرفات قصره وقد تقدّم لخطبتها الكثير من الشّبان ففشلوا في إنجاز الشّرط فقبض عليهم الملك وأعدمهم وقطع رؤوسهم وعلّقها في شرفات قصره.

فهال الأمر على الشاب ولكنّ هواه غلبه فتقدّم إلى الملك وخطبه في ابنته فأعلمه الملك بالشّرط فقال إنّه يقبله وجاء اللّيل فمرّ تحت غرفة ابنة الملك ولكنّ البنت تجاهلته ولم تخاطبه بكلمة فقبض عليه الملك في الصّباح وأعدمه وحزّ رأسه وعلّقها في شرفات قصره.

ولمّا مضت الأيّام ولم يعد خرج أخوه الثّاني للبحث عنه ومعرفة أخباره فحصل له ما حصل لأخيه الأكبر فخرج أصغرهم في أثرهما فوجد القصر المهجور والطائر الصّغير الذي دله على البئر العجيب وسمع الصّوت من داخله يرشده إلى الطريق الذي عليه أن يسلكها وبلغ مدينة الأميرة والقصر المرصّع بالرّؤوس فرآه صاحب أخويه وعرف من شبهه بهما أنّه أخوهما الأصغر فأعلمه بمصير أخويه فشكره. ثمّ إنّه اكترى قبالة قصر الملك دارا فسيحة تطلّ نوافذها

على حجرة الأميرة واشترى خروفا وأصبح صاحب أخويه يتردّد عليه وظلّ يراقب حركات الأميرة ويتعرّف على أوضاعها فكلّمها ذات يوم فردّت عليه واستطاع مع مرّ الأيام أن يربط معها علاقة وطيدة وكان شابا وسيما فلقي تجاوبا من الأميرة التي أصبحت تتحدّث إليه دون حرج وذات يوم أعلمها بأنّه يريد أن يذبح الخروف الذي معه ويصنع وليمة غير أنّه لا يملك سكينا لذبحه وماعونا لتجهيز الطّعام فدعته الأميرة إلى استعمال آنية مطبخ قصرها فتعاون هو وصاحبه وحملا الخروف إلى القصر فذبحاه وجهّزا طعاما شهيّا واستدعى الشّاب الأميرة إلى الوليمة فحضرت وكان يوجد بالقصر عدلي إشهاد لتقييد صنع الأميرة بالشّبان الرّاغبين في الزّواج منها فلما اجتمعت بالشاب حول الوليمة قيّد عليها العدلان اتّصالها بالشّاب والتّحدّث معه وبذلك تمّ له ما أراد وقد فعل كلّ ذلك من أجل أن يثبت شرعا اتّصال الأميرة به وتحادثها معه حتّى يتزوّجها وفقا للشّرط الذي وضعه أبوها الملك على كلّ خاطب لابنته وبارك الملك زواجهما وأقام لهما فرحا كبيرا.

كما جمعنا أسطورة أخرى مماثلة مفادها أنّ تاجرا كان له ابن في مقتبل العمر وكان ذلك التاجر محسنا جوادا يفعل الخير ويغدق على النّاس من ماله ويعطي من يسأله بدون حساب وكان دائما يقول لإبنه عندما يلومه على الإفراط في فعل الخير "يا بني اعمل الخير تلقى الخير".

وتوفّي التاجر فورثه إبنه وسار على خطاه ثمّ إنّ الولد اشتهى أن يسيح في البلدان ليتعرّف على النّاس فوكّل أحد الثقات على متاجره وأمواله وخرج يطوف في البلدان وسار يُعَمِّرُ بلدًا ويخلي بلدًا كما يقول الرّاوي إلى أن وصل إلى مدينة عظيمة فدخلها فوجد في وسطها قلعة شاهقة وقد رُصِّعَتْ شرفاتها بالرّؤوس البشريّة فاستغرب وسأل المارّة فتَحاشَوْا إجابته فعلم أنّ في الأمر سِرّا

فدخل حانوت إسكافي وربط معه علاقة وأصبح يغدق عليه من ماله وبعد أيّام سأله عن سرّ الرّؤوس البشريّة المعلّقة في شرفات القلعة فأعلمه صاحبه الإسكافي بأنّ تلك القلعة هي لملك المدينة بناها لإبنته الأميرة وأسكنها فيها وعندما كبرت جاء الخطّاب لخطبتها فكان الملك يشترط على كلّ خاطب أن ينام ليلة في حجرة الأميرة وإذا ما أصبح وهو حَيّ ولم يصبه شيء زوّجه بها فتقدّم الكثيرُ من الشّبّان لإنجاز الشّرط غير أنّ الحظّ أخلفهم جميعا ولم يسعفهم فكان الخَدَمُ يَأتُونَ في كلّ مَرّة في الصّباح إلى حجرة الأميرة لتفقّد مصير الخاطب فيجدونه مذبوحا من الوريد إلى الوريد وقد قُطِعَ رأسُه فيَحْمِلُونها إلى الملك الذي يأخذها ويعلّقها في إحدى شرفات القلعة.

فقرّر الشّاب إبن التّاجر أن يُجرّب هو الآخر حظّه خاصّة وأنّ النّاس كانوا يشكرون جمال الأميرة وحسنها الفتان, فتقدّم إلى الملك وخطبه في إبنته فأعلمه بالشّرط فذكر له إنّه يقبله وتهيّأ للأمر فلما جاء الليل إقتاده الخدم إلى حجرة الأميرة فدخل عليها فوجدها نَائمة في سريرها فَمَكَثَ يتأمّل جمالها وحُسْنَها الفائق فقام من أحد أركان الحجرة عفريت هائل المنظر وبيده سيف بَتّار دون أن يشعر به الشّاب وإقترب منه ليهوي عليه بالسّيف و يقطع رأسه غير أنّ شخصا آخر كان وسط الغرفة أيضا لم يُمْهِله وضربه من ورائه بسيف على رأسه فأرداه قتيلا وسقط على الأرض محدثا صوتا هائلا فالْتَفَتَ الشّاب مذعورا فرأى العفريتَ ميّتا على الأرض ورأى صديقه الإسكافي واقفا بجانبه وبيده سيف يقطر دَمًا.

فقد أشفق الإسكافي على صديقه الشّاب فتسلّح بسيف ليلة الحادثة وإحتال للدّخول إلى حجرة الأميرة وقبع في أحد أركانها ينتظر الأحداث فلمّا رأى

العفريتَ قد خرج من مخبئه وبيده سيفٌ بَتَّار لِقَـتْل صديقه أدرك القصّة فلم يمهله وضربه بسيفه فأرداه قتيلا قبل أن يصيب الشّاب بسوء.

وفي الصّباح أتى الخدم فوجدوا الشّاب حيّا سالما فأخبروا الملك فزوّجه ابنته وعاش الشّاب مدّة في ضيافة صهره ثمّ نوى العودة إلى بلاده فجهّزه الملك وأعطاه كلّ ما يلزمه وما يلزم لزوجته وخرج قاصدا بلاده فخرج معه صديقه الإسكافيّ إلى حدود المدينة ليُودّعه وقبل الوداع نصب الشّاب خيامه وأمر الخدم الذين معه أن يصنعوا وليمة فاخرة على شرف صديقه الإسكافي وبعد الأكل والشّرب قام الإسكافي وطلب من صديقه الشّاب أن يعوّضه جزاء ما صنعه معه من معروف فاستغرب الشّاب لأنّ ذلك الطّلب ليس من طبع الإسكافي الذي عهده شخصا كريما فقال له إنّه يتنازل له عن كلّ ما يملك باستثناء زوجته لأنّ ما فعله معه لا يقدّر بالأموال فقال له الإسكافي إنّه يريد زوجته ولا شيء غيرها فحاول الشّاب إقناعه دون جدوى ولمّا رآه مصرّا على طلبه تنازل له الشّاب عن الأميرة فأخذها الإسكافي وعلّقها في شجرة من رجليها وأشعل تحتها نارا عظيمة والشّاب وخدمه ينظرون فأبصروا عددا كبيرا من العفاريت الصّغيرة تخرج من فم الأميرة وتقع في النّار وتحترق فعند ذلك فكّ الإسكافي قيد الأميرة وساعدها على النّزول إلى الأرض والوقوف على رجليها ثمّ قدّمها إلى صديقه الشّاب وقال له : "خُـذْ الآن زَوْجَتَكَ المَصُونَةَ حَلاَلا محلّلا عليك إلى أبد الدَّهْرِ بعد أن طَهَّرْتُهَا لك من أدران ذلك العفريت الذي كان متملّكا بها". فعانقه الشّاب وودّعه ثمّ إنّه التفت إليه وقال له : " إنّ جميلك كبير ولن أنساه أبد الدّهر, فانصحني بشيء أعمله ", فردّ عليه الإسكافي قائلا :"أنْصَحُكَ بِفِعْلِ الخير مثلما كان أبوك يفعل في حياته فإنّي أنا هو الخير الذي كان أبوك يفعله حضرت لك لأعوذك من البلاء وأصونك وأسهّل عليك نيل مرادك " .

وتروي أسطورة أخرى من هذا القبيل منتشرة في الأقطار المغاربية أنّه كان يوجد في قديم الزمان سلطان عظيم الشأن وكان يحكم في مدينة بقربها جبل عظيم وكان له ثلاثة أولاد شبّان في مقتبل العمر وكان أبوهم كثيرا ما ينصحهم بملازمة حدود المدينة وعدم الإقتراب من الجبل المحيط بها وإجتيازه ومات السّلطان فعزم الإبن الأكبر على الخروج للسّياحة في البلدان فأخذ ما يحتاجه من الزّاد والمال وودّع أخويه وأهله وخرج وقصد الجبل الذي كان أبوهم ينصحهم بعدم اجتيازه والإقتراب منه فعبره فوجد نفسه أمام مدينة عظيمة فدخلها وتجوّل في شوارعها فرأى في وسطها قصرا منيفا وقد رصّعت شرفاته برؤوس بشريّة فسأل المارّة عن سرّها فتحاشوا إجابته فتعرّف على أحد السكان وربط معه علاقة وبعد أيّام استفسره عن سرّ الرّؤوس البشريّة المعلّقة في شرفات القصر فأعلمه بأنّ ذلك القصر هو قصر حاكم المدينة وأخبره بأنّ ذلك الحاكم له بنت فائقة الحسن والجمال تقدّم لخطبتها الكثير من الشّبان ولكنّ أباها كان يشترط على كلّ من يتقدّم لخطبتها أن يجعلها تكلّمه وتتحدّث إليه وتخرج من صمتها معه حتّى يزوّجه بها وفي حال الفشل يقتله ويقطع رأسه ويعلّقها في شرفات قصره فتقدّم لخطبتها الكثير من الشّبان فخابوا في مسعاهم فقتلهم ذلك الحاكم وقطع رؤوسهم وعلّقها في شرفات قصره, فأراد الشّاب أن يجرّب حظّه فتقدّم لخطبة الفتاة لكنّه فشل في إنجاز الشّرط وعجز عن إخراج الفتاة من صمتها وجعلها تكلمه وتتحدّث إليه فأمسك به الحاكم وقتله وقطع رأسه وعلّقها في شرفات قصره.

فلمّا أبطأ في الرّجوع خرج الأخ الثاني في إثره فحصل له ما حصل لأخيه الأكبر وخرج الإبن الأصغر بدوره يبحث عن أخويه فبلغ المدينة واستقبله صاحب أخويه لما رأى فيه شبها بهما وأعلمه بأمرهما وما جرى لهما فتقدّم هو

الآخر لخطبة بنت الحاكم فأعلمه أبوها بالشّرط فقبل وطلب مهلة سبعة أيّام وكان ماهرا في الغناء والعزف على القصبة والشبّابة فاكترى دارا يحفّ بها بستان جميل وبه سرب من الحمام العجيب ومكث يفكر في حيلة يستدرج بها بنت الحاكم ويجعلها تتكلّم وكان يقضي وقت فراغه في العزف والغناء وكان الحمام العجيب الذي يسكن البستان مجموعة من الجنيّات المتنكّرات في هيئة الحمام فأعجبهنّ عزف الشّاب وطربن لغنائه وأعلمنه بأمرهن ووعدنه بمساعدته على نيل مراده.

ولما انتهت المهلة جاء إلى القصر فاستقبله الخدم وقادوه إلى غرفة الفتاة فدخل وجلس على أحد المقاعد والبنت بجانبه ومعهما عدلان ليشهدا على ما يحصل فبينما هم كذلك إذ أقبلت ثلاث حمامات وركسن أمام الشّاب وتقدّمت إحداهن وتكلّمت بلسان فصيح وقالت له : "إنّنا ثلاث بنات أخوات أتيناك لتحكم بيننا بالحق فقد مات والدنا وترك لنا ثروة فأخذت أختنا الكبرى هذه ثلاث أسداس الثروة وأختنا الوسطى هذه سدسي الثروة وبقي لي أنا الصغرى السدس فلم أقبل وجئنا نحتكم إليك, ففكر الشّاب قليلا ثمّ التفت إليها وقال لها : "إنّها قسمة عادلة وليس عندي ما أضيفه إليها".

فقامت بنت الحاكم وهي غاضبة وتكلّمت وصاحت بأعلى صوتها أمام الحاضرين :" لا, ليست قسمة عادلة بالمرّة فالأحرى أن تُقْسَمَ الثّروة على الثّلاثة بالعدل" .

فقام الشّاب والتفت إلى العدلين فقال لهما : "اشهدا وقيدا أنّها خرجت من صمتها وتكلّمت وأنّي أنا هو الذي جعلها تتكلّم وتخرج من صمتها وسكوتها".وكانت الحمامات الجنيات اللواتي تعرف عليهن الشاب في البستان

وهكذا نجح الشّاب في إنجاز الشّرط فأخبر الخدم حاكم المدينة الذي زوّجه ابنته وأقام لهما عرسا عظيما دام سبعة أيام وسبع ليالي بأكملها.

فنحن نعتبر أنّ كلّ هذه الأساطير هي أخبار تاريخيّة قديمة تنقل بعض الوقائع والأحداث الحقيقيّة التي حصلت في قديم الزّمان لبعض الجماعات من البشر فوق بعض بقاع الأرض.

فهذه الأساطير تنقل وتروي في حقيقة الحال بعض الأحداث الحقيقيّة التي عاشها في قديم الزّمان بعض الشّبان من البشر أثناء سعيهم للحصول على بعض البنات قصد الإقتران بهنّ في إطار أُسَر خاصة بهم جريا على عادة قومهم .

فقد كان الشبان الذكور في العصور القديمة مثل نظرائهم في عصرنا الحاضر يشعرون في سن البلوغ بالحاجة إلى الإتصال الجنسي والإقتران بالإناث وكانوا من هذا المنطلق يقصدون الأسر والجماعات البشرية المحيطة بهم للحصول بطريقة أو بأخرى على بعض بناتها ونسائها قصد الإقتران بهن وإشباع رغباتهم الطبيعية في الجنس وتأسيس أسر خاصة بهم.

وعلى هذا الأساس فإنّ خروج الشّبان للسياحة يرمز إلى مغادرتهم لأسرهم في سنّ البلوغ بحثا عن بعض التجمعات البشرية والأسر الإنسانية القريبة لأخذ بناتها وإناثها بشتى الوسائل المتاحة ومنها بالخصوص الإختطاف الذي مازال إلى اليوم ساريا في بعض المجتمعات الإنسانية في بلدان آسيا الوسطى .ولا شك أنّ تسمية الخطّاب بهذا الإسم في سياق اللّغة العربيّة يعود إلى ممارسة الإختطاف قديما كطريقة للحصول على القرين المناسب حيث أنّ كلمة "خطاب" هي صيغة لفظية لكلمة" خطاف" باعتبار أنّ الصوت "فا" والصوت "با"

كثيرا ما يتعاقبان في الكلام الإنساني فيعوّض أحدهما الآخر دون الإضرار بمعنى اللّفظة مع أنّهما صوتان مستقلاّن عن بعضهما مثلما شرحناه آنفا لكنّهما يجتمعان في التعبير عن الزّجر والنّهي أحيانا.

فكان الشّبان الراغبون في الزواج مضطرين إلى معرفة الأماكن التي تنزل فيها الأسر والجماعات البشرية فكانوا يستعينون لهذا الغرض بالعديد من الوسائل مثل اقتفاء الأثر أو قص الأثر ويسمّى في تونس باسم"قصّ الجرّة" وعند العثور على بعض الأحياء البشريّة يقوم أولئك الشّبان في بعض الحالات برجم وكرد القاطنين فيهم بمعنى رميهم بالحجارة وغيرها لإخراجهم من مخابئهم ويعتبر الكلام والحديث الذي يُّختَصُّ به البشر دون غيرهم من أهمّ العلامات والشّواهد الدّالة على وجود الإنسان في الأماكن التي يَصْدُرُ منها الكلام, فباستِطَاعَةِ الشّخص من خلال سماع الكلام والحديث أن يَسْتَنتج في القديم وجودَ بعض البشر في المكان الذي صدر منه ذلك الكلام.

كما كان أولئك الشّبان يستعملون التّمْويه بمختلف أشكاله ومنها تَـقليدُ أساليب التَّخَاطُب والتَّـفَاهُم والنِدَاء التي يستعملها أفرَادُ الجماعات المقصودة لخداعهم ومعرفة مَخَابئهم فَيَرُدّ عليهم أفراد تلك الجماعات بمثلها وبتلك الحيلة يتعرّفون على أماكنهم بحيث كان نَجَاحُ الشّبان في مسعاهم مرتبطًا أحيانا بجعل أفراد العائلات المقصودة وبناتِهَا بالذّات يَتَكَـلَّمْن ويَصِحْن ويُجِـبْنَهم على نداءاتهم المُزَيّـفة.

كما كان أفراد الأسر والجماعات البشريّة يُلازمون الصّمت عند الشّعور بإقتراب بعض الغرباء والأجانب والدّخلاء بصورة غريزيّة مثلما تَفْعَلُ الكثيرُ من الكائنات الحيّة في هذه الحالات.

فكان الشّبان يَقـُومُون بشتّى الأعمال والأفعال للتّخْويف والتّرهيب قصد إرباك أفراد تلك الأسر وبناتها بالذّات حيث أنّ الخطافين كانوا يمارسون الأخذ والإختطاف في غياب الرّجال والذكور للصيّد وغيره فكانوا يَقـُومُونَ بشتّى أفعال التّخويف لدفع البنات إلى فضح أنفسهن بواسطة الكلام وإطلاق الأصوات مهما كان نوعها.

ومازال النّاسُ إلى اليوم في كل أنحاء العالم يتصرّفون بهذا الشّـكل في مثل هذه المواقف بحيث أنّ الشّخص الذي يطارد شخصا آخر يلجأ أحيانا إلى التّمويه عندما يختبئ الشّخص المطلوب في أحد الأماكن المجهولة فيدّعي أنّه يراه ويعرف المكان الذي يختبئ فيه لإرباكه وتخويفه وجعله يفضَح نفسه بنفسه بالخروج من مخبإه والإستسلام لخصمه.

فالشّروط التي يَضَعُهَا أباءُ البنات في الأساطير المذكورة أعلاه والمُتَعَلّـقة بجعل هؤلاء البنات يتصلن بالخُطاب ويُكَلِّمْنَهم ويتحدّثن إليهم ترمز في حقيقة الحال إلى هذه الأوضاع البشريّة القديمة التي كان فيها الصّياح والكلام وإطلاق الأصوات سبيلا لبلوغ المراد مثلما شرحناه.

وتأكيدا لصحة تحاليلنا وجَدْنا أنّ الشّرط في بعض الأساطير يتمثّل في قيام الخطيب بمسابقة في العَدو مع الفتاة المطلوبة وتُشَفّعُ بالزّواج في حالة فوز الخطيب وبقتله وإعدامه في حالة فشله.

ففي هذا السّياق كان اليونانيّون القدماء يروون أسطورة بطلتها فتاة اسمها أطلنطا تنبّأت لها كاهنة بأنّها يوم تتزوّج تخرج عن طورها فعدلت عن الزّواج وكانت آية في الحسن والجمال فرغب فيها الكثير من الشّبان غير أنّها كانت تشترط على كلّ خطيب أن يُجْرِيَ معها سِبَاقا في العدو فإن غلبته قتلته

وإن انتصر عليها تزوّجها وكانت عدّاءة تسابق الرّيح فتراهن معها الكثير من الشّبان فغلبتهم وقتلتهم حتّى جاء ذات يوم شاب فطلب من الرّبة أفروديت ربّة الجمال أن تساعده على الإنتصار عليها فأهدته الرّبة ثلاث تفاحات من ذهب وأشارت عليه أن يرميها على التّوالي أمام الفتاة أثناء السّباق فتتوقّف لالتقاطها وتعطيه بذلك الفرصة للتّقدّم عليها وكان كذلك فانتصر عليها وتزوّج بها غير أنّهما تناكحا ذات يوم في معبد خاصّ بأمّ الآلهة فغضبت عليهما ومسختهما وحوّلتهما إلى أسد ولبؤة.

فلمّا كان الحصول على الزّوجة يَمُرُّ عبر الإختطاف فإنّ العملية تتّخذ أحيانا شكل المطاردة بين الفتاة والخطّاف, فعندما تتفطّن الفتاة إلى وجود من يترصّدها تنطلق هاربة نحو حيّها ومنازلها فتعدو والشّاب المترصّد لها وراءها للّحاق بها والقبض عليها وأخذها إلى حيث يريد وإرغامها على اتباعه.

وعلى هذا الأساس فإنّ نجاح الشّاب في مسعاه مرتبط بفوزه في مطاردة الفتاة واللّحاق بها والقبض عليها غير أنّ الفتاة ترفض غالبا الإذعان للشّاب الذي يطاردها لأنّه غريب عنها وتقاومه بكلّ قواها بحيث أنّ نجاحه النّهائي يكون مرتبطا بالتغلّب على مقاومتها وإخضاعها بالقوّة لمشيئته.

فلأجل ذلك يتّخذ الشّرط في بعض الأساطير مصارعة الفتاة ومحاولة التغلّب عليها بحيث أنّ الشّاب يتزوّج بالفتاة إذا ما غلبها وصرعها, أمّا في حالة الفشل وتغلّب الفتاة فإنّ مصيره الهلاك والقتل.

فقد جاء في أسطورة تونسية بعنوان" وشيمة خضراء" أنّ سبعة إخوة تعرّفوا على فتاة اسمها وشيمة خضراء فتزوّجها أكبرهم وكان يوجد بقربهم غولة تكره تلك الفتاة فتحوّلت الغولة إلى إمرأة واتّصلت بالإخوة السّبعة

وعرضت عليهم أن يتزوّجها أحد منهم واشترطت عليهم مصارعتها بحيث أنّ من يغلبها ويصرعها أرضا يتزوّجها وقد خطّطت كلّ ذلك للإنتقام من الفتاة التي كانت زوجة الأخ الأكبر فتصارعت مع إخوة زوج وشيمة السّتّة فغلبتهم جميعا وعندما جاء دوره تظاهرت بانحلال قواها وتركته يغلبها حتّى يتزوّج بها وتجتمع بوشيمة خضراء تحت سقف واحد لتنتقم منها .

وعندما ينجح الخطيب في التغلّب على الفتاة المطلوبة يأخذها إلى حيث يسكن بعد أن يربطها ويشدّ وثاقها ويقوم في أثناء ذلك بالهشّ عليها بإطلاق الأصوات المجعولة لذلك وخاصة منها الصوت "اس" و"أش" وصيغه المتعدّدة والصوت "إر" والصوت "إخ" و"كخ" منفردة ومجتمعة فلذلك يطلق على الزّواج اسم "القران" وكذلك اسم "عرس" في العربية واسم "نوس" في الفرنسية ويعتبر اسم "نوس" صيغة لفظية لكلمة"نش" التي تستعمل في الجنوب التونسي في معنى الهش والزجر بحيث أنّ السكان في تونس يقولون عن الشخص الذي يزجر الحيوانات ويحثّها على السّير بأنّه يُنشُّهَا.

فقد أشرنا إلى أنّ العريس كان يربط عروسه الجديدة ويقرنها إليه بواسطة الحبال وما شابهها في الأيّام الأولى من اقترانه بها حتى لا تهرب لأنّها ما زالت جافلة مثل الحيوان الجافل الذي ما زال لم يتعرّض إلى التّفريد والتّدجين ففي هذه الحالة يكون الحيوان جافلا ونافرا لوضعه الجديد. فكان عريسها يَقْرِنُهَا إليه بحبل في اللّيل مثلما رأيناه في بعض الخرافات الشّعبية التي ما زالت متداولة إلى اليوم. وتستعمل كلمة "عرس" في العربية في معنى الزّواج وكذلك في معنى الحبل أيضا ولأجل ذلك سمّي الزّوج والزّوجة باسم القرين وسمّي الزّواج باسم القران لأنّه كان في الأصل قرانا حسّيا وشدّا بالوثاق

والحبال بين الزّوج وزوجته ورباطا مادّيا يربط العريس بالعروس بواسطة الحبال وما شابهها.

وكثيرا ما يرد في الأساطير والخرافات المتعلّقة بالتفاح العجيب الحديث عن طائر عجيب هو الآخر من خصاله أنّه يغنّي وجناحه يردّ عليه وتصفه الأساطير والخرافات الشّعبيّة بأنه الطائر الذي يغنّي وجناحه يرُدّ عليه وتشير إلى أنّ وكره يوجد في حدائق أشجار التّفاح العجيب بمثابة الحارس لتلك الحدائق والأشجار بحيث أنّ الشّاب الذي يذهب لجلب التفاح العجيب يجد نفسه مضطرا إلى مواجهة هذا الطّائر العجيب واصطياده وجلبه معه غير أنّ ذلك الطّائر هو الآخر صعب المنال وصاحب حيل وخداع فكان قبل أن ينام في اللّيل قرب أشجار التفاح العجيب يتوجّه بالنّداء خدعة لكلّ من قد يسمعه من الغرباء المستترين داخل الحدائق ويطلب منهم بصوت عذب الكشف عن أنفسهم ويعطيهم الأمان بأنّهم لن يصيبهم مكروه إن هم فعلوا ذلك وربّما وجد من النّاس من ينخدع لحيله فيكشف عن نفسه فيهجم عليه ويحوّله إلى تمثال من حجر.

فلأجل ذلك يتلقّى الشّاب الذي ينجح في جلب التفاح العجيب والطّائر المغنّي نصائح من مساعديه بأخذ الحذر من حيل الطّائر وبعدم الإستجابة لنداءاته وبأن يظلّ مستترا في الغابة حتى ينام الطّائر ثمّ يتقدّم بهدوء ويقبض عليه كما يخبره أصحابه المساعدون له بأنّ الطّائر المغني يحاول خداعه بعد القبض عليه بالبكاء والنّحيب والعروض الخلاّبة ويحذّرونه من الإنسياق إلى خداعه وأحابيله أو إطلاق سراحه لأنّه سيهلكه وينفخ عليه ويحوّله إلى حجر مثل الكثير من الشّبان الذين حاولوا قبله القبض عليه وجلبه.

فنحن نعتبر أنّ هذا الطّائر العجيب يرمز هو الآخر إلى البنات والصّبايا والنّساء عموما داخل الأسر الإنسانيّة في بداية التاريخ الإنساني وقد سبق أن أوضحنا أنّ الطّيور العاقلة والنّاطقة في الأساطير والخرافات الشّعبية ترمز في أغلب الحالات إلى البنات والصّبايا والنّساء داخل الأسر الإنسانيّة في قديم الزّمان. وأشرنا إلى أنّ كلمة "طير" تفيد معنى المرأة والأولاد والأسرة والعائلة وهي صيغة لفظية لكلمة "ذر" كما تفيد معنى المواقعة الجنسيّة والنّكاح والحبّ والهوى والشّهوة.

وعلى هذا الأساس فأنّ مختلف التّصرفات التي يقوم بها الطّائر العجيب ترمز إلى مختلف الوسائل التي كان النّاس يستعملونها وما زالوا يستعملونها إلى اليوم لخداع الخصوم والتّخلص من المواقف المحرجة بشتى أنواعها كافتعال البكاء والنّحيب والإستجداء.

فكلّ هذه الأساطير والخرافات الشّعبية هي أخبار تاريخيّة تَنْقُلُ وتَرْوِي وتُصَوِّرُ الظّروف التي حفّت وأحاطت بتأسيس بعض الأسر الإنسانية القديمة من طرف بعض الأشخاص من البشر وما جرى لهؤلاء الأشخاص ولهذه الأسر من وقائع وأحداث.

وجاءت هذه الأخبار مصاغة في أساليب التّخاطب والكلام والوصف التي كانت سائدة في القديم كتسمية المرأة والأسرة باسم الجنّة والحديقة والحيّة والحيّ وتسمية البنات والأولاد عموما باسم الطّير والطّيور.

فقد ظلّ النّاس يروون ويحكون إلى اليوم الكثير من الأساطير والخرافات التي تشير بصورة جليّة إلى أنّ الغاية من كلّ تحرّكات الأبطال هي بالفعل الفوز ببعض البنات والصّبايا قصد الزّواج والإقتران بهنّ وتأسيس الأسر بمعيّتهنّ على

غرار العديد من حكايات الكتاب العربي المعروف باسم" ألف ليلة وليلة" ومنها بالخصوص حكاية تاج الملوك ومضمونها أنّ أميرا اسمه تاج الملوك كان مغرما بالصّيد فخرج ذات يوم كعادته لاصطياد ما تيسّر من الوحش والطّير في البريّة القريبة من مدينة أبيه الملك فالتقى بشاب إسمه عزيز وكانت معه خرقة من الحرير مرسوم عليها صورة غزال بديعة الصّنع والإتقان فسأله عن سرّها فأخبره بأنّ صاحبتها هي أميرة اسمها دُنْيَا تسكن في بعض الجزائر النّائية مع أبيها ملك تلك الجزائر وأعلمه بأنّها ترسم كلّ سنة صورة من هذا النّوع وترسلها إلى مختلف البلدان طلبا للشّهرة والصّيت فتعلّق قلب تاج الملوك بتلك الأميرة وطلب الإذن من أبيه الملك للسفر للحصول عليها والإقتران بها وصحب معه الشّاب عزيز ووزير أبيه وخرجوا متنكّرين في هيأة التّجار حتى وصلوا جزائر الأميرة دنيا فربط الأمير تاج الملوك علاقة متينة مع دادة الأميرة وتمكّن من الإتّصال بها وأدخلته إلى قصرها متنكّرا في هيأة جارية لكنّ أمره اكتشف وكاد أن يلقى حتفه لولا نجدة أبيه له وأخيرا بلغ مراده وتزوّج من الأميرة دُنْيَا.

كما تحتوي الملحمة العربية المعروفة باسم "سيرة بني هلال" على حكايات عديدة من هذا القبيل وتكاد روايتها المتداولة في بلدان المشرق العربي تقتصر على سرد قصص مغامرات شباب بني هلال للفوز بصبايا إشتهرن بجمالهن الفتّان منها بالخصوص قصة زين الدّار ومضمونها أنّ أحد أمراء بني هلال واسمه زيدان ويلقب بشيخ الشباب استقبل بعض الشّعراء فسألهم هل سمعوا أو رأوا بنتا بديعة الجمال موصوفة باللّطف والكمال وحسن الخصال فقال له أحدهم إنّه يوجد في بلاد الهند بنت أزهى من البدر وليس لها نظير في الجمال ومحاسن الصّفات وهي زين الدّار بنت الملك الغطريف, فتعلّق قلب الأمير زيدان بها وخرج للحصول عليها يصحبه عبده وفي الطّريق إجتمع بأمير

آخر اسمه عجاج فأعلمه بغاية سفره فوضع الأمير عجاج على ذمّته خمسة وعشرين فارسا وتابع سيره مع هؤلاء الفرسان حتّى وصل بلاد الملك الغطريف في الهند فتعرّف على عجوز وطلب مساعدتها للفوز بمرامه فأشارت عليه بأن يغيّر ثيابه حتّى لا يعرفه أحد ففعل ودخل على الملك الغطريف ليخطب ابنته زين الدّار فَقَدِمَ أربعة خطاب وطلبوا يدها واتّفقوا أن يعملوا قرعة عليها والذي تقع عليه القرعة يتزوّجها فخاف الأمير زيدان أن يفوته الأمر فبعث مع العجوز إلى زين الدّار وطلب منها أنْ تهرب معه فقبلت وهربت معه فتفطّن أبوها إلى الأمر فأرسل في إثرها كوكبة من جنوده لتخليصها من خاطفيها ونشبت معركة دامية بين عسكر الهند وفرسان بني هلال وكاد الهلاليّون أن ينكسروا ويقتلوا ولكنّهم صمدوا وأرسل الأمير زيدان إلى أحياء بني هلال في الجزيرة العربيّة يطلب منهم النّجدة فهبّت فرسان بني هلال يتقدّمهم أبطالهم أبو زيد الهلالي سلامة وذياب والقاضي بدير والسلطان حسن وقصدوا ميدان المعركة وهجموا على عساكر الهند فأفنوهم وقتل الملك الغطريف فولّى السلطان حسن أمير أمراء بني هلال مكانه إبنه على المملكة مقابل أداء جزية سنوية ورجع بنو هلال بالغنائم الوفيرة إلى ديارهم بالجزيرة العربية ونال الأمير زيدان مراده فتزوّج بالأميرة زين الدّار وأقام لهما السلطان حسن حفلا مشهودا حضرت فيه المغنيات ووُضعت الموائد للضّيوف والحاضرين عليها من المأكولات ما لذّ وطاب وداموا بعزّ وانشراح وأمان.

وقد كان الشبّان العزّاب الذين يرغبون في الحصول على الصّبايا والبنات ويغامرون بأنفسهم لتحقيق رغبتهم غرباء وأجانب عن الأسر والجماعات المقصودة بما فيهم الأبناء الذكور الذين يغادرون أسرهم الأصليّة في سن البلوغ ويخرجون للبرية والغابات المجاورة للعيش فيها عزّاب ريثما يتسنّى

لهم تكوين أسر خاصة بهم فإنّهم كانوا يعتبرون غرباء على غرار كلّ الشّبان الآخرين, فكان الغريب من هذه الناحية مَحَلّ حَذَر وخوف ولأجل ذلك يكثر في الأساطير والخرافات الشعبية التنبيه من خطر الغرباء والدّعوة إلى عدم الإتصال بهم والإجابة على أسئلتهم وإستفساراتهم مثلما رأيناه في بعض الأساطير والخرافات التي سقناها آنفا كأسطورة الملك أطلس صاحب حدائق التفاح الذهبي والخرافات التي يتحاشى فيها سكان بعض المدن إفشاء سرّ الرّؤوس البشرية المعلقة في شرفات قصورها الملكية.

فالأصل في مثل هذه الخرافات أنّ الملك أب البنت يتلقىّ من أحد العرّافين أو الكهنة تحذيرا من خطر أحد الغرباء يطأ أرضه ويكون سببا في هلاكه وزوال سلطانه فيأمر الملك سكّان مدينته بعدم الإتصال بالغرباء وإفشاء أسرار المدينة إليهم وإعلامه بأمر كلّ غريب يطأ أرضه ليقتله خشية أن يكون المقصود بالتّحذير.

ففي هذا السياق جاء في الأساطير والأخبار المنقولة في بعض الكتب القديمة المختصة أنّ القسم الشرقي من شمال إفريقيا الذي يضمّ ليبيا وتونس كان يحكمه في قديم الزّمان ملك إسمه أَنْتِي وكان هذا الملك على غرار الملك أطلس يقبض على كلّ غريب يطأ أرضه ويقتله وتذكر بعض الأساطير اليونانية بشأنه أنّه ابن الأرض وأنّه كان يعيش في زمن الملك أطلس وكان يعيش بجواره بالبلاد المصرية ملك من أقربائه اسمه بوزيري كان هو الآخر يمنع الغرباء والأجانب من المرور بأرضه ويقتل كلّ غريب يطأ أرضه.

ووردت في "تغريبة بني هلال" حكاية طريفة في هذا المعنى بطلها شاب من بني هلال اسمه أحمد بن شيحة الهلالي يغادر مضارب القبيلة بتحريض من

إحدى العجائز الماكرات للفوز بفتاة اسمها رداح أم زائد اشتهرت بجمالها الفتان حيث تعترض العجوز سبيل أحمد الهلالي وتتعمّد إثارة نخوته ودفعه إلى المخاطرة بنفسه للفوز بهذه الفتاة قائلة له :"إن كنت بطلا شجاعا فَاذْهَبْ واجْلِبْ رَدَاحْ أمْ زَائِدْ من بلاد البَعَايدْ" وتصفها له قائلة : "رَدَاحْ تَسْكُنُ وِينْ تْغِيبْ الشّمْس دُونَها صَحَارِي مَا حِلَة وجِبَالَ مِنْ دونها آلاف جند وحرس وفرسان وعديد من الأمحال .

وكانت رداح تسكن في حيّ بعيد بقصر منيع يقع وراء جبل اسمه الجبل الغربي في أرض كان يملكها أبوها فمات وتركها في كفالة جدّها وكان لها ابن عمّ جبّار اسمه شعلان فاستولى على السلطة وقبض على رداح وحبسها في قصر منيع بعد أن تنبّأ له أحد العرّافين بأنّها ستتزوّج من شاب غريب يطأ أرضه ويكون سببا في هلاكه وزوال ملكه فسجنها في ذلك القصر ومنع سكان أرضه من ذكر اسمها أمام الغرباء.

فلمّا أثَارَتْ العجوزُ الماكرة همّة الشّاب أحمد الهلالي تعلّق قلبه برداح وخرج في طلبها للفوز بها فأبصر سرْبا من الطّيور يتوجّه نحو بعض المواضع فتبعه فوجد أجمة كثيفة وواديا وقطعانا من الإبل ترعى وإلى جانبها بعض الرّعاة القائمين عليها ورأى دخانا يتصاعد من بعيد فسأل عنه أحد الرّعاة فقال له : "ذاك الدّخان دُخّان دُوّارْ تُقْصِدْ الخيمة الشرقيّة وعِنْدَهَا نَخْلَة تَلْقَى فيها فَحلَى هي أمّي واسْمُها الجازية بنت عيسى نَادِيها باسمها وقُلْ لَهَا ضِيفْ طَلّ على وِلْدِك في البِلّ تْكَرْمَك بالطعامْ وتنامْ في عزّ منامْ " وأخبره بأنّ تلك الإبل هي ملك رداح أم زايد. ونزل الشّاب الهلالي في ضيافة أمّ الراعي وسألها عن رداح فذَكَرَتْ له أنّ ابنها يَمْزَحُ معه وأنّ الإبل مِلكها وكانت زوجَةُ الرّاعي واقفة تَسْمع مُحَاورتهما فتكلّمَتْ بالشعر وأعلَمَتْه بأسلوب التّعْمية أنّ رداح تَسْكُنُ وراء

الجبل الغربي وأنّها محبوسة في قصر منيع تنتظر الخلاص, فتوجّه الشّاب أحمد إلى القصر وفاجأه الظلام فنام تحت الحُجْرة التي كانت ردَاحَ محبوسة فيها فرأته فأحبّته ورَمَتْ عليه نُوَاة تَمر فَاستَفَاقَ وحَصَل التعارفُ وتوطّدت العلاقة ورَجع الشّاب أحمد إلى أحياء بَني هلال واستنْجَدَ بِفارسيْهم المغْوَارين أبوزيد الهلالي سلامة وذياب وعاد صحبتهما إلى أرض رداح فوجَدُوا أنّ ابنَ عمّها الجبّار شعلان أرغمها على التّزوج به ويستعدّ لزفّها في موكب مشهود فتشاور أحمد وأبوزيد وذياب في كيفيّة القضاء عليه واغتنموا إشتغال القوم بالعرس فهجَمُوا عليه في يوم الزّفاف وقتلوه وهكذا خلى الجوّ للشّاب أحمد. فتزوّج من رداح وعاد بها إلى أحياء بني هلال فغارت منها الجازية الهلاليّة البطلة الرّئيسيّة لسيرة بني هلال لفرط حسنها وجمالها غير أنّ الأيام جرت على غير هوى القوم فهلكت رداح ومات زوجها أحمد في إثرها كمدا عليها كما أتى الدّهر على الجازية الهلاليّة فنبتت فوق قبورهم ثلاث شجرات فلّة وياسمينة وشجرة قتاد.

وفي هذا السّياق فإنّ التّشاؤم من الغريب للأسباب التي شرحناها تكمن وراء عادة التّشاؤم من طائر الغراب من باب المزج بين الأشياء المتشابهة بأيّ وجه من الوجوه وفي هذه الحالة الإشتراك في الإسم, فقد أشرنا إلى سريان عادة التّشاؤم من طائر الغراب في العديد من المجتمعات مثل المجتمعات العربيّة والقبائل العربيّة قديما في الجزيرة العربيّة.

فلفظة "غراب" هي صيغة لفظيّة لإسم "غريب" التي تعتبر بدورها تصغير كلمة "غرب". وقد أشرنا أنّ لفظة"غَرْب" تفيد في الأصل معنى الزّجر والنّهر والإبعاد في سياق اللّغة العربيّة وكذلك كلمة"أُسْت" التي تفيد معنى الغرب في بعض اللّغات الأوروبيّة كالفرنسيّة والإنجليزيّة فإنّ أصلها الصّوت "است" الذي يحدثه الإنسان بصورة غريزيّة بواسطة الصّفير للزّجر والنّهر والتّنبيه

والتّحذير والتّخويف فأطلقت كلّ هذه الكلمات في صيغ متعدّدة على أسباب ومصادر ومواضع الزّجر والتّنبيه والتّحذير والتّخويف مثل الغرباء والأجانب والدّخلاء عموما.

وإلى جانب الإختطاف والسّطو والأخذ كان الشبّان الرّاغبون في الزّواج يشتغلون لحساب الأسر المقصودة بصفة خدم وعبيد وتابعين لمدّة معلومة مقابل تزويجهم بإحدى بناتها عند إنقضاء تلك المدّة. وكانت الأشغال التي يقومون بها تتمثّل في إشعال النّار والرّعي وحلب الغنم وصناعة الجبن قبل أن تمتدّ إلى زراعة الأرض ورحي القمح والشّعير فلأجل ذلك تتمثّل الشّروط التي يضعها أباء البنات لخطّابهنّ في بعض الأساطير والخرافات الشّعبية في أشغال من هذا القبيل مع أنّها تتّخذ في الظّاهر صورة الأشغال الصّعبة والمستحيلة أحيانا مثل فرز أربعين غرارة مملوءة قمحا وشعيرا مختلطين في ليلة واحدة ووضع كلّ صنف في غرائر على حدة وغالبا ما ينجح الخاطب في إنجاز هذه الأعمال بمساعدة بعض الحيوانات الذين أسدى لهم من قبل جميلا فيطلب عونهم بواسطة بعض الإشارات المتّفق عليها من قبل فيأتونه ويساعدونه على إنجاز الشّروط.

الحيوانات المساعدة ومعناها الحقيقي :

فالكثير من الأساطير والخرافات الشّعبية التي تتحدّث عن سعي بعض الشّبان للفوز ببعض الصّبايا المشتهرات بحسنهنّ تشير إلى أنّ هؤلاء الشّبان يعثرون أثناء سياحتهم في الأرض على بعض الحيوانات في أوضاع حرجة فيساعدون تلك الحيوانات على الخروج من أوضاعهم فيشكر لهم الحيوانات صنيعهم ويلتزمون بإعانتهم بدورهم عند الحاجة ويعطون للشّبان شعرات من

الشّعر الذي يكسوهم ليحرقوها عند الحاجة ويعدونهم بأنّهم سيحضرون ويساعدونهم على قضاء حوائجهم حالما يحرقون تلك الشّعرات.

فنحن نعتبر أنّ هذه الحيوانات التي تساعد الشّبان في الأساطير المذكورة يرمزون إلى بعض الأقوام من البشر الذين عاشوا في قديم الزّمان وكانوا يحملون أثناء وجودهم فوق الأرض أسماء هذه الحيوانات تعبيرا عن بعض الصّفات والخصال البشريّة التي كانوا يمتازون بها وقد أشرنا إلى هذه الحقيقة في تحاليلنا المتقدّمة.

فقد جمعنا في هذا السّياق خرافة شعبيّة تونسيّة بعنوان "فليفلة بنت سلطان الجان" مضمونها أنّ شابا سافر بتحريض من إحدى العجائز الماكرات للفوز بفليفلة بنت سلطان الجان فعثر في طريقه على كلب بحر ومجموعة من النّمل ومجموعة من الفئران في أوضاع حرجة فخلّصهم من ورطتهم فأعطاه كلب البحر والنّمل والفئران شعرات من شعرهم ليحرقها عند الحاجة ووعدوه بالحضور حالما يحرقها لمساعدته على قضاء حاجته.

فاشترط عليه سلطان الجان أبو فليفلة مقابل إبنته أكل أربعين قصعة كسكسي باللّحم في ليلة واحدة وفرز أربعين غرارة مملوءة قمحا وشعيرا مختلطين وأربعين خابية مملوءة زيتا وقطرانا مختلطين فيجعل القمح في غرائر على حدة والشّعير في غرائر على حدة ويجعل الزّيت في خوابي على حدة والقطران في خوابي على حدة, فأحرق الشّاب الشّعرات التي أعطاها له أصحابه الحيوانات فحضروا على الفور وساعدوه على إنجاز الشّروط.

فكلب البحر والنّمل والفأر يرمزون إلى أقوام من البشر عاشوا في قديم الزّمان وكانوا يحملون أثناء وجودهم فوق الأرض اسم "كلب بحر" و"نمل" و"فأر"

تعبيرا عن بعض الصّفات والخصال المميّزة لهم فيسدي لهم الشّاب بعض الخدمات الجليلة فيصبحون أنصاره وحلفاءه ومواليه ويعينونه على قضاء حوائجه.

فقد سبق أن أشرنا إلى أنّ إسداء الخدمات يدخل في إطار العمليّات التي يعتمدها الإنسان لتقريد أمثاله وتدجينهم وترويضهم وجعلهم أليفين وحلفاء وأنصارا وتابعين بحيث يمكن أن نقول إنّ الحيوانات المساعدة في الأساطير والخرافات الشّعبية هم إلف الشّاب وحلفاؤه ومواليه ولحمته.

كما أوضحنا في سياق تحاليلنا للعادات البشريّة المتعلّقة بإحترام بعض الحيوانات وعدم أكل لحومها أنّ هذه الحيوانات ترمز في حقيقة الحال إلى بعض الفئات الأليفة من البشر التي كان يستوجب احترامها لأنّها أليفة ويمنع تبعا لذلك أكل لحمها بمعنى الإضرار بأفرادها, وفي بعض الحالات الإتصال الجنسي بهم لأنّهم تابعين وملكا خاصا لمن قام بتقريدهم وتدجينهم وترويضهم والإرتباط بهم قبل غيره كما أنّ الإتصال الجنسي يعتبر أحيانا من الأشياء المضرّة إذا ما كان نتيجة للأخذ والإمساك واستعمال العنف.

فالعديد من الحيوانات المحرّمة تنتمي إلى صنف الحيوانات المساعدة التي ترمز إلى فئات بشرية أصبحت أليفة وحليفة دون أن تعيش بالضّرورة مع المجموعة الأسريّة والعائلة وكانت هذه الفئات تحمل أسماء معلومة تعبيرا عن بعض الصّفات والخصال المميّزة لها ثمّ أطلقت تلك الأسماء على بعض الحيوانات الحقيقيّة تعبيرا عن بعض الحقائق المحسوسة فانتقل الإحترام إلى الحيوانات الحقيقيّة من باب المزج الغريزيّ بين الأشياء المتشابهة وضياع المعنى الأصلي للإسم ومقصوده الحقيقي .

فقد أشرنا مثلا أنّ إسم "قرد" يفيد في الأصل معنى المرأة المتزوّجة والأسرة والعائلة والفئات البشرية التي خضعت للتّقريد والتّرويض والتّدجين وأصبحت أليفة وتابعة لمن قام بتقريدها وترويضها وتدجينها الذي يسمّى هو الآخر باسم" قرد" أو "قارد" غير أنّ إسم "قرد" أطلق أيضا على الحيوان المعروف باسم"قرد" لبعض الصّفات والخصال التي يوحي بها اسم"قرد" وهي كثيرة جدّا إذا ما أردنا إحصاءها ومنها شبهه بالإنسان حيث ذكرنا أنّ لفظة"قرد" تعادل معنويا لفظة"إنسان" باعتبار أنّ لفظة "إنسان" تطلق على الفئات البشرية التي خضعت للتّرويض والتّدجين وأصبحت أليفة ومستأنسة وكانت تضمّ في البداية العناصر النّسائية المنتمية للأسرة ثمّ توسّع نطاقها وشملت كلّ الفئات الأليفة والمستأنسة وعلى هذا الأساس فإنّ الحيوان المعروف باسم"القرد" يسمّى بهذا الإسم لشبهه بالإنسان باعتبار أنّ لفظة "قرد" تعادل معنويا لفظة "إنسان". ففي هذا السّياق وجدنا أنّ القرد يسمّى في اللّغة الفرنسيّة باسم "سانج" الذي يعتبر صيغة لفظية لإسم "إنسان" و"مستأنس".

فبالنّظر إلى تعادل الصّوت "جا" والصّوت "سا" يتّخذ اسم "سانج" صيغة "سانس" التي تمثّل أصل كلمة"إنسان"و"مستأنس" حيث لاحظنا أنّ السّكان في تونس يستعملون كلمة "مِستأنِس" في معنى متعوّد كما في حال المتعوّد على فعل شيء من الأشياء ثمّ إنّهم يسمّون العادة والتّعوّد باسم "سناسة" وسبق أن أشرنا إلى أنّ كلمة "سانج" تستعمل في الفرنسيّة في معنى القرد وكذلك في معنى التّقليد والإتّباع والتّعوّد على فعل شيء من الأشياء ويُدْعَى في العربية أحيانا باسم"سُنّة" كما أنّ أهل تونس يستعملون لفظة "سَنّس" في معنى عوّد وعلّم.

وتشير الأساطير والخرافات المذكورة أنّ المساعدة من طرف الحيوانات تأتي إثر قيام الشّاب بإحراق بعض الشّعرات التي سبق أن أعطاها له الحيوانات للإحتفاظ بها وإحراقها عند الحاجة إلى مساعدتهم.

فهذا المشهد المتعلّق بإحراق الشّعر يرمز في حقيقة الحال إلى استعمال النّار والدّخان كوسيلة للإشارة والإنذار والتّخاطب عن بعد, وقد ظلّ النّاس إلى عهد قريب جدّا يستعملون النّار والدّخان للتّخاطب عن بعد.

وعلى غرار اسم "قرد" فإنّ الكثير من أسماء الحيوانات الأخرى تفيد في الأصل معاني لها صلة بالأوضاع البشريّة واستعملت كأسماء للبشر ثمّ أطلقت بعد ذلك على بعض الحيوانات مثل اسم "طاووس".

فقد لاحظنا أنّ اسم"طاووس" يطلق على الطّير المعروف باسم طاووس كما أنّه يستعمل بكثرة في البلدان المغاربية بشمال إفريقيا لتسمية النّساء حيث توجد في تونس والجزائر مثلا الكثير من النّساء اللّواتي يحملن اسم"طاووس" وقد استعمل اسم"طاووس" كإسم علم لتسمية النّساء لأنّه يفيد في الأصل معنى المرأة والأسرة والعائلة كما هي الحال إلى اليوم في بعض اللّهجات البربريّة السّارية عند بعض قبائل التوارق القاطنين بالصّحراء الكبرى في المناطق الجنوبيّة لبلدان شمال إفريقيا, حتّى أنّ الأسرة والعشيرة في هذه القبائل تسمّى باسم"طاووس" فيقولون تبعا لذلك "طاووس فلان" بمعنى عائلة فلان وعشيرة فلان.

كما أنّ كلمة "طاووس" تفيد في اللّغة اليونانيّة معنى الإله في صيغة "تيُوس" وقد أشرنا إلى أنّ الآلهة الذين عبدتهم الشّعوب الإنسانيّة في القديم يرمزون إلى الآباء والأجداد والأسياد والأشراف والحكام في الجماعات البشريّة التي عمّرت الأرض في العهود الأولى من التّاريخ الإنساني.

ففي هذا السّياق جمعنا بعض الخرافات الشّعبيّة التونسيّة التي يقوم بدور البطولة فيها صبيّة تسمّى "الجميلة بنت الطاووس" غير أنّها تبدو في القصّة في الظّاهر بأنّها إبنة طاووس بمعنى الطّائر المعروف باسم "طاووس" في حين أنّ الأمر يتعلّق في حقيقة الحال بشخص من البشر اسمه الطّاووس لأنّه كان في حياته سيّدا في قومه أو شيئا شبيها.

ومضمون هذه الحكاية أنّ رجلا كان متزوّجا بإمرأة فتقدّمت بهما السّنّ ولم ينجبا أولادا فمرّ ذات يوم تاجرٌ يبيع تفّاح الإنجاب فاشترت منه المرأة تفاحتين أكلت إحداهما وتركت الأخرى جانبا فوجدها الرّجل فأكلها فحملت المرأة من ساعتها في حين لاحظ الرّجل أنّ ساقه انتفخت ووضعت المرأة بعد عدّة أيّامها ولدًا فأحسّ الرجل هو الآخر بأوجاع الولادة فخاف من الفضيحة فاختفى في بستان على ملك ابن السلطان وجلس قرب بركة كانت تتوسّطه فانشقّت ساقه وخرجت منها بنت في غاية الحسن والجمال فتركها بجانب البركة ورجع من حيث أتى وكان يوجد في البستان طاووس يعيش في عشّ له فوق نخلة من نخيل البستان فرأى البنت فأشفق عليها وحملها إلى وكره واهتمّ بتربيتها حتّى كبرت وأصبحت شابّة غاية في الجمال.

فجاء الأمير ابن السّلطان ذات يوم إلى البستان وهو راكب فرسه فتقدّم الفرس من البركة ليشرب ففزع فالتفت الأمير فرأى شعرة إمرأة طويلة لونها كالذّهب طافية على الماء فعرف أنّها سبب نفور حصانه فأخذها واتّصل بعجوز السّتوت اللّه لا يرحمها يوم تموت وأمرها أن تبحث له عن صاحبة الشّعرة وإلاّ قطع رأسها فذهبت العجوز رفقة الأمير إلى البستان وجاءت تحت النّخلة التي تسكن فيها الصّبية وأوقدت نارا كبيرة في حين إختفى الأمير في بعض الأماكن القريبة فتصاعد الدّخان بكثافة من النّار وأزعج الفتاة واضطرّت إلى النّزول

فرمى عليها الأمير برنسه وحملها إلى قصره حيث قام الخدم بتنظيفها وغسلها وتجميلها وارتدت ثيابا فاخرة وأصبحت فتنة للنّاظرين وسمّاها النّاس الجميلة بنت الطّاووس فتزوّج بها الأمير الذي كان متزوّجا من قبل بإمرأتين فغارتا من الزّوجة الجديدة فأمسكتا بها في غياب الأمير بمساعدة عجوز السّتوت وجرّدتاها من ثيابها ونزعتا شعرها الذّهبيّ وكستاها بالرّيش وأطلقتا سبيلها فطارت إلى نخلة أبيها وعادت إلى سالف وضعها وساء خولي البستان حالها فامتنع عن ريّ أشجار البستان مكتفيا بريّ النّخلة التي كانت تعيش فوقها الفتاة فذبلت أشجار البستان ما عدا النّخلة وعاد الأمير من سفره فسأل عن الجميلة بنت الطاووس فقيل له إنّها ماتت فحزن عليها وذهب إلى البستان ليستعيد ذكرياته مع حبيبته فوجد الخولي حزينا ووجد أشجار البستان ذابلة ماعدا نخلة الفتاة فسأل الخولي عن الأمر فأعلمه بالقصة وأبصر بالفتاة مكسوة بالريش فوق النخلة فدعاها إلى النزول وحملها معه إلى قصره وأمر خدمه بنزع ما عليها من ريش وبتنظيفها وتجميلها فعادت كما كانت حسنا وبهاء ثمّ قبض على عجوز الستوت وزوجتيه وأمر بقتلهنّ وعاش مع زوجته الجديدة في هناء وسعادة إلى آخر أيامه.

ويقوم بمساعدة الشاب أو البطل في هذه الأساطير والخرافات أحيانا أقوام من الغيلان والدّببة والسعالي وقد أوضحنا أنّ الغيلان والدببة والسعالي التي تتحدث عنها الأساطير والخرافات والمعتقدات الشعبية يرمزون إلى أقوام وطوائف من البشر عاشوا في قديم الزمان وكانوا يحملون أثناء وجودهم فوق الأرض اسم"غول" و"دب" و"سعلاة" تعبيرا عن بعض الصفات والخصال البشرية المميزة لهم.

وتذكر الأساطير والخرافات الشعبية بصورة جلية إلى أنّ الشاب يقوم بتقريد وتدجين هؤلاء الغيلان والدببة والسعالي قبل الحصول على مساعدتهم.

فحالما يعثر الشاب في طريقه على غول يبادره بالسلام فيجيب الغول قائلا:" لولا أنّ سلامك سبق كلامك لسمعت الجبال طقطقة عظامك". فيسأله الشاب عن السبب فيجيبه الغول:" بسبب الجوع والعطش والعراء والوسخ الذي أعاني منه" فيتقدم الشاب من الغول فيقلّم أظافره ويحلق شعره ويغسله وينظّفه ويناوله الطعام والشراب فيأكل ويشرب ثمّ بعد ذلك يلتفت إلى الشاب ويسأله عن الحاجة التي جاءت به إلى بلد الأهوال والأغوال فيخبره الشاب بحاجته فيساعده الغول أو الدب على قضائها.

ونشير في هذا السياق إلى أنّ ملحمة كلكامش البابلية التي سبق أن تحدثنا عنها تبتدئ بقيام كلكامش بتقريد وتدجين العبد المتوحش أنكيدو الذي يصبح في ما بعد صديقه الحميم ويساعده على إنجاز العديد من المهمّات الصعبة ويستعين كلكامش في تقريد أنكيدو بالعديد من المغريات فيبعث له بامرأة حسناء لترويمه ويفلح في مسعاه لكنّ الصداقة بين الرجلين تنتهي فجأة بموت أنكيدو فيحزن عليه كلكامش ويتفكر الموت والفناء فيقرّر السفر لجلب نبات الحياة مثلما شرحناه آنفا.

ونلاحظ في هذا السياق أنّ لفظة "غول" مازالت تستعمل إلى اليوم في العربية في معنى المستعبدين في صيغة "خول" كما تطلق في صيغة "قيل" و"أقيال" على فئة من الولاة والحكام كانوا يحكمون قديما في اليمن بجنوب الجزيرة العربية.

كما يتلقى الشاب المساعدة من بعض أعوان الجنّ والجان فيسخّرهم لقضاء حاجاته مستعينا بخاتم عجيب يعثر عليه في بئر أوفي بعض المواضع الشبيهة فيفركه فيخرج له جان ويعلمه بأنّه خادم الخاتم العجيب الذي يمتلكه

ويضع نفسه على ذمته قائلا له : "حبيك لبيك عبدك بين يديك من الغرب يجيك من الشرق يجيك" فيأمره الشاب ببعض الأعمال فينجزها في رمش العين.

فقد أشرنا في تحاليلنا السابقة إلى أنّ أقوام الجنّ والجان والعفاريت والمردة والشياطين يرمزون إلى بعض الأقوام والطوائف من البشر الذين عاشوا في قديم الزمان وكانوا يحملون أثناء وجودهم فوق الأرض اسم "جنّ" و"جان" و"عفريت" و"مارد" و"شيطان" تعبيرا عن بعض الصفات والخصال البشرية المميّزة لهم وعلى هذا الأساس فإنّ استخدام الجنّ وتسخيرهم لإنجاز المهمات يتمثل في استخدام بعض الفئات من البشر التي تتعرّض إلى التفريد والتدجين والترويض فأصبحت تابعة ومطيعة لمن قام بتفريدهم وترويضهم وأوضحنا في هذا السياق أنّ لفظة "خاتم" هي صيغة لفظية لكلمة "خادم" وأنّ عادات الختم بالخواتم هي من قبيل العادات المتعلقة بالوشم والوسم وكانت تتمثل في وضع بعض الرسوم على جسد الأشخاص المستعبدين وعلى الممتلكات بمختلف أنواعها كعلامة على امتلاك أولئك الأشخاص وتلك الممتلكات وذكرنا أنّ الأصول الطبيعية لكلّ هذه الممارسات والتصرّفات هي عمليّات العضّ والكدم والضرب والركل وما تلحقه هذه الأفعال من جروح وآثار على الجسد أثناء العراك والمبارزة والمطاردة التي تنتهي عادة بفوز الشخص الذي يتمكن من إحداث أبلغ الآثار والجروح على جسد خصمه حتّى صارت آثار الجروح علامة على النّصر والفوز والتملك والاستعباد.

وتأتي المساعدة أيضا في بعض الحالات من طرف شيخ يتعرّف عليه الشاب أثناء سفره وقد رأينا في خرافة النصيف أنّ الإخوة الثلاثة يلتقون بأحد المنعرجات بشيخ فيرشدهم إلى الطريق الموصل ويساعدهم على قضاء حاجتهم.

فهؤلاء الشيوخ يرمزون هم أيضا إلى بعض الفئات والطوائف من البشر الذين عاشوا في قديم الزمان وكانت تتألف من الشيوخ والأشخاص المتقدمين في السنّ الذين كانوا بدورهم مثل الصغار يضطرون إلى مغادرة أسرهم طوعا أو كرها والإقامة بجوارها في الغابات والجبال والكهوف القريبة منعزلين إلى آخر حياتهم.

فقد أشرنا في هذا السياق إلى أنّ انتقال السلطة داخل الأسر الإنسانية يفضي غالبا إلى هروب بعض عناصرها مخافة التعرض إلى عمليات التطهير التي كان يقوم بها الحكام الجدد ضدّ كلّ الذين يرون فيهم تهديدا لمصالحهم الخاصة كصاحب السلطة القديم خاصة عندما يتمّ هذا الانتقال بواسطة الانقلابات وافتكاك السلطة بالقوة.

فقد رأينا أنّ الكثير من الأساطير والخرافات الشعبية تتحدث عن تشريد الصغار والشبان الذكور وقتل الغرباء والأجانب مخافة أن يكونوا سببا في هلاك كبار الجماعة وزوال ملكهم وسلطانهم بحيث أنّ الانقلابات السياسية وعمليات افتكاك السلطة بالقوة كانت سارية منذ أقدم العصور داخل الأسر والجماعات البشرية وتفضي إلى عمليات التطهير في مختلف المستويات بما جعل أفراد الأسر يأخذونها منذ القديم بعين الإعتبار ويدخلونها في حساباتهم فبرزت في سياق هذه الأوضاع كلّ تلك العادات المتصلة بتشريد بعض الأصناف من الصغار قبل أن يبلغوا ويصبحوا خطرا على الكبار. كما برزت في هذا السياق المواقف العدائية تجاه الغرباء والأجانب واعتبارهم خصوما ومنافسين ينبغي مقاومتهم والإحتياط منهم والإحتراز في التعامل معهم وقد أوضحنا أنّ المتشردين والغرباء كانوا يمثلون في بداية التاريخ الإنساني فئة واحدة.

فإلى جانب الأسر العادية كانت هناك في قديم الزمان مجموعات خالصة من الشبان وجماعات من الشيوخ الذين يعيشون في جوار تلك الأسر وكانوا يتصرفون حسب طبيعة الفئة التي ينتمون إليها فكانت هذه الأوضاع تساعد أحيانا على إقامة علاقات التعاون والمساعدة بين الشبان والشيوخ.

كما يقوم بمساعدة الشاب أيضا في بعض الحالات أسود عظيم الخلقة يفترش إحدى أذنيه ويتغطّى بالأخرى يعثر عليه الشاب في بعض المنعرجات فيتصدى للشاب ويمنعه من المرور ويتبارز معه فيصرعه الشاب فيعترف له بالسيادة ويضع نفسه على ذمّته ويساعده على قضاء حاجته.

ويطلق السكان في تونس على الأسود اسم "وصيف" و"شوشان".

حقيقة العلاقة بين الاستعباد وأسماء الألوان :

ويبرز هذا المشهد المتعلق باستعباد السّود في الأساطير والخرافات الشعبية أنّ الذين يساعدون الشاب هم أشخاص وأقوام من البشر نجح في تقريدهم وتدجينهم وترويضهم فأصبحوا أتباعه ومواليه وخدمه وحلفاءه.

وقد خصّت بعض الأساطير والخرافات الشعبية السّود بالوقوع في الرقّ والعبودية بحكم انتشار الرق والاسترقاق في أوساط السود في العهود المتأخرة حتّى أصبح اسم "أسود" و"وصيف" و"شوشان" يفيد معنى العبد والخادم.

وتتجلّى هذه الحقيقة مثلا في بعض قرى ومدن الجنوب التونسي حيث يطلق سكان هذه المدن والقرى على الأسود اسم "شوشان" بمعنى "أسود" ويطلقون على الأبيض اسم "حرّ" وهم يعنون به أبيض فحصل نوع من الخلط والمزج بين الاسم الدال على اللون والاسم الدال على الوضع الاجتماعي وعلى الفئة والطائفة والصنف البشري.

ففي هذا السياق نعتبر أنّ الأسماء التي تطلق على الألوان مثل اسم "أبيض" و"أسود" و"أحمر" كانت ترمز في الأصل إلى الوضع الاجتماعي وإلى الانتماء الفئوي والطبقي ثمّ استعملت للتعبير عن الألوان لسبب من الأسباب.

فمن ذلك أنّ لفظة "أسود" التي تطلق في سياق اللغة العربية على اللون الأسود تفيد أيضا معنى السيادة والرفعة والسؤدد, فهي مأخوذة من لفظة "ساد" التي تستعمل في العربية كفعل في معنى الارتقاء إلى وضع السيد فيقال في العربية في هذا السياق "ساد فلان على القوم" بمعنى صار عليهم سيدا, كما يقال في العربية "سوّد القوم فلانا" بمعنى جعلوه سيدا في حين أنّ لفظة "سوّد" تستعمل أيضا في معنى التحويل إلى اللون الأسود فيقال في العربية"سوّد الشيء" بمعنى جعله أسود اللّون. ويطلق على أسود البشرة في اللغة الفرنسية اسم"توار" الذي يستعمل في العربية في معنى الضياء والبياض والزّهر خلافا لمعناه في سياق اللغة الفرنسية. فاسم "توار" مأخوذ من الجذر "تار" و"تور" ويطلق اسم"نور" في العربية على الضياء في حين يطلق اسم "نار" على عنصر النار التي هي أيضا مصدر النور والضياء كما تطلق كلمة "نوار" على الزهر والزهور في العربية.

ويسمّى الأسود في الإيطالية باسم"نيرو" في حين تستعمل كلمة "نير" في العربية في معنى الخشبة التي توضع في رقبة الأسير وتسمّى باسم "كورد" و"بكرة" مثلما رأيناه كما تسمّى باسم "جنزير".

كما أنّ اسم"أبيض" هو صيغة لفظية لاسم"أبيد" بالنظر لتعادل الصوت "ضا" والصوت "دا".

ويتّخذ اسم "أبيد" صيغة "عبيد" بزيادة الصوت "عا" الذي كثيرا ما يسقط في الكلام الإنسانيّ كما هي الحال في جلّ اللّغات الأوروبية ويطلق اسم "عبيد"

في سياق اللغة العربية على الموالي والبشر المستعبدين من طرف غيرهم وهو اسم جمع ومفرده "عبد" وقد أشرنا في الكثير من المواضع إلى أنّ اسم "إنسان" كان يفيد في الأصل معنى العبد والخادم والتابع على غرار اسم "قرد" بحيث أنّ اسم"عبد" يعادل معنويا اسم"إنسان".

وتستعمل كلمة "نير" في العربية في معنى الظلم والتعسّف كما تطلق كلمة "ظلم" في صيغة "ظلام" على السواد في اللغة العربية وكذلك في صيغة"ظلمة".

ويسمّى الظلم والتعسّف في العربية أيضا باسم "جور" وقد وجدنا أنّ كلمة "جور" تستعمل في الفرنسية في معنى النهار المقابل لليل بحيث أنّ كلمة "توار" تفيد في الآن نفسه معنى الضّياء والنّور والظلام والسواد والتجبّر والقوّة والعبوديّة.

كما أنّ كلمة "شوشان" التي كانت تطلق على العبيد في الجنوب التونسي تتّخذ صيغة "سوسن" بالسين المهملة ويطلق اسم "سوسن" على نوع من الزّهر الأبيض اللّون.

كما أنّ الجذر "شوشة" يستعمل بصفة اسم في تونس في معنى القمة والرأس فيقال شوشة الجبل وشوشة الرأس بمعنى الناصية والجزء الأعلى من الشعر النابت في الرأس وقد جرت العادة في العديد من المجتمعات الإنسانية أن يقوم الغالب بحزّ ناصية أو شوشة رأس المغلوب كرمز ودلالة على الغلبة والأسر والاستعباد وانتزاع الحريّة والرّئاسة من المغلوب.

وقد ظلّ الشعر في بعض المجتمعات رمزا للقوّة في حين كان نزعه رمزا للقهر والغلبة والاستعباد. وقد رأينا أنّ تقريد الغيلان وترويضهم وتدجينهم

يتمّ عبر تقليم أظافرهم وحلق شعورهم كما أنّ بطلة أسطورة كزيمباها الأندونيسية الأميرة أتوباجي تحذر كزيمباها من مغبّة نزع شعرة بيضاء نابتة فيها وهدّدته بأنّها ستغادره إن فعل ذلك.

وفي هذا السياق نشير إلى أنّ لفظة"رأس" تستعمل في صيغ متعدّدة في بعض اللّغات في معنى الأحمر والأشقر والذهبيّ كما هي الحال في البربرية في صيغة"أوراس" وفي الإيطالية والفرنسية في صيغة "روس".

واستعملت كلمة"رأس" في معنى الرأس والسيادة والرّفعة والسؤدد لأنّها مركبة من الصوت "إر" والصوت "إس" في حين أنّ لفظة "شوشة" متركّبة من تكرار الصوت "أش" ورأينا أنّ الصوت "إر" و"أس" و"إش" هي أصوات غريزية يستعملها الإنسان للزّجر والنّهر والتّخويف والتّحذير فأطلقت بمفردها ومجتمعة على القائمين بمهمّة التحذير والتخويف والزّجر والنّهر في المجتمعات البشرية وهم رؤساء الأسر والجماعات فسمّوا تبعا لذلك باسم "راس" و"رئيس" و"رُوَا" و"رَيّ" و"شوشة" حيث تستعمل كلمة "رُوَا" في معنى الملك في اللّغة الفرنسيّة في حين يُسمّى الملك باسم "رَيّ" في الإيطاليّة ثم إنّ هذه الأسماء أطلقت على كل ما هو رفيع وعالي مثل رأس الإنسان ورأس الجبل.

كما أنّ لفظة "نار" و"نور" التي تمثل أصل كلمة "نوار" و"نيّر" مأخوذة هي الأخرى من الصّوت "إر" ومازالت كلمة "أور" تطلق على النار وسعيرها في العربيّة فلأجل ذلك اتّخذت معاني لها صلة بالسّلطة والحكم كالتّعسّف والجور والقهر وأطلقت على النّير الذي يُوضع حول رقبة الأسير لأنّه يجسّم القهر وفاعلَه كما أطلقت أيضا على العبد والأسير في صيغة "رق" حيث أنّ كلمة "رق"

يمكن أن تتّخذ صيغة "را" فقط بإسقاط الصّوت "قا" كما يفعل المصريّون مثلا في لهجتهم العربيّة الدّارجة.

فقد كان الصّوت "إر" يُستعمل في البداية بصورة غريزيّة للزّجر والنّهر والتّخويف والتّحذير فأطلق على الرّؤساء والحكّام الذين يقومون بوظيفة الزّجر والنّهر والتّخويف والتّحذير ثمّ على كلّ ما يجسّم القوّة والقهر كالخشبة والنّير الذي يوضع على رقبة الأسير ثمّ على ذلك الأسير.

فقد كان السّيد وعبده كالزّوج والزّوجة مقترنين قديما بحبل واحد طرفه بيد السّيد وطرفه الآخر ينتهي بعقدة أو بحجر وغيره دائر برقبة الأسير فكان السّيد يوجّه عبده بذلك الحبل حَسَبَ مشيئته كما يفعل الإنسان حاليا بالحمار والحصان والثّور والجمل بواسطة اللّجام والشكيمة فكان السّيد والعبد ووسيلة الاستعباد يمثلون وِحدة متكاملة وقد سَبَق أن أشرنا في هذا السّياق إلى أنّ كلمة "رَي" مثلا تفيد في الإيطاليّة معنى الملك والسّيد في حين تطلق في بعض جهات البلاد التونسية على نوع من الحبال المصنوعة من الشّعر.

فلهذا السبب تَحْمِلُ بعض المفردات اللغوية معنى السّيد والعبد في العربية مثل كلمة "مولى" ويسمّي اللّغويّون هذا الصّنف من الكلمات باسم "الأضداد" لأنّها تفيد الشيء وضدّه كإفادة كلمة "مَوْلَى" لمعنى السّيد والعبد.

فقد لاحظنا أنّ اللّون الأبيض يسمّى باسم "ملال" في سياق اللّغة البربريّة وهو اسم مُشتقّ من لفظة "إل" على غرار اسم "مولى" في العربيّة وتُستعمل لفظة "إل" في العربيّة أيضا في معنى الضّياء والضّوء والبياض كما يتجلّى في لفظة "لألأ" التي تُستعمل في العربيّة في معنى "أضاء" وتفيد كلمة "أل" في العربيّة

واللّغات القريبة منها معنى الإله وكذلك معنى السّيد والسّيدة فهي أصل كلمة "ألـــّة" و"لَلـــّة" التي تستعمل بكثرة في تونس والبلدان المغاربيّة في معنى السّيدة.

وتتركّب كلّ هذه الأسماء من الصّوت "أل" و"ألت" الذي شرحنا أصله ومعناه في تحاليلنا السّابقة حيث أشرنا إلى أنّ الصّوت "أل" و"ألت" هو أيضا صوت غريزي يستعمله الإنسان للزّجر والنّهر ومازال النّاس يستعملونه إلى اليوم في الجنوب التونسي لزجر الحمير والبغال وحثّها على السّير في حين تُستعملُ كلمة "هَالْت" أيضا في بعض اللّغات الأروبيّة كالألمانيّة في معنى الوقوف والأمر بالوقوف كما تستعمل كلمة "ألْت" في الألمانيّة في معنى الكبير والسّيد وتطلق كلمة "إليتْ" على النخبة في سياق اللّغة الفرنسيّة. وتستعمل كلمة "ألْت" في الفرنسيّة أيضا كلقب للملوك بزيادة الصّوت "أس" في صيغة "ألْتَاس" ويقوم الصّوت "أس" في آخر هذه الكلمة بوظيفة التّعبير عن المؤنّث بحيث أنّ أصل الكلمة هو "ألت".

فعلى غرار الصّوت "إر" و"إس" و"أش" كان الإنسان يَستعمل الصّوت "أل" و"ألتّ" بصورة غريزيّة للزّجر والنّهر والتّحذير فأطْلِــق هذا الصّوت على رؤساء الجماعات البشريّة وكبارهم باعتبار أنّهم يقومون بمهمّة الزّجر والنّهر والتّخويف والتّحذير في صيغة "ألْت" و"إلَــه" و"أل" و"ألّـــة" و"لَلّـــة" و"مَولَى". كما أطْلِــقَ أيضا في صيغة "مَولى" على العبيد والخدم والأتباع للرّباط المادّي الذي كان يَرْبِــطُ بين الأسياد وعبيدهم وأتباعهم من مختلف الأجناس والأصناف والذي يسمّى أيضا بأسماء يَدْخل في تركيبها الصّوت "أل" مثل اسم "غل". فقد أشرنا أنّ لفظة "غل" تطلق في العربيّة على القيد الذي يربط به الأسير والعبد وتتركب بالأساس من الصّوت "إل" والصّوت "أغ" الذي يعادل معنويا الصّوت "أل" حيث أنّه صيغة لفظيّة للصّوت "أخ" الذي يستعمل هو الآخر بصورة

غريزيّة من طرف الإنسان وبعض الحيوانات الأخرى للزّجر والتّخويف والتّحذير.

ويطلق على اللّون الأبيض في بعض اللّغات الإنسانيّة كالإسبانيّة لفظة "كن" وتُستعمل كلمة "كن" في العديد من اللّغات والمجتمعات الإنسانيّة في معنى الملك والسّيد والحاكم حيث تستعمل في اللّغة الإنقليزيّة في معنى الملك في صيغة "كينغ" وتؤنّث في صيغة "كُوِين" وهذا الاسم الأخير هو تصغير لاسم "كن" كما تستعمل في معنى الزّعيم والإمام والعارف والحكيم في صيغة "كاهن" في العربيّة واللّغات القريبة منها.

وقد أشرنا أنّ لفظة "كن" هي صيغة لفظيّة لكلمة "جن" و"جان" التي تفيد معنى الأبناء والشّبان والأولاد والأسرة والمرأة في هذه الصّيغة وكذلك في صيغة "جنة" بحيث أنّ كلمة "كن" تعادل معنويا كلمة "جن" و"بن" في حين أنّ مؤنثها "كنّة" تعادل كلمة "جنّة" ومازالت كلمة "كنّة" تطلق إلى اليوم في العربيّة والمجتمعات العربيّة على زوجة الابن باعتبار أنّها ابنة في حين أنّ زوجها هو "كن" بمعنى "ابن".

وتستعمل كلمة "بن" في العربيّة في صيغة "بُـنِّي" في معنى الأسود والأسمر نسبة إلى البن وأطلقت كلمة "بُن" على البقلة المعروفة باسم القهوة وهي بقلة يميل لونُها إلى السّواد كما أطلِقَتْ كلمة "إبـِـن" في هذه الصيغة وفي صيغة "أبـنُوس" كما في العربيّة على الخشب المسمّى باسم "أبنوس" وهو خشب أسود اللون.

وقد أوضحنا أنّ الجن يرمزون في حقيقة الحال إلى أقوام من البشر عاشوا في قديم الزّمان وكانوا يحملون أثناء وجودهم فوق الأرض اسم "الجن"

و"الجان" تعبيرا عن بعض الصّـفات والخصال البشريّة المميّزة لهم. وجاء في الأخبار أنّهم كانوا يتألّفون من عدّة أصناف وفئات وطوائف فكان منهم الجن والبن والحِن وكذلك الإنّ والخن. وتطلق كلمة "حن" بالحاء على النّبتة المعروفة باسم "الحنّاء" وتستعمل للصبّاغة والزّينة وتُعطي لونا أحمر داكنا.

وتقول الأخبار المذكورة أنّ الحن بالحاء كانوا من سفلة الجن بالجيم بحيث يمكن أن نقول إنّ الحن (بالحاء) كانوا من أقوام الجن المُسْـتَعْبَدين من طرف أسياد هؤلاء الجن.

كما يمكن أن نستنتج من هذه الحقائق أنّ الألوان المقصودة بالأسود والأبيض والأحمر والأشقر كانت تتمثّل في الأصل في بعض الصّبائغ التي تعلّم الإنسان استعمالها في شتّى المناسبات ولشتّى الأغراض ومازال الناس إلى اليوم يستعملون الصبائغ لغرض الزّينة وخاصة منهم النساء حتّى أنّ المرأة تسمّى في اللغة الفارسية باسم "زان" ويعتبر اسم"زان" صيغة لفظية لاسم"جان" بالنظر لتعادل الصوت "زا" و"جا".

فقد كانت الزينة بواسطة الصبائغ من قبيل الوشم والوسم وسيلة للتعريف بهوية الأشخاص والجماعات وانتماءاتهم الفئوية والقبلية كما كانت الحليّ كالأسورة والدمالج والخلاخيل وسيلة للرّبط والقيد والعقل والشدّ وكانت القيود في الأصل حبالا تربط السيّد بالعبد فلمّا تغيّرت الأوضاع ظلّت هذه العادات القديمة راسخة في شكل الأسورة والدّمالج والخلاخيل ويحملها الناس بمختلف أصنافهم بما فيهم الملوك والحكام إلى جانب النّساء وعامّة النّاس.

فلأجل ذلك ارتبطت أسماء الألوان بالإنتماءات الفئوية فهي لم تكن في الأصل ترمز إلى الألوان الطبيعية للأجساد البشرية وإنّما كانت ترمز إلى أنواع

الزينة والصبائغ المستعملة حسب الإنتماءات الفئوية والطبقية والقبلية للأشخاص والأفراد.

خرافة قطّوسة الرّماد والإنقلابات الحيوانية :

ففي هذا السياق يتداول السكان في تونس وفي العديد من بلدان العالم خرافة شعبية بطلتها فتاة حسناء تسمّى باسم قطّوسة الرّماد لأنّها كانت مستعبدة من طرف زوجة أبيها فكانت هذه الزوجة تستغلّها وتعذّبها وتسخّرها للقيام بكلّ الشؤون المنزلية فكانت الفتاة تقضي كامل يومها بقرب موقد النّار لتسخين الماء وتجهيز الطعام وغسل الثياب حتّى غطّى جسمها الناعم الرّماد وصار لونها مثل لون الرّماد فسمّاها الناس باسم قطّوسة الرّماد ثمّ إنّ الحظّ أسعفها فتزوّجها أمير البلاد وأصبحت سلطانة زمانها وتتخلّص من عذاب الاستعباد الذي كانت فيه.

وقد جمعنا في هذا السياق العديد من الخرافات التي يرويها السكان في تونس وفي بلدان المغرب العربي بعنوان "قطّوسة الرّماد" منها خرافة مضمونها أنّه كان يوجد في قديم الزّمان رجل متزوّج بامرأة وكانت لهما بنت بارعة الحسن والجمال وكانت مع جمالها طيّبة السّريرة محبّة للخير فماتت المرأة وبقي الأب والبنت وكانت لهما جارة في مقتبل العمر تزوّجت من قبل وأنجبت بنتا في عمر بنت الرجل ثمّ ترمّلت فتعلّق قلبها بالرجل ورغبت في الزواج منه فأصبحت تتودّد للبنت وتغدق عليها الهدايا وتطلب منها بإلحاح أن تشجّع أباها على التزوّج منها حتّى حصل لها ما تريد وحالما إنتقلت إلى بيتها الجديد قلبت للبنت ظهر المجن وأصبحت تكرهها وتغار منها فسخّرتها للقيام بشؤون المنزل فكانت البنت تقضي كامل اليوم قرب موقد النار في إشعال النار وتجهيز الطعام

وغسل الثياب حتّى ساءت حالها وتغيّر لونها وكساها الرّماد فكانت زوجة أبيها تدعوها دائما باسم قطّوسة الرّماد حتّى اشتهرت به بين الناس.

فكانت المرأة تخرج هي وابنتها للنّزهة وتتركان البنت بمفردها في البيت تتخبّط في أشغالها الشّاقة حتّى أعلن أمير البلاد ذات يوم عن عزمه على تنظيم حفل تستدعى له كلّ فتيات بلاده ليختار منهنّ واحدة يتزوّج بها وتصبح أميرة البلاد إلى جانبه.

وفي اليوم الموعود أقيم الحفل فحضرته كلّ بنات المملكة وهنّ مرتديات أحسن ما عندهنّ من الثياب واشتهت قطّوسة الرّماد أن تحضر هي الأخرى فمنعتها زوجة أبيها وقالت لها إنّ مكانها الطبيعيّ في المطبخ بجانب موقد النار. وبقيت البنت تتحسّر وتبكي بقرب بئر المنزل فخرجت لها جنيّة وتبسّمت في وجهها ووعدتها كلّ خير وأهدتها ثيابا جميلة وحليّا وحذاء من أجمل ما يوجد فارتدت البنت تلك الثياب فازدادت حسنا وبهاء وحملتها الجنيّة إلى قصر الأمير فاختلطت بالحاضرين وصار كلّ من يراها يشيد بجمالها فلمّا رآها الأمير تعلّق قلبه بها واختارها لتكون زوجته دون البنات الحاضرات وخافت البنت أن يكتشف سرّها وتعاقبها زوجة أبيها فغادرت الحفل قبل نهايته وارتبكت في مشيتها فسقط حذاؤها فتركته ورجعت إلى بيتهم ولمّا أراد الأمير أن يعلن عن قراره التفت فلم يبصر الفتاة وسط الحاضرات فأمر أعوانه أن يبحثوا عنها في أرجاء القصر فوجدوا حذاءها واقعا أمام الباب فطلب منهم الأمير أن يبحثوا عن صاحبة الحذاء فجدّوا في البحث حتّى وجدوها فقاسوا عليها الحذاء فلاءمها فحملوها إلى القصر معزّزة مكرّمة وتزوّج بها الأمير وأصبحت أميرة البلاد وتحقّق لها المراد.

وتروى خرافات قطّوسة الرّماد في تونس والبلدان المغاربية تحت عنوان "قطّوسة الرّماد" و"عائشة اليتيمة " و"عائشة الفقيرة" و"عائشة رماد" و"عائشة رميد" بمعنى الرّماد الصّغير.

وقد قام كاتب فرنسيّ اسمه شارل بيرّوا ,من أدباء القرن الثامن عشر ميلادي, بجمع خرافة من خرافات قطّوسة الرّماد كانت متداولة في عصره في فرنسا بعنوان "رميد" نسبة إلى اسم بطلتها ويعبّر عنها بالفرنسية بعبارة "سندريون" بمعنى "رميد" بالفرنسية وينقل أحيانا هذا الإسم إلى العربية في صيغة "سندريلا".

فهذه الخرافة مثل كلّ الأساطير والخرافات الشعبية هي خبر تاريخي ينقل بعض الوقائع والأحداث الحقيقية التي حصلت في قديم الزمان لبعض الجماعات من البشر فوق بعض بقاع الأرض, فهي خبر تاريخي ينقل الظروف التي حفّت وأحاطت بتأسيس بعض الأسر الإنسانية القديمة.

فقد شرحنا في تحاليلنا السابقة بمناسبة تحليل حكايات أمّي سيسي المعنى الحقيقي لاسم"قط" و"قطة" وذكرنا أنّه يفيد معنى السيّد والسيّدة وكذلك معنى العبد والأمة ومعنى المرأة والزوجة والأسرة ويعادل من جميع النّواحي اسم"قرد" و"ديك" و"داك".

كما أشرنا إلى عمليّات التطهير التي تحدث إثر انتقال السلطة داخل الجماعات البشرية في حقّ الأشخاص الذين يرى فيهم الأسياد الجدد تهديدا لمصالحهم فتنتج عن هذه الأوضاع بالخصوص تشريد الصغار الذين ليسوا من صلب الأسياد الجدد وهروب الحكّام القدماء ومعاداة الغرباء والأجانب الذين ينتمي أغلبهم إلى هؤلاء المتشرّدين من الصغار والكبار.

ويضطرّ المتشردون أحيانا إلى العيش من السرقة واللصوصية أو إلى اختطاف البنات من الأسر المحيطة بهم إذا كانوا من صنف الشبان الذكور فيقعون في قبضة رؤوساء تلك الأسر ويصبحون عبيدا وخدما وتابعين لهم كما أنّ هؤلاء المتشردين يمثّلون في حدّ ذاتهم لقمة سائغة للخطافين والانتهازيّين بشتّى أنواعهم.

وأوضحنا أنّ الوقوع في الرقّ والعبوديّة يتّخذ في الأساطير والخرافات الشعبية شكل الإنقلاب في الهيأة البشرية والتحوّل من صفة البشر إلى صفة الحيوان وتسمّى هذه الإنقلابات أحيانا بالمسخ.

فنحن نعتبر أنّ الكثير من الإنقلابات التي تعتري هيأة البشر داخل الأساطير والخرافات الشعبية ترمز إلى انقلابات وتحوّلات في الأوضاع الإجتماعية للأشخاص الممسوخين وإنتقالهم من وضع اجتماعي معيّن إلى وضع اجتماعيّ آخر كالإنتقال من وضع السيد والحرّ إلى وضع العبد والخادم, وعلى هذا الأساس فإنّ المسخ يرمز في كثير من الحالات إلى وقوع الأشخاص الممسوخين في الأسر والعبوديّة.

فقد جمعنا في هذا السياق خرافة شعبية تونسية من نوع خرافات قطّوسة الرّماد ومضمونها أنّ رجلا من العهود الغابرة كان متزوّجا بامرأة وكانت لهما بنت وولد فماتت المرأة وتزوّج الرجل بامرأة أخرى لها هي الأخرى بنت وراء فغارت الزوجة الجديدة من الولد والبنت واستغلّت فرصة نفوذها فطردت الولد والبنت من الدار فتشرّدا في الغابات وكانت البنت أكبر من الولد وأعرف منه بأحوال الدنيا والناس كما كانت ذات حسن وجمال. وإمعانا في المكر قامت

الزوجة الجديدة بسحر عيون الماء الموجودة في الغابة فجفّت تلك العيون وبقيت عين واحدة جارية ولكنّ كلّ من يشرب منها يتحوّل إلى وعل.

فلمّا تشرّد الولد وأخته في الغابة ضاقت بهما السّبل فعطشا فعثرا على العين المسحورة وأدركت البنت أنّ في الأمر سرّا فأوصت أخاها بعدم الشرب من مائها لكنّ أخاها أضناه العطش فلم يصبر وشرب من العين فتحوّل إلى وعل ووجدت البنت كوخا مهجورا فأوت إليه مع أخيها الوعل وإتّخذته منزلا وكان الوعل يخرج كلّ صباح للرّعي ثمّ يرجع مع الزّوال إلى الكوخ فيكلّم أخته بكلام متّفق عليه فتفتح له الباب.

فخرج أمير البلاد ذات يوم يصطاد في الغابة مع خدمه فرأى أحدهم الوعل يرعى فرماه بسهم ففرّ الوعل وتبعه الخادم حتّى رآه يقف أمام باب الكوخ ويتكلّم بكلام مبهم فيفتح له الباب فيدخل. فرجع الخادم وأعلم الأمير بالخبر فعاد الأمير في اليوم الموالي إلى الغابة واقتفى أثر الوعل حتّى وصل الكوخ وتعرّف على الفتاة فوجدها آية في الجمال فتزوّج بها وأسكنها في قصره مع أخيها الوعل وأنجبت له الفتاة ولدا فتمت سعادته فسمعت زوجة أبيها بما نالها من حظّ ونعيم فسعت إلى هلاكها والغدر بها فقامت بزيارتها مع ابنتها العوراء وفي غفلة منها قبضت عليها وحبستها في حمّام القصر وأخذت البنت العوراء مكانها وصنعت لها الأم الماكرة سحرا يعمل عمله في ثلاثة أيام فلما جنّ الليل خرجت الفتاة من سجنها بالحمام سرّا فأرضعت ولدها ومسحت على أخيها الوعل ثمّ رجعت إلى محبسها دون أن تتكلّم وأعادت الكرّة في الليلة الموالية وبعد أن أرضعت ولدها ومسحت على الوعل قالت له : "ما بقي إلاّ ليلة واحدة وأرحل عنكم إلى الأبد". فسمعها أحد الخدم فأخبر زوجها الأمير فلمّا جنّ الليل اختبأ الأمير في حجرة ولده فجاءت زوجته لترضعه فأمسك بها فوجد أنّها زوجته فسألها عن خبرها

فحكت له بالقصة وبما فعلت معها زوجة أبيها وابنتها العوراء فأعطى الأمير تعليماته لخدمه فقبضوا على الأم فرموها في النار وحملوا البنت العوراء إلى الغابة حيث تركوها للوحوش الضارية, ولما ألقي بالأم في النار احترقت وأصبحت رمادا فبطلت كلّ أعمالها السحرية فعاد الوعل إلى هيأته البشرية وأصبح شابا وسيما كما رجعت المياه إلى مجاريها في عيون الغابة وارتاح الناس من شرور تلك المرأة السّاحرة وسعدوا بأميرهم وبأسرته الكريمة.

فهذه الخرافة مثل كلّ الخرافات والأساطير الأخرى خبر تاريخيّ ينقل بعض الوقائع والأحداث التي حصلت في القديم لبعض الجماعات من البشر فوق بعض بقاع الأرض, فهي خبر تاريخي يروي ظروف تأسيس بعض الأسر الإنسانية القديمة وتشير الخرافة إلى أنّ هذا التأسيس حصل نتيجة قيام مؤسس الأسرة وبانيها باصطياد إحدى المتشرّدات في إحدى الغابات بسبب غيرة زوجة أبيها التي طردتها وسحرت أخاها وحوّلته إلى وعل.

فهذا المسخ يرمز في حقيقة الحال إلى أسر الولد وإستعباده من طرف بعض الأقوام حيث وجدنا أنّ الوعل يسمّى في اللغة الفرنسية باسم "سارف" كما يطلق اسم "سارف" في اللغة الفرنسية على العبد والخادم وبصفة خاصة على الموالي التابعين للنبلاء والأشراف في عهود الإقطاع في فرنسا في القرون الوسطى.

فقد كان النبلاء والأشراف يملكون إقطاعات شاسعة تحتوي على قرى بأكملها فكان هؤلاء النبلاء يملكون الأرض ومن عليها فكان سكان القرى التابعين لهم يعتبرون عبيدا وخدما وموالي وتابعين لأولئك النبلاء حتّى أنّ

الواحد من هؤلاء النبلاء والإقطاعيين كان هو الذي يفتضّ بكارة كلّ عروس تزفّ إلى عريسها وينام معها ليلة زفافها ثمّ يسلّمها إلى زوجها الشرعيّ.

وكان هذا النّظام الإقطاعيّ ساريا أيضا في اليمن في الجزيرة العربية في القديم قبل ظهور الإسلام بما فيه الحقّ في إفتضاض بكارة كلّ عروس تزفّ إلى عريسها.

ويشتمل الكتاب العربي المعروف باسم"ألف ليلة وليلة" على الكثير من الحكايات المتعلقة بالمسوخ والإنقلابات الحيوانيّة منها قصّة الصّعلوك الثّاني الواردة ضمن حكاية"الحمال والبنات" ومضمونها أنّ أميرا بارعا في فنون الخطّ والرّسم أراد القيام بزيارة أحد الملوك بطلب منه ليفيده بصناعته فهجم عليه في الطريق بعض اللصوص وسلبوه ماله ومتاعه فاضطرّ إلى الإشتغال كحطّاب ليعيش فصكّت فأسه يوما في بناء قديم مردوم بالتراب فإذا به سلّم أرضيّ فنزل فيه فوجد دارا فسيحة مؤثثة بما يلزم من الأثاث ومفروشة بأفخر المفروشات ووجد فيها صبية فائقة الحسن والجمال فلمّا رأته صاحت : "أنت إنسي أم جني" فأجابها بأنّه إنسي من أخيار الإنس وقصّ عليها قصّته ثمّ سألها عن خبرها وعن وجودها في تلك الدار تحت الأرض فذكرت له بأنّها إنسية مثله من أشراف الإنس اختطفها عفريت من الجنّ ليلة زفافها وطار بها وحملها إلى تلك الدار تحت الأرض وجعل منها قرينته فيزورها في كلّ عشرة أيام وينام معها ليلة ثمّ يغيب ويعود بعد عشرة أيام وقالت له إنّه بات معها الليلة الماضية ودعته إلى الإقامة معها وعندما يأتي موعد العفريت يخرج إلى البرّ ثمّ يعود فقبل دعوتها ونام معها تلك الليلة ثمّ إنّه أراد أن يتحدّى العفريت فجاء العفريت وقبض عليه وسحره وحوّله إلى قرد بعد أن قتل الصبيّة لأنّها خانته مع واحد من البشر، وخرج الأمير في هيأة القرد يهيم على وجهه في الأرض حتّى وصل إلى إحدى

المدن وشارك في مسابقة في الخطّ لإختيار خطّاط لملك المدينة وفاز فيها وأصبح الخطّاط الرسميّ للبلاط وهو في هيأة القرد فرأته ابنة الملك ذات يوم وكانت عالمة بالسّحر فعرفت أنّه شاب مسحور وعزمت على تخليصه من سحره فتصدّى لها العفريت الذي سحره ونشبت بينهما معركة بالنّيران الصّاهدة ونجحت البنت في تخليص الأمير من سحره فعاد إلى هيأته الأولى بشرا سويّا مثلما كان لكنّه أعور بسبب شظية من النار أصابته في عينه أثناء المعركة التي انتهت بهلاك البنت والعفريت وهروب الأمير من جديد إلى مكان أمين.

فقد سبق أن أشرنا إلى أنّ التحوّل في هيأة القرد يرمز إلى الأسر والتدجين والإستعباد حتّى أنّ لفظة" قرد" أصبحت تفيد معنى الخادم والتابع في بعض اللغات الإنسانية كما تطلق على الحبل الذي يستعمل لأسر الآخرين والقبض عليهم.

المعنى الحقيقي للسّحر والأعمال السحريّة :

وغالبا ما تحصل الإنقلابات في الأساطير والخرافات الشعبية بمفعول بعض الأعمال السحرية كرشّ الماء على الشخص المراد سحره مع التمتمة ببعض العبارات المبهمة على ذلك الماء حتّى يعمل عمله.

فنحن نعتبر أنّ السحر كان يتمثل في الأصل في أعمال عادية تعوّد الإنسان ممارستها إمتدادا لبعض التصرفات الغريزية والإكتشافات الطبيعية على غرار إستعمال النار وإشعالها واستخدام الأدوات الحجرية والعصيّ واستعمال القرون واصطياد الحيوانات والسّمك والسّكنى في الكهوف والغيران الجبلية واستعمال الجلود والحبال والشباك والشراك وتدجين الحيوانات والبشر.

فقد إشتهر استعمال السّحر كوسيلة لاستحضار الجن وتسخيرهم لقضاء شتّى المآرب وأوضحنا أنّ الجن يرمزون إلى أقوام من البشر عاشوا في قديم الزمان وكانوا يحملون أثناء وجودهم فوق الأرض اسم"جن" و"جان" تعبيرا عن بعض الصفات والخصال البشرية المميزة لهم.

وعل هذا الأساس فإنّ تسخير الجن يرمز في حقيقة الحال إلى استعباد وتسخير الأقوام البشرية الذين كانوا يعرفون باسم الجن واستعمالهم للقيام بشتّى الأعمال ويتمّ استنفار واستحضار الجن في السحر بواسطة إشعال النار والبخور وإحراق الجاوي واللبان وأشرنا إلى أنّ الإنسان كان يستعمل قديما النار والدّخان للتخاطب عن بعد بحيث أنّ عملية إشعال النار وإحراق البخور ترمز في الأصل إلى استعمال النار لإعلام الأهل والأصحاب والحلفاء والأعوان وإخبارهم وإشعارهم ببعض الأمور بواسطة تلك النار وذلك الدخان كطلب العون والمساعدة عند الحاجة مثلما رأيناه في تحاليلنا السابقة. ووجدنا أنّ السحر يسمى في اللغة الفرنسية باسم "سُرْ" وخاصة النوع المراد به إلحاق الضرر والشرّ للآخرين.

فنحن نعتبر أنّ كلمة "سُرْ" هي صيغة لفظية لكلمة"شَرْ" التي تستعمل في العربية في معنى الضرر والشر عكس الخير وأشرنا إلى أنّ السكان في تونس ما زالوا إلى اليوم يستعملون كلمة "شر" لزجر الكلاب كما يستعملون كلمة"كس"و"بس" لزجر الكلاب والقطط ثمّ إنّ كلمة"سُرْ" تعتبر في حدّ ذاتها أمرا بالإبتعاد في اللغة الفرنسية وكذلك في اللغة العربية. ففي اللغة الفرنسية تستعمل كلمة "سُرْ" في معنى خرج بصفة عامة وتتّخذ كذلك في الأمر صيغة "سُرْ" بحيث أنّ لفظة "سُرْ" تفيد في الفرنسية معنى أخرج وإبتعد واذهب في حال سبيلك, كما يستعمل الفعل"سار, يسير, سيرا" في العربية في معنى الذهاب والإبتعاد بحيث أنّ

صيغة الأمر"سِر" من هذا الفعل تعني هي الأخرى "أخرج واذهب وابتعد". وعلى هذا الأساس فإنّ المقصود في الأصل بالسحر هو الزجر والنهر والتخويف والتحذير والتنبيه بواسطة إطلاق كلمات "سِر" و"شِر" و"كِس" و"بِس" التي تتخذ أيضا صيغة "بُص" وقد لاحظنا أنّ الفرنسيين يعبّرون في لغتهم عن عمل السحر بعبارة"ألقى عليه سُر" بحيث أنّ السحر كان يتمثّل بالفعل في إلقاء وإرسال وإطلاق الأصوات الغريزية المجعولة للزجر والنهر والتخويف والتحذير والتنبيه وهي الأصوات "إس" و"أست" و"أش" و"أشت" و"إر" و"أخ" و"أح" و"أع" و"أف" سواء بمفردها أو مجتمعة من باب التأكيد في صيغة"سِر" و"شِر" و"بِس" و"كِس".

فلفظة "سُر" التي تطلق في الفرنسية على السحر المضرّ هي في حقيقة الحال صيغة لفظية لكلمة" سحر" بإسقاط الصوت "حا" الذي كثيرا ما يسقط في الكلام الإنساني كما هي الحال في أغلب اللغات الأوروبية التي تخلوا من استعمال الصوت "حا" و"عا".

وفي هذا السياق كان الناس في الكثير من البلدان والمجتمعات مثل المجتمعات العربية يعتقدون في أنّ الجن والجان يتملّكون أحيانا ببعض الأشخاص من البشر ويحلّون فيهم ويصبح أولئك الأشخاص يتصرّفون بطريقة غير مستساغة من طرف البشر الآخرين المحيطين بهم الذين يعتقدون أنّ الجن تملّكوا بهم.

ففي هذا المجال كان الناس في الكثير من البلدان يعتقدون أنّ المصابين بالأمراض العقلية هم أشخاص تملّك بهم الجنّ والجان بحيث أنّ المصاب بمرض عقليّ يسمّى في تونس وفي البلدان العربة باسم "مجنون" بمعنى شخص تملك به

الجنّ, كما يقول الناس في تونس عن المصاب بمرض عقلي بأنّه خرج من عقله.

فمثلما سبق أن ذكرناه في مناسبات سابقة شبيهة نعتبر أنّ الاعتقادات المتعلّقة بتملك الجنّ والجان لبعض الأشخاص من البشر يدخل في باب الخلط الطبيعي بين الأشياء الحاملة لأسماء واحدة حيث أنّ كلمة" جن" تفيد أيضا معنى الغضب والإنفعال الذي يعتبر حالة من حالات الجنون.

فقد لاحظنا أنّ العرب في القديم يقولون عن المجنون"إنّ به جنّة" ووجدنا أنّ كلمة"جنة" و"جن" و"جان" تفيد حرفيا معنى الجنون. فقد لاحظنا أنّ كلمة"جن" و"جان " تستعمل في سياق اللغة الفرنسية في معنى الضيق والحرج والإزعاج والإنزعاج.

ففي هذا المجال أشرنا إلى أنّ لفظة"جن" هي في الأصل لفظة زجريّة يستعملها الإنسان بصورة غريزية للزّجر والنّهر والتّخويف والطّرد والإبعاد عندما يتعرّض إلى ما يثير إنفعاله وغضبه ويزعجه ويضعه في موقف حرج وفي حالة ضيق وقلق فأطلقت لفظة "جن" و"جان" على الزّجر والنّهر والتّخويف والطّرد وعلى الأسباب الدّاعية إلى الزّجر والنّهر والتّخويف والطّرد والمتسبّبة فيها مثل الغضب والإنفعال باعتبار أنّ الغضب هو الذي يجعل الشخص المنفعل يزجر وينهر ويطرد المتسبّب في إثارة غضبه وانفعاله وجعله يخرج من عقله ويعود إلى وضع البشر غير المدجّنين بمعنى إلى حالة البشر المتوحّشين.

فقد ذكرنا أنّ العقل يرمز في الأصل إلى الحبال والقيود المادية الحقيقية التي كان يربط بها البشر قبل تدجينهم وترويضهم ريثما يتم ترويضهم وتدجينهم

ويصبحون أليفين وأهليين ومندمجين في الإطار الأسري فيطلق سراحهم ويصبحون أحرارا لكن التدجين كان يمر بالعقل والقيد والرّبط.

ومن هذا المنطلق يمكن القول بأنّ لفظة"جنّة" تعني الغضب والإنفعال بقدر ما تعني الإصابة بمرض عقلي والخروج عن السلوك العادي المكتسب بفضل الترويض والتدجين بحيث أنّ عبارة "به جنة" تعني حرفيا "مجنون" ومصاب في عقله.

فالمجنون هو شخص خرج من عقله بالمعنى الذي شرحناه وبالتالي فإنّ علاجه يمرّ بإعادة عقله وتقريده وترويضه وتدجينه فلأجل ذلك كان المجنون يُرْبَطُ ويعقل ويقيّد ويضرب ويتعرّض إلى مختلف الأفعال والتصرّفات التي كانت تتّبع عند ترويض وتدجين من يستحقّ ذلك من البشر كالأسرى والأولاد الصغار والعصاة والمارقين والمخالفين للنّظام بكلّ أنواعهم وكان الأسياد والرؤوساء هم الذين يتولون ويباشرون الترويض والتدجين وأشرنا إلى أنّ اسم "جن" يفيد أيضا معنى الأسياد باعتبار أنّ الأسياد هم القائمون بمهمات الزّجر والنّهر والتحذير والتّخويف والطّرد والإبعاد في المجتمعات الإنسانيةٓ فدعوا بأسماء مشتقّة من الألفاظ والأصوات المجعولة للزّجر والطّرد مثل لفظة "جن" ولفظة "إل" و"ألت" التي اشتق منها اسم"إله" وذكرنا أنّ الآلهة يرمزون إلى الأسياد والكبار في الأسر الإنسانية في بداية التاريخ الإنساني بحيث أنّ اسم "إله" و"أل" يعني "السيد" ويعادل معنويا اسم"جن" ومن هذه الزاوية فإنّ المجنون يشبه بالفعل الشخص الذي تملك به الجن بمعنى أنّه شخص ما زال في قيد وطور الترويض والتدجين من طرف الجن والأسياد.

ويطلق على الجن اسم"أسياد" في مصر و"صالحين" في تونس وهذا الإسم الأخير هو اختصار لاسم "أولياء صالحون" بمعنى"أسياد صالحون" مع الملاحظة أنّ اسم"ولي" واسم"إله" هما في الأصل اسم واحد مشتق من الصوت "أل" و"ألت" الذي يستعمله الإنسان بصورة غريزية للزجر والتخويف والإبعاد والطرد.

فقد كان العرب في القديم يقولون أيضا عن المصاب في عقله "إنّ به مسّ من الآلهة" وفي حقيقة الحال فإنّ لفظة "مس" هي أيضا لفظة زجرية على غرار لفظة "بِس" و"كِس" و"جن" و"بن" حيث أنّ الناس في الجنوب التونسي يقولون أحيانا "كِسْ بِسْ" لزجر الشر كما يقولون أيضا "كِسْ مِسْ" لزجر الشر أيضا ومن هذه الناحية فإنّ كلمة "مس" تعادل كلمة "جن" و"بن" بحيث يقال عن المصاب في عقله إنّه "مجنون" كما يقال عنه "إنّه ممسوس" وعلى هذا الأساس يمكن القول بأنّ عبارة "به مسّ من الآلهة" تعني "به غضب من الآلهة" بحيث أنّ المجنون هو في الأصل شخص أثار غضب الآلهة أو الأسياد لحمقه فتعرّض لعقابهم وبطشهم فأعيد ترويضه وتدجينه وتقريده وتربيته بواسطة مختلف الأفعال المجعولة للغرض.

وسبق أن شرحنا في هذا المضمار الاعتقادات في العين وعادات تعليق أذيال الحوت وصورة الكف والودع ووضع النجاسة والوسخ وغيرها من الاعتقادات والممارسات المراد بها إبعاد الشر والتي تدخل في باب ما ظل يعرف باسم السّحر بحيث أنّ السّحر كان في الأصل تصرّفات عادية طبيعية كالأكل والشرب والنكاح وظل الناس يمارسون تلك التصرفات جريا على العادة والسّنة الموروثة من الأسلاف والأجداد إلى جانب التصرّفات والوسائل المستحدثة لإبعاد الشر وإلحاق الضرر وتسخير البشر والتخاطب عن بعد وإثبات الهويات غير أنّ الأجيال المتأخرة من الناس والعلماء الذين بحثوا في هذه

الظواهر ظنّوا من باب الخطأ أنّ الأمر يتعلّق بنوع من الاعتقادات الوهمية والخيالية كظنّهم خطأ بأنّ الأساطير والخرافات الشعبية هي قصص موضوعة وحكايات خيالية ليس لها أساس من الصحة أو إرتباط بالواقع وقد أبرزنا خطأ هذا الرأي وأوضحنا أنّ الأساطير والخرافات الشعبية هي أخبار تاريخية تنقل بعض الوقائع والأحداث الحقيقية التي حصلت في قديم الزمان لبعض الجماعات من البشر فوق بعض بقاع الأرض.

ففي هذا السياق ذهب بعض العلماء المعاصرون في تفسيرهم لظاهرة السّحر إلى القول بأنّ هناك عقلية سحرية تسير وفق قوانين ومنهجية خاصة بها مثلما أنّ هناك عقلية علمية لها قوانينها ومنهجيتها الخاصة بها. وتتميز العقلية السحرية حسب هؤلاء العلماء بالاعتقاد في أنّ الأشياء لها تأثير خفيّ على بعضها ولا سيما إذا كانت تجمع بينها بعض الرّوابط والعلاقات كالأشياء المتشابهة أو الأشياء التي كانت ذات يوم متصلة ببعضها بوجه من الوجوه.

وقد سبق أن أشرنا إلى خطورة هذا الرأي الذي يضع الإنسان في موضع أقلّ من الحيوانات إدراكا حيث أنّه يقرّ بإمكانية إعتقاد الإنسان بصورة طبيعية في الأشياء الوهمية والخيالية.

فقد أوضحنا أنّ الاعتقاد في الجن والعفاريت الذين يلعبون بعض الأدوار الهامة في الأعمال السحرية يقوم على أسس صحيحة حيث أنّ الجن والعفاريت هم أقوام من البشر عاشوا في قديم الزمان وكانوا يحملون أثناء وجودهم فوق الأرض اسم "جن" و"عفريت" بحيث أنّ تسخير الجن كان يتمثّل في حقيقة الحال في استخدام هؤلاء الأقوام لإنجاز شتّى الأعمال العادية الحقيقية كاستخلاص الجباية وبناء المنازل.

وأشرنا إلى أنّ الإنسان كان في القديم يستعمل النار والدخان لاستنفار الأهل والأصحاب والحلفاء والأعوان والاستنجاد بهم ودعوتهم للحضور والتجمّع في المكان الفلاني ولأجل ذلك مازال الساحر يسمّى إلى اليوم في تونس وفي بعض البلدان العربية باسم "العزّام" حيث أنّ كلمة "عزم" تستعمل إلى اليوم في مصر في معنى الدعوة إلى الحضور لبعض المناسبات كالدعوة إلى حضور وليمة وتسمّى المناسبة باسم "عزومة" كما أنّ السكان في الجنوب التونسي يستعملون كلمة "عزم" في معنى "السفر". وكثيرا ما يقوم العزامون في أعمالهم السحريّة بإحراق الجاوي والبخور واللبان والمصطكى بدعوى استحضار الجن الذي يعتبر من أهم أركان علم السحر.

فكلّ هذه الأعمال هي تكرار وإعادة آلية للتصرّفات العادية الطبيعية التي أشرنا إليها والمتمثلة في الاستخدام الحقيقي للبشر من طرف البشر لشتى الأغراض ومازال استخدام البشر من طرف أمثالهم من البشر ساريا وقائما إلى اليوم بالإعتماد على أساليب مماثلة تماما للطرق القديمة من حيث الاستنفار والإعلام بالحضور والتسخير والتجنيد والتحذير واستعمال الأختام والأرقام والأسماء للتعريف بالهوية مثلما يبرز ذلك في إطار العمل الإداري بالإدارات وغيرها من المؤسسات.

فالأعمال السحرية هي تكرار تلقائي وآلي لتصرفات عادية قديمة غاب أصلها ومعناها الحقيقي عن أذهان الناس الذين يمارسونها ومع أنّ أصلها الحقيقي خفي عن الأذهان فإنّ الناس ظلّوا يمارسونها من باب تقليد الأجداد واتّباع ما تعلّموه منهم. فمازال الناس إلى اليوم يأكلون ويشربون ويمارسون الكثير من الأعمال الطبيعية دون معرفة أصلها ومعناها الحقيقي والبحث عنه وإن حاولوا تفسيرها وتأويلها فاستنادا إلى محاولات بعض الأشخاص الذين

بحثوا في الأمر وأطلقت عليهم المجتمعات الإنسانية اسم العلماء والحكماء والمفكرون وهي محاولات شخصية تخطئ وتصيب مهاما بلغت في الظاهر من اليقين ورسخت في البديهة ومن الأقوال المأثورة أنّ أضعف الرّأي ما رسخ في البديهة.

وتأكيدا لصحة تحاليلنا وجدنا أنّ الناس في تونس وفي الجنوب التونسي بالأساس يدفعون السحر ويقاومون الأعمال السحرية بإطلاق عبارة "كس بس" لمنع حصوله بحيث أنّ المرأة في الجنوب التونسي مثلا تقول أحيانا "كس بس" للإتقاء والإحتماء من شرّ الأعمال السحرية.

فقد ذكرنا أنّ "كس" و"بس" تستعمل في الجنوب التونسي وفي تونس عموما لزجر الكلاب والقطط كما يستعمل السكان في تونس كلمة"شر" لزجر الكلاب وخاصة عندما يتجرأ الكلب على الإقتراب من الشخص ومحاولة عضه فإنّ الشخص يسعى في هذه الحالة إلى طرده وضربه بيده أو بأيّ شيء آخر ويقول له"شر" بحيث أنّ كلمة "شر" تعادل كلمة "كس" و"بس".

وذكرنا أنّ السحر يسمّى بالفرنسية باسم "سُرْ" الذي يتخذ صيغة "شِر" نظرا لتعادل الصوت "سا" و"شا" و"إس" و"إش" باعتبار أنّهما صوتان يطلقهما الإنسان للزجر والتخويف بواسطة الصفير مثلما أوضحناه في تحاليلنا المتقدمة وعلى هذا الأساس فإنّ استعمال كلمة "شِر" لزجر الكلاب الجريئة يؤكّد أنّ الأعمال السحرية تتعلّق في حقيقة الحال بأعمال عادية حقيقية وأنّ الخطر والشرّ هو خطر حقيقي وعاديّ يتمثل في التعرّض إلى هجوم من طرف الكلاب.

غير أنّ الشّر والخطر يمكن أن يكون حقيقيا وفي الآن نفسه خفيّا أو خافيا عن الأنظار فحينئذ يشعر به الإنسان مجرّد شعور فيتصدّى له قبل حدوثه

كما هو الشأن في حالات الهجومات المباغتة فإنّ الخصم يحيط بمن يريد مباغتتهم ويتقدّم ملازما الصمت المطلق حتّى لا يشعر به المقصودون فيحصل ما يثير انتباههم كسماع خشخشة أو همهمة غريبة بالقرب من تجمّعهم فيهبّون ويصيحون بصوت واحد مردّدين الأصوات المجعولة للزّجر والنّهر والتّخويف والتحذير ومنها بالخصوص الأصوات "إس" و "أش" و"أست" و"أشت" و"إر" و"أخ" و"أح" و"أع" و"أف" و"أب".

فقد سمّي الشّرّ باسم الشّر والسّحر باسم"سُرّ" و"سحر" لأنّه في الأصل تهديد وخطر حقيقي محدق يقوم الناس بدفعه والتصدّي له بواسطة إطلاق الأصوات الطبيعية التي تعوّد الإنسان إحداثها بصورة غريزية عند الشعور بالخطر وهي الأصوات "أس" و"أش" و"إر" و"أخ" و"أح" و"أع" و"أف" و"أب" سواء بمفردها أو مجتمعة في صيغة "سُر" و"شر" و"سحر" والسبب اشتراك سائر أفراد الجماعة في إطلاقها فيحدث من هذا التدخّل الجماعيّ شتّى التراكيب مثل "سر" و"شر" و"كس" و"بس" وغيرها من التراكيب التي مازالت موجودة ومستعملة إلى اليوم في شتّى أنحاء العالم.

ومازال الإنسان إلى اليوم يتصرّف بهذه الطريقة في مختلف المستويات بما فيها المستوى العلمي من خلال استعمال أصل الداء لعلاج ذلك الداء في ما يسمّى بالتلقيح وقد قال أحد الشعراء في هذا المعنى :

كالخمر مزج دوائها منها بها   **تشفي الصداع**

وتبرئ المنجودا

ويمكن على ضوء هذه الحقائق معرفة المعنى الحقيقي لاستعمال بعض المواد والمستلزمات في الأعمال السحرية كالجاوي واللبان والبخور والشعر بمختلف أنواعه.

فقد كان الناس في القديم يستعملون النيران للتنبيه والإعلام ولشتّى الأغراض الأخرى بواسطة إحراق الحطب والخشب وأغصان الأشجار وغيرها من منتوجات الغابات بحيث أنّ التبخير بواسطة الجاوي والشعر واللبان هي امتداد لاستعمال مختلف أنواع الأشجار الغابية كالجاوي واللبان لإشعال النار قصد إعلام الأهل والأصحاب وتنبيههم وغيرها من الأغراض والغايات.

وقد رأينا في بعض الخرافات الشعبية المتصلة بسفر بعض الشبان لبلاد الأهوال والأغوال للفوز بصبية إشتهرت بحسنها وجمالها أنّ الشاب يسدي معروفا لبعض الحيوانات فتشكره تلك الحيوانات وتعطيه بعض الشعرات من شعرها ليحرقها عند الحاجة فتأتي لنجدته ومساعدته.

وأشرنا إلى أنّ هذه الحيوانات ترمز في حقيقة الحال إلى بعض الأقوام من البشر الذين عاشوا في قديم الزمان وكانوا يحملون أسماء الحيوانات المذكورة تعبيرا عن بعض الصفات والخصال البشرية المميزة لهم وترمز عملية احراق الشعر إلى استعمال النار والدخان للتخاطب عن بعد وإعلام الأهل والأصحاب والحلفاء ببعض الأمور. فإحراق الشعر في هذه الحكايات يعني في حقيقة الحال إخبار وإعلام وإشعار تلك الحيوانات بواسطة النار وفق إشارات خاصة حيث أنّ كلمة "شَعَر" و"أشعر" و"إشعار" تفيد في سياق اللغة العربية معنى العلم والإعلام والإخبار كما أنّ كلمة "شعر" تفيد في العربية معنى الشجر والغابة والأجمة وكذلك معنى النار الموقدة والمشتعلة في صيغة "سعر" بالسين المهملة.

وتفيد كلمة "شعيرة" في العربية معنى العلامة والإشارة والشارة كما أنّ كلمة "إشارة" و"شارة" هي صيغة لفظية لكلمة "إشعار" بإسقاط الصوت "عا" وهي مأخوذة من كلمة "شر" التي تطلق للزجر والتنبيه والتحذير والتخويف وهي متركبة من الصوت "إش" والصوت "إر" وقد سمّيت الشارة بهذا الاسم لأنّ الصوت "إش" و"إس" و"إر" هي أصوات كان يطلقها الإنسان بصورة غريزية للتنبيه والإعلام والإشعار وخاصة الصوتان "أس" و"إش" الذين يحدثهما الإنسان بواسطة الصفير للتنبيه والتحذير والتخويف ومازال الإنسان يستعمل الصفير إلى اليوم للتنبيه والتحذير سواء بصورة طبيعية بواسطة تحريك الفم واللسان والشفتين أو بواسطة الآلات المستحدثة كآلات النفخ ومنها البوق.

كما يستعمل التونسيون إلى اليوم الصوت "إس" للإشارة إلى ملازمة الصمت أحيانا والأصل في هذا الإستعمال انّ الإنسان كان قديما يطلق الصوت "إس" بواسطة الصفير لتنبيه أمثاله ثمّ يضع أحد أصابعه على فمه لدعوة من خاطبهم بالصفير إلى ملازمة الصمت كما أنّ الصفير في حدّ ذاته باعتباره نوع من الزّجر يدفع إلى الكفّ والإرتداع والإقلاع عن التمادي في فعل الشيء المستوجب للزجر فارتبط الصوت "إس" بملازمة الصمت وبالكف والإقلاع والإرتداع والإمتناع عن فعل بعض الأشياء ولأجل ذلك ظلّ الناس يعلقون صورة الكف لدفع الشر لأنّ الكف يحمل من خلال اسمه الدّعوة إلى الكف والإقلاع والإمتناع عن نيّة وعزم فعل الشر كما يرمز إلى الضرب بالكف الذي يتعرض له فاعل الشر وقد لاحظنا أنّ المصريين يستعملون كلمة "بِس" للدعوة إلى الكف وملازمة الصمت والهدوء وتتخذ هذه اللفظة في اللغة الإيطالية صيغة"باسطا" في حين يستعمل الفرنسيون كلمة "أسي". وكل هذه الأصوات هي صيغ يتخذها الصفير مثلما رأيناه في تحاليلنا السابقة حيث ذكرنا أنّ الصفير

يتخذ صيغ "أس" و"أست" و"أش" و"أشت" و"بس" و"بست" وكذلك"أص" و"بص" و"إصص" وغيرها من الصيغ الشبيهة.

فقد كانت الجماعات البشرية تطلق كل هذه الأصوات بصورة غريزيا لمواجهة الدخلاء والمتطفلين فتفضح وجودهم بواسطتها وتشير إلى الشعور بتحركاتهم فتربكهم وتفشل خططهم وتدفعهم إلى العدول عن مشاريعهم العدوانية مثلما يتصرف الدجاج في حال الشعور بحركة بعض الدخلاء فيملأ المكان صياحا منسحبا في شتّى الاتجاهات.

وقد لاحظنا في هذا السياق أنّ كلمة"شعر" تعادل لفظة"خطر" حيث أنّ كلمة"خطر" و"أخطر" تستعمل في اللغة العربية في معنى الإعلام والتنبيه والإخبار كما أنّ كلمة "خاطر" و"خطار" تستعمل في معنى الناس في تونس وفي العديد من المجتمعات العربية الأخرى, كما أنّ كلمة "خطر" تفيد في سياق اللغة العربية معنى الشر المحدق.

ويُعْتَبَرُ الناس الآخرون أكبر مصدر خطر بالنسبة للإنسان ولا سيما إذا كانوا من الأجانب والغرباء والدخلاء والمتطفلين فإنّ مجيئهم يشكل خطرا محدقا بالنسبة للجماعات المقصودة.

المعنى الحقيقي للاعتقاد في العين والبركة والقوى الخفية

وكان الدخلاء والمتطفلون والانتهازيون من اللصوص وغيرهم يستعملون العيون والرقباء قبل الإقدام على مشاريعهم الإجرامية بحيث أنّ الإعتقاد في العين والنفس يعود إلى هذه الأوضاع البشرية القديمة.

فقد سبق أن أشرنا إلى أنّ لفظة"عين" هي صيغة لفظية للصوت"أع" الذي يطلقه الإنسان بصورة غريزية عند الشعور بالألم والمرارة على غرار

الأصوات "إس" و"أح" و"إر" و"أخ" و"أف" واستعمل هو الآخر للزجر والنهر والتنبيه والتحذير من مصادر الألم والمرارة وأطلق تبعا لذلك على الشرّ والخطر والضرر كالرقباء والجواسيس الذين يستعملهم المتطفلون لتتبع حركات الجماعات المقصودة.

فلأجل ذلك سمّي هؤلاء الرقباء والجواسيس باسم العين والعيون لأنّهم مصدر شرّ فكان أفراد الجماعات المقصودة يتصدّون لهم بواسطة إطلاق الصوت "أع" و"أخ" و"أح" كما أنّ هؤلاء الجماعات كان لهم رقباء وجواسيس يعلمونهم بالتحركات المريبة وتمثّل هذه التحركات المريبة شرّا محدقا وصنيعا يتسبّب في إطلاق الصوت "أع" و"أخ" و"أح" لأنّه مصدر ألم ومرارة فسميت الحركات المريبة باسم "أع" و"عين" و"أخ" كما دعي الأشخاص المكلفون بالمراقبة باسم "أع" و"عين" و"أخ" حيث تسمّى العين في العديد من اللغات الأوروبية بأسماء مشتقة من الصوت"أخ" كما هي الحال في الإيطالية التي تسمّى فيها العين باسم "أوك" نقلا عن اللاتينية في حين تسمّى العين باسم "أب" في اليونانية وقد ذكرنا -أنّ الصوت"أب" كان يستعمل هو أيضا للزجر والتنبيه والتحذير والتخويف. كما تسمّى العين في الأنقليزية باسم "أي". ومازال الإنسان إلى اليوم يطلق بصورة غريزيّة الصّوت "أي" عند الشّعور بالألم وهو أصل الصّوت " يا " الذي يدخل في تركيب الكلام الإنساني ويستعمل في العربيّة للنّداء وطلب النّجدة.

ويطلق على العين المضرة في المجتمعات العربية أيضا اسم "نفس" ويعتبر هذا الاسم صيغة لفظية لكلمة "نفث" التي تطلق في العربية على عمليات الإلقاء والرّمي وخاصة منها إلقاء اللّعاب والبصاق, كما كان النّفث قديما من

الأعمال السحرية المنتشرة فكان السّحرة والكهنة قديما ينفثون على المرضى لمعالجتهم وعلى شتّى المستحضرات السحرية لتنفيذ عملهم السّحريّ.

وذكرنا أنّ الإنسان يطلق أيضا الصوت "أف" بصورة غريزية للزجر والنهر والتخويف والتحذير والتنبيه ويتمثل إطلاق الصوت"أف" في رمي اللعاب والبصاق على المراد سحره ويتخذ في هذه الحالة صيغة "تف" حيث أنّ رمي اللعاب والبصاق يسمّى باسم "التّفّ" وعلى هذا الأساس فإنّ النفث كان يتمثل في الأصل في إطلاق الصوت"أف" و"تف" مع ما يرافقه من إخراج للعاب والبصاق قصد الزجر والنهر والتخويف ومازال التف من أكبر عمليات الزجر والنهر إلى اليوم بحيث أنّ إلقاء البصاق واللعاب على أحد الأشخاص يعتبر من أكبر ردود الفعل في حالة التعرض إلى اعتداء ومسّ على الجسم والكرامة, وتتركب كلمة "نفث" أساسا من الصوت "أف" و"أث" الذي هو صيغة لفظية للصوت"أس" ففي هذا السياق لاحظنا مثلا أنّ الناس في تونس وفي البلدان العربية مازالوا إلى اليوم يدفعون السحر أحيانا بواسطة رمي اللعاب والبصاق وإطلاق الصوت "أف" و"تف" بحيث أنّ الواحد من الناس يقول للشخص الذي يثير في حديثه ما يدعو للشؤم والتشاؤم "تف من فمك" بدعوى أنّ عملية التّف تبعد وتدفع الشر وسبب الشؤم.

فقد تعود الإنسان منذ القديم التصدي للشر بإطلاق الصوت"أف" و"تف" مع رشّ اللعاب والبصاق في الأثناء على المتسبّب في ذلك الشر وظلّ يستعمل هذه الوسيلة للتصدّي للشر بكلّ أنواعه وكان الشر منذ البداية حقيقي وملموسا ويتمثل أساسا في الناس الآخرين والمتطفلين والإنتهازيين والدخلاء من كل الأصناف, فكانت وسيلة التصدي الطبيعية لهؤلاء المتطفلين والإنتهازيين إطلاق

الأصوات المجعولة للزّجر وهي الأصوات"أس" و"أست" و"أش" و"أشت" و"إر" و"أف" و"أح" و"أع" و"أخ" و"أب" بمفردها أو مجتمعة للتأكيد.

وظلّ الإنسان يستعمل هذه الأصوات بصورة طبيعية للتصدّي لكلّ الشرور والمخاطر ودفعها عنه ومنع التعرّض لها والإصابة بها.

كما أنّ الإعتقاد في بركة بعض الأشخاص والأشياء له أصول طبيعية ومادّية محضة مثل الإعتقاد في العين والسحر وليس فيه شيء من التوهّم والإيمان ببعض القوى الخفية والقدرات الخارقة للعادة مثلما ذهب في ظنّ الأجيال المتأخّرة من الناس والعلماء. وتعني البركة في هذا السياق القداسة والقدرة.

فقد سبق أن أشرنا إلى أنّ كلمة "بركة" تفيد في الأصل معنى الحرم الأسري والمرأة والأولاد والعائلة والأسرة والحيّ البشريّ عموما حيث أنّها مازالت تستعمل إلى اليوم في بعض اللغات الإنسانية في معنى الحديقة والجنان والبستان والزريبة المسوّرة فهي تستعمل في صيغة"بارك" في الفرنسية والأنقليزيّة في معنى الحديقة والبستان وتستعمل في البربرية في صيغة "أفراق" في معنى الزريبة المسوّرة كما أنّها تستعمل في العربية في صيغة "فريق" و"فرقة" في معنى المجموعة الصغيرة من الناس وأيضا في معنى عين الماء.

وقد كانت الأسر والأحياء البشرية قديما عبارة عن منازل مسوّرة بشتّى المواد الصالحة لإقامة الأسوار وتقع في الغالب قرب العيون والأنهار ومجاري المياه وكانت في الأصل عبارة عن منازل ومحطّات وفضاءات ترابية يأوي إليها أفراد الجماعة ويعتبرونها ملكا خاصّا بهم يمنع على غيرهم إستعماله والتصرّف فيه فكانت الأسرة والمنزل والمجال الذي تعيش فيه شيئا واحدا بحيث

أنّ البركة كانت ترمز في الأصل إلى الحرمة الأسرية وإلى حرمة مجالها الترابي وحدوده وكانت هذه الحرمة تجسّم غيرة أفراد الأسرة وأهل الحيّ على أسرتهم وحيّهم ورفضهم الطبيعيّ لإنضمام الغرباء للأسرة والحيّ دون إنذار أو إتّفاق مسبق إمتدادا لنفور الجسم والبدن من كلّ ما هو غريب عنه.

فقد أشرنا إلى أنّ الناس في تونس مازالوا إلى اليوم يستعملون كلمة"بركة" في معنى العدد"واحد" وتعتبر كلمة"واحد" صيغة لفظية لكلمة "حد" و"أحد" بحيث أنّ كلمة "بركة" تفيد في الأصل معنى الحدّ الذي ينبغي احترامه والذي يمنع تجاوزه ومازالت كلمة"حدّ" تستعمل إلى اليوم في تونس في صيغ متعددة لتسمية الأشخاص من الإناث والذكور فكان الحد في القديم يرمز إلى الأشخاص الذين يدافعون عن حرمة وحدود الأسرة والحيّ والمنزل وهم رؤساء وعظماء تلك الأسرة وذلك الحيّ أو المنزل وعلى هذا الأساس فإنّ الحدّ يمثّل في الأصل الأسياد والآباء والأجداد والكبار والعظماء والرّؤساء الذين كانوا يقودون الجماعات البشرية وذكرنا أنّ الآلهة الذين عبدتهم الشعوب الإنسانية في القديم يرمزون في حقيقة الحال إلى آباء وأجداد ورؤساء الأسر الإنسانية التي عمرت الأرض في العهود الأولى من التاريخ الإنساني وكانت النواة الأولى للشعوب الإنسانية القائمة والمنقرضة فلأجل ذلك يحمل اسم "بركة" معاني القداسة والقدرة.

فالبركة ترمز في الأصل إلى الحماية الحقيقية التي كان يوفرها الأسياد ورؤساء الأسر لفائدة أفراد أسرهم بفضل ما كانوا يتمتعون به من قوّة بدنية وتجربة عملية وقدرة يستمدونها من هذه القوة البدنية.

وكان الموالي والخدم والتابعين لهم من النساء والأطفال الصغار والمستعبدين المقردين بشتّى أنواعهم يحملون اسم القداشة والقداسة والقديس والقط مثلما ذكرنا في تحاليلنا السابقة غير أنّ كلمة "قط" كانت تطلق أيضا على الأسياد اعتبارا للروابط المادية التي كانت تربط في القديم بين السيد وأتباعه كالروابط المادية التي كانت تربط بين الزوج وزوجته حيث كان الزوج والزوجة ينامان مرتبطين بحبل واحد خاصة إذا كانت المرأة جارية جديدة سباها الزوج حديثا فكان يقرنها معه بحبل واحد في الأيام الأولى من سبيه لها حتّى تألفه وتستأنس به.

فلأجل ذلك تستعمل كلمة "قد" و"قط" في صيغة"قداسة" و"قديس" في معنى الخادم والتابع والمولى كما هو الحال في البربرية وفي صيغة "قوط" و"قود" في معنى الإله والسّيد في الألمانيّة والأنقليزيّة بينما تستعمل في صيغة "جد" في العربيّة في معنى الأب الكبير.

فالقداسة تعني هي الأخرى في الأصل الحُرْمة الأسرية والترابيّة على غرار البَركة باعتبار أنّ كلمة "قداسة" و"قدّيس" كانت تعني في الأصل المرأة والأولاد والأسرة باعتبارهم تابعين لربّ الأسرة وسيّدها الذي يُسمّى هو الآخر باسم القط والقديس وكانوا تبعًا لذلك ملكًا خاصًّا به يُمْنَعُ ويُحَرَّمُ على الآخرين المساسُ به خِشْيَةَ بطش صاحب تلك الأسرة.

وتأكيدا لصحّة تحاليلنا وجدنا أنّ كلمة "بَرَكَة" و"برك" مازالت تستعمل إلى اليوم في اللّغة العربيّة والمجتمعات العربيّة في معنى النّــزول والمنزل والنزلة والمَحَطة وتطلق أساسا على نزول الجمل وهبوطه في مكان معلوم بأمْر

صاحبه ففي هذه الحالة يقال في العربيّة إنّ ذلك الجمل برك بمعنى نزل وهبط وحطّ في ذلك المكان.

كما تطلق كلمة "برك" في صيغة "برج" و"أبراج" على القلاع والقصور في العربيّة وعلى القرى في اللّغة الفرنسيّة وغيرها من اللّغات الأوروبيّة ومازالت الكثير من القرى في شمال إفريقيا تَحْمِل اسم القصر منها قرية بالغرب من مدينة قفصة بالجنوب التونسي وقرية أخرى كانت قائمة بالقرب من مدينة جُمنة بالجنوب التونسي.

علاقة البَرَكَة بتأسيس الأسر الإنسانيّة :

وعلى هذا الأساس روت الشعوب الإنسانية الكثير من الأساطير والخرافات الشعبية التي تتحدث عن تأسيس بعض المدن والأحياء البشرية المعروفة فوق المواقع التي تقوم عليها تنفيذا لأمر غيبي دعا مؤسس تلك المدينة أو الحي البشري إلى النزول والإقامة في المكان الذي يبرك فيه جمله بمفرده أو تسقط فيه فرسه ميّتة من الإعياء وأشياء من هذا القبيل.

فقد جمعنا العديد من الأساطير في هذا المعنى أوردنا قسما منها في كتابنا بعنوان"أساطير النشأة في الجنوب التونسي" ومنها قصة تأسيس مدينة جمنة الواقعة بين مدينتي قبلي ودوز بالجنوب التونسي.

ومضمون هذه القصة أنّ المؤسس الرئيسي لمدينة جمنة هو ولي صالح اسمه الشيخ عبد الله الحاج الذي عاش منذ قرون خلت وكان منشؤه في الساقية الحمراء بجنوب المغرب الأقصى في بعض الروايات وفي طرابلس في روايات أخرى وشبّ على التقوى وحبّ العلم ثمّ سافر إلى المشرق لأداء فريضة الحجّ فمرض في الحجّ وبينما كان نائما وهو مريض وقف عليه شخص في المنام

وأمره بالقيام وإمتطاء فرسه والتوجّه إلى جهة الغرب والنزول في المكان الذي تعثر فيه فرسه وتتكسر ساقها وتسقط على الأرض فلمّا وصل إلى الموضع الذي تقع فيه اليوم مدينة جمنة وجد جمعا من النساء يملأن الماء من بئر بالمكان فطلب منهن شيئا من الماء ليشرب هو وفرسه فامتنعن بدعوى أنّ البئر نازحة وليس فيها ماء فطلب منهن أن يفسحن له الطريق وتقدم من البئر وغرس فيها عصاه وقال:"ببركة الله يا عين جمنة جمّي" فتحول البئر بقدرة الله إلى عين ماء جارية فشرب هو وفرسه وواصل سيره فلم يقطع سوى عدة أمتار حتّى عثرت فرسه وانكسرت ساقها وسقطت على الأرض فتذكر الأمر الغيبي الذي دعاه إلى النزول والإقامة في الموضع الذي تعثر فيه فرسه وتتكسر ساقها وتسقط فنزل في ذلك الموضع وجعل له خلوة وسخّر نفسه لنشر العلم والدين وتدعيما لرسالته تزوج بعدد من النساء من الأحياء القريبة وأسّس أسرة كبيرة هي أصل السكان الذين يعيشون اليوم في مدينة جمنة وينتمون إليه بالنسب وقد ظلت عين الماء المذكورة جارية وينبع منها الماء إلى حدود هذه السنوات الأخيرة وقد جفت الآن وبقي مكانها شاهدا عليها كما بقيت الخلوة التي كان يتعبد فيها الشيخ عبد الله الحاج قائمة إلى عهد قريب جدّا وتستغل كمدرسة لتعليم القرآن والدين وعندما مات الشيخ عبد الله الحاج دفن في المكان الذي سقطت فيه فرسه حسب الأخبار وبني على ضريحه قبة كبيرة مازالت قائمة إلى الآن ويحظى الشيخ عبد الله الحاج بمنزلة رفيعة لدى أبنائه من سكان جمنة وغيرهم ويعتبر من الأولياء الصالحين الراسخين في العلم ومقامه مشهود يزار إلى اليوم ويتبرّك به.

ويتضمّن التراث الأسطوري العالمي الكثير من القصص الشبيهة منها أسطورة يونانية قديمة كان اليونانيون القدماء يروونها بشأن تأسيس مدينة طيبة باليونان وكانت من أشهر المدن اليونانية في القديم.

وتروي هذه الأسطورة أنّ مؤسس مدينة طيبة اليونانية هو أمير فينيقي جاء إلى اليونان بحثا عن أخته التي اختطفها من أحد الشواطئ اللبنانية أحد عظماء اليونان وهرب بها إلى بلاده فسأل الأمير الفينيقي كاهنة مشهورة لتخبره عن المكان الذي توجد فيه أخته فنصحته بالعدول عن التفتيش على أخته والسعي إلى تأسيس مدينة ترفع من شأنه وتخلد ذكره ودعته إلى اقتناء بقرة ذات أوصاف معلومة والسير بها في إتجاه معلوم وحيثما ينال منها التعب وتنهار قواها وتسقط في الأرض ينزل بذلك الموضع ويبني المدينة المذكورة فكان كما وصفت.

فنحن نعتبر أنّ هذه الأساطير الحديثة نسبيّا هي مثل كلّ الأساطير المتداولة منذ القديم أخبار تاريخية تنقل بعض الوقائع والأحداث الحقيقية التي حصلت في قديم الزمان لبعض الجماعات من البشر فوق بعض بقاع الأرض وتصف الظروف التي حفّت وأحاطت بتأسيس وإنشاء وبناء بعض الأسر والأحياء البشرية القديمة.

فقد أشرنا إلى أنّ الأسرة البشرية والحيّ البشريّ عموما كان يطلق عليه اسم "بركة" و"بارك" و"برج" و"فريق" و"أفراق" إلى جانب اسم "جن" و"جنة" بالجيم و"حن" و"حنّة" بالحاء و"بن" و"بنت" و"كن" و"كنت" و"كنّة" بحيث أنّ تأسيس الأسر والأحياء البشرية كان يعبّر عنه في بعض السياقات بعبارة "تأسيس بركة أو إنجاز بركة".

ومازالت العديد من المواقع في العالم تحمل إلى اليوم بعض هذه الأسماء مثل منطقة برقة بليبيا ومدينة طبرقة في تونس في حين تسمّى القرية باسم برج وبورج في العديد من البلدان الأوروبية ومنه جاءت كلمة بورجوازية التي

تستعمل في الدراسات السياسية والإجتماعية للإشارة إلى طبقة كبار التجار وأصحاب العمل مقارنة بالفلاحين الذين يعيشون في المناطق الريفية وبالنبلاء والأشراف الذين يملكون الإقطاعات وهي في أغلبها أراضي تستعمل للزراعة.

وأطلق اسم بركة على الأسرة والحيّ البشري امتدادا لإطلاق اسم "بر" على الأبناء والأولاد بحيث أنّ اسم "بركة" مشتق من اسم "بر" وقد ذكرنا في تحاليلنا السابقة أنّ اسم "بر" بالراء يعادل اسم "بن" بالنون وكان الأبناء يغادرون عند البلوغ الأسر التي ينتمون إليها ويعيشون في محيطها المباشر فسمّي ذلك المحيط باسم"البر" بمعنى الخارج وقد لاحظنا أنّ كلمة "بر" تستعمل إلى اليوم للزجر والنّهر والإبعاد والتخويف والتحذير حيث مازال الناس في تونس وفي العديد من البلدان العربية الأخرى يستعملون لفظة "بر" و"برّة" للزجر والنّهر والإبعاد والدّعوة إلى الخروج والذهاب.

فكان تأسيس الأسر في العهود الأولى من التاريخ الإنساني يحصل بواسطة الإختطاف والتقريد والتدجين والإشتغال لحساب اسرة القرين وغيرها من الطّرق والوسائل التي استعرضناها في تحاليلنا السابقة فكان الشخص الذي يتحصل على قرين بطريقة أو بأخرى يحمله ويهرب به إلى خارج دائرة الأسرة التي ينتمي إليها القرين ويؤسس بمعيّته أسرة وحيّا في موضع ملائم وبعيد نسبيّا عن أحياء الآخرين ويصعب عليهم إدراكه.

فكان النفور الطبيعي من الغريب والأجنبي يدفع الأسر القائمة إلى رفض إقامة الغرباء بجانبها وبالقرب منها حيث كان هناك للأسر والأحياء البشرية حرمة وحدود معلومة يمنع على الآخرين اختراقها خشية بطش أصحابها.

ومن هذا المنطلق فإنّ تحديد مواضع الأحياء البشرية كان يخضع لعدد من المعطيات والعوامل الموضوعية التي تتجاوز إرادة ورغبة الأشخاص والأفراد.

ففي هذا السياق تروي الشعوب الإنسانية الكثير من الأساطير والخرافات التي تتحدّث عن قيام أحد الشبان باختطاف صبية من أسرتها بمساعدة ورضى الصبية نفسها فيتفطّن لهما رئيس أو رئيسة الأسرة ويقوم بمطاردتها أملا في إدراكهما واللحاق بهما والقبض عليهما لكنّه يفشل في مسعاه في حين ينجح الشاب والصبية في الإفلات وعندما يصلان إلى مدينة الشاب يتزوجان ويؤسسان أسرة خاصة بهما.

كما تشير الأساطير والأخبار الموروثة إلى بعض العادات التي كانت متبعة لتحديد موضع إقامة الجار وموضع إقامة الأسر الجديدة التي كان يتم تأسيسها في إطار عادة إشتغال الخطيب لحساب أسرة الخطيبة لمدّة معلومة كخادم تابع لها مقابل تزويجه من إحدى بناتها في نهاية تلك المدّة والسّماح له بالإقامة بجوارها.

فقد كانت الجماعات البشرية تطلب من الغرباء الراغبين في الإقامة بجوارهم النزول في مكان يبعد مسيرة يوم عن حيّ الجماعة وقد ظلّت هذه العادات سارية إلى عهد قريب في البلدان الإفريقية جنوب الصحراء الكبرى وفي حال تزويج الشبّان المستعبدين لمدّة معلومة كان رئيس الأسرة التي تنتمي إليها البنت هو الذي يحدّد موضع إقامة الشاب وعروسه بالوسائل التي يراها مناسبة.

وقد جمعنا في هذا الإطار العديد من الأساطير الحديثة التي تشير إلى أنّ تحديد المواضع كان يتم بواسطة رمي نشّاب أو عصا أو قصّابة وأشياء من هذا القبيل وحيثما يقع ذلك النشّاب أو تلك العصا أو القصّابة تنزل الأسرة الجديدة.

ففي هذا السياق يروي سكان قرية اسمها قرية سيدي مرزوق بجهة الفوار بصحراء دوز بالجنوب التونسي أسطورة حول تأسيس هذه القرية مضمونها أنّ قرية سيدي مرزوق المذكورة أسّسها وليّ صالح من أصل زنجي اسمه سيدي مرزوق الشوشان وصورة الحادث أنّ هذا الوليّ قدم من السودان الإفريقي إلى المنطقة المذكورة بصفة سائح في ملك الله فدخل يشتغل خادما عند وليّ المنطقة في ذلك العهد واسمه سيدي غانم ومازال إلى اليوم له مقام مشهور بالجهة يزار ويتبرك به فسخّره سيدي غانم للعمل في حقوله وبساتينه وكان رجلا تقيا من الصالحين وصاحب كرامات فكانت المسحاة التي يعمل بها في فلاحة الأرض تشتغل بمفردها في حقول سيدي غانم فيتركها سيدي مرزرق تعمل بمفردها ويعتكف للعبادة أو قضاء بعض الشؤون الدنيوية البسيطة كترقيع ثيابه فزاره ذات يوم سيدي غانم في الحقل فرأى المسحاة تعمل بمفردها ورأى سيدي مرزوق يتعبّد فأدرك أنّه من الأولياء الصالحين فتقدّم منه وكلمه واعترف له بالولاية ووعده بأن يقطعه أرضا يستغلها لحسابه الخاصّ وكانت مع سيدي غانم قصابة فرماها بكلّ ما أوتي من قوّة ودعا سيدي مرزوق إلى اللحاق بها وحيثما تقع القصابة ينزل ويحوز الأرض المجاورة فكان كذلك ونزلت القصابة في مكان بعيد نسبيا عن منازل سيدي غانم فحاز سيدي مرزوق الأرض المجاورة وأسّس بها قرية نسبت له وسميت باسم سيدي مرزوق ومازالت قائمة إلى اليوم.

وقد لاحظنا في هذا السياق أنّ اسم "بركة" يطلق في تونس على الأشخاص ويستعمل بصفة خاصة لتسمية السّود الذين كانوا ينتمون إلى طبقة العبيد ثمّ أصبحوا خدما للأسر التي كانوا تابعين لها.

وكان الشبان الذين يتقدمون للأسر القائمة للحصول على إحدى بناتها والتزوّج منها ينتمون بصفة عامة إلى فئة الأبناء وكانوا من هذا المنطلق يدعون باسم "بن" و"بني" و"جن" و"حن" و"إن" و"ذر" و"ذريّة" ويتخذ اسم "ذر" صيغة"زر" و"أزر" و"جر" و"أجر" بحيث أنّ اسم "أزر" يعادل اسم "بن" وكذلك الشأن بالنسبة لاسم "أجر" الذي جاءت منه كلمة "أجر" وتطلق في العربية على الطّوب المستعمل للبناء كما تطلق كلمة "بن" أيضا على الطوب وعلى عملية البناء والتشييد. ومن أجر جاءت كلمة "جار".

وتتخذ كلمة "أجر" صيغة "حجر" بزيادة الصوت "حا" وتستعمل كلمة "حجر" في العربية أيضا في معنى الطوب المستعمل للبناء بحيث أنّ كلمة "أجر" و"حجر" متعادلتان. كما يسمّى الحجر والطوب في اللغة البربرية باسم "أزرو" التي هي صيغة لفظية لاسم "أزر" و"زر" و"ذر".

وتستعمل كلمة "حجر" في العربية في معنى البيت في صيغة "حجرة" وكذلك في معنى المنع والحماية والحرمة وهي من هذه الناحية تعادل كلمة"بركة" و"قدس".

وعلى هذا الأساس تطلق كلمة "حجر" في تونس وفي البلدان العربية على حجر الأمّ الذي يأوي إليه الطّفل ليستريح ويحتمي ويشمل تقريبا كامل الجزء الأمامي من جسم الأمّ بما فيه الحضن. وقد كان الحجر يرمز في الأصل إلى المرأة والأمّ ثمّ أطلق على الأولاد والأسرة والحيّ البشريّ عموما.

ففي هذا السياق لاحظنا أنّ كلمة"حجر" تستعمل إلى اليوم في بعض ألعاب الصبيان بالجنوب التونسي في معنى الأبناء والأولاد الصغار حيث تشتمل بعض العاب الصبيان في الجنوب التونسي على أقوال في هذا المعنى منها قولهم "حجيرة تحت أمها لا من يغمها" كما أنّ الصبيان في الجنوب التونسي يمارسون لعبة أخرى تتمثّل في قلع قطع صغيرة من الطوب باعتبارها ترمز إلى ولادة الأولاد الجدد وعندما يشرع الطفل في قلع قطعة الطوب يطلب من الصبيان الآخرين ملازمة السكوت قائلا : "السكوت من يتكلم يموت".

ثمّ اتسع نطاق الحجر ليشمل الفضاء المحيط بالبيت والأسرة والحيّ إلى حدود معيّنة وكانت هذه الحدود في البداية ضمنيّة ثمّ تجسّمت في أسوار وزرب متصلة البناء وفي أنصاب حجرية وخشبية متفرقة وكذلك في أعلام وشارات تعلّق على بعض الأشجار والأنصاب القريبة من الأسرة والحيّ ومازالت كلّ هذه الممارسات قائمة وسارية إلى هذا اليوم في مستوى ضبط الحدود بين الممتلكات الفردية وبين البلدان والأقطار.

وقد سبق أن حللنا الأطوار التي مرّت بها فكرة الحدّ والحدود عند الإنسان والمقومات التي تجسّمت فيها حيث كانت في بداية الأمر تتجسّم في حرمة البدن نتيجة نفوره الطبيعي من كلّ ما هو غريب عنه ثمّ تجسّمت في حرمة الأسرة ومجالها الحيوي الذي كان يتمثّل في الأصل في بعض الفضاءات الطبيعية التي تأوي إليها الأسرة والجماعة في بعض الأوقات للرّاحة والنّوم كبعض الأشجار في الغابات أو بعض الكهوف والغيران الجبلية قبل أن تتخذ شكل الأكياب والأكواخ والزرائب المسوّرة ببعض الأنصاب الحجرية والخشبية.

ففي هذا السياق لاحظنا أنّ كلمة "حجر" مازالت تستعمل إلى اليوم في الجنوب التّونسي في معنى الزرب الصغير الذي يقام أمام الخيمة بواسطة أعواد الحطب وأغصان الأشجار بمثابة الحدود التي تفصلها عن الفضاء الخارجي ويستعمل هذا الزرب أيضا لتقسيم الخيمة إلى جملة من الفضاءات الداخلية المختصة منها الفضاء المخصص للنوم والفضاء المخصص لقضاء الشؤون المنزلية كإعداد الطعام, وتسمّى عملية إقامة هذا الحجر باسم التّحجير كما يسمّى الزرب أيضا باسم "حَجِير".

وقد أشرنا في تحاليلنا السابقة إلى عادة تقسيم المنازل إلى جملة من الدوائر التي كانت سارية إلى عهد قريب في البلدان الإفريقية جنوب الصحراء الكبرى فكان المنزل الواحد عبارة عن دار كبيرة منقسمة إلى عدّة دوائر بحسب الإنتماءات الفئوية لأفراد الأسرة فكانت الدائرة المركزية مخصّصة للأب والدّائرة الثانية مخصّصة لنسائه والثالثة لأبنائه والرّابعة لخدمه ودوّابه.

كما أنّ اسم "جار" الذي يطلقه الشخص في اللغة العربية على المقيم بجانب داره هو صيغة لفظية لاسم"زر" و"ذر" ويعادل في الأصل معنويا اسم"بن" و"بني" بحيث أنّ الجيران كانوا يرمزون في الأصل إلى أولاد الأسرة من الجنسين الذين يتزوجون ويقيمون بجانبها فكانت هناك الأسرة الأصلية وبجوارها أسر متفرّعة عنها وتنتمي إليها عن طريق الزوج باعتباره ابنها أو شاب اشتغل فترة لحسابها أو عن طريق الزوجة باعتبارها ابنتها أو شابة اشتغلت لحسابها, ثمّ إنّ اسم جار أصبح يفيد بالنسبة لكلّ شخص المقيم بجانبه بصفة عامة على بعد يختلف حسب الحالات.

وسبق أن رأينا أنّ الزواج في القديم كان يحصل أحيانا إثر مطاردة أو سباق بين الشاب والصبية وكان نجاح الشاب متوقّفا على الفوز في المسابقة كما أنّ فوزه كان مرتبطا بانهيار قوى البنت وسقوطها على الأرض من شدّة التعب.

وقد أشرنا إلى أنّ أسماء الحيوانات كانت في الأصل تطلق على البشر تعبيرا عن بعض الصفات البشرية المميزة لهم مثل اسم"غزالة" و"ريم" و"بكرة" و"مهرية" و"مهى". فكلّ هذه الأسماء تستعمل لتسمية النّساء في المجتمعات العربية والإسلامية في حين تستعمل كلمة "قصبة" في المجتمعات العربية والإسلامية إلى اليوم في معنى القلعة والبرج وقد كان القصب ومازال إلى اليوم من المواد المستعملة لبناء الأكواب والأكواخ والأخصاص والزرائب وكذلك لإقامة الأسوار والحدود حتّى أنّ كلمة "قصب" تستعمل إلى اليوم في الجنوب التونسي في صيغة"قشب" في معنى البراز والفضلات البشرية وقد كانت الأحياء البشرية قديما محاطة بأكداس الفضلات البشرية بحيث كانت هذه الأحياء وأكداس الفضلات شيئا واحدا مثل مرابض الحيوانات بمختلف أنواعها.

وقد أشرنا إلى عادات التّطهير التي كانت تمارسها المجتمعات البشرية في القديم والمتمثّلة في التشريد الموسميّ لبعض الشبان البالغين وكذلك الشابات البالغات ومازالت آثارها باقية إلى اليوم في بعض العادات الشبيهة والمختصرة كالختان الذي يسمّى باسم "طهارة" و"تطهير" في المجتمعات العربية. ويمكن القول بأنّ هذا التشريد كان في الأصل وسيلة للإبقاء على حياة الشبان ومنعهم من الإصطدام بالكبار والوقوع في المكروه في حال مكوثهم مع الجماعة والأسرة التي ينتمون إليها عندما يبلغون ويدخلون في صراع مع الكبار. فقد ظلّت الواحدة من الإماء والجواري الحاملات في بعض المجتمعات الإفريقية وعند جماعات التوارق إلى عهد قريب تخرج إلى البريّة القريبة وتضع مولودها

في الفلاة وتتركه لمصيره قبل أن تحنو عليه وتتعلّق به وتربّي عليه الكبد كما يقول التونسيون فتتألم لفراقه إذا ما أقدم سيدها بعد ذلك على بيعها والإحتفاظ بالولد لنفسه مثلما كان يسمح به نظام الاسترقاق.

فقد أصبح هذا التشريد في العهود المتأخرة لدى العديد من المجتمعات عادة وطنية كبيرة تتمثل في جمع فريق من الشبان البالغين في بعض المناسبات وإرسالهم إلى أماكن مختلفة في شتّى الاتجاهات لتأسيس المدن واستعمار الأرض.

ويمكن تقصي هذه العادات في الأساطير والأخبار التي تروى بشأن تأسيس العديد من المدن في الأرض وفي منطقة البحر البيض المتوسط بالذات.

ويشتمل التراث الأسطوري التونسي المتداول إلى اليوم في الجنوب التونسي على أصداء لهذه العادات, ففي هذا السياق يروي سكان قرية اسمها قرية أمّي هندة بالقرب من قرية سيدي مرزوق بالجنوب التونسي المذكورة آنفا أنّ هذه القرية أسستها وليّة صالحة اسمها أمّي هندة قدمت إلى المنطقة في ظروف غامضة على رأس فريق من الصبايا العذارى يتألّف من أربعين صبيّة من جهة الساقية الحمراء جنوب المغرب الأقصى فاستطاب لهنّ المكان فأقمن فيه.

وغالبا ما يتصادم هؤلاء المستعمرون الجدد بأصحاب الأرض الأصليين أو عمّار الأرض الأصليين أو جنّ الأرض بمعنى الأسر الساكنة فيها منذ الأزل ويحصل بين الطرفين نزاعات تسوّى بالحسنى كما تسوّى بالقوّة.

وتتمثّل التسوية السلمية في قيام المستعمرين الجدد بشراء قطعة من الأرض من أصحابها الأصليين أو في التزامهم بدفع جزية أو غرامة مالية موسميّة وأحيانا يتمّ التصاهر بين الطرفين ويصبحان شعبا واحدا.

وكانت كلّ أسرة تعتبر في الأصل مملكة حتّى أنّ العشيرة المنتمية لجدّ واحد تسمّى إلى اليوم في تونس باسم "عرش" كما أنّ العريس في أيام العرس في تونس قبل دخوله على عروسه يسمّى باسم السّلطان في حين تسمّى العروسة باسم السّلطانة والأصل في ذلك أنّ المرأة الجديدة هي ملك للرجل الذي يتزوجها حيث أنّه يشتريها من أهلها بواسطة المهر أو بالاشتغال لحساب الأسرة لمدّة معلومة فتصبح البنت التي يتزوجها ملكه الخاصّ حتّى أنّه كان في القديم يربطها معه في حبل أو يرمي عليها شبكة ويقودها إلي حيث تسمح له الظروف والمعطيات المذكورة أعلاه بالإقامة.

وكانت الحبال تصنع من الجلود والسّيور ولأجل ذلك يسمّى الأمير في البربريّة باسم "قليد" و"جليد" كما تستعمل كلمة "سير" في معنى الملك في العديد من اللغات الإنسانيّة فارتبط الزّواج بالقران وارتبط تأسيس الأسر بتأسيس الممالك كما ارتبط تأسيس الأسر والمدن والممالك بالجلود والسيّور وتقطيع الجلود مثلما يتجلى ذلك في الأساطير التي تروى بشأن تأسيس بعض المدن كمدن قرطاج وصفاقس والدويرات بتونس حيث تذكر الأساطير المتعلّقة بتأسيس هذه المدن الثلاثة أنّ ضبط الأرض المقامة عليها حصل بواسطة تقطيع جلد بعض الحيوانات إلى سيور وقطع صغيرة ونثرها متفرّقة على مساحة مهمّة من الأرض لأنّ أصحاب الأرض أعطوا لمؤسسي تلك المدن قدرما يغطّيه جلد حيوان فلجأ المؤسسون إلى حيلة تقطيع الجلد إلى سيور وقطع صغيرة ونثرها فوق مساحة مهمّة من الأرض ليتمكّنوا من حوز القدر الكبير من الأرض.

ويروي جماعة الرقيبات في الساقية الحمراء جنوب المغرب الأقصى أنّ جدّهم الشيخ المعروف سيدي أحمد الرقيبي إشترى الساقية الحمراء واستوطنها بما يسع جلد رقبة بعير ذهبا فلأجل ذلك سمّي أبناؤه باسم الرقيبات باعتبار أنّ إسم "رقيبات" مأخوذ حسب رأيهم من إسم "رقيبة" الذي هو تصغير إسم "رقبة" في العربيّة.

فقد كانت عبارة "تأسيس أسرة و"تأسيس مدينة" تعادل معنويا عبارة "تأسيس جليد" و"إقامة جليد" على غرار تعادل عبارتي "تأسيس أسرة" و"إقامة بركة" أو "إنجاز بركة".

وللأجل ذلك فإنّ أبطال الأساطير والخرافات الشعبيّة في صيغها المتأخّرة هم من الملوك والأمراء في أغلب الحالات والسبب مثلما أوضحناه أنّ الأساطير والخرافات الشعبيّة هي في الأصل أخبار تاريخيّة تنقل الظروف التي تمّ فيها تأسيس بعض الأسر الإنسانيّة في العهود الأولى من التاريخ الإنساني وقد كانت كلّ أسرة تعني مملكة وتسمّى باسم "مملكة" كما كان العريس يعتبر ملكا ويسمّى باسم "ملك' وكذلك الشأن بالنسبة للعروسة فإنّها كانت تعتبر ملكة وتسمّى باسم "ملكة".

فلفظة "عرس" هي صيغة لفظيّة لكلمة "عرش" التي تستعمل في العربية في معنى سرير الملك في حين تستعمل كلمة "رايش" في الألمانيّة في معنى الملك والحكم والسلطان وكانت كلمة "عرس" تفيد في الأصل طرفي الأسرة الإثنين الرجل والمرأة في حين أنّ كلمة "عريس" هي تصغير "عرس" بمعنى أنّ المتزوّج الجديد هو ملك صغير والأصل في كلمة "عرس" و"عرش" و"عريس" هو الصوت "إرس" و"إرش" الذي مازال يستعمل إلى اليوم في صيغ متعدّدة

للزجر والنّهر والتخويف والتّنبيه والتّحذير, فمازال السّكان في منطقة السّاحل بالبلاد التونسيّة يستعملون كلمة "هارس" في معنى أبصر ونظر فيقولون مثلا "هارس" بمعنى "أُبصر" أو "أُنظر"لتنبيه المخاطب ودعوته إلى النّظر إلى الشيء الملفت للانتباه ويقول المصريون في هذه الحالة "بص" ونعتبر أنّ كلمة "بص" هي الجذر الأصلي لكلمة "بصر" التي تستعمل في العربيّة في معنى النّظر والرّؤية وقد شرحنا أصل كلمة "بص" واستعمالاتها في صيغة "بس" للزجر والنّهر والتّنبيه في البلاد التونسيّة.

فكلمة "أرس" هي الأخرى من الألفاظ التي يستعملها قديما رؤساء الأسر للتّنبيه والتّحذير والتّخويف فأطلقت على رؤساء الأسر في صيغة "راس" و"رئيس" و"رايش" و"رايس" و"عرس" و"عرش" وعريس" و"عروس" بزيادة الصوت "عا" في بدايتها كما يزاد لها أحاينا في بدايتها الصوت "كا" الذي هو صيغة للصوت الزجري "أخ" و"خا" فتتخذّ صيغة "كرس" و"كرسي" و"كرّش".

وقد لاحظنا أنّ السّكان في الجنوب التونسي يستعملون إلى اليوم كلمة "كرّش" للزّجر ودعوة الحيوانات والغنم والماعز بصفة خاصة للتجمع حول الحشيش والحبوب المكدّسة لتغذيتهم.

وتتّخذ هذه الكلمة صيغة "قرش" وكان هذا الإسم لقبا لملوك فارس في القديم كما أنّه يتّخذ في حالة التّصغير صيغة "قريش" وهو إسم أحد القبائل العربيّة الشهيرة في القديم نقلا عن لقب أجدادها الأولين.

كما أنّ كلمة "كرس" تستعمل في معني المرأة والفتاة في اللغة اليونانية في صيغة "خرس" وتستعمل كلمة "خرس" في تونس في معني الحليّ المسمي باسم القرط في العربيّة وهو عبارة عن حلقة من ذهب أو فضّة وغيرها تعلّق في

الإذن للزينة وقد أشرنا إلى أنّ الحلّي كانت في الأصل وسائل للقبض والشدّ والقيد والعقل والربط والإصطياد والتّقريط حيث أنّ كلمة "قرّط" تستعمل في تونس في معنى الرّبط والقيد وشدّ الوثائق وتستعمل كلمة "كراسي" في اللغة اليونانيّة في معنى الحكم والملك والسلطان.

و أشرنا في هذا السياق إلى إعتقاد السكان في تونس وفي البلدان المغاربيّة وخاصة الجزائر والمغرب في بعض الكائنات الغيبيّة الذين يسمّيهم الأهالي باسم "عمار الدّار" ويرمزون إلى أصحاب الأرض الأولين ويعتبرونهم من الجن حتّى أنّ سكان المغرب يسمّون الجنّ باسم موالي الدّنيا ويقصدون بذلك أنّ الجن هم أصحاب وأسياد الأرض الأولين ويتصوّرهم الأهالي في بعض الحالات في هيأة أحناش جميلة المنظر مثلما ذكرناه سابقا.

ويعيش هؤلاء العمّار حسب هذه الإعتقادات الشعبيّة في البيوت والمنازل والجبال والعيون والآبار والغابات حيث أنّ كلّ موضع له عمّار وفي حقيقة الحال فإنّ هذه المعتقدات منتشرة منذ القديم في سائر أنحاء الأرض.

فقد أوضحنا أنّ الجنّ يرمزون في الأصل إلى الأسر الإنسانيّة التي عمّرت الأرض في العهود الأولى من التاريخ الإنساني وأنّهم أقوام من البشر ينتمون إلى الطبقات الأولى من البشر الذين عاشوا على وجه البسيطة أو الأرض وعلى هذا الأساس فإنّ الكائنات المعروفة باسم "عمّار الدّار" و"عمّار الغابات" و"عمّار العيون والآبار" يرمزون إلى أصحاب الأرض الأوّلين الذين أشرنا إليهم في تحاليلنا المتقدّمة حيث ذكرنا أنّ المستعمرين الجدد لأي موضع من المواضع يجدون فيه في أغلب الحالات جماعات أخرى من البشر سبقوهم

إليه فيصطدمون بهم ويحصل بين الطرفين نزاعات تسوّى في بعض الأحيان بالطرق السلمية.

وأوضحنا أنّ الطرق السليمة تتمثّل في دفع جزية أو غرامة ماليّة أو عينيّة موسميّة لأصحاب الأرض الأصليّين مقابل الإقامة بجوارهم على شرط أن يقيموا في موضع بعيد نسبيّا عن موضع إقامة أصحاب الأرض الأصليّين ويتمّ الإتفاق أحيانا بين رؤساء الطرفين دون أن يعرف المستعمرون الجدد بصورة دقيقة موضع إقامة أصحاب الأرض الأصليّين ودون أن يروهم فنشأت تبعا لذلك كلّ تلك التّصورات حول الجنّ واختفائهم عن الأنظار وإقامتهم في عوالم خاصّة بهم وفي قرى تشبه قرى البشر ولكنّها مختفيّة ولا ترى مع الخوف منهم والتّوسّل إليهم بالهدايا والعطايا وتعرّضهم للبشر وإصابتهم لهم وتملكهم بهم والتّخلص من أذاهم بالذبائح والنّذور.

فكان العرب مثلا يذبحون ذبيحة عندما يبنون دارا جديدة ومازالت هذه العادة سارية إلى اليوم في تونس وتعود إلى التّعويض الذي كان يدفعه المستعمر الجديد لصاحب الأرض الأصلي مقابل إقامته بجواره ورأينا أنّ هذه الممارسات كانت تحصل بين الأسرة والشبّان الذين يتقدّمون للحصول على إحدى بناتها فكان هؤلاء الشبّان مجبورين على الإشتغال لحساب الأسرة وتقديم الهدايا والعطايا لرئيسها حتّى يتنازل عن إبنته ويسمح لخطيبها بالإقامة بجواره بعد البناء والتّزوج بها.

وإلى جانب الطرق السّلميّة كان التّصادم بين أصحاب الأرض الأصليين والمستعمرين الجدد يفضي إلى نزاعات عنيفة وظهور عداوة مستمرّة بين الطرفين وإلى علاقات متوترة يتخلّلها الإختطاف والإستعباد والإفتداء بالذبائح

ورؤوس الأغنام وإقامة الولائم واستدعاء واستحضار الجن لتلك الولائم لترضيتهم وتدجينهم كما أنّ الإلتقاء بين الطرفين يؤدي أحيانا إلى المصاهرة والإنصهار في قومية واحدة فنشأ تبعا لذلك الإعتقاد في الزّواج بين الجن والإنس كالإعتقاد في الزّواج بين الإنس والغيلان والسعالي.

فكلّ هؤلاء الكائنات يرمزون إلى أقوام وطوائف من البشر عاشوا في قديم الزمان وكانوا يحملون أثناء وجودهم فوق الأرض كل هذه الأسماء تعبيرا عن بعض الصفات والخصال البشريّة المميّزة لهم.

غير أنّ النّاس نسوا تدريجيّا معناهم الحقيقي وظلّوا مع ذلك يؤمنون بهم ويعتقدون في وجودهم على غرار الأساطير والخرافات الشعبيّة, فإنّ الشعوب الإنسانيّة ظلّت تروي الأساطير والخرافات الشعبيّة وتقول عنها إنّها قصص حقيقيّة وإنّ الأحداث التي تنقلها حصلت بالفعل في قديم الزمان رغم أنّ هذه الأحداث تبدو في الظاهر غريبة.

فقد أبرزنا أنّ كل الكائنات الغيبيّة ترمز في حقيقة الحال إلى أقوام وفئات وطوائف من البشر عاشوا في قديم الزمان وأنّ الأساطير والخرافات الشعبيّة هي أخبار تاريخيّة تنقل بعض الوقائع والأحداث الحقيقيّة التي حصلت في قديم الزمان لبعض الجماعات من البشر فوق بعض بقاع الأرض.

الفصل الرابع

الآلهة والأساطير ذات المضامين الغيبيّة

كانت الشعوب الإنسانية تعتقد في وجود نوع من الكائنات الغيبيّة الذين يعرفون في اللغة العربية باسم"الآلهة" ويحملون العديد من الأسماء الشبيهة في اللغات الأخرى, وكانت الشعوب الإنسانية تقدّس هؤلاء الآلهة وتعبدهم وتقيم لهم الهياكل وتصنع لهم التماثيل على هيئة البشر والحيوان والأشياء المتداولة وكانت تروي بشأنهم الكثير من الأساطير والأخبار حتّى أنّ كلمة" أسطورة" والكلمات التي تعادلها معنويا مثل كلمة"ميث" اليونانية أصبحت تعني أساسا القصص المتعلقة بالآلهة التي كانت الشعوب الإنسانية ترويها بخصوص آلهتها.

وإلى جانب الآلهة كانت الشعوب الإنسانية تعتقد في وجود العديد من الكائنات الغيبية الأخرى التي تسمّى باسم "الجن" و"الملائكة" و"الشياطين" في اللغة العربية وتحمل العديد من الاسماء الشبيهة في اللغات الإنسانية الأخرى وكانت بعض المجتمعات الإنسانية تعبد هؤلاء الكائنات الغيبية أيضا وتروي بشأنهم الأساطير.

فقد كان العرب في الجزيرة العربية في القديم يعبدون عددا من الآلهة وكانوا كذلك يعبدون الجن والملائكة ويقولون إنّ الملائكة هم من الجن وأنّهم بنات الله وكانوا من هذا المنطلق يعتقدون في وجود نسب بين الله والجن.

ويسمّى الاعتقاد في وجود الآلهة وأشباههم من الكائنات وعبادتهم من طرف البشر باسم الدين والديانة في اللغة العربية وقد صنّف عدد من العلماء العرب القدماء كتبا معروفة في وصف ديانات العرب قبل الإسلام والآلهة الذين كانوا يعبدونهم وأسمائهم وهيأة التماثيل التي كانت مقامة لهم.

وتدعى التماثيل التي كانت تقام للآلهة باسم"الأصنام" في اللغة العربية وهو اسم جمع ومفرده"صنم" ومن أهم ما كتب في هذا الموضوع كتاب" الأصنام" للعالم العربي هشام بن السائب الكلبي المتوفى في نهاية القرن الثاني للهجرة وحوالي سنة 819 للميلاد.

كما كان السكان في تونس وبلدان شمال إفريقيا الأخرى من البربر يعبدون مجموعة من الآلهة قبل اعتناقهم للدين الإسلامي حيث مازالت الكثير من المواقع والأماكن تسمّى إلى اليوم باسم الأصنام في هذه البلدان ولا سيما في تونس والجزائر بما يدلّ على أنّها كانت تحوي بعض أصنام الآلهة الذين كان يعبدهم السكان في القديم.

ففي تونس يوجد بالقرب من مدينة القيروان موقع يدعى باسم الأصنام كما يوجد بالجنوب التونسي بين جبال الطباقة ومدينة قبلي موقع يدعى باسم الأصنام وقد أشار إلى هذين الموقعين العالم التونسي التّجاني في وصف رحلته عبر البلاد التونسية وطرابلس، كما يوجد بالجزائر مدينة شهيرة تسمّى باسم الأصنام ويوجد بالجنوب التونسي بالقرب من مدينة دوز في تخوم الصحراء موقع يسمّى باسم صنم العذارى نسبة إلى قرية اسمها العذارى في القديم وتحمل اليوم اسم زعفران وسمّيت القرية باسم العذارى نسبة إلى جماعة من السكان اسمهم العذارى وكانت تتكون من ثلاث مواقع هي صنم وزعفران وموقع آخر اسمه غليسيّة.

وأشار البكري في كتابه "المسالك والممالك" إلى أنّ البربر كانوا يعبدون بعض الآلهة إلى عهد قريب نسبيا.

فقد جاء في كتاب "المسالك والممالك" في هذا السياق في وصف المدن الموجودة بالقطر الليبي ما نصّه: "ومن سلك من طرابلس إلى ودّان فإنّه يسير في بلد هوّارة نحو الجنوب في قياطن وبيوت شَعَر, وهناك منازل إلى قصر بن ميمون, وذلك كلّه من عمل طرابلس ثمّ من قصر ابن ميمون ثلاثة أيام إلى صنم من حجارة مبنيّ على ربوة يسمّى كرزة ومن حواليه قبائل البربر يقرّبون له القرابين ويستشفون به من أمراضهم ويتبرّكون به في أموالهم إلى اليوم ومن هذا الصنم إلى ودّان مسيرة ثلاثة أيام.

وقد عاش البكريّ في القرن الحادي عشر للميلاد ومازال الناس في تونس يستعملون إلى اليوم كلمة"كرزة" في معنى الخصية وكذلك في معنى الرجل العظيم.

كما تحدّث المؤرّخون القدامى من اليونانيين والرومان في كتبهم ومصنفاتهم بإسهاب عن انتشار عبادة الآلهة عند سكان شمال إفريقيا وكانوا يسمّونهم باسم اللوبيين باعتبار أنّ اسم ليبيا كان يطلق على منطقة شمال إفريقيا حتّى أنّ المؤرخ اليوناني ديودور الصّقليّ الذي عاش في القرن الأول قبل الميلاد ذكر أنّ ليبيا أو شمال إفريقيا هي الموطن الأول للآلهة الذين عبدتهم الشعوب الإنسانية.

وقد اشتهر اللوبيون أو سكان شمال إفريقيا في القديم بعبادة الإله أمّون الذي كان له معبد مشهور في واحة سيوة على الحدود الليبية المصرية وكان المؤرخون اليونانيون والرومان يسمونه باسم أمّون الليبي وقد عبد المصريون القدماء أيضا الإله أمّون كما عبده القرطاجينيون سكان قرطاج بتونس في القديم

تحت اسم بعل أمّون وأشرنا إلى أنّ بعل هو اسم عظيم الآلهة عند الكنعانيين، سكان بلاد الشام في القديم.

كما كان سكان شمال إفريقيا يعبدون إلها اسمه السّجْني أو"سجني" وقد وجدنا أنّ هذا الاسم مازال يتردّد إلى اليوم في تونس في المدائح الخاصة بالأولياء الصالحين باعتباره اسما لأحد هؤلاء الأولياء وتستعمل كلمة "سجني" إلى اليوم في بعض اللهجات البربرية في صيغ متعددة في معنى المعبد والبيت المقدس.

وكان سكان شمال إفريقيا يعبدون إلها آخر اسمه أيور ومازالت كلمة"أيور" تطلق إلى اليوم في اللغة البربرية على القمر وعلى الشهر.

وتحدّث العالم البكري أيضا في كتابه"المسالك والممالك" عن انتشار عبادة الآلهة عند السكان السود ببلدان إفريقيا السوداء وكانوا يسمّون أصنام آلهتهم باسم الدّكاكير وهو اسم جمع ومفرده"دكار" ومازالت عاصمة بلاد السينغال في الساحل الإفريقي الغربي جنوب الصحراء الكبرى تحمل اسم"داكار" الذي يعادل اسم "صنم" في اللغة العربية.

فقد جاء في كتاب "المسالك والممالك" في ذكر بلاد السودان ومدنها المشهورة ما نصه : "والمجاورون لبلاد السودان، بنو جدالة هم آخر الإسلام خطة وأقرب بلاد السودان منهم صَنْغَانَة بين آخر بلادهم وبينها مسيرة ستة أيام، ومدينة صنغانة مدينتان على ضفتي النّيجر وعمارتها متّصلة إلى البحر المحيط (المحيط الأطلسي) ويلي مدينة صنغانة ما بين الغرب والقبلة على النّيجر مدينة تكرور أهلها سودان، وكانوا على ما كان سائر السودان عليه من المجوسيّة وعبادة الدّكاكير. والدّكور عندهم الصّنم حتّى وليهم وارجابي بن رابيس فأسلم

وأقام عندهم شرائع الإسلام وحملهم عليها وحقّق بصائرهم فيها وتوفّي وارجابي سنة اثنين وثلاثين وأربعمائة للهجرة فأهل تكرور اليوم مسلمون.

وكان السومريون والأكاديون والبابليون والآشوريون سكان العراق في القديم يعبدون أيضا عددا من الآلهة ويحكون بشأنهم الكثير من الأساطير التي وصلت إلينا بطريق النقل والتدوين.

كما كان اليونانيون, سكان بلاد اليونان بالجنوب الشرقي للقارة الأوروبية, يعبدون قديما عددا من الآلهة ويروون بخصوصهم الكثير من الأساطير التي دونها منذ أقدم العصور الكتّاب اليونانيون القدامى.

فنحن نعتبر أنّ الآلهة الذين كان الناس يعبدونهم في القديم يرمزون إلى آباء وأجداد الشعوب الإنسانية التي عبدتهم وإلى ملوك حكموا في أسلافهم ومصلحين أصلحوا من شؤونهم بحيث أنّ عبادة الآلهة من طرف البشر هي مظهر من مظاهر التعبير عن مشاعر التقدير والإحترام والخشية التي يكنها النّاس بصورة طبيعية لآبائهم وأجدادهم وحكامهم وأسيادهم وكبارهم بصفة عامة.

ولهذا السبب إتّخذت الأصنام والتماثيل التي كان الناس يقيمونها لآلهتهم في أغلب الحالات هيأة البشر.

فقد كانت تماثيل الآلهة الذين عبدهم اليونانيون القدماء والعرب في القديم وسكان العراق قديما على هيأة أشخاص من البشر مثل تمثال الإله"ود" الذي كانت تعبده قديما الكثير من القبائل العربية وذكره القرآن في سورة نوح ومثل الإله هبل كبير آلهة قبيلة قريش في مكة قبل الإسلام.

فقد أورد الكلبي في كتابه "الأصنام" بشأن الإله هبل أنّه كان من عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليسرى أدركته قريش كذلك فجعلوا له يدا من ذهب, وقريش كانت قبيلة عربية قديمة تسكن بمدينة مكة بالحجاز حيث توجد الكعبة أو بيت الله الحرام.

وكانت لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها وكان من أعظمها صنم الإله هبل وكانت قبيلة قريش والقبائل العربية الأخرى التي كانت تسكن قديما الجزيرة العربية تعظّم الكعبة وكانت توجد كعبات أخرى بالجزيرة العربية إلى جانب الكعبة الموجودة بمدينة مكة فقد كانت لقبيلة بني الحارث بن كعب بمنطقة نجران جنوب الجزيرة العربية كعبة شبيهة بكعبة مكة فكانوا يعظمونها ويقربون لها الذبائح.

وذكر ابن الكلبي في كتابه "الأصنام" أنّ الإله "ود" الوارد ذكره في القرآن في سورة نوح كان تمثال رجل عظيم كأعظم ما يكون الرجال قد وضع عليه حلّتان وعليه سيف قد تقلّده وقد تنكّب قوسا وفي يده حربة فيها لواء وجعبة فيها نبل.

وعلى هذا الأساس كانت الشعوب الإنسانية تحكي عن آلهتها أنّهم كانوا يأكلون ويشربون ويتزوّجون ويتناكحون ويغيرون ويغضبون ويفرحون مثل البشر حتّى أنّ الفيلسوف اليوناني أفلاطون الذي عاش في القرن 5قبل الميلاد كان يشمئزّ من هذه الصورة البشرية التي كانت تحملها الشعوب اليونانية في عصره عن الآلهة لأنّ هذا الفيلسوف اليوناني كان يتصور على وجه الخطأ أنّ الآلهة هم ذوات روحانية مغايرة للعنصر البشري ومنزّهة عن مثل هذه الأفعال البشرية.

وفي حقيقة الحال فإنّ الآلهة هم أشخاص من البشر عاشوا في قديم الزمان وقاموا أثناء وجودهم فوق الأرض ببعض الأدوار الهامة في حياة الشعوب التي عبدتهم فخلّدت هذه الشعوب ذكرهم وتناقلت سير حياتهم وحملت نفسها على تعظيمهم تمجيدا لهم ولما قاموا به لصالح تلك الشعوب.

فالبعض من الآلهة هم آباء وأجداد الشعوب التي عبدتهم وبعضهم الآخر ملوك حكموا في أسلافهم أو مصلحون أصلحوا من شؤونهم وفي أغلب الحالات فإنّ الآلهة كانوا في الآن ذاته آباء وأجداد وملوكا ومصلحين ومرشدين.

ففي هذا السياق نعتبر أنّ الآلهة الذين عبدهم الناس يرمزون إلى آباء وأجداد الأسر الإنسانية التي عمرت الأرض في العهود الأولى من التاريخ الإنساني وشكّلت الخلايا البشرية الأولى التي انحدرت وتكوّنت منها تدريجيا الشعوب الإنسانية القائمة والمنقرضة.

فقد لاحظنا أنّ الأساطير التي روتها وحكتها الشعوب الإنسانية في القديم بشأن آلهتها تشير إلى أنّ هؤلاء الآهة هم أوّل من ظهر للوجود وأوّل من عمّر الكون بحيث أنّ الأساطير المتعلّقة بالآلهة هي أخبار وقصص تنقل وتروي كيف وأين ومتى وفي أيّ ظروف نشأ الآلهة وظهروا للوجود حتّى أنّ بعض هذه الأساطير كانت عبارة عن شجرات لأنساب الآلهة وقد دوّنها الإخباريون القدماء تحت عنوان "أنساب الآلهة" فمن ذلك أنّ الشاعر اليوناني القديم هيزيود الذي عاش في القرنين 8 و7 قبل الميلاد جمع الأساطير اليونانية المتعلقة بالآلهة اليونانيين في ديوان سماه باسم"أنساب الآلهة" ويحمل باليونانية اسم "تيوجني" وهو اسم متركب من كلمة "تيوس" التي تعني الإله باليونانية وكلمة"جني" وتحمل معاني لها صلة بالنشوء والولادة والإنجاب والأصل والمرأة والأولاد والأسرة في العديد من اللغات الإنسانية.

فالكثير من الأساطير المتعلقة بالآلهة تذكر بأنّ هؤلاء الآلهة هم أفراد أسرة واحدة أنجبهم إلهان كبيران ذكر وأنثى هما أول من ظهر للوجود فاتّصلا ببعضهما ونتج عن اتصالهما زوجان آخران من الآلهة أو مجموعة من الآلهة من الذكور والإناث ثمّ إنّ هؤلاء الآلهة الجدد من الذكور والإناث يقترنون ببعضهم وينجبون بدورهم آلهة جدد آخرين فيكثر الآلهة ويقومون بتعمير الكون فلأجل ذلك تدعى هذه الأساطير المتعلقة بنشأة الآلهة باسم أساطير الخلق والتكوين أو قصص الخلق والتكوين لأنّها تبدو في الظاهر أنّها تتحدث عن نشأة الكون وبداية الوجود بينما هي في الحقيقة أخبار قديمة تنقل وتحكي الظروف التي حفّت وأحاطت بقيام ونشأة بعض الأسر الإنسانية في العهود الأولى من التاريخ الإنساني وكانت هذه الأسر الخلايا الأولى التي انحدرت منها وتألفت منها بالتدريج الشعوب الإنسانية.

ومن هذا المنطلق فإنّ الآلهة الذين تتحدّث عنهم أساطير الخلق والتكوين هم آباء وأجداد الأسر الإنسانية التي عمرت الأرض في العهود الأولى من التاريخ الإنساني وكانت الخلايا الأولى التي انحدرت منها مختلف الشعوب الإنسانية القائمة والمنقرضة.

فقد جاء في أسطورة الخلق اليونانية حسبما رواه الشاعر اليوناني هيزيود المذكور أعلاه والبعض من الإخباريين والمؤرخين اليونانيين في القديم أنّ أوّل من ظهر للوجود هي أمّ الكلّ وسيّدة الأرض, الربّة العظيمة "جي" وظهر معها الشّبق والشّهوة الجنسيّة مجسّمة في هيأة "إروس" فحملت بالإله أورانوس إله السماء ولمّا أنجبته جعلت منه صنوا وقرينا لها واتّصلت به فأطبق عليها فأنجبت منه خمسة أولاد ذكور وخمس بنات إناث عرفوا في الأخبار والأساطير باسم الجبّارين أو التّيتان باليونانية وكان من الذكور جبتوس وأوقيانوس

وكرونوس وهو أصغرهم وكان من الإناث ريّة وتيميس وتيثيس فسخط أورانوس على أولاده الذكور فقبض عليهم واعتقلهم في مغاور تحت الأرض فحقدت عليه زوجته جي وحثّت أولادها الجبّارين على الثورة على أبيهم فخافوا من بطشه وتطوّع أصغرهم كرونوس لقتله فدفعت له أمّه منجلا حادا لتنفيذ الخطّة فكمن كرونوس لأبيه ولما جاء في الليل ليضطجع مع جي طعنه كرونوس بالمنجل وقطع له خصيتيه وعضوه التناسلي فنزل الدم السائل من الجرح على الأرض وعلى البحر فأخصبهما فنشأ من زبد البحر الذي أحدثه الربّة أفروديت إلهة الجمال وخرج من الأرض التي وقع عليها أقوام الجن والجان والهام.

ولما إندحر أورانوس أخذ ابنه كرونوس مكانه فأخرج اخوته من المغاور التي كانوا محبوسين فيها وتزوّج بأخته ريّة فأتاه أحد الكهنة وأعلمه بأنّه سيولد له ولد ذكر يكون سببا في هلاكه وزوال ملكه وجرت العادة أن يخلف الإبن الأكبر أباه عندما يموت فلمّا قتل كرونوس أباه أورانوس إجتمع بإخوته وعلى رأسهم أكبرهم وكان اسمه تيتان واتّفقوا أن يحكم كرونوس مكان أبيهم أورانوس رغم أنّه أصغرهم بشرط أن يمتنع عن إنجاب الأولاد الذكور حتّى يعود الحكم إلى من يستحقه فصار كرونوس يبتلع كلّ ولد ذكر تنجبه له زوجته ريّة فلمّا حملت ريّة بابنه الأصغر زوس الذي أصبح بعد ذلك عظيم الآلهة عند اليونانيين القدماء خافت عليه أمّه فلمّا وضعته أخذت حجرا ولفّته في خرقة أو قماطة كما يقال في تونس وأعطتها لكرونوس على أنّها المولود الجديد فابتلعها وأخفت ريّة زوس عن أنظار الناس في كهف جبلي بجزيرة كريت اليونانية وكلّفت بحراسته جماعة من الحوريات وقوما من الصالحين اسمهم القرويّين وأرضعته الحوريّة أملتي وبعضهم يقول إنّها شاة بريّة اسمها أملتي ولما كبر زوس وصلب عوده خطّط للإنتقام من أبيه كرونوس فسقاه شرابا منوّما وأرغمه

على لفظ إخوته الذين ابتلعهم كما اعتق الكثير من العبيد الذين كانوا مستعبدين من طرف أجداده ومنهم بالخصوص قوم يعرفون بأصحاب العيون الدّائريّة أو الصقالبة باليونانية وكانوا قوما مهرة في العديد من الفنون والصناعات فعلّموا زوس العديد من استعمالات النار وعلّموا إخوته بعض الفنون الأخرى فعلّموا أخا له يسمّى بوسايدون صناعة الرّماح ذات الثلاث رؤوس وعلّموا أخا له آخر يسمّى هادس فنون التنكّر.

فلمّا سمع إخوة كرونوس بما حصل ذهب في ظنّهم أنّ كرونوس تنكّر للعهد الذي قطعه على نفسه بعدم إنجاب الذكور وأنّه أنجب عمدا ولدا ذكرا ليخلفه فجمعوا شملهم وأعلنوا الحرب على زوس وإخوته وأبيهم كرونوس وكلّ من دخل في حزبهم وانضمّ إلى زوس أقوام الجن والجان والصقالبة والهام واستطاع بفضل هذا التحالف الواسع أن يهزم حزب التّيتان ويخمد نار الثورة ولمّا استتب له الوضع اقتسم زوس ملك العالم مع أخويه بوسايدون وهادس فخصّ نفسه بملك السماء والأرض وقلّد أخاه بوسايدون ملك البحار والأنهار وأعطى لأخيه هادس الممالك السفلية فغضب أقوام الجن والجان وأعلنوا على زوس وحزبه الحرب وساعدتهم أمّهم جي سيّدة الأرض التي أنجبتهم من حطام خصيتي زوجها الأول أورانوس وكاد حزب الآلهة أن ينهزم وتتصرم حباله لكنّ الكفّة مالت في نهاية الأمر لصالح الآلهة بقيادة زوس وتمكّنوا من استعادة نفوذهم وسلطانهم على الكون وساكنيه.

وتروي أسطورة الخلق والتكوين التي كان البابليون وسكان العراق في القديم عموما يحكونها عن نشأة آلهتهم وخلق الكون والإنسان أنّ أوّل من ظهر للوجود إلاهان إثنان ذكر وأنثى هما الإله بس والرّبّة يمّة ويعرفان باسم أبسو وتيامت فاتصلا ببعضهما وأنجبا حمّو وحماة ثمّ الإله إنشار إله السماء والرّبّة

كيشار ربّة الأرض وتزوّج إنشار بأخته كيشار وأنجبا الإله أنو ملك السماء. ثمّ إنّ أنو أنجب بدوره من بعض قريناته الإله أيّا إله الحكمة ويسمّى أيضا باسم أنكي وتزوّج الإله أيّا من الربّة دامكينا فأنجبت له الربّ الأعظم مردوخ كبير آلهة البابليين القدماء.

ثمّ تكاثرت الآلهة وكبرت الأسرة الإلهية وتوسّعت فتكدّر صفو الإله أبسو من جرّاء ما كان يحدثه الآلهة الصغار,أحفاده, من هرج وصياح حتّى حرم طعم النوم فاشتكى أمرهم إلى زوجته ميّة وطلب منها التدخل لكبح جماحهم مهدّدا باستعمال القوّة ضدّهم إن لزم الأمر فطيّبت الربّة تيامت خاطره وذكّرته بأنّهم أبناؤه ومن واجبه مراعاتهم وتحمّل عنائهم لكنّه لم يقتنع وأصرّ على موقفه وشجعه في قراره عونه الإله ممّو وسمع أحفاد الإله أبسو بسخطه عليهم وعزمه على مجابهتهم فتصدّى له الإله أيّا وقتله ثمّ قبض على عونه ممّو وحبسه وأخذ الإله أيّا مكان الإله أبسو فتأثر الآلهة الكبار بما حصل لأبيهم الإله أبسو واتصلوا بأمّهم الربّة ميّة وعابوها على ضعفها أمام الآلهة الصغار وتركم يقتلون جدّهم أبسو دون الدفاع عليه وأوغلوا صدرها وطلبوا منها الانتقام من الآلهة الصغار.

فحشدت جيشا عظيما من الأعوان والجنود وجعلت على رأسه الإله كنغو بعد ان تزوّجته وأعلنت الحرب على الآلهة الصغار الذين كان يتزعّمهم الإله إنشار فاستدعى الإله إنشار ابنه أنّو, ملك السماء وطلب منه حشد جيش جرّار والتصدّي لجدّتهم تيامت وجيشها بقيادة زوجها كنغو فحشد الإله أنو عسكرا جرّارا وتصدّى لتيامت لكنّه انهزم وفرّ بعسكره فزحفت تيامت وجيشها العظيم على معقل الآلهة الصغار فتصدّى لها الإله أيّا بطلب من إنشار لكنّ الإله أيا اندحر هو الآخر فاتّفق الآلهة الصغار على تقليد الإله مردوخ قيادة عسكرهم فتسلّح مردوخ وتقدّم من الربّة تيامت التي كانت على رأس جيشها مع زوجها

كنغو ونشبت معركة عنيفة أبلى فيها مردوخ البلاء الحسن وصمد في وجه تيامت وتبارز معها فغلبها ورمى عليها شبكته فشلّ حركتها ثمّ قطعها نصفين فصنع من النصف الأول السماء ومن النّصف الآخر الأرض واعتقل الإله كنغو وأعوانه ورمى بهم في غياهب السجون فشكره الآلهة على صنيعه ورجعت المياه إلى مجاريها داخل الأسرة الإلهية واستعان الآلهة على تعمير الكون ثمّ فكّروا في خلق الإنسان ليقوم بخدمتهم ويريحهم من عناء العمل حيث كانوا يعملون ويكدّون لتحصيل رزقهم فطلبوا من الربّة أرورو أن تخلق الإنسان من طين لازب فذبحوا الإله كنغو قائد جيوش تيامت لتعجن الربّة أرورو بدمه الطين الضروري لخلق الإنسان وبهذه الصورة خلق الآلهة الإنسان من طين معجون بدم البعض منهم وسخّروه لخدمتهم.

وعلى هذا الأساس فإنّ الكون الذي تتحدّث هذه الأساطير عن خلقه وتعميره يرمز في حقيقة الحال إلى الأسر والأحياء البشريّة التي قام بتأسيسها في بداية التاريخ الإنسانيّ بعض الأشخاص من البشر فظلّ الناس يعبدونهم ويعظّمونهم ويجلونهم لأجل ذلك تحت الأسماء التي كانت تطلق عليهم عندما كانوا أحياء يرزقون وهي"إله" و"رب" و"حد" و"بعل" وغيرها من الأسماء التي تعادلها في اللغات الإنسانية مثل اسم"تيوس" في اليونانية و"ديوس" في اللاتينية و"قوط" في الألمانية و"قود" في الأنقليزيّة و"جد" و"ود" في العربيّة.

فالآلهة هم أشخاص من البشر كانوا يحملون اسم "إله" والأسماء التي تعادله في اللغات الإنسانية تعبيرا عن بعض الصفات البشرية التي كانت تميّزهم ومن بينها بالخصوص العظمة والقوّة البدنيّة والقيادة والزجر والنّهر والتحذير والتنبيه والتخويف والحماية ومن هذا المنطلق نعتبر أنّ اسم "إله" الذي يفيد معنى الربّ في العربية واللغات القريبة منها مأخوذ من الصوت "إلت" الذي مازال

الإنسان يستعمله إلى اليوم للزجر والنهر والتنبيه, فقد لاحظنا أنّ الناس في الجنوب التونسي مازالوا إلى اليوم يستعملون الصوت "إلت" لزجر الحمير وحثّهم على السير ونعتبر أنّ الصوت "إل" الذي يدخل في تركيب الكلمات والألفاظ والمفردات في مختلف اللغات الإنسانية هو الصوت "إلت" الذي وصفناه كما أنّ الصوت "إلت" يستعمل في صيغ مختلفة في العديد من اللغات الإنسانية بصفة لفظة قائمة الذات للتعبير عن معاني القوّة والعظمة والتميّز والقيادة والتسيير باعتبار أنّه كان في الأصل صوتا طبيعيا يستعمله قادة الجماعات البشرية وكبارهم وعظمائهم للزّجر والنّهر والتنبيه والتحذير والتخويف والتسيير والقيادة مثلما ظلّ يستعمل إلى الآن من طرف سكان الجنوب التونسي لكل هذه الأغراض ولزجر الحمير وحثّهم على السير بالذات.

ففي هذا السّياق تُستعمل كلمة "ألت" في الألمانيّة في معنى الشيخ والمقدّم كما تستعمل في الفرنسيّة بصفة لقب في معنى السّيد والملك وكذلك في معنى النّخبة والصّفوة من النّاس وتستعمل في الأنقليزيّة في صيغة "أولد" في معنى الشّيخ والمقدّم وتفيد كلمة شيخ في العربيّة معنى المقدّم والقائد والأمير كما في عبارة "شيخ القبيلة" بمعنى رئيسها وأميرها والمتوكل عليها ومقدمها.

كما تستعمل كلمة "هالت" و"ألت" في الألمانيّة وفي العديد من اللّغات الأخرى في معنى التّوقــّــف والأمر بالتّوقــّــف.

وتستعمل كلمة "ألّة" و"لّة" في تونس وفي بلدان المغرب العربيّ عموما في معنى السّيدة والشريفة وكان الكنعانيّون سكان بلاد الشّام في القديم, يعبدون إلها اسمه "أل" ويقولون عنه إنّه أب الآلهة أجمعين, كما كان العرب في القديم يعبدون ربّةً اسمها "اللاّت" إلى جانب الإلهتين المعروفتين باسم عُزّى ومناة

وكان العرب يقولون عن اللاّت وعزّى ومناة إنّهن بنات اللّه وإنّهن الغرانيق العلى وأنّ شفاعتهن تُرتجى.

وتستعمل كلمة "آل" في العربيّة في معنى الأهل والأولاد والعائلة والأسرة باعتبار أنّ الأسرة تابعة لرئيسها ويسمّى الرئيس باسم "والي" في العربيّة وهو اسم مشتّق من الصوت "إلت" وكذلك الشأن بالنسبة لاسم "ولي" واسم "مولى" فإنّهما مشتقان من الصوت "إلت", وسبق أن أشرنا أنّ اسم "أهل" هو صيغة لفظية لاسم"آل".

فقد ذكرنا أنّ الصوت "ألت" هو صوت طبيعي يطلقه الإنسان بصورة غريزية في حالة الغضب والإنفعال وما شابهها للزجر والنهر والتخويف والطّرد والتحذير فأطلق على الزجر وعلى القائمين بمهمّة الزجر في المجتمعات الإنسانية وهم الأسياد والرّؤساء كما أطلق على الأسرة والأهل والآل لأنّهم كانوا تابعين لرئيس الأسرة وكانوا تحت حمايته وكان يدافع عنهم ويزجر ويطرد دونهم الأعداء.

كما أنّ اسم "رب" الذي يعادل اسم "إله" في العربية هو اسم مركب من الصوت "إر" والصوت "أب" وهما صوتان يعادلان تماما الصوت "ألت" وسبق أن حللنا أصلهما ومعناهما, ويسمّى الأب في الفرنسية باسم "بر" الذي هو مقلوب "رب".

ويطلق على الربّ والإله في اللغة اليونانية واللاتينية اسم"تيوس" و"ديوس" ودخل هذان الاسمان في صيغ متعددة في اللغات الأوروبية المعاصرة كالفرنسية حيث يطلق على الإله اسم"ديو" في الفرنسية, ويعتبر اسم "ديوس" و"تيوس" صيغتين لفظيتين لاسم "إدّا" و"دا" الذي يستعمل في العديد من اللغات في معنى الأب كالإنجليزية, وتتخذ كلمة "دا" صيغة "ود" وهو اسم أحد الآلهة الذين

عبدهم العرب في القديم كما أنّ كلمة "ود" تعني الحب والغرام والحنو والتزاوج والاقتران في العربية وتطلق أيضا في بعض اللهجات العربية في معنى الولد والأولاد.

ويعود أصل كلمة "دا" و"إدّا" إلى الصوت "إد" ويتخذ أيضا صيغة "إت" ومازال إلى اليوم يستعمل في صيغ متعددة للزجر والنهر والتنبيه والتحذير بصفة فردية أو مركب مع أصوات أخرى مثيلة.

فقد لاحظنا أنّ الناس في الجنوب التونسي يستعملون كلمة"تيتي" لدعوة الدجاج إلى التجمع حول كدس الحبوب المعدّ لتغذيتها وتستعمل كلمة "تيتي" في البربرية في معنى الضرب في حين تستعمل كلمة "ددي" في البربرية في معنى السير والذّهاب ويستعملها السكان في تونس إلى اليوم في معنى الوجع والألم بما يدل على أنّ كلمة"تيتي" وكلمة"ديدي" هما في الأصل كلمة واحدة وتتركبان من تكرار الصوت "إد" أو"إت" الذي هو صوت طبيعي يطلق للزجر والنهر والتخويف والتحذير والتنبيه وكانت وظائف الزجر والنهر والتخويف والتنبيه موكولة بعهدة الكبار والرؤساء فارتبط الصوت "دا" بفكرة العظماء والكبار واستعمل في معنى العظماء والكبار في صيغة "تيس" أو "تيوس" و"ديوس" و"ديو" حيث تستعمل كلمة "تيس" إلى الآن في العربية في معنى فحل الماعز ويتميز التيس بعظمته بالنسبة لبقية القطيع وكان هذا الاسم يطلق أيضا على الفحل داخل الجماعة البشرية ثمّ أطلق على الفحل بصفة عامة.

وعلى هذا الأساس فإنّ الآلهة كانوا رؤساء وعظماء وأرباب وقادة الأسر الإنسانية التي عمرت الأرض في العهود الأولى من التاريخ الإنساني فقاموا بتأسيس هذه الأسر وقد كانت الأسرة تسمّى باسم "جن" و"جان" و"جون"

و"كن" و"كان" و"كون" و"خن" و"خون" و"خان" و"قن" باعتبار تعادل الصوت "جا" والصوت "كا" والصوت "خا" والصوت "قا".

فمازالت كلمة "جنّة" تستعمل إلى اليوم في العديد من اللغات الإنسانية في معنى المرأة والأسرة كما أنّ كلمة "كنّة" تستعمل في معنى المرأة في العربية وفي العديد من المجتمعات العربية وغيرها بحيث أنّ لفظة "كون" هي صيغة لفظية للفظة "كان" و"كنة" أو "كانة" وتستعمل كلمة "خان" في معنى المنزل والفندق والنزل في حين تستعمل كلمة "قن" في معنى بيت بعض الحيوانات في العربية.

فقد كانت كلمة "كون" تفيد في الأصل معنى الأسرة والمنزل ثمّ توسّع نطاق معناها حتّى عمّ الوجود بأسره مثل كلمة"دنيا" التي كانت تطلق في الأصل على المرأة كما هي الحال إلى اليوم في الإيطالية والإسبانية ثمّ توسّع معناها وأصبحت تطلق على الوجود بأسره والعالم في سياق اللغة العربية.

كما أوضحنا أنّ الإنسان يرمز إلى فئة الخدم والتابعين والموالي والمستعبدين في العهود الأولى من التاريخ الإنساني مقارنة بالآلهة الذين يرمزون إلى طبقة العظام والكبار والأسياد والحكام والآباء والأجداد.

فقد كانت الإنسانية في بداية التاريخ الإنساني تعيش في شكل أسر وعائلات مستقلة عن بعضها وكانت كلّ أسرة تخضع بصفة مطلقة إلى الأب الذي هو أيضا الزوج والبعل والفحل والكبير والعظيم والقائد والحامي والسيد ومازال السكان في الجنوب التونسي إلى اليوم يطلقون اسم "سيد" على الأب بحيث أنّ الإبن في الجنوب التونسي ينادي أباه بعبارة "يا سيدي" في حين يقول غيره من سكان تونس في هذه الحال "يا بابا" و "يا بويا" و"يا أبي"، كما أنّ الأخ

الأصغر في الأسرة في الجنوب التونسي يدعو أخاه الأكبر باسم"سيدي" أيضا بحيث أنّ الكبار كانوا يمثلون طبقة الأسياد بالنسبة لمن هم دونهم في السنّ.

وكان النساء والإناث عموما يتبعن الأزواج بحيث أنّ النساء يمثّلن تاريخيا أوّل فئة للإنسان في معنى البشر المدجنين والتابعين والعائشين في الإطار الأسري بحيث أنّ أوّل فئة مثّلت الإنسان في المعنى المذكور هي فئة النساء والأولاد الصغار ثمّ شملت المستعبدين والمنتمين للأسرة من مختلف الأصناف كالأصهار والعبيد والخدم.

فكان النساء والأولاد الصّغار هم أوّل الأنس وقد وجدنا أنّ كلمة"إنس" تطلق على الملائكة في بعض اللغات الإنسانية كالفرنسية في صيغة "أنج" وعلى هذا الأساس فإنّ الملائكة كانوا يرمزون إلى طبقة النساء والأولاد الصغار في الأسر الإنسانية التي عمّرت الأرض في العهود الأولى من التاريخ الإنساني حيث كان النساء والأولاد الصغار ملكا مشاعا للكبار ثمّ إنّ كلمة "إنس" أطلقت على الأسرة والأفراد التابعين للأسرة باعتبارهم بشر تعرّضوا إلى التدجين وأصبحوا أليفين ومطيعين وأهليين وتابعين لمن قام بتدجينهم وتربيتهم.

وأشرنا إلى أنّ العرب في القديم كانوا يقولون إنّ الملائكة هم بنات الله وأنّ أمّهاتهنّ من سرايا الجن,كما أنّ الشعوب الاسكندنافية بأوروبا الشمالية كانوا يعتقدون في نوع من الكائنات الغيبية الشبيهة بالملائكة ويسمّونهم باسم"إلف" وهو اسم يعادل معنويا اسم"أنس" حيث أنّ كلمة"إلف" تفيد في اللغة العربية معنى الألفة والأنس.

كما أنّ السكان في تونس مازالوا يسمون إلى اليوم عقد الزواج بين الرجل والمرأة باسم "إملاك" بحيث أنّ الزوجة هي ملاك الزوج بمعنى ملكه ولاسيما أنّ العادة إقتضت أن يتولى الزوج شراء زوجته بنصيب من المال

والمتاع يسمّى باسم "مهر" في المجتمعات العربية ويعتبر اسم "مهر" صيغة لفظية لاسم "مر" الذي اشتقت منه لفظة "مرء" ولفظة "مرأة" اللتان تعنيان على التوالي الرجل والمرأة في سياق اللغة العربية والزوج والزوجة في سياق اللغة الفرنسية في صيغة "ماري" و"مارية".

أما أقوام الجن والجان فكانوا يرمزون إلى الأبناء والشبان داخل الأسر الإنسانية في بداية التاريخ الإنساني حيث أنّ لفظة "جن" و"جان" مازالت تستعمل إلى اليوم في معنى الأبناء والشبان في العربية في صيغة "جنين" و"جن" كما تستعمل في الفرنسية في معنى الشبان في صبغة "جن" و"جان" ثمّ أطلقت لفظة "جن" على المرأة والأسرة عموما في صيغة "جنّة" وكذلك في صيغة "كنة" بالنظر لتعادل الصوت"جا" والصوت"كا".

وتستعمل كلمة "كنة" في المجتمعات العربية في معنى زوجة الابن بحيث أنّ اسم "كن" الذي هو مذكر "كنّة" يفيد معنى الابن والزوج الصغير أو الزوج الجديد الذي قام بتأسيس أسرة خاصة إلى جانب أسرته الأصلية أو أسرة أبيه وأمه, ثمّ إنّ كلمة "جن" و"جنة" أطلقت على الأسرة والعائلة والآل والأهل بصفة عامة, وسبق أن حللنا الأصل الحقيقي لكلمة"جن" وأشرنا إلى أنّها لفظة تستعمل في الأصل للزجر على غرار لفظة"ألت" وهي تتركب من الصوت "جه" الذي مازال يستعمل إلى اليوم لزجر السباع ومن الصوت "إن" وهو صوت طبيعي يطلقه الإنسان بصورة غريزية في حالة الاضطراب والحيرة والألم كالأنين أثناء المرض بحيث أنّه صوت زجري مثل الصوت "أح" الذي يطلقه الإنسان عند الشعور بالألم وعلى هذا الأساس فإنّ اسم"جن" يعادل اسم "آل".

وقد روت الشعوب الإنسانية في القديم الكثير من الأساطير التي تنقل بأنّ الجنّ والجان ظهروا مع الآلهة والملائكة وتشير إلى وقوع صراعات وحروب

دامية بين الآلهة والجن إنتهت بانهزام الجن بعد تحقيقهم لبعض الانتصارات الساحقة على الآلهة.

ففي هذا السياق كان العرب في الجزيرة العربية والكثير من الشعوب الأخرى القريبة منهم جغرافيا وثقافيا يتداولون في القديم جملة من الأخبار والأساطير في هذا المعنى تناقل أصداءها الكتاب والمؤرخون العرب بعد الإسلام في مصنفاتهم باعتبارها أخبار منقولة تصف مبدأ الكون والخليقة وظروف ظهور الإنسان ويمكن القول بأنّ هذه الأخبار والأساطير هي خلاصة لأسطورة الخلق والتكوين التي كان أسلاف العرب والشعوب القريبة منهم لغويا وثقافيا وجغرافيا يروونها في القديم.

وتمثل قصّة جنّة الخلد والفردوس التي شرحنا معناها الحقيقي في تحاليلنا المتقدمة خلاصة لهذه الأسطورة القديمة التي كان أسلاف العرب والشعوب القريبة منهم لغويا وثقافيا وجغرافيا يروونها بخصوص مبدأ الكون وظهور الإنسان على غرار أسطورة الخلق والتكوين البابلية وأسطورة الخلق والتكوين اليونانية, وقد أوردنا ملخصا للأسطورتين في تحاليلنا السابقة. فقد جاء في قصة جنة الخلد والفردوس حسبما نقله المؤرخون العرب والمسلمون وما ظلّ الناس يتداولونه إلى اليوم بصورة شفاهية أنّ أقواما وطوائف من الكائنات الغيبية إسمهم الجن والجان كانوا يسكنون الأرض قبل ظهور الإنسان الأوّل إلى الوجود وكان هؤلاء الجن والجان يقيمون في الأرض تحت رعاية الله الذي كان عرشه في السماء محاطا بالملائكة وهم أقرب الخلق إليه شأنهم في الوجود عبادته والإخلاص إليه وتنفيذ ما يأمرهم به.

فانحرف أقوام الجن والجان وساءت سيرتهم وكثر فسادهم في الأرض وسفكوا الدّماء وبغى بعضهم على بعض فبعث الله إليهم قبيلا من الملائكة

ليطهّروا الأرض من شرورهم فأطبق الملائكة على الجنّ من كلّ جانب وتمكّنوا منهم وقتلوا منهم أعدادا كبيرة وفرّ الباقون واعتصموا بقمم الجبال في الكهوف وبجزائر البحار.

ووجد الملائكة فرخا صغيرا من الجن فحملوه معهم إلى السماء وتربّى ذلك الجنيّ معهم على عبادة الله وتنفيذ أوامره واجتهد في عبادة الله والإخلاص له حتّى أصبح من المقربين فدخله عجب بنفسه ثمّ شاء الله أن يخلق الإنسان فخلقه من طين صلصل كالفخار ونفخ فيه من روحه فصار بشرا سويا فأمر الملائكة أن يسجدوا للإنسان فسجد الملائكة كلّهم أجمعين إلاّ ذلك الجنيّ فإنّه امتنع من السجود للإنسان وأبى واستكبر مدّعيا أنّه خير من الإنسان لأنّه مخلوق من نار في حين أنّ الإنسان مخلوق من طين فغضب عليه الله وأطرده من السماء وأصبح من العصاة وسمّي باسم العاصي والشيطان وإبليس وحقّت عليه لعنة الله وكان الله خلق الجنّة إلى جانب السماء والأرض وهي جنّات عدن تجري من تحتها الأنهار أعدّت للمؤمنين من عباده ينعمون فيها خالدين أبد الآبدين فوضع فيها الإنسان ليعيش فيها وكان اسم هذا الإنسان الأول آدم ثمّ خلق له الله زوجة لتؤنسه في وحدته عرفت باسم حوّاء وآف وإيفا وجعل الله في جنته شجرة علم الخير والشر وشجرة الحياة ونهى الإنسان وزوجته عن الأكل من ثمار هذين الشجرتين وخوّل لهما الأكل من ثمار كلّ أشجار الجنّة الأخرى.

وكانت الحية أجمل الكائنات التي كانت موجودة فكانت تدخل جنة الخلد التي تدعى أيضا باسم جنة الفردوس والنعيم فاندسّ الشيطان في إثرها ودخل خلسة إلى الجنة وتقدّم من حواء وغرّر بها وأغواها على الأكل من ثمار شجرة علم الخير والشر وقال لها إنّ الله نهاك وزوجك عن الأكل منها كي لا تصبحان من الخالدين والعالمين مثل الآلهة فصدّقته وأكلت من ثمار الشجرة فوجدتها لذيذة

وناولت زوجها فأكل منها هو الآخر وأبصر آدم وحواء حالهما وكانا عريانين فعرفا أنّهما عريانين فخافا بطش الله فاختبآ بين الأشجار حتّى لا يراهما الله على تلك الحالة ولكنّ الله علم بإثمهما فأطردهما من جنّة الخلد والفردوس حتّى لا يأكلا من ثمار شجرة الحياة فيصبحا من الخالدين ونزلا إلى الأرض وكدّا في تعميرها بعرق الجبين بعد أن كانا يرفلان في نعيم الجنة الدائم ووضع الله حرّاسا من ملائكته على الجنة متقلدين سيوفا من اللهب لمنع الدخول إليها.

كما أشارت أساطير الخلق والتكوين اليونانية أنّ أقواما تسميهم هذه الأساطير حرفيا باسم"الجن" عمّروا الأرض في بدايات الوجود إلى جانب الآلهة الذين كانوا يسكنون السماء وتذكر هذه الأساطير اليونانية أنّ هؤلاء الجن قوم أنجبتهم السيدة جي ربّة الأرض فظلّت تعطف عليهم وتساعدهم وصادف أنّ الآلهة الصغار ثاروا بقيادة الإله زوس على الآلهة الكبار بقيادة تيتان فوقف الجن إلى جانب الإله زوس وأعانوه في حربه التي انتهت بانتصار الآلهة الصغار فاقتسم زوس ملك العالم مع أخويه بوسايدون وهادس ونسي أو رفض أن يكافئ الجنّ على مساعدتهم له فغضب أقوام الجن وأعلنوا الحرب على الإله زوس وأتباعه وتولّى قيادة الجن في هذه الحرب زعيمهم العفريت الأكبر تيفون بن الأرض.

فهذه الحروب والنزاعات التي تذكر الأساطير القديمة إنّها وقعت في بداية الوجود بين الآلهة والجن ترمز إلى ما يمكن أن نسميه بالصراع الطبيعي بين الأجيال المتعاقبة من البشر والمتمثل في الصراع بين الكبار الذين تمكنوا بشتى الوسائل من بسط نفوذهم واحتكار المنافع الموجودة لصالحهم الخاص والشبان الذين يصبون ويطمحون بدورهم إلى أخذ نصيبهم من تلك المنافع بشتّى الوسائل.

فقد وجدنا أنّ لفظة"جن" و"جان" تطلق في اللغة الفرنسية على الشبان والأولاد كما أنّها تفيد أيضا داخل هذه اللغة معنى الضيق والإزعاج وتشويش الخاطر والقلق.

ولاحظنا أنّ الناس في تونس يسمون الأولاد والأبناء باسم "كبد" و"كبدة" بحيث أنّ الأمّ في تونس غالبا ما تقول لإبنها "يا كبدي" ولأبنائها "يا أكبادي" وخلافا لما قد يتبادر إلى الذهن فإنّ كلمة "كبد" في هذه العبارة ليس لها علاقة بعضو الجسم المسمّى باسم"كبد" وإنّما تفيد معنى المكابدة والمشقّة والشّقاء والعذاب الذي يتسبب فيه الأبناء والأولاد للآباء والكبار وهي من هذه الناحية تعادل تماما لفظة "جن" و"جان" في الفرنسية وعلى هذا الأساس يقول السكان في تونس عن الشخص الذي يحب شخصا آخر نتيجة الحنوّ عليه والعناية به ومعاشرته "إنّه ربّى عليه الكبد" كما أنّ كلمة "ذر" التي تفيد معنى الأبناء في سياق اللغة العربية يمكن أن تتخذ صيغة "ضر" بواسطة تفخيم الصوت "ذا" وتفيد كلمة "ضر" في العربية الشر والمضرّة.

فقد جرت العادة منذ القديم أن يغادر الشبان والأولاد الذكور عموما في سنّ البلوغ أسرهم الّتي ولدوا وترعرعوا فيها ويقيمون بجوارها في بعض الأماكن المحيطة بها في شبه حريّة تامّة غير أنّ الحاجة إلى إشباع رغباتهم الجنسية كانت تدفعهم إلى الإحتكاك بالأسر القائمة بجوارهم بصورة أو بأخرى فكانوا يلجؤون إلى اختطاف البنات والصبايا المنتميات إلى هذه الأسر واصطيادهنّ فكانوا نتيجة لذلك يدخلون في صراعات ونزاعات متفاوتة الخطورة مع آباء ورؤساء تلك الأسر.

ثمّ إنّ الإنسان تعلّم إقامة العلاقات الوديّة عن طريق التقريد والتدجين والترويض وإسداء الخدمات وتبادلها فكان الشبان الذكور ينتسبون إلى بعض

الأسر القائمة بجوارهم وهي في الكثير من الحالات أسرهم الأصلية بصفة تابعين وخدم فيسدون لتلك الأسر ولأربابها بصفة خاصة شتّى الخدمات مقابل التمتّع والاقتران ببعض الإناث فاقتربت بذلك دائرة الشبان الذكور من جديد من دائرة الأب وحريمه وأصبح الأولاد والأبناء الذكور يقيمون بصفة مستمرة بجوار أسرهم الأصلية في دائرة خاصة بهم تحيط بالدائرة الخاصة بالأب وحريمه مثلما وصفناه في تحاليلنا المتقدمة.

فقد وجدنا في هذا الإطار أنّ الأولاد والأبناء يسمّون باسم"بر" بالرّاء في آخر الكلمة في سياق اللغة العربية وتطلق كلمة"بر" في اللغة العربية واللهجات المشتقة منها على كل ما هو خارج الدّار والحيّ والمنزل ومنها جاءت كلمة"براري" التي تطلق في سياق اللغة العربية وكذلك في اللغة الفرنسية على الحقول المحيطة بالقرية كما تستعمل كلمة"برّي" المأخوذة من كلمة "بر" في العربية واللهجات المشتقة منها لوصف الحيوانات المتوحشة وتقابلها كلمة"أهلي" و"إنسي" التي تفيد معنى المدجّن والمقرّد والمروّض وهي صفة مأخوذة من كلمة "أهل" و"أنس" التي اشتقت منها كلمة "نساء" وكلمة "إنسان" وتطلق كلمة"برّي" أيضا في تونس على الشخص المنكمش على نفسه والذي يفضل العزلة ويتحاشى مخالطة الناس كالحيوانات البريّة وتسمّى أيضا الحيوانات الجالية.

فقد كان الأبناء الذكور والشبان بصفة عامة يجلون عن أسرهم ويغادرونها ويصبحون من الجالين والبريّين مثل الحيوانات الجالية والبريّة جريا على بعض العادات الموروثة التي كانت تجبر هؤلاء الأبناء الذكور على مغادرة أسرهم للبحث عن زوجات وقرينات لدى الأسر البشرية الأخرى باعتبار أنّ نساء وإناث أسرهم محرّمات عليهم لأنّهنّ أخوات وأمهات وزوجات تابعات لآبائهم.

وعلى هذا الأساس يمكن أن نقول إنّ كلمة "جن" و"جني" تعادل كلمة "بر" و"بري" ومن هذا المنطلق فإنّ الفرق بين الجن والإنس ليس فرقا في الجوهر وإنّما فرق في الوضع الاجتماعي حيث أنّ الجن هم في الأصل مثل الإنس طائفة من البشر, لكنّ الجن يرمزون إلى البشر المتوحشين والبربيين الذين يعيشون خارج الأطر الأسرية بينما يرمز الإنس إلى البشر المدجنين والعائشين داخل الأطر الأسرية.

وقد ظلّت كلمة "بربر" المتمثلة في ترديد لفظة "بر" مرّتين تستعمل في العديد من اللغات وعند العديد من المجتمعات في معنى الشعوب والبشر المتوحّشين ومازال المصريون يستعملونها إلى اليوم في لغتهم الدّارجة في هذا المعنى.

كما أنّ الناس في تونس مازالوا إلى اليوم يستعملون كلمة "جن" و"جني" لوصف الولد المزعج والعنيد ويستعملون أيضا كلمة"شيطان" لوصف الولد المزعج.

كما وجدنا في كتب التراث العربي وفي القواميس العربية أنّ الجن كانوا يحملون العديد من الألقاب والأسماء من بينها اسم "أزب" و"زب" ويطلق اسم "زب" في اللهجة التونسية على ذكر الرجل وتعتبر كلمة "أزب" و"زب" صيغة لفظية لكلمة "شاب" و"أعزب" ويسمّى الشاب الأعزب في تونس باسم "عزري" وهي صيغة لفظية لكلمة "أزر" و"زر" التي تفيد معنى الأبناء والأولاد وتنطق في اللغة العربية العامة في صيغة "ذر" بالذال.

ومازال السكان في تونس وفي غيرها من البلدان العربية يتحاشون استعمال كلمة "زب" والكلمات الأخرى المعادلة لها في حديثهم العادي ويشبه

تحاشي استعمال كلمة "زب" في الحديث العادي الامتناع عن استعمال كلمة "جن" و"صيص" و"سيسي" مثلما أشرنا إليه وشرحناه في تحاليلنا المتقدمة.

فهي كلمات تحمل معنى الشر والضرر والأذى فيتفادى الناس استعمالها ويعوضونها بالكلمات التي يساعد إطلاقها على إبعادها وإبعاد شرها وأذاها مثل كلمة "كس" و"بس" و"مس" و"كس بس" و"كس مس" و"باسم الله" وقد لاحظنا في هذا السياق أنّ كلمة "كس" التي تستعمل لإبعاد الشرّ تطلق على فرج المرأة في المجتمعات العربية فيتفادى الناس استعمالها هي الأخرى في بعض الحالات وخاصة في المجتمعات العربية التي تستعمل فيها بصفة مطلقة في معنى فرج المرأة حيث أشرنا إلى أنّ الكلمة الواحدة من الكلام الإنساني تتخذ في أغلب الحالات معاني عديدة ومرتبطة ببعضها غير أنّ كلّ شعب وكلّ مجتمع لأسباب عدّة يخصّص استعمالها لمعنى معلوم من هذه المعاني فلأجل ذلك تستعمل كلمة "كس" في تونس لإبعاد القطط والكلاب وتستعمل في اللغة الأنقليزيّة في معنى التقبيل في حين تستعمل في اللغة العربية العامة وفي بعض اللهجات الدارجة المتفرّعة عنها في معنى فرج المرأة.

فهي كلمة واحدة اتخذت كل هذه المعاني التي هي مرتبطة ببعضها حيث أنّ التقبيل هو جزء من عملية التقريد والنكاح التي تتم بواسطة الذكر والفرج, ثمّ إنّ الكس يمثل المرأة والأسرة والعائلة والأولاد عموما وتبعا لذلك فهو محل تحريم لغير المالك لتلك المرأة والأسرة والأولاد ويستوجب الذود والدفاع عنه وقد كانت كلمة "كس" من العبارات التي كان يرددها البشر في القديم لإبعاد الشر والأعداء والغرباء والمتطفلين عموما وتتركب من الصوت "أخ" والصوت "إس" الذين شرحنا أصلهما واستعمالاتهما الطبيعية في تحاليلنا المتقدمة, وعلى هذا الأساس أصبحت المرأة "كس" لأنّها مصدر لإطلاق الصوت "كس" وليس لأنّها

"كس" في حدّ ذاتها بمعنى شرّ ومضرّة, فباعتبارها ملك خاص لزوجها فهي مصدر شرّ ومضرّة لأنّ من يحاول المسّ منها يتعرّض لبطش زوجها و"كسّه" بمعنى تصدّيه للمعتدي بواسطة إطلاق أصوت الزجر والنهر والتخويف ومنها الصوت "أخ" و"أس".

وتستعمل كلمة "زوبية" في العربية وفي بعض اللغات الأخرى في معنى الحفرة التي يحفرها الناس لاصطياد الحيوانات الكبيرة وكانت تستعمل قديما لاصطياد البشر ونعتبر أنّ كلمة "زوبية" مأخوذة من اسم "زب" الذي هو بدوره صيغة لفظية لاسم "شاب" و"أعزب" و"سائب" أيضا, فقد كان العزّاب يستعملون الزوبية لاصطياد البنات كما كانوا بدورهم محلّ اصطياد بواسطة الزوبيات باعتبار أعمالهم وأفعالهم.

كما وجدنا أنّ كلمة "جنا" تستعمل في بعض اللهجات العربية الدّارجة في العراق في معنى العصا وهي صيغة لفظية لكلمة"قنا" و"قناة" التي تفيد في العربية معنى العصا بحيث يمكن القول بأنّ أقوام الجن اقترنوا بمفهوم العصيان والثورة والاحتجاج والخروج باعتبار أنّ كلمة"عصا" و"عصيان" تنتميان إلى جذر واحد مثلما يدل عليه القول المشهور"العصا لمن عصى" وقد أشرنا إلى الطبيعة الحقيقية لهذا العصيان وأنّه من باب الصراع الطبيعي بين الكبار والصغار من اجل التوزيع العادل للمنافع.

كما أنّ كلمة "جن" تستعمل إلى اليوم في معاني لها صلة بالركوع والسجود في بعض اللغات الإنسانية كالفرنسية على غرار الركوع والسجود أمام الملوك والأسياد والتماثيل المقدسة.

وعلى هذا الأساس يمكن أن نقول بأنّ الأبناء والشبان الذكور الذين يرمز إليهم أقوام الجن كانوا في بداية الأمر طائفة واحدة من الشبان يعيشون أحرارا

من كل قيد أسري بجوار أسرهم التي غادروها طوعا أو كرها ثمّ إنّ البعض منهم انضمّ إلى تلك الأسر بصفة خدم وتابعين بفعل التقريد والتدجين والاستعباد واصبح من فئة الإنس والملائكة بينما ظلّ البعض الآخر يعيش حرا على الطريقة القديمة.

فقد أشارت الأساطير العربية والشرقية المتعلقة بجنة الخلد والفردوس والإنسان الأول إلى امتناع الشيطان عن السجود والركوع أمام الإنسان الأول مثلما أمره بذلك الرب فعصا أمره واستكبر فطرده الرب من حضرته بينما استجاب الملائكة إلى أمر ربهم وسجدوا لآدم الإنسان الأول.

فقد لاحظنا أنّ الجن الطيبين منهم والأشرار يسمون باسم "ديمون" في العديد من اللغات الأوروبية نقلا عن اليونانية ونعتبر أنّ اسم "ديمون" هو صيغة لفظية لاسم"آدم" بحيث أنّ أقوام الجن والملائكة والإنسان والشياطين يرمزون إلى الأصناف والفئات والطوائف التي كانت تتألف منها الجماعات البشرية في بداية التاريخ الإنساني.

فكانت هناك ثلاث طبقات رئيسية وهي طبقة الأسياد التي يرمز إليها الآلهة وطبقة النساء والأولاد الصغار والخدم والتابعين والمستعبدين العائشين داخل الأسر ويرمز إليها الإنس والملائكة أمّا الطبقة الثالثة فتشمل الشبان والأولاد الذكور الأحرار العائشين خارج الأطر الأسرية وترمز إليها أقوام الجن والبن والحن والجان والخان.

وقد أشرنا إلى أنّ السماء والأرض يرمزان في حقيقة الحال إلى التقسيمات التي شهدتها الأحياء البشرية في بداية التاريخ الإنساني بحسب الإنتماءات الفئوية والطبقية.

فالسماء ترمز إلى القسم أو الدائرة المخصّصة للأسياد وحريمهم والتابعين لهم بينما ترمز الأرض إلى القسم والدائرة المخصّصة للأبناء والأولاد وتشمل المجال المحيط بالأحياء البشرية والأسر المقيمة فيها.

فقد ذكرنا أنّ السماء تحمل اسم "أجنّة" في بعض اللهجات البربرية وتفيد كلمة "جنة" المرأة والأسرة والعائلة في العديد من اللغات الإنسانية كما أنّ كلمة سماء تفيد في العربية معنى الرفعة والسموّ التي هي سمة من سمات السيادة وتستعمل أيضا في سياق اللغة الفرنسية في معنى القمة كقمة الجبل في صيغة"سيم" و"سومي".

ومن ناحية أخرى تعتبر كلمة"سماء" صيغة لفظية لكلمة"سمة" وأشرنا إلى أنّ التقريد والتدجين والترويض يشمل الوسم والوشم الذي يتمثل في وضع سمة السيادة والتملك بواسطة الأختام المعدّة للغرض على الممتلكات بكل أنواعها من أشخاص وحيوانات ومتاع بحيث أنّ السماء ترمز في الأساطير القديمة إلى مجموعات الأفراد المقردين والعائشين في إطار الأسرة تحت قيادة سيد تلك الأسرة الذي هو الزوج والبعل والأب كما ترمز إلى المجال والدّائرة الترابية التي تقيم بها الأسرة تحت قيادة رئيسها وربها. أمّا الأرض فإنّها ترمز إلى الأبناء والأولاد الذكور التابعين وإلى المجال المحيط بالأسر القائمة حيث يعيش هؤلاء الأبناء والأولاد الذكور.

فقد ذكرنا أنّ الأرض تحمل اسم "تر" في سياق اللغة الفرنسية ويعتبر اسم "تر" صيغة لفظية لكلمة "ذر" التي تفيد الأولاد والأبناء في سياق اللغة العربية. كما أنّ كلمة"تر" تستعمل للزجر على غرار كلمة "بر" التي تفيد معنى الأبناء وتطلق كلمة "تروة" على الأبناء والأولاد أيضا في سياق اللغة البربرية.

وعلى هذا الأساس فإنّ السماء كانت ترمز في بداية الأمر إلى الأسر والعائلات والأحياء البشرية القائمة والخاضعة إلى سلطة بعض الأسياد الممثلين في أرباب ورؤساء تلك الأسر بينما ترمز الأرض إلى الشبان الذين كانوا يعيشون في حالة تسكع في محيط تلك الأسر قبل أن ينضموا إليها كخدم وتابعين ويخضعوا بدورهم إلى الأعراف الأسريّة.

فلأجل ذلك تقول الأساطير التي تداولتها الشعوب الإنسانية في القديم إنّ الأرض والسماء كانتا متّحدتين ثمّ انفصلتا عن بعضهما وجاء في القرآن أنّ الأرض والسماء كانتا رتقا ففتقهما الله.

وفي ذات السياق أشرنا في تحاليلنا المتقدمة إلى أنّ جنّة الخلد والفردوس ترمز في حقيقة الحال إلى بعض الأسر والأحياء البشرية التي قامت في قديم الزمان فوق بعض بقاع الأرض بينما ترمز شجرة الحياة وشجرة علم الخير والشر إلى المجموعات التي كانت تتركب منهم هذه الأسرة أو هذا الحيّ البشري وخاصة منها المجموعة المتألفة من الحريم والنساء اللواتي كن على ملك سيد تلك الأسرة أو ذلك الحي ويرمز الإنسان إلى فئة الخدم والتابعين من الجنسين في حين يرمز الأمر الخاص بالامتناع عن أكل ثمار الشجرتين المحرمتين إلى الامتناع عن الاتصال الجنسي بأفراد المجموعة التي ترمز إليها الشجرتين ويمثلون الحريم والنساء المحصّنات.

غير أنّ المحظور والممنوع حصل رغم كلّ الأوامر والاحتياطات وكانت النتيجة تصدّع الأسرة المذكورة وانقسامها وتشتتها وهو ما يرمز إليه طرد الإنسان من الجنة وهبوطه إلى الأرض.

فنحن نعتبر أنّ طرد الإنسان من الجنة يرمز إلى هجرة فئة الإنسان إلى بعض الأماكن الأخرى بعد تصدّع الأسر والأحياء البشرية التي كان هذا الإنسان

ينتمي إليها ويعيش داخلها بوصفه يرمز إلى فئة الخدم والتابعين من الجنسين ويتألف معظمهم من الجن أو الشبان الذين انظموا إلى الأسر والأحياء البشرية القائمة بفعل التدجين والاستعباد واستقروا بجوارها في دوائر خاصّة بهم تطلّ على الخارج.

فقد ذكرنا أنّ الأسر والأحياء البشرية كانت مقسمة في العهود الأولى من التاريخ الإنساني إلى دوائر وكانت كلّ دائرة مخصّصة لفئة معلومة وتبتعد عن المركز أو تقترب منه بحسب صلة الفئة المعنية بربّ الأسرة ورئيسها الذي يمثل المركز ويقيم في الدائرة المركزية مع أقرب نسائه ومازال هذا النمط السّكنيّ قائما إلى الآن في بعض القرى الإفريقية.

ففي هذا السياق أشارت البعض من الأساطير والأخبار القديمة إلى أنّ السماء كانت منقسمة إلى سبع سماوات طباقا كما أنّ الأرض كانت هي بدورها منقسمة إلى عدّة طبقات.

فنحن نعتبر أنّ فكرة السماوات السبع ترمز إلى تقسيم الأحياء البشرية قديما إلى عدد من الدوائر وتخصيص كل دائرة إلى فئة معلومة.

وقد وردت في الخرافات الشعبية المتداولة إلى اليوم إشارات من هذا القبيل حيث تشتمل العديد من الخرافات الشعبية على مشاهد تتحدث عن تقسيم الدنيا إلى ثلاث أقسام وأربعة أقسام.

فقد جمعنا خرافة شعبية تونسية بطلتها تسمّى " بنت ربع الدنيا".

ويتعرّض أبطال بعض الخرافات الشعبية إلى التهديد برميهم في ثلثي الدنيا الخالية أو ربع الدنيا الخالي. فعلى غرار الكون ترمز الدنيا في الأساطير والخرافات الشعبية إلى الأسر والأحياء البشرية حيث أنّ كلمة "دنيا" تستعمل إلى

اليوم في معنى المرأة والسيدة في اللغة الإيطالية والإسبانية بينما تستعمل في المجتمعات العربية بصفة اسم للنساء وهي من هذه الناحية تعادل كلمة"جنّة" التي هي صيغة لفظية لكلمة "كنة" وتفيد كلمة "كنة" في العربية والعديد من اللغات الأخرى معنى المرأة ومنها جاءت كلمة"كون" التي مازالت تطلق إلى اليوم في الفرنسية على فرج المرأة وكانت تطلق في الأصل على المرأة باعتبار أنّ ما يميّز المرأة هو رمز أنوثتها.

وعلى هذا الأساس فإنّ فكرة ثلثي الدّنيا الخالية وربع الدنيا الخالي ترمز إلى الأقسام والدوائر التي كانت تنقسم إليها الأسر والأحياء البشرية في القديم وفي هذه الحالة بالذّات إلى محيطها الخالي وغيرالمسكون وهو المجال الذي يقيم فيه الجن والغيلان بمعنى الفئات البشرية المتوحّشة التي تعيش خارج الأطر والأعراف الأسرية.

فالغيلان هم قبيل من الجان حسبما هو متداول في التراث العربي القديم ثمّ إنّ كلمة "غول" التي هي مفرد كلمة"غيلان" يمكن أن تتخذ صيغة "خول" و"خيل" و"قيل" ومازالت كلمة "خول" و"قيل" تستعمل في العربية في معنى الخدم والأعوان والتابعين على غرار كلمة"قرد" وصيغها المتعددة ومنها كلمة "كردان" التي تفيد في بعض السياقات اللغوية معنى العقد الذهبي ومعنى الرقبة والدائرة وحاشية الملك وتسمّى حاشية الملك باسم الدائرة في اللهجة التونسية بحيث أنّ التونسيين يقولون أحيانا "الملك ودائرته" بمعنى الملك وحاشيته.

ومن هذا المنطلق فإنّ التهديد برمي البطل في ثلثي الدنيا الخالية يفيد رميه في بلاد الجن والخول والقيلة في معنى الفئات البشرية المتوحشة العائشة في محيط الأسر وأيضا في معنى طبقة الخدم والتابعين والزّبانية الموكلين من طرف أسيادهم بتعذيب المجرمين والمارقين عن القانون.

وقد سبق أن أوردنا في هذا الإطار أسطورة الشبان والنساء التي تتناقلها إحدى قبائل الهنود الحمر بأمريكا الجنوبية وفيها إشارة إلى أنّ السماء والأرض كانتا متصلتين فكان النساء اللواتي يقطن السماء ينزلن إلى الأرض, مجال الشبان, بواسطة حبل ويسرقن السمك المجفف الذي كان يخزنه الشبان ويعدن من حيث أتين إلى أن تفطن الشبان إليهن وقبضوا عليهن وأرغموهن على الإقامة معهم في الأرض بصفة زوجات وقرينات وتقول أساطير أخرى لهذه القبائل أن السماء والأرض كانتا متصلتين بواسطة شجرة فكان بالإمكان النزول من السماء إلى الأرض عبر تلك الشجرة.

وتذكر الأساطير اليونانية التي أوردناها أنّ السماء هو ابن الأرض أنجبته من الشبق والشهوة الجنسية ثمّ أطبق عليها فأنجبت منه الآلهة.

كما ذكرت الأساطير اليونانية أنّ الإله زوس قسّم العالم إلى ثلاثة ممالك بعد انتصاره على خصومه فخصّ نفسه بملك السماء والأرض وخصّ أخاه بوسايدون بملك البحار والأنهار وخصّ أخاه الآخر هادس بالممالك السفلية.

أساطير الأولين:

فقد ذهب العلماء في تفسيرهم لأساطير الخلق والتكوين التي روتها قديما مختلف شعوب العالم مذاهب حجبت عن الأجيال المتأخرة من الناس معناها الحقيقي الذي شرحناه حيث اعتبر هؤلاء العلماء أنّ هذه الأساطير هي تصورات وأفكار تصورها الإنسان الأول لتفسير الكون والوجود وأنّ الآلهة يرمزون إلى القوى والظواهر الطبيعية التي تتجاذبه وقد شرحنا بالتفصيل أنّ هذه الأساطير هي أخبار تاريخية تروي وتنقل الظروف التي حفت وأحاطت بنشأة وتأسيس الأسر الإنسانية في العهود الأولى من التاريخ الإنساني وكانت هذه الأسر الخلايا الأولى التي انحدرت منها بالتدريج الشعوب الإنسانية القائمة والمنقرضة

بحيث أنّ الآلهة والجن والملائكة وكلّ الكائنات الغيبية الأخرى يرمزون إلى الطبقات الأولى من البشر الذين عمروا الأرض في بداية التاريخ الإنساني.

فالآلهة والجن والملائكة وأشباههم من الكائنات الغيبية هم أسلاف الشعوب الإنسانية وأجدادهم وآباؤهم الأولون ومن هذا المنطلق فإنّ أساطير الخلق والتكوين التي تعرف أيضا باسم "أساطير الأولين" في التراث العربي هي الأخبار والقصص التي كان الناس في العصور القديمة يحكونها ويروونها بخصوص أسلافهم وأجدادهم وآبائهم الأوّلين وما جرى لهم من أحداث ووقائع حقيقية أثناء وجودهم أحياء يرزقون فوق الأرض تحت اسم" آلهة" و"ملائكة" و"جن" وغيرها من الأسماء التي شرحنا معناها الحقيقي في تحاليلنا المتقدمة.

وقد كانت الأجيال الأولى من الناس تدرك المعنى الحقيقي لهذه الأساطير والطبيعة الحقيقية للكائنات الغيبية التي تتحدث عنها ثمّ إنّ الأجيال المتأخرة من الناس أضاعت شيئا ما المعنى الحقيقي لهذه الأساطير بحكم قدم العهد وتبدّل الأحوال ولكنّها ظلّت تعتقد في وجود الكائنات الغيبية وتعظّمها كما أنّها ظلّت تعتقد في صحة الأساطير وتقول عنها بأنّها قصص حقيقية وتروي وقائع حصلت بالفعل في القديم.

فقد كان البابليون وسكان العراق في القديم يعتقدون في وجود الآلهة الذين كانوا يعبدونهم وفي صحّة الأساطير التي كانوا يروونها بشأنهم ومنها أسطورة الخلق والتكوين البابلية التي أوردناها, كما كان اليونانيون القدماء يعتقدون في وجود الآلهة الذين كانوا يعبدونهم وفي صحة الأساطير التي يروونها بشأنهم وفي مقدمتها أسطورة الخلق والتكوين اليونانية المذكورة أعلاه وكذلك الشأن بالنسبة للعرب والشعوب القريبة منهم ثقافيا ولغويا فإنّهم كانوا

يعتقدون في وجود الآلهة الذين كانوا يعبدونهم في القديم وفي صحة الأساطير التي كانوا يروونها بشأنهم ومنها قصّة جنّة الخلد والفردوس.

ففي هذا السياق وجدنا أنّ العديد من الشعوب الإنسانية والعائلات المالكة في القديم ينتسبون إلى الآلهة ويقولون إنّهم آباؤهم الأولون على غرار قوم معين أو شعب معين في جنوب الجزيرة العربية الذين كانوا يعبدون الإله وُدّ المذكور ويقولون عنه إنّه أبوهم الأوّل الذي انحدروا منه وهم قوم عاشوا في الألف الثالثة والثانية قبل الميلاد في جنوب الجزيرة العربية وقد أوضحنا أنّ اسم "وُد" هو صيغة لفظية لاسم "دا" و"إدّا" الذي مازال يستعمل إلى اليوم في العديد من المجتمعات واللغات الإنسانية في معنى الأب.

وكان الملوك الفراعنة الذين حكموا مصر في القديم يقولون إنّهم من عنصر الآلهة ويذكر المصريون القدماء في أساطيرهم وأخبارهم أنّ أوّل من حكم الشعب المصري ووحّد القبائل المصريّة القديمة في شعب واحد هو الإله المصري أوزيريس الذي كانوا يعبدونه ويقدّسونه ولهم في مولده وفي مولد بعض الآلهة المصريين الآخرين أسطورة معروفة تشير إلى أنّ أمّ أوزيريس هي الربة أنثى وأنّ أباه هو الإله راع عظيم الآلهة عند المصريين القدماء وملخّصها أنّ الربة أنثى،إلهة الفضاء السماوي، زنت ذات يوم مع الإله شاب، إله الأرض، فرآهما الإله راع إله الشمس فدعا على أنثى أن لا تلد لا في عدّة الشهور ولا في عدّة أيام السنة ولكنّ الإله توت الذي كان يحب أنثى ويضاجعها هو الآخر تقامر مع إله القمر فغلبه واستطاع أن يسلبه جزءا من اثنين وسبعين جزءا من كل يوم من أيامه المضيئة التي عددها ثلاثمائة وستين يوما فاجتمع للإله توت بذلك خمسة أيام زائدة أضافها إلى أيام السنة الثلاثمائة والستين فأنجبت فيها الربة أنثى خمسة أولاد بمعدّل ولد في كلّ يوم وهم الإله أوزيريس والإله

حوريس الأكبر والإله ست والربّة إيزيس والربّة نفطيس. فولدت في اليوم الأول أوزيريس وفي اليوم الثاني حوريس الأكبر وفي اليوم الثالث ست وفي اليوم الرابع إيزيس وفي اليوم الخامس نفطيس.

وأنجبت الإله أوزيريس وحوارى الأكبر من الإله راع وأنجبت إيزيس من توت وأنجبت ست ونفطيس من الإله شاب وكان الآلهة راع وتوت وشاب إخوة.

وتزوج ست بأخته نفطيس ويقول المصريون إنّ أوزيريس وإيزيس أحبّا بعضهما واتصلا ببعضهما وهما لا يزالان في بطن أمّهما فنشأ من اقترانهما حوارى الأكبر.

ولمّا حكم أوزيريس في المصريين وحدّ بين قبائلهم وهذّبهم وعلّمهم أصول الحضارة وأخرجهم من حالة التوحش إلى حالة التمدن وعلّمهم أكل الفاكهة والغلال واحترام الآلهة ومنع عليهم أكل بعضهم البعض وتعلّمت أخته رزوجته إيزيس من ناحيتها فنون الزراعة فلقّنتها بدورها للمصريين.

فغار الإله ست من أخيه أوزيريس فقتله غدرا وأخذ مكانه وأصبح حاكما على المصريين فثار عليه حوارى الأصغر ابن أوزيريس وإيزيس مطالبا بحقّه الشرعيّ في حكم مصر وطالت الحرب بين الطرفين ثمّ إنّ الآلهة أنصفوا حوارى الأصغر وأقرّوا له بالأحقية في حكم المصريين.

ورأينا أنّ جماعة الدكن في إفريقيا الغربية, جنوب الصحراء الكبرى يقولون إنّ أجدادهم وآباءهم الأولين ينتمون إلى طائفة من الكائنات الغيبية يسمّونهم باسم "ياباني" و"بنى" وأشرنا إلى أنّ الأخبار الموروثة تذكر بأنّ أقوام الجن والجان كانوا يشتملون على قسم أو فئة تسمّى باسم"البنّ" بحيث أنّ طائفة

الياباني والبني هم في حقيقة الحال طائفة من طوائف البشر الذين عمروا الأرض في العهود الأولى من التاريخ الإنساني وكانوا يعرفون باسم "بن" أو" البن" بمعنى الأولاد والأبناء.

وإنسجاما مع هذه الحقائق كانت بلاد اليمن في جنوب الجزيرة العربية تسمّى باسم بلاد البن كما أنّ لفظة"من" التي يتركب منها اسم "يمن" تفيد معنى الأبناء في سياق العديد من اللغات والمجتمعات على غرار استعمالها في هذا المعنى عند بعض المجتمعات التي كانت تسكن بلاد شنقيط بموريطانيا والساقية الحمراء ووادي الذهب جنوب المغرب الأقصى في الجزء الجنوبي الغربي من منطقة شمال إفريقيا, فقد كانت هذه الجماعات تقول "فلان من فلان" بمعنى"فلان بن "فلان" مثل قولهم"أحمد من دامان" بمعنى"أحمد بن دامان" وهو مؤسس إمارة الترارزة في بداية القرن السابع عشر الميلادي في بلاد شنقيط والساقية الحمراء واستمرّت هذه الإمارة إلى غاية سنة1905, كما يستعمل بعض الجماعات الإفريقية لفظة"من" في معنى الابن والأبناء. ومن هذا المنطلق فإنّ كلمة "من" تعادل كلمة "بن" و"جن" باعتبار تعادل كلمتي "بن" و"جن" مثلما شرحناه بإسهاب في تحاليلنا المتقدمة.

ورأينا أنّ سكان شمال إفريقيا في القديم كانوا يعبدون إله اسمه"أمّون" ويلقّب بالليبي عند الكتاب اليونانيين واللاتينيين القدماء.

فنحن نعتبر أنّ اسم "أمون" يفيد في الأصل معنى الأبناء والأولاد وهو يعادل اسم "بن" و"جن" كما يعادل اسم "آل" الذي يستعمل في العربية في معنى الأهل والذرية والأبناء ويستعمل في العربية وفي اللغات القريبة منها في معنى الرب والإله ومنه جاءت كلمة "إله" واسم "الله" واسم "اللات" الربّة العربية القديمة كما جاء منه اسم "ألة" و"لّلة" الذي مازال إلى اليوم يستعمل بكثرة في شمال

إفريقيا في معنى "السيدة و"الأم" والمرأة الشريفة. وتعتبر كلمة "أهل" صيغة لفظية لكلمة "آل".

وعلى هذا الأساس فإنّ اسم" أمون" يعادل اسم"آل". وقد كان الكنعانيون سكان بلاد الشام في القديم يعبدون إلها اسمه"آل" ويقولون عنه إنّه أب الآلهة.

كما وجدنا أنّ جماعة الترارزة المذكورين والجماعات المجاورة لهم كانوا يستعملون أيضا لفظة "ودّو" و"أودو" في معنى" ولد" و"بن" بحيث كانوا يقولون "فلان بن فلان" و"فلان من فلان" و"فلان ودّو فلان".

فنحن نعتبر أنّ كلمة "ودّو" هي صيغة لفظية لكلمة "ديوس" و"تيوس" و"ديو" التي تستعمل في العديد من اللغات الأوروبية في معنى الربّ والإله نقلا عن اليونانية واللاتينية وهي بدورها صيغة لفظية لكلمة "إدّا" و"دا" التي تستعمل في معنى الأب في العديد من اللغات والمجتمعات الإنسانية وتتخذ صيغة"ود" وقد عبد العرب قديما إلها اسمه "ود".

وتبعا لذلك فإنّ اسم "آل" واسم "ود" و"دو" و"بن" و"من" و"جن" هي أسماء متعادلة وتفيد في الآن نفسه الأبناء والأولاد وكذلك الآباء والأجداد والأهل بحيث أنّ الآلهة يرمزون إلى الأسلاف والآباء والأجداد والأهل بصفة عامة.

ففي هذا السياق أيضا كان الرومان سكان مدينة روما في إيطاليا في القديم يعتقدون في نوع من الجنيات يسمونهم في لغتهم اللاتينية باسم"بنات" تماما مثل اسم "بنات" المستعمل في اللغة العربية في معنى الصبايا والبنات, فكانت كل عائلة وكل دار في روما تعظّم مجموعة خاصة بها من هذه الجنيات أو البنات باعتبارهم حماة العائلة وحماة الدار على غرار الاعتقاد في عُمّار الديار

والغابات والجبال السائد في البلدان العربية. كما كانوا يعظّمون أسلافهم تحت اسم "من".

وسبق أن أشرنا إلى أنّ عُمّار الديار والغابات والجبال الذين هم طائفة من الجن يرمزون إلى أصحاب الأرض الأولين الذين كانوا أول من سكن وملك تلك الأرض والجبال والغابات بحيث أنّ البنات الذين كان الرومان يعظمونهم هم طائفة من البنّ الإناث.

فقد كانت الجماعات البشرية في بداية التاريخ الإنساني تشتمل على بعض الجماعات المتألفة أساسا من الإناث والبنات والصبايا إلى جانب الأسر العادية والجماعات المتألفة أساسا من الشبان الذكور.

كما كان يوجد بعض الجماعات التي تتألف من مجموعة من الإخوة الذكور المقترنين بزوجة واحدة يتبادلون عليها مثلما تشير إلى ذلك الكثير من الخرافات الشعبية ومنها خرافة "وشيمة خضراء" المتداولة في تونس والتي أوردنا ملخصها في تحاليلنا المتقدمة وظلت هذه العادة في الزواج سارية إلى عهد قريب جدا في بعض بلدان آسيا الوسطى.

ورأينا في الأسطورة الفرعونية المتعلقة بمولد الإله أوزيريس وإخوته أنّ أمهم أنجبتهم من ثلاثة آلهة إخوة هم راع وتوت وشاب.

وفي هذا السياق نشير إلى أنّ العائلات والأسر التي أسست مدينة رومة في القديم كانت تحمل في لغتها اللاتينية اسم "جن" و"جنة" بحيث أنّ العائلة الواحدة كانت تسمّى باسم "جنة" وتنسب إلى جدها الأول فيقال عنها "جنة فلان" بمعنى "عائلة فلان" و"أولاد فلان" و"بنو فلان". وتعادل كلمة "جنة" المستعملة قديما في روما كلمة "عشيرة" في العربية وكلمة"عرش" التي تطلق في تونس

على العشيرة والقبيلة المنتمية إلى جد واحد وعلى هذا الأساس يقال في تونس عن العشيرة من العشائر "عرش"، فيقال "عرش العبابسة" مثلا بمعنى "عشيرة العبابسة" أو "أولاد عباس".

وكان يطلق على العديد من الآلهة في القديم أسماء مشتقة من لفظة "إر" من بينهم الإله أيور، إله القمر الذي كان يعبده البربر في القديم والإله اليوناني إيروس إله الحب وكان اليونانيون يقولون عنه إنّه أول من ظهر للوجود والإله المصري القديم "را" أو" راع" والإله اليوناني القديم "أورانوس" إله السماء.

ففي هذا السياق اشتهر في التاريخ بعض الجماعات البشرية الذين كانوا يحملون اسم "آري" ويقول بعض العلماء المعاصرين عنهم إنّهم كانوا يسكنون في بداية ظهورهم في مرتفعات آسيا الوسطى وفي بلاد أفغانستان بالذات التي كانت تسمّى قديما باسم "إريانة" نسبة إلى هؤلاء الجماعات ثمّ إنّ هؤلاء الجماعات انتشروا في البلاد المجاورة وخاصة منها الهند وإيران التي سميت هي الأخرى باسمهم وهم من عرفوا في عصرنا الحاضر باسم الآريين ومنهم انحدرت العديد من الشعوب في الهند وإيران وأوروبا في قول بعض العلماء المعاصرين وبرزت بشأنهم في القرن التاسع عشر والقرن العشرين في أوروبا نظريات عنصرية شهيرة اعتبرت الآريين أرقى العناصر والجماعات البشرية شكلا وعقلا على الإطلاق.

ومازالت العديد من المواقع في تونس تحمل اسم "أريانة" منها مدينة أريانة بالقرب من العاصمة تونس وضاحية لمدينة صفاقس على الساحل التونسي تسمّى باسم أريانة.

ويوجد بالجزائر سلسلة من المرتفعات الجبلية تحمل اسم "أوراس" وهو اسم مأخوذ من لفظة"أر" ويفيد معنى الأحمر والأشقر في اللغة البربرية وفي

بعض اللغات الإنسانية الأخرى كالإيطالية والفرنسية وكانت بعض الجماعات الآرية شقراء حسب العلماء المعاصرين غير أنّ اسم "أري" مأخوذة من لفظة "إر" التي شرحنا أصلها ومعناها في تحاليلنا المتقدمة وذكرنا أنّها مأخوذة من الصوت "إر" الذي يستعمله الإنسان بصورة غريزية للزجر والتنبيه والتحذير وأطلق تبعا لذلك على القائمين بوظيفة الزجر والنهر والتنبيه والتحذير في المجتمعات الإنسانية وهم الأسياد والحكماء والملوك والشيوخ والأمراء والمقدمين فلأجل ذلك تستعمل كلمة "إر" في معنى السيد والملك في الفرنسية في صيغة "روا" وفي اللاتينية في صيغة "راكس" وفي الإيطالية والإسبانية في صيغة "ري" كما تستعمل في بعض جهات البلاد التونسية في معنى الحبل في صيغة"ري" أيضا وكان الحبل يمثل رمز السيادة باعتباره وسيلة للقبض والربط والشد والعقل والقيد وهي وظائف يتولاها الأسياد والحكام.

وقد كانت كلمة "آري" تفيد معنى السيد والشيخ والمقدم عند الجماعات الآرية في قديم الزمان.

ويذكر المؤرخ المغاربي عبد الرحمان بن خلدون, من علماء القرن الرابع عشر الميلادي, في تاريخه أنّ الجدّ الأول لقبيلة زناتة البربرية كان اسمه جانا ومن هذا الاسم اشتق اسم زناتة أو"زنات" بحيث أنّ اسم "زناتة" هو في الأصل "جنات" أو"جانات".

كما توجد الكثير من الشعوب في العالم التي تحمل أسماء مشتقة من اسم"كن" و"كان" الذي هو صيغة لفظية لاسم"جن" و"جان" من بينهم جماعة الكوانى سكان جزر الكناري الأصليين في عرض السواحل المغربية بالمحيط الأطلسي وهم من أصل بربري وكانوا يتكلمون لهجة بربرية قبل احتلال

الإسبان لهذه الجزر في القرن الخامس عشر الميلادي والقضاء على هوية شعبها الكواني ويفيد اسم"كواني" في لغة هذا الشعب معنى الناس والبشر والإنس.

وقد لاحظنا أنّ السكان في الجنوب التونسي مازالوا يستعملون إلى اليوم كلمة "كاني" ويجمعونها على صيغة "كواني" للسبّ والتحقير حيث يقول الواحد منهم أحيانا للشخص الآخر "يا كاني" لسبّه وتحقيره.

كما أنّ بعض الجماعات القاطنين بالجزر المحيطة بجزيرة استراليا في المحيط الهادي يسمون أنفسهم باسم "كاني" و"كواني" تماما مثل الجماعات التي كانت تعيش في جزر الكناري ويحمل اسم "كاني" و"كواني" عندهم معنى الناس والإنس والبشر أيضا, ويتخذ هذا الاسم أيضا صيغة "كنكا".

ونشير كذلك إلى أنّ العديد من المواقع في العالم تحمل أسماء مشتقة من اسم"جان" و"كان" منها بلاد الكونغو وبلاد كينيا في إفريقيا والعديد من المدن التي تحمل اسم "جنة" و"جنات" و"كان" في شمال إفريقيا وأوروبا بالإضافة إلى العديد من الأنهار في العالم منها نهر الكانج في الهند.

ويفيد اسم "جن" و"جان" و"جنة" و"جنات" و"كان" و"كاني" و"كواني" و"كونغو" و"كنكا" و"كانج" معنى الأسرة والعائلة ومعنى الناس والإنس بوصفهم يرمزون إلى البشر المدجنين والمقردين والمروضين والعائشين في إطار أسري وفق بعض الأعراف تحت حكم بعض الرؤساء وقد اتخذت كل هذه الأسماء معاني لها صلة بالتبعية والأسر وبأدوات الأسر كالحبال والنير الذي يوضع حول رقبة المستعبدين وهو حلقة مستديرة من حجارة أو خشب أو حديد على غرار اسم"قرد" الذي كان يطلق في الأصل على البشر المقردين والمدجنين والمروضين ثمّ اتخذ في صيغ متعددة معنى الخادم والتابع والحاشية والحلقة

والحلي أو الكردان الذي يوضع حول الرقبة للزينة وكان في الأصل وسيلة للأسر والقيد.

وأشرنا إلى أنّ السيد والعبد كزوجته مثلا كانا في بداية التاريخ الإنساني مرتبطين سويّا برباط ماديّ واحد وهو الحبل والنير بحيث أنّ السيد والعبد ووسيلة الاستعباد كانوا يمثلون شيئا واحدا فلأجل ذلك إتّخذت الأسماء المرتبطة بهذا الوضع معنى السيد والعبد ووسيلة الاستعباد مثل كلمة "كن" و"كان" حيث تطلق على الإنس والتابعين ووسائل الاستعباد مثلما شرحناه كما تطلق أيضا على السيد والأسياد في صيغة "كينغ" كما هي الحال في اللغة الأنقليزية وعلى العارفين والحكماء في صيغة "كاهن" في اللغة العربية واللغات القريبة منها وقد كان الأسياد هم الحكام والحكماء والعارفين حتّى أنّ لفظة "حكم" تطلق على الحكمة وتطلق أيضا على الإمساك والقبض في اللغة العربية ويعتبر القبض من وظائف الأسياد والحكام.

ويؤنث اسم "كينغ" في اللغة الأنقليزية في صيغة "كوين" وهذا الاسم هو صيغة لفظية لكلمة"كون" التي تفيد معنى المرأة والزوجة والأسرة والعائلة مثلما شرحناه.

كما أنّ العديد من الآلهة الذين عبدتهم الشعوب الإنسانية في القديم يحملون أسماء مشتقة من لفظة"إن" التي تمثل الجذر الأصلي لاسم"إنس" و"نساء" و"إنسان". بحيث يمكن اعتبار اسم "إنس" و"نساء" و"إنسان" صيغة لفظية لكلمة"إن" وفي هذا السياق فإنّ لفظة "إن" تفيد هي الأخرى في الأصل معنى الأبناء والأولاد والأسرة والمرأة على غرار كلمة "جان" و"جنة" و"كان" و"كنة".

فقد لاحظنا أنّ كلمة "إن" تفيد معنى الولد الأكبر أو البكر في اللغة الفرنسية في صيغة"إيني" وتستعمل لفظة "تينا" و"تانا" في المجتمعات العربية في

معنى الأم والعمة والخالة والجدة والسيدة والكبيرة بصفة عامة في حين تستعمل كلمة"ننّي" في العديد من اللغات والمجتمعات في معنى الولد الصغير كما هي الحال في تونس مثلا.

كما تستعمل كلمة"تونة" في الجنوب التونسي في معنى فرج المرأة ونحن نعتبر أنّ مفردات "تانا" و"تينا" و"تونة" تتركب من تكرار الصوت "إن" وقد أشرنا أنّ الصوت"إن" هو صوت طبيعي يطلقه الإنسان بصورة غريزية في حالات الاضطراب والتعب والحيرة والقلق ومنه جاءت لفظة "أنّ" ومشتقاتها كلفظة"أنين" وتطلق في سياق اللغة العربية على الصوت الذي يردده الإنسان في حالة الوجع والألم والمرض والحيرة أيضا وذكرنا أنّ الصوت "إن" هو أيضا صوت مجعول للزجر والنهر والتنبيه مثل الصوت "أس" والصوت "أخ" غير أنّ إطلاقه مرتبط بحالات الضعف والاضطراب على غرار الصوت "أم" ولأجل ذلك أطلق على الفئات المستضعفة والمدجنة في صيغة "أنس" و"إنسان" و"نساء" و"أنثى" كما أنّ بعض الجماعات ومن بينهم التوارق كانوا إلى عهد قريب يعتقدون أنّ الجنّ يشتملون على فئة اسمها "إن" وهم ضعاف الجن وصغارهم وأشرنا في هذا الإطار إلى أنّ الملائكة يسمّون باسم "إنس" أو"أنج" في اللغة الفرنسية.

ففي هذا الصدد كان القرطاجنيون، سكان مدينة قرطاج في تونس في القديم، يعبدون ربة اسمها "تانيت" ونعتبر أنّ هذا الاسم مأخوذ من لفظة"أنثى" وهو صيغة لفظية لكلمة "أنثى" في الواقع حيث أنّ الصوت "تا" كثيرا ما يضاف في أول الكلمات وفي آخرها للتعبير عن المؤنث كما هي الحال في البربرية وفي العربية .

وكان السومريون سكان العراق في القديم يعظمون إله اسمه أنو يقولون عنه إنّه إله السماء وأنّه ربّ الأرباب وكانت له قرينة تسمّى باسم "نانا".

كما كان اليونانيون في القديم يعبدون ربة اسمها "أثينة" وتنطق "أتينة" أيضا ونعتبر أنّ هذا الاسم مشتقّ من لفظة "ثن" و"تن" مثلما أنّ "جنة" هو مؤنث "جن" و"كنة" هو مؤنث "كن" و"بنت" مؤنث "بن" ويمكن أن يتخذ اسم "تن" و"ثن" صيغة "سن" بالنظر لتعادل الأصوات "ثا" و"تا" و"سا" وتستعمل لفظة "سن" في اللغة الأنقليزية في معنى الأبناء والأولاد والابن الذكر بالخصوص بحيث أنّ كلمة "أثينة" و"أتينة" تفيد معنى البنت والمرأة والنساء والأولاد والأهل عموما.

وانسجاما مع تحاليلنا وجدنا أنّ لفظة "أنت" تفيد معنى الابن والأبناء في بعض اللهجات البربرية التي كانت سارية في ليبيا وهي مشتقة من لفظة "إن".

وجاء في الأساطير اليونانية القديمة أنّ أرض ليبيا التي تعني منطقة شمال إفريقيا قديما كانت على ملك جبّار اسمه أنْتي وكان هذا الجبار من عنصر الآلهة حيث أنّ أمّه هي سيدة الأرض الربة جي بحيث أنّه كان يصرع كلّ من يتبارز معه مادامت قدماه ثابتتان على الأرض فكان يستحيل على أيّ كان الانتصار عليه وقدماه مستندتان على الأرض وكان يمنع على الأجانب والغرباء دخول أرض ليبيا ويتصدّى لكلّ غريب يحاول دخولها ويصرعه مهما كانت قوّته بفضل إستناده على أمه الأرض وتذكر الأساطير أنّه تزوج من الملكة تينجي أو طانجة التي كانت تحكم في مملكة المغرب الأقصى وأنجبت له ولدا عرف باسم صفاقس.

ومازال الاسم "أنتي" مستعملا إلى اليوم في تونس لتسميّة الأشخاص في صيغ متعدّدة.كما ان بعض القبائل البربرية تحمل اسم هنتاتة.

وتذكر الأساطير اليونانيّة أنّ الجبار أنتي هو إبن الإله بوسايدون, إله البحار والأنهار وأخ الإله زوس عظيم الآلهة عند اليونانيين القدماء ومع أنّ المشهور اليوم هو أنّ الربّة أتينة هي إبنة الإله زوس فإنّ الكثير من الأساطير اليونانيّة القديمة تذكر بأنّها إبنة أخيه الإله بوسايدون أو بالأحرى حفيدته وأنّ أباها هو الإله تريتون إبن الإله بوسايدون وتضيف هذه الأساطير أنّ الإله تريتون كان يقطن في جهة شطّ الجريد بالبلاد التونسيّة قرب بحيرة قديمة كانت تحمل إسمه بحيث أنّ الربّة أتينة ليبيّةِ الأصل أو إنّها نشأت وسكنت في منطقة شمال إفريقيا ولا سيما أنّها إشتهرت بحمل بعض الملابس التي كانت تلبسها النساء الليبيات والتونسيّات في القديم.

ففي هذا السياق نعتبر أنّ إسم "أتينة" الذي تحمله الربّة اليونانيّة القديمة أتينة هو صيغة لفظيّة لاسم "تونس" بحيث أنّ إسم "تونس" واسم "أتينة" هو إسم واحد إتّخذ هذين الصيغتين كما إتّخذ صيغة "تينة" و"طينة" ومازالت توجد إلى اليوم في البلاد التونسيّة العديد من المواقع التي تحمل إسم "تونس" و"تينة" و"طينة" منها العاصمة التونسيّة "تونس" ومنها مدينة "تينة" أو "طينة" بضواحي مدينة صفاقس على الساحل التونسي ومنها موقع أثري قديم يحمل إسم "تينة" و"أذنة" و"أوذينة" غير بعيد من مدينة تونس العاصمة.

ومن هذا المنطلق نعتبر أنّ البلاد التونسيّة كانت تعرف منذ العصور الغابرة باسم "أرض تونس" نسبة إلى القوم الذين كانوا يسكنونها وكانوا يعرفون باسم جماعة تونس أو قوم تونس ويفيد إسم تونس معنى الإنس والنساء والأهل والأسرة والأبناء والأولاد كما يفيد معنى الحيّ والمنزل والوطن ونعتبر أنّ لفظة "وطن" هي صيغة لفظيّة لاسم "تينة" و"تونس".

فانسجاما مع تحاليلنا كانت بعض الشعوب في ألمانيا وبلدان شمال أوروبا يعبدون إله إسمه "أودين" و"وطن".

كما أنّ إسم "طانجة" الذي تحمله بعض المواقع والمدن في العالم هو صيغة لفظية لاسم "تونس" باعتبار تعادل الصوت "طا" و "تا" والصوت "جا" و"سا".

ففي المغرب الأقصى توجد مدينة شهيرة تحمل إسم "طانجة" وكان ينطق في صيغة "تينجي" وتينجة" كما يوجد بالبلاد التونسيّة أيضا مدينة تسمّى باسم "تينجة" وتقع بالقرب من مدينة بنزرت في الشمال التونسي غير بعيد عن العاصمة تونس بحيث أنّ المواقع التي تحمل إسم "تونس" وصيغه العديدة التونسيّة تنتشر من الشمال إلى الجنوب.

ونظرا للإرتباط الوثيق بين الأحياء البشريّة ونقاط المياه الذي سبق أن أشرنا إليه فإنّ لفظة "أنج" التي اشتق منها إسم "تينجة" و"طانجة" اتّخذت أيضا معنى البركة والقلت ومسيل المياه كما هي الحال في اللغة البربريّة وتتخذ أيضا صيغة "أنق" و"نقة" وتوجد في ولاية قبلي بالجنوب التونسي مدينة إسمها "نقّة" على وزن "دقّة" و"مكّة" وأشرنا إلى أنّ كلمة "إنج" التي هي صيغة لفظيّة لكلمة "إنس" و"نساء" تعني الملائكة في اللغة الفرنسيّة وأوضحنا أنّ الملائكة يرمزون إلى النساء المتزوجات التابّعات لأحد الأزواج وإلى الأسرة والعائلة والآل والأهل عموما.

وتوجد بمصر مدينة تسمّى باسم "تنّس" كما توجد بالجزائر مدينة تحمل إسم "تنّس" أيضا. وتسمى عاصمة بلاد اليونان بجنوب أوروبا باسم "أثينا" و"أثينا" نقلا عن إسم الربّة اليونانيّة القديمة "أثينة".

كما أنّ إسم "دنيا" هو أيضا صيغة لفظيّة لاسم "تونس" و"تينة" و"طينة" ومازال إسم "دنيا" و"تونس" يستعمل لتسمية النساء في المجتمعات العربيّة وفي تونس بالذّات.

فقد كان إسم "تونس" يفيد في الأصل معنى المرأة والأسرة والنساء والأنس والإنسان والأهل والدّار على غرار كلمة "أنس" ومشتقاتها في اللغة العربيّة, كما أنّه يستعمل في معنى الملائكة في سياق اللغة الفرنسيّة في صيغة "أنج" وسبق أن أشرنا إلى أنّ الملائكة يرمزون إلى النّساء والإناث والمملوكين عموما داخل الأسر الإنسانيّة التي عمّرت الأرض في العهود الأولى من التاريخ الإنساني وإلى الأسر والبشر العائشين في الإطار الأسري تحت سلطة أرباب ورؤساء الأسر عموما.

الأصول الحقيقيّة للدّين والعبادات

كما أنّ كلمة "دين" التي تستعمل في اللغة العربيّة في معنى الإعتقاد في الآلهة وعبادتهم هي صيغة لفظيّة لكلمة "تونس" و"تينة" و"طينة" و"طين" حيث أشرنا إلى إنّ هذه الكلمات تتخذّ أيضا صيغة "أودين" و"وطن" و"دنيا".

ومن هذا المنطلق فإنّ لفظة "دين" تفيد في الأصل معنى الأسرة والعائلة والرّباط الأسري والعائلي والبشر العائشين في الإطار الأسري تحت سلطة أرباب ورؤساء الأسر. ثمّ إنّ معنى كلمة "دين" اتّسع هو أيضا على غرار كلمة "دنيا" و"كون" وأصبحت تطلق في صيغة "مدينة" على المجموعة من النّاس العائشين في مكان واحد وفق بعض الرّوابط تحت حكم بعض الأسياد.

وعلى هذا الأساس فإنّ مظاهر التّدين التي تسمّى في سياق اللغة العربيّة باسم العبادات كانت في الأصل تتمثل في الواجبات التي كان أفراد الأسر وسكّان المدن يقومون بها لفائدة رؤساء الأسر وحكّام المدن التابعين لهم.

وقد أشرنا إلى أنّ الآلهة يرمزون إلى الآباء والأجداد والملوك والحكّام والأسياد الذين عاشوا وقادوا الأسر الإنسانيّة في بداية التاريخ الإنساني بحيث أنّ الأفعال والأعمال التي كانت الشعوب الإنسانيّة تقوم بها قديما تعظيما وإجلالا للآلهة هي تكرار وإعادة وتقليد للأعمال والأفعال التي كان أسلاف تلك الشعوب يقومون بها إجلالا وتعظيما للحكام والأسياد الذين كانوا يحكمون فيهم ويسوسونهم وكان هؤلاء الأسياد والحكام في أغلب الأحيان آباء وأجداد أولئك الأسلاف ورؤساء الأسر التي كان الأسلاف ينتسبون إليها.

ففي هذا السياق كان تقديم القرابين وذبح الذبائح ونذر النذور من المقوّمات الرئيسيّة والأركان الأساسيّة للأديان التي دانت بها واعتنقتها الشعوب في القديم.

فنحن نعتبر أنّ هذه القرابين والذبائح والنذور كانت تتمثّل في الهدايا والعطايا التي كان الناس يهبونها ويعطونها قديما لأسيادهم وحكامهم والأقوياء منهم لشتّى الأغراض التي مازالت تستوجب إلى اليوم تقديم الهدايا والعطايا.

فقد كان الشبّان يهدون الهدايا ويهبون العطايا لأرباب ورؤساء الأسر من أجل إمتلاك بعض البنات والصبايا التابعات لتلك الأسر والإقتران بهنّ ومازالت هذه الهدايا والعطايا قائمة إلى اليوم في شكل المهر والصّداق في مختلف بلدان العالم كما كان الناس الذين اضطرتهم الظروف إلى هجرة وطنهم الأوّل والإقامة بمكان آخر يهدون الهدايا ويعطون العطايا والضّرائب لأصحاب الأرض الأولين الذين نزلوا بجوارهم حتّى يسمحوا لهم بالإقامة بقربهم والإنتفاع بثروات تلك

الأرض كعيون المياه التي تجري فيها ومازال المهاجرون من وطن إلى آخر مضطرين إلى اليوم إلى دفع شتّى المبالغ الماليّة والأداءات المختلفة لتمكينهم من الهجرة والإقامة في الوطن الجديد.

وكان الناس يقدّمون العطايا لافتداء الأسرى والعبيد والمساجين ومازالت هذه العادات قائمة إلى اليوم. وقد كانت هذه العطايا والضّرائب متنوعة ومتعدّدة وتشمل كل المرافق الحياتيّة من رؤوس الأغنام والأبقار إلى الطعام والشراب والصيد الصغير كالأرانب والدّجاج مرورا بالأشخاص من البشر حيث كان الناس أيضا يجبرون على تقديم بناتهم وأبنائهم لخدمة الأسياد والحكام وتلبيّة رغباتهم ويعتبر التّجنيد والخدمة العسكريّة في المجتمعات المعاصرة امتدادا لهذه العادات القديمة.

ثمّ إنّ الأحوال تبدّلت ومع ذلك ظلّ الناس يعتقدون في الآلهة ويقدّمون لهم الهدايا والقرابين والنذور والذبائح تقليدا لأسلافهم غير أنّ الآلهة اتّخذوا في العهود المتأخرة شكل الأصنام والتّماثيل التي صنعها الأسلاف في القديم على هيأتهم لتخليد ذكرهم ووضعوها في البيوت والأكياب والغابات والكهوف التي كان هؤلاء الآلهة قديما يسكنون فيها عندما كانوا أحياء يرزقون وبشرا مثل سائر البشر إلاّ أنهم كانوا أسيادا وحكاما وعظاما عند أهلهم وأقوامهم كما وضعوا معها شتّى الأدوات التّي كان الآلهة يستعملونها قديما لقضاء مآربهم كالعصيّ التي كانوا يسوسون بها الراجعين لهم بالنظر ويستعملونها للصيد والقنص والجلود والأقنعة التي كانوا يرتادونها للتمويه والإحتيال والتّنكر.

فقد كان الآلهة الذين عبدتهم الشعوب الإنسانيّة مجسّمين في شكل تماثيل وأصنام على هيأة البشر في أغلب الحالات وكانت مصنوعة من الحجر والخشب والطين وشتّى المواد الأخرى وكانت موضوعة في بيوت قديمة جدّا كالكعبة في

مكّة قبل مجيء الإسلام وتسمّى البيت العتيق وكذلك في الغابات والكهوف وكان بعضها على هيأة الحيوان كما تمثّلت عبادة الآلهة قديما في تعظيم بعض العصي والأحجار والأقنعة والجلود الموروثة عن الأسلاف وكذلك في تعظيم بعض الحيوانات كالحيّات.

فمثلما شرحناه في تحاليلنا المتقدّمة نعتبر أنّ الآلهة الذين عبدتهم الشعوب الإنسانيّة في القديم هم أشخاص من البشر عاشوا في قديم الزمان وقاموا أثناء وجودهم فوق الأرض ببعض الأدوار والخدمات الجليلة في حياة الشعوب التي عبدتهم فعظّمتهم تلك الشعوب وسعت إلى تخليد ذكرهم والإحتفاظ بكلّ ما يتعلّق بهم.

فالبعض من الآلهة هم آباء وأجداد الشعوب التي عبدتهم والبعض الآخر حكام وملوك حكموا في أسلافهم ومصلحون أصلحوا من شؤونهم وفي أغلب الحالات فإنّ الآلهة هم آباء وأجداد الشعوب التي عبدتهم ورؤساء الأسر التي انحدرت منها تلك الشعوب أو حكمت في أسلافهم.

وعلى هذا الأساس فإنّ التماثيل والأصنام ذات الهيأة البشريّة التي كان الناس يعظمونها في القديم باعتبارها أجسام للآلهة ترمز إلى هؤلاء الأباء والأجداد والملوك والسادة والمصلحين بحيث أنّ العبادة متّجهة إلى الآلهة الذين ترمز إليهم تلك التماثيل والأصنام.

كما أنّ العصّي والأقنعة والجلود والأحجار التي قدّسها الناس هي بقايا من العصّي والأقنعة والجلود والأحجار التي كان يستعملها هؤلاء الآباء والأجداد والملوك والأسياد والمصلحون عندما كانوا على قيد الحياة.

ومازال النّاس إلى اليوم يقيمون التّماثيل لعظمائهم تخليدا لذكراهم ويرسمون صورهم على الأوراق النقديّة ويجعلون من مساكنهم متاحف ومزارات يحفظون فيها كل ما يتعلّق بهؤلاء العظماء بحيث أنّ الغابات والكهوف والبيوت القديمة المقدّسة اتّخذت هذا الطابع المقدّس لأنّها كانت مساكن للآباء والأجداد في العهود الأولى من التاريخ الإنساني.

واتّخذت بعض الآلهة هيأة بعض الحيوانات المقدّسة لأنّ الآباء والأجداد والأسياد الذين تمثّلهم تلك الحيوانات كانوا يحملون أسماء تلك الحيوانات تعبيرا عن بعض الصفات والخصال البشريّة المميزة لهم كاسم "حيّة" الذّي يستعمل لتسميّة الأشخاص ويفيد في الأصل معنى الزّاجر والنّاهر والمخيف والمؤلم حيث أنّه مأخوذ من الصوت "أح" الذي يطلقه الإنسان بصورة غريزيّة عند الشعور بالألم وأسبابه والمواقف المتّصلة به مثل النّار التي تحرق أو السكين التي تقطع كما هي الحال في البلاد التونسيّة في سياق اللغة المستعملة لمخاطبة الأطفال الصغار وهي اللغة الأصليّة التي كانت الأسر الإنسانيّة تستعملها في بداية التاريخ الإنساني.

كما أنّ بعض الآلهة اتّخذوا هيأة الحيوانات لأنّ الأباء والأجداد والأسياد الذين يرمزون إليهم كانوا يستعملون جلودها كأقنعة للتمويه والتنكّر وغيرها من الأغراض.

وقد أشارت الأساطير التي تداولها النّاس قديما أنّ الآلهة كانوا كثيرا ما يتنكّرون في هيأة الحيوانات لقضاء مآربهم.

وانسجاما مع تحاليلنا نلاحظ أنّ الكثير من مظاهر عبادة الآلهة تشبه مظاهر الولاء والتبعيّة التي يبديها العبيد تجاه أسيادهم والضّعفاء تجاه الأقوياء عموما مثل السّجود والرّكوع والإنحناء والخنوع فضلا عن تسميّة مظاهر

تعظيمهم باسم العبادة في سياق اللغة العربيّة وهو إسم مشتق من لفظة "عبد" التي تحمل معاني لها صلة بالعبوديّة والرّق والإستضعاف والتبعيّة.

فقد وجدنا أنّ المفردات التي تطلق على السجود والرّكوع والإنحناء والخنوع في بعض اللغات الإنسانيّة مشتقّة من إسم "جن" و"حن" ومنها كلمة "إنحناء" في العربيّة وكلمة "أجنوي" التي تعني الركوع في الفرنسيّة ورأينا في قصّة جنة الخلد والفردوس أنّ الملائكة الذين هم في الأصل قوم من الجن أمروا بالسجود والركوع للإنسان بعد خلقه وتكوينه غير أنّ الشيطان امتنع من السجود بدعوى أنّه أفضل من الإنسان لأنّه مخلوق من نار في حين أنّ الإنسان مخلوق من طين بحيث أنّ السجود امتثالا لأمر الرب هو الخصلة الرئيسيّة التي فرّقت وميّزت بين المطيعين والعصاة والمنتمين للرب والمخالفين له.

وفي هذا السياق نعتبر أنّ عمليات السّجود والركوع والإنحناء نشأت إمتدادا لاستعمال البشر كمطايا للركوب والتّنقل على متن ظهورهم من مكان إلى مكان آخر فضلا عن إشباع الرّغبة الجنسيّة بهذه الطريقة.

ويشتمل التراث الأسطوري الإنساني على أصداء لهذه العادات والتّصرفات القديمة. فقد كان العرب في القديم يعتقدون أنّ الجنّ يستعملون بعض الحيوانات كمطايا لركوبها والتنقل على متنها وينسبون إليهم في ذلك بعض الإشعار منها هذا القول :

"وكلّ المطايا قد ركبنا فلم نجد ألذّ وأشهى من ركوب الأرانب

ومن عضرقوط عنّ لي فركبته أبادر سربا من عضاء قوارب"

والعضرقوط كالأرنب هو حيوان صغير, ذلك أنّ هذه الحيوانات التي كان الجن يستعملونها هي كلها من الحيوانات الصغيرة كالأرنب والعضرفوط والقنفد واليربوع.

وفي هذا الصدد تشير الأخبار المذكورة أنّ الحيوانات التي كان الجن يستعملونها كمطايا لركوبها هم صغار الجن بحيث أنّ كبار الجنّ كانوا يركبون صغار الجن ويستعملونهم كمطايا, وظلّت هذه الإعتقادات سارية عند البدو في تونس إلى عهود قريبة جدّا.

وقد ذكرنا أنّ الجن يرمزون إلى بعض الفئات من البشر الذين عمّروا الأرض في العهود الأولى من التاريخ الإنساني ويرمزون أيضا إلى أصحاب الأرض الأولين وإلى الأسر الأولى التي عمّرت الأماكن المسكونة قديما وظلّوا يعرفون من هذه الزّاوية باسم العمّار في المجتمعات العربيّة وكانوا وراء إنتشار الأفكار والتّصورات والإعتقادات المتعلّقة بالديّار والغابات والعيون المسكونة.

كما جاء في الحكاية الخامسة من حكايات السندباد البحري في الكتاب العربي المعروف-باسم "ألف ليلة وليلة" أنّ جنّيا من جنون الغابات إحتال ذات يوم على السندباد البحريّ في هيأة شيخ جليل وطلب منه أن يحمله على ظهره ويعبر به أحد الأنهار في جزيرة نائية فرقّ السندباد لحاله وحمله على ظهره وعبر به النّهر فاستبدّ به الشيخ ولوى ساقيه حول عنقه حتى كاد يزهق روحه وظلّ راكبا عليه ليل نهار طيلة عدّة أيام وكلّما أراد السندباد التخلّص منه شدّ الجنيّ بساقيه حول رقبته بقوّة فيمنعه فكان يأكل ويشرب فوقه وينام ويخرأ ويبول عليه وأخيرا وجد السندباد في الجزيرة خميلة من شجر العنب فصار يأخذ منها العنب ويخمّره تحت الشمس ويعصره في إناء ويشرب منه ليقوى على حمل الجنيّ فرآه الجنيّ ينشط عندما يشرب من ذلك الشراب فطلب أن يشرب

منه فسقاه السندباد فاستزاد منه حتّى سكر وانحلّت قواه ونام فرفع السندباد ساقيه عن رقبته وتخلص منه ونجا بنفسه.

المعنى الحقيقي لعبادة الكواكب

كما عبدت الشعوب الإنسانيّة في القديم بعض الآلهة الذين كانوا يحملون أسماء الكواكب والنجوم فظنّ الناس من الأجيال المتاخرة والعلماء معهم على وجه الخطأ أنّ الأمر يتعلّق بعبادة الكواكب والنّجوم بينما يتعلّق الأمر بتعظيم بعض الأشخاص والأقوام من البشر الذين عاشوا في قديم الزمان وكانوا يحملون أسماء الكواكب والنّجوم تعبيرا عن بعض الصّفات والخصال البشريّة المميّزة لهم.

فمازال النّاس إلى اليوم يحملون إسم قمر وشمس وثريا وسهيل وزهرة وهي أسماء تطلق أيضا في سياق اللغة العربيّة على بعض الكواكب والنّجوم.

فقد أشرنا إلى أن البربر كانوا يعبدون إلها إسمه أيّور ويعني القمر في اللغة البربريّة كما يعني الشهر أيضا فذهب في ظنّ العلماء والمؤرخين القدماء والمعاصرين أنّ الأمر يتعلق بكوكب القمر.

وفي حقيقة الحال فإنّ إسم "أيّور" هو صيغة لفظيّة لاسم "إير" حيث أنّه ينطق في هذه الصيغة أحيانا ويفيد معنى الزوج والبعل فهو مأخوذ من الصوت "إر" الذي سبق أنّ شرحنا أصله ومعناه الحقيقي في تحاليلنا المتقدّمة حيث ذكرنا أنّ الصوت "إر" هو صوت طبيعي تعوّد الإنسان إطلاقه منذ القديم في بعض المواقف للزجر والنّهر والنّهي والتّخويف والتّحذير والتّنبيه فأطلق على القائمين بمهمّات الزجر والنّهي والتّخويف والتّحذير وهم آباء وأجداد الأسر التي عمّرت الأرض في بداية التاريخ الإنساني وكانوا أيضا بعول وأزواج النساء التابعات

لتلك الأسر وكان البعل هو الفحل في الأسرة ويتمتّع بالقوّة والعظمة التي تؤهله لقيادة التّابعين له وحمايتهم وتأديبهم أيضا.

ومازالت كلمة "إير" التي هي صيغة لفظيّة للصوت "إر" تستعمل في اللغة العربيّة في معنى ذكر الرّجل الذي هو رمز الفحولة كما تستعمل في اللّغات الأوروبيّة نقلا عن اليونانيّة في معنى الشهوة الجنسيّة والشبق وكان اليونانيّون القدماء, يعبدون إلها إسمه إيروس مثلما ذكرناه.

وتطلق كلمة "آر" في بعض اللهجات البربريّة على الأسد الذي يسمّى أيضا باسم سيد ويطلق اسم سيد على السيد والعظيم والكبير في العربيّة بحيث أنّ كلمة "سيد تفيد في الأصل العظيم والقوى والكبير فأطلقت على كلّ عظيم وقوى كالزوج والبعل داخل الأسرة الإنسانيّة.

كذلك الشأن بالنسبة لاسم "آر" و"إير" فإنّه كان يفيد في الأصل العظيم والقوي و المخيف والقائد والمؤدب فأطلقت على الزوج والبعل والأب وكذلك على الملك والحاكم في صيغة "روا" في سياق اللغة الفرنسيّة وفي صيغة "ري" في اللغة الإيطاليّة والإسبانيّة.

كما عبد الكنعانيّون سكان سوريا قديما, إلها إسمه ياريخ بمعنى القمر والشهر أيضا ومنه جاءت الكلمة العربيّة "تاريخ" وذهب في ظنّ العلماء أنّ الأمر يتعلّق بعبادة كوكب القمر أو إنّ ياريخ يرمز لكوكب القمر في حين أنّ إسم "ياريخ" يفيد هو الآخر في الأصل معنى الزوج والبعل والأب والسيّد والحاكم, فهو صيغة لفظيّة لاسم "أيّور" و"إير" بزيادة الصوت "أخ" الذي يعادل معنويّا الصوت "إر" من حيث أنّه كان يستعمل ومازال يستعمل إلى اليوم هو الآخر للزجر والنّهر والتّحذير والنهي والتّخويف فأطلق هو الآخر على القائمين بهذه المهمات في المجتمعات الإنسانيّة وهم الأباء والأسياد والعظام والكبار.

وكان العرب والشعوب القريبة منهم لغويّا وثقافيّا يعبدون في القديم إله إسمه "شمس" مثل إسم الشمس المضيئة في السماء فكان العرب مثلا يسمّون أبناءهم باسم عبد شمس وعبد العزّى وعبد الله ويدلّ هذا الإستعمال على أنّ الأمر يتعلّق في الواقع برابطة تبعيّة بين الأسياد والعبيد بحيث أنّ الإله "شمس" يرمز في حقيقة الحال إلى فئة الأسياد والعظام في قديم الزمان وليس إلى الشمس المضيئة في السماء.

ومازال الإسم "شمّاسي" يطلق إلى اليوم عند النصارى واليهود على طبقة من خدم الكنيسة والمعابد اليهوديّة وذكرنا أنّ الخدم والتّابعين يسمّون باسم "قداشة" الذي هو صيغة لفظيّة لاسم "قدس" وهذا الإسم هو في حدّ ذاته صيغة لفظيّة لاسم "قد" و"قط" بمعنى الإله والرّب كما هي الحال في الأنقليزيّة والألمانيّة وعلى هذا الأساس فإنّ الشمّاسي هو الشخص المنذور لخدمة الإله وفي هذه الحالة الشمس.

وقد وجدنا أنّ كلمة "شمس" تستعمل في بعض اللهجات البربريّة في معنى النّار الموقدة وتبعا لذلك فإنّ الشمس المقدّسة ترمز في حقيقة الحال إلى النار التي تسمّى باسم "حيّة" و"أحيّة" و"حي" كما شرحناه سابقا ومن هذا المنطلق فإنّ النّار المقدّسة ترمز إلى الأسر والأهل والأحياء القديمة التي كانت قائمة حول النيران الموقدة وكان يعيش في إطارها الأسلاف بحيث أنّ عبادة الشمس وعبادة النار أيضا هي مظهر من مظاهر تعظيم الأسلاف والآباء والأجداد وتعظيم البشر لأمثالهم من البشر بصفة عامّة مثلما هي الحال إلى هذا اليوم, كما عبدت الكثير من الشعوب الإنسانيّة بعض الآلهة الذين كانوا يحملون إسم "زهرة" مثل إسم نجم الزهرة في العربيّة وأسماء معادلة له منها إسم "فينوس" في الاتينيّة.

فنحن نعتبر أنّ عبادة الزّهرة هي أيضا مظهر من مظاهر تعظيم البشر لأمثالهم من البشر حيث أنّ الكثير من النساء في تونس مثلا مازلن إلى اليوم يحملن إسم "زهرة" بما يدل على أنّ الزهرة المعبودة ترمز إلى بعض الأشخاص والأقوام من البشر الذين عاشوا في قديم الزمان وكانوا يحملون إسم زهرة والأسماء المعادلة له تعبيرا عن بعض الصفات والخصال البشريّة المميزة لهم.

فاسم "زُهرة" هو صيغة لفظيّة لإسم "زارة" و"زيرة" حيث أنّ الصوت "ها" هو صوت مجرّدٍ يسقط ويزاد في الكلام الإنساني دون تأثير على مجرى الكلام ويحدث بصورة عفويّة خلال عمليّة التّنفس وانقطاعها أثناء الكلام وقد أشرنا إلى أنّ لفظة "زر" هي صيغة لفظيّة لكلمة "ذر" وتفيد معنى الأبناء والأولاد والأهل كما هي الحال في اللغة العربيّة ولاحظنا أنّها تطلق في اللغة البربريّة على القمر المكتمل في صيغة "تازيري" كما أن كلمة "زهرة" تستعمل في العربيّة لوصف النار المستعرة ويستعملها السكان في تونس كصيغة لفظيّة لكلمة "زأر" في العربيّة في معنى زئير الأسد وما شابهه.

ويستعمل إسم "زيري" لتسمية الأشخاص عند البربر وكان يحكم في تونس في العهد الوسيط أسرة بربريّة شهيرة تسمّى باسم الزيريّين أو آل زيري نسبة إلى مؤسسها الأوّل. كما تستعمل كلمة "وزير" في العربيّة في معنى مساعد الحاكم والملك.

وتستعمل كلمة "زير" في البربريّة في صيغ متعدّدة في معنى الحي والمنزل والقرية والدّار والأهل منها صيغة "تامزرت" و"توزر" و"زارات" و"زيرة". وعلى هذا فإنّ عبادة الزّهرة هي أيضا مظهر من مظاهر تعظيم الأسلاف والأباء والأجداد والأهل وتعظيم البشر لأمثالهم من البشر بصفة عامّة.

الأديان الطّبيعيّة والأديان النظريّة

وفي هذا السياق يجب التمييز بين الأديان الطّبيعيّة والأديان النظريّة حيث أنّ الأديان الطبيعيّة هي كلّ الأعمال والأفعال ذات الصبغة الدينيّة التي تعوّد الناس ممارستها تقليدا لأسلافهم وأبائهم وأجدادهم الأولين على أساس بعض الإعتقادات والأفكار والأخبار الموروثة عن هؤلاء الآباء والأجداد.

أمّا الأديان النظريّة فهي الأديان التي ظهرت نتيجة لبعض التأويلات الشخصيّة والفرديّة للأديان الطّبيعيّة وهي حديثة العهد نسبيّا مقارنة بالأديان الطّبيعيّة الموغلة في القدم.

فقد كان النّاس في إطار الأديان الطّبيعيّة يعتقدون في الآلهة ويقدّمون لهم النذور والقرابين ويعظّمون الرموز المجسمّة لهم تقليدا لأجدادهم وآبائهم الأوّلين دون التفكير في معرفة المعنى الحقيقي لهؤلاء الآلهة ولتلك النذور والقرابين فكانوا يمارسون الأعمال والأفعال الدينيّة بصورة تلقائيّة وعفويّة كممارستهم لعمليات الأكل والشرب والكلام والنّكاح جريا على السّنن الموروثة وتقليدا لما كان يفعله الآباء والأجداد.

وسبق أن شرحنا المعنى الحقيقي للآلهة ولمظاهر تعظيمهم وتمجيدهم بحيث أنّ ممارسة الناس قديما للأديان الطّبيعيّة تشبه قصّهم للأساطير واعتقاداتهم في صحّتها.

فقد كان الناس في القديم يقصّون ويحكون الأساطير في بعض المناسبات ويعتقدون في صحّتها وفي صحّة ما تنقله-من وقائع وأحداث دون البحث أو التفكير في المعنى الحقيقيّ للأحداث والوقائع التي تنقلها هذه الأساطير.

ثمّ جاء في العهود المتأخرة نسبيًا بعض الأشخاص والأفراد الذين أساءوا فهم وإدراك المعنى الحقيقيّ للأديان الطّبيعيّة القديمة والأساطير وأضفوا عليها أبعادا كونيّة فجعلوا من الآلهة قوى وذوات روحانيّة مجرّدة كما جرّدوا أساطير الأولين وقصص الخلق والتكوين بصفة خاصة من محتواها الحسّي والتّاريخي وحوّلوها إلى أخبار منزّلة تصف نشأة الكون والوجود على الإطلاق.

وسبق أن شرحنا بإسهاب أنّ أساطير الأولين وقصص الخلق والتكوين هي أخبار تاريخيّة تروي وتنقل ظروف تأسيس ونشأة الأسر والأحياء البشريّة التي عمّرت الأرض في العهود الأولى من التاريخ الإنساني وأنّ الآلهة والكائنات الغيبيّة الأخرى التي تقوم بأدوار البطولة في هذه الأساطير والقصص هم الأقوام والجماعات البشريّة الذين كانوا أطرافا في تأسيس هذه الأسر والأحياء البشريّة ومن هذا المنطلق فإنّ الكون الذي تتحدّث هذه الأساطير والقصص في الظاهر عن خلقه ونشأته يرمز إلى الأسر والأحياء البشريّة المذكورة.

ففي هذا السياق أوضحنا مثلا أنّ النذور والقرابين كانت في الأصل هدايا وعطايا وضرائب وعائدات يعطيها الناس في القديم لأسيادهم وعظمائهم ولأولى الأمر منهم في بعض المناسبات لقضاء بعض المآرب الحياتيّة والإتّقاء من بعض الأضرار الحقيقيّة فكانت الأجيال الأولى من البشر يدركون المعنى الحقيقي للنذور والقرابين ويقدّمونها في المناسبات المذكورة لقضاء بعض المآرب الحياتيّة أو إتّقاء بعض الشرور الحقيقيّة ثمّ تغيرت الأحوال لكنّ النّاس ظلّوا يقدّمون تلك النذور لمن عوّضوا الأشخاص الذين كانت تقدّم إليهم تلك النذور والقرابين وحلّوا محلهم وأصبحوا أشباههم ونوّابهم ورموزهم بصورة من الصور.

كما كانت الأجيال الوسيطة تدرك بدورها المعنى الحقيقي لهؤلاء النّواب والرّموز الجديدة الذين عوّضوا الأسياد والعظماء الأولين وحلّوا محلهم وأصبحوا أشباههم ورموزهم كالتّماثيل التي صنعت على هيأتهم والبيوت التي كانوا يسكنونها وكانت تجلب إليها القرابين والنذور ثمّ تقادم العهد وتفرّقت الجماعات البشريّة واتّسع مجال الحياة البشريّة وظلّ النّاس يقدّمون تلك القرابين والنّذور من باب التقليد والعادة دون معرفة أصولها الحقيقيّة.

ففي هذا السياق مازال السكان في تونس وغيرها من البلدان يقدمون في الكثير من المناسبات شتى الهدايا والعطايا للعديد من الكائنات ذات الصيغة الغيبية كالجن على غرار النساء في بعض قرى ومدن الجنوب التونسي فإنهن مازلن إلى اليوم يأخذن بعض القطع الصغيرة من كبد الشاة التي تذبح في عيد الأضحى وغيره من المناسبات الحياتيّة بعد طهيها ويرمين بتلك القطع الصغيرة في أطراف الدّار كعطيّة للجن وعمّار الدّار قبل أكل ما يتبقى منها.

وقد أشرنا إلى أنّ الجن وعمّار الدّار بالخصوص يرمزون إلى أصحاب الأرض الأوّلين الذين كانوا يفرضون على كل من يريد النّزول بجوارهم والإقامة بقربهم على أرضهم بعض العطايا والضرائب تقدّم لهم في بعض المواسم المعلومة للسماح للقادمين الجدد بالنزول والإقامة بجوارهم فكان السّكان الجدد يقدّمون تلك العطايا والضّرائب في بعض المواسم المعلومة لأصحاب الأرض الأولين في مقابل الإقامة بجوارهم وتصبح تلك العطايا والعائدات بمثابة الحقوق الراجعة لأصحاب الأرض الأولين يتوارثها الأبناء عن الآباء وعلى هذا الأساس كان النّازلون الجدد يعطون لأصحاب الأرض الأولين شيئا معلوما من كلّ ما يقتنصون من صيد وغيره من أرضهم وكان النازلون الجدد مجبرين على احترام بعض الحدود وعدم تجازها باعتبار أنّ ما يليها ويأتي بعدها هو مسكن

وملك أصحاب الأرض الأولين وليس لأحد غيرهم الحق في استغلاله دون رضاهم فكانت تلك الحدود هي المكان الذي يتمّ فيه تسليم العطايا والضّرائب وغيرها من المبادلات بين الطرفين حتّى أنّ النازلين الجدد كانوا أحيانا يجهلون كلّ شيء عن أصحاب الأرض الأولين ويكتفون بوضع عطاياهم على الحدود والذّهاب إلى حال سبيلهم فيأتي أصحاب الأرض الأولين ويأخذون تلك العطايا ويعودون من حيث أتوا.

وسبق أن أشرنا إلى الأبعاد الحضاريّة التي اتّخذتها فكرة الحدود في المجتمعات الإنسانيّة حتى أنّ كل ما يتّصل بالحدود والحدّ اتّخذ صبغة المقدس وأصبح من المحرّمات التي يجب الوقوف عندها وعدم تجاوزها وشرحنا الأصول الحقيقيّة لفكرة الحدّ والحدود وأشرنا إلى أنّ فكرة الحدّ والحدود تعود بالأساس إلى النّفور الطبيعي من الأجنبي والغريب وكل ما هو خارجي عن الجسم فكان الحدّ في البداية يتمثّل في حدود جسم الفرد وأطرافه وشخصه ثمّ توسّع إلى حدود كلّ ما يتبع ويخصّ جسم الفرد وشخصه وأطرافه وأصبح بمثابة الجسم والشخص وفي مقدمة ذلك الأسرة والمكان الذي تعيش فيه فكانت الأسرة التي ينتمي إليها الشخص هي المحل الأوّل الذي تمثّل وتجسّم فيه الحدّ بعد جسم الفرد وشخصه ثمّ توسّع الحدّ إلى كلّ مجموعة بشريّة ينتمي إليها الفرد وأسرته وكانت على التوالي العشيرة والقبيلة والحي والقرية والمدينة والوطن قبل أن تظهر فكرة الأمّة والإنتماءات العرقيّة والدينيّة وغيرها فأصبحت الأمّة والمجموعات المنتمية إلى عرق واحد أو دين واحد تمثّل بدورها حدودا للفرد يميّز عل أساسها الغريب والأجنبيّ والخارجي من الصاحب والشّبيه والمثيل ويتّخذ المواقف التي يراها لازمة بهذا الشأن.

وانسجاما مع تحاليلنا وجدنا أنّ النّاس أحاطوا بالتّعظيم والتّقديس والتّمجيد كل ما كان يمثّل حدّا أو يوحي بفكرة الحدّ مع الخوف منه والحذر من الإقتراب منه والمساس به مثل الأشجار وخاصّة منها بعض الأشجار التي تحمل أسماء تفيد معنى الحدّ كشجرة الطرفاء حيث أن اسم "طرف " يعني الحد في العربية.

فقد كان السكان في مدينة جمنة بالجنوب التونسيّ إلى عهد قريب جدّا يعظمون شجرة طرفاء في محيط المدينة ويسمّونها باسم "أمّي الطرفاية" كما توجد غير بعيد من المدينة المذكورة قرية تسمّى باسم "طرفاية" على غرار العديد من المدن والمواقع الأخرى بشمال إفريقيا منها مدينة طرفاية بالمغرب الأقصى.

فهذا التعظيم هو إمتداد لظاهرة إحترام الحدود الذي حلّ في كلّ ما يوحي بها وقد رأينا أنّ عادة تعليق أذيال الحوت في تونس لدرء الأخطار ودفعها نشأت هي الأخرى إمتدادا لاحترام الحدود في حين عبد الكنعانيون, سكان الشّام في القديم, إلها كان يحمل إسم "حدّ" و"حدّاد" بالإضافة إلى إسم "بعل" وذكرنا أنّ الناس تعوّدوا إحترام حدود الأسر وممتلكاتها خوفا من بطش أصحاب تلك الأسر وفي مقدمتهم رؤساؤها الذين هم أباء الأولاد التّابعين لتلك الأسر وأزواج وبعول نسائها وإناثها بحيث أنّ الآباء والبعول والرؤساء كانوا في مقدمة حماة حدود الأسرة والحيّ فسمّوا بهذا الإسم وأشرنا إلى أنّ إسم "حدّ" يتركب من الصوتين "أح" و"أد" الذين ينتميان إلى مجموعة الأصوات الطبيعيّة المجعولة للزجر والنّهر والتّخويف والتّحذير فأطلقت تبعا لذلك بمفردها ومجتمعة على القائمين بهذه المهمّات داخل الجماعات البشريّة وهم الآباء والبعول والرؤساء فمن ذلك أنّ لفظة "أد" و"إدّا" تستعمل في العديد من اللغات في معنى الأب والجدّ في حين

تستعمل كلمة "ودّ" في معنى الحبّ والشهوّة الجنسيّة في سياق اللغة العربيّة على غرار لفظة "إيروس" في سياق اللغة اليونانيّة واللغات الأوروبيّة نقلا عنها وسبق أن شرحنا الأصل والمعنى الحقيقي للفظة "إيروس".

وعلى ضوء هذه التحاليل يمكن أن نقول بأنّ الأديان الطّبيعيّة التي مارستها الشعوب الإنسانيّة في القديم تستند إلى أسس طبيعيّة وتعتبر سلوكا وتصرّفا طبيعيّا مثل كلّ سلوك وتصرّف طبيعي كالأكل والشرب والنّكاح, فقد أوضحنا أنّ الأفعال والأعمال التي كان الناس يقومون بها قديما في إطار الأديان الطبيعيّة هي تكرار وتقليد لبعض التّصرفات الطبيعيّة الموروثة عن الأجداد والآباء الأولين.

كما أبرزنا صحّة الإعتقادات والتّصورات القديمة المتعلّقة بالآلهة والكائنات الغيبيّة الأخرى كالإعتقاد بأن الآلهة كانوا يأكلون ويشربون ويتزّوجون ويغضبون ويتنكّرون ويخافون حيث شرحنا أنّ الآلهة والكائنات الغيبيّة الأخرى كالجنّ والملائكة كانوا أشخاصا وأقواما من البشر وبالتالي فإنهم كانوا يأكلون ويشربون ويتزوجون ويخافون ويتنكّرون.

وخلافا للأديان الطبيعيّة فإنّ الأديان النظريّة التي قامت على أساس فهم خاطئ للأساطير والأديان الطبيعيّة القديمة هي تصورات وأفكار منحرفة وخاطئة وبعيدة عن الواقع تماما لأنّها ضخّمت الإعتقادات الدينيّة الأصليّة ذات الأصول الطبيعيّة الحسيّة وأضفت عليها أبعادا كونيّة وجرّدتها من مضامينها الحسيّة كالقول بأن الآلهة هم قوى روحانيّة خالصة وذوات خالدة وأنّهم خلقوا الكون والإنسان من عدم إلى غير ذلك من الأفكار المجرّدة التي نشأت نتيجة للفهم الخاطئ للمعنى الحقيقي للآلهة ولفكرة الكون وخلقه داخل الأساطير والأخبار الموروثة عن الأجداد والآباء الأولين.

وقد نتج هذا التضخيم وهذا التّجريد النّظري للأساطير والأديان الطّبيعيّة القديمة بفعل بعض الأشخاص والأفراد الذين أوّلوا الأساطير والأديان الطبيعيّة القديمة في هذا الإتّجاه الخاطئ تحت تأثير العديد من العوامل كان أبرزها التّوسع المستمرّ لمجال النشاط البشري الذي ساهم في توسع المعنى الأصلي لبعض الألفاظ مثل لفظة "كون" و"دنيا".

فبعد أن كانت لفظة "كون" و"دنيا" تعني في الأصل المرأة والأسرة توسّع مفهومها تدريجيّا مع توسّع مجال النشاط البشري وأصبحت تعني الكون بمفهومه المطلق فذهب في ظنّ الأجيال المتأخرة من الناس أنّ الكون الذي تتحدث عنه الأساطير وقصص الخلق بصفة خاصة هو الكون على الإطلاق في حين أنّه يرمز إلى الأسر والأحياء البشريّة القديمة.

المعنى الحقيقيّ للأفكار المتعلّقة بالآخرة والرّوح والبعث والقيامة :

فأغلب الأفكار المجرّدة التي انبنت وقامت عليها الأديان النظريّة بما فيها الأديان المنزّلة ظهرت نتيجة للفهم الخاطئ للأساطير والأديان الطّبيعيّة القديمة على غرار الأفكار المتعلّقة بعالم الغيب والآخرة والرّوح والأرواح وتناسخها وقيام الأموات والبعث والجزاء والعقاب.

فنحن نعتبر أنّ كلّ هذه الأفكار والمعتقدات المتعلّقة بعالم الغيب والآخرة والرّوح والأرواح وتناسخها وقيام الأموات والبعث والجزاء والعقاب ظهرت نتيجة لسوء فهم المعنى الحقيقي للأساطير وأصل الأفعال والتّصرفات البشريّة القديمة.

فقد سبق أن أشرنا إلى أنّ عالم الغيب يرمز في حقيقة الحال إلى الماضي الإنساني السحيق وإلى الأوضاع التي كانت قائمة في العهود الأولى من

التاريخ الإنساني بحيث أن الأرواح و الأموات كانوا يرمزون إلى الأسلاف والآباء والأجداد وإلى الأسر والأحياء البشريّة التي كانت تضمّهم وتأويهم عندما كانوا أحياء يرزقون.

ففي هذا السياق أوضحنا أنّ لفظة "ميّت" التي هي مفرد "أموات" في سياق اللغة العربيّة تستعمل في معنى الأسطورة في سياق اللغة اليونانيّة واللغات الأوروبيّة نقلا عنها بحيث يمكن أن نقول بأنّ كلمة "أموات" تعني الأساطير وتكافئ معنويّا كلمة "أساطير" ومن هذا المنطلق فإنّ عالم الأموات هو عالم الأساطير, وشرحنا بالتّفصيل أنّ الأساطير هي أخبار تاريخيّة قديمة تنقل وتروي الوقائع والأحداث الهامّة التي حصلت للأسر البشريّة في العهود الأولى من التّاريخ الإنساني وأفضت إلى بروز هذه الأسر وظهورها للوجود بالشّكل والنّحو الذي كانت عليه حتّى أنّ لفظة "ميت" و"أسطورة" و"قصّة" و"خرافة" كانت تفيد في الأصل معنى المرأة والأسرة والأولاد والحيّ والقرية والمدينة, فكانت كلّ هذه الألفاظ تفيد في أذهان الأجيال الأولى من البشر معنى الأخبار المتّعلّقة بأسلاف الأسرة وأجدادها الأولين.

وذكرنا أنّ الأسر الإنسانيّة كانت تسمّى في القديم باسم "جنّة و"جن" و"جان" فأطلق إسم "جن" و"جان" في بعض السياقات على السّكان الأصليين والأوائل لأرض من الأراضي وللأرض عموما وقد وجدنا أنّ الروح والأرواح تسمّى باسم "جان" في سياق اللغة الفارسيّة بما يدلّ على أنّ الأرواح يرمزون في الأصل إلى النّاس الأوائل والسّكان الأصليين والأوائل للأرض.

ثمّ إنّ كلمة "راح" التي اشتقّت منها كلمة "روح" وجمعها "أرواح" تفيد في سياق اللغة العربيّة معنى الغياب والذهاب في حين تستعمل كلمة "كان" التي هي صيغة لفظيّة لكلمة "جان" كفعل ماضي ناقص في سياق اللغة العربيّة للتّعبير عمّا

حصل في الماضي بحيث يمكن أن نقول بأنّ كلمة "كان" و"جان" تفيد معنى الماضي وتكافئ كلمة "ماضي" وتعتبر كلمة "ماضي" في حدّ ذاتها صيغة لفظيّة لكلمة "مات" و"ميت" نظرا لتعادل الصوت "تا" و"دا" و"ذا" الذي يتخذ صيغة "ضا" عند التفخيم.

كما لاحظنا أنّ الأموات يسمّون باسم "فو" في سياق اللغة الفرنسيّة وتستعمل كلمة "فو" في سياق اللغة الفرنسيّة في معنى النّار والأصل في ذلك أنّ لفظة "فو" مأخوذة من الصوت "أف" الذي يطلقه الإنسان بصورة غريزيّة عند الشعور بالضّيق والمرارة سعيا منه إلى دفع تلك المرارة والتّخلص من ذلك الضيق وإبعاد أسبابه ومسبّباته وقد ظلّ الإنسان يطلق لفظة "أف" و"تف" لدفع الأذى والتّخلص من المرارة كما في وضع الشخص الذي يشرب خليطا مرّا فيرميه من فمه مردّدا الصوت "أف" و"تف" كما يطلقه تبعا لذلك للإبعاد والزّجر والنّهر والطّرد والأمر بالرّواح والغروب عن الوجه ويتمثّل الصوت "أف" في إحداث تيّار هوائي بواسطة النفخ بالفم كحال الشخص الذي ينفخ على النّار لتأجيجها فلأجل ذلك إتّخذ الصوت "أف" معاني لها صلة بالزجر والنّهر والطرد والأمر بالرّواح والإبتعاد وكذلك بالنّار.

ويتّخذ الصوت "أف" صيغة "تف" وكذلك صيغة "فو" و"في" ولاحظنا أنّ كلمة "في" تطلق في سياق اللغة الفرنسيّة على الجنّيات اللواتي يساعدن أبطال وبطلات الخرافات الشعبيّة على التّغلب على المصاعب بحيث أنّ الخرافات الشعبيّة تسمّى في اللغة الفرنسيّة باسم "حكايات في" بمعنى حكايات الجنّيات وتسمّى الخرافة في اللغة الفرنسيّة باسم "كونت" ويستعمل في اللغة الفرنسيّة الحرف "دي" للدلالة على الإضافة فيعبّر عن الخرافات الشعبيّة في الفرنسيّة

بعبارة "كونت دي في" وأشرنا إلى أنّ إسم "كونت" أو "كنت" هو صيغة لفظيّة لاسم "جنة" الذي يفيد معنى الأسرة.

وتشير القواميس الفرنسيّة أنّ كلمة "في" مشتقّة من كلمة "فات" التي تستعمل في اللّغة الاتينيّة في معنى القدر والمصير والجنّيات المكلّفات بتقدير مصير البشر وفي ذات السياق تستعمل كلمة "فات" في اللغة العربيّة في معنى الماضي ومنها اشتقت كلمة "الفوات" التي تفيد معنى الذّهاب والرّواح بحيث أنّ كلمة "فات" تعادل وتكافئ كلمة "ميت" في معنى الماضي والأسطورة وهناك مثل تونسيّ يقول بالحرف الواحد "اللّي فات مات" وفيه تسوية واضحة بين كلمة "فات" و"مات" أو "ميت".

كما أنّ كلمة "فات" و"في" تفيد هي الأخرى معنى المرأة والأسرة على غرار كلمة "ميت" حيث أشرنا إلى أنّ إسم "إيف" و"آف" يستعمل لتسمية النّساء في البلدان الأوروبيّة وكانت زوجة آدم الإنسان الأوّل حسب أسطورة جنّة الخلد والفردوس تسمّى باسم "آف".

وأشرنا إلى أنّ النّار تسمّى في تونس في بعض السياقات باسم "حيّة" و"أحيّة" المشتق من الصوت "أح" وهو صوت طبيعيّ يطلقه الإنسان بصورة غريزيّة عند الشعور بالألم لدفع ذلك الألم والتّخلص منه وإبعاد أسبابه ومسبّباته وعلى هذا الأساس فإنّ الصوت "أف" والصوت "أح" متعادلان بحيث أنّ كلمة "فات" و"في" و"آف" و"فو" تفيد معنى المرأة والحيّ والأسرة على غرار كلمة "ميت" ولاحظنا بالفعل أنّ كلمة "فوايي" المشتقة من الصوت "أف" و"فو" تستعمل في اللغة الفرنسيّة في معنى موقد النار وكذلك في معنى البيت والمنزل والأسرة والعائلة.

فقد كانت كلمة "روح" تفيد هي الأخرى معنى الحيّ والأسرة حيث مازالت كلمة "راحة" المأخوذة من الجذر اللغوي "راح" تستعمل في اللغة العربيّة في معنى الإستراحة بعد العمل والعناء كحال نزول المسافرين في بعض المحطات للإستراحة بعد سير طويل بحيث أنّ كلمة "راحة" تفيد معنى المحطة والمنزل.

ومن هذا المنطلق فإنّ كلّ المعتقدات والحكايات والتّصورات المتّصلة بعالم الغيب والآخرة والأموات والأرواح والقيامة والبعث والنشور والجزاء والعقاب ترمز إلى الأوضاع البشريّة الطبيعيّة التي كانت قائمة في الماضي وإلى الحياة الطبيعيّة التي كان يحياها الأباء والأجداد والأسلاف.

فقد رأينا أنّ جماعة الدّكن في دولة مالي بإفريقيا الغربيّة جنوب الصحراء الكبرى يروون ويحكون أنّ أجدادهم الأولين ينحدرون من قوم غيبيّين يسمّونهم في لغتهم باسم "بن" و"بني" و"ياباني" وكانوا يعبدونهم ويقولون عنهم إنهم يعيشون في قرى شبيهة بقرى البشر غير أنّها خفيّة عن الأنظار ويتجلون أحيانا في شكل أحناش وحيّات وأشرنا إلى أنّ قوم "البن" هم فئة من الجن بحيث أنّ هؤلاء الأقوام يرمزون في حقيقة الحال إلى عمّار الأرض الأوّلين مثل قوم الجن بصفة عامّة وأشرنا إلى أنّ الحيّات والثعابين تسمّى في العربيّة باسم "جان" وترمز إلى سكان الأرض الأولين.

كما أنّ فكرة تناسخ الأرواح التي تقوم عليها جلّ الديانات المتّبعة في الهند والبلدان الآسوية المجاورة ترمز في الأصل إلى التحولات التي كانت تطرأ على حياة الأشخاص وانتقالهم من طور إلى طور كتحوّل الشخص الحرّ إلى عبد وخادم وتابع بسبب الأسر والسّبي.

وتتمثّل فكرة تناسخ الأرواح في الإعتقاد بأنّ الإنسان يتركّب من جسد وروح وبأنّ الروح هي جوهر خالد من عنصر الآلهة لا يصيبه الموت والفناء وإنّها تصيب الجسد فقط بحيث أنّ الروح تخرج من جسد الميّت عند موته وتنتقل إلى جسد إنسان آخر أو حيوان في طور النشأة وتحل فيه وتبعث فيه الحياة وتستعمله محلا لها إلى أن يموت ذلك الجسد فتنتقل الروح إلى جسد آخر وتستمر في انتقالها وحلولها من جسد إلى آخر إلى أن تجد من يخلّصها ويحرّرها من هذا التناسخ وهذا الإنتقال المضني من جسد إلى آخر بواسطة الإنقطاع التّام إلى فعل الخير الذي هو الإنقطاع عن الدنيا وملذّاتها ومغرياتها فتعود الروح جوهرا خالصا وترقى إلى مقام الآلهة والملكوت الأعلى من أين هبطت أوّل مرّة إلى عالم الأجساد الفانيّة.

فقد رأينا أنّ الكثير من الأساطير والخرافات الشعبيّة تتحدث عن انقلاب بعض الأشخاص من البشر إلى حيوانات وجماد في بعض المواقف ورجوعهم إلى طبيعتهم البشريّة الأولى بعد فترة من الزمن يقضونها ممسوخين على هيأة الحيوان والجماد وذكرنا أن هذه الإنقلابات ترمز في حقيقة الحال إلى وقوع الأشخاص من البشر المذكورين في الأسر عند بعض الجماعات البشريّة التي تحمل أسماء بعض الحيوانات تعبيرا عن بعض الصفات والخصال البشريّة المميّزة لهم فيصبح ذلك الأسير عبدا وتابعا لتلك الجماعة وواحدا منها يحمل إسمها الحيواني ويعيش حسب نمط عيشتها ثمّ إنّ ذلك الأسير يتمكن من التّخلص من أسره بصورة من الصور كافتدائه وتقديم فدية معلومة لأسياده الجدد مقابل إطلاق سراحه ويعود إلى قومه الأصليين وإلى وضعه الأصلي كإنسان حرّ في قومه يحمل إسمه الأوّل ويعيش كما كان يعيش في الأصل وعلى هذا الأساس فإنّ الإنقلاب إلى حيوان من الحيوانات يرمز إلى الوقوع في الأسر لدى جماعة

من البشر كانوا يحملون إسم ذلك الحيوان في حين ترمز العودة إلى الطبيعة البشريّة إلى عودة الشخص إلى قومه الأصليين ووضعه الأصلي بينهم.

فكان سوء فهم مثل هذه المواقف والمشاهد الشبيهة بها داخل الأساطير القديمة من طرف الأجيال المتأخرة من الناس سببا في ظهور ونشأة الإعتقاد في التّحول من عنصر إلى عنصر آخر وفي تناسخ الأرواح وحلولها عبر الزمان في أجسام مختلفة لأنواع مختلفة من الكائنات الحيّة وحتى الجماد.

كما سبق أن شرحنا الأصل الحقيقي لفكرة إزدواجيّة الإنسان والإعتقاد بأنّه جسد وروح وأنّه كائن نصفه بشر ونصفه إله باعتبار أنّ الإنسان الأوّل خلق من طين ممزوج بدمّ بعض الآلهة وإمتدادا لهذه التّصورات كانت بعض الشعوب تعظّم بعض الأبطال وتقول عنهم إنّهم نصفهم إنسان ونصفهم إله وتعبّر بعض الخرافات الشعبيّة التونسيّة عن هذه الإزدواجيّة أحيانا بالإشارة إلى أنّ من مميّزات بطلها أو بطلتها أنّ شعره نصفه ذهب ونصفه الآخر فضّة أو أنّه نصف إنسان.

فقد شرحنا أنّ فكرة إزدواجيّة الإنسان ترمز في الأصل إلى الوضع المزدوج للأبناء الذين كان الأسياد ينجبونهم من جواريهم وسراياهم وإيمائهم وسباياهم من البنات والنّساء فكان هؤلاء الأبناء الذين ينجبهم الأسياد من الجواري والسرايا والإيماء أشرافا ونبلاء من جهة آبائهم وعبيدا وتابعين من جهة أمّهاتهم فلأجل ذلك كان هؤلاء الأبناء نصفهم أسياد ونصفهم إنسان وبحسب التّعبير القديم نصفهم آلهة بمعنى أسياد ونصفهم الآخر إنسان أو بشر بمعنى عبيد وخدم وتابعين حيث ذكرنا أنّ الإنسان في القديم يرمز إلى البشر المقرّدين والمستعبدين الذين تعرّضوا إلى التّدجين والتّرويض من طرف بعض الأقوياء والأسياد فصاروا خدمهم وعبيدهم وتابعين لهم وذكرنا أنّ عمليّات التّقريد

والتّدجين كانت في بداية الأمر تستهدف بالأساس فئةّ النّساء والإناث قصد الإقتران بهنّ وتكوين أسر وعائلات بمعيتهنّ بحيث أنّ النساء والإناث عموما كنّ أول فئة يستهدفها التّفريد والتّدجين وأوّل فئة مثّلت الإنسان في معنى الخادم والتّابع والبشر والنّاس عموما.

ومن هذا المنطلق فإنّ فكرة إزدواجيّة الإنسان ترمز في الأصل إلى إزدواجيّة أصله الطّبيعي باعتباره كائن ينحدر من رجل ذكر وإمرأة أنثى وكان الرجل السيّد والمرأة تعتبر العبد والتّابع والخادم فكانت فكرة الإزدواجيّة ترمز في البداية إلى هذه الإزدواجيّة للأبناء الذين ينجبهم الأسياد من الجواري والسرايا والإيماء بعد أن إنقسمت فئة النّساء بدورها إلى زوجات أصليّات شريفات وجواري مسبيّات ومستعبدات ثمّ إنّ أمرها ضاع تدريجيّا عن أذهان النّاس وتحوّلت إلى إعتقاد في أنّ الإنسان يتركّب من روح وجسد وفي هذا الصدد نشير إلى أنّه امتدادا لهذه الأوضاع والأفكار كان بعض المتكلّمين النّصارى في القرون الوسطى يعتبرون أنّ المرأة ليس لها روح وأنّها جسد محض كما أنّ بعض الفلاسفة الفرنسيين في القرون الماضيّة ينفون أن تكون للحيوانات روح باعتبار أنّ الروح عنصر إلهي.

وانسجاما مع هذه الشروح وجدنا أنّ الرّوح والأرواح عموما تسمّى باسم "سبريت" و"سبيريتوس" و"إسبري" في نطاق اللغة اللاتينيّة واللغات الأوروبيّة الناقلة عنها كالفرنسيّة والأنقليزيّة, وتستعمل لفظة "إسبري" في سياق اللغة الفرنسيّة أساسا في معنى أرواح الأموات.

وأشرنا إلى أنّ إسم "سبريت" و"إسبري" وسبيريتوس" هو صيغة لفظيّة لاسم "شبّورة" و"شبّورات" الذي كان يطلق على نوع من القصبات والأبواق وكانت تستعملها بعض الجماعات البشريّة كاليهود للاستنفار والدّعوة إلى التّجمع

للتشاور في أمر الجماعة وذكرت كتب التاريخ العربي أنّ المسلمين الأوائل في بداية ظهور الإسلام في الحجاز بالجزيرة العربيّة قبل حوالي أربعة عشر قرنا تشاوروا في وسيلة يعتمدونها للدعوة إلى الإجتماع في الجوامع والمساجد للصلاة وغيرها من الأمور فأشار بعضهم على إعتماد الشبّورات على عادة اليهود. ثمّ إنّ المسلمين إتّفقوا على إعتماد الآذان ويتمثل في استعمال الكلام العادي بالصوت القويّ من فوق أماكن تسمّى مئذنة مرتفعة نسبيّا.

فقد أشرنا إلى أنّ قادة وأسياد الجماعات البشريّة كانوا في العهود الأولى من التّاريخ الإنساني يستعملون بعض الأصوات الطّبيعيّة للتّنبيه والتّحذير مثل الصوت "أس" الذي يحدثه الإنسان بواسطة الصفير فاستعملت بعض هذه الأصوات للدعوة إلى الإجتماع في مكان معلوم كما استعملت لتسمية الأسياد والقائمين بوظيفة التّنبيه في المجتمعات الإنسانيّة مثل استعمال الصوت "أس" في صيغة "سي" في معنى السيد ثمّ إنّ الإنسان تعلّم استعمال النفخ على القصب لأحداث الأصوات وعلى المواد المجوّفة كالقرون فاعتمد القصب والقرون للتّنبيه والتّحذير والدّعوة إلى الإجتماع وسمّي بعضها باسم الأبواق وهو إسم جمع ومفرده "بوق" ويستعمل المصريون إلى اليوم في لغتهم العربيّة الدّراجة كلمة "بوق" في معنى الفم.

كما تستعمل كلمة "باك" في الفرنسيّة في معنى منقار الطير وكذلك في معنى فم الإنسان الذي يسمّى أيضا في الفرنسيّة باسم "بوش" وفي اللاتينيّة والإيطاليّة باسم "بوكا".

فكلّ هذه الكلمات هي صيغ لفظيّة لكلمة واحدة تتركب أساسا من الصوت "أب" والصوت "أخ" بالنسبّة لاسم "بوكا" و"باك" ومن الصوت "أب" والصوت "أش" بالنسبة لاسم "بوش" حيث ذكرنا أنّ الصوت "أخ" يتّخذ أيضا

صيغة "كا" و"قا" في حين أنّ الصوت "أش" هو أيضا صيغة من صيغ الصفير كما أشرنا إلى أنّ الصوت "أب" و"الصوت "أخ" هما أيضا صوتان طبيعيّان يستعملهما الإنسان للتّنبيه والتّحذير والتّخويف سواء بمفردهما أو مجتمعين كما في لفظة "بوق" و"بوك" و"أبوك" ومازال السكّان في تونس يستعملون إلى اليوم كلمة "أبوك" للتّنبيه والتّحذير والتّخويف.

ولأجل ذلك سمّيت القصبات والقرون والشبورات المستعملة للتّنبيه والتّحذير والدعوة إلى التّجمع باسم الأبواق لأنّها امتداد للفم واستعمالاته المتعدّدة كإحداث الصفير للتّنبيه والتّحذير.

وكان الكبار والأسياد هم الذين يقومون بمهمّة التّنبيه والتّحذير والتّخويف والإستنفار والدّعوة إلى التّجمع داخل الأسر والجماعات البشريّة في العهود الأولى من التاريخ الإنساني فسمّوا تبعا لذلك باسم "بوك" و"باك" كما هي الحال في تونس حيث تستعمل كلمة "باك" في معنى السيد في تونس لذلك فإنّ لفظة "بوك" وصيغها تفيد معنى الفم والأبواق والتّنبيه والتّحذير وكذلك معنى الأسياد القائمين بالتّنبيه والتّحذير بواسطة الفم والأبواق كما أنّ لفظة "اسبري" وصيغها المتعدّدة تفيد معنى الشبورات والأبواق وكذلك معنى الأسياد والكبار ومن بينهم الأباء والأجداد بما يدّل مرّة أخرى على أنّ الأرواح يرمزون إلى الأباء والأجداد والأسياد الذين أسّسوا الأسر الإنسانيّة في العهود الأولى من التاريخ الإنساني وتولوا قيادتها وتسييرها بواسطة الصفير والأبواق والقصبات والشبورات.

وفي هذا السياق تذكر الأساطير المصريّة القديمة أنّ إله المصريين القدماء أوزيريس هو الذي وحّد القبائل المصريّة في شعب واحد بواسطة الغناء والمزامير ولا شكّ أنّ هذا الإعتقاد يرمز إلى استعمال القرون والقصبات

والشبورات للدّعوة إلى التّجمع في مكان معلوم للتشاور في أمور الجماعة, وتقول الأساطير المصريّة أنّ الإله أوزيريس أصبح بعد وفاته ملكا لعالم الأموات والأرواح.

فالأرواح يرمزون إلى الأباء والأجداد والأسلاف الذين كانوا يحظون بالتعظيم والتّقديس من طرف الجماعات المنحدرة منهم وبالخصوص إلى أسياد الأسر التي انحدرت منها تلك الجماعات.

وأشرنا إلى أنّ الجنّ يسمّون باسم الأسياد في بعض البلدان العربيّة وقلنا إنّ الروح تسمّى باسم "جان" في سياق اللغة الفارسيّة. كما لاحظنا أنّ الأرواح والجنّ عموما يسمّون باسم الأرياح في البلاد التونسيّة على غرار إسم التيارات الهوائيّة في سياق اللغة العربيّة وهو الريح ويجمع على أرياح ويقول السكان في تونس مثلا مضمونه "اللّي وراه الأرياح ما يرتاح" وأشرنا إلى العلاقة القائمة بين عمليّة النفخ وإحداث التيارات الهوائيّة ومفهوم الأرواح والأموات في مستوى استعمال كلمة "فو" وكلمة "اسبري" في معنى الأرواح والأموات.

وتسمّى الريح في اللغة الفرنسيةّ باسم "فان" الذي يمكن أن يتّخذ صيغة "بن" و"بان" وأشرنا إلى أنّ البن هم فئة من الجنّ كما أنّ اليونانيين القدماء كانوا يعتقدون في كائن غيبي إسمه "بان" وكانوا يقولون عنه إنّه أوّل من اكتشف فكرة عمليّة النفخ على القصب لأحداث الأصوات والألحان.

ويدعى السيد والرئيس في الفرنسية باسم "شاف" وتستعمل كلمة "شاف" في البلاد التونسيّة في معنى "رأى وأبصر ونظر" كما يستعمل أهل تونس كلمة "شبح" في معنى أبصر ورأى ويطلق على الميت أحيانا إسم "شبح" ويجمع على أشباح وتطلق كلمة "شبح" و"أشباح" بصفة خاصة على الأموات الذين يتجلّون للأنظار حسب بعض الإعتقادات كما يطلق على الشبح والجن في العربيّة إسم

"رئي " وخاصة على نوع من الجنّ يسمّى باسم التّابع ويجمع على توابع وهو إسم مشتّق من لفظة "رأى" المأخوذة من الجذر "إر" وقد سبق أن حللنا أصل ومعنى الصوت "إر" والصيغ التي يتّخذها ومنها لفظة "ري" التي تستعمل في بعض اللغات الأوروبيّة في معنى الملك والسيّد كما هي الحال في الإيطاليّة والإسبانيّة.

وعلى هذا الأساس فإنّ الأموات والأرواح والآلهة والجان والملائكة وأشباههم من الكائنات الغيبيّة يمثّلون أشياء وحقائق واحدة ويرمزون إلى الأباء والأجداد والأسلاف الذين كانوا أوّل من عمّر الأرض ومهّدها للذين جاءوا بعدهم ثمّ إنّهم مضوا إلى حال سبيلهم وظلّوا محلّ تعظيم وإجلال وتقدير من طرف أبنائهم وأحفادهم والأسر التي انحدرت منهم كما ظلّوا محل خوف واحترام لأنّهم كانوا الأسياد والحكام وأولى الأمر في أقوامهم وكذلك محلّ اتّباع وتقليد من طرف الذين جاءوا بعدهم بحيث أنّ الحياة الماضية ظلّت وبقيت مستمرّة كما كانت تقريبا خلال الحياة الحاضرة وأصبحت الحياة الحاضرة شبيهة بالحياة الماضيّة خاصّة فيما يتعلّق بتوارث الأدوار والوظائف والمهمات فكانت هذه الإستمراريّة عاملا آخر من العوامل الباعثة على الإعتقاد في تناسخ الأرواح وفي الأشباح والتّوابع حيث أنّ كلمة "شبح" هي صيغة لفظيّة لكلمة "شبه" وقد لاحظنا أنّ بعض الجماعات في موريتانيا بشمال إفريقيا مازالوا إلى اليوم يسمّون الأشخاص باسم "شبيه فلان" وعادة ما يكون المشبّه به من الأشخاص البارزين والعظماء المتقدّمين قدرا وعلما حيث هناك مثلا بعض الأشخاص الذين يدعون باسم "شبيه الشيخ ماء العينين" وقد كان الشيخ ماء العينين من العلماء والمرابطين والمجاهدين في موريتانيا والمغرب الأقصى في القرن التاسع عشر الميلادي كما كانت هذه العادة جارية عند بعض شعوب الشرق الأوسط في القديم حيث كان الأشخاص يسمّون مثلا باسم ميخائيل الذي

يعني شبيه الإله وروح الإله ويتركب من كلمة "ميخا" وتعني روح وشبيه وكلمة "إيل" وتعني إله وتعتبر كلمة "ميخا" صيغة لفظيّة لكلمة "مخ" التي مازالت تستعمل إلى اليوم في تونس في معنى الدّماغ والفكر والروح والخلاصة كما في قول السكان في تونس "مخ الحكاية" أو "مخ الهدرة" بمعنى خلاصة وروح الحكاية وخلاصة وروح القول وتستعمل كلمة "روح" عادة في معنى خلاصة الشيء وكذلك الشأن بالنسبة لكلمة إسبري فإنّها تستعمل في الفرنسيّة في معنى الخلاصة كالخلاصات التي تستخرج من النباتات والمواد بحيث يمكن أن نقول بأنّ خلاصة الشيء هو الذي يبقى من الشيء بعد غيابه وذهابه وعلى هذا الأساس فإنّ كلمة شبيه" و"مخ" تعادل كلمة الإبن والعقب والعبد والجنّ حيث أنّ الإبن يمثّل أباه وكذلك الشأن بالنسبة للعبد وَالتّابع فإنّه يمثّل سيّده وقد كان الأبناء يعتبرون عبيدا وتابعين لآبائهم مثلما ظلّت عادات الكلام والتّعبير تشهد عليه كتسمية الأب باسم "سيد" في الجنوب التونسي فلأجل ذلك كان العرب يسمّون أولادهم باسم "عبد شمس" و"عبد الله" إلى جانب نسبتهم إلى آبائهم باستعمال لفظة "بن" بحيث يمكن أن نقول بأنّ اسم "ميخائيل" يعادل إسم "عبد الله" و"عبد شمس" باعتبار أنّ لفظة شمس هي إسم لإله عبده العرب في القديم.

وتتّخذ لفظة "مخ" صيغة "مش" و"مس" نظرا لتعادل الصوت "خا" والصوت "شا" والصوت "سا" من حيث إستعمالها للزجر والتّخويف والتّحذير وقد لاحظنا أنّ لفظة "مس" و"مش" تستعمل في العديد من اللغات الإنسانيّة في معنى الأبناء وكذلك في معنى الأسياد كما هي الحال في البربريّة وتتّخذ أيضا صيغة"مز" بالزّاء.

وسبق أن ذكرنا أنّ كلمة "مس" تعادل كلمة "بس" التي يستعملها الإنسان للزجر والنّهر والتّخويف والتّحذير وأصلها الصفير حيث أنّ الصفير يتّخذ صيغة

"أس" و"أش" و"أست" و"اشت" و"بس " و"بست" وأحيانا يفخم الصوت "سا" فيتّخذ صيغة "أص" و"بص" فلأجل ذلك أطلقت على الأبناء والأسياد باعتبار أنّ الأبناء هم أيضا محل زجر ونهر وتخويف في حين أنّ الأسياد هم الذين يقومون بمهمات الزجر والنّهر والتّخويف والتّحذير.

ففي هذا السياق كان الملوك الفراعنة الذين حكموا مصر في القديم يعتبرون أنفسهم آلهة وأبناء آلهة في الآن نفسه ينحدرون من الآلهة الذين كان يعبدهم المصريون القدماء وكان بعضهم "يحملون أسماء من قبيل إسم "شبيه الشيخ ماء العينين" مثل الفرعون المعروف "توت عنخ أمون" الذي حكم مصر في القرن الرابع عشر قبل الميلاد فإنّ إسمه يعني "الشبيه الحي لأمون" و"الرّوح الحيّ لأمون" و"الإبن الحيّ لأمون" وقد ذكرنا أنّ أمون هو إله قديم كان يعبده سكان شمال إفريقيا قديما المعروفون باسم الليبيين أو اللّوبيين كما كان يعبده المصريون القدماء وكان له معبد مشهور بواحة سيوه على الحدود الليبيّة المصريّة جنوبا.

فعلى ضوء ما قدّمناه من شروح وتحاليل ضافيّة للمعنى الحقيقي للآلهة يمكن أن نفهم المغزى الحقيقي لقول فراعنة مصر القدماء إنّهم أبناء آلهة وأنّهم آلهة حيث ذكرنا أنّ الآلهة يرمزون إلى الأسياد والملوك والآباء والأجداد الكبار الذين ساسوا وقادوا الأسر الإنسانيّة في العهود الأولى من التاريخ الإنساني وقاموا بتأسيس وإنشاء بعض الأسر المالكة فظلّ أفراد هذه الأسر يعتبرون أنفسهم من عنصر الآلهة وينحدرون من الآلهة على غرار فراعنة مصر في القديم.

لكنّ بعض الأشخاص أساءوا فهم هذه الحقائق التاريخيّة الحسّية فحوّلوها إلى أفكار دينيّة توهم بوجود أشياء وجواهر مجرّدة إسمها الروح والأرواح

والآلهة والجن والملائكة يقيمون خالدين أبد الآبدين في عالم غيبيّ لا تدركه الأبصار إلى جانب عالم البشر الأحياء والأشياء المحسوسة الفانية ويسمّونه بعالم الشّهادة لأنه يشاهد ويرى بالعين بخلاف عالم الغيب الذي لا يشاهد ولا يرى بالعين.

فعالم الغيب يرمز في الأصل إلى الماضي الإنساني وإلى البشر الذين عاشوا في ذلك الماضي لفترة من الزمن فوق بعض بقاع الأرض ثمّ راحوا وتركوا أشباههم وأبناءهم وأتباعهم من بعدهم يواصلون السّير على منوالهم ويقلّدونهم في كلّ ما صنعوا وعملوا لأنّهم ربّوهم على تقليدهم وإتّباعهم ومن ترك شبيهه فكأنّه لم يمت حيث أنّ "شبيهه كهو" مثلما يقول المثل العربي.

وقد كان هذا التّواصل وهذه الإستمراريّة الطبيعيّة بين الأجيال المتعاقبة من الناس وراء ظهور الأفكار والإعتقادات المتعلّقة بوجود بعض الإتصالات بين البشر الأحياء والكائنات الروحانيّة الغيبيّة المنتمين لعالم الغيب وفي مقدّمتهم الآلهة والجن والملائكة عن طريق الوحي والبعث وكذلك عن طريق الزواج إلى جانب القول بقيام الكائنات الغيبيّة وتجليهم للعيان في بعض الأوقات.

فقد كان العرب في القديم يروون أنّ الشعر الذي يقوله الشعراء هو من وحي الجن والشياطين وأنّ كلّ شاعر له جن أو شيطان يملي عليه ما يقول من أشعار ويسمّون هؤلاء الجن والشياطين الذين يوحون بالشعر للشعراء باسم التّابع والرّيء ويجمع إسم تابع على توابع وقد كتب أديب عربي من أدباء الأندلس العربيّة في القرن الحادي عشر ميلادي إسمه إبن شهيد رسالة معروفة باسم "رسالة التّوابع و الزوابع" يصف فيها رحلة خياليّة قام بها في عالم الجن والتوابع وإلتقى خلالها بتوابع وشياطين عدد من مشاهير الشعراء العرب قبل الإسلام

وبعده من بينهم إمرئ القيس وطرفة وأبو تمام وأبو الطيّب المتنبي كما إلتقى بتوابع بعض مشاهير الكتاب العرب كالجاحظ وبديع الزمان الهمذاني.

كما كان اليونانيون القدماء يعتقدون أنّ الجن هم الذين يلهمون الشعراء والأدباء والفلاسفة ويوحون لهم بالأشعار والغناء والحكمة والبيان ويسمون هؤلاء الجن باسم "موساي" وينطق في بعض اللغات الأوروبيّة الناقلة عن اليونانيّة كالفرنسيّة باسم "موز" ومنه جاءت كلمة موسيقى.

وفي حقيقة الحال فإنّ الشعوب الإنسانيّة كانت تعتقد في القديم بأنّ الجن هم الذين ابتدعوا الشعر والغناء والحكمة والبيان وعلّموا كلّ هذه المعارف والفنون للبشر بحيث أنّ الإلهام والوحي كان يتمثل في الأصل في التعليم المباشر لهذه المعارف والفنون للبشر.

فقد رأينا أنّ اليونانيين القدماء كانوا يروون بأنّ كائنا غيبيّا إسمه بان هو الذي اخترع القصبة التي ينفخ عليها للغناء وكانوا يقولون عنه إنّه أخ الإله زوس من الرّضاع كما تضمنت كتب التراث العربي الكثير من الأخبار التي تفيد بأنّ الشيطان هو الذي إبتدع الغناء وآلات الطرب وعلّم استعمالها للبشر من بني آدم ليغويهم ويلهيهم عن فرائضهم الدينيّة إنتقاما من أبيهم آدم الذي تسبّب في تردّيه إلى وضع العاصي لله والطريد من الحضرة الإلهيّة بعد إمتناعه عن السجود له مثل سائر الملائكة الآخرين.

ومازالت هذه الإعتقادات متجسّمة إلى اليوم في مستوى التّعابير اللغويّة حيث يسمّي النّابغون من البشر في الأدب والفنون والعلوم باسم عباقرة في سياق اللغة العربيّة وهو إسم جمع ومفرده عبقري بينما يسمّى النابغة حرفيا باسم "جنّي" في سياق اللغة الفرنسيّة وقد أخذ الإسم "عبقري" من إسم "عبقر" وهو إسم قرية كانت تسكنها الجن حسب إعتقاد العرب في القديم.

وجاء في القواميس العربيّة أنّ إسم "خرافة" الذي يطلق على الحكايات الأسطوريّة في اللغة العربيّة هو في الأصل إسم شخص من البشر إختطفه الجن وعاش فترة معهم في قراهم الغيبيّة ثمّ رجع إلى قومه من البشر فصار يحدّثهم بما رأى من عجائب في بلاد الجنّ فكانوا يستغربون من حديثه ويستملحونه حتى أطلقوا إسمه على الخرافة والخرافات بوصفها قصص عجيبة.

فالأصل في كل هذه الإعتقادات والأفكار أنّ الفنون والمعارف التي إكتسبها الناس ومارسوها في القديم هي بالفعل من صنع وإنتاج وإبتداع الآلهة والجن والملائكة الذين يرمزون إلى الطبقات الأولى من البشر والناس الأوائل مثلما شرحناه بالتفصيل في تحاليلنا المتقدّمة فكان الآلهة والجن والملائكة باعتبارهم يرمزون إلى النّاس الأوائل هم أوّل من عمّر الأرض ومهّدها وهم الذين وضعوا أسس الحضارة الإنسانيّة من خلال إكتشافهم لفكرة ومبادئ جلّ الفنون والمعارف التي إعتمدها الناس ومازالوا يعتمدونها إلى اليوم في حياتهم ومعاشهم فكانوا هم المكتشفون لفكرة إستعمال النار لشتّى الأغراض ولفكرة إستعمال الأدوات كالعصي والأحجار لشتّى الأغراض وفكرة إستعمال البيوت والمنازل بمختلف أنواعها واكتشفوا إستعمال الحبال لشتّى الأغراض وفكرة الإحتيال والتموية والرّمي من بعد وقطع مياه الأنهار والبحار بواسطة القوارب وتدجين الطبيعة وغيرها من الأفكار والفنون والمعارف فضلا عن الكلام والتّخاطب المباشر وعن بعد.

ومن هذا المنطلق فإنّ الإعتقادات المتعلّقة بتلقي البشر للفنون والمعارف من عند الآلهة والجن والملائكة ترمز إلى عمليّات نقل وتبادل ونشر الفنون والمعارف بين النّاس من الكبار إلى الصغار ومن المتعلمين إلى الجاهلين بواسطة التربيّة والتّعليم والتّلقين والتّقليد والإتبّاع.

فقد رأينا في الفصل الأوّل أنّ تأسيس وإنشاء الأسر كان يمرّ ويحصل عبر عمليّات التفريد والتّدجين والترويض والإستعباد التي كانت تشتمل على تهذيب الأشخاص الذين تعرّضوا إلى التفريد والتّدجين وتعليمهم وتلقينهم المعارف والفنون المكتسبة وكان هذا التعليم والتّهذيب يتمّ بواسطة التّقليد والإتّباع كما هي الحال إلى اليوم حتّى أنّ لفظة "أمة" التي تطلق على الجارية والمرأة التابعة لأحد الأسياد تفيد في سياق اللغة الفرنسيّة معنى التقليد والإتّباع وإلى جانب نقل المعارف والفنون من الكبار إلى الصّغار ومن الآباء إلى الأبناء بواسطة التربيّة كان السبي والإستعباد واستعمار الأراضي من أهمّ العوامل التي ساعدت في القديم على نشر المعارف والفنون بين النّاس وساهمت في ظهور الإعتقادات المتّصلة بالوحي والبعث والإلهام, فقد كان الأسياد يفرضون لغتهم وعاداتهم وتقاليدهم ونمط عيشهم على عبيدهم وأسراهم كما كان الأسرى والعبيد من الجنسين ينقلون عاداتهم وتقاليدهم ومعارفهم إلى أسيادهم وإلى الجماعات التي تستعبدهم وخاصة منهم النّساء والإناث اللواتي يقعن في السبي والإستعباد ويصبحن جواري وإيماء لأسيادهم ومربّيات ودادات لأولادهم.

فقد حكم الأتراك في تونس مدّة ناهزت أربعة قرون وانتهت سنة 1957 ومع أنّ الأتراك ينتمون إلى لغة وثقافة تختلف عن لغة وثقافة الشعب التونسي وكانوا خلال هذه الفترة أسيادا وحكّاما فإنّهم تأثّروا باللغة والثقافة التونسيّة وأصبحوا في نهاية حكمهم يتكلّمون العربيّة التونسيّة ويعتبرون أنفسهم منتمين إلى البلاد التونسيّة بخلاف الفرنسيّين الذين إحتلّوا واستعمروا تونس من 1881 إلى 1956 فإنّهم كانوا ينتمون إلى لغة وثقافة مغايرة للغة والثقافة التونسيّة وكانوا أسياد البلاد وحكّامها خلال الفترة المذكورة فنشروا لغتهم وثقافتهم ومعارفهم وفنونهم في تونس ولم يتأثّروا باللغة والثقافة التونسيّة.

ونشير في هذا السياق أيضا إلى أنّ العبيد السّود من الأفارقة السود الذين كانوا مستعبدين في تونس تأثّروا كثيرا باللغة والثقافة التونسيّة ولكنّهم نشروا أيضا البعض من عاداتهم وتقاليدهم الإفريقيّة بين أوساط الشعب التونسي فكان لهم مثلا الدور الرئيسي في نشر الإعتقاد في بعض الأولياء الصالحين الذين كانوا ينسبون إليهم ويحسبون عليهم مثل الولي سيدي سعد الشوشان بجهة مرناق بالقرب من العاصمة تونس والولي سيدي مرزوق العجمي بجهة قفصة والجريد بالجنوب التونسي.

ومازال الناس إلى اليوم في تونس يصفون الشخص المنفعل بأنّه تملّكه البوري وهو إعتقاد له أصول إفريقيّة من الناحيّة اللغويّة حيث أنّ كلمة بوري تستعمل في بعض اللغات الإفريقيّة جنوب الصحراء الكبرى في معنى قريب من معنى كلمة أسياد وجن وآلهة في اللغة العربيّة بحيث أنّ عبارة "تملكه البوري" تعادل عبارة "تملكه الجن" أو "جنّ" وقد شرحنا في تحاليلنا المتقدمّة المعنى الحقيقي لهذه الإعتقادات والتّعابير اللغويّة المتعلّقة بها والتي لها صلة وثيقة بما نحن بصدد البحث فيه.

ففي هذا السياق ذكرنا أنّ بعض الجماعات البشريّة كانت تضطر للعديد من الأسباب إلى مغادرة وطنها الأوّل والهجرة إلى موضع جديد فيتصدّى لها السكان الأصليّون لذلك الموضع وعمّاره الأوائل الذين سبقوهم إليه ويظهرون لهم فجأة من بين الأدغال والأشجار والكهوف والغيران حفاة عراة قد كسى أبدانهم الشعر وطالت أظافرهم وليس عندهم ما يأكلون سوى ما تدّر به عليهم الأرض وقت خصبها ولكنّ بعضهم استطاع مع ذلك أن يكتسب بعض المعارف والفنون التي يجهلها المستعمرون الجدد فيحصل بين الجماعتين الإصطدام الذي غالبا ما يجد حلّه وتسويته في قيام المستعمرين الجدد للأرض بجبر خاطر أهلها

وأصحابها الأوّلين من خلال إعطائهم ضريبة موسميّة وشتّى العطايا والهدايا لإرضائهم وطلب ودّهم ثمّ إنّ الجماعتين يتجاوران ويتبادلان ما عندهما من المعارف والفنون والأخبار المتّصلة بنشأة كلّ جماعة وأصلها الأوّل وما جرى لأجدادها وآبائها وهي جملة الأساطير والخرافات الشعبيّة التي ظلّ الناس يتداولونها عبر السنين وقد يصل بهما الأمر إلى المصاهرة والإتّحاد في نطاق شعب واحد, كما أنّ علاقتهما تظلّ محدودة في حالات أخرى وقد أشرنا في تحاليلنا المتقدّمة إلى أنّ المستعمرين الجدد يظلون في بعض الحالات يجهلون كلّ شيء عن أصحاب الأرض الأولين بعد أن يتفاهموا بشأن إقامتهم بجوارهم مع بعض ممثليهم.

وذكرنا أنّ العمّار الأولين لأرض من الأراضي كانوا يسمّون باسم الجن فنشأت عن هذه الأوضاع كلّ تلك الإعتقادات المتعلّقة بالإتّصالات بين الجن والبشر وبتعلّم البشر للشعر والغناء والطّرب من الجن والزّواج بين الإنس والجنّ واختفاء الجن عن الأنظار وغيرها من الإعتقادات والأفكار الشبيهة.

وروت الشعوب الإنسانيّة الكثير من الأساطير والخرافات التي تنسب ابتداع الغناء والرّقص والطّرب للجن والملائكة منها خرافة شعبيّة يتداولها السّكان في الأقطار المغاربيّة ومضمونها أنّ أحدبا دخل الحمّام يوما فوجد فيه جماعة من الجن يرقصون ويغنّون فلما أبصروا به أسرعوا للقبض عليه وتحلّقوا حوله وصاروا يرقصون وينشدون.

"إقبض على الأحدب لا يفلت   برمة وكسكسي باللفت"

فانطلق الأحدب يرقص ويغني مع الجنّ ورافقهم في اللحن فأجاد أداءه ولم يخرج عن الميزان فأعجب الجن ببراعته في تقليدهم وبمهارته الفنية فعالجوه ونزعوا حدبته وصار سليما وتعلم منهم نصيبا من الغناء وبثّه في قومه وتضيف

القصة أنه لقي ذات مرّة صديقا له أحدب هو الآخر فوصف له ما جرى له فأراد أن يجرّب حظّه فدخل الحمام ووجد الجن يرقصون ويغنّون غير أنه لم يتقن تقليدهم وزاد على شعرهم قوله "واللبن معاه" بمعنى مع الكسكسي باللفت وحاد عن الميزان فغضب عليه الجن وجعلوا له حدبة ثانية مع حدبته الأولى عقابا له على رداءة أدائه, وهي أسطورة منتشرة في صيغ متعدّدة في البلدان الإفريقيّة جنوب الصحراء الكبرى منها واحدة تذكر أنّ شابّا وسيما وجد مرّة الجن يرقصون ويغنّون في الليل وهم يدورون حول شجرة فتعلم منهم الغناء ولكنّهم طلبوا منه أن لا يغنّي بغنائهم أمام قومه غير أنه أخلف الوعد فعاقبه الجن وجعلوه أحدبا.

كما جمعنا في هذا المعنى خرافة شعبيّة كانت تحكيها بعض الجماعات في منطقة القوقاز في آسيا الوسطى ومضمونها أنّ إحدى قبائل شعوب النّارت كانت قديما تمسك بكلّ فرد من أفرادها يتقدّم في السنّ ويعجز عن القيام بأدواره الحياتيّة, فتأخذه حيّا وتذهب به خارج القرية التي تسكنها إلى جبل قريب إسمه جبل الأسلاف ثمّ تضعه في عربة من القصب وبعد توديعه يرمى به من فوق ذلك الجبل في حفرة سحيقة.

فاتّفق أنّ أحد هؤلاء النّارتيّين أخذ أباه العجوز ليرميه من فوق الجبل في حفرة الأسلاف وكان إسم أبيه بادن وكان يحبّه ويجلّه ولكنه كان مجبرا على اتّباع سنّة قومه فوضعه في عربة من القصب ودحرجه إلى أسفل فشاءت الصّدف أن يتعلّق العجوز أثناء سقوطه بغصن شجرة فرآه إبنه في ذلك الوضع فأسرع إلى إنقاذه وصعب عليه أن يلقي به مرّة أخرى في الحفرة فأخفاه في كهف وصار يزوره بين حين وآخر ويأتي له بشيء من الأكل والشرب فأصابت ثمار القرية عاهة وكادت القبيلة أن تموت فدل العجوز بادن إبنه على أشجار

مثمرة وسط الغابة المجاورة ليغرسها عوض الأشجار القديمة وهكذا خلّص القرية من الفناء المحتوم ثمّ أصابت أكباش غنم القرية داء أهلكها فدلّ العجوز إبنه إلى مكان به أكباش وحشيّة لركوب النعاج وهكذا نجت أغنام القوم من الهلاك وأخيرا أصيبت حقول الزرع بعاهة فجاء القوم لابن بادن ليخلّصهم ظنّا منهم أنّه صاحب الأفكار والحلول التي خلصتهم من الأمراض السابقة فأعلمهم بالقصّة وذكر لهم أنّ أباه هو الذي يعلّمه الأمور فهرعوا نحو الكهف وقدّموا لبادن آيات الشكر والعرفان وتابوا عن قتل المسنّين وعزلهم في حفرة الأسلاف.

وفي هذا السياق أيضا يروي السّكان في تونس خرافة شعبيّة شبيهة مفادها أنّ أحد الملوك الجبّارين تملّك بإحدى القرى فأمر بقتل شيوخها وكهولها وشبابها البالغ ولم يترك إلاّ النساء والأطفال وبعض اليافعين والغلمان وتمكن أحدهم من إنقاذ والده وتهريبه إلى أحد الجبال المجاورة وأصبح يزوره من وقت إلى آخر ويزوّده بالطّعام والشراب.

فنظّم الملك المستبد ذات يوم مسابقة تتمثّل في منح جائزة سنيّة لمن يستطيع أن يحمل له قصعة مملوءة طعاما على رأس ثور هائج فأخبر الولد أباه فأشار عليه أن ينتقي أجهل رجل في القرية ويحمل على رأسه القصعة وذلك بأن يسأل المارّة عن تاريخ اليوم الذي هم فيه والذي لا يعرف الجواب فهو أجهلهم فيحمل القصعة على رأسه إلى الملك لأنّه جاهل كالثور وكان الأمر كذلك فاستحسن الملك فكرته ومنحه الجائزة, لكنّه إستراب من أمره فكلّف أحد حراسه بمراقبته وكان للحارس كلب فأوصاه والده بأن يحسن لكلب الحارس مثلما يحسن لكلبه فعمل بنصيحة أبيه حتّى ألفه كلب الحارس وصار وفيّا له.

وبعد أيام نظّم الملك مسابقة ثانيّة تتمثّل في منح جائزة لمن يأتيه بعدوّه وصديقه في ذات الوقت فأشار عليه أبوه أن يحضر معه يوم المسابقة كلبه

باعتباره صديقه لأنه يحرسه ويحميه ولا يخونه ويحضر أيضا زوجته باعتبارها عدوّة لأنّها تخونه وتفشي سرّه وكان الأمر كذلك فقامت زوجته وهي غاضبة والتفتت إلى الملك وقالت له حيث أنّه جعلني عدوّه اللدود فإنّي أعلم حضرتكم بأنّه يخفي أباه في الجبل وأنّه يزوره من وقت إلى آخر ويزوّده بالطّعام والشراب فاغتاظ الملك وأمر حارسه أن يزّج بالشاب في السجن ويطلق معه كلب الحارس ليأكله غير أنّ كلب الحارس الذي ألف الشاب لم يمسسه بسوء وعاد الحارس في الصباح فوجد الشاب حيّا يرزق والكلب بجانبه يتمسح عليه فرفع أمره إلى الملك فحكى له حكاية أبيه من أوّلها إلى آخرها وأعلمه أنّ أباه هو الذي أرشده على كلّ الحلول فاستحسن الملك فعله وعفا عنه وعن والده وأصلح من سلوكه تجاه النّاس.

اصل العادات الجنائزيّة ودورها في ظهور المعتقدات الغيبيّة:

كما أنّ الكثير من العادات الجنائزيّة التي مارستها الشعوب الإنسانيّة إمتدادا لبعض الأوضاع الطبيعيّة القديمة ساهمت في ظهور فكرة القيامة والأرواح والبعث والجزاء والعقاب على غرار عمليات عزل الشيوخ والمتقدّمين في السنّ ودفنهم أحياء في بعض الأماكن الوعرة -التي تحدثت عنها -الخرافة الآسويّة المذكورة سابقا.

فمثلما أشارت إليه هذه الخرافة الآسويّة كانت العديد من الأقوام والجماعات البشريّة إلى عهد قريب جدّا يعزلون الشيوخ والمسنّين من الجنسين ويدفنونهم أحياء في بعض الكهوف والغيران السحيقة ثمّ يسدّون عليهم بالصّخور ويتركونهم في تلك الكهوف والغيران, فكان الإبن يمسك بأبيه عندما تتقدّم به السنّ فيأخذه قهرا إلى الغار المعدّ لعزل الشيوخ والمتقدّمين في السنّ ويحشره

في ذلك الغار مع أمثاله من المسنّين ويسدّ عليه بالصّخور المعدّة للغرض بعد أن يزوده بشيء من الطعام كما تلقى الأمّ المتقدّمة في السنّ مصيرا مماثلا.

وجاء في حكايات السندباد البحري في الكتاب العربي المعروف باسم "ألف ليلة وليلة" أنّ السندباد البحري نزل ذات يوم بين قوم من أقوام الهند كان من عادتهم دفن الزوج حيّا مع زوجته إذا ماتت ودفن الزوجة حيّة مع زوجها إذا مات وسبق للسّندباد أن تزوج إمرأة منهم فماتت فدفنوه معها حيّا في غار سحيق مجعول لهذا الغرض يرمون فيه الأموات ومن يتبعهم من الأحياء ويسدّون عليهم بصخرة عظيمة.

كما اشتهر العرب في الجزيرة العربيّة قبل الإسلام بممارسة عادة وأد البنات وتتمثل في قيام الأب بدفن ابنته حيّة ترزق وردمها تحت التراب في حين تشير الأساطير والخرافات الشعبيّة المتداولة عند مختلف شعوب العالم إلى ممارسة الجماعات البشريّة قديما لعادات من هذا القبيل تتمثل في إخفاء المولودين الجدد في غرف ومباني تحت الأرض أو في قصور شاهقة وجزر نائية خوفا عليهم من أعين النّاس وعزلهم في تلك المواضع حتّى يبلغوا ويشبّوا.

ويأتي هذا العزل أحيانا ببادرة من آباء أولئك الأولاد لأنّ أحدا من العرّافين والكهان حذّر أولئك الآباء بأنه سيولد لهم ولد يكون سببا في هلاكهم وزوال نعمتهم أو لأنّ ملك المدينة التي يعيشون فيها أُخبر بأنّه سيولد ولد في مدينته يكون سببا في هلاكه وزوال ملكه فيأمر الملك بقتل كلّ المولودين الجدد فيقوم الآباء بإخفاء أولادهم في مباني تحت الأرض أو في مواقع نائية ومنعزلة.

ففي هذا السياق جمعنا أسطورة تونسيّة قديمة مضمونها أنّ أحد الملوك الجبابرة كان يحكم في جزيرة جربة بالجنوب التونسي في العهود القديمة وكان له ولد "حسن الصورة يحبّه كثيرا مع أنّه كان يضطهد رعيّته فهجمت على

جزيرة جربة ذات سنة جيوش من العقارب السود فخاف الملك على إبنه منها وفكّر في وسيلة تبعد عنه شرّ تلك الآفات فاستشار أحد أعوانه ليدلّه على موضع لا تصل إليه العقارب فدلّه على جزيرة بوغرارة بالقرب من جربة فأمر الملك ببناء برج منيع في جزيرة بوغرارة وأسكن إبنه فيه واقبل الصيف وكان للملك بساتين كبيرة فيها من كل الفواكه والغلال فاختار الملك من أحد بساتينه عنقود عنب حبّاته صفراء كالذهب الخالص وأرسل به إلى إبنه في برجه المنيع بجزيرة بوغرارة وكان بعنقود العنب عقرب من العقارب السود إندّست بين حبّاته فلمّا أخذ الإبن العنقود بيديه ليأكل منه نهشته العقرب فمات لحينه وسمّي البرج منذ ذلك الوقت باسم برج العقارب.

كما أنّ الكثير من المجتمعات الإنسانيّة كانت تحشر في بعض المناسبات شبّانها البالغين من الجنسين في أماكن منعزلة لمدّة معلومة تخضعهم أثناءها لشتّى الإمتحانات والإختبارات البدنيّة والذّهنيّة وكانت مجموعة الشّبان المفصولين خلال هذه الفترة ترجع بالنّظر إلى واحد منها له صفة الملك وتساعده في مهمته فتاة لها هي الأخرى صفة الملكة عندما تكون المجموعة مختلطة وعندما تنتهي مدّة العزل وما يتخلّلها من الإمتحانات يفرج عن الشبّان ويعودون إلى الحياة العاديّة ويصبحون من فئة الكبار والراشدين بعد أن كانوا يعتبرون من فئة الأطفال والصغار والتّابعين.

وظلّت هذه العادات سارية إلى عهد قريب جدّا في الكثير من المجتمعات الإفريقيّة. فكان الأولاد البالغين من الجنسين في منطقة تومبكتو بدولة مالي بغربي إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى يُفصلون عند ختانهم في بيت خاص بالقرب من إحدى البرك والغدران لمدّة شهرين وتسمّى البركة التي يوجد بقربها هذا البيت باسم "بنقة" الذي يعني في بعض اللّغات الإفريقيّة الحاكم والسيد

والسلطان وعلى هذا الأساس كان يقال للطفل المختون في منطقة تومبكتو بمالي إنّه دخل البنقة بمعنى إنّه خُتن (أهيرو بنقو) وعندما يفصل الأطفال من الجنسين في البنقة يختارون من بينهم ملكا وملكة من ضمن الأطفال لأدارة شؤون البنقة طيلة الفصل وهما أوّل من تجري عليهم عمليّة الختان ويجب أن نفهم من عبارة "دخل البنقة" إنّه أصبح راشدا وسيّدا وحقّت له "البركة" بمعنى الزواج وتأسيس أسرة خاصة مثلما شرحناه في تحاليلنا المتقدّمة بخصوص المعنى الحقيقي لكلمة "البركة".

كما أنّ الجماعات اليهوديّة يمارسون عادة ختان الأولاد الذكور بعد اليوم السابع من ولادتهم ولهم أيضا عيد خاص بالأطفال في سن البلوغ يخرج فيه الأطفال إلى البريّة والغابات المجاورة للقرية وبعد أن يقضوا في تلك الغابات نهار وليل ذلك اليوم يعودون في صباح اليوم الموالي إلى بيوتهم ويسمّى هذا اليوم باسم السبوع بحيث أن ختان الأطفال كان مقترنا في البداية بخروجهم للغابات والبراري المجاورة لمدّة معلومة.

وكان جماعة الموسي القاطنين بدولة بوركينافاسو بالقرب من مالي بوسط إفريقيا يجمعون الأطفال الصغار المراد ختانهم كل سنة تحت شجرة ثمّ يفصلونهم في مكان خاص خارج القرية لمدّة معلومة تستغرق شهرين أو ثلاثة أشهر فكان هؤلاء الأولاد أثناء فترة الفصل يتكلمون لغة خاصة بهم ويحملون أسماء غير أسمائهم الأصليّة ويمرّغون أبدانهم بالتراب حتى لا تتسنّى معرفتهم بعد أن يتّم تقسيمهم إلى مجموعتين بحسب الجنس ويعلّق الأولاد أثناء عزلهم في مؤخرة ثيابهم أشرطة تتدلّى كالأذناب ويمشون منحنين ومتكئين على عكاكيز كالعجائز وفي الليل يقتربون من القرى ويقبضون على كلّ من يلقونه في

الطريق ويشبعونه ضربا ويأخذون كلّ ما يريدون ثم يعودون إلى مكان فصلهم دون أن يتعرّض إليهم أحد.

فكلّ هذه العادات والتّقاليد ساهمت هي الأخرى في ظهور الإعتقادات المتّصلة بالأموات وبعودتهم إلى الحياة وبفكرة الجزاء والعقاب وملك الأموات وقابض الأرواح وغيرها من الأفكار والتّقاليد الشبيهة.

وقد لعبت عمليّات السّبي والإستعباد والصّراعات على السلطة داخل الجماعات البشريّة في هذا المجال أيضا دورا أساسيّا في قيام هذه العادات والتّقاليد وما أفضت إليه من معتقدات غيبيّة بخصوص الأموات والقيامة والجزاء والعقاب.

ففي هذا السياق أشرنا في تحاليلنا السابقة إلى أنّ إنتقال السلطة داخل الجماعات البشريّة بواسطة إغتصاب الحكم بالقوّة والإنقلابات السياسيّة يفضي ويؤدي إلى محاصرة وحبس وطرد وتشريد بعض الأفراد الذين يمثّلون خطرا بالنسبة للحكام الجدد وفي مقدّمتهم أصحاب السلطة السابقين والموالين لهم وأولادهم الكبار والصغار وخاصة الذكور باعتبار أن الإناث غالبا ما يحتفظ بهم الأسياد الجدد كجواري وإيماء وخدم وتحصل هذه الإنقلابات بفعل العناصر الخارجيّة كما أنّها تأتي نتيجة للفتن والصّراعات الداخليّة على السلطة بين الكبار والصغار داخل الجماعة الواحدة سواء بين الآباء والأبناء أو بين الأزواج والذين يعرفون باسم "أصهار" أي أولاد زوجاتهم من غيرهم ويعرف الواحد منهم باسم "ربيب" وتنتهي هذه الصراعات بانتصار القوّي علي الضعيف.

وكان الضّعف في القديم يتمثّل أساسا في افتقاد القوّة البدنيّة لمواجهة الخصم سواء بسبب الصّغر أو بسبب الهرم بحيث أنّ الصغار والمسنّين كانوا المستهدفين الرئيسيّين لعمليات الحبس والعزل والطرد والتّشريد.

وعلى هذا الأساس تكثر في الأساطير التحذيرات من الإتّصال بالغرباء والتّكهنات بالهلاك وزوال الملك من جرّاء بعض المولودين الجدد.

ففي هذا السياق غالبا ما كان أصغر الأبناء في العائلة الواحدة يبلغ ويشتدّ عوده في الوقت الذي يهرم فيه أبوه ويفقد قوته فيسهل على ذلك الإبن الأصغر إزاحة أبيه وطرده واغتصاب السلطة لفائدته داخل الأسرة باعتبار أنّ أباه كان من قبل قد تمكّن من طرد إخوته الذكور الأكبر منه من الأسرة عندما كان في عنفوان قوته فيخلو الجوّ للإبن الأصغر وتسهل عليه عمليّة اغتصاب السلطة من أبيه فضلا عن الفراغ في السلطة نتيجة للموت والحوادث بمختلف أنواعها.

لكن تشريد الأولاد والأطفال الصغار كان يحصل أحيانا ببادرة من الآباء والأمهات لحمايتهم من نقمة الاسياد الجدد في حالات إنتقال السلطة بالقوّة والغصب. فقد كانت الواحدة من الجواري والإيماء التي تحبل من سيدها تفضّل التّخلص من مولودها الجديد وإلقائه حيّا في البراري والغابات المجاورة قبل أن تحنو عليه وتربّي عليه الكبد كما يقول أهل تونس فيصعب عليها فراقه إذا كبر في حضنها وقرّر سيدها بيعها والإحتفاظ به كما يخول له نظام الإسترقاق في القديم.

كما كان أولاد الزّنى وأمهاتهم عرضة للقتل والتّشريد حتى أنّ ولد الزنى يسمّى باسم "حرامي" في المجتمعات العربيّة لأنّه ولد في غير الإطار المباح.

ويشمل أولاد الزنى كلّ الأولاد المولودين في إطار غير مباح سواء كانت أمّه متزوجة أو مجرّد جارية وخادم تابعة لأحد الأسياد أو لمعبد من معابد الآلهة حيث كانت الكثير من المجتمعات تخصّص قسما من أبنائها وبناتها لخدمة المعابد وكان يحرّم عليهم الزواج والإنجاب بأي صورة من الصور وسبب ذلك

أنّ الآلهة كانوا بدورهم أسيادا بحيث أنّ البنات المخصصات لخدمتهم في معابدهم يعتبرن امتدادا لحريمهم وجواريهم عندما كانوا على قيد الحياة.

ففي هذا السياق يحكى سكان مدينة روما بإيطاليا في القديم أنّ مؤسس هذه المدينة بطل نصفه إله ونصفه بشر إسمه روميليس وصورة ذلك أنّ أمّه وكان إسمها ريّة كانت في الأصل راهبة مخصّصة لخدمة معبد ربّة النار فستا فتجلّى لها ذات يوم الإله مارس فمالت إليه وأحبّته ومكنّته منها فاتّصل بها فحملت منه ولدين توأمين روميليس وروميس فسمع بأمرها ملك البلاد آنذاك فأمر بإلقائها هي وابنيها الإثنين في النّهر لكنّ المكلّف بقتلهم أشفق عليهم وألقاهم في بعض الأجمات المجاورة وهكذا تسنّى لروميليس أن يعيش وعندما كبر أسّس مدينة روما ثمّ إنّه سعى إلى توطيد أركانها فقتل الملك الذي أمر بإلقائهم في النّهر وكان عمّ أمّه ريّة وقد إرتقى إلى الحكم غصبا بعد أن شرّد أخاه أبّ ريّة وأعاد روميليس الملك لجدّه.

فقد كانت كلّ هذه الأوضاع ملائمة لظهور ممارسات الحبس والعزل والفصل والطّرد والتّشريد داخل الجماعات البشريّة في العهود القديمة مع عودة البعض من المفصولين كالشّبان المنتدبين للختان إلى قراهم بعد قضاء فترة العزل والقيام بزيارات موسميّة للبعض الآخر كالمعزولين بسبب العجز والهرم وإخراجهم ليوم أو يومين من حفرهم للإحتفال بهم ثمّ إعادتهم إليها.

ففي هذا السياق مازالت بعض الجماعات الإفريقيّة في جزيرة مدغشقر وبلدان إفريقيّة أخرى يقومون من حين إلى آخر بنبش قبر الأب و الجدّ الميّت وإخراج عظامه البالية وما بقي من رمّته فيتمّ تنظيفها ولفّها في كفن جديد ثمّ تدفن مرّة أخرى في موكب مشهود تتخلله وليمة كبيرة.

وتدخل في هذا الإطار أيضا العادات المتمثّلة في زيارة القبور والإحتفال بالموتى في أعياد موسميّة خاصة بهم وهي عادات منتشرة في مختلف أنحاء العالم.

ثمّ إنّ كلمة "قبر" التي تطلق على موضع دفن الميّت في سياق اللغة العربيّة هي صيغة لفظيّة لكلمة"كبر" التي تطلق على المتقدّم في السنّ في سياق اللغة العربيّة. كما أنّ القبور إتّخذت أحيانا في بعض البلدان شكل الهرم كما هي الحال عند المصريّين القدماء وتطلق كلمة "هرم" على المتقدّم في السن في سياق اللغة العربيّة.

ويستعمل المصريّون إلى اليوم كلمة "هرم" في معنى الكدس والكوم كالكوم من التراب مثلا في حين يطلق السكان في تونس على الكدس والكوم إسم "عرمة" الذي هو صيغة لفظيّة لكلمة "هرم" وكذلك لكلمة "رمّة" بإسقاط الصوت "عا" الذي كثيرا ما يسقط في الكلام الإنساني فلأجل ذلك سميّت الكثير من المدن والمواقع في العالم بأسماء مشتقّة من إسم "رمّة" مثل مدينة "روما" المذكورة والمدينة الأسطوريّة المعروفة باسم إرم ذات العماد. فكلمة "رمّة" تفيد معنى الأسلاف والكبار والأسياد والآباء والأجداد الذين ذهبوا وتركوا آثارهم ورممهم في قبورهم بالقرى والأحياء التي أسّسوها وخلّفوها لأبنائهم وأحفادهم واسم "إرم" هو في حقيقة الحال جمع بالميم لاسم "إر" الذي سبق أن حللنا معناه وأصله الحقيقيّ وذكرنا أنّه يفيد معنى الأب والسيّد والقائد والحاكم والملك و ما زالت بعض اللغات تجمع الأسماء بزيادة الميم كاليهوديّة أو العبريّة.

وفي هذا المجال ذكر أبو عبيد البكري في كتابه "المسالك والممالك" في سياق حديثه عن مملكة غانة بإفريقيا الغربية جنوب الصحراء الكبرى وعادات أهلها من السودان أنّ دياناتهم المجوسية وعبادة الدكاكير بمعني الأصنام

وإذا مات ملكهم عقدوا له قبّة عظيمة من خشب السّاج ووضعوها في موضع قبره ثمّ أتوا به علي سرير فأدخلوه في تلك القبّة ووضعوا معه حليّه وسلاحه وآنيته التي يأكل ويشرب فيها وأدخلوا معه رجالا ممّن كان يخدم طعامه وشرابه وأغلقوا عليهم باب القبّة وجعلوا فوق القبّة الحصر والأمتعة ثمّ يتجمّع النّاس فيردمون فوقها بالتّراب حتّى تصير كالجبل الضّخم ثمّ إنّهم يخندقون حولها حتّى لا يوصل إلي ذلك الكوم إلاّ من موضع واحد وهم يذبحون لموتاهم الذّبائح ويقرّبون لهم الخمور.

فإلى جانب إنتقال السّلطة بواسطة الإغتصاب والقوّة والإنقلابات السّياسية كان هناك أيضا تناوب وتداول سلميّ على الحكم غير أنّ الرّئيس والحاكم القديم كان في بعض الحالات يطرد أو يدفن حيّا وفق بعض الأعراف الموروثة في حين يتمّ إختيار الرّئيس الجديد بواسطة القرعة ووسائل من هذا القبيل ورأينا أنّ عادات من هذا القبيل كانت سارية في الممالك الإفريقية القديمة بجنوب الصّحراء الكبرى كمملكة غانة المذكورة حسبما أورده البكري في كتابه "المسالك والممالك" فكان إختيار الملك الجديد في هذه البلدان يتمّ بواسطة حيّة مقدّسة موضوعة في غار مقدّس وعندما يموت ملك البلاد يتمّ إخراجها من ذلك الغار وتترك قرب جملة من الأنفار المنتدبين لخلافته من بعده فمن مسّته منهم يتقلّد الحكم.

وقد كانت الحيّة في الأصل شخصا محبوسا في الغار أو الملك السّابق الذّي يخلع عندما تنتهي نوبته ويحبس في هذا الغار المقدّس بعد أن يختار من يخلفه من جملة بعض الأفراد بواسطة لمس أحدهم بيديه وهو معصوب العينين أو أشياء من هذا القبيل.

وذكر بعض المؤرخين اليونانيّين القدماء أنّ بعض الجماعات من سكّان روسيا كانوا يقومون بقتل رئيس الأسرة في سنّ معلومة بمحض إرادته ويأكلونه في موكب مشهود بحضرة كلّ السكان فكانت غاية ما يتمناه الشخص هو أن يكون صاحب أسرة ويكبر ويقتل ويؤكل لحمه في موكب مشهود من طرف أبنائه وأحفاده.

كما كان بعض الجماعات من الهنود الحمر القاطنين بأمريكا الجنوبيّة يدفنون موتاهم ومعهم شيء من الطّعام والشّراب وبعض أمتعتهم الخاصة كالمغزل بالنسبة للمرأة في زرائب معدّة لذلك بجانب البيوت في حين يتم تكديس الأمتعة الأخرى وحرقها في مزبلة محاذية للزريبة بحيث تتّخذ المزبلة مع مرّ الأيام شكل الكوم الهائل أو الهرم الضخم.

وكان هؤلاء الهنود الحمر يعتقدون أنّ أسلافهم الأموات الذين يعظّمونهم بمثابة الآلهة الخالدين يقومون في بعض الأوقات من قبورهم لزيارة قرى الأحياء ومن بينهم بالخصوص جماعة يسكنون بالقرب من جبل إسمه كروا زانوا شبيه بجبل الأسلاف عند جماعة النّارت بمنطقة القوقاز فقد كان أفراد هذه الجماعة من الهنود الحمر يعتبرون أنّ أسلافهم الذين يقدّسونهم ينزلون في بعض الأوقات من هذا الجبل حيث كانوا يقيمون لزيارة القريةّ ونشر السعادة بين الأحياء.

وكانت هذه المواطن الأولى للأسلاف هي الأماكن التي كان يعزل فيها الأحياء المحكوم عليهم بالدفن والحبس كما كان يقصدها الكبار للاختلاء بها وقضاء ما بقي لهم من العمر بعد قيام أبنائهم بطردهم وتشريدهم والتّخلي عن رعايتهم وهكذا ظهرت تلك الإعتقادات التي تعتبر أنّ الموت هو عودة ورجوع إلى الموضع الأوّل الذي خرج منه أباء وأجداد العشيرة وكان هؤلاء الأباء

والأجداد يمثّلون القسم الأكبر من الآلهة الذين عبدتهم الشعوب الإنسانيّة في القديم فنشأت عن هذه الأوضاع الإعتقادات والأفكار التي ترى في الموت عودة ورجوعا إلى مواطن الآلهة وكانت هذه المواطن تدعى أحيانا باسم السماء مثلما رأينا في تحاليلنا المتقدّمة فتصوّر بعض الناس والفلاسفة خطأ أنّ الموت هو رجوع الروح والنّفس إلى السماء والملكوت الأعلى من حيث نزلت مثل الفيلسوف العربي إبن سينا في قوله مخاطبا الجسد ومشبّها الروح أو النّفس بالحمامة الورقاء :

"هبطت إليك من المقام الأرفع ورقاء ذات تعزّز وتمنّع".

وذكر المؤرخ العربي ابن الكلبي في كتابه "الأصنام" أنّ العبادات والأديان بدأت بتعظيم الأسلاف وأضاف أنّ الرّجل في العصور القديمة كان يأتي أخاه وعمّه وابن عمّه فيعظّمه ويسعى حوله ونقل أنّ عبادة الأسلاف كانت تتخذ شكل الدّوران حول الميت مشيرا إلى أنّ آدم لما مات جعله بنوه في مغارة في الجبل الذي هبط عليه من الجنّة بأرض الهند وهو جبل راهون فكانوا يأتون جسده في المغارة ويدورون حوله ويعظّمونه واستّمرت هذه العبادات قائمة إلى عهد قريب جدّا في شكل الدوران حول بعض الأماكن والبيوت المقدسة كالطّواف حول الكعبة في مكّة في الجزيرة العربيّة, فقد كان العرب سكّان الجزيرة العربيّة في القديم يقومون بزيارة الكعبة في موسم معلوم يسمّى باسم الحجّ ويطوفون حول الكعبة عرايا مثلما كانت تفعل قبيلة قريش الساكنة بمكّة وقد بقي الحجّ من مناسك الإسلام إلى اليوم.

ففي هذا السياق لاحظنا أنّ النّواح على الميت في بعض مدن وقرى الجنوب التونسي يتّخذ أحيانا شكل حركة دائريّة على غرار الطواف حول الأماكن المقدّسة. فعندما يموت الميت ويسجّى في إحدى غرف المنزل في

انتظار حمله إلى المقبرة أو الجبانة ودفنه في قبره يلتئم مأتم في ساحة البيت يشارك فيه نساء العرش أو العشيرة التي ينتمي إليها الميت ويتخلّله النّدب والنّواح فتقوم مجموعة من النائحات وينتظمن في حلقة ويشرعن في الدّوران في شبه رقصة دائريّة وهنّ ينحن ويندبن ويردّدن بعض الأقوال التي تعبّر عن الحزن وتشيّد بخصال الميّت وغالبا ما تقودهنّ في هذه الرقصة الدّائريّة واحدة منهنّ تمتشق حبلا في حزامها من وبر الجمل يسمّى باسم "ري" كما تمارس النائحات في صعيد مصر حركات راقصة دائريّة من هذا القبيل وهنّ ممسكات بحبل.

فنحن نعتبر أنّ هذه الرقصات والحركات الدائريّة الجنائزيّة هي أصل الطواف والدّوران حول القبور والأماكن المقدّسة وقد كانت تقام في القديم حول جسد الميت قبل دفنه وكانت تقام في البداية بمناسبة قتل وإعدام بعض الأفراد وأكلهم كرؤساء الأسر عند سكان روسيا في القديم بحيث كان الشخص المنتخب للقتل والإعدام يؤتى به وسط ساحة الحيّ ويشدّ بحبل إلى عمود ثمّ يأتي أهله وأقاربه ويطوفون حوله في حركات دائريّة راقصة وبأيديهم العصيّ والرّماح والحجارة والنّبال ويرشقونه بها إلى أن يموت ثمّ يصنع من لحمه طعاما يأكله الحاضرون ويدفنون عظامه وشعره وأظافره وغيرها من أجزاء جسمه التي لا تؤكل في مكان معلوم مع بقايا غيره ممّن سبقوه إلى هذا المصير فاتّخذ مكان دفن تلك البقايا مع مرّ الزمن طابعا مقدّسا وصار النّاس يتجمّعون فيه في بعض المواسم ويطوفون حوله مع ذبح الحيوانات التي عوّضت البشر ثمّ عوّض إعدام الأحياء بانتظار وفاتهم الطبيعيّة ودفنهم في القبور.

ويعود أصل الطّوفان والدّوران حول الميّت والشخص المطلوب للقتل والإعدام إلى الطّواف والدّوران الذي يقوم به بصورة طبيعيّة طرفان متصارعان

أثناء القتال والعراك والمبارزة حول بعضهما قبل الإلتحام سعيا من كلّ طرف إلى مراوغة خصمه ومفاجأته لضربه أو القبض عليه في مكان حسّاس لا يستطيع معه الدّفاع عن نفسه كالرّقبة ويلجأ إلى هذه الأفعال البشر والحيوانات على حدّ السواء. وفي حال تعدّد الأطراف المتنازعة تأخذ هذه الأساليب القتاليّة شكل الإطباق والإلتفاف حول الخصم والطّواف والدوران حوله مع رجمه ورميه بالحجارة والعصيّ والنّبال حتّى تخور قواه ويستسلم.

ففي هذا السياق كانت بعض قبائل الهنود الحمر في أمريكا الجنوبيّة يقتلون أسراهم الذين يمسكون بهم أثناء الحرب ويأكلونهم بعد السّماح لهم بالعيش معهم في شبه حريّة لفترة من الزمن تستغرق أحيانا خمسة عشر وعشرين سنة, فكان الرّجل الذي يتمكن من أسر شخص آخر أثناء الحرب يقيّده من رجليه بحديد حتّى لا يهرب ويطلقه ويصبح تابعا له يخدمه كواحد من أسرته ويسمح للأسير بالزواج وإذا كانت إمرأة فإنّها تصبح أمة وجارية لسيّدها كما يمكنها أن تتصلّ جنسيّا بمن تريد وإذا أنجبت ولدا يقتل ويكسى الأسير أحيانا بالرّيش ويعلّق في رقبته سير من الجلد المعقود وفيه من العقد بعدد الأشهر أو الفصول التي قدّر السيّد منحها لأسيره قبل قتله وإعدامه فكلّما مرّ شهر أو فصل حلّ السيّد عقدة من عقد ذلك السيّر وعندما تنتهي المدّة المقدّرة أو المحدّدة وتحلّ آخر عقدة يؤخذ الأسير ويقتل ويؤكل لحمه في حفل مشهود تحضره كل أفراد القبيلة ويقوم المحتفلون برقصات دائريّة حول الأسير قبل قتله.

ولا شكّ أن قطعة الحليّ المسماة باسم عقد دعيت بهذا الإسم لأنّها كانت في الأصل حبلا وسيرا من الجلد يعقد ويربط حول رقبة الأسير لشلّ حركته وإخضاعه لمشيئة سيّده وكان الحبل أو السير يحمل من العقد بعدد الأسرى الموثوقين فكان السيّد أو الأسياد يحلّون في كلّ يوم أو في كلّ فترة معيّنة عقدة

لأخذ أحد الأسرى وإعدامه ثمّ إنّ العمليّة أصبحت عادة وتقليدا و صار السيّد يقوم بعقد السيّر والحبل عدّة عقد مهما كان عدد الأسرى حتّى صار يعقد عدّة عقد حتّى في حال الأسير الواحد.

ومازالت كلمة عقد تطلق في اللغة العربيّة على الفترة التي تغطّي عشر سنوات فيقال مثلا في العربيّة منذ عقدين بمعنى منذ عشرين سنة.

وعلى هذا الأساس يمكن أنّ نقول بأنّ الإعتقادات المتعلّقة بالمكتوب والقضاء والقدر ظهرت ونشأت إمتدادا لهذه العادات وأشباهها حيث مازال الناس في تونس والعديد من البلدان العربيّة يعتقدون أنّ مصير الإنسان مكتوب على جبينه كما في المثل الشعبي القائل : "المكتوب على الجبين لازم تراه العين". بحيث يعتبرون أنّ كلّ ما يحدث للشخص أثناء حياته مقدّر له من قبل ويستند النّاس على مثل هذه الإعتقادات للتأكيد بأنّ الإنسان ليس حرّا في أفعاله بما يدلّ على أنّ الأمر مرتبط في حقيقة الحال بالحريّة والعبوديّة. فقد كانت حياة الأسرى والعبيد مقدّرة من طرف الأسياد كحال أسرى قبائل الهنود الحمر المشار إليهم آنفا.

ولا شكّ أنّ بعض الجماعات البشريّة كانت تعتمد الوسم والوشم ورسم عدد من الشروط أو الشلوط على جبين الأسير وأجزاء أخرى من جسده لتقدير مدّة إبقائه على قيد الحياة فجاء المثل الشعبيّ المذكور. ورأينا أن بعض القبائل في السودان كانوا يرسمون على الشبّان في سن البلوغ عددا من الشروط على جبين ووجه الغلام قبل إرتقائه إلى منزلة الرّاشد وجاءت هذه العادات إمتدادا لعمليات التّطهير التي كانت تشهدها الجماعات البشريّة في بعض المواقف كما في حال إنتقال السلطة.

وإلى جانب سبّي الأفراد وأسرهم واسترقاقهم كان الأقوياء في العهود القديمة يستعبدون الجماعات الضعيفة ويفرضون عليهم شتّى الضرائب التي يتسلّمونها في مواسم معلومة وكانت هذه الضرائب المفروضة على الجماعات الضعيفة من طرف الأقوام القويّة وكلّ الأقوياء عموما متنوّعة وتتمثل أحيانا في تسليم الجماعات الضعيفة للقوي الذي إستعبدهم عددا من أبنائهم وبناتهم لخدمته وقضاء مآربه حتّى أنّ الواحد من الأقوياء كان يفرض على الذين استضعفهم تمكينه من كلّ بنت منهم تزّف إلى عريسها ليفترعها ويتمتّع بافتضاض بكارتها.

وقد وردت في كتب التاريخ الكثير من الأخبار في هذا المعنى منها الخبر المشهور المتداول في كتب التراث العربي حول قبيلتي طسم وجديس وهما من القبائل العربيّة البائدة وكانت تعيشان معا في اليمامة بجنوب الجزيرة العربيّة في العهود القديمة وصورته أنّ أحد ملوك قبيلة طسم إسمه عملوق إستذلّ قبيلة جديس حتّى كانت البكر من جاديس لا تهدى إلى زوجها حتّى تدخل عليه فيفترعها وكان السّبب في ذلك أنّ إمرأة منهم إسمها هذيلة طلقها زوجها وأخذ ولده منها فأمر عملوق ملك طسم ببيعه وأخذ ثمنه وأعطى لزوجها خمسه فقالت المرأة شعرا تتظلّم منه فأمر أن لا تتزوج منهم إمرأة حتّى يفترعها فأقاموا على ذلك حتّى تزوجت الشّموس أخت الأسود بن عفار بن جديس فافتضّها عملوق ففكّر الأسود وقومه في الإنتقام من عملوق وقومه طسم فصنعوا طعاما ودعوا إليه عملوق وقومه ولمّا اجتمعوا حول الطعام هجموا عليهم وقتلوهم.

فكان هؤلاء الأقوياء يكلّفون أعوانا تابعين لهم لجمع الضرائب لحسابهم من المستضعفين بما في ذلك الأولاد والبنات الذين كان يتعيّن عليهم تسليمهم للسيّد الذي استعبدهم في بعض المواسم المعلومة فنشأت عن كلّ هذه الأوضاع

العادات المتعلّقة بالوأد والتّغييب والتّشريد وكذلك فكرة ملك الموت وقابض الأرواح.

وقد ظلّ الملوك إلى عهود قريبة جدّا في أوروبا وغيرها من المناطق يأخذون نخبة من أبناء وبنات الأشراف والنبلاء التّابعين لهم ويضمونهم إلى حاشيتهم في قصورهم لفترة معلومة ثمّ يرجعونهم إلى عائلاتهم فيكون أولئك البنين والبنات طيلة تلك الفترة رهائن عند الملك لردع أبائهم النبلاء عن التّفكير في التّحرك ضدّه مخافة تعرضهم إلى نقمته كما أنّ هذه الإقامة الوقتيّة في القصور والبلاطات الملكيّة تمكن أولئك البنين والبنات من التأدب بآداب الملوك والبلاطات الملكيّة.

ثمّ إنّ الناس تعلّموا نظام افتداء الأسرى والرّهائن والمطلوبين لخدمة الأسياد والأقوياء بشيء من المال والمرافق الماديّة وإتّخذت هذه التعويضات الماديّة أسماء متعدّدة كالصّدقة والزّكاة كما كان هؤلاء المطلوبون يأخذون معهم شيئا من الزاد والطعام والشراب وبعض الأمتعة الشخصيّة وكانت حياة البعض منهم جحيما وعذابا أليما بأتمّ معنى الكلمة كالمطلوبين للخدمة في مقاطع الملح ومناجم الذهب والنحاس والحديد وغيرها من الأشغال الشاقة الشبيهة فظهرت نتيجة لذلك كلّ تلك الأفكار والإعتقادات حول الجزاء والعقاب والتّزود للآخرة وفضل الصّدقة كالقول بأنّها تدفع البلاء وتزيد في العمر كما يعتقد السكان في تونس.

ففي هذا السياق جمعنا أسطورة يرويها السكان في الجنوب التونسي مضمونها أنّ شخصا مرّ ذات ليلة بمقبرة فسمع في أحد القبور إمرأتين ميتتين تتحاوران فقالت إحداهما للأخرى إنّ صديقتهما فلانة التي كانت على قيد الحياة ستزورهما يوم غد بمعنى إنّها ستموت وتدفن وتلتحق بهما فسألتها عن صورة

موتها فقالت لها إنّها ستقوم في الصباح وتغسل ما عندها من الثياب الملبوسة وتطلع للسّطح لتنشرها وعندما تنزل فإنّها ستعثر وتسقط على الأرض وتموت.

وبالفعل قامت المرأة الحيّة في الصباح فغسلت الثياب الملبوسة وطلعت للسطح لتنشرها فجاء سائل ودقّ باب الدّار وطلب معروفا فخرجت له إبنة المرأة وقالت له ينوب الله فسمعتها أمّها في السّطح فسألتها لماذا لم تعطه شيئا فقالت لها إنّه لم يبق غير فطورها فأمرتها أن تعطيه للسائل على أن تدبّر أمرها عندما تنزل فأعطت البنت للسائل فطور أمّها فأخذه وذهب وبعدما نشرت المرأة الغسيل نزلت من السطح سالمة ولم يصبها شيء.

وفي تلك الليلة إلتقت الميتتان في القبر فسألت الصاحبة التي تنبّأت بموت صديقتهما الأخرى عن أمر صديقتهما فقالت لها إنّها لم تمت لأنّها تصدّقت بفطورها للسائل والصدقة تدفع البلاء وتزيد في العمر.

فالأفكار والمعتقدات الغيبيّة المتّصلة بالأموات والأرواح والعادات الجنائزيّة بمختلف أنواعها ظهرت إمتدادا لبعض الأعمال والأفعال الطبيعيّة التي كان البشر يقومون بها بحكم الطّبيعة ثمّ إنّ هذه الأعمال والأفعال الطّبيعيّة تحوّلت إلى عادات وتقاليد ضاع أصلها الطبيعي أحيانا عن الأذهان وكانت السبب في ظهور الأفكار والمعتقدات الغيبيّة وقد ظنّ العلماء خطأ أن هذه المعتقدات و الأفكار الغيبية هي التي كانت السّبب في ظهور العادات والتّقاليد الجنائزيّة حيث أنّ هؤلاء العلماء توهّموا أنّ الإنسان الأوّل تصوّر من محض الخيال أنّ هناك روح مستقل عن الجسد وأنّ هذه الروح لا تموت وبالتالي تصوّر أنّ هناك حياة بعد الموت وآخرة وعقاب وجزاء وتزوّد بنوع من الزّاد لمواجهة متطلّبات هذه الحياة الأخرى وأنّ هناك ملكا للموت يقبض الأرواح إلى غير ذلك من الأفكار والمعتقدات الشبيهة التي شرحنا أصولها بالتفصيل

وأوضحنا أنها ظهرت في حقيقة الحال بفعل بعض الأشخاص الذين أساءوا فهم الأساطير والأديان الطبيعيّة القديمة فجرّدوها من محتواها الحسّي الأصليّ وأضفوا عليها من عندهم أبعادا ومضامين كونيّة وغيبيّة وحوّلوها إلى أفكار مجردة نشروها بين الناس فظنّ الذين جاءوا بعدهم أنّ الأساطير والأديان بصفة عامة تتمثل في هذه الأفكار والمعتقدات المجردة في حين أنّ الأساطير هي أخبار تاريخيّة قديمة تروي وتنقل بعض الأحداث والوقائع الحقيقيّة التي حصلت في قديم الزمان لبعض الأشخاص الحقيقيّين من البشر فوق بعض بقاع الأرض.

المعاني الحقيقيّة لتقديس الطبيعيّة والظواهر الطبيعيّة :

كما إشتبه على الأجيال المتأخرة من الناس والعلماء معهم المعنى الحقيقي لبعض الإعتقادات والممارسات الدينيّة التي تبدو في الظاهر أنّها تعبير عن عبادة وتقديس الطبيعة والظواهر الطبيعيّة كالريح والمطر والرّعد والبرق والسماء والأرض في حين أنّها تدخل هي الأخرى في إطار تعظيم الأباء والأجداد والحكام والأسياد والكبار.

فمثلما ذكرناه في تحاليلنا السابقة اعتبر العلماء أنّ الآلهة الذين عبدتهم الشعوب الإنسانيّة في القديم وروت بشأنهم الأساطير يرمزون إلى الطبيعة وإلى الظواهر الطبيعيّة بمختلف أشكالها بحيث أنّ الإعتقاد في الآلهة يقوم في نظرهم على نزعة طبيعيّة في الانسان إلى تشخيص الطبيعة والتّوهم بأنّها مسكونة بالأرواح وبقوى غيبيّة خفيّة تحركها وتتجسم فيها ومن هذا المنطلق يرى هؤلاء العلماء أنّ عبادة الآلهة هي طريقة ووسيلة وهميّة ورمزيّة لترويض الطبيعة وتدجينها من خلال التوسّل إلى الأرواح والقوى الغيبيّة الخفيّة التي يتصوّر الإنسان أنها تسكنها بالقرابين والذبائح والنّذور والتّعظيم والإجلال على غرار

تدجين الحيوانات وترويضها والتودّد إليها وإطعامها وإسقائها فتلين تلك القوّى وتعطف على الإنسان وتراعي مصالحه وتعمل لما فيه خيره وهناؤه.

وقد نبّهنا إلى خطورة وفساد هذه الآراء والنّظريات الشبه علميّة حيث أنها تقّر بإمكانيّة إعتقاد الإنسان السليم والعاقل في وجود أشياء وهميّة وغير واقعيّة ولاسيما أنّ عبادة الآلهة كانت ظاهرة منتشرة عند مختلف الشعوب الإنسانيّة ومارستها مجتمعات إنسانيّة بلغت من الحضارة والتّفكير شيئًا كبيرا وعلى هذا الأساس فإنّ الإقرار بإمكانيّة إعتقاد الإنسان السليم والعاقل في أشياء وهميّة وغير واقعيّة يعني الحكم على كل هذه الشعوب وهذه المجتمعات بأنّها كانت مختلة الحواس والمدارك العقليّة.

وفي الحقيقة فإن العلماء توهموا الوهم حيث لا يوجد الوهم وليس هناك أي وهم.

فقد شرحنا بالتفصيل أنّ الآلهة يرمزون إلى آباء وأجداد الشعوب الإنسانيّة التي عبدتهم وإلى ملوك حكموا في أسلافهم ومصلحين أصلحوا من شؤونهم فعظّموهم في حياتهم وربّوا أبناءهم على تعظيمهم ومن هذا المنطلق فإنّ عبادة الآلهة هي مظهر من مشاعر الولاء والتّقدير والإحترام والإكبار والإجلال التي يكنّها النّاس بصورة طبيعيّة إلى آباءهم وأجدادهم وحكامهم وأسيادهم والعظماء منهم بصفة عامة.

ففي هذا السياق رأينا مثلا في أسطورة أتراهازيس البابليّة أنّ جمعا من الآلهة غضبوا على البشر فحبسوا عنهم المطر فتوجه الناس بالدعاء والقرابين والنذور للإله حدّاد ليغيثهم وينظر لهم بعين الرحمة ويبعث لهم المطر لتسقي الأرض وتعيد لها خصبها ولذلك تسمى هذه الأفعال باسم الإستسقاء في سياق

اللغة العربيّة لأنّها تسعى إلى التوسل بالآلهة وأشباههم لطلب ماء المطر للشرب والسقي.

ومازالت هذه العادات والأفعال ساريّة إلى هذا اليوم في العديد من بلدان العالم حيث ظلّ الناس في تونس مثلا إلى عهد قريب جدّا يتوسّلون ببعض الأولياء الصالحين للإستسقاء وطلب الغيث والمطر في حالة الجدب واشتداد الجفاف.

فمازال يوجد إلى اليوم بمدينة قمّرت بالضاحيّة الشّماليّة لتونس العاصمة مقام مقدّس ينسب إلى وليّ من الأولياء الصالحين إسمه سيدي رحّال كان النّاس يتوسّلون به للإستسقاء فكانوا يذبحون عجلا ويسمّى باسم عاصي في تونس ثمّ يصنعون من لحمه طعاما يأكل منه كلّ من حضر.

كما يتوسّل الناس في تونس وفي الكثير من البلدان العربيّة للإستسقاء بدمية أو عروسة خشبيّة لها شكل الإنسان يصنعونها للغرض ويكسونها ببعض الثّياب وغالبا ما تكون من بقيّة ثياب عجوز إشتهرت بالصّلاح ثمّ إنّهم يطوفون بها بين الدّيار وهم ينشدون ويردّدون بعض الأهازيج والأشعار وتسمّى هذه الدميّة في تونس باسم أمّك طامبو وأيضا أمّك طانقو وأحيانا أبوك طامبو وتسمّى في العراق باسم أم الغيث وتسمّيها الجماعات البربريّة في شمال إفريقيا باسم "غنجة" لأنّ الدّمية تصنع من المغرف الخشبيّة التي تستعمل لغرف المرق من القدر وتسمّى المغرف في البربريّة باسم "أغنجة" فأطلق هذا الإسم على دميّة أو عروسة الإستسقاء عند الجماعات البربريّة.

وقد إنفرد الأطفال في الفترات الأخيرة في تونس بأداء عمليّة الإستسقاء بواسطة دمية أمّك طامبو مع أنّها كانت تقام في الأصل بمشاركة الكبار

والصّغار مثلما ظلّت تقام إلى اليوم عند الجماعات البربريّة المذكورة وفي بعض البلدان العربيّة كالعراق.

وينشد الناس في تونس أثناء الإستسقاء بأمّك طامبو أهازيج منها :

"أمك طامبو يا صغار طلبت
ربيّ على النّـوار

أمك طامبو يا الأولاد غسلت
جبهتها في الواد

يـــا الله ويـــا الله صب
الغيث إن شاء الله

يا الله وقرين فـــول يا الله
وصبح مبلـــول

يا الله وقرين طرشي يا الله
وصبح في كرشي

أمك طامبو بسخيّبها طلبت
ربّي لا يخيّبهـا"

ومنها أيضا :

"أمك طامبو بسخيّبها طلبت
ربّي لا يخيّبهـــا

أمك طامبو يا نســاء كولوا
الكسكسي بلا حساء

أمك طامبو يا رجّالة كولوا

العيش بلا غسالـــة"

وإذا نزلت المطر يفرح الناس ويرقصون في حلقات وهم يغنّون :

"يا مطر يا خالتي صبّي

على قطّايتي

قطّايتي مدهونـــة بزيت

الزيتونـــــة"

كما ينشدون أيضا في بعض المناطق من البلاد التونسيّة بهذه المناسبة :

"يا مطر يا مطّارة إسقي

عروق الذّكـــارة

يا مطر يا بشباشة إسقي

عروق المشماشة

وقد ظلّ الناس في بعض مناطق العراق إلى عهد قريب جدّا يتوسّلون لطلب المطر بشخص يعتبرونه ذو حظ عظيم لأنّه غنّي ويسمّونه البخيت بالنسبة للرّجل وبخيتة بالنسبة للمرأة. فعندما تنحبس المطر يخرج الناس للإستسقاء يتقدّمهم البخيت ويذبحون بالمناسبة بعض القرابين الحيوانيّة وإذا استمرّ مع ذلك انحباس المطر فإنّهم ياخذون عصابة البخيتة ويلفّونها على كرة خشبيّة ويلعبون بها على الأرض بواسطة ضربها بعصيّ معدّة للغرض اعتقادا منهم أنّ إهانة هذه العصابة المحترمة وتمريغها في التّراب وتمزيقها واللّعب بها يجعل الرّب يلبّي دعاءهم للكفّ عن تدنيس تلك العصابة المحترمة.

كما أنّ الصغار بهذه المناطق العراقيّة يطوفون أيضا لطلب المطر بدمية خشبيّة شبيهة بأمك طمبو في تونس ويقومون بهذا الطواف بإيعاز من البخيت وتسمّى الدّمية باسم أم الغيث, كما أنّهم يغنّون أثناء الطّواف هذه الأهازيج :

"يا أمّ الغيث غيثينـــــا
بلّي بشت راعينـــــا
راعينا حمـــد الأقـــرع
له سنتين مـــا يـــزرع
الحنطة بعلّو البــــاب
والشّعير ما له حساب"

كما يغنّون أيضا أغنيّة إسمها أغنيّة المطر العاصي وتقول :

"يا مطر يا عاصي طوِل
الشعر راسي
تاحوك لك عْبيّة من هين
للشّاميّــة
تا تشبع أمّ خنينة وتكثر
الدّهينـــــة"

ومعناه يا مطر يا عاصي صب على راسي سأحوك لك عباءة كبيرة من هنا إلى الشام حتّى تشبع الغنم ويكثر السّمن.

كما كانت الجماعات البربريّة بالجزائر والمغرب يتوسّلون لطلب المطر بكائن غيبيّ إسمه "للوش" هو بمثابة الإله حيث أنّه ينظر إليه على أنّه قوّة روحانيّة خالصة غير مجسّمة في شيء من الأشياء فكانوا يتوجّهون إليه بالدعاء لطلب المطر ويقولون بالبربريّة :

"إشْ نغ يا للّوش أمان ن إنزار" بمعنى حرفيّا: إعطنا يا للّوش ماء المطر".

وقد لاحظنا أنّ السّكان في بعض قرى الجنوب التونسي مازالوا إلى اليوم يذكرون هذا الكائن الغيبيّ في بعض المدائح التي تسمّى باسم مدائح البلّوط وهي مدائح وأذكار ذات مضامين هزليّة مصاغة لحنا ووزنا في قوالب المدائح الجدّية التي تنشد تمجيدا لأولياء الله الصالحين فكان الشّبان في هذه القرى ينشدون من باب الهزل والمجون :

"لا إله إللّوش كان لقينا ما نخلّوش
لا إله إللّوش والعجائز ما نيكوش
لا إله إللّوش والصبايا ما نسيّبوش"

ويسمّى هذا النوع من الغناء باسم التّجريد والمجرّد.

وتستعمل كلمة "للّوش" في القرى المذكورة بالجنوب التونسي في معنى أزهار الرّمان نقلا عن البربريّة حيث أنّ كلمة "للّوش" تعني الأزهار والنّوار في البربريّة وهي تتركب أساسا من الجذر "لال" الذي يفيد في البربريّة معاني لها

صلة بالماء والإغتسال ومازال الناس في تونس يستعملون كلمة "تشلّل" المتركبة من الجذر "لال" في معنى الغسل والإغتسال.

فنحن نعتبر أنّ أصل كلّ هذه العادات والممارسات المتمثلة في التّوسل بالآلهة وأشباههم من الكائنات الغيبيّة لقضاء بعض المآرب بواسطة القرابين والذبائح والنّذور كالإستسقاء وطلب المطر يعود إلى أنظمة السّبّي والإستعباد والحماية والجوار والتّحالف التي كانت تسود العلاقات بين الناس والجماعات البشريّة في العهود الأولى من التّاريخ الإنساني.

فقد أوضحنا أنّ الآلهة يرمزون إلى الآباء والأجداد والأسياد والحكام والأقوياء والعظماء في العهود الأولى من التّاريخ الإنساني بحيث أنّ التّوسل بهم وبرموزهم بمختلف أشكاله هو امتداد وتقليد للتّوسل بالآباء والأجداد والأسياد والأقوياء والعظماء لقضاء بعض المآرب بواسطة إهدائهم شتّى الهدايا وإسداء مختلف الخدمات لهم.

ومن هذا المنطلق فإنّ القرابين والنذّور والذّبائح والهدايا التي تقدّم للآلهة والكائنات الغيبيّة للتّوسل بهم لقضاء بعض الحاجات وطلب العون والحماية والمساعدة في أوقات الشدّة والضيق والظروف الصّعبة هي تقليد للعطايا والهدايا التي كان النّاس في القديم يعطونها للأقوياء والأسياد والحكام وأولى الأمر منهم لقضاء حوائجهم وحمايتهم ومساعدتهم عند الشدّة والضيق.

ورأينا أنّ السكان الأوّلين لأرض من الأراضي كانوا يفرضون على الأجانب والغرباء شتّى الضرائب والأداءات للسّماح لهم بالإقامة بجوارهم واستثمار خيرات أرضهم والتّمتع بحمايتهم في بعض الحالات.

فقد جرت العادة أن يتوجّه الناس بالدّعاء للآلهة والكائنات الغيبيّة لطلب مساعدتهم وحمايتهم والتّوسل بهم في أوقات الشدّة بالخصوص كالمرض والجدب وكذلك لطلب الرّخاء والسعادة والخصب بحيث أنّ عادات الإستسقاء التي استعرضناها هي نموذج من التّوسل في أقوات الشدّة والضيق الذي يتّخذ أشكالا واحدة ومتقاربة جدّا في كلّ حالات الشدّة والضيق ومن أهمّها تقديم القرابين والنّذور.

وأشرنا إلى أنّ أنظمة الحماية والإستعباد المقنّع للضعفاء من طرف الأقوياء ظلّت قائمة في تونس والبلدان المغاربيّة إلى عهود قريبة جدّا. وتسمّى بمعاهدات الصّحبة, فقد كان السّكان في تونس منقسمين إلى قبائل وعروش فكانت القبائل القويّة والمحاربة تفرض نوعا من الحماية على القبائل الضعيفة مقابل ضريبة سنويّة تعطيها القبيلة الضعيفة للقبيلة القويّة فكانت القبيلة القويّة تدافع عن القبيلة الضعيفة وتحميها من إعتداءات القبائل الأخرى وتتسلّم منها كلّ سنة ضريبة معلومة مثل خروف على كلّ خيمة أو كميّة من التّمر أو برنس إلى غير ذلك من المرافق والمنافع وكان هذا الإستغلال والإستعباد مقنّعا في شكل علاقات ودّ وصداقة وصحبة بين القبيلتين بحيث كان تقديم الضريبة في كلّ موسم مناسبة لإقامة الولائم وتعميق صلات الودّ والصحبة فلأجل ذلك سميت هذه المعاهدات الحمائيّة باسم معاهدات الصحبة.

وكانت معاهدات الصّحبة تباع وتشترى بحيث كانت القبيلة القويّة تبيع لقبيلة أخرى معاهدة لصحبة والحماية التي تربطها بالقبيلة الضعيفة التّابعة لها.

وذكر التجاني في وصف رحلته عبر البلاد التونسيّة والقطر الطرابلسي في بداية القرن الرّابع عشر ميلادي أنّ جماعات من قبيلة مجريس البربريّة بليبيا كانوا في عهده تحت حماية بعض القبائل العربيّة التي تغلبت عليهم

فاستعبدتهم وخاصة منهم قبيلة المراغمة وهي فخذ من قبيلة الجواري أولاد جارية بن وشّاح من دباب من عرب بني سليم.

فقال في هذا السياق ما نصّه : وجميع هؤلاء الأقوام من مجريس منقسمون بين المراغمة من الجواري على رتبهم لكلّ واحد منهم جماعة يجبيها ويحميها وربّما تبايعوهم فيُشترى أحدهم ونساؤه وولده للجباية بما يتراضى مع صاحبه عليه ويجعل أداء في كلّ عام على حسب شجره وسعة أرضه وليس أهلها ملاّكا في الحقيقة لشيء منها وإنّما هم أجراء للعرب ناصحون واسم الملكيّة لهم هو النّصح في الخدمة.

فعلى غرار هذه الأنظمة الحمائيّة التي ظلّت قائمة إلى عصرنا الحاضر في مستوى القبائل والدول أيضا, كان بعض الأقوياء في القديم يستعبدون بعض الضعفاء ويفرضون عليهم شتّى الضّرائب الموسميّة فيصبح أولئك الضعفاء تابعين للقويّ الذي تمكن من إستعبادهم وكما هي الحال في عصرنا الحاضر كان هذا الإستعباد يتّخذ أحيانا شكل الصّحبّة والحلف والحماية مقابل تقديم بعض المرافق والمنافع للقويّ الذي يهبّ لنصرة تابعيه في أوقات الشدّة والضيق, كما أنّ الإتّباع كانوا يقدّمون العون والمساعدة للقوّي عند الضرورة.

وعلى هذا الأساس كان بعض الآلهة الذين عبدتهم الشعوب في القديم يرمزون إلى هؤلاء الأقوياء الذين كانوا يفرضون على الناس حمايتهم ومساعدتهم وقت الشدّة مقابل بعض العطايا والهدايا الموسميّة فضلا عن العون والحماية والمساعدة التي كان يقدّمها الأهل والأحلاف والجيران والآل ويمثّل الأهل والآل القسم الأعظم من الآلهة الذين عبدوا في القديم حتّى أنّ إسم إله هو في حقيقة الحال صيغة لفظيّة لاسم "آل" بمعنى الأهل كما أنّ إسم "أهل" هو صيغة لفظيّة لكلمة "آل" باعتبار أنّ الصوت "ها" هو صوت مجرّد يحدث بسبب

التّقطع في الكلام ويمكن إسقاطه وزيادته حسب الحالات دون تأثير في سياق الكلام بحيث يمكن أن يقال في العربيّة "أراق" و"هراق" الماء بمعنى صبّ الماء وأساله.

وقد ساعدت هذه الأوضاع وأنظمة الحماية المذكورة في ظهور العادات المتمثّلة في الإحتفال بحلول بعض الفصول والأوقات المعلومة من السّنة وكان يتخلّلها الكثير من الأفعال والأعمال منها بالخصوص إلقاء دمية أو عروسة رمزيّة في البحر أو في بعض الأنهار وعيون الماء.

فقد ظلّ السكان في البلاد التونسيّة وفي مدن الساحل التونسي المطلّة على البحر بصفة خاصة يحتفلون إلى عهد قريب جدّا بالفترة الزمنيّة التي يشتد فيها الحرّ في الصيف من نهاية شهر جويلية إلى منتصف شهر أوت ويسمّونها باسم "أوسّو" ويختتم هذا العيد في منتصف شهر أوت بإلقاء دمية خشبيّة في البحر لها هيئة الإنسان وتسمى الدميّة باسم عروسة في تونس والبلدان العربيّة بحيث يمكن أن نقول إنّ الإحتفال بموسم أوسّو ينتهي في منتصف شهر أوت بإلقاء عروس في البحر.

فنحن نعتبر أنّ الإحتفال بعيد أوسّو يرمز في الأصل إلى موسم من مواسم جمع الضرائب في نطاق بعض أنظمة الحماية التي كانت قائمة بين جماعة من الأقوياء وجماعة من الضّعفاء وقد أشرنا إلى أنّ الضرائب كانت تقضى أحيانا بتسليم الجماعة الضعيفة عددا من شبّانها وبناتها للجماعة القويّة أو لرئيسها لخدمته وقضاء مآربه ثمّ إنّ هذه العادات تجردت من محتواها وأصبحت تقتصر تدريجيّا على بعض الإحتفالات وإلقاء دمية خشبيّة أو عروس رمزيّة في البحر تقليدا لما كان يفعله الأسلاف حيث كانوا يجمعون البنات والصبيان

المختصّين للضريبة في الموسم المحدّد ويرسلون بهم إلى الجماعة القويّة بمختلف وسائل النقل القديمة كالقوارب المعدّة لقطع الأنهار.

ومثلما ذكرنا سابقا كانت الجماعة الضّعيفة تضع أحيانا الضرائب المطلوبة في مكان معلوم وتنصرف إلى حال سبيلها فيأتي ممثلون عن الجماعة القويّة ويأخذونها دون أن يحصل أي اتّصال بين الطرفين أو يروا بعضهم كما أنّ تسليم الضرائب بين المتحالفين كان يتمّ وسط إحتفالات تتخلّلها الولائم ومظاهر التّعبير عن مشاعر الودّ والإخلاص والولاء.

وقد روت الشّعوب الإنسانيّة الكثير من الأساطير والخرافات التي تتحدّث عن هذه الأوضاع منها الخرافة التي يتداولها السكان في البلدان المغاربيّة حول الأخوين غير الشقيقين وسبق أن سقناها بالتفصيل في تحاليلنا المتقدّمة ورأينا ضمنها أنّ أسدا من الأسود تسلّط على جماعة ضعيفة وفرض عليهم ضريبة تتمثل في إهدائه بنتا من بناتهم في موسم معلوم ليتمتّع بها فجاء أحد الشّبان الغرباء وقتل الأسد وخلّص الجماعة من تلك الضريبة فشكره رئيس الجماعة الضعيفة على صنيعه وأعطاه بنته ونصف مملكته.

فالحيوانات النّاطقة التي تقوم ببعض الأدوار في الأساطير والخرافات الشعبيّة ترمز إلى بعض الأقوام من البشر الذين عاشوا في قديم الزّمان وكانوا يحملون أثناء وجودهم فوق الأرض أسماء تلك الحيوانات تعبيرا عن بعض الخصال والصفات البشريّة المميزّة لهم وعلى هذا الأساس فإنّ الأسد يرمز إلى بعض الأقوياء والأسياد الذين استعبدوا في القديم الجماعة الضعيفة المشار إليها في الخرافة وفرضوا عليها بعض الضرائب المجحفة كالتّمتع بافتضاض كل عروس تزف إلى زوجها أو أخذ عدد من بناتهم لخدمته وقضاء مآربه فجاء أحد

الأسياد الآخرين وخلّصهم من أولئك الأقوياء الذين كانوا يستعبدونهم وتحوّل الإستعباد إلى معاهدة صحبة وحماية.

وكان الضعفاء يبادرون أحيانا بالإتّصال ببعض الأطراف ويطلبون منهم مساعدتهم على التّخلص من الإستعباد الذي فرضه عليهم أحد الجبارين حيث رأينا في الخرافة المذكورة أنّ جماعة أخرى من المستضعفين طلبت من الشاب أن يخلصها من شرّ ذئب كاسر كان يفتك بهم مقابل إعطائه نتاج أغنامهم في ذلك العام.

وكان اليونانيّون القدماء يروون عددا من الأساطير في هذا المعنى منها أسطورة المرأة المسلسلة وتسمّى باليونانيّة باسم "أندروماد" ومضمونها أنّ أهالي السودان والنوبة جنوب البلاد المصريّة كانوا يهدون في موسم معلوم من السنة إحدى بناتهم لتنّين جبّار فكانوا كلّ سنة يختارون بنتا من بناتهم ويسلسلونها في صخرة بالقرب من نهر النيل فيخرج التّنين من النهر ويأكلها فقدم ذات يوم إلى البلاد البطل اليوناني برسيوس فرأى البنت مسلسلة والنّاس من بعيد متجمهرون ينتظرون مصيرها المشؤوم وفيهم أبوها وكان ملك البلاد فخرج التّنين وتقدم ليأكلها فتصدّى له البطل برسيوس وقتله وخلّص الفتاة فشكره أبوها على صنيعه وأهداها له فتزوج بها وصار حليف الملك.

وأطلق الفلكيّون القدماء اسم أندروماد على مجموعة من النّجوم فسمّى علماء الفلك العرب هذه المجموعة باسم المرأة المسلسلة إشارة إلى قصّة الفتاة التي نقل إسمها إلى مجموعة الكواكب المذكورة.

وكان سكان مصر يرمون في موسم معلوم بعروسة رمزيّة في النيل وهي عادة منتشرة في سائر أنحاء العالم ولاحظنا في هذا السياق أنّ السكان في

تونس يسمون شهر أوت وفترة أوسّو بالذّات باسم غشت وتستعمل كلمة "غشت" في اللغة الأنقليزيّة في معنى الغول والشبح.

ومازال السكان في تونس وغيرها من البلدان يتداولون الكثير من الخرافات والأساطير التي تتحدّث عن استعباد بعض الأقوام من طرف بعض الغيلان وأشباههم من الكائنات من خلال إلزامهم بدفع بعض الضرائب وتسليم عدد من بناتهم لهم في مواسم معلومة وتتخذ هذه الأساطير أحيانا شكل الأخبار حيث أنّ السكان في مدينة جمنة في الجنوب التونسي مازالوا يتحدّثون إلى اليوم عن غول جبّار كان يسكن في واحة قديمة تقع بالقرب من جمنة إسمها واحة شطيان وكانت حسب أقوالهم مركز العمران في تلك المنطقة في القديم فكان يستعبد سكان جمنة وفرض عليهم أن يقدّموا له كلّ ليلة قصعة كسكسي باللحم وبنتا من بناتهم ينام معها.

وأوضحنا أن الغيلان يرمزون إلى بعض الأقوام من البشر الذين عاشوا في قديم الزمان وكانوا يحملون أثناء وجودهم فوق الأرض إسم "غول" والأسماء المعادلة له تعبيرا عن بعض الصفات والخصال البشريّة المميّزة لهم بحيث أنّ كلّ هذه الأساطير والخرافات تتعلّق بوقائع وأحداث حقيقيّة حصلت في قديم الزمان وكان محورها استعباد بعض الجماعات الضعيفة من طرف بعض الأقوياء والجماعات القويّة واستعمال هذه الجماعات القويّة لما أوتوا من قوّة لجبر الضعفاء على تسليم شتّى الضرائب وغالبا ما كان هذا الإستعباد يتحوّل إلى نظام حماية وصحبة واتّحاد مع مرّ الزمن.

وكان أيضا يعوّض باستعباد من طرف جماعات قويّة أخرى أو بنظام حماية جديد أقلّ وطأة من الإستعباد القديم بفضل عمل بعض المصلحين

والزعماء أو بمساعدة بعض الجماعات القويّة الأخرى بطلب من الجماعات الضعيفة ويؤول إلى نظام صحبة وتحالف.

كما أنّ الإحتفالات بحلول بعض فصول السنة كفصل الرّبيع ظهرت امتدادا وتقليدا للإحتفالات التي كانت تقام قديما بمناسبة جمع الضرائب وأشباهها من المناسبات كالتّطهير الجماعي والأعراس الجماعيّة.

فمازال الناس في تونس ومصر والعديد من البلدان الأخرى يقيمون الأفراح والمسرّات بمناسبة دخول فصل الرّبيع ويخرجون لاستقباله في الحدائق والحقول والبراري حاملين معهم شتّى أصناف المأكولات والشراب.

كما كانت بعض الجماعات البربريّة في الجزائر والمغرب إلى عهد قريب جدّا يقيمون بمناسبة مقدم فصل الرّبيع مهرجانا كبيرا يتضمّن بالخصوص إبرام عقود القران والنّكاح بين الشّبان البالغين والصبايا البالغات في إطار عرس جماعي إباحي.

كما كان الأهالي بواحات النّخيل بمنطقة الجريد بجنوب البلاد التونسيّة وخاصة بواحة مدينة توزر إلى عهد قريب جدّا يحتفلون بدخول فصل الرّبيع في الرّابع عشر من شهر ماي من كلّ سنة حيث يقوم الفلاحون والمزارعون الذين يشتغلون في بساتين النّخيل مقابل نصيب معلوم من إنتاج الغابة بهذه المناسبة بزيارة أصحاب البساتين الذين يشتغلون لحسابهم ويهدونهم نصيبا من منتوجات الغابة في ذلك الوقت كالمشمش ومعها أرجوحة تقليديّة هي عبارة عن حبل مصنوع من قشور سيقان عراجين التّمر الطريّة المعروفة عندهم باسم السبت وتنطق عندهم "صبّاط" ويقولون إنّ هذا العيد يخلّد حادثة شهيرة حصلت في قديم الزمان وصورتها أنّ منطقة الجريد كان يحكمها في قديم الزمان أحد فراعنة مصر وكان لهذا الفرعون زوجة إسمها توزر على غرار إسم مدينة توزر،

عاصمة الجريد اليوم وكانت ذات جمال فتّان وكانت محضية الفرعون الذي كان يفضّلها على كلّ نسائه فغرن منها وفكّرن في مكيدة يدبرنها ضدّها للتخلص منها فاتفقن على تلطيخ عرضها وروجن أنها تخون الملك واستفحلت الإشاعة حتّى وصلت إلى مسامع زوجها الفرعون فاستشاط غضبا وقرّر أن ينتقم منها فأبلغها أنه خارج للصيد وعندما يعود في المساء سيقتلها في أي وضع وجدها سواء كانت واقفة أم نائمة أو عادية على الأرض أو سابحة في النّهر واحتارت توزر في أمرها فصنع لها شيخ الفلاحين أرجوحة من سبت النّخيل وشدّ الحبل إلى نخلتين ثمّ أجلس عليه الملكة وأمر جواريها أن يدفعنها برفق تارة إلى الأمام وتارة إلى الوراء ولما رجع فرعون مع أعوانه في غروب الشمس وجد زوجته تتأرجح وهي في الهواء بين الأرض والسماء ليست بالواقفة ولا بالنائمة ولا العادية ولا السابحة فعرف أنها بريئة وأعادها إلى منزلتها فقرّرت الملكة توزر أن تقيم في ذلك اليوم الذي يصادف الرابع عشر من ماي عيدا وحفلا جماعيا تكريما للفلاحين والمزارعين فكان الصّبايا يخرجن في الصباح الباكر في فرح وسرور للاستحمام في الوديان والعيون التي تسقي الواحات ويرسلن شعورهنّ إيذانا بانقضاء فصل الشّتاء وحلول فصل الرّبيع وهنّ يرددن بعض الأهازيج منها : "فرعون يا فرعون, طوّل شعري وفتّح زهري" كما يقع الإحتفال في هذا اليوم بذكرى وفاة كائن إسمه "هروس" يقال عنه إنّه أحد أبناء الفراعنة فتتزيّن النّساء والبنات بتيجان الجلنار والتّفاح ويقمن بالمناسبة حفلا تقليديّا.

كما أنّ العائلات تعدّ قصاعا من الكسكسي وأنواع أخرى من الطعام وتضعها في غرف خاصة وتغلق عليها باعتبارها طعام لضيافة أشخاص خاصّين يسمّون باسم رجال الدبيلة وينظر إليهم بأنّهم أقوام من الجنّ يقدمون من منطقة وادي سوف بالجزائر في ذلك اليوم فيعدّون لهم هذا الطعام خصيصا لهم.

وكان الناس في تونس إلى عهد قريب جدّا يحتفلون بالموسم المعروف باسم عاشوراء ويغطّي هذا الموسم العشرة أيام الأولى من شهر محرّم العربي.

فكان الناس يشعلون نارا كبيرة بهذه المناسبة ويقفزون فوقها غير أنّ هذا العيد كان يتّخذ شكل المهرجان الكبير عند بعض الجماعات البربريّة مثل جماعة زراوة بقصر أزرو بجهة مطماطة والجبال المجاورة. فكانوا يصنعون جملا رمزيا يسمّى قعيد والغولة ويدورون به في القرية كما كان الصبايا يدرن بعرف أو بغصن من سدرة على المنازل فتخرج ربّة كل منزل يقفن أمامه أو من يمثّلها وتربط على ذلك الغصن خيطا من الصوف إعتقادا منهم بأنّ هذا الفعل يعمّق الروابط القرويّة والأسريّة. ويسمى ذلك الغصن أو العرف باسم "بوهرّس" على غرار هروس أهل الجريد وفي آخر أيام عاشوراء يقمن بإلقاء بوهرّس في ماجل قديم وكانت الإحتفالات تشتمل سابقا على كثير من المجون والإباحيّة بقي منها قيام الشّبان بالتغزّل بالبنات ورميهن بالحصى وما شابه ذلك.

ونلاحظ في هذا السياق أن شطّ الجريد كلن يحمل قديما الكثير من الأسماء منها إسم سبخة فرعون كما أورد التجاني في رحلته عبر البلاد التونسيّة ما بين 706 و708 هجري أنّ أهالي واحات نفزاوة في الضفة الجنوبيّة لشط الجريد كانوا يحبسون ويوقفون نصيبا من نخيلهم لفرعون.

فنحن نعتبر أنّ الفصول والشهور والأيام والسنين ترمز في الأصل إلى بعض الأشخاص من البشر الذين عاشوا في قديم الزمان و كانوا يحملون أسماء الفصول و الشهور و الأيام والسنين وكانوا يقومون أثناء حياتهم ببعض المهمات والوظائف الدورية داخل مجتمعاتهم كقيادة حملات الصيد الموسميّة والخروج الموسمي لجمع الضرائب والخروج بجماعاتهم صباحا لجني الثّمار والعودة بها ليلا إلى حيث إعتادت أن تنام وتستريح وغيرها من الوظائف

الدّوريّة الشبيهة فأطلقت أسماؤهم على المواسم والشهور والأوقات والفترات الزمنيّة التي تستغرقها هذه المهمّات.

فقد ساهم هذا الخروج الدّوري لفترة زمنيّة معلومة في خلق تلك الفترة الزمنيّة وتحديدها وقطعها من مجرى الحياة وحيث أنّ هذه الفترات كانت مرتبطة بخروج بعض الأشخاص للقيام ببعض المهمات فأطلق عليها تبعا لذلك أسماء وألقاب أولئك الأشخاص الذين كنوا بحكم وظائفهم وأدوارهم المذكورة من طبقة الأسياد والحكام.

وعلى هذا الأساس يمكن أن نقول بأنّ إسم "يوم" و"نهار" و"ليل" و"ربيع" و"صيف" و"شتاء" و"غشت" و"أوسّو" و"رجب" و"رمضان" و"شعبان" وغيرها من الأسماء التي تحملها الفترات الزمنيّة كانت في البداية أسماء وألقاب لبعض الأشخاص من البشر الذين كانوا مكلّفين بإنجاز بعض المهمات الدّوريّة داخل مجتمعاتهم في فترات زمنيّة خلقتها وحدّدتها هذه المهمات الدّورية فأطلقت أسماؤهم وألقابهم على تلك الفترات الزمنيّة. فاسم "أوسّو" و"ربيع" و"غشت" و"عام" كانت ألقابا وأسماء يحملها الأسياد والحكام والأمراء الذين كانوا يتعاقبون ويتداولون ويتناوبون على الحكم والوظائف الحكوميّة الدّوريّة المشار إليها سابقا, فكان كلّ سيّد يرقى إلى هذه الوظائف والمهمّات يحمل اللقب المناسب لوظيفته ومهمّته كما يحمل في عصرنا الحاضر لقب رئيس الجمهوريّة ورئيس الدولة كل شخص ينتخب لهذا المنصب من طرف الشعب في انتخابات دوريّة وكما يحمل لقب "أب" كلّ من يتزّوج وينجب أولادا.

وظلّت هذه الأوضاع والممارسات قائمة إلى عهد قريب جدّا في الكثير من البلدان ومنها البلاد التونسيّة.

فقد كان يحكم البلاد التونسيّة خلال القرون الثلاثة الماضية صنف من الحكام أسم الواحد منهم وبالأحرى لقبه "باي" ويجمع على "بايات وهو صيغة لفظية لكلمة "أب" التي ينطقها سكان بعض مناطق البلاد التونسيّة في صيغة "باي".

وكان هؤلاء البايات يختارون من بين أفراد عائلة بعينها تسمى العائلة المالكة أسّسها شخص بعينه فظلّت تنسب إليه وتستمدّ منه شرعيتها في الحكم لأنّ ذلك الشخص تم إختياره في حياته من طرف سكان تونس ليحكمهم فكان كل حاكم يرتقي إلى حكم البلاد التونسيّة من هذه العائلة يسمّى باسمه مع إضافة لقب "باي" وتداول على حكم تونس منهم كثيرون أمثال حسين باي مؤسس العائلة والصادق باي وعلي باي وغيرهم.

وكشأن كلّ العائلات المالكة في العالم كان يوجد بجانب الباي الحاكم نائبه ووليّ عهده وكان يسمّى باسم "باي الأمحال" وكان يقوم بوظيفة جمع الضرائب مرّتين كلّ سنة فكان يخرج مرتين كلّ سنة من تونس العاصمة مقر الحكم على رأس كتيبة من الجند تسمّى باسم "محلة" ويجمع على "أمحال" ويقوم بالمناسبة بجولة عبر البلاد التونسيّة يجمع خلالها الضرائب من الناس ثمّ يعود إلى العاصمة تونس فكان قدومه لكل مدينة مناسبة لإقامة الأفراح.

وكان جمع الضرائب يتمّ في مرحلة أولى من طرف الولاة وقواد الجهات ثمّ يأتي باي الأمحال فيأخذ ما تمّ جمعه من الضرائب ويعود إلى العاصمة تونس.

كما أنّ الصيف يرمز في الأصل إلى بعض الأسياد الذين كانوا يخرجون في بعض المناسبات لجمع الضرائب وأداء بعض المهمات الدّوريّة حيث مازال

الناس إلى اليوم في تونس يرددون في هذا الشأن قولا مضمونه "الصّيف ضيف".

ووجدنا أنّ كلمة "صيف" تفيد معنى السيد حيث أنّها صيغة لفظيّة لكلمة "سيف" التي يمكن أن تتخذ بدورها صيغة "شيف" و"شاف" نظرا لتعادل الصوت "سا" و"شا" وتستعمل كلمة "شاف" في الفرنسيّة في معنى الرئيس والسيد ورأينا أنّ الناس في تونس يستعملون كلمة "شاف" في معنى نظر وأبصر بحيث أن الصيف كان عبارة عن ناظر.

ويرمز الشتاء أيضا إلى بعض الأشخاص من هذا القبيل ومازال السكان في تونس يروون أنّ فصل الشتاء يقول للفصول الأخرى: "أنا عمّكم الشتاء لمّدوا و هاتولي" بمعنى "أنا عمّكم الشتاء إجمعوا وأعطوني" بحيث أنّ الشتاء كان مثل باي الأمحال رئيسا للمكلفين بجمع الضرائب الذين كانوا في القديم الحكام والأسياد في كلّ شيء في حقيقة الحال.

وعلى هذا الأساس وجدنا أنّ الأسماء التي تطلق على مختلف الفترات الزمنيّة هي أسماء لبعض الآلهة الذين عبدتهم الشعوب الإنسانيّة في القديم.

فمن ذلك أنّ الشهر يسمّى باسم "أيور" في اللغة البربريّة ويطلق اسم "أيور" أيضا على القمر وقد عبد البربر في القديم إلها إسمه "أيور".

وعبد العرب في القديم إلها إسمه "عام" كما عبد الكنعانيون إلهين إسمهما "نهار" و"يوم" ويسمّى اليوم في اللاتينيّة وبعض اللغات الأوروبيّة باسم "دي" و"داي" وتستعمل كلمة "داي" في صيغ متعدّدة في العديد من اللغات الإنسانيّة في معنى الأب والسيد والحاكم وكذلك في معنى الإله.

وسبق أن أشرنا إلى أنّ النّجوم والكواكب التي عبدها الناس في القديم ترمز في حقيقة الحال إلى بعض الأشخاص من البشر الذين عاشوا في قديم الزمان وكانوا يحملون أسماء هذه الكواكب والنّجوم تعبيرا عن بعض الصفات والخصال البشريّة المميّزة لهم وكانوا عظماء وكبارا في أقوامهم فعظمهم أقوامهم في حياتهم وربّوا أبناءهم على تعظيمهم ومازال الناس إلى اليوم يحملون أسماء الكواكب والنّجوم كقمر وشمس وزهرة وسهيل وثريا.

وكان الواحد من العظماء قديما يلقّب بلقب "إله" و"رب" وما شابهه من العبارات فعرفوا باسم الإله شمس والإله قمر والرّبة الزهرة.

وقد أطلقت أسماؤهم على هذه النّجوم والكواكب لأنّ وظائفهم ومهماتهم كانت مرتبطة بدورة القمر والشمس والزهرة كإطلاق إسم الإله "نهار" والإله "يوم" والإله "داي" على النهار واليوم لارتباط وظائفهم بفترة النهار واليوم.

فقد تعوّدت الجماعات البشريّة منذ العهود الأولى من التّاريخ الإنساني إعتماد طريقة التّناوب والتّداول لقضاء حوائجهم فكان النّساء داخل الأسرة الواحدة يتناوبن ويتداولن على إعداد الطعام وحلب الغنم والنّوم مع الزوج والبعل الذي يمتلكهن فكان لكلّ زوجة دورها ونوبتها كما كان الرعي أيضا يتمّ بالتناوب إلى غير ذلك من الأعمال المعيشيّة ثمّ توسّع نطاق التّناوب والتّداول حتّى عمّ وغطّى مختلف مظاهر الحياة الإنسانيّة وفي مقدّمتها رئاسة وقيادة البشر فلأجل ذلك تسمّى سياسة البشر ورئاستهم وقيادتهم لفترة معلومة باسم "دولة" وهو لقب مازال يستعمل لتسمية رؤساء الحكومات والوزراء الكبار ومأخوذ من عبارة "التّداول" فلهذا السبب سمّيت أيام الأسبوع في المجتمعات واللغات الأوروبيّة بأسماء الكواكب والنّجوم كما هي الحال في اللغة الفرنسيّة حيث يسمّى يوم الإثنين باسم "لوندي" ومعناه يوم القمر ويتركب من الإسم "لون" ومعناه القمر

والإسم "دي" ومعناه "نهار" و"يوم" ويسمّى الثلاثاء باسم "ماردي" ومعناه يوم المريخ ويتركب من الإسم "مارس" ومعناه المريخ والإسم "دي" ويعني "نهار" و"يوم" والخميس باسم "جودي" ومعناه يوم المشتري والجمعة باسم "فندرودي" ومعناه يوم الزّهرة ويسمّى السبت بالأنقليزيّة باسم "ساتورداي" وهو يتركب من الإسم "ساتورن" وتعني زحل و"داي" وتعني "يوم" و"نهار" ويسمّى الأحد في الأنقليزيّة باسم "سونداي" ومعناه يوم الشمس.

فقد ذكرنا أنّ أسماء الكواكب والنجوم كانت في الأصل أسماء لبعض الأشخاص والأقوام من البشر تعبيرا عن بعض الصفات والخصال البشريّة المميّزة لهم ثم إنّها أطلقت على الكواكب والنّجوم.

فكلمة "قمر" تفيد في الأصل معنى المرأة وهي صيغة لفظيّة لكلمة "إمرأة" حيث أنّ الصوت "قا" يعوّض أحيانا بالصوت "أ" كما هي الحال عند المصريين الذين ينطقون القمر في صيغة "أمر" بحيث أنّ إسم "قمر" كان يفيد في الأصل المرء والمرأة بمعنى الرجل والمرأة والأشخاص من البشر عموما.

وعلى هذا الأساس فإنّ القمر في الأساطير والمعتقدات الدينيّة المذكورة يرمز إلى إمرأة أو مجموعة من النساء وإلى أشخاص وأقوام من البشر بصفة عامّة.

وسبق أن أشرنا إلى أنّ بعض الناس مازالوا إلى اليوم يحملون إسم "قمر" وخاصة بالنسبة للنساء في البلدان العربيّة كتونس كما أنّ الأشخاص مازالوا يحملون إلى اليوم إسم "شمس" و"سهيل" و"ثريّا" و"زهرة" و"بدر" ويشير الإسم الأخير إلى القمر عندما يكتمل ويسمّى في هذه الحالة في البربريّة باسم "تازيري" الذي يتركب أساسا من الجذر "زر" ونعتبر أنّ إسم "زهرة" مشتق من الجذر "زر" ويمثل في حقيقة الحال صيغة لفظيّة لاسم "زر" الذي يفيد معنى

الإبن والأبناء حيث أنّه صيغة لفظيّة لكلمة "ذر" التي تعني الأبناء في اللغة العربيّة. ويتخذ صيغة "زهرة" ومنه اشتق إسم "أزهر" الذي يستعمل إلى اليوم في تونس وغيرها من البلدان المغاربيّة لتسمية الأشخاص وهو صيغة لفظيّة لاسم "أزر" وينتمي إلى هذا الحقل اللغوي أيضا إسم "زيري" الذي يستعمل أيضا لتسميّة الأشخاص عند الجماعات البربريّة في القديم وكان يحمله الجدّ الأول لأسرة أو عائلة الزيريّين التي حكمت تونس في القرن العاشر والحادي عشر ميلادي ويعادل إسم "زيري" إسم "ضاوي" المأخوذ من كلمة "ضوء" التي تستعمل في العربيّة في معنى النّور والضياء ومازال بعض الأشخاص يدعون باسم "ضاوي" في تونس غير أنّ المعنى الأصلي لاسم "زيري" وأشباهه من الأسماء هو إبن وأبناء وأولاد كما ذكرناه ونشير إلى أنّ أحد آلهة المصريين القدماء كان يحمل إسم "أزر" ويعرف باسم "أوزيريس" نقلا عن الصيغة التي اتخذها في اليونانيّة.

وقد وجدنا في هذا السياق أنّ إسم "زهرة" يعني الصبيّة والعذراء والبنت البكر وهو يعادل من هذه الناحية إسم "خديجة" الذي يتركب أساسا من الجذر "أديجة" وتستعمل كلمة "أديجة" في صيغة "إيدجي" في معنى النّوار والأزهار والنّوارة والزهرة والبكر في سياق اللغة البربريّة.

وأشرنا إلى أنّ الأبناء يسمّون باسم "سن" في سياق اللغة الأنقليزيّة كما يطلق إسم "سن" على الشمس" في سياق اللغة الأنقليزيّة.

ورأينا أنّ بعض الحكّام كانوا يحتكرون لفائدتهم مهمّة إفتضاض بكارة كلّ عروس تزف إلى زوجها بحيث يمكن أن نقول على ضوء الأعراس الإباحيّة الموسميّة المشار إليها آنفا أنّ الأعراس وما يتخلّلها من إفتضاض لبكارة العرائس كانت في القديم مناسبات دوريّة يشرف عليها الحكام المذكورون وكانت

مرتبطة بصورة من الصور بالقمر أو بالزهرة وبالإعتدال الربيعي أو شيئا من هذا القبيل باعتبار أنّ الدّورة الطبيعيّة تختلف من مكان إلى آخر.

كما كان الناس في القديم يخصّصون الولد البكر والبنت البكر للخدمة في معابد الآلهة امتدادا وتقليدا لتخصيص الولد البكر أو البنت البكر لفائدة الأسياد والحكام حيث أنّ الآلهة يرمزون إلى الأسياد والحكام في قديم الزمان ويسمّى الولد البكر في تونس باسم "بدري" بينما تسمّى البنت البكر باسم "بدرية" وعلى هذا الأساس يمكن أن نقول إنّ البكر كان مخصّصا قديما للبدر وهو اسم القمر ليلة تمامه ويسمّى في هذه الحالة باسم "تازيري" بالبربريّة وقد ذكرنا أنّ الإسم الواحد يطلق على العديد من الأشياء المرتبطة ببعضها في الزمان والمكان مهما كان نوعها كإطلاق إسم "ري" على السيد وعلى العبد وعلى الحبل الذي يشدّ به السيد عبده, بحيث أنّ البدر والقمر كان يرمز إلى الأسياد والأولاد الذين كانوا يأخذونهم كضرائب وإلى الموسم والوقت الذي كان يتمّ فيه تسليم هذه الضرائب وطريقة تحديده. ويمكن القول بان تخصيص الولد البكر لخدمة الاسياد ومعابد الالهة يعود الى اعتباره الابن الشرعي والدموي للسيد عندما يتولى ذلك السيد افتضاض بكارة كل عروس جديدة تهدى الى عريسها.

كما كان النّاس يخصّصون للآلهة ومن قبلهم لأسيادهم الذين ظلّ يرمز إليهم الآلهة باكورة مزروعاتهم ونتاج أغنامهم ورأينا أنّ المزارعين في جهة الجريد يهدون لأصحاب البساتين الذين يشتغلون لحسابهم نصيبا ممّا تنتجه البساتين عند حلول الرّبيع ويعتبر أصحاب البساتين في هذه الحالة امتدادا للأسياد القدامى. فعلى ضوء هذه الشروح والتّحاليل يمكن أن نقول بأنّ الفصول والفترات الزمنيّة ليس لها وجود طبيعيّ فرض نفسه على الإنسان وإنّما هي تقسيمات زمنيّة على غرار التقسيمات التي إستحدثها الإنسان في مستوى الارض

والمكان الذي يعيش فيه من خلال امتلاك الأراضي ووضع الحدود حولها لفصلها عن بقيّة الاراضي المحيطة بها.

فمثلما ذكرناه نشأت الفصول ومختلف الفترات الزمنيّة التي يعيش الإنسان على وقعها نتيجة لعمليات الخروج اليومي لجمع الطعام والخروج الموسميّ لجمع الضرائب والتّناوب على القيام بالأدوار المنزليّة والتّداول على إنجاز المهمّات الإجتماعيّة بحيث أنّ النشاط الإنساني إتّخذ منذ البداية طابعا دوريّا أفضى وأدّى إلى تقسيم مجرى الحياة إلى فترات مناسبة.

وعلى هذا الأساس يمكن وصف الفصول والفترات الزّمنيّة بحدود شبيهة بالحدود التّرابيّة التي ليس لها في الأصل وجود طبيعيّ وإنّما خلقها واستحدثها الإنسان بفعل تملّك الأرض وفصل الملك الخاص عن بقيّة الأملاك الخاصة الأخرى غير أنّ الفصول والفترات الزمنيّة هي حدود مستحدثة في مستوى التّحرّك والحركة كالقيام والتّحرك في الصّباح بعد سكون ونوم الليل وتمثل الفترة الزمنيّة التي تدعى باسم "ساعة" والفترة الزمنيّة التي تدعى باسم "أسبوع" في اللغة العربيّة أبرز دليل على أنّ الفترات الزّمنيّة هي فترات مستحدثة من طرف الإنسان وليست طبيعيّة وليس لها وجود طبيعيّ حيث أنّ الفترة الزمنيّة المسمّاة باسم "ساعة" ليس لها وجود طبيعي كما أنّ الفترة الزمنيّة المسماة باسم "أسبوع" ليس لها أي وجود طبيعي مع أنّ الحياة الإنسانيّة في العصر الحاضر تسير على وقعها بحيث تبدو وكأنّها سبقت الحياة الإنسانيّة في حين أنّ الحياة الإنسانيّة وصروفها هي التي خلقتها واستحدثتها ويتجلى تأثير الحياة الإنسانيّة على خلق واستحداث الفترات الزمنيّة في الإعتماد على بعض الأحداث الإنسانيّة الكبرى لتحديد عدد السنين على غرار إعتماد المسلمين على هجرة النبيّ محمد من مكة إلى المدينة لتحديد عدد السنين وترمز هذه الهجرة إلى انتقال النبيّ

محمد في سن الخمسين سنة تقريبا من مسقط رأسه مكة إلى المدينة بشمال مكة وكان هذا الإنتقال بمثابة البداية الحقيقيّة لانتشار دين الإسلام الذي جاء به بين العرب قبل إنتشاره بصورة واسعة في العالم.

كما أنّ كلمة "سنة" تفيد في الأصل معنى البستان والجنان والجنّة في حين ترمز عبارة "رأس السنة" ومعناها بداية السنة إلى رؤوس الأغنام وباكورة المنتوجات الفلاحيّة التي كان الناس يعطونها قديما لأسيادهم ومعها أحيانا بعض الرؤوس البشريّة بمعنى بعض الأشخاص من البشر الأحياء.

فمازال الناس في تونس يسمون البستان باسم "سانيّة" الذي هو صيغة لفظيّة لاسم سنة, كما أنّ اليهود يسمّون رأس السنة باسم "روش هشانة" وتقوم الهاء في اللغة اليهوديّة بمقام أل التعريف في العربيّة وتتخذ كلمة "هشانة" أحيانا صيغة "حشانة" ويطلق إسم "حشانة" في بعض مناطق البلاد التونسيّة على البستان والجنان والسّانية والحديقة والحقل والجنّة وكانت كلّ هذه الألفاظ تعني في الأصل المرأة والأسرة والعائلة والأولاد والحيّ البشري ثمّ أطلقت على مجالات أنشطة الأسرة كالغابة والبساتين والحقول والحدائق.

واستنادا إلى كلّ هذه المعطيات والتحاليل نعتبر أنّ كلّ الفترات الزمنيّة ليس لها وجود طبيعي وإنّما هي حدود وفواصل وتراتيب خلقتها وأحدثتها وأنشأتها صروف الحياة الإنسانيّة وتبعا لذلك يمكن القول بأنّ الزمن في حدّ ذاته ليس له وجود طبيعيّ وإنّما هو فكرة إنسانيّة نشأت نتيجة للطابع الدّوري للأنشطة الإنسانيّة مثلما شرحناه في تحاليلنا المتقدّمة حيث أضفى هذا الطابع الدّوري على الأنشطة الإنسانيّة العودة والتّعاقب والإستمراريّة ممّا جعل الإنسان يشعر ويحسّ بأنّ هناك بعض الأشياء التي تعود وتتعاقب باستمرار ثمّ إنّ هذا الشعور تجرّد من مضامينه الحسيّة وأصبح شيئا مجرّدا تماما واتخذ إسم "الزمن"

وغيره من الأسماء الشبيهة مثل إسم "طامبو" و"طامبور" للأسباب التي شرحناها حيث أنّ فكرة الزّمن تتمثّل بالنسبة للإنسان في وجود شيء مجرد تماما يجري باستمرار ومن هذا المنطلق فإنّ الإعتقاد في وجود الزمن بالمفهوم العادي يتمثل في الإعتقاد في وجود أشياء مجرّدة تماما وغير محسوسة وهو أمر يتناقض مع مقتضيات الواقع والحقيقة.

ولاحظنا في هذا السياق أنّ الزمن يسمّى في بعض اللغات الأوروبيّة كالإيطاليّة والفرنسيّة باسم "طامبو" وتتخذ الصفة منه صيغة "طامبور" وهو إسم يستعمل في معنى الطبل وهو آلة موسيقيّة معروفة وتستخدم منذ القديم لتنشيط الإحتفالات التي تقام على شرف الزّوار الكبار وفي المناسبات والأعياد الدّوريّة.

غير أنّ الأجيال المتأخرة من الناس نسوا تدريجيّا المضامين الحسّية الأصليّة للفترات الزمنيّة وللزمن وأصبحت هذه الفترات والأوقات الزمنيّة تبدو وكأنّها سبقت الإنسان في الظهور وبأنّها هي التي شكّلت حياته وأعطتها نسقا في حين أن أطوار الحياة الإنسانيّة وصروفها هي التي خلقت وأحدثت هذه الفترات والأوقات والمواسم والفصول.

كما نسي النّاس المعنى الحقيقيّ للعادات المتّمثلة في الإحتفال بدخول فصل الرّبيع وبفترة أوّسو ورمي الدّمى والعرائس في البحار والأنهار ونسوا أيضا الأصل الحقيقيّ للعادات المتّصلة بالتوسّل بالآلهة والكائنات الغيبيّة الشبيهة لطلب المطر والخصب والصحّة وبتقديم الذبائح والنّذور لهم لاستجداء عونهم وحمايتهم وأصبحت أفعالا مجرّدة ليس لها سند واقعيّ في الظّاهر وعندما إهتمّ العلماء بتفسيرها غاب عنهم هم أيضا المحتوى الحقيقيّ الأوّل لهذه العادات والأفعال ولم ينتبهوا إلى أنّها تستند إلى أصول طبيعيّة فاعتبروا أنّ عبادة الآلهة هي تقديس رمزيّ للطبيعة وأنّ الأساطير المتعلّقة بهم هي محاولات قديمة

لتفسير الطبيعة والظّواهر الطبيعيّة من خلال تشخيصها والتّوهم بأنّها مسكونة بالأرواح وبقوى غيبيّة خفيّة.

ومثلما ذكرنا فإنّ هذه النظريات العلميّة أخطأت مرماها تماما لأنّها انبنت وقامت على التّوهم بأن الآلهة و الأساطير هي تصورات خيالية ووهمية من صنع خيال الإنسان وتوهّمه وقد أبرزنا في ما قدمناه من شروح وتحاليل ضافية المعنى الحقيقيّ للآلهة والتّوسل بهم بحيث أنّ العلماء توهموا الوهم حيث لا يوجد وليس هناك وهم مثلما سبق أن ذكرناه.

فكلّ هذه العادات والأفعال هي امتداد وتقليد لبعض التصرّفات الطبيعيّة القديمة كما أنّ الآلهة يرمزون إلى آباء وأجداد الشعوب الإنسانيّة التي عبدتهم وإلى ملوك حكموا في أسلافهم ومصلحين أصلحوا من شؤونهم بحيث أنّ عبادة الآلهة هي مظهر من مظاهر التقدير الذي يكنّه النّاس بصورة طبيعيّة لآبائهم وأجدادهم وأسيادهم وعظمائهم بصفة عامة.

وعلى هذا الأساس فإنّ الأساطير التي تتحدّث عن هؤلاء الآلهة هي أخبار تاريخيّة قديمة تروي وتنقل الأحداث والوقائع الحقيقيّة التي عاشها الأباء والأجداد والأسلاف في قديم الزّمان في بعض بقاع الأرض.

الفصل الخامس

الأصول الحقيقيّة

لتقديس الأماكن والبقاع في العالم

اكتسبت الكثير من الأماكن والبقاع في مختلف ربوع الأرض لدى الإنسان طابعا مقدّسا يتجلّى من خلال تعظيم النّاس لها وإحاطتها بكل مظاهر التّقدير والاحترام.

فنحن نعتبر أنّ تعظيمَ هذه البقاع وتقديسَها هو في الأصل مظهر من مظاهر التّعبير عن احترام الأملاك الخاصة خوفا من إثارة غضب أصحابها والتّعرّض إلى بطشهم في حال الاعتداء عليها وعلى مقوّماتها.

ففي هذا السّياق كان سكّان البلاد التونسيّة إلى عهد قريب جدّا يُعَظِّمُونَ بعض الغابات والعيون والجبال والكهوف والآبار والغيران لإرتباطها ببعض المعتقدات الموروثة.

فقد كان سكان مدينة الهوّاريّة بالوطن القبلي بشمال البلاد التّونسيّة إلى حدود هذه السّنوات الأخيرة يعظّمون غابة جبليّة في المنطقة تعرف بغابة سيدي

عامر نسبة إلى شخص إسمه عامر كان يشاع عنه أنّه وليّ من الأولياء الصّالحين.

وكان أهالي الهوّاريّة يعتبرون غابة سيدي عامر مكانا مقدّسا فكانوا يحيطونها بالتّقدير ويراعون حرمتها بحيث كانوا يمتنعون عن إلحاق أيّ أذى أو ضرر بمحتوياتها مخافة أن يصيبهم بعض المكروه فلا أحد كان يتجرّأ على قطع أشجارها.

وكان الأهالي في الجنوب التّونسيّ يعظّمون إلى عهد قريب عددا من العيون والآبار ويروون بشأنها قصصا وأساطير تبرز طابعها المقدّس والخارق للعادة الذي أكسبها الاحترام والتّقدير.

فقد كان السّكّان في منطقة نفزاوة بولاية قبلّي يولون منزلة خاصّة لبئر يوجد في قرعة بوفليجة قرب جبال الطباقة فكان الرّعاة وعابري السّبيل يستعملونها بحذر وكان النّاس يتواصون أنّه من المستحسن قبل ورود مائها ذبح شاة أو بعض الذّبائح الأخرى ليتمّ الأمر على ما يرام ويعتقدون أنّ كلّ من يمتنع عن تقديم الذّبيحة المفروضة يتعرّض إلى بطش سكان البئر وعمّارها وتسمّى البئر أيضا برأس الحاشي ويحكي السكان بهذا الشّأن أنّ راعيين أو سارحين من جماعة المرازيق سكّان مدينة دوز وردا ذات مرّة هذه البئر المسحورة ولم يذبحا لعمّارها الذّبيحة المطلوبة وكان لكلّ واحد منهما إثنان وأربعون شاة فأفاقا في الصّباح فوجدا أنّ غنم كلّ واحد منهما هلك نصفها.

ويحكي أهالي الجنوب التّونسي حول بئر أخرى بالمنطقة تسمّى بير زملة السّبعة والعشرين قصّة مفادها أنّ جماعة أرادوا أن يحفروا بئرا قرب بئر الحاج عبد الله بالمنطقة المذكورة بإشارة رجل كان معهم فحفروا سبعة وعشرين

ذراعا فلم يجدوا الماء فلمّا جنّ اللّيل قامت عاصفة رملية هوجاء وغمرت الرّجل صاحب الفكرة تحت رمالها لأنّه أشار بحفر البئر الجديدة قرب عين قديمة لها حرمتها فسميت بير زملة السّبعة والعشرين إشارة إلى السّبعة والعشرين ذراعا الّتي بلغها الرّجال في حفرهم.

كما يروي الأهالي بجهة النّفيضة بولاية سوسة على السّاحل التّونسي حول عين قارسي الموجودة بجبل قارسي بالمنطقة قصّة تُرجع سرّ وجودها إلى بَركة أحد الأولياء الصّالحين يدعى سيدي عبد الرّحمان القارسي

ومضمونها أنّ هذا الوليّ كان يعيش في بداية أمره بمدينة زغوان على بعد حوالي ستّين كيلومترا جنوب العاصمة تونس فعزم على زيارة مدينة القيروان غير بعيد عن مدينة سوسة فمرّ بجهة النّفيضة وكان الحال صيفا فعطش وظلّ الطّريق ووصل بالقرب من جبال النّفيضة حيث توجد عين قارسي وكانت تسمّى بالعين البرّاقة فلقي إمرأة تحمل قربة ماء فطلب منها شربة ماء فناولته القربة فشرب كلّ ما فيها فقالت له المرأة إنّ بالجبل عين ماء وإن شاء تزوّد منها فصعد معها إلى الجبل وكانت معه شكوة بها قليل من اللّبن القارص فصبّ ذلك اللّبن في العين فتغيّر طعم مائها وأصبح حلو المذاق وبه شيء من حموضة ذلك اللّبن القارص فسميّ سيدي عبد الرّحمان منذ ذلك الوقت باسم سيدي عبد الرّحمان القارسي ونسبت العين إليه فأصبحت تعرف بعين قارسي

وبعد زيارة القيروان عاد سيدي عبد الرّحمان من حيث أتى ومرّ على عينه بجبل قارسي فقرّر الإقامة بالقرب منها وتسامع به طلاب العلم فجاءوا للاستفادة منه وأقاموا معه فوق الجبل وأصبح المكان زاوية كبيرة يقصدها الطلاّب والزوّار من كلّ صوب وحدب.

وكانت الدّواب تشرب من العين فتدنّسها فرأى سيدي عبد الرّحمان القارسي ذات يوم حمار الزّاوية قادما وعليه أربع قلال مملوءة ماء فأخذ حبّة زيتون ورماه بها فنفر الحمار فسقطت القلال وانكسرت فخرجت في المكان الّذي انكسرت فيه عين ماء خرّارة لكنّ ماءها مُرٌّ المذاق فخصّصت لشرب الحيوانات والدّواب وطلب سيدي عبد الرّحمان من طلبته أن يدفنوه عند وفاته قرب عين الماء المُرّة فكان كذلك.

كما أنّ العيون القديمة الّتي كانت تقوم عليها مدن وقُرًى نفزاوة في ولاية قبلّي تعتبر مقدّسة في نظر السّكان لأنّها انفجرت حسب قولهم بصورة خارقة للعادة ببركة بعض الأولياء الصّالحين جاءوا في فترات مختلفة إلى تلك الرُّبوع من عدّة مناطق وخاصة من منطقة السّاقية الحمراء جنوب المغرب الأقصى واستقرّوا بها حول العيون والآبار الّتي ظهرت بصورة عجيبة ببركتهم وقد جمعنا ودرسنا العديد من الأساطير والإعتقادات حول هذه العيون في كتابنا المسمّى "أساطير النّشأة بالجنوب التّونسي".

كما أنّ الأهالي بمدينة وذرف بالقرب من مدينة قابس بالجنوب التّونسي وخاصّة النّساء منهم كانوا إلى حدود هذه السّنوات الأخيرة يعظّمون عين ماء قديمة بواحة هذه المدينة اسمها "أمي العوينة" ويدعوها الأهالي "أمّيمتي العوينة" بتصغير اسم "أمي" وشهد تعظيم هذه العين في الخمسنيّات من القرن العشرين بعثا وانطلاقا جديدا بفضل إمرأة من سكّان المدينة وصورة ذلك أنّ هذه المرأة مرضت فوقفت عليها في المنام إمرأة حسنة الهيأة وقالت لها إني أنا أمّك العوينة وقد جئتك لأعدك بالشّفاء والعافية فتعافت المرأة وشفيت من مرضها فقصّت قِصّتها على نساء المدينة فذهبن إلى العوينة وبنين عليها قبّة صغيرة وصرن يزرنها بانتظام في كلّ أسبوع ويقمن على شرفها حفلة.

ويروي الأهالي عن العيون الحّارة الطّبيعية الموجودة بجبل بوقرنين بمدينة حمّام الأنف بالقرب من العاصمة تونس بأنّها مسكونة بالجنّ أو بالنّاس الآخرين كما يسمّيهم السّكان في البلاد التّونسيّة ويطلق السّكان في تونس وفي بلدان شمال إفريقيا عموما اسم حمّام والحّامة على المواقع الّتي توجد بها عيون حارّة طبيعية حيث أنّهم غالبا ما يصفون الحّار والسّاخن بصفة "حَامي" ويسمّونه حَامي عِوض حَار وزعم بعض الباحثين أن اسم حمّام الأنف كان يُنطق في الأصل "حمّام الإِلف" بمعنى حمام الجن حيث ذَكرنا أنّ اسم "إِلف" يُطلق على نوع من الجنيات في العديد من البلدان الأُوروبية وخاصة منها البلدان الواقعة بشمال القارّة الأُوروبية وقد يكون القول صحيحا.

فإلى اليوم مازال أهالي الموقع يَحكون عن أصل هذه العين أسطورةً مَفادها أنّ قَبيلتين كانتا تسكنان في المنطقة وكانتا في حرب مستمّرة. فكانت إحداهما تُسمّى سُلَيْمان وتسكن في مدينة سُليمان الواقعة على بُعد بعض الكِيلومترات جنوب حمّام الأنف والأُخرى تُسمّى رَادِسْ وتسكن في مدينة رادس الواقعة على بُعد بعض الكِيلومترات شمال حمّام الأنف فوقع ابن شيخ قَبِيلة سليمان ذات يوم أسيرًا عند قبيلة رادس فوُضع في قيد واعتقل لِعِدَّةِ شهور فرأته ابنة شيخ قبيلة رادس فعشقته وخَلَّصَتْهُ من قيده وتمكّن من الفرار فتفطّن له جماعة رادس وركبوا في أثره فلمّا بلغ الشّاب جبل بوقرنين بعد أن قطع المسافة جريا على الأقدام سقط أرضا من التّعب وسرعان ما لفظ آخر أنفاسه ومات وسمعت به حبيبته فهرعت إلى حيث سقط وجثت بإزائه وهي تبكي وتذرف الدّموع مِدرارا حزنا وأسى على الحبيب الغالي فشَربت الأرض تلك الدّموع السَّخِنة وتكوّنت منها العين السَّخنة بحمّام الأنف الّتي تُبرىء المرضى.

وكان سكّان مدينة نْجِبَّة بولاية باجة بشمال البلاد التّونسيّة إلى حدود هذه السّنوات الأخيرة يُعَظِّمون كهفا جبليا بالمنطقة وكانوا يقولون عنه إنّه يحتضن جماعة من القوم الغيبيّن يُسَمُّونهم باسم الرقود السّبعة وكانوا يزورونه بانتظام ويوقدون فيه الشّموع تبرّكا به وقد أصبح هذا الكهف في المدّة الأخيرة فضاء ذا طابع ثقافي يُقام فيه مهرجان رسمي سنويّ يُسَمّى مهرجان الكروم.

كما يوجد في المرتفعات الجبليّة المحيطة بمدينة بالطة بمنطقة خمير من ولاية جندوبة بشمال البلاد التونسيّة مغاور من هذا القبيل تُسَمّى باسم غريفة السّبعة وكانت محلّ تعظيم من طرف الأهالي إلى عهد قريب.

وقد وجدنا أنّ أسطورة الرقود السّبعة مُنتشرة في سائر بلدان شمال إفريقيا ولاسيّما في تونس والجزائر والمغرب الأقصى ويُدْعَى هؤلاء القوم الغيبيّون أحيانا باسم الرقود فقط حيث يوجد بسهل فوسانة قُرب مدينة مكثر بوسط البلاد التّونسيّة مقبرة مقدّسة تُسَمّى باسم قرعة الرقود وتحتوي عددا من المقامات يُشاع عنها أنّها مقامات لبعض الأولياء الصّالحين منها مقام الولي سيدي بوغانم الّذي ذكرنا بعض أخباره في الفصول السّابقة وسيدي المويلحي بوجلال جدّ أولاد المويلحي وغالبا ما يُوصِي الأهالي بالمنطقة بدفنهم في قرْعة الرقود عند موتهم تبرّكا بها.

ويَحْكِي السّكان في الجزائر الكثير من الحكايات حول الرقود السّبعة منها أنّ أحد الأولياء الصّالحين من بلدة هنّنة اسمه سيدي قاسم كان يسيح من نجع إلى آخر يَمْدَحُ الصّالحين ويذكر أمجادهم فمَرّ ذات يوم بمدينة نَجْوَاس وكان بها سبعة شبّان فُقِدوا منذ مُدّة ولم يُعثَر لهم على أثر فأتى سيدي قاسم أحد أعيان المدينة وقال له إتبعني فعندي لك حاجة فتبعه الرّجل فأخذه إلى مَزْبَلَة أو زَبّالة

كبيرة وأشار إليها وقال له: عجبت منكم يا أهل هذه المدينة, كيف تضعون فضلاتكم في هذا المكان المبارك فأحفُرُوا وسوف تروْا مِصداق قولي, فدعا الرّجل أهل المدينة وأزاحوا الزبلة وحفروا فوجدوا جثث الشّبّان السّبعة مردومة تحتها فَسُمّي المكان باسم الرقود السّبعة وأصبح مَحلّ تعظيم واحترام من طرف الأهالي.

ويوجد في الكثير من قُرى ومدن الجنوب التّونسي مقامات مُخصّصة للرقود السّبعة منها مقام في مدينة جُمْنَة بين قبلي ودوز يُرْمَزُ إليه بسَبْعِ حجرات طويلة منصوبة عموديا في مقبرة المدينة يُسَمّيها الأهالي الرقود السّبعة وكان يُوجد بِقُرْبها حجر آخر منصوب عموديا يُسَمّى "أمي الصّماء" يُشاع عنها أنّها وليّة وتحظى باعتقاد الأهالي ويطلب الأطفال من أمي الصّماء الحماية والعمر الطّويل وأن تُطيلهم وتجعلهم في طول النّخلة.

كما كان سُكّان مدينة شنِنّى بولاية تطاوين بالجنوب التّونسي يُقيمون كلّ سنة عيدا كبيرا على شرف الرقود السّبعة بالقرب من غار جبلي بالمنطقة به سبع قبور عملاقة وبإزائه مسجد وعين ماء عذبة وتحوّل هذا العيد في السّنوات الأخيرة إلى مهرجان ثقافي رسميّ يُدعى باسم مَهرجان دُقْيَانُوس نِسْبَة إلى موقع أثري بالمنطقة يحمل هذا الإسم في موضع يُعرف باسم قصر الفرش.

وكانت الكثير من الكهوف والغيران الجبليّة في تونس والأقطار المغاربيّة الأخرى إلى عهد قريب جدًّا تحظى بالتّعظيم والتّقدير من طرف الأهالي لإرتباطها ببعض المعتقدات الغيبيّة ويحكي النّاس حولها الكثير من الأساطير والقصص الّتي تُبرز طابعها المقدّس.

ويُطْلَقُ على الكهف والغار الجبليّ بالبربريّة إسم "إفري" وقد عَبد البربرُ في القديم إلها اسمه "أفرو" وتعتبر كلمة "إفري" و"أفرو" صيغةً لفظيّة لكلمة "حفر" و"حفرة" الّتي تعني الغار في العربيّة.

فَمازال الأهالي في حومة بازيم بجزيرة جربة بالجنوب التّونسي يُعَظِّمُونَ إلى اليوم مَقامًا يُنْسَبُ إلى ولي من الأولياء الصّالحين اسمه الشّيخ سيدي بوسعيد وهو عبارة عن غار منقور في الجبل يفضي على عمق حوالي ثلاثة أمتار إلى غرفة منقورة في الحجر بجانبها بئر فكان أهالي بازيم يَسْتَسْقُونَ بالشّيخ سيدي بوسعيد عند انحباس المطر, فعندما يَنْحَبِسُ المطر ويقع الجدب يقوم أهالي حومة بازيم بجمع ما يشترون به ثورا فيأتون إلى مقام الشّيخ سيدي بوسعيد ويذبحون ذلك الثّور ويطبخون لحمه ويأكلون منه ما شاءوا ويتصدّقون ببعضه ويتوسّلون للشّيخ سيدي بوسعيد لنزول المطر ويَظَلُّونَ مجتمعين بهذا المقام من نصف النّهار إلى المغرب ثمّ يَعُودُونَ إلى منازلهم.

كما كان الأهالي بمدينة وَرْدَاسَات بالمغرب الأقصى إلى عهد قريب يُعظِّمُون كهفا جبليّا في المرتفعات المجاورة ويقيمون على شرفه كلّ سنة احتفالا كبيرا تُذْبَحُ فيه الذّبائح وتُعَدُّ الأصناف العديدة من الأطعمة للزّائرين ويستمرّ الحفل عِدّة أيّام يقضيها المحتفلون في الغناء والرّقص والطّرب والأكل والشُّرب وهم يحكون بهذا الشّأن قصّةً مفادها أنّ أحد الأولياء الصّالحين اسمه سيدي جبّار كانت له بنت جميلة فزوّجها إلى شاب ورع من مريديه اسمه سيدي حسين له قبة بالمكان مثل مشاهير الأولياء بينما يشار إلى سيدي جبّار بكدس بسيط من الحجارة.

غير أنّ الفتاة لم تكن ترغب فيه وفي ليلة الزفاف ذهب جماعة من الرجال والنساء إلى دار سيدي جبّار لأخذ العروس إلى دار زوجها فوجدوها قد استعدّت كأحسن ما يكون الاستعداد للمناسبة فأركبوها في هودج ويسمّى باسم جحفة في بلدان شمال إفريقيا ووضعوها على بغلة وقصدوا بيت الزوجية تصحبهم كوكبة من الشبان والصّبايا لزفّ العروس إلى عريسها فنزل عليهم في الطريق مطر قويّ فلجأوا إلى كهف في الجبل قريب من هناك ريثما يكفّ المطر ودخل الجميع بما فيهم العروس إلى الكهف وتركوا البغلة بالخارج مربوطة في فم المغارة فوجدوه كهفا كبيرا وخلا لهم الجوّ فشرعوا يغنّون ويرقصون ومعهم العروس التي كانت تكره زوجها ثمّ رقد الشبان مع الفتيات وأصابوا بعضهم بعضا وشبعوا عناقا ووصالا.

وكان سيدي حسين في أثناء ذلك على أحر من الجمر ينتظر مجيء العروس والجحفة فاستبطأها فذهب يستطلع الأمر ومرّ قرب الكهف فسمع الغناء والتصفيق واقترب فرأى الجماعة في أجواء أخرى يغنون ويرقصون ويتناكحون فدعا عليهم فمسخت البغلة وتحوّلت إلى حجر سدّ مدخل الكهف وأصبح الجماعة فوجدوا فم المغارة مسدودا فماتوا كلهم فيها بعد أيام, وتضيف القصّة أنّهم يقومون أحياء ثلاثة أيام معلومات في السنة فيجدّدون فيها حفلتهم ويملؤون الكهف غناء ورقصا ووصالا ثمّ يعودون إلى حالتهم الأولى فكان السكان يسمعون غناءهم ورقصهم في هذه الأيام فيقيمون بهذه المناسبة حفلا كبيرا خارج الكهف على غرار الحفل الذي يقيمه المدفونون فيه داخله.

ويتداول السكان في تونس الكثير من الأساطير والمعتقدات الشبيهة منها حكاية حول كهف موجود بجبل السقي بالجنوب التونسي يدعى جبل حديفة مضمونها أنّ حديفة كانت صبيّة حسنة المنظر وهبت نفسها لعبادة الله فعشقها

أحد الرجال فخطبها من أهلها فأعطوها له رغم معارضتها وخرجوا بها في جحفة على جمل لزفها إلى عريسها فلما كانت بالقرب من الجبل المذكور طلبت من الله أن يصون عذريّتها ورمت نفسها صوب الجبل فوقعت في كهف أو كما يقول السكان في تونس حذفت نفسها بمعنى رمت نفسها وجاء الركب الذي كان معها للبحث عنها داخل الكهف فلم يعثروا لها على أثر فسمّيت الفتاة وسمّي الجبل معها باسم حديفة تخليدا للحادثة.

كما يحكي السكان في جزيرة جربة بالجنوب التونسي عن وليّ من الأولياء الصالحين اسمه سيدي السّاطوري قصّة شبيهة تماما بقصّة الوليّ المغربي سيدي حسين ويوجد لسيدي السّاطوري مقام معروف بحومة بني معقل بجربة وصورة الحكاية أنّ سيدي السّاطوري كان يتعبّد بمقامه فمرّ به عرس ماجن رأى ما يفعل فيه منافيا للأخلاق فدعا عليه فتحوّل موكب العرس بمن فيه إلى الكتل الصخريّة التي تحيط إلى اليوم بمقام الوليّ في شكل جلاميد صخريّة ناتئة ومنتظمة خطّا واحدا يشبه موكب الجحفة.

كما يوجد بمدن قرطاج والمرسى وسيدي بوسعيد وقمّرت بالضاحية الشمالية للعاصمة تونس عدد كبير من المقامات المقدّسة ينسبها السكان إلى بعض الأولياء الصالحين والوليات الصالحات وتقع هذه المدن فوق هضاب كانت عبارة عن غابات جبلية تطلّ على البحر. ففي هذا المجال توجد بمقبرة المرسى فوق هضبة مطلّة على البحر مقامات لعدد من الأولياء الصالحين والوليات الصالحات منها مقام ينسب إلى ولية صالحة اسمها للّة المراكشية يحكى عنها أنّها من المغرب الأقصى وتنتمي إلى جماعة رجال الخطوة الذين لهم القدرة على اختراق الآفاق فكانت تأتي في الليل من المغرب إلى تونس لتحضر حفلات الذكر والإنشاد بمقام أبو الحسن الشاذلي بالقرب من مقبرة الجلاز بالعاصمة

تونس وتعود إلى المغرب في الصباح ويوجد لهذه الولية مقام أيضا بمدينة منزل بوزلفة بالوطن القبلي بالشمال الشرقي للبلاد التونسية كما يوجد بمقبرة المرسى كذلك مقام مقدّس ينسب إلى وليّة صالحة اسمها للّة الميمورة على غرار خلوة مقدّسة توجد بجبل بوخليل بالجزائر العاصمة تنسب إلى وليّة اسمها للّة الميمونة وهذه الخلوة المقدّسة هي عبارة عن كهف كبير ينتهي بنفق يشق الجبل من أوّله إلى آخره ومازال الناس إلى اليوم يعضّمونه ويزورونه ويذبحون فيه الذبائح الموعودة بمناسبة النذور ويقيمون فيه الزردات وهي ولائم مخصّصة للأولياء الصالحين والوليات الصالحات ومفتوحة في أغلب الحالات لكلّ الناس, كما أصبح الكهف خلوة للعبادة يختلي فيه النّساك والزهاد وطلبة العلم والأولياء للتأمل والإنقطاع لعبادة الله.

ويحكى بهذا الشأن أنّ الطلبة والعباد والزّهاد والأولياء الذين يختلون في هذا الكهف يكتسبون القدرة على التصرّف في الأشياء وفي الطبيعة فكان البعض منهم يتحوّل إلى وعول وثيران وأبقار وحشية وتقوم الأبقار الوحشية الإناث بإرضاع الأصحاب الذين بقوا على هيأتهم البشريّة بلبنهم في حين يضحّي الوعول والثيران بأنفسهم لإطعام أصحابهم بلحومهم فتترك تلك الثيران والوعول أصحابهم يذبحونهم عن رضى وطيب خاطر ويأكلونهم ويقول أهالي المنطقة أنّ صيد تلك الوعول والأبقار محرّم على غير أصحابها فجاء مرّة صياد اسمه قرد الواد وأراد أن يصطاد منها وعلا فصوّب بندقيّته نحوه وجذب الزّناد فانفجرت البندقيّة على صدره وخرّ مغشيا عليه ومكث كذلك ثلاثة أيام ثمّ ثاب إلى رشده فاستغفر وتاب.

فنحن نعتبر أنّ تقديس البقاع والأماكن من طرف الإنسان يعود في الأصل إلى احترام ملك الغير والخوف من إثارة غضب أصحابه والتعرّض إلى

بطشهم في حالة الاعتداء على حرمة ذلك الملك بحيث أنّ تقديس البقاع والأماكن هو في الأصل تجسيم وتعبير عن احترام تلك الأماكن والبقاع باعتبارها ملكا خاصا للغير يمنع ويحرّم ويحجّر على غير أصحابه التصرّف فيه مخافة إثارة غضب أصحابه والتعرّض إلى بطشهم وعلى هذا الأساس فإنّ الخوف من إثارة غضب أصحاب البقعة والتعرّض إلى بطشهم هو الذي جعل منها مكانا مقدّسا وبقعة مقدّسة يتعيّن على الآخرين احترامها وتقديرها وعدم الاعتداء عليها.

فلأجل ذلك ارتبط تقديس البقاع والأماكن والمواضع بالاعتراف بحرمتها حتّى أنّ الخائفين كانوا يستجيرون بها وظلّ الناس يمتنعون عن قتل وصيد الحيوانات المقيمة بها.

وقد برز تقديس هذه البقاع والمواضع بمعنى الاعتراف بحرمتها بوصفها ملكا خاصّا للغير منذ العهود الأولى من التاريخ البشري ويعود أصله إلى الغيرة الطبيعية على الملك الخاص بمختلف أنواعه على غرار الغيرة على الجسد والأسرة والحيّ الذي تقيم فيه.

فلمّا ظهرت الأسر الإنسانية على وجه الأرض وتكاثرت في بداية التاريخ البشري انتشرت في مختلف الأصقاع وتملّكت كلّ جماعة بشريّة ببعض الغابات والعيون والجبال والهضاب والكهوف والغيران وحازتها لفائدتها الخاصّة واستقرّت بها وجعلت منها موطنا ومورد رزق وأكل وشرب فأصبح كلّ مكان وكلّ موضع مسكون ومملوك من طرف جماعة من الجماعات البشريّة مقدّسا ومحرّما على الغير بحكم أنّه أصبح ملكا خاصا لأصحابه الذين حازوه وسبقوا الآخرين في استيطانه وتبعا لذلك أصبح من الممنوع على الآخرين دخوله دون إذن أصحابه أو استغلال محتوياته لأنّ من يفعل ذلك يثير غضب أصحاب

المكان ويتعرّض إلى بطشهم ومن هذا المنطلق اقترن تقديس الأماكن والبقاع بالخوف من إلحاق الضرر بها, ثمّ إنّ هذه الحرمة التي اكتسبتها البقاع والأماكن والمواضع المسكونة بعد حوزها من طرف بعض الأسر والجماعات البشرية قبل غيرها أو رغما عن أنف الآخرين تعزّزت مع مرّ الأيام بفعل استعمال تلك الأماكن والبقاع لدفن من يموت من أفراد تلك الأسر والجماعات البشرية ومن بينهم كبارهم وفي مقدّمتهم الأباء والأجداد الذين قادوا مسيرة تلك الأسر والجماعات البشرية فأصبحوا معظّمين ومبجّلين أثناء حياتهم وظلّوا يحظون بالتعظيم والتبجيل بعد مماتهم من خلال قبورهم التي ترمز إليهم والعصيّ والأحجار التي كانوا يستعملونها والملابس التي كنوا يلبسونها وغيرها من الأشياء الأخرى الشبيهة, فازدادت قداسة تلك الأماكن والبقاع لأنّها أصبحت تحوي قبور وأضرحة الأباء والأجداد والأسلاف والأهل والآل إلى جانب المعالم الخاصة التي تركوها وارتبط ذكرهم بها مثل الساحات التي كانوا يرأسون فيها اجتماعات العشيرة وتقام فيها الولائم والحفلات العامة في بعض المناسبات فأصبحت تلك القبور وتلك المعالم والمواقع مزارات ومقامات مقدّسة يجتمع حولها أفراد القبيلة والأسرة في بعض المواسم لإحياء ما كان الآباء يفعلون وتجديد العهود الخوالي.

ولا ريب أنّ التوسّع دفع الكثير من هذه الأسر والجماعات إلى الانتقال بسكناها إلى أماكن أخرى قريبة أو بعيدة من المواطن الأولى التي كانت تقطنها ومع ذلك ظلّت هذه البقاع والأماكن الأولى تحظى بالتقدير والتعظيم لأنّها تحوي قبور الأباء والأجداد والأسلاف الأولين التي تحولت إلى مزارات ومقامات للتجمّع وإقامة الولائم والحفلات في بعض المناسبات إسوة بالأسلاف, وبهذه الصفة بقيت محتفظة بطابعها المقدّس إلى هذا اليوم, لكنّ الناس نسوْا أحيانا علّة

وأصل هذا التقديس والتعظيم وكثيرا ما يحيلونه ويرجعونه إلى مضامين حديثة تناسب العصر الذي هم فيه كما حصل للعديد من المواقع بتونس والأقطار المغاربية الأخرى من خلال تخصيصها لبعض الأولياء الصالحين والوليات الصالحات, في حين أنّ تعظيمها يعود إلى عهود قديمة جدّا.

وكانت الأسر البشرية تقيم غالبا قرب عيون الماء وفي أماكن بها بعض عيون الماء فتمتلك الأسرة المكان وعين الماء الموجودة به وتحتكرها لمصلحتها الخاصة وتمنع استغلال تلك العين على الآخرين وعابري السبيل والغرباء عموما أو إنّ أفرادها يرفضون إرشاد الآخرين إلى مكان تلك العيون ما لم يدفع لهم القادمون الجدد ضريبة مقابل خدمتهم كبعض الطعام واللحوم أو شاة بعينها وما شابه ذلك حيث كان المقابل في بداية الأمر أشياء بسيطة فكان الغرباء وعابرو السبيل والأجانب عموما يضطرون إلى دفع ذلك المقابل للوصول إلى تلك العين.

وكانت بعض الأسر والجماعات تجد نفسها مرغمة لعدّة ظروف على النزوح والهجرة من موطن سكناها الأوّل إلى موضع آخر بعيد والنزول قرب قوم استوطنوا المكان قبلهم فيحصل بين الجماعتين اصطدام يؤدي أحيانا إلى استعباد أحد الطرفين للطرف الآخر وما ينجرّ عن هذا الاستعباد من ضرائب تصل في بعض الحالات إلى تسليم الجماعة المهاجرة عددا من أفرادها إلى أصحاب العين أو رئيسهم لخدمته وخدمة أهله ويتألف هؤلاء الأفراد غالبا من شبان وفتيات وتصل الخدمة أحيانا إلى التضحية ببعض هؤلاء الشبان إرضاء لعادة موروثة واستعمال الفتيات لإشباع الرغبات الجنسية وغير ذلك من أشكال الاستغلال.

وانسجاما مع شروحنا المتقدمة وجدنا أنّ المفردات والألفاظ التي تطلق على المقدّس والمحرّم في اللغات الإنسانية تستعمل كذلك في معنى الحدّ الفاصل بين الأشياء وفي معنى الشواهد التي تقام لإبراز ذلك الحدّ ومن بينها بالخصوص الشواهد الحجرية والصخرية.

ففي هذا السياق تطلق كلمة "حجر" في سياق اللغة العربية على الحجر الذي يستعمله الإنسان لإقامة الحدود والبناء إلى جانب الكثير من الاستعمالات الأخرى. كما أنّ كلمة "حجر" تستعمل في العربية في معنى الشيء الممنوع والمحرّم وفي معنى المنع والتحريم ثمّ إنّ كلمة "صخر" التي تعادل كلمة "حجر" في العربية في المعنى المألوف تستعمل في العديد من اللغات الأوروبية في معنى المقدس والشيء المقدّس كما هي الحال في اللغة الفرنسية في صيغة "صكري".

وسبق أن شرحنا في تحاليلنا المتقدمة الأصل والمعنى الحقيقي لكلمة "قدس" و"مقدّس" فذكرنا أنّ كلمة "قدس" و"مقدّس" تفيد في الأصل معنى المرأة والزوجة والأسرة والعائلة بوصفها مجموعة من البشر المدجّنين والأهليّين الذين تعرّضوا إلى التدجين والترويض والتفريد من طرف أحد الرجال فأصبحوا تابعين له وملكا خاصا له وصار ذلك الرجل بدوره رئيسهم ومالكهم وذكرنا أنّ لفظة "قدس" هي في حقيقة الحال صيغة لفظية لكلمة"قد" و"قط" التي تفيد معنى المرأة والزوجة والأسرة والأهل والأولاد والبشر المدجنين. كما تفيد معنى السيد والربّ والرئيس القائم على شؤون تلك الأسرة والمتكلّف برعايتها وحمايتها وعلى هذا الأساس اكتسبت الأسرة حرمة خاصة وأصبحت محلّ احترام وتقدير من طرف الآخرين لأنّها ملك خاص لأحد الرجال أو أحد الأشخاص عموما يبطش بكلّ من يحاول الاعتداء على أسرته ثمّ اكتسب المكان والموضع الذي

تقيم فيه الأسرة بدوره حرمة خاصة باعتباره محيط حياتها ومجال نشاطها وكانت تلك الحرمة تتجسّم في بداية الأمر في خوف الآخرين من الاقتراب منها إلى مسافة معلومة كالخوف من الاقتراب من كلب مفترس إلى مسافة معلومة باعتبار أنّ صاحب الأسرة وأفرادها يتصدّون إلى كلّ من يحاول تجاوز تلك المسافة على غرار ردّ فعل الكلب المذكور في حال تجاوز المسافة المعلومة والكثير من الحيوانات الأخرى في المواقف المماثلة فكانت الأسرة تتمتّع في بداية الأمر بحدود طبيعيّة رغم أنّها لم تكن قائمة ومجسّمة في أشياء ماديّة وإنّما كانت مجسّمة في الخوف من الاقتراب منها كثيرا وفي تصدّي رئيسها وأفرادها للأجانب والغرباء والانتهازيّين الذين يقتربون منها كثيرا ثمّ إنّ الأسر والجماعات البشرية تعلّموا وضع بعض الأشياء الماديّة للإشارة إلى ما يعتبرونه حدودا لأحيائهم ومجالات نشاطهم الخاصة بهم كالشواهد الحجرية والزرب والطوابي الرّملية والشارات والأعلام بمختلف أنواعها.

ففي هذا السياق لاحظنا أنّ الناس في تونس والجزائر بصفة خاصة مازالوا إلى عهد قريب يعظّمون أشجار الخفاف أو الفرنان كما يسمّى في تونس فكان النساء يعلّقن أشرطة القماش وخيوط الصوف الملوّنة على هذه الأشجار تعبيرا عن تعظيمها على أساس أنّها ترمز إلى بعض الأولياء الصالحين والوليات الصالحات.

وفي حقيقة الحال فإنّ تعظيم هذه الأشجار يعود إلى العهود القديمة باعتبارها كانت ملكا خاصا لبعض الأقوام والجماعات بحيث أنّ تعليق أشرطة القماش وخيوط الصوف على هذه الأشجار هو امتداد وتقليد لعمليات تعليق سيور الجلود وما شابهها على الأشجار في القديم كرمز وإشارة لإعلام الآخرين بأنّ تلك الغابات هي ملك من الأملاك الخاصة يتعيّن على الآخرين احترامه

والامتناع عن استغلاله ومازال الناس إلى هذا اليوم يستعملون الأعلام والرايات المصنوعة من الأقمشة من مختلف الألوان كرموز وشارات على الأوطان بكلّ ما توحي به كلمة الوطن من معاني الأرض المحدودة التي هي على ملك بعض الجماعات ولها حرمتها ويمنع دخولها دون إذن أصحابها.

وسبق أن أشرنا في تحاليلنا المتقدمة أنّ لفظة "بركة" التي تستعمل في العربية في معنى المقدّس تفيد كذلك معنى الحدّ الفاصل بين الأشياء ومعنى المرأة والأسرة والعائلة التي اكتسبت حرمة بحكم تبعيتها لبعض الرّجال أو بعض الأشخاص على العموم على غرار لفظة "قدس" و"مقدّس" وصيغها الأصلية "قد" و"قط" فقد ذكرنا أنّ السكان في تونس يطلقون لفظة "بركة" على العدد واحد وتعتبر كلمة "واحد" صيغة لفظية لكلمة"حد" حيث أنّ العدد واحد هو بداية الأعداد كالحقل الزراعي الذي يبتدئ بحدّه وينتهي بحدّه.

وأوضحنا في هذا المجال أنّ كلمة"بركة" هي صيغة لفظية لكلمة"بارك" التي تستعمل في معنى الحديقة والبستان المسوّر في بعض اللغات الأوروبية كالفرنسية والأنقليزيّة كما أنّها تستعمل في اللغة البربريّة في صيغة "أفراق" في معنى الزريبة والحوش والطابية التي تقام بمثابة الحدود بين البساتين والحقول كما تستعمل في معنى الدار والحيّ والمنزل والحجرة, وتستعمل كلمة "أفراق" كذلك في البربرية في معنى الأثافي وهي الأحجار الثلاثة التي كان يوضع عليها قديما القدر فوق موقد النار لإعداد الطعام وتسمّى الأثافي في الجنوب التونسي باسم المناصب وهو اسم جمع ومفرده منصبة وذكرنا أنّ النار وموقد النار كان يرمز في الأصل إلى الأسرة ومكان إقامتها حتّى أنّ كلمة "فوايي" التي تعني موقد النار في الفرنسية تستعمل أيضا في معنى الأسرة والدار والمنزل. كما تستعمل كلمة "منصبة" أو"نصب" في العربية في معنى الشاهد الحجري الذي

يوضع بمثابة الحدود وعلى الأضرحة والقبور، و تستعمل كلمة "بركة" في العربية في معنى الإناخة والنزول وتطلق بصفة خاصة على إناخة وجثوم الجمال على الأرض بعد السير بأمر صاحبها للاستراحة والنزول بحيث أنّ البركة اتّخذت معنى الحيّ والنزلة والمنزل ومازالت الكثير من القرى في تونس تحمل اسم النزلة والمنزل إضافة إلى إطلاق لفظة "منزل" على الدار في سياق اللغة العربية ورأينا أنّ الكثير من الأساطير التي روتها الشعوب الإنسانية حول تأسيس بعض المدن تشير إلى أنّ تأسيس وإنشاء هذه المدن تمّ وحصل إثر "بركة" و"إناخة" و"نزول" جمل أو حيوان أهلي شبيه بذلك المكان من تلقاء نفسه.

وكان موقد النار الذي توضع حوله المناصب أو "الأفراق" بالبربرية يمثّل في القديم الحيّ والقرية بأكملها عندما كانت النار جماعية توقد في مكان معيّن وسط الغابة أو قرب الكهوف والغيران التي كانت تمثّل القرية ويجتمع حولها سائر أفراد العشيرة في الليل قبل النوم ثمّ يخلدون إلى الراحة ويبقى بعضهم ساهرا لحراسة الحيّ وتغذية النّار بالحطب حتّى لاتنطفئ فنشأ امتدادا لهذه الأوضاع تعظيم النيران وتخصيص بعض البيوت المقدّسة لها كما نشأ عنها أيضا احترام الرماد وموقد النار.

فالسكان في البلاد التونسية مازالوا إلى هذا اليوم في الكثير من المناطق يحترمون الرماد ويعتبرون موقد النار والرّماد الذي يتخلّف فيه من الأشياء المقدسة ويتجنبون الدّوس والمشي على الرماد المتخلّف في مواقد النار لاعتقادهم بأنّه مسكون ببعض الجان وبأنّ من يدوسه ويمشي عليه يثير غضب هؤلاء الجان ويتعرّض إلى بطشهم بوصفهم عمّار ذلك المكان.

وقد أوضحنا أنّ أقوام الجنّ والجان يرمزون إلى السكان الأوائل لأرض من الأراضي وعمارها الأصليين من البشر بحيث أنّ الخوف من الدوس والمشي على الرماد هو تعبير عن الخوف من الاعتداء على حرمة الحيّ البشريّ الذي يمثله ذلك الرماد.

ولاحظنا في هذا السياق أنّ الشواهد الحجرية التي تقام على الأضرحة والقبور في تونس والأقطار المغربية الأخرى اتّخذت في الكثير من الحالات شكل قباب صغيرة تشبه نوعا من المواقد تسمّى باسم" الطّابونة" في البلاد التونسية وتستعمل لصنع الخبز في المنازل وكانت في الأصل أوعية وأواني حجريّة لحفظ نار الأسرة والقبيلة من الإنطفاء والسرقة. وتبنى هذه القباب الصّغيرة أساسا على مقامات الأولياء الصالحين لأنّهم يعتبرون أشخاصا مقدّسين.

وأشرنا في هذا الإطار أنّ كلمة"حيّ" تعني النار في بعض السياقات الكلامية حيث ذكرنا أنّ السكان في تونس يستعملون كلمة "حيّة" و"أحيّة" في معنى النار خصوصا عند مخاطبة الأطفال الصغار, وكانت كلمة"حيّة" تفيد في الأصل المرأة والزوجة والأسرة كما كانت كلمة "حيّ" تطلق على البعل والزوج وربّ الأسرة ثمّ أطلقت كلمة "حيّ" على المكان الذي تقيم فيه الأسرة.

كما لاحظنا في هذا السياق أنّ بعض الأشجار التي توحي بالحدود أو تستعمل لإقامتها تحظى في البلاد التونسية بشيء من التعظيم مع احترامها والخوف منها على غرار شجرة الزربة التي تشبه شجرة الصبار وشجرة الهندي أو التين الشوكي.

فقد كان السكان في بلدة المعمورة بالوطن القبلي بولاية نابل بشمال البلاد التونسية إلى حدود هذه السنوات الأخيرة يعظّمون صفّا من أشجار الزّربة وكان النساء يعلّقن عليها خيوط الصوف وأشرطة من القماش التي تسمّى بالشراميط في تونس وهنّ يفعلن ذلك تعبيرا عن تعظيم هذه الأشجار كما أنّ النّساء في الكثير من المناطق بالبلاد التونسية كنّ يوصين أطفالهنّ بعدم الاقتراب من شجر الزربة حتّى لا يلحقهم ضرر.

فقد نشأ هذا التعظيم والخوف نتيجة لاستعمال شجر الزربة لإقامة الحدود وكذلك لأنّ اسمها التونسي "زربة" يوحي بالزرب الذي يقام دلالة على الحدود بين الممتلكات مثل الطابية والحائط وأصبح يمثل الحدود وكلّ ملك خاص مسوّر ومحدود يتعيّن احترامه مثلما يتجلّى ذلك في كلمة "زريبة" التي تطلق في العربية على الموضع المزرب الذي توضع وتربط فيه الحيوانات الأهليّة. وكانت المساكن البشرية في بداية التاريخ الإنساني عبارة عن زرائب من هذا القبيل وذكرنا أنّ البشر كانوا قديما يربطون بعضهم مثلما ظلوا يفعلون بالحيوانات الأهلية.

ويستعمل السكان في تونس أيضا شجر الهندي أو التين الشوكي أو التين البربري لإقامة الحدود بين الحقول والمساكن ويحظى شجر الهندي في تونس ذلك بشيء من التقديس وتعني كلمة "هند" في الكلام الإنساني "الحدّ" ومازالت مستعملة في هذا المعنى في اللغة الأنقليزيّة بالخصوص حيث أنّ نهاية الأشياء وحدودها تسمّى باسم "أند" في الأنقليزيّة. وذكرنا أنّ الزريبة تسمّى باسم "أفراق" في البربرية وأنّ كلمة "أفراق" هي صيغة لفظية لكلمة "بارك" و"بركة".

وعلى هذا الأساس فإنّ الغابات والجبال والكهوف والغيران والآبار والعيون حظيت بالتقديس والتعظيم لأنّها كانت بالأساس ملكا خاصا لبعض الأقوام والجماعات البشرية بحيث أنّ تعظيمها وتقديسها هو تعبير عن احترامها بوصفها ملكا خاصا لبعض الناس يتعيّن على الآخرين تجنّب الاعتداء عليها والتصرّف فيها مخافة إثارة غضب أصحابها والتعرّض إلى بطشهم.

ومن هذا المنطلق فإنّ تقديس البقاع والأماكن من طرف الإنسان هو من قبيل التقديس والتعظيم والاحترام الذي تحظى به الأوطان في العصر الحاضر وفي حقيقة الحال فإنّ تقديس الأوطان هو امتداد لتقديس الأماكن والبقاع المسكونة بوصفها ملكا خاصا لبعض الجماعات.

وقد رأينا أنّ العلماء أساءوا فهم المعنى الحقيقي لهذا التعظيم الموجّه للغابات والجبال والكهوف والعيون واعتبروا أنّه يدخل في باب توهّم الإنسان الأوّل بأنّ الطبيعة مسكونة بالأرواح وبقوى غيبية خفية قادرة على إلحاق الشرّ والأذى مضيفين أنّ تقديم النذور والقرابين يرمي إلى ترضية هذه الأرواح والقوى الغيبية الخفية قبل استغلال تلك الغابات والكهوف والعيون.

فقد رأينا أنّ الكثير من الأساطير والخرافات الشعبية تتحدّث عن تملك بعض الأرواح والجنّ والمردة والعفاريت والغيلان لبعض العيون والجبال والكهوف والغيران والأنهار والغابات وتعرّضهم لكلّ من يحاول الاعتداء على هذه الأملاك وأشرنا إلى أنّ الأهالي في تونس والعرب قديما يسمّون هؤلاء الجنّ والأرواح والعفاريت المتملكين لبعض الأماكن والبقاع باسم سكان وعمار ذلك المكان.

فهؤلاء الجنّ والأرواح والعفاريت والغيلان يرمزون إلى الأقوام البشرية الذين كانوا أوّل من سكن في القديم تلك البقاع والأماكن وحازوها لفائدتهم وتملّكوا بها فأصبحت ملكا لهم وكانوا يحملون اسم "أرواح" و"جنّ" و"جان" و"عفاريت" و"غيلان" لأنّهم كانوا يجسّمون أثناء وجودهم فوق الأرض المعاني التي ظلّت هذه الأسماء تجسّمها إلى هذا اليوم.

فإلى جانب الأساطير والحكايات التونسية التي استعرضناها في هذا المجال في بداية الفصل مازال السكان في المغرب الأقصى يروون إلى اليوم الكثير من الأساطير الشبيهة منها أسطورة حول عين ماء بالقرب من كهف يسمّى بالبربرية "إيمى ن إفري" بمعنى فم الغار بجهة دمات مضمونها أنّ العين المذكورة على ملك ثعبان أو تنين رهيب له سبعة رؤوس فكان يمنع الناس من ورودها ولا يسمح لهم بأخذ الماء منها إلاّ بمقابل يدفعونه له ويتمثّل في بنت بكر تسلّم له ليستعملها لمتعته الخاصة فكان الأهالي مجبورين على إهدائه بالتناوب في وقت معلوم بنتا بكرا من بناتهم ليسمح لهم بالتزوّد من ماء العين فلمّا جاءت نوبة السلطان وكانت له بنت حسناء يحبها كثيرا استنجد ببطل اسمه مالك السّيف ورجاه أن يقتل العفريت ويريح الناس من شرّه, فتسلّح مالك السّيف ودخل الكهف في غياب العفريت فوجد به سبع صبايا محبوسات استعبدهنّ الوحش ويستعملهنّ لخلواته الخاصة فقالت له إحداهنّ إنّ قتله لا يصلح إلاّ بسيفه هو الخاص وأعطته سيف الوحش فأخذه مالك السّيف وكمن في بعض زوايا الكهف ولما أقبل الغول ودخل الغار كعادته هجم عليه مالك السيف وطعنه بسيفه فخرّ ميتا وخلّص الناس من أذائه ولمّا سقط الوحش ميّتا على الأرض خرجت من جسمه آلاف العلق وتحوّلت إلى طيور طارت في الجوّ.

ومازالت النساء في تونس إلى هذا اليوم يرمين جمرات من النار والبخور في الآبار والجوابي إرضاء لأصحابها من الأرواح والجنّ وتسمّى جابية الماء بالبربرية باسم"تجنّيت" وهو صيغة مؤنثة لكلمة "جنّي" أو تصغير"جنيّ".

وأشرنا إلى أنّ النار والبخور والدّخان كانت وسيلة تستعمل قديما للتخاطب وتبادل الأخبار عن بعد كما أنّ النار كانت ومازالت إلى اليوم وسيلة من الوسائل الهامة التي تستعمل في المعارك والقتال لدحر الأعداء وتشتيت شملهم بحيث أنّ رمي جمارات النار هو تقليد للاستعمالات القديمة للنار لهذه الأغراض.

وكان العرب قديما يذبحون بعض الذبائح الخاصة بالجن فكانوا إذا اشترى رجل منهم دارا أو استخرج ماء عين أو بنى بنيانا ذبح لذلك ذبيحة مخافة أن تصيبه الجنّ وتسمّى هذه الذبيحة باسم الطيرة ومازالت هذه العادة سارية إلى اليوم في البلاد التونسية وتدخل في جملة من العادات الشبيهة ظلّ الناس يمارسونها امتدادا وتقليدا لبعض الأفعال القديمة التي كانت تتمثّل في قيام الجماعات البشرية بتخصيص قسط من طعامها وشرابها وما تصطاده وتجنيه من ثمار لفائدة جماعة أخرى بوصفهم جيرانهم أو حلفائهم أو لأنّهم أسيادهم أو أيضا في إطار تبادل المنافع وفي بعض الأحيان لدرء ومداراة العيون في معنى العيون التي يبصر بها.

فالناس في تونس والأقطار المغاربية وفي الكثير من البلدان الأخرى يعتقدون في قدرة بعض الناس على إلحاق الضرر بواسطة عيونهم وبمجرّد

النّظر بها إلى الآخرين. فكان الناس في الكثير من البلدان يعتقدون أنّ الكثير من الأضرار والأمراض مردّها وسببها العين.

فقد سبق أن شرحنا المعنى الحقيقي لمفهوم العين والاعتقاد في العين حيث ذكرنا أنّ كلمة "عين" هي صيغة لفظية للصوت"أع" الذي يطلقه الإنسان بصورة غريزية عند الشعور بالمرارة مع السّعي إلى إبعاد مصدر وسبب تلك المرارة. فاستعمل الصوت "أع" تبعا ذلك للزجر والنهر والتخويف والطرد والإبعاد. فمازال الناس في تونس يستعملون الصوت "زَعْ" لزجر الجمال. كما أطلق الصوت "أع" على الأشياء الداعية إلى الزجر والمرتبطة بالعملية المذكورة بصفة عامة. فكلمة "عين" تعادل كلمة "بس" و"بص" و"كس" بحيث أنّ أصل الاعتقاد في العين هو النّظر الحقيقي بالعيون الملموسة.

ففي هذا السياق أشرنا إلى أنّ الأقوام البشرية كثيرا ما كانوا في القديم يعتصمون في كهوفهم وغيرانهم وجبالهم وفي الغابات التي يقطنون مختفين عن أنظار الغير بحيث كان البعض من الناس ينزلون أحيانا على حسن نيّة في أحد الأماكن المسكونة وهم يجهلون أنّها مسكونة فلا يشعرون إلاّ وعشرات العيون تحدّق فيهم وسط الأشجار المحيطة أو خلف الصخور المجاورة فيعلمون أنّهم سكان المكان فيرمون لهم شيئا مما عندهم من الطعام والشراب إتقاء شرهم وترضية لهم ومازال الناس في تونس إلى اليوم يقولون مثلا مضمونه "إملأ البطن تستحي العين" وبهذه الصفة فإنّ أولئك الناس الغرباء يدفعون ضرر عين عمّار المكان بمعنى إثارة غضبهم والتعرّض إلى بطشهم المتمثل في إطلاق الصياح والأصوات المجعولة للزجر والتخويف والطرد على غرار الصوت "أس" و"بس" و"بص" و"أع" و"عن" أو"عين" و"زع" وغيرها من الأصوات الزجرية الأخرى.

وغالبا ما كان سكان هذه الغيران والكهوف والجبال والغابات حفاة عراة يكسو الشعر رؤوسهم وأبدانهم ويعيشون عيشة قريبة من الطبيعة والتوحش مع معرفتهم بالكثير من أسرار الطبيعة وطرق الصيد ومسالك الغابات وأماكن نقاط المياه والحماية من المخاطر المفاجئة ونعتبر أنّ أقوام الغيلان الذين تتحدّث عنهم الأساطير والخرافات الشعبية يرمزون إلى هؤلاء الأقوام البشرية الذين ظلوا قريبين من الطبيعة وحالة التوحّش مع امتلاك قدرات فائقة على مقاومة الأخطار ومعرفة دقيقة بأسرار الطبيعة وثروات الأماكن التي يسكنونها.

وعلى هذا الأساس كان القادمون الجدد أو المستعمرون الجدد الذين تدفعهم الرغبة إلى النزول بجوار أولئك الأقوام يسعون إلى تدجينهم وتقريدهم وترويضهم بالطعام واللحوم وغيرها من المرافق والمنافع للاستعانة بهم في مآربهم.

فقد رأينا أنّ الكثير من الأساطير والخرافات الشعبية التونسية تصف سفر أحد الأمراء الشبان إلى بلاد الأهوال والأغوال لجلب جنية ساحرة أو طائر عجيب أو تفاح يعيد الشباب وبعد مكابدة الشدائد يصل ذلك الأمير إلى بلاد الأهوال والأغوال فيلقى في طريقه غولا هائل المنظر قد كسا الشعر سائر بدنه وطالت أظافره وخرجت أسنانه حادة كالسكين فيسلّم عليه الشاب ويطعمه ويسقيه ويقلّم أظافره ويغسله وينظفه ويكسوه رداء فيستأنس الغول به ويألفه ويساعده على قضاء حاجته.

فهذه الأساطير والخرافات الشعبية هي أخبار تاريخية تنقل بعض الوقائع والأحداث الحقيقية التي حصلت في قديم الزمان لبعض الجماعات من البشر فوق بعض بقاع الأرض بحيث أنّ عمليات ترويض الغول ترمز إلى الأعمال التي

كان يقوم بها بعض الأشخاص والجماعات من البشر لاستمالة الأقوام البشرية المتوحشة التي يرمز إليها الغول والاستعانة بهم واستعمالهم لقضاء بعض الشؤون وانجاز بعض المهمات مثلما تروّض الحيوانات الحقيقية, وغالبا ما تفضي هذه الأعمال إلى استعباد هؤلاء الأقوام المتوحشين وتحويلهم إلى أعوان وخول وأقيال حيث أنّ كلمة "خول" و"قيل" هي صيغة لفظية لكلمة "غول" ثمّ إنّ العون أصبح بدوره ممثّلا لسيده واكتسب شيئا من السيادة بفضله فلأجل ذلك كانت كلمة "قيل" تطلق قديما على بعض الحكام في بلاد اليمن بالجزيرة العربية بصفة خاصة مع أنّ الأسماء التي تطلق على التابعين والعبيد تستعمل أيضا في معنى الأسياد والملوك والحكام نظرا للرباط المادي الذي كان يربط قديما بين السيد وتابعه والمتمثل في الحبال والقيود المادية التي كان السيد يربط بها تابعه ويمسك بطرفها. فكان السيد والتابع والرباط شيئا واحدا فأطلق على الثلاثة أحيانا اسم واحد مثل كلمة "ري" التي تطلق على السيد والملك وكذلك على الحبل وعلى العبد والتابع حيث يسمّى السيد والملك باسم "ري" في الإيطالية والإسبانية ويستعمل السكان في تونس كلمة "ري" في معنى الحبل في حين يطلق على العبودية والتبعية اسم"رق" في العربية ويتخذ صيغة "ري" بإسقاط الصوت "قا" كما يفعل المصريون في لهجتهم الدارجة ثمّ إنّ لفظة "رق" تطلق أيضا في العربية على الجلد وسيور الجلد التي تستعمل للربط والقيد.

وفي هذا السياق نشير إلى أنّ الكثير من البقاع والأماكن التي تحظى بالتعظيم والتقديس من طرف الناس اكتسبت طابعها المقدّس منذ العصور القديمة في المعنى الذي شرحناه آنفا غير أنّ رمز التقديس إتّخذ في أغلب الحالات أشكالا ومضامين تناسب العصر ومماثلة في الجوهر للمضامين الأصلية.

فقد لاحظنا أنّ تعظيم البقاع والأماكن في تونس اقترن في هذه العهود الأخيرة بتعظيم الأولياء الصالحين والوليات الصالحات بحيث أنّ الناس أصبحوا اليوم يعظمون الأماكن والبقاع التي كانت مقدسة ومعظمة منذ القديم من خلال نسبتها إلى أحد الأولياء الصالحين أو إحدى الوليات الصالحات وأحيانا من خلال إضفاء صفة الولي الصالح عليها, وعلى هذا الأساس فإنّ الكثير من الجبال والكهوف والعيون والغابات التي كانت تحظى بالتعظيم والتقديس منذ القديم في المعنى الذي شرحناه أصبحت تحاط بالتبجيل والتعظيم والاحترام نسبة إلى بعض الأولياء الصالحين والوليات الصالحات بصفتها مسكونة من طرف هؤلاء الأولياء الصالحين والوليات الصالحات.

ففي هذا المجال أشرنا إلى تعظيم الأهالي بمدينة الهوارية بولاية نابل بشمال البلاد التونسية لغابة سيدي عامر وذكرنا أنّ الناس يعظمون هذه الغابة نسبة إلى ولي من الأولياء الصالحين اسمه سيدي عامر باعتبارها مقامه وسكناه وفي حقيقة الحال فإنّ سيدي عامر والكثير من الأولياء الصالحين والوليات الصالحات مثله هم مجرد رموز حديثة للقداسة التي كانت تحظى بها في القديم الأماكن والبقاع المذكورة حيث أنّ الكثير من هؤلاء الأولياء والوليات إندثروا اليوم مع المقامات التي كانت مخصصة لهم نتيجة للتوسع العمراني وأصبحوا في أحسن الحالات مجرّد أسماء بلا مسميات.

فقد تعرّض المقام المنسوب لسيدي عامر بالهوارية في السنوات الأخيرة للنبش والتنقيب من طرف بعض الباحثين عن الكنوز الدّفينة في قول الأهالي وأصبح بين عشية وضحاها حفرة فارغة لا شيء فيها.

كما أنّ الأهالي في مدينة الهوارية كانوا يعظمون غابة جبلية مماثلة لغابة سيدي عامر من خلال نسبتها إلى ولية صالحة اسمها للة الخورية وكان لهذه الولية مقام خاص بها بهذا الجبل كان الناس يزورونه ويتبركون به ويذبحون له الذبائح ويهدون له الهدايا, وتعرّض مقام للّة الخورية أيضا للنبش من طرف المنقبين عن الكنوز الدفينة في قول الأهالي وأصبح خاويا لاشيء فيه وزال ذكر الولية بزواله كما أشرنا إلى أنّ الأهالي في مدينة المعمورة بولاية نابل يعظّمون صفّا من أشجار الزربة حيث كان هذا الصف يعتبر وليا من الأولياء الصالحين اسمه سيدي سالم وزالت هذه الأشجار اليوم كما زال ذكر سيدي سالم مع زوالها.

وكان يوجد بقصبة مدينة الكاف بالشمال الغربي للبلاد التونسية قبّة على ضريح منسوب إلى أحد الأولياء الصالحين اسمه سيدي الشريف يؤمّه أسراب من الحمام يعتبر هو الآخر مقدّسا وكان الناس يزورون هذا الضريح بانتظام وينذرون له النذور ويوقدون فيه الشموع وقد زال هذا الضريح اليوم بعد أن تعرّض إلى النبش والتنقيب ولم يعثر داخله على شيء يذكر, وكان يقوم مقام هذا الضريح في العهود القديمة معبد للربة البونيقية تانيت وذكر بعض الإخباريين القدماء أنّ النساء كنّ يتعاطين فيه زواج المتعة ونعتبر أنّ تعظيم المكان يعود إلى فجر التاريخ الإنساني عندما جعلت منه بعض الأسر الإنسانية في العهود الساحقة موطنا لها وحازته وأصبح ملكها الخاصّ.

فقد كانت مدينة الكاف تسمّى المدينة المقدسة ويطلق عليها باللاتينية في هذا المعنى اسم "أسكا فينيريا" وهو اسم يتركب من كلمة بربرية وكلمة لاتينية. فأما الكلمة البربرية فهي "أسكا" و"أزكّا" وتعني المدينة والحجرة والغرفة والمعبد والهيكل وتنطق "أسكا" و"أزكا" وأما الكلمة اللاتينية فهي" فينيريا" وتعني المقدسة

أو المخصصة للربّة فينوس وهي ربّة عبدها الرومان، سكان روما القديمة، في عهدهم وتعادل الربّة أفروديت عند اليونانيين القدماء والربّة تانيت عند القرطاجيين، سكان قرطاج في القديم, بشمال البلاد التونسية بالقرب من العاصمة تونس.

كما أنّ كلمة "أزكا" تستعمل في البربرية في معنى الماضي في صيغة "زيك" وتعادل من هذه الناحية كلمة "قبل" في العربية وتستعمل كلمة "قبل" في العربية في معنى الماضي وما حصل فيه وتعادل كلمة "قديما" في العربية أيضا.

وعلى هذا الأساس فنحن نعتبر أنّ كلمة "أزكّا" كانت تطلق في الأصل على الأسلاف والآباء والأجداد والأهل والآل الذين عاشوا من قبل في الماضي السحيق وفي القديم وأشرنا إلى أنّ الآلهة الذين عبدتهم الشعوب الإنسانية يرمزون إلى الآباء والأجداد والأسلاف بحيث أنّ مدينة الكاف كانت تعتبر مقدسة لأنّها كانت من قبل مسكن الآباء والأجداد والأسلاف وتحوي رفاتهم ورممهم وهياكلهم وقبورهم.

وفي هذا السياق نشير إلى أنّ الكعبة المقدسة في مدينة مكّة بالجزيرة العربية تسمّى أيضا باسم القبلة, وهي عبارة عن بيت عتيق له حرمة أو حرم تغطّي البيت وما حوله من الأرض وقد اكتسب هذا الموضع قدسيّته وحرمته لأنّه كان هو الآخر في الأصل ملكا خاصا لمن سكن فيه لأوّل مرّة فاكتسب نتيجة لذلك حرمة على غرار الحرمة التي يكتسبها كل مكان وكل بقعة يصبح ملكا خاصا لبعض الناس, وقد ذكر المؤرخ المغاربي عبد الرحمان بن خلدون, من علماء القرن الرابع عشر الميلادي, أنّ هذه الكعبة كانت في الأصل زريبة للحيوانات الأهلية على ملك إسماعيل بن إبراهيم, جدّ عرب الشمال أو العرب

المستعربة مقارنة بالعرب العاربة, سكان اليمن وجنوب الجزيرة العربية, وتقول الأخبار الموروثة بهذا الشأن إنّ إسماعيل بن إبراهيم كان أوّل من سكن تلك البقعة أو ذلك المكان هو وأمّه التي كانت تسمّى هاجر وكانت جارية لأحد ملوك مصر المعروفين بالفراعنة فأهداها إلى إبراهيم أب إسماعيل فاتّصل بها وحملت منه غير أنّ الزّوجة الأصليّة لإبراهيم غارت منها لمّا وضعت ابنها إسماعيل فاضطرّ إبراهيم إلى تشريدها مع رضيعها وإلقائها في المكان الذي تقوم عليه الآن مدينة مكة في موضع الكعبة بالذات وكان به بئر فأقامت فيه هاجر مع ابنها ثمّ نزل معها في ذلك المكان أقوام آخرون أجبرتهم الظروف على الهجرة فأصبحوا جيرانها وكبر ابنها إسماعيل وأسّس أسرة فكانت الكعبة في الأصل بيته وزريبة على ملكه يربط فيها حيواناته.

وعلى غرار تعظيم أهالي الهوارية بتونس لأحد الجبال بمنطقتهم من خلال نسبته إلى وليّة اسمها للة الخورية كان الأهالي بمنطقة القبائل البحرية بالجزائر يعظّمون بدورهم سلسلة الجبال القائمة بمنطقتهم باعتبارها ولية صالحة يدعونها للة القورية ويقسّم أهالي القبائل هذه السلسلة الجبلية إلى سبعة جبال يقولون عن كبيرها إنّه يمثل للة القورية وأنّ الجبال الستة الأخرى هي بناتها ويحكون في ذلك أسطورة مضمونها أنّ ولية اسمها للة السّجادة تزوّجت من ولي آخر اسمه سيدي مبارك وولدت له ستّ بنات فسكنت كلّ واحدة في جبل واستقلت به بينما احتفظت للة السّجادة وزوجها بأعظمها.

ويروي عرب سهل المتيجة بجوار منطقة القبائل بالجزائر عن أصل سلسلة جبال القبائل وأصل سكانها من القبائل أسطورة أخرى مختلفة عن الأسطورة التي يحكيها الأهالي عن للة القورية وتقول هذه الأسطورة أنّ أحد الملوك الجبابرة قدم من الشرق فارا إثر هزيمة مني بها في بعض الحروب

وأثناء انسحابه حمل على ظهره قطعة الأرض التي كان يسكن فيها فلمّا وصل حيث تقوم حاليا جبال منطقة القبائل سقط ميتا من التعب قرب البحر فتكوّنت من الأرض التي كان يحملها جبال القبائل وخرجت من جسده أسراب من العلق هم أصل جماعات القبائل.

فانسجاما مع ما ذكرناه ومثلما أشارت إليه بوضوح أسطورة للة السّجادة وبناتها نعتبر أنّ تعظيم الجبال المذكورة يرجع في حقيقة الحال إلى العهود القديمة كتعبير عن احترام الناس لها بوصفها ملكا خاصا لبعض الجماعات البشرية سبقوا الآخرين إلى استيطانها واستغلالها وتملّكوا بها قبل غيرهم فاكتسبت حرمة الموقع المملوك والمسكون الذي يتعيّن على الآخرين احترامه وعدم المساس به واجتناب الاعتداء على حرمته.

وقد ظلّ النّاس إلى اليوم يروون ويقصون الكثير من الأساطير والحكايات التي تشير إلى أنّ الأسماء التي تحملها مختلف المواقع والأماكن المعروفة هي أسماء أشخاص عاشوا في قديم الزمان وكانوا يسكنون تلك المواقع والأماكن.

ففي هذا السياق يروي السكان بجهة الكاف بالبلاد التونسية حول جبل بالمنطقة اسمه جبل بولحناش وجبل آخر بجواره اسمه جبل قلعة السنان أسطورة في هذا المعنى مضمونها أنّ بولحناش وسنان الذين أطلقا اسميهما على هذين الجبلين هما شخصان عاشا في قديم الزمان وكانا يسكنان هذين الجبلين. فقد كان أحدهما رجلا يسمّى بولحناش والآخر امرأة تسمّى سنا وكانا جارين فأحبّ بولحناش جارته سنا ورغب في الاقتران بها فخطبها لنفسه ليتزوج بها فقبلت واشترطت عليه أن يقوم الاثنان بتحصين جبليهما على أساس أن يتولّى كلّ واحد

منهما بمفرده تحصين جبله فمتى انتهى بولحناش الأول من تحصين جبله تزوجته غير أنّ بولحناش كان يعمل في النهار وينام في الليل بينما كانت سنا تعمل في الليل والنهار فسبقته إلى تحصين جبلها فلذلك يظهر جبل قلعة السنان بمثابة القلعة الحصينة التي يصعب أخذها من كلّ جهاتها في حين أنّ جبل بولحناش يمكن أخذه من بعض الجهات.

ويوجد قرب جبل قلعة السنان جبل آخر اسمه ربيبة القلعة ويطلق اسم "ربيبة" في المجتمعات العربية على بنت الزوجة من رجل آخر أو بنت الزوج من امرأة أخرى وهو مؤنث اسم "ربيب" الذي يطلق في المجتمعات العربية على ابن الزوجة من رجل آخر أو ابن الزوج من امرأة أخرى.

كما يحكى بخصوص سهل المتيجة بالجزائر أنّ اسمه مأخوذ من اسم صاحبته في قديم الزمان, فقد جاء في الأساطير التي يرويها السكان في الجزائر أنّ المتيجة ومعناها " الضاوية" بالبربرية كانت امرأة من الجان وكانت ملكة على قومها وكان لها قصر فخم فكانت كلّ يوم تستضيف ضيفا من المارّة وتنام معه ثمّ تطرده, فإذا لم تجد أحدا أمرت خدمها بإضاءة قصرها حتّى يراه المسافرون من بعيد فيقصدونه فتختار منهم من يعجبها وتقضي منه وطرها وتطرده كغيره,وكان هذا دأبها إلى أن كبرت وشاخت ومات جميع من كان معها ودخل قصرها الخراب فاندثر وزال وما بقي منه سوى بئر.

وكانت قبيلة طيء العربية تحكي بخصوص جبليْ أجأ وسلمى الذين كانت تسكن فيهما في الجزيرة العربية أسطورة شبيهة تماما بالأسطورة التونسية المتعلقة بجبل بولحناش وقلعة سنان, فقد نقل المؤرخ العربي ياقوت الحموي من علماء القرن 13 ميلادي في كتابه المعروف باسم "معجم البلدان" أنّ طيء الجدّ

الأول لقبيلة طيء المذكورة خرج من اليمن بجنوب الجزيرة العربية اثر انهيار سدّ مأرب ونزول سيل العرم بسبأ فسار بابنه وولده حتّى نزل بجهة جبلي أجأ وسلمى بشمال الجزيرة العربية فوجد فيها شيخا عظيما جسيما مديد القامة على خلق العاديّين يدعى أجأ ومعه امرأة على خلقه تدعى سلمى وقد اقتسم الجبلين، لذلك فإنّ اسم الجبل مأخوذ من اسم هذا الشخص المسمّى أجأ وهو رجل من العماليق يقال له أجأ بن عبد الحيّ وقد عشق امرأة من قومه يقال لها سلمى فسألهما طيء عن أمرهما فقالا له : "نحن من بقايا صحار غنينا بهذا الجبل عصرا بعد عصر أفنانا كرّ الليل والنهار" فقال لهما طيء : "هل لي في مشاركتي إياكما هذا المكان فأكون لكما مؤنسا" فقال الشيخ : "فأقم فإنّ المكان واسع".

وكان لقبيلة طيء صنم يعبدونه يقال له القلس وسط جبلهم الذي يقال له أجأ وكان أسود كأنّه تمثال إنسان وكانوا يعبدونه ويهدون إليه ويعقرون عنده.

ونشير كذلك في هذا السياق إلى الأساطير اليونانية القديمة التي تذكر أنّ جبال الأطلس بمنطقة شمال إفريقيا سمّيت باسم أطلس نقلا عن اسم ملك كان يحكم قديما في هذه المنطقة وفي بلاد موريتانيا بالذّات وقد مرّ بنا ذكره بمناسبة الحديث عن الخرافات والأساطير المتعلقة بالتفاح العجيب الذي يعيد الروح والشباب لمن يأكل منه.

فحسبما أوردته هذه الأساطير كان أطلس ملكا عظيما وكانت له سبع بنات يسمّون الصابريات أو الغربيات نسبة إلى جهة الغرب وكانت له قطعان كبيرة من الأغنام وبساتين تثمر أشجارها الذهب وكان يحرسها مارد عظيم هائل المنظر مع بناته الصابريات غير أنّ كاهنة تنبأت للملك أطلس بأنّ رجلا غريبا

سيسرق بساتينه ويقضي عليه ويكون سببا في زواله وزوال ملكه، فكان أطلس يمنع الغرباء والأجانب من المرور من أراضيه حتى جاء بطل يوناني اسمه برسيوس، فطلب من أطلس القرى فنهره وأطرده ولم يكرمه وكانت مع برسيوس راس ساحرة اسمها قرقنة تحوّل كلّ من يراها إلى حجر، فلمّا رفض أطلس إكرامه أخرج برسيوس رأس الساحرة قرقنة ورماها في وجهه فلمّا رآها أطلس تحوّل إلى الجبل الذي يدعى إلى هذا اليوم باسمه في منطقة شمال إفريقيا وكان الأهالي يسمّونه باسم"درنة" بمعنى الجبل والجبال بالبربرية وورد ذكره تحت هذا الاسم عند المؤرخين المغاربة والعرب.

وتقول أسطورة أخرى أنّ أطلس كان إلها من الطبقة الثانية فساعد فريقا من الآلهة ضدّ فريق آخر منهم لكنّ أصحابه انهزموا فدعا عليه الآلهة المنتصرون فمسخ في شكل جبل وأرغم على حمل الكرة الأرضية على كتفيه.

وكانت قرقنة التي أعانت برسيوس على القضاء على أطلس أميرة حسناء وكان لها شعر جميل تتدلّى جدائله على رقبتها كالدمقس المفتل فأغراها أحد الأشراف وفي قول بعضهم ابن عمّ أطلس وأراد النيل منها فأبت وامتنعت فأخذها بالقوة واغتصبها في معبد من المعابد كان مخصصا لإحدى الربات فاغتاضت منه الربة صاحبة المعبد فحوّلت الأميرة قرقنة إلى ساحرة وأخفتها عن الأنظار لتصون عفتها وجعلت كلّ من يراها يتحوّل إلى حجر ويتهيّأ له أنّ جدائل شعرها حيات تسعى.

وكان ابن عمّ أطلس الذي أشيع أنّه اغتصب قرقنة يسمّى باسم هنتات وينطق أنتات وأندى وأنتى والهندى وقد ذكرنا أنّه كان يحكم في ليبيا وكان يمنع

الغرباء والأجانب من دخول أراضيه مثل أطلس ويصل إلى حدّ قتل من تحدّثه نفسه بالمرور عبر أراضيه وكان يضع رؤوس من يقتلهم على سور قلعته.

وكانت أمّ أنتات، سيدة الأرض الربّة جي وأبوه بوسايدون، سيد البحار أو رئيس البحار, فكان أنتى يصرع كلّ من يتبارز معه ما دامت قدماه ثابتة على الأرض.

وكان الملك أنتى أو الإله أنتى متزوّجا بملكة اسمها طانجة على غرار اسم مدينة طانجة بالمغرب الأقصى ومات أنتى وترك زوجته من بعده حاملا فولدت ولدا سمّته باسم صفاقس على غرار اسم مدينة صفاقس بالبلاد التونسية وتقول هذه الأساطير أيضا أنّ أنتى كان له أخ من جهة أبيه اسمه تريتون كان يسكن على ضفاف شط الجريد بالجنوب التونسي وكان يعرف باسم بحيرة تريتون.

فقد حظيت الأماكن والبقاع المقدّسة في العالم بالتعظيم والتقديس لأنّها كانت في الأصل أسرا وأحياء بشرية ومنازل وبيوتا تسكنها بعض الأسر والجماعات البشرية بوصفها ملكا خاصا بهم فاكتسبت تبعا لذلك حرمة ومناعة بحيث أنّ التقديس والتعظيم هو تعبير عن الإحترام الذي يكنه الناس للمواقع والبقاع والأماكن المسكونة والمملوكة من طرف غيرهم من الناس وعن وجوب الامتناع عن الاعتداء عليها والمساس بها مخافة إثارة غضب أصحابها والتعرّض إلى بطشهم في حال الاعتداء عليها والإضرار بها والتصرّف فيها.

ثمّ إنّ هذا التعظيم تجرّد من محتواه الأصلي وتحوّل إلى تقديس تلك الأماكن والمواضع بوصفها مساكن ومحلات للآلهة وما شابههم من الكائنات الغيبية دون إدراك المعنى الحقيقي لهؤلاء الآلهة ثمّ إنّ رموز التّعظيم إتّخذت

مضامين تناسب العصر كالأولياء الصالحين والوليات الصالحات في بلدان شمال إفريقيا فأصبحت تلك الأماكن والبقاع التي كانت مقدّسة منذ القديم بالمعنى الذي شرحناه تحظى بالتبجيل والتعظيم من خلال نسبتها إلى بعض الأولياء الصالحين والوليات الصالحات أو باعتبارها أولياء صالحين ووليات الصالحات.

وتجسّم هذا التحوّل وهذا الانتقال في بلدان شمال إفريقيا بالخصوص في تعظيم الغابات والجبال والكهوف والعيون الذي استعرضنا نماذج منه في تحاليلنا المتقدمة من خلال نسبة تلك الغابات والجبال والكهوف والعيون إلى بعض الأولياء الصالحين والوليات الصالحات أو بوصفها أولياء صالحين ووليات صالحات ويقتصر الأمر في بعض الحالات على تعظيم مجموعة صغيرة من الأشجار هي كلّ ما بقي من الغابة القديمة والمساكن القديمة وأحيانا على تعظيم شجرة واحدة أو مقام يحمل اسم شجرة.

فقد أشرنا في هذا السياق إلى تعظيم الأهالي في مدينة جمنة بالجنوب التونسي إلى عهد قريب لشجرة طرفاء كانت موجودة في أطراف إحدى الواحات القديمة المجاورة لهذه المدينة وتدعى واحة كشادة من طرف الأهالي فكان الأهالي يسمّون تلك الطرفاء باسم أمّي الطرفاية، كما يوجد في مقبرة قرطاج بالضّاحية الشمالية للعاصمة تونس مقام مقدّس ينسب إلى وليّ اسمه سيدي بوشعّالة وتعني كلمة شعّالة في تونس الشجر البريّ الصغير الذي ينبت في المناطق القاحلة والمهملة ويتمثّل مقام سيدي بوشعّالة في بيت صغير بدون سقف وتسمّى مثل هذه البيوت في تونس باسم حويطة وتوجد أعداد كبيرة من الحويطات المقدّسة في تونس والجزائر والمغرب الأقصى وقد كانت الكعبة المقدّسة من طرف المسلمين في مدينة مكة بالجزيرة العربية بيتا صغيرا من هذا

القبيل بدون سقف فجعلت لها قبيلة قريش العربيّة سقفا عندما سكنت مكة واستقرت بها.

كما كان الأهالي بقرية تاهنت بالقرب من مدينة جومين بجهة بنزرت شمال البلاد التونسية يعظّمون إلى عهد قريب جدّا زيتونة مباركة عمرها أكثر من ألف سنة ويسمّونها للّة حليمة الشوّابيّة فكانوا يزورونها ويقدمون لها الذبائح والشموع.

وظلّ الأهالي بقرية هنشير الجال بالقرب من مدينة طبربة بولاية أريانة المتاخمة لتونس العاصمة يعظّمون إلى حدود هذه السنوات الأخيرة زيتونة مباركة عمرها عدّة قرون ويسمّونها باسم للّة فاطمة ويهدون لها بانتظام البخور والشموع.

كما كان الأهلي بمنزل بوزلفة بالوطن القبلي بالشمال الشرقي للبلاد التونسية يعظّمون وليّا من الأولياء الصالحين اسمه سيدي بو العرعارة في حين كان أولاد سهيل بجهة جبل بولحناش قرب مدينة الكاف بالشمال الغربي للبلاد التونسية يعظّمون وليّا اسمه سيدي سهيل على انّه جدّهم ويرمزون إليه بقبّة صغيرة مبنيّة حول شجرة عرعار, وأصبح شجر العرعار في تونس مثلا للصّلابة حتّى أنّ قادوم الحداد لا يفلّ ولا يؤثّر فيه في زعم السكان كما يدل عليه بعض أشعارهم ومنها هذه الأبيات:

"حسبتك تعرف بالكار　　　لا خير منك ابن آدم

طلعت عود عرعــار　　　حفت فيك القــوادم"

ويحظى شجر الزيتون في الجزائر أيضا بتعظيم واسع من طرف الأهالي نسبة إلى بعض الأولياء الصالحين والوليات الصالحات ولا سيما في منطقة القبائل البحرية حيث تحوي جلّ المقابر على زيتونة مقدّسة تسمّى بالبربرية "تزبّوجت نْ مَقبرت" بمعنى زيتونة المقبرة وغالبا ما كانت هذه الأشجار تسوّر بحائط وتعلّق عليها خيوط الصوف وأشرطة من القماش وتوقد لها الشموع وتذبح لها الذبائح.

كما أنّ الكثير من القرى كانت تشتمل على بعض الزياتين المقدسة ولا سيما الزياتين البريّة غير أنّ بعضها زال وتحطّم وبقي منها الجذع فقط ويسمّيه الأهالي باسم "أقرّوم" وكانوا يبنون حولها حائطا كرمز على قدسيتها ووجوب احترامها.

فقد كانت زيتونة من هذا القبيل تحظى بتعظيم الأهالي في بلدة تينبدار بمنطقة الجرجارة بالجزائر نسبة إلى وليّ اسمه سيدي موسى ويروي الأهالي أنّ سيدي موسى حذّرهم أنّه سيغادر المكان بدون رجعة يوم أن تزول زيتونته المباركة فلأجل ذلك يحيطون تلك الزيتونة بالرّعاية الكاملة.

وفي بلدة أزفون بالقبائل أيضا كان الأهالي يعظمون وليّا يرمز إليه بزيتونتين متقارنتين تضمّان بين جذورهما صخرة عظيمة وكان الأهالي يزورون هذا المقام بانتظام مساء الخميس ويذبحون بالمناسبة الذبائح ويدهنون الصخرة بالزيت وتسمّى الزيتونة المذكورة في لهجتهم البربرية باسم "تزبوشت إيحامامن" بمعنى زيتونة الحامّي.

وفي بلدة أخرى اسمها زكرى كان يوجد زيتونة مقدسة اسمها "تزيّوشت أم الخيوط" وكان النساء يعلّقن عليها أشرطة من القماش وخيوط الصوف ويطلبن عونها وحمايتها.

كما كان الأهالي بهذه القرية أيضا يعظمون موقعا يحتوي على زيتونة عظيمة وحجر نابت في الأرض طوله حوالي متران يسمّى "تازورت عم علي" بمعنى "حجر عم علي" بالبربرية وغالبا ما ينطق اسم "علي" من طرف الأهالي في صيغة "ولي" بحيث أنّ الاسم الحقيقي للموقع هو "حجر الولي" أو" الحجر الولي" بمعنى الحجر المقدّس والمبارك.

وقد كانت الرّبة العربية ألاّت التي كان يعظّمها العرب بمدينة الطائف بالجزيرة العربية قبل الإسلام عبارة عن صخرة مربعة. وكان يرمز إلى الربة العربية العزّى بثلاث سمرات كانت ببطن نخلة بواد يقال له حراض, أمّا أقدم أصنام العرب وهو مناة فكان منصوبا على ساحل البحر بقديد بين مكة والمدينة فكان العرب يقولون إنّ مناة وعزّى والاّت بنات الله وهنّ يشفعن إليه وأنّهنّ الغرانيق العلى وأنّ شفاعتهنّ لترتجى.

وانسجاما مع شروحنا للمعنى الأصلي لتعظيم الأشجار المذكورة وجدنا أنّ اسم "أقرّوم" الذي يطلقه الأهالي في الجزائر على بعض الزياتين المباركة يعني الجدّ والشيخ والكبير والسيد في سياق اللغة البربرية ومازال السكان في تونس يستعملون إلى اليوم في لهجتهم العربية الدّارجة مؤنثه "قرومة" في معنى العجوز والشيخة والسيدة والكبيرة وتطلق أحيانا حتّى على الزوجة بحيث أنّ تعظيم هذه الأشجار هو امتداد وتقليد لتعظيم وإجلال الكبار والآباء والأجداد والأسلاف والأهل والآل الذين أقاموا بها في قديم الزمان واستوطنوا تلك الأماكن

بأشجارها فصارت ملكهم الخاص واكتسبت بفضلهم حرمة وقداسة الأماكن المملوكة والمسكونة.

وفي هذا السياق نعتبر أنّ جامع الزيتونة بتونس العاصمة كان في الأصل موضعا مقدّسا في المفهوم الذي شرحناه ونعني بذلك أنّه كان مكانا مملوكا ومسكونا من طرف بعض الأسر البشرية فاكتسب حرمة الأماكن المسكونة والمملوكة وكان في الأصل غابة زياتين أو شيئا من هذا القبيل على ملك الأسرة المذكورة التي كانت تسكن فيه وتستغله لفائدتها وظلّ مع مرّ السنين محتفظا بهذه الحرمة والقداسة التي ازدادت عمقا عند الأجيال المتأخرة باعتبار أنّه يمثل مسكن ومقام آلهتهم بمعنى أسلافهم وأجدادهم الأولين ولكنها اتخذت عبر السنين مضامين وأشكالا تناسب العصر فكانت فيه قبل الفتح الإسلامي صومعة للرهبان المسيحيين مثلما ذكره المؤرخون العرب والمغاربة ثمّ لما فتح العرب المسلمون تونس وثبتت أقدامهم فيها أسّسوا في المكان جامعا عوض الصومعة المسيحية المذكورة. وجاء في الأخبار المتداولة بهذا الشأن أنّ أحد ملوك النصارى من الإفرنج في العصر الوسيط بعث برسالة إلى ملك تونس في عهده يذكر له فيها أنّ موضع جامع الزيتونة يحوي رفاة قدّيسة مسيحية اسمها للّة الزيتونة وبالعبارة الفرنسية "سانت أوليف" وطلب منه أن يتفضل بجمع رفاتها وإرسالها إليه في بلاده ليجعل لها مقاما مناسبا.

فقد رأينا أنّ الكعبة المقدّسة في مدينة مكة بالجزيرة العربية كانت في الأصل زريبة للغنم على ملك إسماعيل بن إبراهيم حسبما ذكره المؤرخ المغاربي عبد الرحمان بن خلدون كما ذكر هذا المؤرخ في مقدمة تاريخه في الفصل الخاص بالمساجد والبيوت العظيمة في العالم أنّ المسجد الأقصى بمدينة القدس في فلسطين كان في بداية أمره صخرة يقدّم لها القرابين ثمّ بنى طائفة

الصّابئة بقربها معبدا لكوكب الزهرة ولما جاء اليهود إلى فلسطين بنوْا عليه هيكلا ثمّ جاء النّصارى فبنوا مكانه كنيسة وأخيرا فتح العرب المسلمون بيت المقدس فبنوا فيه مسجدا هو المسجد الأقصى ومازالت القبة التي تعلوه تسمّى باسم قبة الصخرة.

كما أنّ السكان في بعض جهات البلاد التونسية يحيطون شجر الصبار بمظاهر التعظيم والاحترام على غرار احترامهم للشجر الذي يدعى في تونس باسم الزربة ويستعمل الصبار في تونس لإقامة الطوابي الفاصلة بين الممتلكات العقارية كالضيعات الفلاحية والحقول التي كثيرا ما تحوي منازل أصحابها ويسمّى نوع من الصبار المستعمل لإقامة الحدود في البلاد التونسية باسم الهندي ويعرف عادة باسم التين الشوكي لأنّ ثماره التي تشبه التين مشوّكة ويقبل السكان في تونس على استهلاك ثمار التين الشوكي أو الهندي بشغف ويسمّونه أيضا باسم الهندي ويقولون عنه أنّه "سيد الغلال" أو"سلطان الغلال".

ويمثل تعظيم الصبار والهندي امتدادا وتقليدا للتعظيم الذي تعلّم الناس إبداءه وإظهاره منذ أقدم العصور لأملاك الآخرين واحترام حدودها التي تحدّها وتفصلها عن غيرها من الأملاك والأراضي والضيع المجاورة ورأينا أنّ كلمة "هندي" المأخوذة من كلمة "هند" تفيد في الأصل معنى نهاية الأشياء وحدّها كما هي الحال في اللغة الأنقليزيّة حيث يطلق على نهاية الأشياء وحدّها اسم"أند" في سياق اللغة الأنقليزيّة.

كما أحاط الناس منذ القديم بالتعظيم والاحترام الأحجار والصخور وقد سقنا نماذج من هذا التعظيم المخصّص للأحجار والصخور في تحاليلنا المتقدمة وفي هذا السياق نعتبر أنّ تعظيم هذه الأحجار والصخور يرجع إلى استعمال

الأحجار والصخور كمواد لإقامة الحدود والمنازل والبيوت وغيرها من المرافق الإنسانية بحيث أنّ الناس عظّموا واحترموا هذه الأحجار والصّخور لأنّها كانت مستعملة بمثابة الشواهد على الحدود أو كمواد داخلة في بناء وتركيبة بعض البيوت الإنسانية القديمة في بعض الأماكن المملوكة فاكتسبت تلك البيوت والأماكن حرمة وقداسة البيوت والأماكن المملوكة والمسكونة عندما كانت قائمة وتشغل وظيفة المسكن لأصحابها وظلّت محتفظة بهذه الحرمة وبهذه القداسة لدى أبناء وأحفاد أصحابها باعتبارها مساكنهم التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم الأولين ولا سيما أنّ هؤلاء الآباء والأجداد أصبحوا يعظمون من طرف الأجيال المتأخرة من أبنائهم وأحفادهم بوصفهم آلهتهم فصارت تلك البيوت والأماكن تعظّم وتقدّس باعتبارها بيوت الآلهة ومقاماتهم وظلّت محتفظة بقداستها ومحاطة بالتعظيم والاحترام حتّى بعد انهيارها وهجرها وتحوّلها إلى أطلال ومجرّد أحجار وشواهد ونصب وظلّ معظّما معها ما تركه الأباء والأجداد والأسلاف إلى جانبها من بعض الأدوات والمرافق مع تداول وتناقل القصص والأخبار المتعلقة بتأسيسها وتأسيس الأسر التي كانت تعيش فيها وهي جملة الأساطير القديمة التي وصلت إلينا.

ففي هذا السياق ذكر المصنّف العربي ابن الكلبيّ في كتابه "الأصنام" أنّ اللاّت التي كانت إحدى الآلهة العظام عند العرب وقبيلة قريش بمكة بالجزيرة العربية قبل الإسلام كانت صخرة مربعة مثلما أشرنا إليه ومازالت الكعبة المقدسة من طرف المسلمين بمدينة مكة المذكورة تضمّ في بنائها حجرا أسود كان العرب قبل الإسلام يعتبرونه مقدّسا ومباركا واحتفظ بهذا الطابع المقدّس بعد الإسلام.

ورأينا أنّ المسجد الأقصى بمدينة القدس بفلسطين كان في أصله صخرة ينحر عليها حسبما ذكره المؤرخ المغاربي عبد الرحمان بن خلدون.

كما ظلّ تعظيم الأحجار والصخور قائما في بلدان شمال إفريقيا إلى عهد قريب جدّا حيث أشرنا إلى أنّ الأهالي في مدينة جمنة بالجنوب التونسي كانوا يعظمون حجرا طويلا قائما في مقبرة المدينة ويعتبرونه وليّة صالحة ويدعونها باسم أمّي الصمّاء وتستعمل كلمة"صمّ" في الجنوب التونسي وفي البلاد التونسية عموما في معنى الحجر الصلب المقطوع من الجبال وتستعمل في العربية المشتركة في صيغة "أصمّ" للمذكر و"صمّاء" للمؤنث, ويمكن اعتبار كلمة "أصم" و"صماء" صيغة لفظية لكلمة "إسم" و"سماء" بتخفيف الصوت "صا".

ورأينا أنّ الأهالي ببلدة زكرى بمنطقة القبائل البحرية بالجزائر يعظّمون موقعا يحتوي على زيتونة وعلى حجر طويل يسمّونه الوليّ أو صخرة الوليّ.

كما كان الأهالي بقرية بوزقن قرب العزازفة بالمنطقة المذكورة يعظّمون وليّة اسمها للّة مسعودة ويرمزون إليها بصخرة اسمها "أزرو طينة" بمعنى صخرة طينة بالبربرية.

وكانت الشعوب الأوروبية تعتقد في كائنات غيبية كالجنّ اسمهم الكوريغان كان من خاصيتهم الطواف والرقص حول الأحجار.

وانسجاما مع ما قدمناه من شروح حول المعنى والأصل الحقيقي لتعظيم بعض الأماكن والبقاع وما تشتمل عليه من غابات وأشجار وعيون وآبار وكهوف وحجر وصخور وجدنا أنّ العديد من القصص والأخبار التي يرويها السكان في بلدان شمال إفريقيا حول الأولياء الصالحين تحتوي على بعض الإشارات الصريحة بهذا الخصوص.

فقد ذكرنا أنّ الكثير من الأولياء الصالحين والوليّات الصالحات هم مجرّد رموز حديثة ومناسبة للعصر للمضامين الأصلية لتعظيم وتقديس بعض الأماكن والبقاع من طرف الناس.

ففي هذا السياق يحكي السكان في مدن وقرى الشمال الغربي للبلاد التونسية أنّ معارك طاحنة تدور في الليل بين قباب الأولياء ولاسيما إذا ما اجتمع العديد منها في مكان واحد بحيث تحصل معارك حامية الوطيس بينها في الليل فلا تسمع غير أزيز الحجارة التي يتراشق بها عمارها وأصحابها سعيا من كلّ وليّ إلى تهديم قبّة صاحبه.

وبهذه الصفة فإنّ هؤلاء الأولياء الذين يعتبرون أمواتا منذ قرون يقومون في الليل أحياء ليتقاتلوا سعيا من كلّ واحد منهم إلى طرد الآخرين وتكسير قبابهم واحتكار المكان والاستئثار به لفائدته الخاصة.

فهذه الحكاية وأشباهها ترمز في حقيقة الحال إلى المعارك والخصومات التي كان يتسبب فيها حوز الأراضي والتملك بها بعد اكتساب الأرض المملوكة حرمة الملك الخاص وسعي أصحاب تلك الأرض إلى التوسع على حساب الآخرين.

وأشرنا إلى أنّ هذا الوضع ظهر مع ظهور الإنسان والجماعات البشرية وله أصول طبيعيّة تمتدّ وتستند إلى طبيعة الجسم والبدن في حدّ ذاته فلأجل ذلك ظلّ قائما على مرّ الزّمان في أشكال متعدّدة إلى العصر الحاضر حيث مازال الناس إلى اليوم أفرادا وجماعات ودولا يتنازعون على الأملاك الخاصة والحدود الفاصلة بينها.

ومن هذا المنطلق فإنّ الحكاية المذكورة وما شابهها تشير إلى وقائع حصلت منذ بعض القرون بين بعض الأولياء الصالحين الحقيقيين وكذلك إلى وقائع قديمة شبيهة بها تماما.

ففي كتابنا "أساطير النشأة في الجنوب التونسي" قمنا بدراسة معمقة لظاهرة الأولياء الصالحين في تونس وفي بلدان شمال إفريقيا عموما وللأساطير والقصص التي يرويها الأهالي بشأنهم ووجدنا أنّ جلّ هؤلاء الأولياء الصالحين قد وجدوا بالفعل وأنّ الأساطير والحكايات التي تروى وتحكى بشأنهم هي أخبار تاريخية تنقل وقائع وأحداث حقيقية حصلت بالفعل غير أنّها اتّخذت الشكل الأسطوري الذي اتّخذته الأخبار التاريخية القديمة التي ظلّ الناس يتناقلونها بخصوص الآلهة.

ففي هذا السياق لاحظنا أنّ تعظيم الأولياء الصالحين والوليات الصالحات من طرف الأهالي في تونس وبلدان شمال إفريقيا عموما ومن طرف المجتمعات الإسلامية بصفة عامة يشبه ويماثل إلى حدّ بعيد تعظيم الآلهة من طرف الشعوب الإنسانية في القديم من حيث الإعتقادات والتصوّرات والتصرّف تجاه الأولياء الصالحين والآلهة وكذلك من حيث ما يروى بشأن الأولياء والآلهة من قصص وحكايات وأخبار.

ويعود هذا التشابه بين الاعتقاد في الآلهة وتعظيم الأولياء الصالحين إلى التشابه التام بين الآلهة والأولياء الصالحين في مستوى الطبيعة وفي مستوى الأدوار التي قاموا بها.

فقد كان الآلهة أباء وأجداد وأسلاف الشعوب الإنسانيّة التي عبدتهم وملوكا حكموا فيهم ومصلحين أصلحوا من شؤونهم، كما أنّ الأولياء الصالحين

كانوا آباء وأجداد القبائل والعشائر التي عظمتهم وأسيادا ومصلحين في ميدان نشاطهم الأصلي وهو الدين كما ساهم بعضهم في تعمير الأراضي واستصلاحها وإحيائها من عدم وكان بعضهم الآخر رؤوساء بأتمّ معنى الكلمة ولهم أصحاب وجند ومقاتلون يساعدونهم على إنجاز عملهم الإصلاحي فكان الناس يخافونهم ويحترمونهم ويهابونهم كخوف الشعوب الإنسانية في القديم من آلهتهم لأنّ هؤلاء الأولياء كانوا بالفعل يعاقبون المنحرفين بصفة ملموسة ومحسوسة تصل أحيانا إلى حدّ التعذيب الحقيقي إلى جانب احترامهم لورعهم وصدقهم.

فكان أولياء الله الصالحون يمتلكون في هذه العصور المتأخرة كلّ المقومات والخصال والصفات لتقمّص دور الآلهة وأشباههم من الكائنات الغيبية الذين كان الناس يقدّسونهم ويعظّمونهم ويهابونهم في قديم الزمان ولا سيما أنّ أغلب الأولياء اكتسبوا صبغة رسمية من خلال انتسابهم إلى الدين الرسمي المتبع في بلدانهم على غرار الآلهة في القديم.

وأشرنا في تحاليلنا المتقدمة أنّ الاصطدام بين السكان الأصليين لأرض من الأراضي والقادمين الجدد الراغبين في الإقامة بجوارهم يفضي أحيانا إلى الصلح والجوار والامتزاج التدريجي بين الطرفين كما يفضي إلى اندحار أحد الطرفين وطرده كأصحاب الأرض الأصليين فيفرّون ويهربون بكلّ ممتلكاتهم المنقولة مع بعض رموزهم المقدّسة ومنها الأحجار الموضوعة على حدود الأرض والعصيّ والأحجار التي كان يستعملها الآباء والأجداد والأسلاف والشارات التي كانوا يعلقونها وتلائمهم الظروف فينزلون في مكان آخر ويستوطنوا به فيجدّدون ويعيدون فيه حياتهم القديمة التي هي نسخة من حياة آبائهم وأجدادهم الأوّلين بما في ذلك تعظيم الرموز المقدّسة التي جلبوها معهم مع إدراكهم لمعناها وأصلها الحقيقي وتستمرّ الأجيال المتأخرة منهم في تقليدهم

والسير على منوالهم ولكنّهم يفقدون وينسون شيئا فشيئا المعنى الحقيقي للرّموز المقدّسة خاصة إذا ما أجبرتهم الظروف على تغيير مكان إقامتهم عديد المرّات فيضيع عليهم معناها ومغزاها الأصلي تماما نتيجة لإحتكاكهم بالآخرين واتساع حقل اللغة التي يستعملونها وفي بعض الحالات تعويضها بلغة قوم آخرين وهكذا تفضي الأوضاع التي وصفناها في أغلب الحالات إلى الإمتزاج أو التغيير المستمرّ في نمط الحياة فتغيب عن الأذهان تدريجيا المقاصد الأصلية والحقيقية للكثير من الأشياء الموروثة.

وقد ظلّ الناس في القديم وفي العصور الأخيرة يمارسون الكثير من العادات والتقاليد التي تؤكد صحة شروحنا وتلقى على ضوئها التفسير المناسب لأصلها الحقيقي ومن بينها بالخصوص عادة الوقوف على الأطلال عند العرب في الجزيرة العربية في القديم وبعض العادات الشبيهة التي مازال الناس يمارسونها في تونس إلى اليوم. واسم "أطلال" هو اسم جمع مفرده "طلل" ويعني بقايا الديار والأحياء المهجورة.

ففي هذا السياق كان الشعراء العرب في القديم يفتتحون قصائدهم الشعرية بما يعرف بالوقوف على الأطلال ويتمثل الوقوف على الأطلال عند الشعراء في افتتاح الشاعر قصيدته بمخاطبة أطلال الديار التي كانت تسكن فيها حبيبته وبثها أشواقه وأشجانه وتطلق كلمة"أطلال" و"طلل" عند العرب في القديم على بقايا وآثار الديار والأحياء البشرية التي كان أصحابها يسكنونها ويعيشون فيها ويملئونها حياة ونشاطا ثمّ هجروها وتركوها وانتقلوا للإقامة إلى مكان آخر فتندرس تلك الديار والأحياء ويصيبها الخراب وتتحول إلى أطلال وبقايا بسيطة للغاية كالشق الصغير الذي تتركه المياه المستعملة على الأرض أمام الخيمة ويسمّى في العربية باسم نؤي أو عرصة من عرصات الخيمة أو الأثافي وهي

الأحجار الثلاثة التي كانت تنصب حول موقد النار وتوضع فوقها القدر لإعداد الطعام.

ففي هذا المعنى يقول الشاعر العربي القديم طرفة بن العبد في إفتتاح قصيدة له تعرف باسم معلّقة طرفة وهي واحدة من سبع قصائد أو عشر قصائد كان العرب قديما يفضّلونها على غيرها ويسمّونها باسم المعلقات. يقول طرفة في افتتاح معلقته:

لخولة أطلال ببرقـــــة ثهمد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

وقوفا بها صحبي عليّ مطيّتهم يقولون لا تهلك أسى وتجلّـــــد

ويقول الشاعر العربي القديم زهير بن أبي سلمى في افتتاح قصيدة له حسبها العرب أيضا ضمن المعلقات المذكورة:

أمن أمّ أوفى دمنة لم تكلّـــــم بحومانة الدّرّاج فالمتثلّـــــم

ودار لها بالرّقمتين كأنّهـــــا مراجيع وشم في نواشر معصم

بها العين والأرآم يمشين خلفة وأطلاؤها ينهضن من كلّ مجثم

وقفت بها من بعد عشرين حجّة فلأيا عرفت الدّار بعد توهّـــم

أثافيّ سفعا في معرّس مرجـل ونؤيا كجذم الحوض لم يتثلـــم

فلمّا عرفت الدار قلت لربعهـا ألا أنعم صباحا أيّها الرّبع وأسلم

وتطلق كلمة دمنة في العربية على ما اسودّ من أثار الدّار بالبعر والرّماد وغيرهما.

ويقول الشاعر العربي القديم إمريء القيس في بداية معلقته :

قفا نبك من ذكـرى حبيب ومنزل بسقط اللّوى بين الدخول فحومل

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمـــال

ترى بعر الآرام في عرصاتهـــا وقيعانها كأنّه حبّ فلفـــــــل

وقوفا بها صحبي عليّ مطيتهـم يقولون لا تهلك أسى وتجمّـــل

وإنّ شفائي عبرة مهراقـــــة فهل عند رسم دارس من معـولّ

فمثلما ذكرناه في تحاليلنا المتقدّمة نعتبر أنّ الوقوف على الأطلال كان في الأصل شكلا من أشكال قصّ الأساطير المتعلّقة بأخبار الآباء والأجداد

والأسلاف وبالأسر التي أسسها الآباء الأولون والدّيار والأحياء التي سكنوها ثمّ راحوا ومضوا إلى حال سبيلهم وتركوا الدّيار فاندرست وبقي منها بعض الأطلال البسيطة ومعها الأخبار والقصص المتعلقة بتلك الديار وبالذين قاموا بتأسيسها وسكنوها.

وفي هذا السياق أشرنا إلى أنّ الأسطورة والخرافة والقصّة تدعى باسم "تل" و"طل" في سياق اللغة الأنقليزيّة.

وعلى هذا الأساس فإنّ هذه الأشعار كانت في الأصل مخصّصة لسرد أخبار الماضي الحقيقي للقبيلة والعشيرة واستعراض أساطيرها في المعنى الأصلي للأساطير الذي شرحناه ثمّ إنّها تجردت من محتواها الأوّل وأصبحت قوالب تستعمل للأغراض الشعرية المعروفة وظلّت محتفظة بسمتها الأولى في افتتاحيتها المخصصة للوقوف على الأطلال.

وقد خصصت كثير من الأمم الأخرى أشعارها لسرد أساطيرها وأخبار آلهتها وأبطالها على غرار السومريين والبابليين سكان العراق القدماء واليونانيين القدماء وسبق أن استعرضنا نماذج منها في تحاليلنا المتقدمة.

كما خصّص الناس الأشعار لصياغة الملاحم والسّير التي تحكي أعمال بعض الأبطال والأشخاص المعروفين نسبيا في قوالب أسطورية على غرار سيرة بني هلال التي سبق أن تحدثنا عنها وأوردنا بعض المختارات من فصولها.

ووجدنا أنّ بعض الشعراء الشعبيين في تونس في العصر الحاضر ساروا على هذا المنوال فخصّصوا بعض أشعارهم لسرد بعض الأساطير التي

تبدو في الظاهر محلية ولكنّها في حقيقة الحال أساطير قديمة اتخذت مضامين حديثة.

ففي هذا السياق ينسب سكان جهة تطاوين بالجنوب الشرقي للبلاد التونسية إلى شاعر شعبيّ من منطقتهم اسمه محمد بن بورخيص الكثير من الأشعار الشعبية التي يدور محورها حول الوقوف على الأطلال ومخاطبة آثار الماضي وقد توفّي هذا الشاعر سنة 1947 عن سنّ تناهز الثمانين عاما.

فممّا يحكى عن الشاعر محمد بن بورخيص بهذا الخصوص أنّه كان يوما يرعى غنم أهله فنزلت أمطار غزيرة فالتجأ إلى كهف غير بعيد قضّى فيه ليلته وخرج في الصباح فوجد جذع نخلة في أحد الوديان قد غمرته المياه السائلة ويدعى مثل هذا الجذع في المنطقة باسم "كوبة" فتوهّم أنّها بقايا نخلة بواحة قديمة انقرضت وانقرض أهلها منذ أمد بعيد فوقف يخاطبها قائلا:

"سألتك بربي تخبري يا كوبة على اللّي رقاك ومدّلك عرقوبه

لو ترجعي لحياتـــــــك وتخبري على من خدم إرباطك

من ذكرك منه قلع صباطـــك من الساقية حمّالتك مجلوبـــة

قدّاش راهي من خليقة جاتك شافكش ميم مغنجات أهذوبـــة

كانك تنوضى حيـــــــــة وتخبريني على الجنوس الفيـــة

أهلك ربابة حيط وإجباليّـــة وإلاّ عشيرة بادية وعروبـــــة

هافتش عنّك شابــــة وصبيّة شافكش ميم مغنجات أهذوبـــة"

فخرجت له من الكوية إمرأتان وطلبتا منه أن يكفّ عن مخاطبتها وأن لا يعيد شعره أبدا ولكنّه أخلف الوعد ففقد بصره مدّة من الزمن ثمّ تاب فعاد إليه بصره.

وتقول رواية أخرى أنّ جنيّة خرجت له من الكوية وهو يخاطبها وكانت الجنية عريانة فلطمته بشعرها الطويل على وجهه فأصابت عينه فعمى ثمّ عاد إليه بصره.

وينسب له قصائد أخرى من هذا القبيل يشير فيها إلى فناء الدنيا وزوالها من خلال بعض الأمثلة ذات المضامين الأسطورية.

كما وجدنا في هذا السياق أنّ الأسماء التي تحملها العديد من المدن والمواقع المقدّسة في تونس وفي غيرها من بلدان العالم تفيد في الأصل معنى الآباء والأجداد والأسلاف والأهل والآل مثل مدينة مكة بالجزيرة العربية التي تحوي الكعبة المقدّسة من طرف العرب والمسلمين ومدينة الكاف في تونس التي سبق أن تحدثنا عنها ومدينة دقّة في تونس أيضا ومدينة زغوان في تونس كذلك.

فقد ذكرنا أنّ مدينة الكاف في الشمال الغربي للبلاد التونسية كانت تدعى باسم "أزكّا" أو"زكّة" المقدّسة بمعنى المدينة المقدّسة وأشرنا إلى أنّ اسم "أزكّة" يستعمل في اللغة البربرية في معنى الحجرة والبيت والغرفة والدار والمعبد وأوضحنا أنّ "أزكّا" تفيد في حقيقة الحال معنى الأسلاف والأجداد باعتبار أنّها تستعمل أيضا في البربرية في صيغة "زيك" للتعبير عن معنى الماضي وما حصل فيه كما يستعمل السكان في تونس هذه الكلمة في لغتهم الدارجة في صيغة "زك" في معنى الفرج وفرج المرأة بالذات وأشرنا إلى أنّ فرج المرأة وبالتالي المرأة يسمّى باسم "كون" في سياق اللغة الفرنسية وهو مأخوذ من لفظة "جان" و"جن" و"جنة" التي تتخذ صيغة "كان" و"كن" و"كنة" باعتبار التعادل بين الصوت "جا" والصوت "كا" وعلى هذا الأساس فإنّ كلمة "زك" و"أزكّة" و"زيك" تعادل كلمة "جن" و"جان" و"جنة" و"كنة" و"كون" وتفيد في الأصل معنى المرأة والزوجة والأسرة والأولاد والدّار بكلّ ما كانت تحمله الزوجة والأسرة والمرأة والأولاد والعائلة والأهل من معاني وما كانت تتميز به من صفات ومن بينها صفة القداسة والحرمة ثمّ إنّ كلمة"جنة" و"كون" و"زكة" وما شابهها من الكلمات أطلقت على الديار والأحياء البشرية والبساتين والقرى والمدن بصفة عامة واتّسع معنى بعضها حتّى أصبح يطلق على العالم بأسره مثل كلمة"كون" في سياق اللغة العربية.

فقد كان اسم" كون" يطلق في الأصل على المرأة والزوجة والأسرة والأولاد والأهل والآل ثمّ أطلق على الكوخ أو الكيب الذي تسكن فيه الأسرة والذي كان ذا شكل مخروطيّ مثل شكل التلّ الترابي وتطلق كلمة "كون" في اليونانية على الشكل المخروطي ثمّ توسّع معنى كلمة"كون" حتّى أصبح يطلق على العالم بأسره في سياق اللغة العربية. كما أنّ اسم" مكّة" هو صيغة لفظية

لكلمة "أمّك" التي تفيد معنى الأمّ في سياق اللغة العربية واللغات الدّارجة المشتقة منها.

وتأكيدا لصحّة تحاليلنا كانت مدينة مكّة تسمّى أيضا باسم "بكّة" الذي يعتبر صيغة لفظيّة لاسم "أباك" و"باك" المأخوذ من اسم "أب" ومازال الناس في الجنوب التونسي يستعملون كلمة "باك" في معنى الأب والسيّد بحيث أنّ مكّة هي مدينة مقدّسة لأنّها موطن الأسلاف والأجداد والآباء الأوّلين على غرار مدينة الكاف بتونس التي كانت تسمّى باسم "أزكّة" المقدّسة بمعنى المدينة المقدّسة وقد أشرنا إلى أنّ الناس في تونس يستعملون كلمة "بكّة" في معنى الكدس من الفضلات البشريّة والخرى كما يقولون وقد كانت أكوام الخرى والفضلات البشريّة من المكوّنات الرئيسيّة للأحياء البشريّة ورأينا أنّ الكعبة المقدّسة في مدينة مكّة كانت في الأصل زريبة للحيوانات حسب المؤرخ المغاربي عبد الرحمان بن خلدون. وتتخذ كلمة "مكّة" أو "أمك" صيغة "مقّة" وقد عبد العرب في القديم إلها إسمه المقّة.

كما أنّ إسم "زكّة" الذي كانت تدعى به قديما مدينة الكاف هو صيغة لفظيّة لكلمة "زقّة" بالنظر لتعادل الصوت "كا" والصوت "قا" وتطلق كلمة "زقّة" في تونس على الخرء والفضلات التي تفرزها الطيور وكانت تطلق على جميع أنواع الخرء والفضلات البشريّة والحيوانيّة.

ثمّ إنّ كلمة "قرية" التي تستعمل في العربيّة في معنى الأحياء البشريّة هي صيغة لفظيّة لكلمة "خرية" نظرا لتعادل الصوت "قا" والصوت "خا" وتطلق كلمة "خرية" في تونس على كدس الخرء والفضلات البشريّة.

وعلى غرار مدينة الكاف التونسيّة أو "أزكة" أو "زقّة" ومدينة مكّة في الجزيرة العربيّة كانت مدينة دقّة بشمال البلاد التونسيّة تعتبر هي الأخرى مدينة مقدّسة ومباركة حتّى أنّ الناس كانوا إلى عهد قريب يعتقدون في حجارتها وفي قدرتها على الوقاية من نهش العقارب والأفاعي فكان السكان في تونس يقتنون حجارة دقّة ويجعلونها تمائم لتقيهم من أذى العقارب والحيّات.

فنحن نعتبر أنّ إسم "دقّة" هو صيغة لفظيّة لاسم "داك" الذي مازال إلى اليوم يستعمل في تونس في معنى الأب والسيّد وكذلك في معنى الأم والسيّدة على غرار إسم "باك" وهو مأخوذ من لفظة "إدّا" و"دا" التي تفيد معنى الأب وتتخذ صيغة "داد" و"دادي" وتستعمل كلمة "داد" و"دادي" في معنى الأب بالأنقليزيّة كما تستعمل كلمة "دادة" في الأقطار العربيّة في معنى السيّدة والحاضنة والمربيّة.

وتأكيدا لصحّة شروحنا فإنّ مدينة "دقّة" كانت تسمّى أيضا باسم "تباقة" الذي هو صيغة لفظيّة لاسم "باقة" و"بقة" ويمثّل الإسم الأخير بدوره صيغة لفظيّة لاسم "بكّة" و"باك" بحيث أنّ دقّة كانت هي الأخرى تحمل إسما يفيد معنى الأم وهو إسم "داك" واسما آخر يفيد معنى الأب وهو إسم "باك" ويوجد في الجزيرة العربيّة مدينة أخرى إسمها "تبوك" في حين تسمى عاصمة دولة بنغلادش شمال الهند الشرقيّة باسم "دكّة".

كما أنّ إسم مدينة زغوان التي تقع على بعد حوالي ستّين كيلومتر جنوب العاصمة تونس هو جمع لاسم "أزكّة" في سياق اللغة البربريّة وكانت مدينة زغوان تشتمل على معابد مخصّصة لبعض الآلهة وتعتبر مدينة مقدّسة وكانت منبعا مهمّا للمياه في المنطقة وقد استمدّت طابعها المقدّس هي الأخرى من

الحرمة التي اكتسبتها منذ القديم باعتبارها مكانا مملوكا ومسكونا من طرف بعض الجماعات البشريّة فيتعيّن على الآخرين تبعا لذلك إحترامه والإمتناع عن الإعتداء عليه والمساس به واجتياز الحدود التي تحدّه مخافة إثارة غضب أصحابه والتّعرض إلى بطشهم في حال محاولة إجتياز تلك الحدود والإعتداء على حرمة ملكهم ومسكنهم.

ومثلما ذكرناه آنفا فإنّ إطلاق أسماء واحدة على الأحياء البشريّة وأكداس الخرى والفضلات البشريّة والحيوانيّة يعود إلى الإرتباط الوثيق بين الأحياء البشريّة والخرى والفضلات البشريّة التي كانت تمثّل في القديم وفي بداية التاريخ الإنساني على وجه الخصوص السّمة الرئيسيّة الثابتة للأحياء البشريّة ومآوي الحيوانات بصفة عامة.

كما أنّ العديد من المدن والقرى والمواقع في تونس وبلدان شمال إفريقيا عموما تحمل أسماء بربريّة تتركب أساسا من الجذر "زر" الذي يفيد معنى الأسرة والعائلة والأبناء والأولاد مثلما ذكرناه سابقا حيث أنّ كلمة "زر" هي صيغة لفظيّة لكلمة "ذر" التي تستعمل في اللغة العربيّة في معنى الأولاد والأبناء.

ففي جهة قابس توجد مدينة إسمها الزّارات وقرية إسمها زريق ويعني الإسم الأخير في البربريّة الرّحي وهو مشتق من كلمة "أزرو" التي تعني الحجر في البربريّة وهي بدورها مشتقّة من الجذر "زر" وقد سميّت الرحي باسم الحجر لأنّها كانت تصنع في الأصل من الحجر وأشرنا إلى أنّ كلمة "حجر" تفيد في العربيّة معنى الحرمة والقداسة وأطلقت على الحجر والصّخر لأنّه كان يستعمل في إقامة الحدود حول الأسر وبيوتها فاكتسب حرمة وقداسة الأسر والبيوت

وحدودها حتى أنّ كلمة "صخر" التي تطلق على الحجر في العربيّة تحمل معنى الشيء المقدس في سياق بعض اللغات الأوروبيّة كالفرنسيّة وأصلها "صغر" بمعنى ولد وصغير, كما أنّ لفظة "بن" تطلق على الأولاد وعلى الحجر والبناءات عموما في سياق اللغة العربيّة.

كما توجد في جنوب البلاد التونسيّة في جهة مطماطة والجبال المجاورة لها مدينة تحمل إسم "تامزرت" ويعني هذا الإسم في البربريّة الحيّ والغابة والجنان والقرية والمدينة وتوجد غير بعيد عنها قرية تسمّى قصر أزرو و زراوة.

ونشير كذلك في هذا السياق إلى مدينة توزر في الجريد بالجنوب التونسي ومدينة تازركة في جهة الوطن القبلي بشمال البلاد التونسيّة, كما أنّ إسم مدينة بنزرت في شمال البلاد التونسيّة يتركب هو الآخر حسب رأينا من كلمة "بن" وكلمة "زر" وهما كلمتان متعادلتان معنويّا مثلما ذكرنا, فقد كانت مدينة بنزرت تسمّى قديما باسم هيبون وهو إسم منتشر في منطقة شمال إفريقيا ومازال يوجد في جهة السّاحل بالبلاد التونسيّة مدينة تدعى باسم هيبون ونعتبر أنّ إسم "هيبون" هو صيغة لفظيّة لكلمة "بن" حيث أنّ الحرف "ها" يعادل "أل" التعريف في العربيّة في بعض اللغات القريبة منها كالفينيقيّة واليهوديّة أو العبريّة ومن هذا المنطلق فإنّ إسم "هيبون يعادل إسم "البن" وقد ذكر بعض المختصين الأوروبيّين خطأ أنّ بنزرت هي تحريف لاسم هيبودياريتس الذي كان يطلق قديما على مدينة بنزرت وهو إسم يتركب من المقطع هيبو وهو الإسم الأصلي للمدينة والمقطع دياريتس وتعني المياه الجارية باليونانيّة إشارة إلى البحيرات المحيطة بمدينة بنزرت. فالأرجح أنّ إسم "بنزرت" يتألف من المقطع "بن" الذي يفيد الأبناء في العربيّة واللغات القريبة منها والمقطع "زر" أو "زرت" الذي يفيد

أيضا الأبناء باعتبار أنّه صيغة لفظيّة لكلمة "ذر" وكثيرا ما توجد أسماء تتركب من ألفاظ متعادلة للتأكيد على المعنى.

كما وجدنا في هذا السياق أنّ قبائل الهنود الحمر بأمريكا الجنوبيّة يرمزون إلى البعض من مقدّساتهم بقبّة صغيرة تشبه الطابونة التي تستعمل في تونس لإعداد الخبز في المنازل ويسمّون هذه القباب في لغتهم حرفيا باسم "المالك" و"المليك" ويفيد عندهم معنى القائد والسيد والملك تماما مثل كلمة "ملك" في اللغة العربيّة والملاحظ أنّ سكان المغرب الأقصى ينطقون كلمة "ملك" في لغتهم الدارجة في صيغة "مليك" ويكثر تعظيم هذا النوع من القباب في بوليفيا والبيرو والمنطقة التي كان يحكمها الجماعة المسماة باسم "أنكا" قبل احتلال الأوروبيين لأمريكا الجنوبيّة في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي. ويوجد من ضمن القبائل التي تعظّم "الملك" في أمريكا الجنوبيّة بالخصوص قبائل الأروشيبايا وقبائل الأيمارا.

فقد كان لكلّ أسرة قبّتها التي تعظمها تحت إسم "المليك" كما يعظّمون مجمع القباب تحت إسم "الكاميراني مليك" ويسمّون هذا المجمع من القباب حرفيا في لغتهم باسم "الحوزة" و"الحوصة" وتعتبر علامة وشاهدا على الحوز والحصة.

ويتمثل "الملك" أو "المليك" أحيانا في شجرة صبّار مزروعة في ساحة الدار حتّى أنّ هذه القبائل تعتقد في رمزيّة هذه الشجرة فكثيرا ما يقطع رب الأسرة شجرة من أشجار الصبّار من الغابة ويزرعها في ساحة داره بوصفها "مليك" الأسرة فتحظى لدى الأسرة بالتعظيم والتقديس من خلال تعليق أشرطة من القماش عليها على غرار ما يفعله سكان تونس وبلدان شمال إفريقيا الأخرى لبعض الأشجار التي تحظى عندهم بالتّقديس نسبة إلى بعض الأولياء الصالحين.

كما أنّ بعض الأخشاب التي تستعمل في بناء سقف الأكواخ والبيوت عند قبائل الهنود الحمر المذكورة تحظى لديهم بالتّعظيم تحت إسم "المليك".

وتطلق بعض عشائر قبيلة الأيمارا على المليك إسم "الأصاصيلة" في لغتهم ويعني هذا الإسم عندهم الأباء والأجداد والأسلاف ويقولون إنّهم يسكنون في الجبال والهضبات والمرتفعات المجاورة ويصفونهم بأنهم أبناء "الحوزة" ويذكرون بأنهم ينزلون أحيانا من جبالهم لزيارة أبنائهم وأحفادهم في القرى البشريّة القائمة بجوار تلك الجبال. كما تهدي لهم هذه العشائر القرابين والنّذور وتسمّى هذه القرابين والنّذور في لغتهم باسم "الشعّالة", ويعبدون بعض الأخشاب المستعلمة في بناء البيوت تحت إسم "كمانة".

كما يعظّم هؤلاء الهنود الحمر بعض الأماكن تحت إسم "سميري" باعتبارها مساكن للأسلاف, ويسمّى السميري عندهم أيضا باسم "زمانة" و"كمانة".

وتطلق هذه القبائل على كهنتهم والعرّافين والسحرة عندهم حرفيا في لغتهم إسم "الكريب" وجمعها "كرايب" ويوجد شعب من الهنود الحمر يحمل إسم "كريب" وقد سمّيت جزر الكراييب بأمريكا الجنوبيّة بهذا الإسم نقلا عن إسم هذا الشعب.

وتوجد في الشمال الغربي للبلاد التونسيّة مدينة تحمل إسم "كريب" وهو إسم يمكن أن يتّخذ صيغة "غريب" بالنظر لتعادل الصوت "كا" والصوت "غا" وقد لاحظنا أنّ السكان في تونس والجزائر يعظّمون وليّا من الأولياء الصالحين تحت إسم "سيدي غريب" وأحيانا تحت إسم "سيدي أحمد غريب" ويعتبر من مشاهير الأولياء الصالحين في أقطار شمال إفريقيا ولا سيما في الجزائر وتونس وليبيا

حيث تشتمل معظم المقابر في هذه البلدان على مقام مخصّص لسيدي غريب إلى جانب بعض الجوامع المخصّصة له تحت إسم جامع سيدي غريب وأحيانا جامع سيدي أحمد غريب.

وسبق أن أشرنا إلى أنّ بلاد اليمن بجنوب الجزيرة العربيّة كانت تسمّى قديما باسم "بن" و"بنغ" وبلاد "بن" أو بلاد "البن" وذكرنا أنّ كلمة "بن" تعادل كلمة "من" بحيث أنّ كلمة "بن" وكلمة "من" هما كلمتان متعادلتان كما يدل عليه استعمال بعض الجماعات الذين يسكنون في موريتانيا وفي الساقية الحمراء جنوب المغرب الأقصى في بعض الحالات كلمة "من" عوض" كلمة "بن" فيقولون مثلا "أحمد بن دامان" وكذلك "أحمد من دامان". وعلى هذا الأساس فإنّ إسميْ "يمن" و"بن" متعادلان.

ويطلق إسم "بن" في العربيّة على الأبناء وعلى الحجر والبناءات عموما كالبيوت كما تستعمل كلمة "بن" في معنى الزواج والنّكاح في سياق اللغة العربيّة فيقال إنّ العريس بنى بعروسه بمعنى دخل عليها وضمّها إليه وأصبحت إمرأته وزوجته بحيث يمكن أن نقول بأنّ كلمة "بن" ومشتقاتها تفيد في الأصل معنى المرأة والزوجة والأسرة والأبناء والأولاد والأهل والعائلة والآل على غرار كلمة "جن" و"جنة" وكلمة "كن" و"كنة" و"كون".

كما أنّ منطقة شمال إفريقيا كانت تسمّى ببلاد أمن و"أمون" نسبة إلى الإله أمون الذي كان يعبده السكان في هذه المنطقة ويعرف باسم أمون الليبيّ عند الإخباريين والكتّاب اليونانيين واللاتينيين القدماء ويطلق إسم ليبيا على منطقة شمال إفريقيا عموما عند هؤلاء الكتاب, ونعتبر أنّ إسم "أمّون" مأخوذ من إسم "من" الذي يعادل معنويّا إسم "بن" و"جن".

كما تستعمل كلمة "من" في معنى الإبن والأبناء في بعض اللغات الإفريقيّة الدارجة بالبلدان الإفريقيّة جنوب الصحراء الكبرى.

ويبدو أنّ المصريين القدماء كانوا يسمّون السكان القاطنين بغرب مصر باسم "أمنت "أو "أمونيّين" حسب بعض المختصين في حين كانوا يسمّون السكان القاطنين شرق مصر واليمنيّين سكان اليمن بصفة خاصة باسم "بونت" أو "بونيون" مع أنّ الرّومان, سكان مدينة روما بإيطاليا بجنوب القارة الأوروبيّة، كانوا يسمّون سكان مدينة قرطاج في تونس باسم "بونيّون".

وقد ظلّت بعض القبائل البربريّة إلى عهود قريبة نسبيّا تحمل إسم "أمن" من بينها قبيلة تارقيّة تدّعي الشرف كانت تعرف باسم "أمن" و"أمنان" ويمكن القول بأنّ إسم "جمنة" الذي تحمله مدينة جمنة بالجنوب التونسي وبعض القرى والمواقع الأخرى بتونس والجزائر مأخوذ من إسم "أمن" الذي ظلت تحمله القبيلة التارقيّة المذكورة وكان يفيد في الأصل معنى الزوج والزوجة والأسرة والأولاد والأهل والآل ثمّ أطلق على الحي والتّجمع السكني والقرية والمدينة بصفة عامة.

ومازالت كلمة "أمن" تستعمل إلى اليوم في اللغة البربريّة في معنى التّجمع كما أنّها تستعمل في البربريّة في صيغة "وامان" في معنى الماء وأشرنا إلى العلاقة الوثيقة الموجودة بين الأحياء البشريّة والمياه, كما تستعمل كلمة "أجيم" في اللغة البربريّة في معنى المنزل والحي والتّجمع السكني وتتّخذ صيغة "أجيمن" في حال الجمع.

ولاحظنا أنّ العديد من الجماعات وسكان المدن في تونس يقولون إنّ أجدادهم الأوّلين قدموا من اليمن ويبدو أنّ البلاد المقصودة في الأصل بهذا الإسم هي منطقة شمال إفريقيا التي كانت تسمّى باسم بلاد اليمن أو بلاد أمون على

غرار بلاد اليمن بالجزيرة العربيّة, فكثيرا ما تحمل العديد من المواقع اسما واحدا لأنّ كلّ المواقع المسكونة في الأرض كانت في الأصل أسرا وأحياء بشريّة فحملت تبعا لذلك الأسماء التي تطلق على الأسرة والحيّ البشري في اللغات الإنسانيّة.

وقد وجدنا في هذا السياق أنّ الكاهن والعرّاف كان يسمّى عند بعض الجماعات البشريّة باسم "أمّون" في حين تسمّى الكاهنة والعرّافة باسم "تامونتت" كما هي الحال في بعض اللهجات البربريّة وبصفة خاصة عند سكان جزر الكناري في المحيط الأطلسي بعرض السواحل المغربيّة قبل احتلال هذه الجزر من طرف الإسبان في القرن الخامس عشر ميلادي وكان سكان جزر الكناري من أصل بربري ويتكلمون اللغة البربريّة.

وتسمّى العرّافة في بعض مدن وقرى الجنوب التونسي باسم "وقّاعة" وهو كلمة بربريّة وتعني المبصرة ومأخوذة من كلمة "أوقا" التي تستعمل كفعل في بعض اللهجات البربريّة مثل التارقية في معنى "نظر" و"أبصر" و"رأى" وسبق أن اشرنا إلى أنّ الجن والتّوابع الذين يعلمون الناس الأشعار والغناء والفنون يسمون باسم "الريء" عند العرب في القديم وهو إسم مأخوذ من فعل "رأى" ويعادل إسم "وقّاعة".

المعنى الحقيقيّ للكهانة والعرافة والسحر

كما أنّ إسم "أمّون" و"تامونتت" يتركب من المقطع "أم" والمقطع "أني" وتستعمل لفظة "إيني" في بعض اللهجات البربريّة كفعل في معنى "رأى" و"نظر" و"أبصر" غير أنّ لفظة "إيني" تعني في الأصل الابناء وهي تعادل كلمة "جن"

ومازال إسم "إيني" يطلق إلى اليوم على الإبن الأكبر في الأسرة في سياق اللغة الفرنسيّة كما تستعمل لفظة "أن" في معنى الناس عموما في سياق اللغة الفرنسيّة أيضا.

وعلى هذا الأساس فإنّ الكهانة والعرافة تدخل في حقيقة الحال في إطار الإعتقادات المتّصلة بالوحي والإتّصال بين الآلهة والبشر وبين الجن والبشر وكشف الغيب وقراءة المستقبل وتلقّي البشر للفنون والمعارف من عند الآلهة والجن وقد شرحنا بالتفصيل المعنى الحقيقي لكل هذه الإعتقادات.

ومن هذا المنطلق فإنّ الكهّان والعرافين سموا باسم "أمون" لأنّهم كانوا يمثلون نوّاب الآلهة والجن عند الأحياء بمعنى "نوّاب" الأجداد والأباء والأسلاف في ما يتعلّق بحفظ المعارف والفنون التي اكتشفها واكتسبها الأباء والأجداد والأسلاف ثمّ لقّنوها وعلّموها لأبنائهم وأحفادهم من بعدهم.

فقد ذكرنا أنّ أمون كان إلها عبده الناس في القديم وهو يرمز إلى الأباء والأجداد والأسلاف بصفة عامة على غرار كلّ الآلهة الآخرين الذين عبدهم الناس في القديم.

وفي حقيقة الحال فإنّ كلمات "كاهن" "وعرّاف" و"أمون" متعادلة حيث أنّ الآباء والأجداد كانوا أثناء وجودهم فوق الأرض رؤساء أسرهم وأسياد قومهم وقادتهم وزعماءهم وكهنتهم بمعنى المطلعين على أسرار مختلف المعارف والفنون الإنسانيّة المكتسبة في عهودهم والمتعلّقة بأعمال طبيعيّة محسوسة وملموسة على غرار صناعة الأحجار وصقلها واستعمالها وصناعة العصيّ والرّماح والتّمييز بين أنواع الأشجار المثمرة والصالح منها للأكل وما هو غير صالح ومآوي الحيوانات وطرق صيدها وأساليب إشعال النّار واستعمالاتها.

كما كان هؤلاء الأسياد ورؤساء الأسر يسمّون أيضا باسم "الساحر" و"الشاعر" تعبيرا عن بعض الصفات والخصال البشريّة المميزة لهم وإشارة إلى بعض المهام والأدوار التي كانوا يقومون بها دون غيرهم وتتعلق بأعمال طبيعيّة محسوسة وملموسة كشقّ الغابات والجبال والتّخاطب بالنار والدخان وقصّ وتتبع آثار البشر والحيوانات بواسطة آثار الأقدام والفضلات ومواقد النيران والتّمييز بين الجماعات من خلال طرق ندائها وأصواتها وصياحها ولغوها.

ويتخذ إسم "أمون" صيغة "أشمون" و"شومان" و"شامان" و"شمان". ويطلق إسم "شامان" لدى سكان بعض الأجزاء الآسيوية الشماليّة لدولة روسيا على الكاهن والعرّاف والسّاحر ويدعى هؤلاء السكان باسم "تونغز" وقد استعار العلماء كلمة "شامان" من لغة التّونغز وأطلقوها على الكهانة بصفة عامة في الدّراسات العلميّة المختصّة بحيث أنّ الكهانة في الدّراسات العلميّة المختصة تعرف باسم "شامانيسم" على غرار استعارة هؤلاء العلماء لكلمة "طوطم" من لغة بعض قبائل الهنود الحمر وإطلاقها على ظاهرة تقديس الحيوانات في صيغة "طوطميسم" وتطلق كلمة "طوطم" أو "توتم" على الحيوان المقدّس لدى هؤلاء الهنود الحمر وسبق أن شرحنا المعنى الحقيقي لظاهرة تقديس الحيوانات وأصل كلمة "طوطم".

وكانت الكهانة في شكلها المتداول لدى جماعة التّونغز تتمثل في التّعرف على الغيب بواسطة النّوم والحلم ومارستها بهذا النحو بعض القبائل البربريّة بمنطقة شمال إفريقيا والمغرب الأقصى بالذات وأشار البكري في كتابه "المسالك والممالك" إلى ممارستها في هذا الشكل عند القبائل البربريّة المذكورة وتتمثل في استلهام المعلومات وكشف الغيب بواسطة النّوم والحلم.

ففي هذا السياق أورد البكري في حديثه عن بلد قبيلة غمارة البربريّة بالمغرب الأقصى في عهده بجهة مدينة النّاظور على البحر الأبيض المتوسط غير بعيد عن مدينة سبتة أنّ عندهم قوما يعرفون بالرّقادة في واد يسمّى بوادي لو فكان يغشى على الرّجل منهم يومين وثلاثة فلا يتحرك ولا يستيقظ ولو بلغ أقصى مبلغ من الأذى ولو قطع قطعا, فإذا كان بعد ثلاثة أيام من غشيته استيقظ كالسكران ويكون يومه ذلك كالواله لا يتجّه إلى شيء فإذا أصحّ في اليوم الثاني أتى بعجائب ممّا يكون في ذلك العام من خصب أو جدب أو حرب أو غير ذلك وهو ما كان يفعله الشامان أو الكهنة عند جماعة التونغز المذكورين والعديد من الجماعات الأخرى المنتشرين في مختلف بقاع الأرض.

كما ذكر البكري أنّه كان في بلد غمارة أيضا رجل معه عِدْلٌ مملوء برؤوس الحيوان وأنيابها من برّيها وبحريها قد نظمها في حبل واتّخذها كالسّبحة فإذا سأله أحد عن شيء من الغيب وما هو كائن قلده تلك السبحة وعلّقها في رقبته ثمّ يقلقلها وينتزعها ويجعل قطعة قطعة إلى أن يمسك في يده ما أمسك منها ثمّ يشرع يخبره أمره وما الذي سأله عنه وعمّا يدور له من مرض أو موت أو ربح أو خسارة أو إقبال أو إدبار.

وظهرت في العرب في الجزيرة العربيّة في القديم العديد من الكهان والسحرة والعرّافين من الجنسين حسبما نقلته كتب التاريخ العربيّ منهم كاهن مشهور إسمه سطيح من قبيلة غسان ويسمّى سطيح الغسّاني ويروى عنه أنّه تنبأ بظهور النبيّ محمد وكاهن آخر مشهور أيضا إسمه شق من قبيلة أنمار ويسمّى شق الأنماري ويطلق إسم شق في العربيّة على الواحد من الجن ومنهم أيضا كاهنة إسمها طريفة يحكى بشأنها أنّها تنبأت بنزول سيل العرم بمملكة سبأ باليمن في جنوب الجزيرة العربيّة وكان من نتائجه حسبما كان العرب يتناقلونه من

أخبار إنهيار سدّ مأرب وسمّي السدّ بهذا الإسم نسبة إلى الموقع أو المدينة التي كان مقاما بقربها حسب الأخبار المذكورة, وأفضت الواقعة إلى هجرة العديد من القبائل العربيّة التي كانت تسكن باليمن إلى أجزاء أخرى من الجزيرة العربيّة وما جاورها من البلدان.

ففي هذا السياق ذكر البكري في كتابه "المسالك والممالك" أنّ أوّل من تنبّأ بنزول سيل العرم هو الكاهن سطيح الغساني المذكور وحدث هذا السيل في زمن ملك من ملوك سبأ إسمه عمرو بن عامر مزيّقيا وكان سطيح فيما يبدو أخاه كما كان له أخ آخر كاهن أيضا إسمه عمران وكانت تعيش في مملكته الكاهنة طريفة فكان سطيح وعمران وطريفة ينذرون عمرو مزيقيا بأنّ سيلا عرمرما سينزل ويهدم سدّا عظيما كان ملوك سبأ شيدوه لجمع مياه السيول والسيطرة عليها واستغلالها لري البساتين فكانت أرض سبأ أخصب أرض اليمن وأثراها وأعذقها وأكثرها جنانا وغيطانا وأفسحها مروجا.

فكان عمرو مزيّقيا يقول لطريفة الكاهنة وما آية ذلك, فتقول له إذا رأيت جرذا يكثر بيديه في السّد الحفر ويقلّب برجليه الصّخر فاعلم أنّ قد قرب الأمر, وكان عمرو يحرس السدّ حتى رأى به يوما جرذا يقلب بيديه صخرة ما يقلّبها خمسون رجلا فأجمع على الخروج من سبأ وأخبر الناس بسيل العرم فأجمعوا على الجلاء وخرجوا واتّجهت كل قبيلة من القبائل العربيّة التي كانت تسكن باليمن إلى مكان من الجزيرة العربيّة وما جاورها من البلدان وتوجه الأوس والخزرج بالخصوص إلى مدينة يثرب وهي التي تسمّى اليوم بالمدينة المنوّرة حيث هاجر إليها النبيّ محمد ومات ودفن فلأجل ذلك سمّيت باسم المدينة المنوّرة وذهب عمرو بن عامر وجمع من أولاده إلى عمان شرقي اليمن.

كما ظهر في العرب في القديم الكثير من السحرة والشعراء والحكماء والعرّافين, واشتهر من هؤلاء العرافين العرب واحد إسمه رياح بن كلمة كان يشتغل في اليمامة بجنوب الجزيرة العربيّة أيضا وهو الذي يقول فيه أحد الشعراء :

"فقلت لعرّاف اليمامة داوني فإنّك إن داويتني لطبيب"

فالكهانة والسّحر وملكة كشف الغيب كانت في الأصل تتمثّل في حفظ المعارف والفنون المكتسبة عن طريق النّقل والتعليم والتلقين وأشرنا إلى أنّ الغيب يرمز إلى الماضي وعلى هذا الأساس فإنّ ملكة كشف الغيب تعني في حقيقة الحال الإطّلاع على معارف وفنون الآباء والأجداد وحفظها وتلقينها وتعليمها إلى الآخرين على غرار قصة الشاب وأبيه في الخرافة الشعبيّة الآسيويّة المذكورة في الفصل السابق, فقد رأينا في الخرافة المذكورة أن الشاب كان يتلقى من أبيه المختفي في بعض الأماكن طرق معالجة العاهات التي كانت تصيب حيوانات القرية وأشجارها دون علم الآخرين وذكرنا أنّ الآلهة وما شابههم من الكائنات يرمزون إلى الطبقات الأولى من البشر وكان هؤلاء الناس الأوائل هم الذين روّضوا الطبيعة بالمعنى المحسوس والمادّي للكلمة كتدجين بعض الحيوانات وهم الذين اكتشفوا أسرارها وإمكانياتها كإشعال النار بواسطة حكّ عود من الحطب على عود آخر بحيث أنّ الإطّلاع على الغيب يعني في الأصل الإطّلاع على هذه المعارف والفنون المحسوسة وامتلاكها وحفظها ورأينا أنّ الجماعات كانت منغلقة على بعضها بحيث أنّ المستعمرين الجدد لموضع من المواضع ولبقعة من بقاع الأرض يجهلون كلّ شيء عن الجماعات الذين سبقوهم إلى تلك المواضع والبقاع فيحصل بين الطرفين تبادل للمعارف وكان البعض من الأقوام يمتنعون عن تمكين الغرباء والأجانب من معارفهم وفنونهم

فكان الآخرون يتجسّسون عليهم ويحاولون الوصول إلى معارفهم والإطّلاع على أمورهم فظهر نتيجة لهذا الوضع الإعتقاد في ما يسمّى باستراق السمع ويتمثل في الإعتقاد بأنّ الشياطين والجن يصعدون إلى السماء ليتجسّسوا على ما يجري فيها ومعرفة أخبارها.

وذكرنا بأنّ السكان الأوائل والأصليّين لموضع من المواضع يسمّون باسم الجن فكان البعض من القادمين الجدد ينجحون أحيانا في ربط بعض العلاقات الوديّة مع هؤلاء السّكان الأوائل والإطّلاع على بعض معارفهم وفنونهم ثمّ إنّه يخبر بها قومه ويعلمهم سرّها مشيرا أنّه تلقاها وتعلمها من عند الجنّ بمعنى من عند السكان الأوائل للموضع الذي نزل فيه قومه.

كما أشرنا إلى أنّ تعليق التمائم هو طريقة من طرق التّعريف بهويّة الأشخاص وتشبه الوشم والوسم والأشر بحيث أنّ التمائم هي في الأصل حبال وأشرطة وسيور مفتولة من الجلد ولحاء الأشجار وغيرها من المواد كان يشدّ بها الأسرى والعبيد من رقابهم ومن الخلف والأمام كما يقال ريثما يحسم أمرهم بوجه من الوجوه ثمّ أصبحت مجرّد سيور في شكل عقود وسبحة تعلّق على رقبة الأسير والعبد والتّابع بصفة عامة جريا على العادات الموروثة بينما تقيّد ساقاه بقيد متين من الحديد وغيره بعد وسمه ووشمه وأشره على بدنه بخاتم سيده إشارة إلى استعباده.

ورأينا أنّ هذه السّيور والحبال كانت تعقد وتحكم عقدها بشتى المواد كالحجر والأصداف والأسنان والعظام فكان الحبل الواحد يستعمل لشدّ عدد من الأسرى والعبيد مع عقد عقدة لكل أسير وعبد فكان الذي أسرهم واستعبدهم يأخذ منهم كلّ مدّة أسيرا وعبدا ويرى فيه رأيه فأصبحت هذه العقد عادة وصار السيد

يأخذ الأسير والعبد الواحد ويشدّ حول رقبته حبلا معقودا وبه عدد من العقد فكان كلّ مدّة يحل عقدة حتى تنتهي كل العقد فيأخذ ذلك العبد والأسير ويرى فيه رأيه فلأجل ذلك تتخذ التمائم أحيانا شكل القلادة والسّبحة المتألفة من الأحجار والأصداف والأسنان والعظام كما أنّها تتخذ العديد من الأشكال الأخرى لكنّها كانت كلّها في الأصل طريقة للتعريف بالهويّة.

فعلى غرار ما ذكرناه بخصوص الأشكال التي تتخذها رسوم الوشم والوسم والأشر على بدن الأسير والعبد والتّابع كانت كل جماعة وكلّ قبيلة تمتلك تمائم لها شكل خاص ومحتويات خاصّة يعرف الآخرون من خلالها أنّ الشخص الذي يحملها ينتمي إلى الجماعة الفلانيّة والقبيلة الفلانيّة والأسرة الفلانيّة حيث أنّ تمائم نموذجيّة كانت تحمل أيضا من طرف الأسياد مثل الخواتم التي يستعملونها لوشم ووسم أسراهم وعبيدهم وأتباعهم.

فقد كان العبد يرتقي إلى رتبة العون فيصبح نائبا لسيّده وممثله والحاكم بأمره ويرتقي بدوره إلى منزلة السيد وتصبح التمائم التي كان يحملها شبيهة بأختام الوسم والوشم يعلقّها على عبيده والتابعين له وعلى التابعين لسيده الأصلي فيستمّر في حملها ويستعملها للتعريف بهويّة خدمه وعبيده وأتباعه وبهويّة خدم وعبيد وأتباع سيده.

كما أشرنا إلى أنّ الأسرة والعائلة الإنسانيّة ظهرت نتيجة للأسر والسّبي والتقريد والتدجين والترويض بحيث أنّ الزوجات والأبناء كانوا منذ البداية يعتبرون عبيدا وتابعين لرئيس الأسرة وعلى هذا الأساس فإنّ تعليق التمائم وما سبقه من وشم ووسم وأشر وقيد وربط وعقل ظهرت مع ظهور الإنسان في المعنى الذي شرحناه ونقصد بذلك أنّ الإنسان كان يعني في الأصل البشر

المدّجنين وأفراد الأسرة والأهل والآل مقارنة بالبشر الآخرين الذين لا ينتمون إلى الأسرة والأهل والآل.

فكانت هذه التمائم تساعد على التعريف بهوية الذين يحملونها وعلى حمايتهم أيضا من عبث الآخرين لأنّ الآخرين يعلمون بفضلها وبواسطتها بأنّ من يحملون تلك التمائم هم ملك خاص ينبغي إحترامه وأنهم ينتمون إلى السيد الفلاني أو الجماعة الفلانيّة فيمتنعون عن الإعتداء عليهم مخافة إثارة غضب أصحابهم والتّعرض إلى بطشهم في حال الإعتداء عليهم فكانت هذه التمائم كالحدود الترابيّة والشارات التي تعلق على الأشجار لإعلام الناس بأنّ ذلك المكان ملك خاص له قدسيته وحرمته ويتعيّن إحترامه.

فقد كانت هذه التمائم بمختلف أنواعها بمثابة بطاقات التعريف والهوية وجوازات السفر المستعملة اليوم للتعريف بهوية الأشخاص وبالأقطار والجنسيّات التي ينتمون إليها.

ففي هذا السياق ذكرت كتب التاريخ العربي أنّ جواز أهل مكة ومن كان في حلفهم في القديم كان لحاء شجر الكعبة وحرمها فكانوا يعقدونه في أعناقهم أو في أعناق إبلهم ليكون علامة على أنّ حامله من قريش أو من قوم لهم عهد وعقد معهم فلا يتجاسر أحد على التّحرش بهم.

وفي هذا السياق نشير أنّ موقعا بالقرب من مدينة القيروان بوسط البلاد التونسيّة يحمل إلى اليوم إسم رقادة الذي يطلق على الكهّان والعرّافين عند جماعة غمارة وكان يوجد بمنطقة القيروان موقع يسمّى باسم الأصنام مثلما أشرنا إلى ذلك في تحاليلنا المتقدّمة وهو الذي يعنيه أحد الشعراء القدماء في قوله :

"صنعت صنيعا ضاع في آل عامر   كما ضاع في الأصنام وادي زرود"

ولا ريب أنّ الموقع كان مقدّسا ومخصّصا لبعض الآلهة والكائنات الغيبيّة التي كانت تحظى بالتّعظيم بصفة عامة قبل الفتح الإسلامي وظلّ الموقع محتفظا بقداسته بعد بناء القيروان ومسجدها من طرف العرب المسلمين.

وجاء في كتاب "المسالك والممالك" للبكري أنّ سبب تسميّة موقع رقادة بالقرب من مدينة القيروان بهذا الإسم أنّه لم يكن بتونس أعدل هواء وأرّق نسيما ولا أطيب تربة من مدينة رقادة, فصادف أنّ أحد ملوك بني الأغلب الذين حكموا القيروان في القرن التاسع الميلادي أرق وشرد عنه النوم أياما فعالجه طبيبه فلم ينم فأمره بالخروج والمشي فلما وصل إلى موضع رقادة نام فسميّت يومئذ رقادة.

فقد كان الكهان والسّحرة في المجتمعات القديمة والمجتمعات الوثنيّة عموما يعيشون في المواضع المقدسة وفي المعابد المخصّصة للآلهة بحيث كان الكهان والسّحرة هم القائمون على الشعائر الدينيّة والساهرون على شؤون المعابد والمواقع المقدسة فكانوا يمثلون نوّاب الآلهة والواسطة أو حلقة الوصل بين الآلهة والبشر.

فكانت الأعمال السحرية من مشمولات الكهنة الذين كانوا أيضا سحرة ولأجل ذلك فإنّ الكاهن والساحر وكذلك الشاعر يرمزون في الأصل إلى شيء واحد وحقيقة واحدة باعتبار أنّ الأشعار القديمة كانت مخصّصة لصياغة الأساطير المقدسة وحفظها وتلاوتها وسردها في هذا القالب وكان الكهان وأعوانهم هم الذين يقومون بتلاوة الأساطير وسردها في بعض المناسبات.

ورأينا أنّ الأعمال السّحريّة كانت تتمثل في الأصل في أفعال وأعمال طبيعيّة ومحسوسة مثل العمل السحري المتعلق باستحضار الجن بواسطة البخور وإشعال النار وإحراق الجاوي وغيره من المستحضرات النباتيّة والحيوانيّة, فقد ذكرنا أنّ الجن في هذه الحالة يرمزون إلى الأهل والأصحاب والأعوان في حين يرمز إشعال النار وإحراق الجاوي والمستحضرات النباتيّة والحيوانيّة إلى إشعال النار وإثارة الدّخان للتّخاطب عن بعد فكان الأشخاص الذين يبعثون كطلائع مثلا يقومون بإشعال النار وإحراق أغصان الأشجار الطريّة وما شابهها لإثارة الدخان وإعلام أصحابهم وأهلهم بمكان وجودهم وبما رأوا وشاهدوا حسبما جرى الإتّفاق عليه.

وكان السيّد يعتمد هذه الطريقة أيضا لتوجيه أعوانه من بعد وإطلاعهم بما يريد أن يفعلوا فكأنه بهذه الصورة يستحضرهم ويعطيهم أوامره ومازالت هذه الطرق مستعملة إلى اليوم سواء بواسطة النار والدخان أو بواسطة وسائل التخاطب عن بعد المستحدثة بحيث أنّ الفكرة الأساسية واحدة وهي التّخاطب عن بعد بواسطة بعض الوسائل الملائمة.

فالسحرة الذين يقومون باستحضار الجن في العهود المتأخرة يقلّدون هذه الأعمال الطبيعيّة والمحسوسة التي كان الأسلاف والأجداد يقومون بها في بعض المواقف والمناسبات لكن الأعمال التي يقوم بها السحرة أصبحت أعمالا في غير محلها وتجرّدت من محتواها الأصلي ويشبه فعل السحرة في العهود الأخيرة التخاطب والتحدث بلغة قديمة كانت مستعملة من طرف بعض الجماعات البشريّة في الماضي ولكنّها لم تعد مستعملة أو إنّ محتواها تغيّر تماما وبالفعل فإنّ السحرة في العهود الأخيرة يتكلّمون أحيانا أثناء أعمالهم السحرية بكلام غير مفهوم ويتمتمون ويقومون بحركات غريبة.

فهذا الكلام الغريب الذي يتكلم به السحرة هو جمل وعبارات من لغات قديمة كانت قائمة ومستعملة ثمّ اضمحلت وتغيّرت وكذلك الشأن بالنسبة للحركات الغريبة فإنّها كانت حركات مفيدة ذات معنى حسّي معلوم في وقتها وعند أهلها الذين كانوا يقومون بها في بعض المناسبات بغرض التعبير بواسطتها عما يجيش بخاطرهم من أفكار ثمّ ضاع معناها الحقيقي كما ضاع المعنى الحقيقي للأعمال السحريّة والمعنى الحقيقيّ للسحر والكهانة وعبادة الآلهة والأساطير والخرافات الشّعبيّة والمعتقدات الغيبيّة عموما.

وفي حقيقة الحال فإنّ ضياع المعنى الحقيقي للأساطير والمعتقدات الغيبيّة عموما يعود إلى سوء فهم الناس للمعنى الحقيقي للأساطير والمعتقدات الغيبيّة بحكم الخلط الطبيعي بين الأشياء الحاملة لأسماء واحدة بالأساس، فقد سبق أن أشرنا في هذا السياق إلى أنّ الناس بما فيهم العلماء أساءوا فهم الأساطير التي تتحدّث عن أصل بعض الحيوانات لأنّهم ظنوا أنّ هذه الحيوانات هي الحيوانات الحقيقيّة بينما هي ترمز إلى أقوام من البشر عاشوا في قديم الزمان وكانوا يحملون أثناء وجودهم فوق الأرض أسماء هذه الحيوانات تعبيرا عن وضعيتهم الطبيعيّة والاجتماعية وعن بعض الصفات والخصال البشريّة المميّزة لهم بحيث أنّ سوء الفهم نتج عن المزج والخلط بين أشياء تحمل أسماء واحدة.

ففي هذا السياق يتداول السكان في تونس مثلا شعبيا مضمونه أنّ كلّ ما هو مستدير ليس بالضرورة كعكًا.

فقد أطلق الناس الأوائل إسما واحدا على العديد من الأشياء معا لأنّ هذه الأشياء تتشابه بوجه من الوجوه أو لأنّها كانت مرتبطة ببعضها إرتباطا وثيقا في

المكان والزمان غير أنّ الأجيال المتأخرة من الناس إختلط عليهم الأمر فنتج عن هذا الخلط والمزج سوء فهم المعنى الحقيقي للأساطير والمعتقدات الغيبيّة وتحميلها مرامي ومقاصد أخرى تتسم بطابع الخلط والإنحراف التّام عن المرمى الأصليّ.

الفصل السادس

مجموعة نادرة من الأساطير التونسيّة

نورد في ما يلي في ختام هذه السلسلة من البحوث النظريّة مجموعة من الأساطير التونسيّة التي يحكيها السكان في مختلف جهات البلاد التونسيّة مع تذييلها ببعض الملاحظات.

وتتعلّق الكثير من هذه الأساطير بتأسيس الأسر والمدن والأحياء البشريّة وزوالها وبالعديد من المواضيع الأخرى التي تناولناها بالدّرس المعمّق في تحاليلنا المتقدّمة.

أسطورة المزوّقة

يحكي السكان في جهة بنزرت بشمال البلاد التونسيّة أسطورة حول أصل بحيرة بنزرت ومدينة منزل عبد الرحمان المحاذية لها مفادها أنّ كامل هذه المنطقة بما فيها بحيرة بنزرت وبحيرة إشكل التي تصبّ فيها كانت تحمل قديما إسم المزوّقة نسبة إلى أميرة بهذا الإسم عاشت في العهود الغابرة بهذه المنطقة وتملكت بها إثر هزّة أرضيّة عنيفة غيّرت وجه المنطقة من أساسه.

فقد جاء في هذه الأسطورة أنّه كان يوجد في جهة بنزرت في قديم الزمان وسالف العصر والأوان ملك عظيم الشأن إسمه زرت يحكم في مدينة كبيرة كانت قائمة بالمكان وكانت له إبنة في ريعان الشباب فائقة الحسن والجمال فسمع بها أحد الملوك المجاورين فبعث يخطبها من أبيها الملك زرت لنفسه غير أنّ البنت كانت تعشق شابا من الرّعاة إشتهر بجماله وببراعته في الغناء والتشبيب على آلة القصبة فلمّا عرض عليها أبوها رغبة جارهم الملك في الزّواج منها رفضت وأمام إلحاح أبيها عليها وغضبه من رفضها لمثل هذا العرض الملكي عزمت على الهروب والإختفاء في الغابات المجاورة ريثما تهدأ سورة أبيها وكي لا تتوه في الغابة ويضيع عليها طريق المدينة فكّرت في وسيلة تمكّنها من الإهتداء إليه فرأت أن تنثر عليه الزّواق وهو خليط من التراب والرّماد والجير فصنعت شيئا من الزّواق ووضعته في كيس وفرّت لا تلوي على شيء وفي طريقها فتحت الكيس المملوء بالزّواق وتركت محتواه يسقط على الأرض فرسم خطا متواصلا على طول الطريق التي سلكتها الأميرة وبقي منه شيء احتفظت به معها فعُرفت الأميرة إثر ذلك باسم المزوّقة.

غير أنّ والدها تشبّت بموقفه وكانت المزوّقة ساحرة فلما أعياها أمر أبيها أخذت الزّواق الذي بقي في قاع الكيس وألقت به صوب مدينة أبيها فحدثت رجّة أرضيّة عنيفة وانشقت الأرض وبلعت مدينة الملك زرت بمن فيها وظهر مكانها بحيرة كبيرة حملت إسم المزوّقة نسبة إلى الأميرة المزوّقة وكذلك إسم بنزرت باعتبار أنّ الأميرة المزوّقة هي بنت زرت.

ثمّ إنّ الأميرة المزوّقة أسست مدينة جديدة على ضفاف البحيرة التي ظهرت بفعل سحرها وعمّرتها وحكمت فيها إلى أن ماتت هي وقومها وأفناهم الدّهر.

تعليق :

تشبه أسطورة المزوّقة التونسيّة في العديد من الوجوه القصص والأخبار التي كان العرب في الجزيرة العربيّة يتداولونها في القديم حول سيل العرم وسدّ مأرب باليمن وأثبتها المؤرخون العرب في كتبهم وخاصة في ما يتعلق بأسماء الأشخاص الذين كانوا أطرافا في أحداث حكاية المزوّقة والأخبار المتعلّقة بسيل العرم.

وسبق أن سقنا ملخّصا للأخبار المتعلّقة بسيل العرم في تحاليلنا النظريّة المتقدمة بمناسبة الحديث عن الكهانة والسحر والعرافة.

فقد كان العرب في القديم يحكون أنّ مملكة سبأ بأرض اليمن بجنوب الجزيرة العربيّة تعرّضت في غابر الزمان إلى سيل عرمرم غمر مدنها بمائه ودمّر السدود التي أقامها ملوكها للتحكم في مياه السيلان واستعمالها للريّ ومنها بالخصوص سدّ مأرب نسبة إلى المدينة التي كان مقاما بالقرب منها فتحوّلت بلاد سبأ إلى جنة خضراء على وجه الأرض بفضل هذه السّدود وتداول عليها الكثير من الملوك إلى أن انتهت الرئاسة فيها إلى ملك إسمه عمرو بن عامر

ويلقب بعمرو مزيقياء وهو عمرو بن عامر بن ماء السماء بن حارثة الغطريف بن ثعلبة بن إمرئ القيس بن مازن بن الأزد بن الغوث بن كهلان بن سبأ.

فكانت أرض سبأ أخصب أرض اليمن وأثراها وأغدقها وأكثرها جنانا وغيطانا وأفسحها مروجا مع بنيان حسن وشجر مصفوف ومصارف للماء متكاثفة وأنهار وأزهار وكانت تمتد على مسيرة أكثر من شهر للراكب المجدّ في العرض والطّول وكانت سمة الذي يمتلك البلد مأرب واشتهر البلد باسمه وقيل إنّ مأرب كان قصرا لملوك سبأ وقيل كانت حاضرة ملكهم.

وكان لعمرو مزيقياء أخوان كاهنان إسمهما سطيح وعمران كما كانت تعيش بمملكته إمرأة كاهنة إسمها طريفة فأخبرته بأنّ سيلا عرما سيكتسح مملكة سبأ ويهدم سدّ مأرب ويغمر مدنها وقالت له سيقع ذلك إذا رأيت جرذا يكثر بيديه في السدّ الحفر ويقلب برجليه الصّخر فاعلم أنّه قد اقترب الأمر وكان عمرو مزيقياء يحرس السدّ حتى رأى به يوما جرذا يقلب بيديه صخرة ما يقلّبها خمسون رجلا فأجمع على الخروج من سبأ وبيع ماله وأعمل الحيلة حتى لا ينكر الناس ذلك منه وتفاهم مع إبنه في الأمر فصنع طعاما ودعا إليه أهل مأرب فتظاهر إبنه بأنّه يجادله وينازعه الحديث ويردّ عليه مثلما إتّفق مع أبيه على ذلك فتشاتما وحلف عمر أن لا يقيم ببلد صنع به ذلك فيه فجعل يبيع أمواله فانطلت الحيلة على الناس وتواصوا بأن يغتنموا غضبه ويشتروا منه أمواله فلما اجتمع لعمر ثمنها أخبر الناس بسيل العرم فاجمعوا على الجلاء وكان بمملكة سبأ أنذاك الكثير من القبائل العربيّة فانتشرت في البلدان المجاورة وحصل السيل وتكسّر سد مأرب وغمرت المياه مملكة سبأ.

كما تجدر الإشارة في هذا المجال أنّ البلاد التونسيّة كانت تسمى قديما باسم مزاق, فقد ورد هذا الإسم مثلا في أشعار للقاضي التونسيّ عبد الرحمان

بن زياد بن أنعم من علماء القرن الثاني للهجرة, قالها وهو في العراق وقد اشتاق إلى العودة إلى القيروان وبلاده تونس, وهي :

"ذكرت القيروان فهاج شوقي وأين القيروان من العراق

مسيرة أشهر للعير نخّـــــا وللخيل المضمّرة العتـــاق

فبلغ أنعما وبنى بنيـــــــه ومن يرجى لنا وله التّلاقي

بأنّ الله لو خلّى سبيلـــــــى لجدّ بنا المسير إلى مزاق"

فاسم مزاق في هذه الأبيات يعني البلاد التونسيّة التي كانت تسمّى أيضا باسم إفريقيّة.

كما أنّ الأهالي بجهة جربة وجرجيس يروون أسطورة شبيهة تنقل بأنّ خليج بوغرارة أو الزّقاق البحري الموجود حاليّا بين جزيرة جربة والبرّ المجاور لها ظهر في قديم الزمان بصورة عجيبة بفعل إله البحر وقد جاء لنجدة حورية من حوريات البحر استغاثت به وقت الشدّة.

وتروي هذه الأسطورة أنّ الزقاق البحري الموجود حاليا بين جزيرة جربة والبرّ المجاور لها كان في القديم أرضا يابسة تصل جزيرة جربة بالبرّ وكان يوجد فوق تلك الأرض مدينة كبيرة يحكمها أمير مستبدّ له جيش عظيم من المرتزقة يستعين بهم لقهر الناس فقدمت ذات يوم حورية من حوريات البحر تتجول بالقرب من جربة على ظهر حسناء من حسان البحر نصفها إنسان

ونصفها سمك فرأى أمير المدينة تلك الحورية فافتتن بجمالها وطلب منها أن تصبح زوجته فرفضت فاستعمل معها القوّة وأمر أعوانه باختطافها وحبسها في قصره مع حريمه فاستغاثت الحورية بإله البحر فلبّى دعاءها وأمر مياه البحر أن تغمر المدينة بمن فيها فغمرتها وتحولت المدينة والأرض التي كانت قائمة عليها إلى بحر متلاطم الأمواج هو الزقاق البحري الموجود إلى الآن بين جزيرة جربة والبر المجاور لها وتحوّلت جربة إلى جزيرة يحيط بها ماء البحر من كل جوانبها.

ووردت في الكتاب العربي المعروف باسم "ألف ليلة وليلة" في حكاية التاجر والعفريت قصة مدينة سحرتها ملكة ساحرة وحوّلتها إلى بحيرة ومضمونها أنّ صيادا تعرّف على عفريت فأرشده إلى بركة ماء فيها سمك عجيب على أربعة ألوان أبيض وأحمر وأصفر وأزرق فاصطاد منه شيئا وأهداه لملك المدينة التي يسكن فيها فإذا به سمك مسحور فقرّر الملك استقصاء الخبر فذهب إلى البركة ووجد بقربها قصرا فدخله فوجد في إحدى غرفه شابا وسيما راقدا في فراش ونصفه الأسفل حجر فأعلمه الشاب بأنّ زوجته هي التي سحرته وفعلت فيه ذلك الفعل وأخبره بأنّ البركة التي جاء يبحث عن سرها كانت في الأصل مدينة عامرة وأنّه ابن ملك تلك المدينة فتزوج من إبنة عمّه وكانت ساحرة فخانته وربطت علاقة حبّ مع عبد أسود وعشقته واستسلمت له تماما فلما تفطّن لخيانتها أراد قتلها وقتل العبد معها فضرب العبد بسيفه ومال إليها ليقتلها فتكلمت بكلام سحريّ فجمد في مكانه وتحوّل نصفه الأسفل إلى حجر ثمّ إنّها سحرت المدينة وحوّلتها إلى بركة ماء وسحرت سكانها إلى سمك على أربعة ألوان أبيض وأحمر وأصفر وأزرق ولكنّ العبد لم يمت من ضربة الأمير وإنّما أصابه جرح بليغ فجعلته المرأة في قبة واهتمت بعلاجه وإمعانا في تعذيب زوجها الشاب كانت كلّ يوم تجلده بالسوط فاحتال الملك وأتى إلى العبد في قبته

في غياب المرأة وقتله وأخذ مكانه فلمّا تقدّمت المرأة لعلاجه تظاهر بأنّه تعافى ففرحت المرأة غير أنّه إلتفت إليها وطلب منها أن تعيد بركة الماء كما كانت والشاب كما كان بذريعة أنّ صراخ الشاب تحت ضرب السوط يزعجه وأنّ سمك البركة يقوم في الليل ويدعو عليه فأخذت طاسة ماء وتكلمت عليها بكلام سحريّ فصار الماء يغلي كما تغلي القدر فرشته فعادت البركة كما كانت أوّل مرّة مدينة عامرة وعاد الشاب كما كان سليما معافى فباغتها الملك من وسط القبة وأغمد فيها سيفه فماتت ورجعت الأمور إلى حالها والمياه إلى مجاريها.

ويدخل في هذا الإطار أيضا قصّة خراب مدينة طروادة التي تحدّثت عنها الملاحم اليونانيّة القديمة والتي أشرنا إليها في بحوثنا النّظريّة حيث توجد الكثير من الحكايات حول الظروف التي حفّت بخراب هذه المدينة الأسطوريّة منها القصّة التي تقول إنّها خربت إثر حرب طويلة شنّها عليها حلف من الملوك اليونانيين وهناك أيضا قصة أخرى تقول إنّ هذه المدينة تعرّضت أيضا في بداية تأسيسها إلى فيضان وطوفان عظيم أغرقها بمن فيها وسببه أنّ الإله بوسايدون إله البحار والأنهار عند اليونانيين القدماء ساعد ملكها في بناء أسوار المدينة مقابل كميّة من الذّهب فلمّا تمّ بناء الأسوار أنكر ملك طروادة وعده فعاقبه إله البحار والأنهار فأهاج البحر فثارت مياهه وأحاطت بأسوار المدينة وأغرقتها ثمّ أجبر ملكها على تسليم إبنته لتنّين بحريّ كان يعيش بجوارها فسلسل ملك طروادة إبنته في صخرة بشاطئ البحر ليأخذها التنّين فجاء البطل اليوناني هرقلس مع بعض الرّفاق فخلصّها من براثن التنّين مقابل عدد من الجياد الأصيلة كانت بحوزة ملك طروادة فأخلف وعده مرّة أخرى فأعلن هرقلس عليه الحرب وهزمه واستولى على مدينة طروادة وأهدى إبنة الملك لأحد رفاقه.

وكانت الشعوب الإنسانيّة في القديم تتناقل مجموعة من القصص التي تحكي بأنّ الأرض بأسرها تعرّضت في بداية الوجود الإنساني إلى طوفان كبير غمرها وأغرق من فيها ووردت قصّة الطوفان الكوني في عدد من الأساطير والملاحم التي كان البابليّون وسكان العراق في القديم بصفة عامة يروونها ووجد المختصون البعض من نصوصها مثبتة في الآثار المكتوبة التي تركها سكان العراق في القديم في اللغات التي كانوا يتكلمونها وترجمها هؤلاء المختصون إلى اللغات التي مازالت قائمة إلى اليوم كالعربيّة والفرنسيّة والأنقليزيّة.

ووردت في أسطورة أتراهازيس البابليّة التي تحدثنا عنها في بحوثنا النّظريّة إشارات صريحة إلى هذا الطوفان الكوني كما تحدّثت عنه باسهاب ملحمة بابليّة قديمة اسمها ملحمة كلكامش أو جلجامش نسبة إلى إسم بطلها وسبق أن أشرنا إلى هذا البطل وسعيه إلى الحصول على نبات الحياة في بحوثنا النظريّة.

وملخص هذه القصص العراقيّة القديمة أنّ الآلهة غضبوا في بداية ظهور الإنسان على وجه الأرض على البشريّة فأغرقوا الأرض ومن عليها من البشر بطوفان وفيضان كبير من مياه الأمطار المسترسلة فهلكت البشريّة جمعاء ما عدا رجل صالح وزوجته أعانهما أحد الآلهة على النجاة من الطوفان فنصح الرجل الصالح بصنع سفينة وركوبها عندما يحدث الطوفان وعلمه كيف يصنع تلك السفينة فكان كذلك ونجا الرجل الصالح وزوجته ووهب لهما الآلهة الخلود وأعطوهما جزيرة وسط البحر ليسكنا فيها ويعمّرا الأرض من جديد بذريّة صالحة فتناسلا وعمّر أحفادهما الأرض من جديد وأسّسوا الممالك منها مملكة بالعراق القديم إسمها مملكة الوركاء وتنطق أيضا أوروك ويرى بعضهم أنّ إسم العراق مشتق من إسمها.

فحكم فيها في عهد من العهود الغابرة ملك إسمه كلكامش تعرّف على إنسان متوحش كان يعيش بمفرده في البريّة المجاورة للمدينة فقرّده كلكامش وروضه ودجنّه وجعل منه صديقا حميما فمات ذلك الرجل فحزن عليه كلكامش وأصابه غمّ شديد وخوف متزايد من الموت والفناء فتذكر أنّ جدّه الأول وهب الخلود رغم أنّه من البشر فقرّر أن يسافر إلى الجزيرة التي يسكن فيها ويطلب منه إطلاعه على سرّ الخلود فأخبره جدّه بأنّه نبات عجيب ينبت في قاع البحر المحيط بالجزيرة فأخذ منه كلكامش بعض الشيء وعاد إلى مدينته الوركاء فعطش في الطريق ووجد عين ماء أو بئرا فنزل إلى العين ليملأ الماء ويغتسل وترك أمتعته بالقرب من العين وفيها نبات الحياة فخرجت حيّة من حيّات البريّة فأكلت نبات الحياة وخرج كلكامش من العين فلم يجد لنبات الحياة أثرا ورأى من بعيد الحيّة بصدد أكله فصبر ورضي بمصيره كما وردت قصة شبيهة للطوفان الكوني بالتوراة في سفر التكوين وكذلك في القرآن في العديد من السور.

وكان اليونانيّون القدماء أيضا يروون أسطورة للطوفان الكوني شبيهة بقصّة الطوفان البابليّة.

وجمعنا في هذا السياق أيضا أسطورة تونسيّة يتداولها السكان في جهة قفصة حول أصل بركة موجودة بالمنطقة وتتكاثر فيها السلاحف بصفة خاصة ومضمونها أنّ هذه البركة ظهرت للوجود إثر دعاء مستجاب لأحد الأولياء الصالحين من أجل معاقبة بعض القوم الظالمين.

وتذكر هذه الأسطورة أنّ وليا من الأولياء الصالحين إسمه سيدي بوهلال كان يعيش منذ مدّة قرون في جبل قائم إلى الآن بين مدينة توزر ونفطة بالجريد بالجنوب التونسي وبه مقام مقدّس ينسب إلى سيدي بوهلال. وكان رجلا زاهدا وعالما صالحا سخّر نفسه للعبادة والذكر والإرشاد للبر والفلاح غير أنّه كان

متزّوجا بإمرأة شريرة فنزل عنده ذات يوم ضيف فطلب من زوجته أن تصنع لضيفه طعاما وجرت العادة في تونس أن يصنع للضيوف في مثل هذه المناسبة طعام محليّ يسمّى باسم الكسكسي وهو عبارة عن ذرات متماسكة من الدقيق المعجون بالماء بطريقة معروفة يصنع منها على حسب الحاجة ويوضع منها ما يملأ الصحن والقصعة وغيرهما من الأواني المعدّة للأكل ثمّ تسقى بالمرق باللحم والخضر وتقدّم للضيف. فقامت المرأة الخبيثة وملأت قصعة بالرّمل الذي يشبه الكسكسي تماما وغمرته بالمرق وقدّمت القصعة للضيف ولسيدي بوهلال فثارت ثائرة الوليّ لما تفطن للأمر وطلق زوجته ودعا عليها فتحوّلت قصعة الرمل إلى بركة الماء القائمة إلى اليوم بالقرب من مدينة قفصة وتحوّلت المرأة الشريرة إلى سلحفاة تعوم في تلك البركة. ويقول الأهالي أنّ السلاحف التي تعيش في هذه البركة هي من نسل المرأة الشريرة زوجة سيدي بوهلال.

كما تدخل في هذا الإطار أسطورة جزيرة أطلنطيس أو مدينة أطلنطيس التي تحدّث عنها الفيلسوف اليوناني القديم أفلاطون في بعض كتبه وقد عاش هذا الفيلسوف في القرن الخامس قبل الميلاد بمدينة أثينا ببلاد اليونان بالجزء الشرقي من منطقة البحر الأبيض المتوسط التابعة للقارة الأوروبيّة وتجول في العديد من البلدان المتوسطية الأخرى ومنها بالخصوص مصر حيث جمع فيها قصة مدينة أطلنطيس ومضمونها أنّه كان يوجد قديما في الجزء الغربي من الشمال الإفريقي المحاذي للمحيط الأطلسي جزيرة عظيمة آهلة بالسكان تدعى جزيرة أطلنطيس وبلغت شأوا كبيرا في الحضارة وفي القوّة الإقتصاديّة والعسكريّة جعلها تتوسّع على حساب جيرانها حتّى بلغت أساطيلها الشرق ودخلت في حروب دامية مع شعوب البحر الأبيض المتوسط وكان لها مع اليونانيين بصفة خاصة معارك طاحنة أبلى فيها اليونانيّون البلاء الحسن رغم التباين في ميزان القوى حيث أنّ المصريين حكوا هذه القصّة للفيلسوف أفلاطون ليعلموه بأمجاد أجداده الأولين

في هذا الموقف بالذّات لأنّ الأطلنطيين كانوا أعظم قوّة في العالم في ذلك الوقت ثمّ إنّ صروف الدهر أتت على جزيرة أو مدينة أطلنطيس فتعرّضت إلى هزّة أرضيّة عنيفة فغرقت في البحر وزال أثرها تماما من الوجود.

أسطـــــورة مـــــــاطوس

يوجد بجنوب البلاد التونسيّة بالقرب من مدينة رمادة في صحراء منطقة تطاوين موقع يسمّى بلسم ماطوس يروي الأهالي بخصوصه أسطورة مضمونها أنّ هذا الموقع الذي هو الآن مهجور كان في قديم الزمان مدينة عامرة بالسكان فتملك بها رجل مستبدّ كان يحكم في بعض القرى المجاورة تعرف باسم تطريف وسقدل والبريقة فاضطهد السكان وألحّ عليهم بالسلب والنّهب حتّى ضجّوا ولم يعرفوا لهم حيلة للتّخلص منه ففكر رجل منهم في الهروب والفرار بنفسه وبأهله فاتّفق مع إبنه على حيلة كي لا يتفطّن الحاكم إلى أمره فيسلبه أمواله فاجتمع مع

إبنه في سوق المدينة وتظاهرا أنهما يتخاصمان فلطم الإبن أباه أمام الناس فأقسم الأب أن يهجر ماطوس ويرتحل عنها إلى الأبد فباع أرزاقه ثمّ ارتحل مع أهله وترك في بيته حمارا وجديا وديكا وحمامتين إحداهما منتوفة الرّيش والأخرى بريشها وجعل في رقبة الحمامة المنتوفة رقّا كتب عليه"

"اللي طار في أول المشوار يمنع ويعيش

واللي قعد في أوهام الدّار لا هو بالمال
ولا هو بالريش"

وفهم الناس أنّ الرجل ينصحهم بالسير على منواله ومغادرة المدينة قبل أن يسلبهم الحاكم وينتف ريشهم حيث أنّ الصبر على الظلم لا تستسيغه إلا الحيوانات على غرار الديك والجدي والحمار, ففعلوا وبخروجهم بدأ الخراب يدب في المدينة.

تعليق:

نلاحظ في بداية هذا التعليق أنّ ماطوس هي في حقيقة الحال قبيلة بربريّة مشهورة تعرف باسم ماطوس وماطوسة ولها إلى اليوم فروع في مختلف بلدان شمال إفريقيا وتنتمي قبيلة ماطوسة إلى قبيلة نفوسة البربريّة التي كانت متمركزة قديما بمدينة صبراطة أو صبرة بليبيا وتنتميّ قبيلة نفوسة بدورها إلى جماعة البربر المعروفين باسم ماذغيس حيث أنّ البربر ينقسمون إلى فرقتين كبيرتين هما البرانس وماذغيس ويسمّون بالبتر ويقول المؤرخون العرب والمغاربة إنّ ماطوسة سمّيت بهذا الإسم نقلا عن إسم جدّها ماطوس وهو أحد أبناء نفوس, جد قبيلة نفوسة وهذا الأخير هو نفوس بن زحيك بن ماذغيس بن "مازيغ" ومازال قسم من البربر يسمّون أنفسهم إلى اليوم باسم "مازيغ" و"أمازيغ" و"أمازيغن".

وتشبه أسطورة ماطوس من حيث الأحداث قصّة سيل العرم وسد مأرب وخراب مملكة سبأ خاصة فيما يتعلّق بالحيلة التي احتالها عمر ابن عامر مزيقيا والرجل الماطوسي لتبرير قرارهما بالإرتحال ومغادرة الوطن ووجدنا أنّ حكايات شبيهة بأسطورة ماطوس التونسيّة مازالت متداولة إلى اليوم في أجزاء مختلفة من بلدان شمال إفريقيا وخاصة بالجزائر حيث يروي السكان بمنطقة جبال أوراس بالجزائر أسطورة شبيهة حول قصر خرب بالمكان يسمّى قصر باغاي.

ومضمون هذه الأسطورة أنّ باغاي الذي دعي القصر المذكور باسمه كان ملكا عظيم الشأن من ملوك البربر قبل دخول عرب بني هلال وبني سليم إلى شمال إفريقيا في القرن الحادي عشر الميلادي وما تبعه, وكان للملك باغاي سبع بنات منهنّ واحدة إسمها ماطوسة وأخرى إسمها خنشلة وثالثة إسمها شيحة ومازالت توجد بالمكان عين ماء إسمها عين ماطوسة.

وكانت بلاد باغاي غنيّة فكان الملك باغاي يرسل كلّ يوم إلى إبنته ماطوسة في فصل الصيف بغلة محمّلة بالتين فتسير البغلة بمفردها من قصر الملك باغاي إلى حيث كانت تسكن إبنته ماطوسة دون حارس يحرسها فتستقبل الأميرة ماطوسة البغلة وتفرغ حمولتها وتضع عوضها حملا من العنب وتأمرها بالسير فتنطلق البغلة وتعود بمفردها إلى قصر الملك باغاي محمّلة بالعنب, فقدمت البغلة ذات يوم إلى الملك بدون حمل العنب المعهود فأمر أعوانه باستقصاء الخبر فقصّوا آثار البغلة فوجدوا في نصف الطريق آثار جمال وعرفوا أنّ العرب دخلوا بلادهم فأعلموا الملك فقرّر الرحيل وأرسل إلى بناته يحثّهن على الهروب وقام من ناحيته فجمع أمواله وارتحل مع قومه وترك في قصره حمامة منتوفة الريش وحمامة بريشها فلمّا جاء بنو هلال وفتحوا الغرفة

التي كانت فيها الحمامتان, طارت الحمامة التي مازالت بريشها وبقيت الحمامة المنتوفة فأمسكوها فوجدوا حول رقبتها رقّا مكتوب فيه "طارت الحمامة المريشة فاكتفوا بالمنتوفة".

أسطورة المدينة الحمراء

يحكي السكان بجهة بنزرت أسطورة حول مدينة قديمة اسمها المدينة الحمراء كانت قائمة برأس الزبيب بجانب البحر قرب بحيرة بنزرت في المكان الذي تقوم فيه اليوم مدن منزل الجميل والعالية ورأس الجبل وقد زالت اليوم واندثرت وتشبه هذه الأسطورة في بعض جوانبها أسطورة المزوقة التي قدمناها في بداية هذا العرض وتقول الأسطورة أنّ أهل المدينة الحمراء أساءوا السّيرة وبغوا وظلموا الناس فأصابتهم هزّة أرضية كانت سببا في حصول فيضان عظيم غمر المدينة بمياهه العارمة.

فقد كان سكان المدينة الحمراء يعيشون من السّطو على الناس وقطع الطريق أمام المارّة والقوافل التّجاريّة وسلبهم ونهبهم فجمعوا أموالا طائلة وكنوزا عظيمة من الذهب والفضة وبنوا القصور الشاهقة والحدائق الفيحاء وانغمسوا في اللذّات والملاهي ونسوا الفرائض والواجبات وكان الناس يهابونهم ويتجنبونهم بقدر المستطاع راجين من العالي أن يكفيهم شرّهم.

وكان يعيش في مدينة بنزرت في ذلك الوقت رجل صالح اسمه محمد بن حمزة ماتت زوجته وتركت له بنتا في مقتبل العمر كانت فاضلة بقدر ما كانت جميلة اسمها حبيبة وكان له أخ بمدينة القيروان صالح مثله وله ذرّية صالحين مثله فلما تقدّمت بالشيخ محمد بن حمزة السنّ فكّر في الذهاب إلى مدينة القيروان ليقضي بقية أيامه بالقرب من أخيه ويزوج ابنته من أحد أولاده ليطمئن عليها في حياته غير أنّ المياه كثيرا ما تجري بما لا تشتهي السفن فاكترى قافلة وحمل عليها أمواله وخرج مع ابنته وبعض الخدم قاصدا القيروان فهجم أصحاب المدينة الحمراء على القافلة وساقوها بمن فيها إلى المدينة الحمراء فاستولى

قائدهم على ما فيها من أموال كما ضمّ البنت حبيبة إلى حريمه وأمر أصحابه بتعذيب الشيخ محمد فعذّبوه وصبّوا في عينيه زيت الخروع فعمى ثمّ ألقوا به في مزبلة خارج أسوار المدينة فوجده على تلك الحالة شاب من مدينة متلين كان يرعى الغنم فحمله إلى كوخه وعالجه حتّى استعاد قواه فحكى له ما جرى له مع أصحاب المدينة الحمراء فتطوّع الشاب لمساعدته وكان اسمه حسن ورأى الشيخ محمد بن حمزة في المنام كأنه يطير في الجوّ فأبصر بقبّة بيضاء فقصدها وأحسّ كأنّ ريحا هبّت على البحر فأهاجت مياهه فأصابت المدينة الحمراء واقتلعتها من أساسها وحملتها إلى داخل البحر مثل الزورق العائم.

وجدّت كلّ هذه الأحداث في عهد القائد العربي عقبة بن نافع الذي يرجع له الفضل في تأسيس مدينة القيروان لتصبح إحدى العواصم الاسلامية الكبرى فلمّا تعافى الشيخ محمد بن حمزة إستعان بالشاب حسن واستأنف رحلته إلى القيروان فوصلها سالما واستقبله أخوه وأكرم مثواه وكان اسمه البشير ثمّ إنّ الشيخ محمد بن حمزة اتّصل بالقائد عقبة بن نافع وأعلمه بما جرى له مع أصحاب المدينة الحمراء ووصف له بغيهم وظلمهم للناس فأعطاه القائد عقبة بن نافع خاتما كان النبيّ محمد أهداه لأبيه إثر بلائه الحسن في إحدى غزواته ضدّ القوم الكافرين وقال له إنّه سيحميه بإذن الله من شرّ الظالمين فلبسه الشيخ محمد بن حمزة في إصبعه وقفل راجعا إلى المدينة الحمراء ومعه الشاب حسن ونفر من الأنصار المؤمنين جمعهم له أخوه البشير.

ووصلوا إلى مشارف المدينة الحمراء فطلب الشيخ محمد بن حمزة من أتباعه انتظاره وذهب بمفرده إلى المدينة على جمله الذي جاء به من القيروان وطلب مقابلة قائد المدينة الحمراء وكان اسمه محمود بن بوبكر فقبض عليه أصحاب المدينة الحمراء وحملوه إلى قائدهم الذي عرفه فأمر بقتله فلمّا تقدّم

السّفاح من الشيخ محمد لتنفيذ أمر سيده فيه تدفّقت المياه فجأة بغزارة قويّة من جوف الأرض وغمرت المدينة الحمراء بمن فيها ومات الشيخ محمد بن حمزة معهم وقبل أن يعمّ الطوفان سائر المدينة هبّ جمل الشيخ محمد بن حمزة وعدا إلى القصر الذي كانت تقيم فيه حبيبة بنت الشيخ محمد بن حمزة وإختطفها من بين المياه ورماها فوقه وإبتعد بها مسرعا خارج المدينة فلم يصبها مكروه واستقبلها الشاب حسن وأصحابه الذين كانوا يتابعون المشهد من مكانهم وهنؤوها على سلامتها وعزّوا بعضهم في موت الشيخ محمد ثمّ إنّ الشاب حسن تزوّج حبيبة وأسّسا معا أسرة فاضلة كان لها شأن وذكر.

تعليق:

نشير في بداية هذا التعليق إلى التّشابه الذي يوجد بين أسطورة المدينة الحمراء وحكاية المزوّقة والحكايات الأخرى الشبيهة بها التي استعرضناها في التعليق الملحق بأسطورة المزوّقة حيث أنّها أغرقت بالماء بفعل دعاء مستجاب حتّمته الاختلافات في وجهات النّظر بين الأطراف المتدخلين في الأحداث.

وقد وجدنا في هذا السياق أنّ الكثير من المواقع في بلدان شمال إفريقيا تحمل اسم الحمراء والأحمر وبعض الأسماء التي تعادله في اللغة البربرية مثل اسم أمغات وأوراس وأروس وغالبا ما ينطق هذا الاسم الأخير في هذه البلدان في صيغة "عروس"بزيادة الصوت"عا" في بدايته, والملاحظ في هذا السياق أنّ لفظة "روس" تستعمل في بعض اللغات الأوروبية كالإيطالية والفرنسية في معنى الأحمر وتتخذ أيضا صيغة "روج".

فقد كان يوجد في الموقع الذي تقوم عليه اليوم مدينة مراكش بالمغرب الأقصى مدينة قديمة اسمها "أمغات" ومعناها الحمراء بالبربرية ويتركب اسم "أمغات" أساسا من الجذر "مغ" الذي يعني في البربرية التخضيب بالحناء وينتج

التخضيب بالحناء لونا أحمر داكن في المواقع المخضبة كاليدين والشّعر والقدمين بالنسبة للإنسان.

كما أنّ الكثير من المواقع في الجزائر وتونس تحمل اسم القصر الأحمر منها موقع بالقرب من مدينة جمنة بولاية قبلي بالجنوب التونسي كان يسمّى باسم القصر الأحمر وهو الآن مهجور واندرس القصر المذكور منذ مدّة طويلة ولم يعد له أثر غير اسم القصر الذي يطلق على الموضع.

وتشتمل منطقة شمال إفريقيا في الجزء الجنوبي الغربي منها على بلد معروف يدعى باسم الساقية الحمراء نسبة إلى واد بهذا الاسم يشقّ البلد المذكور وتحتل منطقة الساقية الحمراء منزلة خاصة لدى السكان في بلدان شمال إفريقيا حيث أنّها تعتبر الموطن الأول لمعظم الأولياء الصالحين الذين يعظّمهم السكان في هذه البلدان وخاصة في الجزائر وتونس وليبيا. فإنّ الكثير من السكان في هذه البلدان يقولون إنّهم أبناء وسلالة بعض الأولياء الصالحين الذين قدموا من الساقية الحمراء واستقروا بالمواضع التي يقيمون فيها فاستصلحوا أرضها وعمّروها وأسّسوا فيها الأسر والقرى ونشروا فيها الخير والصلاح.

ويوجد بولاية تطاوين بجنوب البلاد التونسية بئر يسمّى باسم بئر الأحمر كما يوجد بالشمال الغربي للبلاد التونسية مدينة تحمل اسم العروسة وذكرنا أنّ اسم "عروس" و"عروسة" يفيد معنى الأحمر والحمراء وأنّه صيغة لفظية لاسم "أروس" كما يوجد بولاية قفصة بالجنوب الغربي للبلاد التونسية مدينة تحمل اسم أم العرائس وكان يوجد بمدينة قابس قصر منيف اسمه قصر العروسين كما أنّ بعض الأشخاص في تونس يحملون اسم الأحمر وعروس ويوجد بتونس العاصمة مقام مقدّس لولي شهير من أولياء الله الصالحين اسمه سيدي أحمد بن عروس نسبة إلى أحد أجداده الذي كان يسمّى باسم عروس وعاش أحمد

بنعروس في القرن الخامس عشر ميلادي. ويروي الناس بشأن تسميته بأحمد بن عروس حكاية مضمونها أنّ أباه أو والد جدّه فارق أمّه وهي عروس في ليلتها الأولى وغاب منذ تلك اللحظة ولم يظهر له بعدها أثر فحملت منه وأنجبت ولدا سمّي باسم أحمد بن عروس نسبة إلى أمه التي حملت به وهي عروس وفي حقيقة الحال فإنّ اسم عروس مأخوذ من اسم"أوراس" و"أروس" الذي يفيد معنى الأحمر والأزعر والأصفر والأشقر في اللغة البربرية. ومازال السكان في تونس يسمّون إلى اليوم البصل الأحمر باسم "هروس" كما لاحظنا أنّ السكان في بعض مدن وقرى الجنوب التونسي يسمّون العقرب الصفراء باسم"عروس" فتراهم يردّدون لفظة"عروس" عندما يرون عقربا تسعى.

ونشير كذلك في هذا السياق إلى إطلاق اسم "أوراس" على سلسلة الجبال الموجودة بوسط الجزائر وتسمّى باسم جبال الأوراس.

ويطلق على اللون الأحمر في سياق اللغة البربرية بالأساس اسم "أزواغ" بحيث أنّ لفظة "أزواغ" ولفظة "أوراس" متعادلتان وتتخذ لفظة "أزواغ" أحيانا صيغة "أزواق" وأشرنا في تعاليقنا المتقدّمة إلى أنّ البلاد التونسية وشمال إفريقيا عموما كان يحمل اسم "زواق" في القديم كما يمكن إعتبار اسم "مازيغ" مأخوذا من اسم "أزواغ" بزيادة ميم المصدرية خاصة وأنّ أسماء الألوان تستعمل إسما وصفة.

كما أشرنا إلى أنّ ملك سبأ باليمن الذي حدث في عهده سيل العرم يسمّى باسم مزيقياء وقد سكن في بلاد اليمن في القديم قوم يسمّون باسم حِمْيَرْ, كما أشرنا في بحوثنا النّظرية أنّ أسماء الألوان كانت ترمز في الأصل إلى الانتماء الطبقي والفئوي بحيث أنّ اسم أحمر وحمير وحمر يرمز في الأصل إلى بعض الفئات والأصناف والطبقات البشرية مقارنة ببعض الفئات والأصناف الأخرى

وليس إلى فئة لون بشرتها أحمر أو شعرها أحمر أو أصفر حيث أنّ اسم أحمر يطلق أيضا على نوع من الحيوانات كالحمير والأبقار الوحشية ومن هذا المنطلق يمكن أن نقول بأنّ اللون الأحمر والأصفر والأزعر والأشقر سمّي بهذا الاسم نقلا عن اسم الفئات والأصناف البشرية المذكورة الذين كانوا يصبغون أبدانهم بالأحمر أو شيئا من هذا القبيل تعبيرا عن وضعهم الطبيعي والاجتماعي وعن بعض الصفات والخصال البشرية المميّزة لهم فأطلق اسمهم على اللون الأحمر في صيغة "أحمر" و"إرس" و"أروس" و"أوراس" و"روج" وما شابهها من الكلمات الدّالة على اللون الأحمر والأشقر.

فقد كان الناس في القديم ومازالوا إلى اليوم يصبغون أبدانهم بشتّى الصّبائغ للتمويه والتنكر والتعريف بالهوية أيضا كالوسم والوشم وتحوّلت الصّبائغ في العصر الحاضر إلى وسيلة للزينة والتجميل على غرار الحليّ التي كانت في الأصل وسائل للربط والقيد والعقل فتحوّلت إلى وسائل للزّينة والتجميل.

وسبق أن أشرنا في تحاليلنا السابقة إلى أنّ منطقة شمال إفريقيا كانت أيضا تسمّى في وقت من الأوقات باسم أمون وبلاد أمون على غرار اسم بلاد اليمن في الجزيرة العربية بحيث توجد الكثير من نقاط الالتقاء بين اليمن ومنطقة شمال إفريقيا حتّى أنّ بعض الأخبار القديمة تنقل أنّ قسما من البربر العائشين بمنطقة شمال إفريقيا هم من أصل يمني وشرقي وأنّهم بقايا جيش قديم أتى من الشرق بقيادة ملك يمني اسمه إفريقش بن صيفي وسمّيت تونس باسم إفريقية نسبة إليه.

غير أنّ اسم إفريقية مأخوذ من اسم "أفر" و"أفراق" الذي كان يحمله مجموعة من القبائل البربرية كانت تسكن بالمنطقة المحيطة بقرطاج وممتلكاتها

التونسية ومازال يوجد إلى اليوم بولاية زغوان بالبلاد التونسية على بعد حوالي خمسين كيلومترا جنوب العاصمة تونس مدينة تسمّى باسم فريكسن كما توجد جماعة تونسية بمنطقة القصرين بالوسط الغربي للبلاد التونسية اسمهم فراشيش يقال إنّهم أحفاد جماعة الأفر المذكورين ويمتون بصلة قرابة بقبيلة ماجر البربرية التي تقطن بجهة القصرين.

والملفت للإنتباه أنّ مجموعة من القبائل اسمهم الأفر يقطنون بدولة جيبوتي بالمنطقة الشرقية من القارة الإفريقية المواجهة لبلاد اليمن وهم مجموعتان في حقيقة الحال إحداهما اسمها آفر والأخرى اسمها إساس ونعتبر أنّ هذا الاسم الأخير هو صيغة لفظية لاسم "أشاش" بحيث إنّ جماعة الآفر والأساس كانوا يسمون باسم "أفر أشاش" أو "فراشيش" على غرار جماعة الفراشيش العائشين بمنطقة القصرين بالوسط الغربي بالبلاد التونسية, ومازال يوجد بمنطقة شمال إفريقيا جماعة بربرية يحملون اسم "أشاش" وينطق هذا الاسم في بلدان شمال إفريقيا عادة في صيغة "عشاش" و"أعشاش" على غرار اسم "أروس" الذي ينطق في صيغة "هروس" وفي صيغة "عروس" إلى جانب "أروس" و"أوراس".

فمازال يوجد إلى اليوم بجهة قفصة بالجنوب الغربي للبلاد التونسية موقع يسمّى باسم العشاش كما يوجد فروع لجماعة الأعشاش بمنطقة سوف بجنوب الجزائر.

وفي حقيقة الحال فإنّ اسم أحمر وأوراس وآفر وأفراق وأشاش هي أسماء قديمة جدًا لجماعات بشرية كانت منتشرة في بعض بقاع الأرض حيث أنّ اسم أحمر يفيد في الأصل معنى الإنس والإنسان بالمفهوم الذي شرحناه في بحوثنا النظرية.

فإلى جانب اللون الأحمر المعروف يطلق اسم أحمر في سياق اللغة العربية على الحيوان المسمّى باسم "حمار" ويطلق على الحمار في اللغة الفرنسية اسم "آن" للذكر و"أنس" للأنثى التي تسمى أتان في اللغة العربية في حين يطلق اسم "عانة" في العربية على القطيع من الحمر الوحشية.

فقد كان اسم أحمر يفيد في الأصل معنى الأنس والإنسان.

أسطورة الدّوّاية

يوجد بجبال الطباقة غير بعيد عن مدينة قبلي بالجنوب التونسي انزلاق أرضي كبير كان الناس بالجهة يسمّونه باسم الدّوّاية لأنّه يتراءى للناس أنّ به دويّا وهو عبارة عن شقّ سحيق ليس له قرار وكان الناس يحكون حوله أسطورة مفادها أنّ هذا الانزلاق أو هذا الشقّ حدث إثر رجّة أرضية عنيفة دمّرت حيّا بشريا كان قائما بالمكان فابتلعته الأرض بمن فيه وزال من الوجود لأنّ أهله ظلموا أنفسهم وبغوا وخالفوا الأعراف.

وتحكي هذه الأسطورة بهذا الشأن أنّ حيّا بشريا كبيرا كان قائما مكان الدّوّاية في قديم الزمان وكان يحكمه شيخ له ابن شاب في مقتبل العمر وابنة مثله في مقتبل العمر مشهورة بجمالها.

وكان يوجد بجانب الحيّ عين ماء جارية يشرب منها أهل الحيّ ويسقون غنمهم ودوابهم ومزارعهم وكان للشاب ابن شيخ القرية فرس أصيل فأوردها ذات يوم عين الماء لتشرب فغصّت بشعرة ساقطة في الماء فأخذ الشاب تلك الشعرة فوجد أنّها شعرة إنسان وكانت طويلة فعرف أنّها شعرة إمرأة فأقسم أن يتزوّج بصاحبة تلك الشعرة مهما كانت فإذا بها شعرة من شعر أخته فقرّر أن يتزوجها وأقيمت الأفراح وكان يوجد بالحيّ رجل عجوز من الصالحين وزوجة له عجوز مثله وصالحة مثله فوافق كلّ أفراد الحيّ الشّاب في قراره بالزواج من أخته ماعدا ذلك الشائب وتلك العجوز فإنّهما أنكرا هذا الصنيع وكانت توجد أمام خيمتهما كرمة فكانا يتوجّهان بالخطاب إلى الكرمة كالشاهد لهما ويصرّحان بعدم رضاهما قائلين:" منكر يا كرمة" تبرئة لساحتهما.

وجاء يوم الدّخول وقبل أن يتمكن الشاب وأخته من الاتصال ببعضهما اسودت الدنيا وارتجّت الأرض وانشقت وابتلعت سائر الحيّ بمن فيه إلاّ الرجل العجوز وامرأته فإنّهما نجيا من العذاب وبقيا على قيد الحياة كما بقيت خيمتهما والكرمة التي كانت شاهدا على براءتهما.

تعليق:

وجدنا أنّ السكان في الجزائر يروون مجموعة من القصص الشّبيهة بأسطورة الدّوّاية التونسية بخصوص عين ماء حارة طبيعية تنزل من مرتفع جبلي بجهة قالمة يسمّى باسم حمّام المسخوطين ويطلق اسم حمام في بلدان شمال إفريقيا على كلّ العيون الحارة الطبيعية التي يستعملها الناس للاستحمام والعلاج.

ففي هذا السياق يروي السكان في الجزائر بخصوص حمام المسخوطين أسطورة مضمونها أنّ عشيرة من عرب الحجاز يدعون بنو خليفة كانوا يسكنون في وادي سيبوس وكان لها قائد اسمه قاسم مشهور بالشجاعة والكرم وكانت له أخت رائعة الحسن والجمال اسمها فاطمة فأراد أن يتزوجها وصارحها بعزمه فأنكرت عليه ذلك وساندها قسم من العشيرة بينما وافق معظمهم قائدهم على قراره فمضى في عزمه وأمر بإقامة الأفراح فحارت أخته وتوكّلت على الله وجعلت تقول:" بينما يطيب الثريد يفعل الله ما يريد".

وقبل أن يدخل عليها أخوها أظلم الجوّ وقامت عاصفة هوجاء فارتجّت الأرض واندلعت من باطنها النيران فأحرقت الحيّ بمن فيه وسُخِط القائد قاسم وأتباعه فمسخوا وتحوّلوا إلى أحجار هي الجلاميد الصخرية التي مازالت تحيط إلى اليوم بالحمام المذكور فلأجل ذلك دعاه الناس باسم حمام المسخوطين وصاروا يتجنبونه ويستعيذون بالله كلّما مرّوا بذلك المكان.

وهناك قصّة أخرى حول حمام المسخوطين بالجزائر مضمونها أنّ الموضع كان وكرا لعصابة من الأشرار يرأسهم شاب اسمه حامد كانوا يتعاطون السطو على الناس وجعلوا من الجبل وكرا لهم وأصل القصة أنّ أحد التجار الأغنياء اسمه قدّور تقدّمت به السنّ فلم ينجب أولادا فحجّ وجعل يزور مقامات الأولياء الصالحين وينذر لهم النذور ليرزق بذرية صالحة فصدقت نيته وتحقّقت أمنيته فأنجبت له زوجته توأمين ولدا وبنتا يشبهان بعضهما وكان اسم الولد حامد واسم البنت آمنة وكان الاثنان جميلين فلما كبرا طلب الولد من أبيه أن يسمح له بأن يتزوّج أخته فغضب عليه أبوه وطرده فجمع حامد لفيفا من الأتباع واستعملهم ليسطوَ بهم على الناس والمارّة وجعل من الجبل الذي تقع فيه العين وكرا لعصابته ثمّ إنّه جاء ذات يوم إلى نجع أبيه واتصل بأخته ودعاها إلى

الهروب معه والتزوّج به فقبلت ولمّا علم أبوهما بالأمر دعا عليهما وأقام حامد الأفراح ليدخل على أخته فبينما هم في أكل وشرب غشّت سحب سوداء السماء وقامت عاصفة هوجاء فمسخوا كلهم حجرا وظلّوا على هذه الحال إلى اليوم في شكل الجلاميد الصخرية المحيطة بالحمام.

كما وردت في كتاب "ألف ليلة وليلة" حكاية شبيهة ضمن حكاية الحمال والبنات ومضمونها أنّ أميرا كان يعشق أخته وكانت هي الأخرى تعشقه غير أنّ أباهما منعهما عن بعضهما وفرّق بينهما وكان ملكا على مدينة عظيمة وكان له أخ ملك هو الآخر على مدينة أخرى فقام بزيارته ابن أخيه واتّصل هذا الأخير بالأمير ابن عمّه فجاءه ذات يوم ومعه امرأة ملتحفة وكانت أخته وطلب منه أن يصطحبهما إلى مقبرة المدينة فلمّا وصلوا قصد الأمير قبرا وفتحه وقال لابن عمه إنّه سيدخل هو والمرأة إلى القبر من الفتحة التي فتحها وطلب منه أن يسدّ عليهما ويبني الفتحة ويعيد القبر كما كان ففعل وافتقد الملك ابنه وسأل عنه فأعلمه ابن أخيه بالأمر فذهبا معا إلى القبر وفتحاه فإذا فيه سلّم فنزلا فيه فأوصلهما إلى قاعة فسيحة كانت مفروشة بأحسن المفروشات ومملوءة بالمؤونة وأطلاّ فأبصرا ستارة ومن ورائها سرير فرفعا الستارة فوجدا الأمير والمرأة بجانبه وهما محترقان عبارة عن فحمتين فأخذ الملك يسبّ ابنه والمرأة التي بجانبه ويقول ذلك جزاؤهما وعذاب الآخرة أشدّ وأقوى وابن أخيه يتعجب منه ثمّ إنّه أخبره وذكر له أنّ المرأة هي ابنته وأخت الأمير وأعلمه بأنّهما كانا يعشقان بعضهما منذ الصغر فنهاهما عن صنيعهما ثمّ إنّه فرّق بينهما لكنّ ابنه احتال فبنى تلك القاعة تحت الأرض وجهّزها وملأها بالمؤونة ليختلي فيها بأخته فعاقبهما الله وأحرقهما ثمّ إنّ الملك وابن أخيه خرجا من القبر وأعاداه كما كان.

أسطورة عين تاورغا

كان يوجد بالقرب من مدينة بشّرى بولاية قبلي بمنطقة نفزاوة بالجنوب التونسي عين ماء تدعى باسم عين تاورغا ويروي السكان بشأنها وعن سبب تسميتها بهذا الاسم أسطورة مفادها أنّ هذه العين كانت موجودة منذ القديم فمرّ ذات يوم بالمكان موكب كان يحمل عروسا إلى زوجها في هودج ويسمّى الهودج باسم جحفة في تونس وكان الهودج فوق جمل ويقوده وصيف فقصدوا العين ليشربوا فتقدّم الخادم الوصيف الذي كان يقود الجمل الذي عليه الجحفة من العين وأرخى له العنان ليتمكن من الاقتراب من الماء ويشرب لكنّ الجمل عثر فوقع في العين بهودجه وبداخله العروس فابتلعته العين وغاب في لمح البصر فالتفت جماعة الموكب إلى الوصيف فرأوه مضطربا ولم يروا الجمل فسألوه عنه فقال لهم : "تَوْرَغَى" بمعنى إنّه كان يرغى لتوّه فسمّيت العين منذ ذلك الوقت باسم عين تَاوِرْغَا ويقال إنّ بعض الأهالي وجدوا في المياه المتدفقة من عين جمنة يد عروس مخضبّة بالحنّاء وتوجد مدينة جمنة على بعد عشرين كيلومتر من مدينة بشري.

تعليق:

يروي السكان في جهة قابس بالجنوب التونسي أسطورة شبيهة بشأن عين ماء موجودة بمدينة المطوية بأحواز قابس وتفسّر سبب تسميتها بالمطوية وفيها أنّ أهل الموكب لما سألوا الوصيف عن الجمل والجحفة أجابهم بأنّها طَوَتْهُ بمعنى أنّ العين طوته فسمّيت باسم المطوية لأنّها تطوي.

كما أشار العالم التجاني في وصف رحلته عبر تونس والقطر الطرابلسي إلى عين تاورغا المذكورة وعين ماء أخرى كانت موجودة بمدينة طرّة غير بعيد من بشّري. وكانت مدينة طرّة ومدينة بشّري في ذلك العهد قاعدتي إقليم نفزاوة فكتب عن عين طرّة ما نصه : "وليس في طرّة ما ينظر إليه على الجملة غير العين المعروفة بعين طرّة فإنّ لها بركة ماء متّسعة حسنة المنظر شارحة النفس تدخل إليها البهائم عند الشرب إلى حدّ معلوم لا تتجاوزه وإن تجاوزته غابت في مغايض لا قعر لها ويذكرون أنّ لها كلّ عام رجلا تقتله لا بدّ لها من ذلك وأكثر ما يكون ذلك في الغرباء".

ثمّ كتب عن عين تاورغا ببشرى ما نصه : "ودخلت إلى بشرى فرأيت قرية أضخم من جميع ما قبلها من قرى نفزاوة وبخارجها عين تعرف بعين تاورغا أعظم إتساعا من عين طرّة وأقوى ماء إلاّ أنّ في تلك حسنا ليس في هذه.

وفي حقيقة الحال فإنّ تاورغا هو اسم قبيلة بربرية معروفة وهي قبيلة أوريغة وتعني كلمة "أوريغة" في اللغة البربرية الذهب والذهبي والأصفر بحيث أنّ اسم أوريغة يكاد يعادل اسم "اروس" و"اوراس" و"زواق" و"زواغ" و"مازيغ".

ومازالت توجد في القسم الغربي من القطر الليبي منطقة ومدينة تسمّى باسم تاورغا كما أنّ اسم "توارق" الذي يطلق على بربر المناطق الصحراوية الجنوبية لبلدان شمال إفريقيا هو صيغة لفظية لاسم "تاورغا".

كما تعني كلمة "تاورغا" أيضا بركة الماء وعين الماء والبستان والحديقة والجنة والجنان وتتخذ في هذه الحالة صيغة"تارغا" وهي تعادل من هذه الناحية كلمة"قبلة" التي تعني في سياق اللغة البربرية البستان والحديقة والجنة والغابة والسانية والمزرع وكثيرا ما يطلق اسم"قبلة" و"برّ القبلة" على المناطق

الصحراوية الجنوبية لبلدان شمال إفريقيا من الساقية الحمراء غربا إلى ليبيا شرقا مرورا بالمغرب وموريتانيا والجزائر وتونس.

الهجّالة

يتداول السكان بالجنوب والوسط التونسي أسطورة مضمونها أنّ امرأة من البشر مسخت في القديم وتحولّت إلى نوع من الطيور الصغار يعرف باسم الهجّالة أو غدّاية الذّر لأنّها خانت العهد وفكّت الرّباط الذي يربطها بزوجها.

وصورة القصّة أنّ أميرا تعرّف على امرأة جميلة فعشقها وتزوّجها وأحبّها حبّا كبيرا وكان له أربعة كلاب صيد من نوع السلوقي كان متعلّقا بهم كتعلّقه بزوجته فدعته مهامه ذات يوم إلى الخروج لحرب بعض الأعداء فودّع زوجته ورجاها بكلّ الحبّ الذي يكنّه لها أن تصون عرضه في حياته ومماته وتحافظ على ودّه ولا تخون العهد الذي جمعهما وأوصاها أن تحسن لكلابه وتحرسهم وتظلّ دوما ممسكة بالحبل الذي يربطهم ولا تسيبه أبدا ومات الأمير في تلك الحرب فخانت المرأة العهد وقطعت الحبل الذي يربطها بالكلاب وتزوجت برجل آخر ثمّ إنّها ماتت فالتقت بزوجها الأمير في الجنّة فسألها عن الكلاب ولمّا علم بما صنعت دعا عليها فعادت إلى الحياة في شكل طائر الهجّالة تذرع الصّحاري وتتعقّب الكلاب وتبيت الليل في غيران الجرابيع ويصنّفها بعضهم في نوع من الطّيور الصّحراوية الصّغار يسمّى عند الأهالي باسم غدّاية الذّر بمعنى التي تضيع الذّر والأولاد الصّغار حيث أنّ كلمة"غدّى" تستعمل كفعل في معنى"أضاع" في الجنوب التونسي وهي أيضا طائر صغير ويحكي الناس أنّ هذا الاسم أطلق عليها لأنّها تترك الشخص يقترب منها حتّى يكاد يمسكها فتطير وتحطّ غير بعيد وتظلّ هكذا تموّه عليه حتّى يقطع وراءها مسافة طويلة دون أن يشعر فيضيع إذا كان ولدا صغيرا لأجل ذلك دعيت باسم"غدّاية الذّر" ويقول

النّاس إنّها تعتمد هذا التمويه عندما ترى شخصا اقترب من عشها فتموّه عليه بتلك الطريقة كي لا يهتدي إليه.

ويجعل البعض مسرح هذه الأسطورة في الجنوب التونسي ويقولون إنّ الرجل الذي عشق المرأة وتزوّجها هو فارس من قبيلة ورغمّة بالجنوب التونسي.

تعليق:

تداولت مختلف الشعوب الإنسانية منذ القديم الكثير من الأساطير التي تتحدّث عن عودة الحياة إلى الأموات ورجوع البعض منهم فوق الأرض إلى عالم الأحياء لإتمام قدرهم واشتهر منهم ثلاثة هم الإله البابليّ تموز والمعبود الكنعاني أدونيس ومعبودة يونانية اسمها برسفونا ويشترك هؤلاء الثلاثة في أنّ عودتهم إلى الحياة موسميّة حيث كان يتعيّن عليهم العيش ستّة أشهر في عالم الموتى تحت الأرض وستّة أشهر فوقها في عالم الأحياء بالتّداول إرضاء لملك الموتى من جهة ولأحبّائهم الأحياء من جهة أخرى.

ففي هذا السياق كان اليونانيون القدماء يروون أنّ برسفونا كانت ابنة الربّة ديمتير ربّة الأرض فرآها ذات يوم ملك الموتى الإله هادس فعشقها واختطفها وكان عمّها أخ أمّها ونزل بها إلى عالمه السّفليّ وجعل منها زوجته غير أنّ أمّها إفتقدتها ولمّا علمت بأمر اختطافها اشتكت ملك الموت إلى أخيه وأخيها الإله زوس عظيم الآلهة عند اليونانيين القدماء ففكّر في طريقة ترضي جميع الأطراف فاقترح أن تعيش برسفونا ستّة أشهر مع ملك الموت تحت الأرض وستّة أشهر مع أمّها فوق الأرض.

كما أنّ أدونيس الذي كان معبودا يحظى بالتعظيم عند الكنعانيين وشعوب البحر المتوسّط الشّرقيّة عموما كان في بداية أمره شابّا ذا جمال فتّان فرأته

أفروديت ربّة الجمال فعشقته وجعلت منه خليلها وأحبّته حبّا عظيما فهجم عليه ذات يوم خنزير وحشيّ وقتله فحزنت عليه أفروديت وتوسّلت إلى الإله زوس ليعيده إلى الحياة فأعاده إلى الحياة وسمح له أن يعيش قسما من السنة فوق الأرض مع أفروديت وأن يقضي القسم الآخر في عالم الموتى مع برسفونا.

أمّا في ما يتعلّق بالمعنى العام لهذه الأساطير فيمكن القول بأنّها أخبار تاريخيّة قديمة تروي وتنقل الظروف التي أفضت إلى ظهور الأسر والجماعات البشرية التي تتركّب من مجموعة من الذكور يتقاسمون زوجة واحدة أو من زوج وعدّة نساء يقمن في أماكن مختلفة.

فقد أشرنا إلى أنّ هذه الأنظمة الأسريّة ظلّت قائمة إلى عهد قريب في آسيا الوسطى وتحوي الخرافات الشعبية التي يتداولها السكان في تونس الكثير من الإشارات في هذا المعنى على غرار الخرافة التي تتحدّث عن فتاة يطردها أهلها فتجد كوخا يعيش فيه سبعة إخوة شبان ذكور فتنظمّ إليهم وتعيش معهم وتشير بعض الخرافات إلى أنّ البنت هي أخت الشبان السبعة وجرت العادة في مثل هذه الحالات أن يعلم الإخوة بعضهم بإختلائهم بالزوجة المشتركة ببعض العلامات الخاصة كوضع النعل أو رداء أمام الخيمة.

وذكر المؤرخون اليونانيون القدماء أنّ عادات من هذا القبيل كانت سارية عند سكان شمال إفريقيا في القديم ويسمّونهم باسم الليبيين واللوبيّون مشيرين إلى أنّ النساء كنّ مشتركات بين الرّجال عند الليبيين أو اللوبيين بحيث أنّ المرأة كانت تنام مع أيّ رجل بدون تمييز فكان الرجل الذي ينام معها يضع شيئا أمام الخيمة لإعلام الآخرين باختلائه بها فكانت الاتصالات الجنسية حرّة حتّى أنّ المرأة كانت تتفاخر بعدد الرجال الذين واقعوها فكانت تضع خلخالا من سيور الجلد حول قدمها كلما عاشرها رجل.

وجاءت إشارة في هذا المعنى في مدخل كتاب"ألف ليلة وليلة" حيث أنّ الملك شهريار,بطل القصة, يقرّر اعتزال الحكم والسّياحة في البلدان بعد أن يتفطّن إلى خيانة زوجته له مع عبد أسود فيخرج من مدينته صحبة أخيه الذي إصطدم هو الآخر بخيانة زوجته له فيلتقيان في طريقهما بصبيّة حسنة المنظر قد إختطفها عفريت من الجنّ ووضعها في صندوق ليمنعها من الاتصال بالآخرين فكان يخرجها من الصندوق في بعض الأوقات فيتمتّع بها ثمّ يعيدها إلى الصندوق غير أنّ الصبيّة كانت تغتنم نوم العفريت فتتّصل جنسيا بكلّ من يعترض سبيلها من الرّجال وتأخذ خاتم كلّ رجل تواقعه حتّى حصل لها سبحة طويلة من الخواتم فأجبرت الملك شهريار وأخاه على مواقعتها عندما نام العفريت وهدّدتهما إن امتنعا أن تفيق العفريت فيهلكهما فاستجابا لطلبها وأعطياها خاتميهما وأمام هذا الموقف قرّر الملك شهريار العودة إلى مملكته وأخذ صبيّة من الصبايا كلّ ليلة غصبا وقتلها في الصباح حتّى جاء الدور على شهرزاد ابنة وزيره فاحتالت عليه وأغرته بجملة من الحكايات الطريفة وجعلته يقلع عن فكرته.

وترمز قصّة الملك شهريار إلى العادات والأعراف القديمة التي كانت تبيح للسيّد والملك والأمير إفتضاض بكارة كلّ عروس تهدى إلى زوجها كما كانت سارية في القديم في اليمن بجنوب الجزيرة العربية وفي عهد الإقطاعات بأوروبا في القرون الوسطى ويرجع أصلها الطبيعي إلى نظام تعدّد الزوجات والإناث التابعات لذكر واحد داخل الجماعة البشرية في العهود الأولى من التاريخ الإنساني حيث كان الذكر القوي والفحل يجمع تحت قيادته ولفائدته الخاصة عددا من النساء والإناث وكان يحتفظ ببناته لنفسه ما دام قويّا إلى أن تغيّرت الأحوال وأصبح رئيس الأسرة يتنازل عن بعض الإناث التّابعات له

مقابل بعض الهدايا والعطايا وغيرها من المرافق والخدمات التي يسديها الشّبان الذّكور له مقابل تمكينهم من بعض الإناث التّابعات له.

أساطير حول أصل بعض المدن التونسية

يتداول الأهالي في مدينة صفاقس, ثاني كبريات المدن التونسية بعد العاصمة تونس, العديد من الأساطير والحكايات حول أصل مدينة صفاقس وسبب تسميتها بهذا الإسم.

ففي هذا السياق جمعنا أسطورة مضمونها أنّ الذي أسّس مدينة صفاقس أمير غريب عن المكان قدم في ظروف قاهرة إلى الموضع التي تقوم عليه اليوم مدينة صفاقس فوجد في الموضع قوما قد تملّكوه وسكنوه منذ القديم وكان معه مملوك أو خادم إسمه صفا فطلب الجوار من أصحاب الأرض فرفضوا ودعوه إلى الرّحيل فاستعطفهم ليتنازلوا له من أرضهم قدر ما يسعه جلد ثور فتنازلوا له عن طلبه فأخذ ثورا وذبحه ثمّ سلخه وأخذ جلده فقطّعه بمساعدة مملوكه صفا إلى عدد كبير من السّيور والقطع الصّغيرة وضمّ تلك السّيور والقطع الجلدية إلى بعضها بالطول فحصل له حبل طويل أحاط به قطعة كبيرة من الأرض وحازها وتملّك بها وبنى فوقها مدينة فكان الأمير أثناء عمليّة قطع الجلد يمسك بالجلد في حين كان خادمه صفا هو الذي يتولّى عمليّة القصّ فكان الأمير يمسك في كلّ مرّة بطرف الجلد ويخاطب خادمه ويقول له:"يا صفا قصّ". بمعنى يا صفا اقطع فيقصّ صفا القطعة المشار إليها حتّى انتهيا من العمليّة فسمّيت المدينة الجديدة باسم صفاقس تخليدا للحادثة.

وهناك أسطورة أخرى بهذا الشأن مضمونها أنّ الذي أسّس مدينة صفاقس هو ابن سلطان تبسّة بالجزائر وصورة الخبر أنّ سلطان مدينة تبسّة

أطرد ابنه وقال له : "سفاهي". بمعنى إذهب فخرج الابن وتشرّد في البلدان إلى أن وصل إلى الموضع الذي تقوم عليه الآن مدينة صفاقس فاستطابه فأقام فيه ثمّ إنّه بنى عليه مدينة وسمّاها باسم سفا تخليدا لحادثة طرده.

وتذكر أسطورة ثالثة أنّ مدينة صفاقس كانت قديما تابعة لمملكة المحرس القريبة منها فتقلّد أمرها حاكم اسمه صفا فرأى أنّها غير محصّنة فأراد تحصينها وتسويرها بسور يحميها فذهب إلى ملك المحرس الذي يتبعه وعرض عليه المشروع ورسم مثال الحصن على جلد ثور ثمّ قصّه فسمّيت مدينة صفاقس بهذا الاسم.

وفي حقيقة الحال فإنّ اسم "صفاقس" يعني الساقية والواد ومسيل الماء وهو مأخوذ من كلمة"أسفى" التي مازالت تستعمل إلى اليوم في البربرية في معنى الواد والساقية ويوجد بالقرب من مدينة صفاقس بلدة تسمّى ساقية الزّيت ثمّ إنّ اسم"أسفي" منتشر في شمال إفريقيا وتحمله الكثير من المواقع والمدن وكان يوجد بالقرب من العاصمة تونس موقع يسمّى باسم "أسفي". غير أنّ المعنى الأصلي لاسم"أسفي" هو السيّد والقائد والأمير حيث أنّه يتّخذ صيغة"شاف" وتطلق لفظة"شاف" على الرئيس في الفرنسية وكان يوجد في القديم ملك بربري اسمه صفاقس كما يتّخذ صيغة"سيف" وهو يطلق في العربية على نوع معروف من الأسلحة التقليدية في حين تطلق لفظة "إشفة" في تونس على إبرة طويلة تستعمل في صناعة الجلد وتطلق أيضا كلمة "صفاقس" في بعض اللهجات البربرية على الحزام المصنوع من الجلد وغيره وقد أشرنا إلى العلاقة الوطيدة بين وظيفة القيادة واستعمال الحبال وما شابهها كالحزام.

ومن حيث المحتوى العام تشبه الأسطورة الأولى المتعلقة بتأسيس مدينة صفاقس من طرف الأمير الغريب ومملوكه صفا الأسطورة المتعلّقة بتأسيس

مدينة قرطاج على البحر الأبيض المتوسط بالقرب من مدينة تونس العاصمة والتي تناقلتها الكتب التاريخية والأدبية منذ القديم ومضمونها أنّ تأسيس مدينة قرطاج تمّ بفضل أميرة غريبة عن المكان قدمت على رأس كوكبة من الأتباع والعذارى إلى حيث تقوم اليوم مدينة قرطاج فوجدت قوما قد تملّكوه قبلها وسكنوا فيه فطلبت الجوار فرفضوا ودعوها إلى الرّحيل فاستجدتهم ليعطوها قدر ما يسعه جلد ثور من الأرض فقبلوا فأخذت جلد ثور وقطّعته إلى قطع صغيرة وسيور وضمّت تلك السّيور الجلديّة إلى بعضها فحصل لها حبل طويل فأحاطت به قطعة من الأرض وأقامت فيها وهي الهضبة التي تسمّى اليوم بهضبة بيرصة التابعة لمدينة قرطاج وتشرف على خليج تونس.

ويذكر المؤرخون الذين إعتمدوا هذه الأسطورة في أخبارهم عن تأسيس مدينة قرطاج أنّ الأميرة المذكورة قدمت من الشرق من مدينة صور بلبنان وكان اسمها عليسة أو أليسة بينما كان القوم الذين نزلت بجوارهم بتونس جماعة من البربر فأطلقوا عليها وعلى أتباعها اسم"ددّن" بمعنى الرّحالة في اللغة البربرية.

كما يحكي الأهالي بمدينة الدّويرات بولاية تطاوين بالجنوب الشرقي للبلاد التونسية أسطورة شبيهة بخصوص تأسيس هذه المدينة مضمونها أنّ الذي أسّس مدينة الدّويرات رجل غريب عن المكان اسمه غازي بن ذويب بن كنانة قدم إلى الجهة من مدينة تافلالّت بالمغرب الأقصى فوجد بها جماعة من عرب بني معقل فتزوّج منهم وطلب منهم أن يعطوه قدر ما يسع جلد جمل من الأرض ليسكن فيه فقبلوا فصنع مثلما صنع مؤسّس مدينة صفاقس ومثلما صنعت مؤسّسة مدينة قرطاج فحصل له قطعة كبيرة من الأرض أقام بها وبنى فوقها مدينة الدويرات.

وسبق أن أشرنا في بحوثنا النظرية إلى أنّ جماعة الرّقيبات سكّان منطقة الساقية الحمراء جنوب المغرب الأقصى يحكون أنّ جدّهم الأوّل الوليّ الصالح سيدي أحمد الرّقيبي الذي ينتسبون إليه اشترى الساقية الحمراء بملء جلد رقبة بعير ذهبا فلذلك سمّوا بالرّقيبات أو أولاد الرّقيبة بمعنى الرّقبة الصّغيرة.

أمّا عن المعنى الحقيقي لهذه الأساطير والحكايات فنحن نعتبر أنّها أخبار تاريخيّة قديمة تنقل الظّروف التي أفضت إلى تأسيس بعض الأسر الإنسانية القديمة على غرار كلّ الأساطير والخرافات الشعبية.

فقد لاحظنا أنّ القطعة من الأرض تسمّى باسم "رقعة" في سياق اللغة العربية فيقال في سياق اللغة العربية "رقعة من الأرض" بمعنى قطعة من الأرض وتطلق كلمة"رقعة" في تونس وفي الجنوب التونسي بالأساس على جلد من الجلود كان قديما يستعمل في رحي الحبوب وتتمثّل الرقعة في جلد من جلود الماعز أو الضان توضع فوقه الرّحى الحجريّة عند رحي الحبوب فكان بكلّ دار رقعة ورحى حجريّة فإذا أرادت ربّة البيت أن تجهّز الفطور أو العشاء تأخذ نصيبا من القمح أو الشعير فتنقّيه من الحصى ثمّ إنّها تأتي بالرّقعة والرّحى فتفرش الرّقعة على الأرض على ظاهرها وتضع فوقها الرّحى الحجرية ثمّ ترحي قمحها أو شعيرها فينزل الحبّ المرحيّ على الرّقعة وبعد ذلك تأخذ المرأة الحبّ المرحيّ وتغربله وتنخله فتضع النّخالة على جهة والدّقيق على جهة وتصنع طعامها من الدّقيق.

وعلى هذا الأساس فإنّ الجلد في الأساطير المذكورة يفيد معنى القطعة كما يفيد معنى الأسرة ومعنى البيت والخيمة باعتبار أنّ الرّحى والرّقعة من مقوّمات الأسرة كما أنّ البيت أو الخيمة تصنع من الجلود ثمّ إنّ كلمة "جلد" تفيد أيضا في اللغة البربرية معنى الأمير والملك وذكرنا أنّ العريس يسمّى باسم

سلطان أثناء أيام العرس كما تسمّى العروس باسم السلطانة بحيث أنّ المرأة والرجل كانا يسمّيان ملكة وملك قديما عندما يتزوّجان فكان تأسيس كلّ أسرة جديدة يعتبر تأسيسا لمملكة جديدة حيث مازال الناس في تونس يطلقون إلى اليوم اسم "عرش" على الأسرة والعائلة وتستعمل كلمة "عرش" في العربية في معنى الملك وسرير الملك. كما أنّ كلمة "سير" التي تستعمل في العربية في معنى السّير الرّفيع من الجلد مثلا تفيد معنى الملك في بعض اللغات الإنسانية كالفرنسية والانقليزية بحيث أنّ كلمة "جلد " وكلمة "سير" متعادلتان ثم إنّ كلمة "سير" وكلمة "أسرة" مشتقتان من جذر واحد, وعلى هذا الأساس فإنّ الأساطير المتعلقة بتأسيس مدينة صفاقس وتأسيس مدينة قرطاج ومدينة الدويرات والقصص الشبيهة بها هي في الأصل أخبار تاريخية تتعلّق بتأسيس بعض الأسر والأحياء البشريّة القديمة.

المحتوى



I.S.B.N : 978-9973-61-753-8

الثمن :15.000 د.ت

